رحلة مصر والسودان

تأليف

مترجم اللغة العربية والفارسية

بقلم الترجمة بديوان الخارجية في الباب العالي وقنصل بولاية (خوى) سابقاً

محمد مهرى

كركوكي

مطبعة الهلال بالفجالة بمصر
سنة ١٣٣٢ هـ — ١٩١٤ م

الافادة

وما عدا ما هو مندرج في مقدمة هذا الكتاب من شرح السياحة إلتي قمت بها بنفسي وما بينته من مبدإ فتح الاسلام لمصر وذكر اسماء واعمال الخلفاء والسلاطين الذين حكموا مصر وما صار في زمانهم بالايجاز . ونبذة في احوال قدماء المصريين والفراعنة وبيان البلاد وآثارها القديمة وكافة ما يهم البحث فيه من يوم اشرق نور نبينا محمد (عليه السلام) على الآفاق الى يومنا هذا .

واكثر ما يهم البحث فيه هو القطر المصري وملحقاته الطبيعية والتاريخية بجميع تفصيلاتها ومما يتعلق بافريقية وما تحتوي عليه واراضيها المتسعة واحوالها الصناعية والتجارية والسياسية. والتاريخية والزراعية والادارية والجنسية والدينية . وبيان منبع النيل وطريق جريانه من البداية الى النهاية وما قام به دولة الامير يوسف كمال باشا في سياحته بالسودان من صيد السباع والنمور والافيال والخرتيت والجاموس البحري المعروف عندهم باسم (كرينتي) والجاموس البري الوحشي وغيرها من الوحوش وطريق صيدها وبعض صورها وكذا الابنية والآثار القديمة كلها مصورة احسن تصوير

« مأخذ هذه الرحلة »

قرأت المؤلفات التي اخذت عنها رحلتي بضعة ستة وعشرين وهاك جدولا فيه اسماء اشهر المؤلفات العربية والتركية والفارسية والافرنجية التي استعنت بها في تأليف هذا الكتاب

انه في عهد حكومة فريدريك الرابع سنة ١٨٤٢ ميلادية تشكلت جمعية علمية تحت رئاسة الدكتور « ريتشار دلبسيوس » الالماني وارسلت الى افريقية فد سفرته الى ما وراء سنار . ثم سياحات الذين دخلوا افريقيــة وهم مانغوبارمه وغرانت ودنهم وفلابرتن ولونفستين والدكتور شيونيقوورت الذي تجول مدة مديدة بافريقية الوسطى سنة ١٨٦٨ ومن سياحة الرحالة الالماني المشهور « لابوردخارت » سنة ١٨١٤ ومن سياحة الرحالة الفرنساوي الموسيو « كابو » سنة ١٨٢١ ومن سياحة الرحالة الشهير الموسيو « بورث » ومن تاريخ « هيرودوتس » من مشاهير مؤرخي اليونان

تاريخ مصر القديم
« ابن خلدون
« السودان لنعوم بك شقير
« مصر الحديث لحضرة العالم الفاضل جرجي بك زيدان
تاريخ ابي الفداء . للملك المؤيد عماد الدين اسماعيل
تاريخ العرب قبل الاسلام
« عبد اللطيف البغدادي
« العقد الثمين
خطط المقريزي
وفيات الاعيان لابن خلكان
مصر للمصريين لسليم خليل نقاش
تاج التواريخ

انهار التواريخ
حسن المحاضرة في اخبار مصر والقاهرة لجلال الدين السيوطي
تاريخ ابن الاثير
خلاصة التواريخ
دائرة المعارف للمعلم بطرس البستاني
الخطط التوفيقية الجديدة لمصر القاهرة لعلي باشا مبارك
الهلال والصليب بالتركي لخليل خالد بك
تاريخ شهنامه باللغة الفارسية لابى القاسم فردوس طوسي
تاريخ روضة الصفا باللغة الفارسية
التاريخ العمومي بالتركي لاحمد رفيق
افريقا دليلي « لمحسن بك

المقدمة

لما اشرقت شمس الدستور وانارت جميع رعايا الدولة العلية العثمانية انتهزت هذه الفرصة في ظل هذه الشجرة المباركة بتأليف هذه الرحلة باللغة التركية وسميتها «سودان سياحتنامه سي» وترجمتها الى العربية وزدت عليها كثيراً من المباحث وسميتها «رحلة مصر والسودان» ولحد الان لم يسافر احداً من العثمانيين الى بلاد السودان وكتب عنها كتاباً كما كتبت ولهذا يمكنني ان اقول اني اول من كتب من العثمانيين رحلته عما شاهدناه في سياحة . لان هؤلاء ترجموها من سياحات الاوربيين الذين تجولوا في هذه الاراضي الواسعة . واما سياحة الاوربيين ليست لفائدتنا بل لفائدة بلادهم وابناء وطنهم وعليه فتكون فائدتنا منها مفقوده

هذا بناء على ان الحالة الاستبدادية السابقة كانت تمنع التوسع في افكار اصحاب الاقلام وارباب المعارف وكانت محصورة في دائرة محدودة . ولهذا السبب صار الغرض المقصود من السياحة غير موجود وفضلا عما تقدم فان الغربيين من جميع طبقاتهم ومن كل نوع من اصحاب الافكار العالية يعرفون اهل بلادهم وجميع نقط ممالكهم وهذا هو الغرض من سياحتهم لان اغلبهم يسعون وراء الامل في منفعة بلادهم وحكوماتهم خاصة

وغاية املهم وجهدهم في السياحة والمشاهدات هو تبليغها لاهل وطنهم وهذه الغربة والجهد والسعي لبقاء الذكر الحسن لخلفهم . على انني مضطر مع الاسف الى ان ابين لكم اننا نحن الشرقيين لسنا فقط مهملين البحث عن البلاد البعيدة المتوحشة الخطرة لبيان مواقعها واراضيها وخيراتها واخلاق اهاليها كما يفعل الغربيون بل اننا مهملون ايضاً معرفة بلادنا المعمورة التي نسكنها وننتفع من خيراتها فلا نبين لسكانها بلسان حر الفائدة التي تعود عليهم من بلادهم وهي لا تقاس بغيرها من بلاد السودان التي يرحل اليها الاجانب ويخاطرون بحياتهم لاقتطاف ثمراتها واني وان كنت لا انكر فضل اخواننا في معارفهم وتآليفهم بالسياحات التي بنيتها أرى ان كثيراً من هؤلاء الافاضل اخذوها نقلا عن سياحة الغربيين بغير ان يتحركوا من مكانهم وهذا ينا قض ما قيل «ليس الخبر كالعيان»

وحاصل الكلام ان الشيء الذي كنا نراه في عصرنا هذا ذو اهمية عظمى . فانه بواسطة العلوم والفنون والمعارف تحصل الغربيون منه على فائدة كبيرة . فمن ساح في

البلاد السودانية يرى هذه الاراضي الواسعة ويشاهد اموراً عديدة من معيشة القبائل المتوحشة وغرائب حركاتهم وقابليتهم او عدم قابليتهم للمدنية وما بهذا الاقليم الجسيم من الحيوانات الوحشية وكيفية صيدها والماء الزلال المتدفق من النيل المبارك الذي هو حياة السودان منذ الوف من السنين بتوالي فيضانه فتنمو به الاشجار الجسيمة العالية المختلفة الانواع وفوق اغصانها اللطيفة تترنم الطيور التي تمتاز عن غيرها من طيور الاقاليم الحارة باشكالها والوانها وحسن منظرها . وجودة تربتها ورونق ازهارها التي تنبت في الصحارى والغابات السودانية الواسعة وهذه تستلزم مدة من الزمن لكي يحقق علماء الطبيعة من خواصها وفائدتها . فالشاعر يطرب وجداً من رؤيتها والتاجر يفكر في استثمارها والربح منها . فان السيدة الغربية تنفق مبلغاً من مالها للحصول على ريشة منها تزين بها قبعتها . وفضلا عن اجتلائهم لهذه المحاسن يرحل اهل الغرب اليها لمشاهدة هذا الجنس الوحشي ودرس اخلاقه ولمعرفة اصل عنصره وتدين ما شاهدوه خدمة لاخوانهم . ولا شبهة في ان ابناء العثمانيين سيماثلون الاوربيين في خدمة ابناء جنسهم ومحبة وطنهم ليتموا ما عليهم من الواجب فضلا عما ينالونه من الفخر الخالد . كما قال الشاعر

تغرب عن الاوطان في طلب العلى   وسافر ففي الاسفار خمس فوائد
فتفريج همّ واكتساب معيشة   وعلم وآداب وصحبة ماجد

اني كنت اتشوق من زمن مديد الى السياحة في بلاد السودان والاقتداء بالغربيين . فتم لي في ٦ شهر محرم سنة ١٣٢٧ للهجرة الموافق ٢٧ يناير ١٩٠٩ ميلادية الشروع في هذا السفر من مصر الى تلك الارجاء لمعرفة احوالها العمومية والتاريخية والعلم بمنبع ثروتها الطبيعية

وشرعت بتوفيق الله وعنايته الصمدانية في تحرير وتنظيم هـذه الرحلة وطبعها وتجاريت على نشرها لاقدمها لابناء وطني العزيز . وليس الغرض من تفصيل وتطويل هذه المقدمة الادعاء بكمالها ولا الغرور بنفسي بل تشويقاً وترغيباً لابناء وطني بعمل مثل هذه السياحة خدمة لبلادنا ومنفعتها العظمى حتى لا يخشون المخاطر بل يقدمون انفسهم في اتباع ميدان السياحة واتمنى ان شبان الوطن وخياره يوسعون هذه الطريق . واتصمم ان في عصرنا هذا الذي هو عصر الدستور والحرية والترقى نصل انشاء الله الى هذا العرض وتتجلى لنا في مرآة الكائنات

محمد بك مهري



پرنس يوسف كمال

S. A. le Prince Youssouf Kamal

البرنس يوسف باشا كمال

« من قبيل التحدث بالنعم »

مما ذكرته على الديار المصرية وذكر احوال السودان التاريخية واثارها القديمة التي اقتبستها في كتابة رحلتي يتضمن قسما من هذه الخطة الواسعة التي عاينتها هذه الرحلة

وقد اجريت هذه السياحة بمعية صاحب الدولة الامير الافخم يوسف كمال باشا نجل المرحوم احمد باشا كمال غفر الله وغمره برحمته وجعل مأواه الجنة قلت فيه ابيات باللغة التركية

(١) طى ايلدم او امير جليل شان ايله‌مه وسال
انهار وبحر وبرّ، بلاد وتلال وجبال

(٢) كه شهر لوندره نك قصر كاه پرریاضنده
سيرايلرايدم هريانه شادان وخوش احوال

(٣) اول شهر پرشكوه وعظيم بى همتا نهك
هربر بناسى بر جبل شاهقه همال

(٤) كه شهر دلكشا وفرح افزاى (پارس) ده
دلشاد وغصه دن آزاد وفارغ بال

(٥) كلزار (شانزليزه) و (بادبلون) فردوس آساده
آسوده سركزردم سوبوسرور وفرخ فال

(٦) كه صحن وادي محلفا وغاب پروحوش سودانده
صحرا نورد ايدم اوكر مكاريله نهار وليال

(٧) تخليص جان ايده مز صيدكاهده اندن
ببرو پلنك وكركدن وفيل وشير وغزال

(٨) وصفنده لايق واحرادر دينلسه اكا
شير عرين ويوسف اقليم مصر كمال

(٩) كورسيدي روز نبرد صولت شيرانه سن اكر
انكشت بردهان قالور ايدي رستم زال

(١٠) عقل وكمال وفهم وفراستده فائق الاقران
لطف وسخاء وشجاعتده بى عديل ومثال

(١١) داملر مداد يرنده، خامه سنده بر شاعر
ايتسه رياض حسن خلقني در خاطر وخيال
(١٢) وصف كمال وعلو همت وخلق جميلنده
زبان خامه شكسته لسان ناطقه لال
(١٣) حق ايلسون او امير دلير شير شكارك
عمرين قزون ودولت اقبالن بى زوال

(١) صحبت دولة المشار اليه سنين واشهراً . في البلاد والبحار والانهار والتلال والجبال والصحاري

(٢) تارة بمدينة (لوندره) عاصمة انكلترا . فكنت أُمتع نظري بمشاهدة قصورها ورياضها بكل انشراح وسرور

(٣) وهذه المدينة ذات ابهة وعظمة لا مثال لها . ترى ابنيتها راسخه كالجبال الشاهقة

(٤) وتارة : في مدينة (باريس) عاصمة فرنسا . التي تشرح القلب وتسر الناظر فكنت فيها خالياً من غم وهم

(٥) وكنت اتجوّل بفكر رائق وسرور فائق في حديقة (شانزليزه) ومنتزه « بواد بلون » كأنهما جنة الفردوس على وجه الثرى

(٦) وتارة — في وادي حلفاء وغابات السودان المملوءة بالمخلوقات المتوحشة والحيوانات المفترسة مع هذا البطل الهمام في صحرائها ليلاً ونهاراً

(٧) فرأيته في ميدان الصيد لا تخلص منه روح اسد ولا نمر ولا خرتيت (واحد القرن) ولا فيل ولا غزال

(٨) ولا ابالغ في وصفه اذا قلت انه ضيغم شجاع او يوسف اقليم مصر الكمال

(٩) لو رآه (رستم بن زال) البهادر الشهير في صولة الاسدية لعض انامله عجباً من شجاعته في ميدان الصيد والنزال .

(١٠) وهو في العقل والكمال والفهم والفراسة فائق الاقران وليس له نظير في الكرم والاحسان

(١١) لو مر بمخيلة شاعر رياض حسن خلقه يقطر بدل المداد ماء الوردمن قلمه

(١٢) في وصف كماله وعلو همته وكرم إخلاقه يعجز القلم واللسان

(١٣) واتمنى من الحق عز وجل ان يطيل عمر هذا الامير الجليل وان يعيش بكمال العز والدولة والاقبال



« البرنس احمد كمال باشا »

اى واه كيم احمد كمال ، باشاى ممدوح الخصال
دستى يم احسان ايدى ، برسرور ذيشان ايدى
اينسه اكر روح روان ، برج مشيد ده مكان
كلدى بر هاتف سويلدى تاريخ جوهر داريى

تاريخ وفاته باللغة التركية

دار بقايه ارتحال ايتدى او ذات محترم
باى وكدا يكسان ايدى نزدنده اول صاحب كرم
ممكن دكل تخليص جان ، دست اجلدن لا جرم
احمد كمال پاشايه مولى ، مأوا ايده باغ ارم

١٣٢٥

في ٦ محرم سنة ١٣٢٨ هجرية الموافق ٢٨ يناير سنة ١٩٠٩ ميلادية قمنا بمعية دولة الامير المشار اليه من محطة مصر قاصدين السودان :



محطة مصر

مر القطار في وسط طريق بولاق وحين وصولنا تجاه الجيزة نظرت جهة الاهرام المشيد الاركان وجهة مصر القديمة وخرابات سقاره وجهة المقطم وبمجرد وقوع نظري على هذه الآثار تذكرت قدماء المصريين من الفراعنة وعظمتهم وسلطتهم وقصورهم الشاخة وادعائهم الالوهية وهم اليوم تحت الثرى

ولما عنت لي هذه الآثار تذكرت ما حدث عليها من الانقلابات العظيمة والوقائع الالهمة التاريخية في مدة تزيد عن الخمسة آلاف سنة فمرت على فكري بسرعة البرق من الحكم والعبر فجرى لساني بهذا البيت باللغة الفارسية

چشم عبرت بر گشا وطاق كسرى را ببين   پرده دارش عنكبوت جغد نوبت زن بود

« ترجمته »

انتبه بنظر العبرة اين هي قبة قصر كسرى اصبح اليوم (بوم) فيها يصدغ بنوبة والعنكبوت ينسج ويرفع الستار

فكان لساني يكرر هذا البيت بغير ارادتي وصار شعوري وفكري ونظري في حيرة من حقيقة سر حياة الامم وخلقتها

وبعد ظهر اليوم الثاني من سياحتنا هذه وصلنا الى مدينة (اسوان) فنزلنا من القطار ودخلنا مدينتها مع دولة الامير المشار اليه وبعدما شاهدنا فيها من آثار الفراعنة وما احتوته من الابنية والآثار القديمة وغيرها ركبنا قطاراً آخر أوصلنا الى الشلال الاول قبل غروب الشمس بنصف ساعة ومن هنا تركنا السكة الحديدية وركبنا في وابور من شركة (كوك)

فلنترك الوابور يتبع سيره ولنرجع الى ذكر ما فاتنا من وقت خروجنا من مصر الى اسوان . راجين من قرائنا الكرام ان يسمحوا لنا ببيان ما فيها من المباني والآثار القديمة واحدة بعد واحدة فنقول :

أولاً — مدينة القاهرة من تاريخ بداية فتح الاسلام الى ان حكم مصر الخلفاء والسلاطين والحكام ثم الاهرام وكيفية اكتشاف منابع النيل وفروعه والبرك الشهيرة والنيل الكبير المتكون من اجتماع النيل الازرق والابيض وسرعة جريانه ودرجة اتساعه وفيضانه وجزائره وشلالاته ومقاييسه وايضاً بيان مديرية الجيزة والفيوم والمنيا واسيوط وجرجا وقنا واسوان



محمد مهري

Mohamed Mihri Bey

امضي وتبقى صورتي فتعجبوا — تمضي الحقائق والرسوم تقيم

والموت تجلبه الحياة فلو حوى — روحاً لمات الهيكل المرسوم

﴿ البحث عن مدينة القاهرة من تاريخ بداية الاسلام ﴾
(والذين حكموا مصر من الخلفاء والسلاطين والحكام)

هي المعروفة بمصر والقاهرة وتسمى ايضاً ام الدنيا وذات الاهرام وهي واقعة في الشمال الشرقي من افريقية ومتصلة باسيا الشمال الشرقي

وكان وادي مصر يسمى قديماً باللغة اليونانية «أكوبتوس» ويظهر ان هذا الاسم يشابه لغة القبط القديمة . وهو مأخوذ عن العبرانيين الذين كانوا يسمونها «مصرايم» ولم يعلم لنا وجه تسميتها بهذا الاسم عند الاسرائيليين

﴿ ذكر اخبار ابا بكر الصديق وخلافته ﴾
رضي الله عنه

لما قبض الله نبيه قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه من قال ان رسول الله صلى الله عليه وسلم مات علوت رأسه بسيفي هذا وانما ارتفع الى السماء فقرأ ابو بكر . وما محمد الا رسول قد خلت من قبله الرسل أفان مات أو قتل انقلبتم على اعقابكم . فرجع القوم الى قوله وبادروا سقيفة بني ساعدة فبايع عمر أبا بكر رضي الله عنهما وانثال الناس عليه يبايعونه في العشر الاوسط من ربيع الاول سنة احدى عشرة خلا جماعة من بني هاشم وهم الزبير وعتبة بن أبي لهب وخالد بن العاص والمقداد بن عمرو وسلمان الفارسي وأبي ذر وعمار بن ياسر والبراء بن عازب وابيّ بن كعب ومالوا مع علي بن أبي طالب وقال في ذلك بن أبي لهب

ما كنت أحسب ان الامر منصرف عن هاشم ثم منهم عن أبي حسن
عن أول الناس ايماناً وسابقةً وأعلم الناس بالقرآن والسنن
وآخر الناس عهداً بالنبيّ ومن جبريل عون له في الغسل والكفن
مَن فيه ما فيهم لا يمترون به وليس في القوم ما فيه من الحسن

وكذلك تخلف عن بيعة أبي بكر ابو سفيان من بني أمية ثم ان ابا بكر بعث عمر بن الخطاب الى علي ومن معه ليخرجهم من بيت فاطمة رضي الله عنها وقال ان أبوا عليك فقاتلهم . فاقبل عمر بشيء من النار على ان يضرم الدار فلقيته فاطمة رضي الله عنها وقالت الى أين يا ابن الخطاب أجئت لتحرق دارنا قال نعم أو تدخلوا فيما دخل فيه الامة . فخرج علي حتى أتى أبا بكر فبايعه كذا نقله القاضي جمال الدين بن واصل وأسنده الى ابن عبد ربه المغربي «وروى» الزهري عن عائشة قالت لم يبايع علي أبا بكر حتى

ماتت فاطمة وذلك بعد ستة اشهر لموت أبيها صلى الله عليه وسلم فأرسل علي الى أبي بكر رضي الله عنهما فأتاه في منزله فبايعه وقال علي ما نفسنا عليك ما ساقه الله اليك من فضل وخير ولكنا نرى ان لنا في هذا الامر شيئاً فاستبددت به دوننا وما ننكر فضلك

وفي ايام ابي بكر قتل مسيلمة الكذاب وكان أبو بكر قد أرسل الى قتاله جيشاً وقدم عليهم خالد ابن الوليد فجرى بينهم قتال شديد وآخره انتصر المسلمون وهزموا المشركين وقتل مسيلمة الكذاب وحشى بالحربة التي قتل بها حمزة عم النبي صلى الله عليه وسلم وشاركه في قتله رجل من الانصار وكان مقام مسيلمة باليمامة وكان مسيلمة قد قدم على النبي (صلعم) في وفد بني حنيفة فاسلم ثم ارتدّ وادعى النبوة استقلالاً ثم مشاركة مع النبي (صلعم) وقتل من المسلمين في قتال مسيلمة جماعة من القراء من المهاجرين والانصار ولما رأى أبو بكر كثرة من قتل (أمر بجمع القرآن) من افواه الرجال وجريد النخل والجلود وترك ذلك المكتوب عند حفصة بنت عمر زوجة النبي (صلعم) ولما تولى عثمان ورأى اختلاف الناس في القرآن كتب من ذلك المكتوب الذي كان عند حفصة نسخاً وارسلها الى الامصار وابطل ما سواها

وفي أيام أبي بكر فتحت الحيرة بالامان على الجزية ثم دخلت سنة اثنتى عشرة وسنة ثلاثة عشرة فيها كانت واقعة اليرموك العظيمة التي كانت سبب فتوح الشام وكانت سنة ثلاث عشرة للهجرة وكان هرقل اذ ذاك بحمص فلما بلغه هزيمة الروم باليرموك رحل عن حمص وجعلها بينه وبين المسلمين ولما فرغ خالد بن الوليد وأبو عبيدة من وقعة اليرموك قصد البصرى فجمع صاحب بصرى الجموع للملتقى ثم ان الروم طلبوا الصلح فصولحوا على كل رأس دينار وجريب حنطة

﴿ ذكر وفاة ابي بكر ﴾

(رضي الله عنه)

وقد اختلف في سبب موته فقيل ان اليهود سمته في ارز وقيل في حسو فاكل هو والحارث ابن كلدة فقال الحارث أكلنا طعاماً مسموماً فماتا بعد سنة . وعن عائشة رضي الله عنها انه اغتسل وكان يوماً بارداً فحم خمسة عشر يوماً لا يخرج الى الصلاة وأمر عمر أن يصلي بالناس وعهد بالخلافة اليه ثم توفي أبا بكر في حياة ابيه بين المغرب والعشاء ليلة الثلاثاء لثمان بقين من جمادى الآخرة سنة ١٣ هجرية وهو ابن ثلاث وستون سنة على الاصح مستوفياً لعمر النبي صلى الله عليه وسلم في ارجح الروايات .

وكان مولده بعد الفيل بثلاث سنين ومدة خلافته سنتان وثلاثة اشهر وعشرة ايام وقيل عشرين يوماً فغسلته زوجته اسماء بنت عميس وحُمل على السرير الذي حمل عليه رسول الله (صلعم) وصلى عليه عمر في مسجد رسول الله بين القبر والمنبر واوصى أن يدفن الى جنب رسول الله (صلعم) فحفر له وجعل رأسه عند كتفي رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان حسن القامة خفيف العارضين معروق الوجه غائر العينين ناتئ الجبهة احنى عاري الاشاجع يخضب بالحناء والكتم .

﴿ ذكر خلافة عمر بن الخطاب بن نفيل بن عبد العزى ﴾
(رضي الله عنه)

بويع بالخلافة في اليوم الذي مات فيه أبو بكر الصديق رضي الله عنه وأول خطبة خطبها قال : ياأيها الناس والله ما فيكم احد أقوى عندي من الضعيف حتى آخذ الحق له ولا أضعف عندي من القوي حتى آخذ الحق منه . ثم اول شيء أمر به ان عزل خالد بن الوليد عن الامرة وولى أبا عبيدة على الجيش بالشام وأرسل بذلك اليهما وهو اول من سمي بامير المؤمنين وكان ابو بكر يخاطب بخليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم سار ابو عبيدة ونازل دمشق وكان نزوله من جهة باب الجابية ونزل خالد من جهة باب توما وباب شرقي ونزل عمرو بن العاص بناحية أخرى وحاصروها قريباً من سبعين ليلة وفتح خالد ما يليه بالسيف فخرج أهل دمشق وبذلوا الصلح الى ابي عبيدة من الجانب الآخر وفتحوا له الباب فامنهم ودخل والتقى مع خالد في وسط البلد وبعث ابو عبيدة بالفتح الى عمر وفي ايامه فتح العراق . ثم دخلت سنة ١٤ فيها في محرم أمر عمر ببناء البصرة فاختطت وقيل في سنة ١٥ وفيها توفي ابو قحافة ابو ابي بكر الصديق وعمره سبع وتسعين سنة وكانت وفاته بعد وفاة ابنه ابي بكر . ثم دخلت سنة ١٥ فيها فتحت حمص بعد دمشق بعد حصار طويل حتى طلب الروم الصلح فصالحهم أبو عبيدة على ما صالح اهل دمشق ثم سار الى حماة قال القاضي جمال الدين ابن واصل في التاريخ الذي نقلنا هذا منه ان حماة كانت في زمن داود وسليمان عليهما السلام مدينة عظيمة قال وقد وجدت ذكرها في اخبار داود وسليمان في كتاب أسفار الملوك الذي بأيدي اليهود وكذلك كانت في زمن اليونان الا انها في زمن الفتوح وقبله كانت صغيرة هي وشيزر وكانا من عمل حمص وكانت حمص كرسي مملكة هذه البلاد وقد ذكرهما امرىء القيس في قصيدته التي اولها « سما لك شوق بعد ما كان أقصرا » ويقول من جملتها

تقطع اسباب اللبانة والهوى عشية جاوزنا حماة وشيزرا

قال بعض الشراح حماة وشيزر قريتان من قرى حمص ولما وصل أبو عبيدة الى حماة خرجت الروم التي بها اليه يطلبون الصلح فصالحهم على الجزية لرؤسهم والخراج على ارضهم وجعل كنيستهم العظمى جامعاً وهو جامع السوق الاعلى من حماة ثم جدد في خلافة المهدي من بني العباس وكان على لوح منه مكتوب انه جدد من خراج حمص ثم سار ابو عبيدة الى شيزر فصالحه اهلها صلح اهل حماة وكذلك صالح اهل المعرة وكان يقال لها معرة حمص ثم قيل لها معرة النعمان بن بشير الانصاري لانها كانت مضافة اليه مع حمص في خلافة معاوية . ثم سار ابو عبيدة الى اللاذقية ففتحها عنوة وفتح جبلة وطرطوس ثم سار ابو عبيدة الى قنسرين وكانت كرسي المملكة المنسوبة اليوم الى حلب وكانت حلب من جملة اعمال قنسرين ولما نزلها ابو عبيدة وخالد ابن الوليد كان بها جمع عظيم من الروم فجرى بينهم قتال شديد انتصر فيه المسلمون ثم بعد ذلك طلب اهلها الصلح على صلح اهل حمص فاجابهم على ان يخربوا المدينة فخربت ثم فتح بعد ذلك حلب وانطاكية ومنبج ودلوك وسرمين وتزين وعزاز واستولى على الشام من هذه الناحية . ثم سار خالد الى مرعش ففتحها واجلى اهلها واخربها وفتح حصن الحدث (وفي هذه السنة) لما فتحت هذه البلاد وهي سنة خمس عشرة . وقيل ست عشرة آيس هرقل من الشام وسار الى القسطنطينية من الرها . ولما سار هرقل علا على نشز من الارض ثم التفت الى الشام وقال السلام عليك ياسوريا سلام لا اجتماع بعده ولا يعود اليك من رومي بعدها الا خائفاً حتى يولد الولد المشئوم وليته لم يولد فما اجل فعله وامرّ فتنته على الروم . ثم فتحت قيسارية وصبصطية وبها قبر يحيى بن زكريا ونابلس ولد ويافا وتلك البلاد جميعها واما بيت المقدس فطال حصاره وطلب اهله من ابي عبيدة ان يصالحهم على صلح اهل الشام بشرط ان يكون عمر بن الخطاب متولي امر الصلح فكتب ابو عبيدة الى عمر بذلك فقدم عمر رضي الله عنه الى القدس وفتحها واستخلف على المدينة علي بن ابي طالب رضي الله عنه . وكان في هذه السنة اعني سنة ١٥ واقعة القادسية وكان المتولي لحرب الاعاجم فيها سعد بن ابي وقاص وكان مقدم العجم رستم هرمزد وجرى بين المسلمين وبين الاعاجم اذ ذاك قتال عظيم دام اياماً فكان اليوم الاول يوم (اغوث) ثم يوم (غماس) ثم ليلة (الهرير) لتركهم الكلام فيها وانما كانوا يهرون هريراً حتى اصبح الصباح ودام القتال الى الظهيرة وهبت ريح عاصفة فمال الغبار على المشركين فانكسروا وانتهى القعقاع واصحابه الى

سرير رستم وقد قام رستم عنه واستظل تحت بغال عليها مال وصلت من كسرى للنفقة فلما شدوا على رستم هرب ولحقه هلال بن علقمة فأخذ برجله وقتله ثم جاء ورمى به بين أرجل البغال وصعد السرير ونادى قتلت رستم ورب الكعبة وتمت الهزيمة على العجم . وهذا قول عماد الدين اسماعيل ابي الفدا في الجزء الاول من تاريخه

واما الشاعر الشهير الحكيم ابو القاسم الفردوسي قال في تاريخه المسمى (شهنامهٔ فردوسی) نظماً . وذكر هذا الشاعر البليغ في تاريخه المذكور من المخابرات والمحاربات التي جرت بين سعد الوقاص قائد جيش العرب وبين رستم هرمزد قائد جيش الفرس . وها هي باللغة الفارسية

« نامهٔ رستم بسعد وقاص »

یکی نامهٔ بر حریر سفید	نوشتند پربیم وچندی امید
بعنوان پراز پورهر مزدشاه	جهان پهلوان رستم کینه خواه
سوی سعد وقاص جوینده جنك	پرازراي وپردانش وپردرنك
سرنامه کفت ازجهاندار پاك	نباید که باشیم بی ترس وباك
کزویست برپای کردون سپهر	همه پادشاهیش دادست ومهر
ازوباد بر شهر یار آفرین	که زیبای تاج استوتخت ونکین
که دارد بفرّاهر من رابه بند	خداوند تیغ وکلاه وکمند
به پیش آمداین ناپسندیده کار	به بیهوده این رنج واین کارزار
بمن بازکو انکه شاه توکیست	چه مردی وآئین وراه توچیست
بنزدکه جوبی همی دستکاه	برهنه سپهبد برهنه سپاه
بنانے توسیر وهمه کرسنه	نه پیل ونه تخت ونه باروبنه
بایرانے تراز ندکانی بس است	که مهر وکله بهردیکرکس است
که باپیل وفراست وباتاج وکاه	پدر بر پدر نامبر دار شاه
ببالاي او تخت راشاه نیست	بدیدار او در فلك ماه نیست
هرنکه که برکاه خندان شود	کشاده لب وسیم دندان شود
ببخشد بهای سرتازیانے	که کنجش نکیرد ز بخشش زیان
سك ویوز وبازش ده ودوهزار	که بازند وزار ندو باکوشوار
بسالی همه دشت نیزاوران	نیاورند خورد ازکران تاکران
که اورا بباید بیوز وبسك	که بر دشت نخجیر کرد بتك

زشیر شترخوردن وسوسمار ‏ ‏ ‏ عرب را بجائی رسید است کار
که تاج کیانرا کند آرزوی ‏ ‏ ‏ تفو بادبر چرخ گردان تفوی
شمارا بدیده درون شرم نیست ‏ ‏ ‏ زاره خرد مهر وآزوم نیست
بدینچهروابن‌مهروابن‌راه‌وخوی ‏ ‏ ‏ همی تخت وتاج آیدت آرزوی
جهان کربا اندازه جوئی همی ‏ ‏ ‏ سخن برکز افه نکوئی همی
سخنکوی مردی برما فراست ‏ ‏ ‏ جهاند یده وکردو دانا فراست
بدان تابکو یدکه رای توجیست ‏ ‏ ‏ بتخت کیان رهنمای توکیست
سواری فرستم بنزدیك شاه ‏ ‏ ‏ بخواهم ازوهر چه خواهي بخواه
توجنك چنین پادشاهی مجوی ‏ ‏ ‏ که فرجام این خوار ارد بروی
نبیره جهاندار نوشیروان ‏ ‏ ‏ که باداد او پیرکشتي جوان
پدربر پدر شاه وخود شهریار ‏ ‏ ‏ زمانه ندارد چنو یادکار
جهانرا مکن پرز نفرین خویش ‏ ‏ ‏ مشو بد کمان اندرائین خویش
نکه کن بدین نامهٔ پندمند ‏ ‏ ‏ مکن جشم وکوش وخردرا بلند
چونامه بمهراندو آمد بداد ‏ ‏ ‏ به پیروز شاپور فرّخ نژاد
بر سعد وقاص شد پهلوان ‏ ‏ ‏ ازایران بزرکان روشنروان
همه غرق درآهن وسیم وزر ‏ ‏ ‏ سپرهای زرّین وزرّین کمر
جوبشنید سعدان کرنمایه مرد ‏ ‏ ‏ پذیره شدش باسپاه جوکرد
سپهبد فرود آمد اندر زمان ‏ ‏ ‏ زلشکر بپر سید وزپهلوان
هم ازشاه ودستور وزلشکرش ‏ ‏ ‏ زسالار بیداروز کشورش
رداز یرپیروز افکند وکفت ‏ ‏ ‏ که ماینزه وتیغ داریم جفت
زدیبا نکویند مردان مرد ‏ ‏ ‏ ززّر وزسیم وزخواب زخور
شمار بمردانکي ینست کار ‏ ‏ ‏ همان چون زنان رنك بوی ونکار
هنرتان بدیباست وپیراستن ‏ ‏ ‏ دیکر نقش بام ودرآر استن
هم آنکاه فیروز نامه بداد ‏ ‏ ‏ سخنهای رستم همه کردیار
سنحنهاش بشنید ونامه بخواند ‏ ‏ ‏ وزان نامهٔ پهلوان خیره ماند

« ترجمة الكتاب المرسل من رستم باللغة الفارسية »

مكتوباً على الحرير الابيض. بين اليأس والرجاء. وبدأ كتابه باسم خالق الكائنات

ولا تكونن ممن لا يخاف ولا يخشى قدرته. وعظمته الذي رفع السموات ووهب التاج وسرير السلطنة للشاه الذي يسجن العفريت ويقيده . والآن تجاسرتم على عظمته . فلم هذا العناد ولا فائدة في إقدامكم على هذه الحرب الطاحنة مع الاكاسرة . فكف عن العناد . قل لي من سلطانك ومن انت وما دينك واي طريق أنت سالكه ولمن تنسب سطوتك وقوادك وعسكرك حفاة عراة وبكسرة من الخبز تعيشون . لا تملكون مالا ولا اقبالا ولا مهمات ولا عدة . فبمجيئكم الى بلادنا ألقيتم انفسكم بايديكم الى التهلكة . فليس التاج واريكة الملك لكم . بل لنا سرير الملك والتاج والاقبال أبا عن جد . ولا نظير لملكنا الهمام اذا جلس مسروراً على سرير الملك وبذل من المال بقدر رؤس الاعراب دنانير فلا يؤثر ذلك في خزينته . له الفان وعشر من انواع كلاب الصيد والصقور والفهود . جيعهم بالاطواق والسلاسل الذهبية . فهو يذهب الى الصيد في الصحراء منفرداً . وانتم تعيشون بلبن الابل واكل ضب الجبل . أفلا تستحون . أفلا ترعوون . كيف تؤملون ان تسلبوا الاكاسرة تاجهم بهذه الاوجه الكالحة وهذه الطباع السمجة . فتباً للزمان وللحدثان تباً اذ طمعت الاعراب في نيل سرير الملك الكسروي . اذا امل الانسان شيئاً بعيد المنال فلا شك ان طلبه يكون ضرباً من المحال . ان لدينا كثيراً من الرجال الابطال المتحلين بالمعارف والكمال ساحوا في الارض ووقفوا على احوال العالم باسره . فقل لي ماذا تريد وما مطلبك وبمن استدلالتم في اخذ سرير الملك من الاكاسرة حتى انفذت فارساً الى جلالة الشاه واعرض عليه ما تريد . لا تطلب الحرب مع هذا الملك العظيم الشأن لان عاقبتها عليك تكون الندامة والخذلان . واعلم ان هذا الملك هو حفيد كسرى انوشروان « الملك العادل » الملك اباً عن جد . الذي كان بعدله يرجع الشيخ شاباً والملك القائم الان سالك مسلك جده في العدل والاحسان وليس له مثيل بين الملوك ولا شبيه فلا تكن بغيضاً الى العالم بفعلك ولا تكن مظهر القبح في دينك . وتأمل كتابي هذا المملوء بالمواعظ والنصائح وانظره بعين البصيرة ولا تغمض عنه عينيك ولا تصم عنه اذنيك . وبعد ان ختم رستم هذا الكتاب دفعه الى فيروز شابور لايصاله الى سعد بن ابي وقاص فتوجه هذا البطل الشهير الى سعد وبصحبته جماعة من اكابر الايرانيين وكلهم لابسون الدروع وتروسهم ومناطقهم مذهبة . فلما علم سعد بمجيء رسولاً من عند رستم استعد بجيشه الجرار . فلما وصل فيروز شابور سأله سعد عن العساكر وقائدهم رستم وعن الشاه وامرائهم وبلادهم فاجابه ان لنا سيفين ورمحين . فقال سعد ان الرجال لا يفتخرون

بزينة ملابسهم وزخارف بيوتهم فأنتم تتشبهون بالنساء في التزين ولا شجاعة لكم
وفي تلك الاثناء سلمه الكتاب . فلما قرأه سعد استغرب وتعجب مما حواه .

« نامهٔ سعد وقاص برستم هرمزد »

بتازی یکی نامه پاسخ نوشت　　پدید آوریدا ندر وخوب وزشت
سرنامه بنوشت نام خدا　　محمد رسولش بحق رهنما
زجنیّ سخن گفت واز آدمی　　زگفتار پیغمبرها شمی
ز توحید وقرآن ووعد وعید　　ز تحدید وز رسمهای جدید
ز قطران واز آتش وزمهریر　　زفردوس وجوی می وجوی شیر
زکافور وازمشك وماء معین　　درخت بهشت ومی وانگبین
که گرشاه بپذیرداین دین راست　　دو عالم بشادی وشاهی وراست
همان تاج یا بدهمان گوشوار　　همه ساله بابوی ورنك و نگار
شفیع از گنا هش محمد بود　　تنش چون گلاب مصعد بود
بکاری که پاداش یابی بهشت　　نباید بباغ بلا خار کشت
تن یزدگرد وجهان فراخ　　چنین باغ وایوان ومیدان وکاخ
همه تخت وتاج وهمه جشن وسور　　نیرزد بدیداریك موی حور
دوچشم تو اندرسرای سپنج　　چنین خیره گشت ازپی تاج وگنج
بس ایمن شدستی برین تخت وعاج　　بدین گنج ومهرو بدین تخت وتاج
جهانی کجا شربت آب سرد　　نیرزد بدودل چه داری بدرد
هرانکس که پیش من آید بجنك　　نه بیند بجز دوزخ وگورتنك
بهشت است اگر بگرود جای او　　نگر تاچه آید کنون رای او
همیشه بود آن واین بگذرد　　چنین داندانکس که دار داخرد
بقرطاس مهر عرب بر نهاد　　درود محمد همی کرد یاد
فرستادهٔ سعد وقاص رفت　　بنزدیك رستم خرامید وتفت
جوشعبه مغیر برفت از گوان　　که آید بررستم پهلوان
ازایرانیان نامداری زراه　　بیامد بری پهلوان سپاه
که آمد فرستادهٔ پیر وسست　　نه اسب وسلیح ونه جامه درست
یك تیغ باریك بر گردنش　　پدید آمده چاك پیراهنش
چورستم بگفتاراو بنگرید　　زدیبا سراپردهٔ در کشید

ززر بفت چینی کشید ندنخ   سپاه اندرامد چومور وملخ
نهادند زرّین یکی زیرکام   نشست ازبرش پهلوان سپاه
نشتسند پیشش صد وشصت مرد   سواران وشیران روز نبرد
ابا افسرو جامه های بنفش   بپاي اندرون کرده زرّینه کفش
همان طوق داران اباکوشوار   سراپرده آراسته شاهوار
چو شعبه ببالای پرده سرای   بیامد بر آنجا نه بنها دپاي
همیر فت برخاك بر خوار خوار   زشمشیر کرده یکي دستوار
نشست ازبر خاك وکس راندید   سوی پهلوان وسران ننکرید
بدو کفت رستم که جان شاددار   بدانش روان وتن آباددار
بدو وکفت شعبه که ای نیکنام   اکردین بذیری علیك السلام
به پیچید رستم زکفتار او   بروهاش پر چین شدازکاراو
ازو نامه بستدبخو نده داد   سخنها بروکرد داننده یاد
چنین داد پاسخ که اورا بکوی   نه تو شهریاری نه دیهیم جوی
ندیدی سرنیزه بخت مرا   دلت آرزوکرد تخت مرا
سخن نزددا نندکان خوار نیست   ترا اندر نیکار دیدار نیست
اکر سعد باتاج شاهان بودی   مرارزم وبزم وی آسان بودي
ولیکن چوبد زاخترپی وفاست   چه کویم که امروز روز بلاست
مراکر محمد بود پیش رو   زدین کهن کیرم این دین نو
همي کژ بود کار این کوژپشت   بخواهد همی بود باما درشت
تواکنون بدین خرّمی بازکرد   که جای سخن نیست روز نبرد
بکویش که درجنك مردان نیام   مرا بهتر آید زکفتا رخام
جو شعبه بنزدیك او کشت باز   سپه را بفرمود تاکردساز
بفرمود تابر کشید ند نای   سپه اندر آمد زهر سوی بجای

« جواب سعد الوقاص على كتاب رستم هرمزد »

فكتب سعد جوابه بعبارات تتضمن الشدة واللين . بدأ بسم الله ومحمد رسوله والدليل على طريق الحق . ثم تكلم عن الجن وآدم واحاديث النبي الهاشمي وعن القرآن الشريف والتوحيد والوعد والوعيد ونهر اللبن وشجر طوبى والشراب الطهور والجنة وجهنم والشريعة الأحمدية فاذا قبل الشاه هذا الدين المبين نال السعادة

في الدارين . ويكون شفيع ذنوبه محمداً يوم لا ينفع مال ولا بنون . ويتقطر جسمه كرائحة ماء الورد فاذا امكن الانسان الحصول على رياض الجنة بالعمل الصالح فلا يصح أن يعمل عملاً سيئاً فيكون غرس شوك الشر في بستان الخير . كل ما تراه في الدنيا من القصور والتيجان المرصعة وسرير السلطنة وجميع محتوياتها لايساوي شعرة جورية من حور الجنة . فلا تغرنك الحياة الدنيا فما هى الا بضعة ايام . لان « كل من عليها فان ويبقى وجه ربك ذى الجلال والاكرام » . فكل من يريد محاربتي مصيره جهنم او اللحد الضيق . وكل ما حواه من خزائن الاموال وتاج السلطنة التي ملأت عينيك لا يساوي جرعة من الماء البارد في حالة النزع والاحتضار . ومتى كان الامر كذلك فلم هذا العناد وتعذيب قلبك . وقد اجمع العقلاء على ان كل ما في الدنيـا من الثروة والمال عرض زائل . وبذلك ختم جوابه واعطاه لشعبة ليوصله الى رستم فذهب اليه فصادف في طريقه احد مشاهير ايران فاسرع هذا الرجل واخبر رستم بمجيء شخص مسن ليس له جواد ولا سلاح ولا لباس لائق وله سيف يحمله

فلما علم رستم بذلك امر بنصب خيمة من الحرير حبالها مذهبة من صنع الصين وفرشها مزركشة ونصب في وسطها سريراً من الذهب المرصع بالجواهر الثمينة فجلس عليه رستم وجلس حوله ماية وستون من الفرسان والشجعان كالاسود في ميدان الحرب على رءوسهم الخوذات المذهبة ولباسهم من الحزير البنفسجي اللون ونعالهم مذهبـة وعساكره حول الخيمة كالجراد المنتشر . ثم حضر شعبة ووقف امام الخيمة فدعوه للدخول فلم يقبل وجلس على الارض متكئاً على سيفه ولم يلتفت الى هذه الابهـة والعظمة ولم يهتم بأولئك الفرسان فقال رستم لشعبة خـذ انبساطك وراحتك بكل انشراح فأجابه قائلا ايها البطل الهمام اذا قبلت دين محمد فسلام عليك . فأعرض عنه رستم لهذا الجواب وعبس وجهه وقطب حاجبيه . ثم أخذ منه الجواب واعطاه للقارىء فتلاه وبعـد ما فهم مضمونه قال لشعبة قل لسعد انه ليس سلطاناً ولا صاحب التاج واريكة السلطنة ولا شهد سنان رمحي ولم يعلم قوتي وسطوتي حتى اتى بلادنا طامعاً في التاج وسلطنة الاكاسرة فاذا كان ملكا ربما نحاربه او نصالحه . لـكن ماذا اقول لهذا الزمان والنجم النحس الذي رماني بهذا اليوم العصيب . فاذا كان محمد يدلني على الدين الحق كنت اترك الدين القديم واتبع هذا الدين الجديد . ولكن الفلك المعكوس اراد ان يسير معي بالعكس والقسوة . ثم قال لشعبة ارجع بسلام . فالحرب اولى من تطويل الكلام . فعاد شعبة الى سعد الوقاص واخبره بما جرى بينه وبين رستم

« رزم رستم باسعد وقاص وکشته شدن رستم »

بفرمود تابر کشیدند نای — سپه اندرآمد زهر سوبجای
برآمدیکي کردوبرشد خروش — همی کرشدی مردم تیزهوش
سنانهای الماس درتیره کرد — ستاره است کفتی شب لاجورد
همی نیزه بر مغفر آبدار — نیامد بزخم اندران پایدار
سه روز اندران جایکه بودجنك — برایرا نیان بربود آب تنك
شداز تشنکي دست کردن زکار — هم اسپ کرنمایه از کار زار
لب رستم ازتشنکی شدجوحاك — زبان کشته اندردهن چاك چاك
جنان‌تنك شد روز کار نبرد — کل تربخوردن کرفت اسپ ومرد
خروش برامد بکردار رعد — ازیبروی رسم وزآبر روی‌سعد
برفتند هردو زقلب سپاه — بیك سو کشیدند زاوردکاه
جواز لشکران هردوتنها شدند — بزیریکی تندو بالا شدند
همیتا ختند اندران زور مکاه — دوسالار بریکد کرکینه خواه
خروشی برآمدز رستم جورعد — یکی تیغ زدبرسر اسب سعد
تکا وروزدو اندرآمد بسر — جدا کشت ازوسعد پر حاشخر
برا میخت رستم یکی تیغ تیز — بدان تانماید بدو رستخیز
همی خواست‌ازتن‌سرش‌رابرید — زکردسپاه این مرابرا ندید
فرود آمدازاسب وزین پلنك — نزد برکمر برسرپا لهنك
بپوشید دیدار رستم زکرد — بشد سعد پویان بجای نبرد
یکي تیغ زد برسر وترك وي — که خون اندرامد زترکش بردی
جودیداررستم‌زخون‌تیره کشت — جهان‌جوی تازي برو چیره کشت
دکر تیغ زد برسروکرد بش — بخاك اندر افکند جنکی بنش
سپاه ازدور ویه کس آکاه نه — کسی راسوی پهلوان راه نه
همی جست مر پهلوانرا سپاه — برفتند تابیش آورد کاه
بدیدندش ازدور برکرد وخاك — سراپای کشته بشمشیر حاك
هزیمت کرفتند ایرانیان — بسی نامه ورکشة شد درمیان
بسی تشنه برزین بمردندیز — زشاهان جها نرابر آمد قفیز

سوی شاه ایران بیامد سپاه   شب تیره وروزتازان براه
چورستم بجنك اندران کشته شد   سرنامداران همه کشته شد
چه مایه بکشتند ازایران سپاه   بسی نازکشتنداز اوردکاه
سپاه مسلمان پس اندردمان   همی شد بکر دار شیرژیان
ببغداد بودانزمان یزدکرد   که اوراسپاه اندر امد بکرد

الحرب بين سعد الوقاص ورستم هرمزد وقتل رستم

ثم امر كلاً من القائدين جيشه بالاستعداد للحرب فاصطف العساكر من الطرفين وهجم كل من الجيشين على بعضهما البعض فثار الغبار حتى اعمى الابصار . وكان رنين



الحرب بين سعد الوقاص ورستم هرمزد وقتل رستم

السلاح وصوت الابطال يصم الآذان ويستطير الجنان ولمعان الرماح والسيوف بين الغبار كانه ضوء الكواكب في ظلام الليل . واستمرت الحرب ثلاثة ايام متوالية في هذا المكان . وكان الماء قد نفد من بين جيش الفرس واشتد الظمأ حتى لم يبق للقواد قوة ولا للخيول الجياد في ميدان الحرب والجهاد اقتداراً ويبست شفتا رستم وتشقق لسانه حتى صارت الرجال والدواب يأكلون الطين لاطفاء ظمائهم . ومع هذا كان الابطال ينادون من الجانبين هلموا للقتال . ثم خرج رستم وسعد من قلب عسكريهما وانفردا بعيداً عن جيشهما وتبارزا فصاح رستم صيحة كالرعد وضرب بسيفه على رأس جواد سعد فسقط الجواد وسقط سعد على الارض . وعند ذلك نزل رستم عن جواده وتقدم نحوه ليضرب عنقه . فقام سعد مبادراً وهجم على رستم وضرب بسيفه على رأسه فشجها وسال الدم على وجهه حتى غطى عينيه ثم لحقه بضربة ثانية فسقط على الارض واتبعه بجملة ضربات على جسمه حتى قطعه ارباً ولا علم للعساكر بذلك كله ولما فتشوا على قائدهم وجدوا جثته مغبرة في التراب فحينئذ انهزمت العساكر جميعها الى مقر السلطنة وكانت عساكر العرب تتبع المنهزمين الآخذين في السير ليلاً ونهاراً . وقتل في هذه الحرب كثير من مشاهير القواد ومن الرجال والحيوانات ومات كثيرون على ظهور خيولهم من شدة العطش

وفي اثناء هذه الحرب كان يزدجرد « يزدكرد » وهو آخر ملك من ملوك ساسان في بغداد . فلحق به بعض من العساكر وعاد بعضهم الى دار السلطنة في ايران . وانتهت الحرب باخذ العرب بلاد العجم ودخل سعد ايوان كسرى وصلى صلاة الفتح وكانت اول جمعة اقيمت بالعراق . وذلك في صفر سنة ١٦ للهجرية ولما شاهد المسلمون ايوان كسرى كبروا وقالوا هذا ابيض كسرى هذا ما وعد به الله ورسوله . وقام سعد على نهر شيرالى الى ايام صفر ثم عبروا الدجلة وهرب الفرس من المدائن نحو حلوان وهي بلد من بلاد العراق وكان يزدجرد قدم اهله الى حلوان وخرج هو ومن معه بما قدر عليه من المتاع ودخل المسلمون المدائن وقتلوا كل من وجدوه واحاطوا بالقصر الابيض ونزل به سعد واتخذوا ايوان كسرى مصلى واستجمعوا من الاموال والآنية والثياب والجواهر ما يخرج عن الاحصاء وادرك بعض المسلمين بغلاً وقع في الماء فوجد حلية كسرى من التاج والمنطقة والدرع وغيرذلك كله مكلل بالجواهر ووجدوا اشياء يطول شرحها وكان لكسرى بساط طوله ستون ذراعاً على هيئة روضة قد صورت فيه بالجواهر على قضبان الذهب فاستوهب سعد بما يخص اصحابه منه وبعث به

الى عمر الفاروق وقسمه بين المسلمين فاصاب علياً بن ابي طالب منه قطعة فباعها بعشرين الف درهم وأقام سعد بالمدائن وارسل جيشاً الى جلولا وكان قد اجتمع بها الفرس فانتصر المسلمون وقتل من الفرس ما لا يحصى وهذه الواقعة هي المعروفة بواقعة جلولا وكان يزدجرد بحلوان فسار عنها وقصد اليها المسلمون واستولوا عليها

فتح مصر في خلافة عمر بن الخطاب

رضي الله عنه — سنة ١٨ هـ

قال ابن عبد الحكم حدثنا عثمان بن صالح وغيره كانت سنة ثمان عشرة حين قدم عمر ابن الخطاب الجابية فقام اليه عمرو بن العاص وخلا به فقال ياامير المؤمنين ائذن لي أن اسير الى مصر وحرضه عليها • وكان عمرو بن العاص لا يفتر عن ترغيب الخليفة عمر ابن الخطاب في مصر وافتتاحها لانه كان قد جاءها قبل ان اعتنق الاسلام ورأى فيها من العظمة والمجد ما جعله شديد الرغبة في افتتاحها وكان يقول له « انك ان افتتحتها كانت قوة للمسلمين وعوناً لهم وهي اكثر الارض اموالاً واعجز عن القتال والحرب » وكان الامام عمر يتخوف من ذلك ولا سيما بعد ان عقد المعاهدة بينه وبين هرقل لكنه بعد ان نقضت على ما تقدم رأى ان يجيب طلبه فانفذ اليه ان يسير باربعة آلاف رجل اشداء وقال له « سر انى مستخير الله في سيرك وسيأتيك كتابي قريباً ان شاء الله تعالى فان ادركك كتابي آمرك فيه بالانصراف عن مصر قبل ان تدخلها او شيئاً من ارضها فانصرف وان انت دخلتها قبل ان يأتيك كتابي فامض لوجهك واستعن بالله واستنصره » وكان ذلك بعد افتتاح بيت المقدس بأيام

فسار عمرو بن العاص ومن معه قاصداً مصر وهو يكاد لا يصدق ان أذن له بذلك • فما بلغ رفح وهي قرية تدعى الآن « رفع » تبعد نحو عشر ساعات عن « العريش » حتى ادركه رسول من عمر ودفع اليه كتاباً نخاف ان يكون ذلك الكتاب مؤذناً بالانصراف عن مصر وهو لم يدخلها بعد فاجل فتحه حتى يدخل ارضها وكان اذ ذاك على مسافة يسيرة منها فأمر بجد السير حتى امسى المساء فسأل اين نحن فقيل له في العريش فعلم انه دخل ارض مصر فأمر بالمبيت هناك • وعند الفجر نهض القوم للصلاة وبعد اتمامها وقف عمرو بن العاص وفي يده كتاب الخليفة ففضه بكل احترام وتلاه على الجمهور بصوت عال وهو « بسم الله الرحمن الرحيم من الخليفة عمر بن الخطاب الى عمرو بن العاص عليه سلام الله تعالى وبركاته • اما بعد فان ادركك كتابي هذا

وانت لم تدخل مصر فارجع عنها واما اذا ادركك وقد دخلتها او شيئاً من ارضها فامض واعلم اني ممدك » فالتفت عمرو الى من حوله قائلاً « اين نحن يا قوم » فقالوا « في العريش » فقال « وهل هي من ارض مصر ام الشام » فاجابوا انها من مصر فقال « هلم بنا نعبر على خيرة الله تعالى » • وهكذا دخل عمرو بن العاص ارض مصر في اربعة آلاف رجل في السنة الثامنة عشرة للهجرة وجعلوا يخترقونها جنوباً في قسمها الشرقي وعددهم يزيد كل يوم ممن كان ينضم اليهم من القبائل البدوية التي كانوا يمرون بها في طريقهم

فكان اول موضع قوتل فيه القرما قاتلت الروم قتالاً شديداً نحواً من شهر ثم فتح الله على المسلمين وكان عبد الله بن سعد على ميمنة عمرو منذ توجه من قيسارية الى ان فرغ من حربه • ثم تقدم عمرو وهو لا يقاتل الا بالامر الخفيف حتى اتى بلبيس فقاتلوه فيها نحواً من شهر حتى فتح الله عليه وكان في بلبيس ارمانوسة بنت المقوقس حاكم من قبل الروم فاحب عمرو ملاطفة المقوقس استجلاباً لوده فسير اليه ابنته مكرمة في جميع ما لها فسر ابوها بقدومها كثيراً

ثم سار عمرو وما زال حتى مرَّ بجانب الجبل المقطم فاشرف على حصن بابل أو بابليون القائم على ضفة النيل الشرقية مقابل الاهرام العظيمة . وكان حصناً منيعاً رفيع العماد[1] راسخ الى شرقيه جبل المقطم وعلى وجهه تجعدات تدل على قديم عهده وبين الجبل والحصن بقعة من الارض لا شيء من العمارة فيها الا بعض الاديرة والكنائس . ثم نظر الى الغرب فاذا بالنيل منحدر امام ذلك الحصن فيزيده مناعة والى ما وراء النيل ارض قد كستها الطبيعة جمالها حلة خضراء بين اعشاب واشجار خصبةٍ وهي جزيرة الروضة وكانت تعرف بجزيرة مصر والماء محيط بها مدار السنة . ويقطع النيل بين الحصن وهذه الجزيرة جسر من خشب وكذلك فيما بينها والجيزة يمر عليهما الناس والدواب من البر الشرقي الى الجزيرة ومن هذه الى البر الغربي . وكان هذان الجسران مؤلفين من مراكب بعضها بحذاء بعض وموثقة بسلاسل من حديد وفوق المراكب اخشاب ممتدة فوقها تراب وكان عرض الجسر الواحد ثلاث قصبات

وتطلع عمرو الى ماوراء الجزيرة فاذا بالاهرام العظيمة راسخة كالجبال وقد اثقلت

---

(١) ويسميه بعض مؤرخي العرب حصن باب اليون او باب الاون وللمؤرخين فيه اقوال اظهرها انه حصن بناه الفرس عند تملكهم مصر ودعوه باسم عاصمته بابل لانها كانت في حوزتهم

كاهل الدهر فعجز عن هدمها . ثم رمى بنظره الى جنوب الاهرام فرأى بقايا منف العظيمة ترهب القلوب بما يتجلى فيها من العظمة والفخامة ومن جملتها اهرامها المعروفة الآن باهرام سقاره

فامر عمرو ان تنصب الخيم فيما بين الحصن والمقطم لجهة الشمال قرب مصر القديمة اليوم ولم يكن هناك الا بعض المزارع والغياض وجعل يشرح صدره ويتأمل بما يهدده من الاخطار في مقاومة هذا الحصن . ثم نظر الى وادي النيل فاذا هو يانع خصب يشتهيه النظر يخترقه النيل المبارك . على غربيه آثار منف والاهرام وعلى شرقيه ذلك الحصن وفيه قد حشدت جنود الروم متأهبين للدفاع ولم يكن قد راى شيئاً من ذلك فيما مرّ به من البلدان فعظم عليه الامر الا انه عاد الى عزمه عندما تصور ما يلحق به من العار اذا عاد خائباً وما يقع في يده من الخيرات اذا فاز بالنصر بعد الجهاد الحسن واذا لم يفز في جهاده هنا واستشهد ففي الآخرة ما هو افضل مآباً

وكان في الحصن المقوقس وقد تقدم انه حاكم من قبل دولة الروم على مصر العليا والسفلى ومعظم سكانهما من القبط . وكانت عاصمة حكومته منف على الضفة الغربية اما هذا الحصن فقد اتخذه مركزاً حربياً ليمنع العرب من المرور الى عاصمته . وكان المقوقس من حزب الوطنيين ويقال انه كان بينه و بين الرسول مكاتبة وعلى كل فانه لم يكن له ان يفعل ما يشاء . فلما علم بقدوم جيوش المسلمين جهز جنداً تحت قيادة احد كبراء جيشه المدعو الاعيرج وجاءوا بما لديهم من العدة والسلاح وتحصنوا في ذلك الحصن

اما عمرو فاخذ في المهاجمة مدة فأبطأ عليه الفتح فكتب الى الخليفة يستمده فامده باربعة آلاف رجل عليهم اربعة من كبار القواد وهم الزبير بن العوام والمقداد ابن الاسود وعبادة بن الصامت ومسلمة بن مخلد وقيل ان الرابع خارجة بن حذافة دون مسلمة وورد معهم خطاب امير المؤمنين ونصه «اني قد انفذت اليك اربعة آلاف على كل الف منهم رجل مقام الف»

فانفذ عمرو احد قواده ولعله حذاقة بخمسمائة فارس الى الجهة الثانية من الحصن من وراء الجبل فساروا ليلاً وكان الروم قد خندقوا خندقاً وجعلوا له ابواباً وبذروا في افنيتها حسك الحديد فالتقى القوم حين اصبحوا فانهزم المصريون حتى دخلو الحصن فصارت العرب محيطة بالحصن من كل جهات الا النيل وكان حول ذلك الحصن الخندق فلم يستطيع العرب الهجوم عليه واستمر رمى السهام صباحاً ومساء ثم تشاور عمرو

والزبير بشأن ذلك فاقرّا على تشديد الحصار ففرقا الرجال حول الخندق . وألح عمرو على الحصن بالمنجنيق ثم خابر القوم بشأن التسليم فلم يفعلوا . وكان المقوقس يريد التسليم تخاصاً من نير الروم لما بينه وبينهم من الضغائن الدينية وان لم يتجرأ على التصريح ببغيته لان رجاله لم يكونوا كلهم من حزبه ولا سيما الأعيرج . ولما رأى من اقدام العرب وصبرهم على القتال ورغبتهم فيه خاف ان يظهروا على رجاله فتكون الخسارة مزدوجة فعمد برجاله الى باب الحصن الغربي على ضفة النيل وعبر بهم على الجسر الى الجزيرة ثم تبعه الأعيرج ولم يترك في الحصن الا نفراً قليلاً من رجاله والعرب غير عالمين

ولما ابطأ الفتح قال الزبير « اني اهب الله نفسي وارجو ان يفتح الله بذلك على المسلمين » فعبر الخندق ثم وضع سلماً الى جانب دار الحصن من ناحية سوق الحمام واخبر عمراً انهم اذا سمعوا تكبيره ان يجيبوه جميعاً فما شعر الا والزبير على رأس الحصن يكبر والسيف في يده فتحامل الناس على السلم حتى كادوا يكسرونه لكثرتهم فنهاهم ثم كبر وكبر الناس معه واجابهم من كان خارجاً فظن من كان باقياً في الحصن من الروم ان العرب جميعهم هاجمون فهربوا . وعمد الزبير واصحابه الى باب الحصن ففتحوه واقتحموا الحصن وتملكوه ثم عمدوا الى الجسر فتعقبوا القبط الى الجزيرة . واما هؤلاء فساروا الى منف عاصمة ولايتهم . وبعد ان عبروا النيل رفعوا الجسر عنه فتوقف العرب عن تعقبهم اذ لم يكونوا يستطيعون عبور النيل فاصبحوا محاطين بالماء من كل الجهات

فلما رأى المقوقس ذلك انفذ الى عمرو كتاباً نصه « انكم قوم قد ولجتم في بلادنا والححتم على قتالنا وطال مقامكم في ارضنا وانما انتم عصبة يسيرة وقد اضلتكم الروم وجهزوا اليكم ومعهم من العدة والسلاح وقد احاط بكم هذا النيل وانما انتم اسارى في ايدينا فابعثوا الينا رجالاً منكم نسمع من كلامهم فلعله ان يأتي الامر بيننا وبينكم على ما تحبون ونحب وينقطع عنا وعنكم القتال قبل ان تغشاكم جموع الروم فلا ينفعنا الكلام ولا نقدر عليه . ولعلكم ان تندموا ان كان الامر مخالفاً لطلبتكم ورجائكم فابعثوا الينا رجالاً من اصحابكم نعاملهم على ما نرضى نحن وهم به من شيء »

فلما اتى رسل المقوقس الى عمرو حبسهم عنده يومين وليلتين حتى خاف عليهم المقوقس وانما اراد بذلك عمرو ان يروا حال المسلمين

وعند ذلك رد عمرو الرسل وكتب الى المقوقس « انه ليس بيني وبينكم الا احدى

ثلاث خصال اما ان دخلتم في الاسلام فكنتم اخواننا وكان لكم مالنا وان ابيتم فاعطيتم الجزية عن يد وانتم صاغرون واما ان جاهدناكم بالصبر والقتال حتى يحكم الله بيننا وبينكم وهو خير الحاكمين »

فلما جاءت رسل المقوقس اليه قال كيف رأيتم هؤلاء قالوا « رأينا قوماً الموت احبُّ الى احدهم من الحياة والتواضع احب الى احدهم من الرفعة ليس لاحدهم في الدنيا رغبة ولا نهمة انما جلوسهم على التراب واكلهم على ركبهم واميرهم كواحد منهم لا يعرف رفيعهم من وضيعهم ولا السيد منهم من العبد واذا حضرت الصلاة لم يتخلف عنها منهم احد يغسلون اطرافهم بالماء ويخشعون في صلاتهم »

فاقسم المقوقس قائلا « لو ان هؤلاء التقوا الجبال لازالوها ولا يقوى على قتال هؤلاء احد ولئن لم نغتنم صلحهم اليوم وهم محصورون بهذا النيل لن يجيبونا بعد اليوم اذا امكنتهم الارض وقووا على الخروج من مواضعهم » وما زال على رجال حكومته حتى وافقوه على طلب الصلح فكتب الى عمرو ابعثوا الينا رسلا منكم نعاملهم ونتداعى وهم الى ما عساه ان يكون فيه صلاح لنا ولكم »

« الوفد الى المقوقس »

فبعث عمرو عشرة نفر احدهم عبادة بن الصامت وكان رابط الجأش هائل المنظر اسود اللون طوله عشرة اشبار وجعله متكلم القوم وامره ان لايجيبهم الى شيء دعوه الا احدى هذه الثلاث خصال قائلا ان امير المؤمنين قد تقدم اليَّ في ذلك وامرني ان لا اقبل شيئاً سوى خصلة من هذه الثلاث « فركبوا السفن حتى اتوا المقوقس ودخلوا عليه فتقدم عبادة في صدر اصحابه فهابه المقوقس لسواده وعظم جثته وقال نحوا عني هذا الاسود وقدموا غيره يكلمني » فاجابوا « ان هذا افضلنا رأياً وعلماً وهو سيدنا وخيرنا والمقدم علينا وانما نرجع جميعاً الى قوله ورأيه وقد امرنا الامير ان لا نخالف له امراً » فقال المقوقس « وكيف رضيتم ان يكون هذا مقدماً عليكم وهو اسود وانما ينبغي ان يكون دونكم » فقالوا « كلا وان كان اسود فهو افضلنا » فقال المقوقس لعبادة « تقدم يا اسود وكلمني برفق فاني اهاب سوادك »

فتقدم وقال « قد سمعت مقالتك وان فيمن خلفت من اصحابي الف رجل سود كلهم اشد سواداً مني وافظع منظراً وجميعهم اشد هيبة مني وانا قد وليت وادبر شبابي واني مع ذلك بحمد الله ما اهاب مائة رجل وذلك انما هو لرغبتنا وهمتنا في الجهاد

في الله واتباع رضوانه وليس غزونا عدونا ممن حارب الله لرغبة في الدنيا ولا طلب الاستكثار منها الا ان الله عزّ وجلّ قد احل لنا ذلك وجعل ما غنمنا منه حلالاً وما يبالي احدنا ان كان له قنطار ذهب او كان لا يملك الا درهماً لان غاية احدنا من الدنيا اكلة يأكلها ليسد بها جوعه لليله ونهاره وشملة يلتحفها فان كان احدنا لا يملك الا ذلك كفاه وان كان له قنطار من ذهب انفقه في سبيل الله واقتصر على هذا الذي في يده ويبلغه ما كان في الدنيا لان نعيم الدنيـا ليس نعيماً ورخاءها ليس رخاء انما النعيم والرخاء في الآخرة وبذلك امرنا الله وامرنا به نبينا وعهد الينا ان لا تكون همة احدنا من الدنيا الا ما يمسك به جوعه ويستر عورته وتكون همته وشغله في رضوانه وجهاد عدوه »

فلما سمع المقوقس من هذا الكلام قال لمن حوله بلسانهم « هل سمعتم مثل كلام هذا الرجل قط لقد هبت منظره وان قوله لاهيب . ان هذا واصحابه اخرجهم الله لخراب الارض ما اظن ملكهم الا سيغلب على الارض كلها » ثم اقبل على عبادة وقال له « ايها الرحل الصالح قد سمعت مقالتك وما ذكرت عنك وعن اصحابك ولعمري ما بلغتم الا بما ذكرت وما ظهرتم على من ظهرتم عليه الا لحبهم الدنيا ورغبتهم فيها وقد توجه الينا لقتالكم من جمع الروم ما لا يحصى عدده قوم معروفون بالنجدة والشدة ما يبالي احدهم بمن لقي ولا من قاتل وانا لنعلم انكم لن تطيقوهم لضعفكم وقلتكم وقد اقمتم بين اظهرنا اشهراً وانتم في ضيق وشدة من معاشكم وحالكم ونحن تطيب انفسنا ان نصالحكم على ان نفرض لكل رجل منكم دينارين ولأميركم مائة دينار ولخليفتكم الف دينار فتقبضونها وتنصرفون الى بلادكم قبل ما يغشاكم ما لا قوام لكم به »

فقال عبادة « يا هذا لا تغرن نفسك ولا اصحابك . . اما ما تخوفنا به من جمع الروم وعددهم وكثرتهم وانا لا نقوى عليهم فلعمري ما هذا الذي تخوفنا به ولا بالذي يكسرنا عما نحن فيه وان كان ما قلتم حقاً فذلك والله ارغب ما يكون في قتالهم واشد لحرصنا عليهم لان ذلك اعذر لنا عند ربنا اذا قدمنا عليه ان قتلنا عن آخرنا كان امكن لنا في رضوانه وجنته وما شيء اقرّ لاعيننا ولا احب لنا من ذلك وانا منكم حينئذ لعلى احدى الحسنيين اما ان تعظم لنا بذلك غنيمة الدنيا ان ظفرنا بكم او غنيمة الآخرة ان ظفرتم بنا ولانها أحب الخصلتين الينا بعد الاجتهاد منا . وان الله عز وجل قال لنا في كتابه (كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله والله مع الصابرين) وما منا رجل الا ويدعو ربه صباحاً ومساء ان يرزقه الشهادة وأن لا يرده الى

بلده ولا الى ارضه ولا الى اهله وولده وليس لاحد منا همٌ فيما خلفه وقد استودع كل منا ربه اهله وولده وانما همنا ما امامنا . واما قولك اننا في ضيق وشدة من معاشنا وحالنا فنحن في اوسع السعة لوكانت الدنيا كلها لنا ما اردنا منها لانفسنا أكثر مما نحن عليه فانظر الذي تريده فبينه فليس بيننا وبينك خصلة نقبلها منك ولا نجيبك اليها الا خصلة من ثلاث خصال فاختر ايتها شئت ولا تطمع نفسك في الباطل . بذلك أمرني الامير وبها امره امير المؤمنين وهو عهد رسول الله من قبل الينا . اما ان اجبتم الى الاسلام الذي هو الدين القيم الذي لا يقبل الله غيره وهو دين انبيائه ورسله وملائكته امرنا الله ان نقاتل من خالفه ورغب عنه حتى يدخل فيه فان فعل كان له ما لنا وعليه ما علينا وكان اخانا في دين الله فان قبلت ذلك انت واصحابك فقد سعدتم في الدنيا والآخرة ورجعنا عن قتالكم ولم نستحل اذاكم ولا التعرض لكم وان ابيتم الا الجزية فأدوا الينا الجزية عن يد وانتم صاغرون وان نعاملكم على شيء نرض نحن وانتم في كل عام ابداً ما بقينا وبقيتم ونقاتل عنكم من ناوأكم وعرض لكم في شيء من ارضكم ودمائكم واموالكم ونقوم بذلك عنكم ان كنتم في ذمتنا وكان لكم به عهد علينا وان ابيتم فليس بيننا وبينكم الا المحاكمة بالسيف حتى نموت عن آخرنا او نصيب ما نريد منكم . هذا ديننا الذي ندين الله تعالى به ولا يجوز لنا فيما بيننا وبينه غيره فانظروا لانفسكم »

فأعظم المقوقس ذلك وقال « هذا ما لا يكون ابداً ما تريدون الا ان تتخذونا عبيداً ما كانت الدنيا » فقال عبادة « هو ذاك فاختر لنفسك ما شئت » فقال « أفلا تجيبوننا الى غير هذه الثلاث خصال »

فرفع عبادة يديه الى السماء وقال « لا وربّ هذه السماء وربّ هذه الارض وربّ كل شيء ما لكم عندنا خصلة غيرها فاختاروا لانفسكم »

فالتفت اذ ذاك المقوقس الى ارباب مجلسه وقال « قد فرغ القوم فما تريدون » فقالوا « ايرضى احد بهذا الذل ؟ اما ما ارادوا من دخولنا في دينهم فهذا لا يكون ابداً ان نترك دين المسيح بن مريم وندخل في دين غيره لا نعرفه . واما ما ارادوا ان يسبونا ويجعلونا عبيداً فالموت ايسر من ذلك فلو رضوا ان نضاعف لهم ما اعطيناهم مراراً كان اهون علينا »

فقال المقوقس لعبادة « قد ابى القوم فما ترى فراجع اصحابك على ان نعطيكم في مرتكم هذه ما تمنيتم وتنصرفون » . فقال عبادة واصحابه « لا » فقال المقوقس

لاصحابه « اطيعوني واجيبوا القوم الى خصلة من هـذه الثلاث فوالله ما لكم بهم طاقة ولئن لم نجيبهم اليها طائعين لنجيبنهم الى ما هو اعظم كارهين

فقالوا « واي خصلة نجيبهم اليها » قال « اما دخولكم في غير دينكم فلا يسلم احدكم به واما قتالهم فانا اعلم انكم لن تقدروا عليهم ولن تصبروا صبرهم ولا بد من الثالثة » قالوا « فنكون لهم عبيداً ابداً ؟ » قال « نعم تكونون عبيداً مسلطين في بلادكم آمنين على انفسكم واموالكم وذراريكم فاطيعوني قبل ان تندموا » فرضوا بالجزية على صلح يكون بينهم يعرفونه

فقال المقوقس لعبادة « اعلم اميرك لا أزال حريصاً على اجابتك الى خصلة من تلك الخصال التي ارسل اليّ بها فليعطني ان اجتمع به انا في نفر من اصحابي وهو في نفر من اصحابه فان استقام الامر بيننا تم ذلك جميعاً وان لم يتم رجعنا الى ما كنا عليه »

فرجع عبادة الى عمرو واخبره بما كان فاستشار اصحابه فقالوا « لا نجيبهم الى شيء من الصلح ولا الجزية حتى يفتح الله علينا وتصير الارض كلها لنا فيئاً وغنيمة كما صار لنا الحصن وما فيه . فقال عمرو « قد علمتم ما عهد اليّ امير المؤمنين في عهده فان اجابوا الى خصلة من الخصال الثلاث التي عهد اليّ فيها اجبتهم وقبلت منهم مع ما قد حال هذا الماء بيننا وبين ما نريد من قتالهم » فوافقوه

فاجتمع عمرو والمقوقس واتفقا على الصلح بان يعطي الامان للمصريين وهم يدفعون الجزية وهاك نص الشروط

بسم الله الرحمن الرحيم هذا ما اعطى عمرو بن العاص اهل مصر من الامان على انفسهم ودمهم واموالهم وكافتهم وصاعهم ومدهم وعددهم لا يزيد شيء في ذلك ولا ينقص ولا يساكنهم النوب وعلى اهل مصر ان يعطوا الجزية اذا اجتمعوا على هـذه الصلح وانتهت زيادة نهرهم خمسين الف الف وعليه ممن جنى نصرتهم فان أبى أحد منهم ان يجيب رفع عنهم من الجزية بقدرهم وذمتنا ممن أبى بريئة وان نقص نهرهم من غايته اذا انتهى رفع عنهم بقدر ذلك . ومن دخل في صلحهم من الروم والنوب فله ما لهم وعليه ما عليهم ومن أبى واختار الذهاب فهو آمن حتى يبلغ مأمنه ويخرج من سلطاننا وعليهم ما عليهم اثلاثاً في كل ثلث جباية ثلث ما عليهم على ما في هذا الكتاب عهد الله وذمته وذمة رسوله وذمة الخليفة امير المؤمنين وذمم المؤمنين . وعلى النوبة الذين استجابوا ان يعينوا بكذا وكذا رأساً وكذا وكذا فرساً على ان لا يغزوا ولا يمنعوا من تجارة

صادرة ولا واردة . شهد الزبير وعبد الله ومحمد ابناه وكتب وردان وحضر هـذا نص الكتاب »

ولما تم الصالح على هذه الصورة كتب المقوقس الى ملك الروم كتاباً يعلمه بالامر كله فكتب اليه ملك الروم ويقبح رايه ويعجزه ويرد عليه ما فعل ويقول في كتابه « ان ما اتاك من العرب اثنا عشر الفاً وبمصر من بها من كثرة عدد القبط ما لا يحصى فان كان القبط كرهوا القتال وأحبوا اداء الجزية الى العرب واختاروهم علينا فان عندكم بمصر من الروم وبالاسكندرية ومن معك اكثر من مائة الف فارس معهم العدة والقوة والعرب وحالهم وضعفهم على ما قد رأيت فعجزت عن قتالهم ورضيت ان تكون انت ومن معك من الروم في حال القبط أذلاء فقاتلهم انت ومن معك من الروم حتى تموت او تظهر عليهم فانهم فيكم على قدر كثرتكم وقوتكم وعلى قدر قلتهم وضعفهم كأكلة . ناهضهم القتال ولا يكن لـكم رأي غير ذلك » وكتب ملك الروم بمثل ذلك كتاباً الى جماعة الروم

فاقبل المقوقس على عمرو فقال له « ان الملك قد كره ما فعلت وعجزني وكتب الى والى جماعة الروم ان لا ترضى بمصالحتك وامرهم بقتالك حتى يظفروا بك اوتظفر بهم . ولم اكن لاخرج مما دخلت فيه وعاهدتك عليه وانما سلطاني على نفسي ومن اطاعني وقد تم صلح القبط مما بينك وبينهم ولم يأت من قبلهم نقض وانا متمّ لك على نفسي والقبط متمون لك على الصلح الذي صالحتهم عليه وعاقبتهم . واما الروم فانا منهم براء . وانا اطلب اليك ان تعطيني ثلاث خصال . الاولى الا تنقض بالقبط وادخلني معهم والزمني ما لزمهم وقد اجتمعت كلمتي وكلمتهم على ما عاهدتك عليه منهم متمون لك على ما تحب . واما الثانية فان سألك الروم بعد اليوم ان تصالحم فلا تصالحهم حتى تجعلهم فيئاً وعبيداً فانهم اهل لذلك لاني نصحتهم فاستغشوني ونظرت اليهم فاتهموني . واما الثالثة فاني اطلب اليك ان انا مت ان تأمرهم يدفنوني بجسر الاسكندرية » فاجابه الى ما طلب على ان يضمنوا له الجسرين جميعاً ويقيموا لهم الانزال والضيافة والاسواق في طريقهم الى الاسكندرية ففعلوا وصارت القبط لهم اعواناً

فأنفذ عند ذلك عمرو الى الخليفة رسولاً بكتاب يخبره بما تم بينه وبين المقوقس فأجابه منشطاً وسأله ان يصف له مصر فكتب اليه

ورد اليّ كتاب امير المؤمنين اطال الله بقاءه ويسألني عن مصر اعلم يا امير المؤمنين ان مصر قرية غبراء وشجرة خضراء طولها شهر وعرضها عشر يكتنفها جبل اغبر

ورمل اعفر يخط وسطها النيل المبارك الغدوات ميمون الروحات تجري فيه الزيادة والنقصان لمجاري الشمس والقمر . له اوان يدرّ حلابه ويكثر عجاجه وتعظم امواجه فتفيض على الجانبين فلا يمكن التخلص من القرى بعضها الى بعض الا في صغار المراكب وخفاف القوارب وزوارق كأنهن المخايل ورقّ الاصايل . فاذا تكامل في زيادته نكص على عقبيه كاول ما بدا في جريته وطمى في دوته . فعند ذلك تخرج ملة محقورة وذمةً مخفورة يحرثون بطون الارض ويبذرون بها الحب يرجون بذلك النماء من الرب لقيهم ما سعوا من كدهم فناله منهم بغير جدهم . فاذا احدق الزرع واشرق سقاه الندى وغذاه من تحت الثرى . فبينما مصر يا امير المؤمنين لؤلؤة بيضاء اذا هي عنبرة سوداء فاذا هي زمردة خضراء فاذا هي ديباجة زرقاء فتبارك الله الخالق لما يشاء الذي يصلح هذه البلاد وينيرها ويقرّ قاطنها فيها ان لا يقبل قول خسيسها في رئيسها . وان لا يستأدى خراج الثمرة الا في اوانها وان يصرف ثلث ارتفاعها في عمل جسورها وتراعها . فاذا تقرر الحال مع العمال في هذه الاحوال تضاعف ارتفاع المال والله تعالى يوفق الملك والمال »

« ذكر مقتل عمر »

(رضي الله عنه)

في ٢٦ ذي الحجة سنة ٢٣ هـ طعن ابو لؤلؤة واسمه فيروز عبد المغيرة بن شعبة عمر بن الخطاب وهو في الصلاة بخنجر في خاصرته وتحت سرته وذلك لست بقين من ذي الحجة من السنة المذكورة وتوفي يوم السبت سلخ ذي الحجة ودفن يوم الاحد هلال المحرم سنة اربع وعشرين وكانت مدة خلافته عشر سنين وستة اشهر وثمانية ايام ودفن عند النبي « صلعم » وابي بكر الصديق رضي الله عنهما . وكان عمره ستين سنة وقيل ثلاث وستين وكان له من الفضل والزهد والعدل والشفقة على المسلمين القدر الوافر . وعمر أول من سمي بأمير المؤمنين واول من كتب التاريخ وارخ من السنة التي هاجر فيها رسول الله « صلعم » واول من عس بالليل واول من نهى عن بيع امهات الاولاد واول من جمع الناس في صلاة الجنازة على اربع تكبيرات وكانوا قبل ذلك يكبرون اربعاً وخمساً وستاً واول من جمع النـاس على امام يصلي بهم التراويح في الرمضان

« خلافة عثمان بن عفان »

وبويع عثمان (رضية) في ٣ محرم سنة ٢٤ ولما بويع رقي المنبر وقام خطيباً فحمد الله وتشهد ثم ارتج عليه فقال ان أول كل أمر صعب وان اعش فسيأتيكم الخطب على وجهها ثم نزل وأقر عثمان ولاة عمر سنة لانه كان اوصى بذلك ثم عزل المغيرة بن شعبة عن الكوفة وولاها سعد ابن أبي وقاص ثم عزله وولى الكوفة الوليد بن عقبة بن ابي معيط وكان أخا عثمان من أمه (ثم دخلت سنة خمس وعشرين) فيها توفي ابو ذر الغفاري واسمه جندب بن جنادة وكان بالشام ينكر على معاوية جمع المال ويتلو والذين يكنزون الذهب والفضة ولاينفقونها في سبيل الله الآية فكتب معاوية الى عثمان يشكوه فكتب اليه عثمان ان أقدم المدينة فقدم الى المدينة واجتمع الناس عليه فصار يذكر ذلك ويكثر الشناعة على من كنز الذهب والفضة فنفاه عثمان الى الربذة وقيل كانت وفاته بالربذة سنة احدى وثلاثين «ثم دخلت سنة ست وعشرين» فيها عزل عثمان عمرو بن العاص عن مصر وولاها عبد الله بن سعد بن أبي سرح العامري وكان اخا عثمان من الرضاعة . وفي ايام عثمان فتحت افريقية وكان المتولى لذلك عبد الله بن سعد المذكور . ولما فتحت افريقية امر عثمان عبد الله بن نافع بن الحصين ان يسير الى جهة الاندلس فغزا تلك الجهة وعاد عبد الله بن نافع الى افريقية فأقام بها من جهة عثمان ورجع عبد الله بن سعد الى مصر « وفي سنة ثمان وعشرين » فيها استأذن معاوية وعثمان في غزو البحر فاذن له فسير معاوية الى قبرس جيشاً وسار اليها ايضاً عبد الله بن سعد من مصر فاجتمعوا عليها وقاتلوا اهلها ثم صولحوا على جزية سبعة آلاف دينار في كل سنة

ثم دخلت سنة ثلاثين — فيها بلغ عثمان ما وقع في أمر القرآن من أهل العراق فانهم يقولون قرآننا أصح من قرآن اهل الشام لانا قرأنا على ابي موسى الاشعري واهل الشام يقولون قرآننا اصح لانا قرأنا على المقداد بن الاسود وكذلك غيرهم من الامصار فاجمع رأيه ورأي الصحابة على ان يحمل الناس على المصحف الذي كتب في خلافة ابي بكر (رضيه) وكان مودعاً عند حفصة زوج النبي (صلعم) وتحرق ما سواه من المصاحف التي بأيدي الناس ففعل ذلك ونسخ من ذلك المصحف مصاحف وحمل كلا منها الى مصر من الامصار وكان الذي تولى نسخ العثمانية بامر عثمان زيد ابن ثابت وعبد الله بن الزبير وسعيد بن العاص وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام المخزومي . وقال عثمان ان اختلفتم في الكلمة فاكتبوها بلسان قريش فانما نزل القرآن

بلسانهم . وفي هذه السنة سقط من يد عثمان خاتم النبي (صلعم) وكان من فضة فيه ثلاثة اسطر « محمد رسول الله » وكان النبي يتختم به ويختم به الكتب التي كان يرسلها الى الملوك ثم ختم به بعده ابو بكر وعمر كل ايام خلافتهما ثم عثمان . فحفروا بئراً في المدينة شرباً للمسلمين فقعد عثمان على رأس البئر فجعل يعبث بالخاتم فسقط عن يده في البئر فطلبوه فيها ونزحوا ما فيها من الماء فلم يقدروا عليه فجعل فيه مالا عظيما لمن جاءه به واغتم لذلك غماً شديداً فلما يئس منه صنع خاتماً آخر ونقش عليه « لتصبرن ولتندمن » وقيل بل نقش عليه « آمنت بالذي خلق فسوّى » وقد كان من شدة تشاؤم المسلمين من سقوط الخاتم ان ذهب بعض كتابهم فيما بعد انه كان سبب اختلال امر الخلافة ولو لم يقع خاتم النبي في البئر لانتظم امر الخلافة امته الى يوم القيامة

« ذكر مقتل عثمان بن عفان »

وفي سنة ٣٥ قدم من مصر جمع قيل الف وقيل ٧٠٠ وكذلك قدم من الكوفة جمع وكذلك من البصرة وكان هوى المصريين مع علي وهوى الكوفيين مع الزبير . وهوى البصريين مع طلحة فدخلوا المدينة ولما جاءت الجمعة التي تلي دخولهم المدينة خرج عثمان فصلى بالناس ثم قام على المنبر وقال للجموع المذكورة (يا هؤلاء الله) يعلم وأهل المدينة يعلمون أنكم ملعونون على لسان محمد صلى الله عليه وسلم فقام محمد ابن مسلمة الانصاري فقال أنا أشهد بذلك فثار القوم بأجمعهم فحصبوا الناس حتى أخرجوهم من المسجد وحصب عثمان حتى خر عن المنبر مغشياً عليه فادخلوه داره وقاتل جماعة من أهل المدينة عن عثمان منهم سعد بن أبي وقاص والحسن بن علي بن أبي طالب وزيد بن ثابت وأبو هريرة رضي الله عنهم فارسل اليهم عثمان يعزم عليهم بالانصراف فانصرفوا وصلى عثمان بالناس بعد ما نزلت الجموع المذكورة في المسجد ثلاثين يوماً ثم منعوه الصلاة فصلى بالناس أميرهم الغافقي امير جمع مصر . ولزم اهل المدينة بيوتهم وعثمان محصور في داره ودام ذلك أربعين يوماً وقيل خمسين . ثم ان علياً اتفق مع عثمان على ما تطلبه الناس منه من عزل مروان عن كتابته وعبد الله ابن ابي سرح عن مصر فأجاب عثمان الى ذلك وفرق علي الناس عنه ثم اجتمع عثمان بمروان فرده عن ذلك ثم اضطره الحال حتى عزل ابن ابي سرح عن مصر وولاها محمد بن ابي بكر الصديق وتوجه مع محمد بن ابي بكر عدة من المهاجرين والانصار فبينما هم في اثناء الطريق واذا بعبد على هجين يجهده فقالوا له الى اين قال الى العامل

بمصر فقالوا هذا عامل مصر يعنون محمد بن أبي بكر فقال بل العامل الآخر يعني ابن أبي سرح فامسكوه وفتشوه فوجدوا معه كتاباً مختوماً بختم عثمان يقول اذا جاءك محمد بن ابي بكر ومن معه بانك معزول فلاتقبل واحتل بقتلهم وابطل كتابهم وقر في عملك فرجع محمد بن أبي بكر ومن معه من المهاجرين والانصار الى المدينة وجمعوا الصحابة وأوقفوهم على الكتاب وسألوا عثمان عن ذلك فاعترف بالختم وخط كاتبه وحلف بالله انه لم يأمر بذلك فطلبوا منه مروان يسلمه اليهم بسبب ذلك فامتنع فازداد حنق الناس على عثمان وجدُّوا في قتاله فأقام علي ابنه الحسن على باب عثمان ليذبَّ عنه فلا يدَعُ احداً يصل اليه وبعث طلحة والزبير وعدة من الصحابة ابناءهم يمنعون الناس ان يدخلوا على عثمان ويسألونه اخراج مروان فلما رأى ذلك محمد بن ابي بكر ومن معه وقد رمى الناس عثمان السهام حتى خضب الحسن بالدماء على بابه خافوا ان يغضب بنو هاشم للحسن ويكشفوا الناس عن عثمان فاخذ بن ابي بكر بيد رجلين من اهل مصر فدخلوا من بيت بجواره لان كل من كان مع عثمان كانوا فوق البيوت ولم يكن في الدار عنده الا امراته فنقبوا الحائط فدخل عليه محمد بن ابي بكر فوجده يتلو القرآن فاخذ بلحيته فقال له عثمان والله لو رآك ابوك لساءه فعلك فتراخت يده ودخل الرجلان فقتلاه وخرجا هاربين وكانت امراته تصرخ فلا يسمع صراخها لما كان من الضوضاء حول الدار فصعدت واشرفت عليهم فقالت قُتل امير المؤمنين فدخل الناس فوجدوه قتيلاً وقد انتثر الدم على المصحف على الآية « فسيكفيكهم الله وهو السميع العليم » وبلغ الخبر علياً وطلحة والزبير وسعداً فخرجوا وقد ذهبت عقولهم للخبر حتى دخلوا على عثمان فقال علي لابنيه كيف يقتل اميرالمؤمنين وانتما على الباب ورفع يده فلطم الحسن على صدره وشتم محمد بن طلحة وأتى منزله فجاء الناس يهرعون اليه يريدون مبايعته فقال اني والله لاستحي ان ابايع قوماً قتلوا عثمان اني لاستحي من الله تعالى ان ابايع وعثمان لم يدفن فافترقوا ثم تمت له البيعة

وبقي عثمان ثلاثة ايام لم يدفن ثم حمله نفر من اهله بعد المغرب ليدفنوه فجاء بعض الانصار ليمنعوهم من الصلاة عليه ثم تركوهم خوف الفتنة وجلس آخرين على الطريق ليرجموا سريره فارسل علي فمنعهم . ودفن بحائط من حيطان المدينة يسمى حسن كوكب وبقي ذلك الحائط الى خلافة معاوية بن ابي سفيان فأمر به فهدم وادخل في البقيع وامر الناس فدفنوا امواتهم حول قبره حتى اتصل الدفن بمقابر المسلمين

واخذ عليٌّ يبحث عن قتلة عثمان فسأل امرأته فقالت لا ادري الا ان دخل عليه

محمد بن ابي بكر ومعه رجلان لا اعرفهما فدعا محمد وسأله قال والله لم تكذب دخلت عليه وانا اريد قتله فذكر لي ابي فقمت عنه وانا تائب لله . واما مروان بن الحكم فهرب ومعه ولده الى معاوية بالشام وارسل قميص عثمان مخضباً الى الشام ومعه اصابع نائلة امرأته اذ قطعت اثناء دفاعها عنه فعرض معاوية القميص والاصابع في جامع دمشق وحرض الناس على المطالبة بدم عثمان وثارت بسبب قتله اعظم فتنة في الاسلام فخرجت الخلافة من المدينة ولم تعد اليها وكانت على اثر ذلك واقعة صفين وواقعة الجمل وتلتها بين المسلمين حروب وفتن لا يزال يتطاير شرورها حتى الآن

وكان ورعاً صادقاً كريماً انفق الكثير من ماله في سبيل الله قبل تولية الخلافة فهو الذي جهز يوم العسرة نصف الجيش من ماله وابتاع رومة فاباح ماءها لابناء السبيل وانفق يوم غزوة تبوك الف دينار ووهب ثلثمائة بعير باقتابها واحلاسها وابتاع بجياة النبي بيتاً فوسع به المسجد الحرام ولما ولى الخلافة امر بتجريد الهضاب الحرم وقاد في المسجد ووسع مسجد المدينة فجعل طوله ١٦٠ ذرعاً وعرضه ١٥٠ . وهو الذي امر بجمع المصحف وكتابته نسخ ترسل الى كل قطر من بلاد المسلمين فقد كثر الآسفون عليه لمصابه فرثاه كثيرون من الصحابة ومن ذلك قول حسان بن ثابت شاعر النبي صلى الله عليه وسلم

اتركتم غزو الدروب وراءكم ... وغزوتمونا عند قبر محمد
فلبئس هدى المسلمين هديتمُ ... ولبئس امر الفاجر المتعمد
وكان اصحاب النبي عشية ... بُوقٌ تذبح عند باب المسجد

وكان عثمان معتدل القامة حسن الوجه بوجهه اثر جدري عظيم اللحية اسمر اللون اصلع يصفر لحيته وتزوج ابنتي رسول الله صلى الله عليه وسلم وسبب ذلك قيل له ذو النورين

« خلافة علي بن ابي طالب »

واسم أبي طالب عبد مناف بن عبد المطلب جد رسول الله صلى الله عليه وسلم وام علي فاطمة بنت اسد بن هاشم فهو هاشمي ابن هاشميين بويع بالخلافة يوم قتل عثمان وقد اختلف في كيفية بيعته فقيل اجتمع اصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وفيهم طلحة والزبير فاتوا علياً وسألوه البيعة له فقال لا حاجة لي في امركم من اخترتم رضيت به فقالوا ما نختار غيرك وترددوا اليه مراراً وقالوا انا لا نعلم احداً

أحق بالامر منك ولا أقدم منك سابقة ولا اقرب من رسول الله (صلعم) فقال أكون وزيراً خير من ان أكون أميراً فأتوا عليه فأتى المسجد فبايعوه وقيل بايعوه في بيته واول من بايعه طلحة بن عبد الله وكانت يد طلحة مشلولة من نوبة أحُد فقال حبيب بن ذؤيب ان الله اول من بدأ بالبيعة يد شلاء لا يتم هذا الامر وبايعه الزبير وقال علي لهما ان أحببتما ان تبايعا لي بايعا وان أحببتما بايعتكما فقالا لا بل نبايعك وقيل انهما قالا بعد ذلك وانما بايعنا خشية على نفوسنا . ثم هربا الى مكة بعد مبايعة علي بأربعة اشهر وجاؤا بسعد ابن ابي وقاص فقال له علي بايع فقال لا حتى يبايع الناس والله ما عليك مني بأس فقال خلوا سبيله وكذلك تأخر عن البيعة عبد الله بن عمر وبايعته الانصار الا نفر قليل منهم حسان بن ثابت وكعب بن مالك ومسلمة بن مخلد وأبو سعيد الخدري والنعمان ابن بشير ومحمد بن مسلمة وفضالة بن عبيد وكعب بن عجرة وزيد بن ثابت وكان هؤلاء قد ولاهم عثمان على الصدقات وغيرها وكذلك لم يبايع علياً سعد بن زيد وعبد الله بن سلام وصهيب بن سنان واسامة بن زيد وقدامة بن مظعون والمغيرة بن شعبة وسموا هؤلاء المعتزلة لاعتزالهم بيعة علي . واما مروان بن الحكم فهرب ومعه ولده الى معاوية بالشام كما تقدم .

« ذكر مقتل علي بن أبي طالب »

رضي الله عنه

قيل اجتمع ثلاثة من الخوارج منهم عبد الرحمن بن ملجم المرادي وعمرو بن بكر التميمي والبرك بن عبد الله التميمي ويقال ان اسمه الحجاج فذكروا اخوانهم من المارقة المقتولين بالنهروان فقالوا لو قتلنا أئمة الضلالة أرحنا منهم البلاد فقال ابن ملجم أنا اكفيكم علياً وقال البرك انا اكفيكم معاوية وقال عمرو بن بكر انا اكفيكم عمرو بن العاص وتعاهدوا ان لا يفر احد منهم عن صاحبه الذي توجه اليه واستصحبوا سيوفاً مسمومة وتواعدوا لسبع عشرة ليلة تمضي من رمضان من هذه السنة اعني سنة ٤٠ ان يثب كل واحد منهم بصاحبه واتفق مع عبد الرحمن بن ملجم رجلان احدهما يقال له وردان من تيم الرباب والآخر شبيب من أشجع وثبوا على علي وقد خرج الى صلاة الغداة فضربه شبيب فوقع سيفه في الطاق وهرب شبيب فنجا في غمار الناس وضربه بن ملجم في جبهته واما وردان فهرب وامسك بن ملجم وأحضر مكتوفاً بين يدي علي ودعا على الحسن والحسين وقال أوصيكما بتقوى الله ولا تبغيا الدنيا ولا تبكيا على شيء ذوى

عنكما منها ثم لم ينطق الا بلا إله الا الله حتى قبض رضي الله عنه (وأما) البرك فوثب على معاوية في تلك الليلة وضربه بالسيف فوقع في الية معاوية وأمسك البرك فقال له اني ابشرك فلا تقتلني فقال بماذا قال ان رفيقي قتل علياً هـذه الليلة فقال معاوية لعله لم يقدر فقال بلى ان علياً ليس معه من يحرسه فقتله معاوية (وأما) عمرو بن بكر فانه جلس تلك الليلة لعمرو بن العاص فلم يخرج عمرو الى الصلاة وكان قد امر خارجة بن أبي حبيبة صاحب شرطته أن يصلي بالناس فخرج خارجة ليصلي بالناس فشد عليه عمرو ابن بكر وهو يظن انه عمرو بن العاص فقتله فأخذه الناس واتوا به عمراً فقال من هذا قالوا عمرو فقال أنا من قتلت قالوا خارجة فقال عمرو أردت عمراً واراد الله خارجة ولما مات علي اخرج عبد الرحمن بن ملجم من الحبس فقطع عبد الله بن جعفر يده ثم رجله وكحلت عيناه بمسمار محمى وقطع لسانه وأحرق لعنه الله ولبعض الخوارج وهو عمران بن حطان لعنه الله

لله در المرادي الذي فتكت   كفاه مهجة شر الخلق انسانا
ياضربة من ولى ما اراد بها   الا ليبلغ من ذى العرش رضوانا
اني لاذكره يوماً فاحسبه   أوفى الخليقة عند الله ميزانا

واختلف في عمر علي رضي الله عنـه فقيل كان ثلاث وستين وقيل خمساً وستين وقيل تسعاً وخمسين وكانت مدة خلافته خمس سنين الا ثلاثة اشهر وكان قتله كما ذكرنا صبيحة الجمعة لسبع عشرة ليلة خلت من رمضان سنة اربعين واختلف في موضع قبره فقيل دفن مما يلي قبلة المسجد بالكوفة وقيل عند قصر الامارة وقيل حوله ابنه الحسن الى مدينته ودفنه بالبقيع عنـد قبر زوجته فاطمة رضي الله عنهما والاصح وهو الذي ارتضاه ابن الاثير وغيره ان قبره هو المشهور بالنجف وهو الذي يزار اليوم

واول زوجة تزوج بها علي رضي الله عنه فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يتزوج غيرها في حياتها وولد له منها الحسن والحسين ومحسن ومات صغيراً وزينب وأم كلثوم التي تزوجها عمر بن الخطاب ثم بعد موت فاطمة تزوج أم البنين بنت حزام الكلابية فولد له منهـا العباس وجعفر وعبد الله وعثمان قتل هؤلاء الاربعة مع أخيهم الحسين ولم يعقب منهم غير العباس وتزوج ليلى بنت مسعود بن خالد النهشلي التميمي وولد له منها عبد الله وأبو بكر قتل مع الحسين أيضاً وتزوج اسماء بنت عميس وولد له منهـا محمد الاصغر ويحيي ولا عقب لهما وولد له من الصهبا بنت ربيعة التغلبية وهي من السبي الذين أغار عليهم خالد بن الوليد بعين التمر عمر ورقية وعاش عمر المذكور حتى بلغ من العمر خمساً وثمانين سنة وحاز نصف ميراث أبيه علي ومات بنبع وله عقب وتزوج ايضاً

امامة بنت ابي العاص بن الربيع بن عبد شمس بن عبد مناف وأمها زينب بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم وولد له منها محمد الاوسط ولا عقب له وولد له من خولة بنت جعفر الحنفية محمد الاكبر وكان له بنات من امهات شتى منهن ام حشن ورملة الكبرى من أم سعيد بنت عروة ومن بناته أم هانئ وميمونة وزينب فجميع بنيه الذكور اربعة عشر لم يعقب منهم الا خمسة وهم الحسن والحسين ومحمد بن الحنفية والعباس وعمر

« ذكر تسليم الحسن الامر الى معاوية »

قيل كان علي قبيل موته قد بايعه أربعون ألفاً من عسكره على الموت واخذ في التجهز الى قتال معاوية فاتفق مقتله ولما بويع الحسن بلغه مسير أهل الشام الى قتاله مع معاوية فتجهز الحسن في ذلك الجيش الذي كانوا قد بايعوا أباه وصار عن الكوفة الى لقاء معاوية ووصل الى المداين وجعل الحسن على مقدمته قيس بن سعد في اثني عشر ألفاً وقيل بل الذي جعله على مقدمته عبيد الله بن عباس وجرى في عسكره فتنة قيل حتى نازعوا الحسن بساطا كان تحته فدخل المقصورة البيضاء بالمداين وازداد لذلك العسكر بغضاً ومنهم ذعراً ولما رأى الحسن ذلك كتب الى معاوية واشترط عليه شروطاً وقال ان أجبت اليها فانا سامع مطيع فأجاب معاوية اليها وكان الذي طلبه الحسن ان يعطيه ما في بيت مال الكوفة وخراج دارا بجرد من فارس وان لا يسب علياً فلم يجبه الى الكف عن سب علي فطلب الحسن ان لا يشتم علياً وهو يسمع فأجابه الى ذلك ثم لم يفِ له به وقيل انه وصله بأربعمائة الف درهم ولم يصل اليه شيء من خراج دارا بجرد ودخل معاوية الكوفة فبايعه الناس وكتب الحسن الى قيس بن سعد يأمره بالدخول في طاعة معاوية ثم جرت بين قيس وعبيد الله بن عباس وبين معاوية مراسلات وآخر الأمر انهما بايعا ومن معهما وشرطا أن لا يطالبا بمال ولا دم ووفى لهما معاوية بذلك ولحق الحسن بالمدينة وأهل بيته وقيل تسلم الحسن الامر الى معاوية في ربيع الاول سنة ٤١ في جمادى الاولى وعلى هذا فتكون خلافته على القول الأول خمسة أشهر ونحو نصف شهر وكان آخر الثلاثين يوم خلع الحسن نفسه من الخلافة وقام الحسن بالمدينة الى ان توفى بها في ربيع الاول سنة تسع وأربعين وكان مولده بالمدينة سنة ثلاث من الهجرة وهو اكبر من الحسين بسنة وتزوج الحسن كثيراً من النساء وكان مطلاقاً وكان له خمسة عشر ولداً ذكراً وثماني بنات وتوفى الحسن من سم سقته زوجته جعدة بنت الاشعث قيل فعلت ذلك بأمر معاوية وقيل بأمر يزيد بن معاوية ووعدها انه يتزوجها ان فعلت ذلك

فسقته السم وطالبت يزيد أن يتزوجها فأبى وكان الحسن قد أوصى أن يدفن عند جده رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما توفى أرادوا ذلك وكان على المدينة مروان بن الحكم من قبل معاوية فمنع من ذلك وكاد يقع بين بني أمية و بين بني هاشم بسبب ذلك فتنة فقالت عائشة رضي الله عنها البيت بيتي ولا آذن ان يدفن فيه فدفن بالبقيع ولما بلغ معاوية موت الحسن خرّ ساجداً فقال بعض الشعراء

أصبح اليوم ابن هند شامتا ظاهر النخوة اذ مات الحسن
يا ابن هند ان تذق كأس الردى تك في الدهر كشيء لم يكن
لست بالباقي فلا تشمت به كل حي للمنايا مرتهن

﴿ الدولة الاموية ﴾

« خلافة معاوية بن ابى سفيان في سنة ٤١ »

هكذا كانت نهاية دولة الخلفاء الراشدين وبداية دولة الخلفاء بني أمية وأولهم معاوية ابن أبى سفيان . وكانت الخلافة على عهد الخلفاء الراشدين انتخابية وقصبتها المدينة فجعلها معاوية وراثية وجعل قصبتها دمشق فانحصرت اعقابه . وشرع في تولية العمال على الامصار وكانت مصر من أهم تلك الامصار فعهد بامرها لعمرو بن العاص لما عرف من علو همته وحسن سياسته وجعلها له طعمة بعد عطاء جندها والنفقة في مصلحتها . فعقد عمرو لشريك بن سمى لغزو البربر في شمال افريقيا فغزاهم وصالحهم ثم انتقضوا فبعث اليهم عقبة بن نافع فغزاهم حتى هزمهم وعقد لعقبة ايضاً على غزو هوارة وعقد لشريك على غزو لبدة فغزواهما في سنة ٤٣ هـ ولما قفل كان عمرو شديد الدنف يتململ على فراش الموت فتوفى ليلة الفطر من السنة المذكورة وكان قصير القامة يخضب بالسواد وهو من أفراد الدهر دهاء وحزماً وفصاحة الا انه كان يتلجلج في كلامه

ولما علم معاوية بوفاة عمرو تكدر كدراً عظيماً جدًّا لأنه لم يعد يعلم لمن يعهد بولاية مصر بعده . وبعد التردد في الامر لم ير بدًّا من تولية أحد اهله فارسل اليها عتبة بن أبى سفيان أخاه في ذي القعدة من سنة ٤٣ فسار اليها وبعد ان أقام اشهراً عرض له سفر الى أخيه معاوية بدمشق فاستخلف عبد الله بن قيس بن الحارث وكان في شدة وعسف فكره المصريون ولايته وامتنعوا منها فبلغ ذلك عتبة فاضطر الى الرجوع الى مصر ولما جاءها صعد منبر الخطابة فقال :

« يا أهل مصر قد كنتم تعذرون ببعض المنع منكم لبعض الجور عليكم وقد وليكم من

اذا قال فعل فان ابيتم درأكم بيده وان أبيتم درأكم بسيفه ثم رجى في الاخير ما أدرك في الاول . ان البيعة شائعة لنا عليكم السمع ولكم علينا العدل واينا عذر فلا ذمة له عند صاحبه » فناداه المصريون من جنبات المجسد « سمعاً سمعاً » فناداهم « عدلاً عدلاً » ونزل وعقد عتبة لعلقمة بن يزيد على الاسكندرية في اثنى عشر الفاً تكون لها رابطة

وتوفى عتبة في الفسطاط في ذي الحجة سنة ٤٤ ﻫ وكانت مدة ولايته سنة كاملة فاقام معاوية عوضاً عنه عقبة بن عامر بن عبس الجهني وجعل له صلاتها وخراجها وكان عقبة قارئاً فقيهاً مفرضاً شاعراً له الهجرة والصحبة والسابقة إلا أنه لم يكن من السياسة وحسن التدبير على ما يرضى معاوية فولى مكانه مسلمة بن مخلد بن صامت الانصاري وكان من سراة المدينة وأمره أن يكتم ذلك ليثما يخرج عقبة من مصر بحيلة

ففي ١٩ ربيع الاول سنة ٤٥ ﻫ أنفذ معاوية امره الى عقبة أن يسير الى رودس بحراً فقدم مسلمة ورافق عقبة الى الاسكندرية وهو لا يعلم بامارته فلما توجه سائراً استوى مسلمة على سرير امارته فبلغ ذلك عقبة فقال « أخلعاً وغربة » وكانت مدة ولايته ثلاثة أشهر وقيل سنتين وثلاثة أشهر . وأخذ مسلمة في اجراء الاحكام وجمع الصلات والخراج وانتظمت غزواته في البر والبحر فانفذ الى الغرب جيوشاً وشاد مدينة القيروان وأقام حولها حصوناً ومعاقل وجعل فيها حامية . وفي سنة ٤٨ ﻫ سير معاوية جيشاً كثيفاً مع سفيان بن عوف الى قسطنطينية فاوغلوا في بلاد الروم وحاصروا القسطنطينية وكان في ذلك الجيش بن عباس وعمرو بن الزبير وابو أيوب الانصاري وتوفى في مدة الحصار أبو أيوب الانصاري ودفن بالقرب من سورها وشهد أبو ايوب مع النبي (صلعم) بدراً واحداً وشهد مع علي واقعة صفين وغيرها من حروبه

وفي سنة ٥٣ ﻫ في امارته نزلت الروم البرلس وقتل يومئذ وردان مولى عمرو بن العاص في جمع من المسلمين وأمر مسلمة بابتناء منارات المساجد وهو أول من أحدث المنائر بالمساجد والجوامع . وفي سنة ٦٠ سافر مسلمة بن مخلد الى الاسكندرية واستخلف على مصر عابس بن سعيد وفي هذه السنة توفى معاوية في دمشق في غرة رجب وعمره ثماني وسبعون سنة ومدة خلافته تسع عشرة سنة وثلاثة أشهر وخمسة أيام

« خلافة يزيد بن معاوية »

وفي يوم وفاة معاوية بويع ابنه يزيد فأقر مسلمة بن مخلد على مصر فكتب اليه باخذ البيعة فبايعه الجند الا عبد الله بن عمرو بن العاص فهدده بالحريق فبايع ولم يكن

يزيد اهلاً للخلافة ولولا قانون الوراثة الذي سنه أبوه ما بلغ عمره هذا المنصب لانه كان متبعاً هوى نفسه ومتغاضياً عن واجباته . فحرك ذلك الحسين بن علي وعبد الله بن الزبير على اقامة الحجة عليه وكانا في المدينة فبعث يزيد الى حاكمها أن يقبض عليهما ففرّ منهما وسار الحسين الى العراق لان اكثر شيعة ابيه هناك وقد التف عليه حزب كبير من الكوفة وغيرها

« ذكر مسير الحسين الى الكوفة »

وورد على الحسين مكاتبات اهل الكوفة يحثونه على المسير اليهم ليبايعوه وكان العامل عليها النعمان بن بشير الانصاري فأرسل الحسين الى الكوفة ابن عمه مسلم بن عقيل ابن أبي طالب ليأخذ البيعة عليهم فوصل الى الكوفة وقيل بايعه بها ثلاثون الفاً وقيل ثمانية وعشرون الف نفس وبلغ يزيد عن النعمان بن بشير ما لا يرضيه فولى على الكوفة عبيد الله بن زياد وكان والياً على البصرة فقدم الكوفة ورأى ما الناس عليه فخطبهم وحثهم على طاعة يزيد بن معاوية واستمر مسلم بن عقيل عند قدوم عبيد الله بن زياد على ما كان ثم اجتمع الى مسلم بن عقيل من كان بايعه للحسين وحصروا عبيد الله بن زياد بقصره ولم يكن مع عبيد الله في القصر اكثر من ثلاثين رجلاً ثم ان عبيد الله أمر اصحابه أن يشرفوا من القصر ويمنوا أهل الطاعة ويخذلوا أهل المعصية حتى ان المرأة ليأتي ابنها وأخاها فتقول انصرف ان الناس يكفونك فتفرق الناس عن مسلم ولم يبق مع مسلم غير ثلاثين رجلاً فانهزم واستقر ونادى منادي عبيد الله بن زياد من أتى بمسلم بن عقيل فله ديته فامسك مسلم وأحضر اليه ولما حضر مسلم بين يدي عبيد الله شتمه وشتم الحسين وعلياً وضرب عنقه في تلك الساعة ورميت جثته من القصر ثم أحضر هانئ بن عروة وكان ممن أخذ البيعة للحسين فضرب عنقه أيضاً وبعث برأسيهما الى يزيد بن معاوية وكان مقتل مسلم بن عقيل لثمان مضين من ذي الحجة سنة ستين وأخذ الحسين وهو بمكة في التوجه الى العراق وكان عبد الله بن عباس يكره ذهاب الحسين الى العراق خوفاً عليه وقال للحسين يا بن العم اني أخاف عليك أهل العراق فانهم قوم أهل غدر واقم بهذا البلد فانك سيد اهل الحجاز وان أبيت الا ان تخرج فسر الى اليمن فان بها شيعة لابيك وبها حصون وشعاب فقال الحسين يا ابن العم اني اعلم والله انك ناصح مشفق ولقد أزمعت وأجمعت ثم خرج بن عباس من عنده وخرج الحسين من مكة يوم التروية سنة ستين واجتمع عليه جمائع من العرب ثم لما بلغه مقتل بن عمه مسلم بن عقيل وتخاذل الناس عنه

اعلم الحسين من معه بذلك وقال من أحبّ أن ينصرف فلينصرف فتفرق الناس عنه يميناً وشمالاً ولما وصل الحسين الى مكان يقال له سراف وصل اليه الحر صاحب شرطة عبيد الله بن زياد فيالفي فارس حتى وقفوا مقابل الحسين في حر الظهيرة فقال لهم الحسين ما أتيت الا بكتبكم فان رجعتم رجعت من هنا فقال له صاحب شرطة بن زياد انا أمرنا أن لا نفارقك حتى نوصلك الكوفة بين يدي عبيد الله بن زياد فقال الحسين الموت أهون من ذلك وما زالوا عليه حتى سار مع صاحب شرطة بن زياد (ثم دخلت سنة احدى وستين)

«ذكر مقتل الحسين»

ولما صار الحسين مع الحر ورد كتاب من عبيد الله بن زياد الى الحر يأمره أن ينزل الحسين ومن معه على موضع غير ماء فأنزلهم في الموضع المعروف بالكربلاء وذلك يوم الخميس ثاني المحرم من هذه السنة أعني سنة ٦١ ولما كان من الغد قدم من الكوفة عمر أبن سعد بن بي وقاص بأربعة آلاف فارس أرسله بن زياد لحرب الحسين فسأله الحسين في أن يمكنه إما من العود من حيث أتى وإما أن يجهزه الى يزيد بن معاوية وإما أن يمكن ان يلحق بالثغور فكتب عمر الى بن زياد يسأل أن يجاب الحسين الى أحد هذه الامور فاغتاظ ابن زياد فقال لا ولا كرامة فأرسل مع شمر بن ذي الجوشن الى عمر ابن سعد إما ان تقاتل الحسين وتقتله وتطأ الخيل جثته وإما ان تعتزل ويكون الامير علي الجيش شمر فقال عمر بن سعد بل أقاتل ونهض عشية الخميس تاسع المحرم من هذه السنة والحسين جالس امام بيته بعد صلاة العصر فلما قرب الجيش منه سألهم مع اخيه العباس أن يمهلوه الى الغد وانه يجيبهم الى ما يختارونه فاجابوه الى ذلك وقال الحسين لاصحابه اني قد أذنت لكم فانطلقوا في هذا الليل وتفرقوا في سوادكم ومدائنكم فقال أخوه العباس لم تفعل ذلك لنبقى بعدك لا ارانا الله ذلك أبداً ثم تكلم اخوته وبنو أخيه وبنو عبد الله بن جعفر بنحو ذلك وكان الحسين وأصحابه يصلون الليل كله ويدعون فلما أصبحوا ركب عمر بن سعد في أصحابه وذلك يوم عاشوراء من سنته المذكورة وعبي الحسين وأصحابه وهم ٣٢ فارساً وأربعون راجلاً ثم حملوا على الحسين واصحابه واستمر القتال الى وقت الظهر من ذلك اليوم فصلى الحسين واصحابه صلاة الخوف واشتد بالحسين العطش فتقدم ليشرب فرمي بسهم فوقع في فمه وناد شمر ويحكم ما تنتظرون بالرجل اقتلوه فضربه زرعة بن شريك على كتفه وضربه آخر على عاتقه وطعنه سنان بن أنس

النخعي بالرمح فوقع فنزل اليه فذبحه واحتز رأسه الشريف وقيل ان الذي نزل وأخذ رأسه هو شمر المذكور وجاء به الى عمر بن سعد فأمر عمر بن سعد جماعة فوطأوا صدر الحسين وظهره بخيولهم ثم بعث بالرأس والنساء والاطفال الى عبيد الله بن زياد فجعل ابن زياد يقرع فم الحسين بقضيب في يده فقال له زيد بن ارقم ارفع هذا القضيب فوالذي لا إله غيره لقد رأيت شفتي رسول الله صلى الله عليه وسلم على هاتين الشفتين ثم بكى وروى انه قتل مع الحسين من اولاد علي اربعة هم العباس وجعفر ومحمد وأبو بكر ومن أولاد الحسين أربعة وقتل عدة من أولاد عبدالله بن جعفر ومن أولاد عقيل ثم بعث ابن زياد بالرؤوس وبالنساء وبالاطفال الى يزيد بن معاوية فوضع يزيد رأس الحسين بين يديه واستحضر النساء والاطفال ثم امر النعمان بن بشير ان يجهزهم بما يصلحهم وأن يبعث معهم اميناً يوصلهم الى المدينة فجهزهم الى المدينة ولما وصلوا اليها لقيهم نساء بني هاشم حاسرات وفيهن ابنة عقيل بن ابي طالب هي تبكي وتقول

ماذا تقولون ان قال النبي لكم ماذا فعلتم وأنتم آخر الامم
بعترتي وبأهلي بعد مفتقدي منهم أسارى وصرعى ضرجوا بدم
ما كان هذا جزائي اذا نصحت لكم أن تخلفوني بسوء في ذوي رحمي

أما يزيد فلم يبلغ مناه بقتل الحسين حتى قام عبد الله بن الزبير في مكة فشدد عليه النكير وهو يطلب الخلافة لنفسه . وكانت مصر في اثناء ذلك ساكنة آمنة وفي ٢٥ رجب سنة ٦٢ هـ توفى أميرها مسلمة بن مخلد بعد ان تولاها خمس عشرة سنة وأربعة اشهر فولى الخليفة مكانه سعد بن يزيد الازدي من اهل فلسطين فدخل مصر في مستهل رمضان سنة ٦٢ هـ فتلقاه عمر بن قحزم الخولاني وقد شق عليه تولية من هو من غير بلاده عليه فقال « يغفر الله لامير المؤمنين اما كان فينا مئة شاب كلهم مثلك يولي علينا أحدهم » ثم جعل اهل مصر يعرضون عنه ويعارضونه في احكامه ولكنه كان حازماً لم يثنه ذلك عن اقامة الحد واتباع العدل فسادت الراحة واستتب النظام الى آخر ايامه

وما زالت الاحزاب في مكة والمدينة يشددون النكير على يزيد الى ان اجمعوا على خلعه رغم كثرة دعاة الامويين واخرجوا من كان منهم في المدينة فانفذ يزيد ١٢ الفاً من رجاله عليهم مسلمة بن عقبة المرسي لمحاصرة المدينة وأمرهم ان لا يكفوا عنها الا اذا أذعنت فاذا مضت ثلاثة ايام ولم تفعل فليحرقوها وهكذا حصل فانها اصبحت غنيمة للنار بعد الافاضة في النهب والقتل والاسر . وكان ذلك في سنة ٦٣ هـ

وفي هذه السنة بويع عبد الله بن الزبير الخلافة في مكة باجماع من كان فيها من اهلها والمهاجرين اليها من المدينة والحجاز فارسل يزيد الحصين بن النمير الى مكة فحاصرها وقاتل اهلها ورماها بالمنجنيق فاحرق الكعبة . كل ذلك وابن الزبير فيها يدافع بالشيء الممكن الى ان جاءه الخبر بوفاة يزيد فقطع قول كل خطيب وكانت وفاته في حوارين من اعمال حمص في ٤ ربيع أول سنة ٦٤ هـ بعد ان تولى الخلافة ثلاث سنين وتسعة اشهر الا بضعة ايام وسنه ٣٩ سنة

« خلافة معاوية بن يزيد »

(ثم عبد الله بن الزبير ثم مروان بن الحكم)

وفي يوم وفاة يزيد بويع ابنه معاوية وسنه عشرون سنة ويدعوه بعضهم معاوية الثاني تمييزاً له من معاوية بن ابي سفيان جده وبعد ٤٥ يوماً من مبايعته توفي ولا ولد له

وفي ٩ رجب من تلك السنة هتف اهل الحجاز بمبايعة عبد الله بن الزبير بالاجماع ويقال ان معاوية بن يزيد تنازل له عن الخلافة من يوم بايعوه لما رأى من كثرة احزابه وعجزه عن مناهضته فزهد في الدنيا مع صغر سنه وطلب ان يكتب على قبره « الدنيا غرور »

وكان عبد الله بن الزبير رجلاً مؤدباً فطناً جمع بين شرف النسب وعلو الهمة والاقدام حضر عدة وقائع وهو شاب ولما افتتح عمرو بن العاص مصر كان عبد الله وابوه الزبير واخوه محمد من جيشه ولما كتبت معاهدة الصلح بين عمرو والاقباط وضع هؤلاء الثلاثة اختامهم عليها شهوداً . ولما ارسل الخليفة عثمان بن عفان عبد الله بن سعد امير مصر في جيش عظيم لافتتاح سواحل الغرب كان عبد الله بن الزبير معه . ومن اخلاقه انه كان مثابراً في اعماله ثابتاً في مقاصده فلم ينفك منذ اختلاس معاوية بن ابي سفيان الخلافة من الخلفاء الراشدين وهو في سعي دائم عليه ثم على ابنه يزيد ثم على ابن ابنه معاوية الثاني حتى ظفر بمرامه ولما جاء الخبر بوفاة يزيد كان في مكة محاطاً بجيش من اليزيديين فلما علموا بالخبر عادوا على اعقابهم الى الشام فاستولى عبد الله على المدينة والحجاز واليمن وبايعه من فيها ثم شرع في ترميم الكعبة فهدمها حتى ألحقها بالارض وكانت قد مالت حيطانها من حجارة المنجنيق وجعل الحجر الاسود عندها وكان الناس يطوفون من وراء الاساس وضرب عليها السور وادخل فيها الحجر

اما مصر فكان عليها سعيد الازدي كما مر وكان عبد الله بن الزبير على بينة من

امر مصر واهميتها فانفذ اليها عبد الرحمن بن عتبة بن جحدم واوصاه ان يدعو الناس الى مبايعته غير ان سعيداً الازدى كان لا يزال متشيعاً للامويين فلم يقبل على دعوة عبد الله من المصريين الا بعضهم ولم ترسخ قدم عبد الله بن الزبير في الخلافة الا بعد وفاة معاوية بن يزيد اذ رأى الكوفة والبصرة والموصل والعراق وقسماً من مصر يدعو باسمه فلم يعد فيخشية من شيء فصرح بخلافته . ثم هم باخضاع مصر فعقد على امارتها لعبد الرحمن بن عتبة الذي كان ارسله[1] اليها وكيلاً فوصلها في شعبان سنة ٦٤ ه واخرج من كان فيها من دعاة الامويين وفيهم سعد الازدي فبايعه الناس وفي قلوب بعضهم غلٌّ

اما اهل الشام فلما علموا بوفاة معاوية بن يزيد بايعوا مروان بن الحكم من بني امية فعظم ذلك على عبد الله بن الزبير وقام لنصرته الضحاك بن قيس في جيش من رجاله فساروا الى دمشق فاتصل خبرهم بمروان فسار من الجابية لملاقاتهم فالتقى الجيشان في مرج راهط فحصلت بينهما وقائع كبيرة شفت عن انقلاب جيش عبد الله

وكان مروان قد انفذ ابنه عبد العزيز في جيش من اهل الشام لفتح مصر اما بعد ظفره بجيش ابن الزبير في مرج راهط اشتدت عزيمته وحمل بكل جيشه على مصر . فلما علم اميرها عبد الرحمن بن عتبة بذلك اخذ في الدفاع فحفر حول الفسطاط خندقاً عميقاً لا يزال اثره باقياً في القرافة فنزل مروان قرب المطرية ومعه عمرو بن سعد فخرج عبد الرحمن اليه واقتتلا شديداً مدة يومين ولم يظفر احدهما بالآخر . وبينما كان الجيشان في شغل بين هجوم ودفاع سار عمرو بن سعد في نخبة من رجال مروان قاصداً الفسطاط فدخلها فلما علم عبد الرحمن بذلك لم ير بداً من المصالحة فتصالحا ودخل مروان مصر في ١٠ جمادى الاولى سنة ٦٥ ه فكانت مدة امارة بن جحدم تسعة اشهر وفي هذا اليوم توفي عبد الله بن عمرو بن العاص فاتح مصر فلم يستطع القوم الخروج بجنازته الى المدافن لشغب الجند على مروان فدفنوه في بيته قرب جامع عمرو . اما مروان فلم يكن واثقاً بالمصريين واخلاصهم وخاف ان يستغيبوه ويعقدوا لعبد الله بن الزبير فولى عليهم ابنه عبد العزيز

وفي الحال وضع مروان يده على جميع خزائن مصر وأبطل العطاوات فبايعه جميع الناس الا جماعة من قبيلة المغافر قالو لا نخلع بيعة ابن الزبير فقطع اعناقهم وعنق ابن همام رئيس قبيلة لخم وكان من قتلة عثمان بن عفان فخافت الناس واجمعوا على مبايعته فاقام مروان في مصر شهرين ثم عهد بمهامها الى ابنه عبد العزيز وهمَّ بالرحيل

فقال له ابنه « يا أمير المؤمنين كيف المقام في بلدة ليس بها احد من بني ابي » قال له مروان « يا بني عمهم باحسانك يكونون كلهم بني ابيك واجعل وجهك طلقاً تصفو لك مودتهم واوقع الى كل رئيس منهم انه خاصتك دون غيره يكن لك عيناً على غيره وينقد قومه اليك وقد جعلت معك اخاك بشراً مؤنساً وجعلت لك موسى بن نصير وزيراً ومشيراً وما عليك يا بني ان تكون اميراً باقصى الارض . أليس ذلك احسن من اغلاق بابك وخمولك في منزلك ؟ » ثم اوصاه عند خروجه من مصر الى الشام قائلا « اوصيك بتقوى الله في سر امرك وعلانيته فان الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون واوصيك أن لا تجعل لداعي الله عليك سبيلاً فان المؤذن يدعو الى فريضة افترضها الله ان الصلاة كانت على المؤمنين كتاباً موقوتاً واوصيك ان لا تعد الناس موعداً الا انفذته لهم ولو حملته على الاسنة . واوصيك ان لا تعجل في شيء من الحكم حتى تستشير فان الله لو اغنى احداً عن ذلك لاغنى نبيه محمداً (صلعم) عن ذلك بالوحي الذي يأتيه . قال الله عز وجل : وشاورهم في الامر » وخرج مروان من مصر لهلال رجب سنة ٥٥ ه والحرب لا تزال سجالاً بين دعاة مروان ودعاة عبد الله بن الزبير

« خلافة عبد الملك بن مروان »

وفي غرة رمضان سنة ٦٥ ه توفي مروان وله من العمر ٦٣ سنة فبويع ابنه عبد الملك فأقر أخاه عبد العزيز على مصر واخذ في متابعة مشروع ابيه فانفذ الاجناد الى جهات العراق والبصرة والجزيرة سعياً في تعميم خلافته . وفي آخر الامر ارسل اليه الحجاج بن يوسف فحاصر عبد الله بن الزبير في مكة مدة سبعة أشهر وفي نهاية سنة ٧١ه قتل عبد الله بن الزبير فخلا الجو لعبد الملك وكانت وفاته فصلاً نهائياً لذلك الخصام بعد ان استمر عشر سنين متوالية ومملكة الاسلام تتنازعها خلافتان الواحدة في دمشق والاخرى في مكة

وفي سنة ٦٩ ه امر عبد العزيز بن مروان ببناء قنطرة الخليج الكبير في طرف الفسطاط بالحمراء القصوى وبنى مقياساً للنيل في حلوان وهو اول مقياس بناه المسلمون في مصر ويقول بعضهم ان عمرو بن العاص بنى مقياساً قبل ذلك ولا دليل على صحة هذا القول

وفي آخر ايام هذا الخليفة تم بناء القصر الجميل المدعو الدار المذهبة في شارع سوق الحمام

وكانت طائفة الكهنة الاقباط معافة من الضرائب والعوائد فضرب على الشخص الواحد منهم ديناراً وعلى البطاركة ثلاثة آلاف دينار سنوياً

وفي سنة ٨٦ توفي عبد العزيز بن مروان في الفسطاط في ١٣ جمادى الاولى بعد ان حكم فيها عشرين سنة وعشرة اشهر و١٣ يوماً وكان جواداً حليما حازماً بشوشاً فتولى بعده عبد الله بن عبد الملك بن مروان من قبل ابيه على صلاتها وسنه ٢٩ سنة وطلب اليه ابوه ان يقتفي آثار عمه عبد العزيز بالفطنة والدراية

« خلافة الوليد بن عبد الملك »

(وهو سادس خلفائهم)

وفي سنة ٨٦ توفي عبد الملك بن مروان وبويع ابنه الوليد بن عبد الملك الملقب بابي العباس فأقرّ اخاه عبد الله على مصر . وفي ايام الامير عبد الله جعلت الكتابة في دواوين مصر باللغة العربية وكانت لا تزال الى ذلك الحين بالقبطية يتولى امرها (انتناش) فعزله وولى مكانه بن يربوع الفزاري من اهل حمص . وغلت الاسعار في امارته فتشاءم الناس به وقالوا انه كان يقبل الرشوة ثم. وفد على اخيه في صفر سنة ٨٨هـ واستخلف عبد الرحمن بن عمر بن قحزم الخولاني واهل مصر في شدة عظيمة وضيق عيش مخيف

اما الوليد بن عبد الملك فقد حكم في الاسلام حكماً حقاً ووسع نطاق المملكة الاسلامية وحارب حروباً كثيرة عاد منها ظافراً . منها الحروب الهائلة مع امراء تركستان والفرس والهند وملك قسطنطينية وقد فتح (طوانه) من بلاد الروم والاندلس وسمرقند . كل هذا الفتوحات والغزوات وغيرها كانت على يد هذا الخليفة الباسل

وفي ١٣ ربيع الاول سنة ٩٠ هـ اقيم على مصر قرة بن شريك من اهل قنسرين بدلا من عبد الله بن عبد الملك وأحيا قرة بن شريك بركة الحبش وغرس فيها القصب فقيل لها اصطبل قرة واصطبل القماش

وقد تشكى القبط من جوره فهم يقولون انه كان يحتقر اعتقادتهم ويدخل احياناً الى كنائسهم ومعه رجال من حاشيته ويوقفهم عن صلاتهم

وفي سنة ٩٣ هـ اعاد قرة بن شريك بأمر الوليد بن عبد الملك بناء جامع عمرو . وفي سنة ٩٦ توفى قرة في الفسطاط فأقيم مقامه عبد الملك بن رفاعة بن خالد وكان قرة سيء التدبير خبيثاً ظالماً غشوماً فاسقاً و بعد ثلاثة اشهر من امارته توفى الخليفة

الوليد في دمشق في ١٥ جمادى الثانية بعد ان حكم ٩ سنين ونصف وسنه ٤٨ سنة وقد بنى مقياساً للنيل في جزيرة الروضة يقال ان النيل جرفه وقال آخرون ان المأمون امر بهدمه

« خلافة سليمان بن عبد الملك »

لما مات اخوه الوليد في جمادى الآخر من هـذه السنة اعني سنة ٩٦ وكان سليمان في مدينة الرملة فلما وصل اليه الخبر بعد سبعة ايام سار الى دمشق ودخلها واحسن السيرة وراد المظالم واتخذ ابن عمه عمر بن عبد العزيز وزيراً فسار على خطوات اخيه في توسيع نطاق مملكته وفي اول سنة من خلافته فتح طبرستان وجورجيا وارسل اخاه مسلمة بن عبد الملك فحاصر القسطنطينية حصاراً شديداً

وعند اول خلافته اقرّ عبد الملك بن رفاعة على مصر وجعل على خراجها اسامة بن يزيد المشهور بالظلم ولقبه بعامل الخراج وقد اتفق جمهور المؤرخين من مسلمين واقباط على استبداد هذا الرجل وعسفه . ومما جعلهم يزيدون تظلما منه انه لم يكتف باعلان الرهبان باستمرار الضريبة عليهم على حين انهم كانوا ينتظرون رفعها عنهم لكنه امر ان يلبس كل منهم في كل سنة خاتماً من حديد في اصبعه عليه اسمه يأخذه من جابي الخراج اشارة الى خلو طرفه ومن يخالف ذلك تقطع يده فاذا اصر على المخالفة يقتل . فكانت العساكر تطوف الاديرة والمعابد في هذا السبيل فكم قتلوا من نفس ذكية وربما كانوا يرون قتلها واجباً . وكان اسامة مع ذلك يظهر رغبة شديدة في اصلاح شؤون البلاد وزيادة محصولاتها فكان من وقت الى آخر يتفقد الارض وريها وينتبه خصوصاً لمقاييس النيل التي يعرف منها مقدار المحصولات . فعلم سنة ٩٦ هـ بسقوط مقياس حلوان فاعلم الخليفة بذلك فأمر بالغاء له واقامة مقياس آخر في جنوبي الجزيرة بين الفسطاط والجيزة وهو المكان المعروف بالروضة

ومن ضرائب اسامة ضريبة فادحة مقدارها عشرة دنانير تطلب من المار في النيل صاعداً أو نازلا ولا يمر الا من كان في يده جواز مؤذن له بذلك بعد اداء المبلغ المفروض ومما يحكى ان ارملة سافرت في النيل مع ابن لها بعد دفع المفروض ونيل تذكرة المرور بكل مشقة نظراً لضيق ذات يدها فحدث وهي في اثناء المسير ان ابنها هذا تطاول الى النيل مستقياً فاختطفه تمساح وابتلعه والناس ينظرون وكانت تذكرة المرور في جيبه . ولما وصلت المكان المقصود اعترضها صاحب التذاكر وابى

الا ان تيوز تذ كرتها فاخبرته ما كان من امر ضياع ابنها على مشهد من الناس فاغلق اذنيه عن صراخها ولم يفرج عنها حتى باعت ما في يديها ودفعت الفلس الاخير

كل هذه الاجرآات وغيرها جعلت المصريين في قنوط فثاروا على اسامة يطلبون الانتقام وبينما هم في ذلك جاءهم النبأ بوفاة الخليفة سليمان بن عبد الملك فسكن جأشهم على امل ان ينالوا ما يريدون ممن يخلفه وكانت وفاته في ٢١ صفر سنة ٩٩ هـ وهو يبني مدينة الرملة في فلسطين بعد ان حكم سنتين وثمانيـة اشهر وخمسة ايام وعمره خمس واربعون سنة ومات بدابق ارض قنسرين . وقيل كان سبب موته انه اتاه نصراني وهو نازل على دابق بزنبيلين مملوءين تيناً وبيضاً فأمر من يقشر له البيض وجعل يأكل بيضة وتينـة حتى اتى على الزنبيلين ثم اتوه بمخ وسكر فاكله فأتخم ومرض ومات . فبويع ابن عمه عمر بن عبد العزيز الملقب بابي حفص لانه لم يكن من اخوته وولده من يصلح للخلافة

« خلافة عمر بن عبد العزيز »

وهو ثامن خلفائهم وأم عمر بن عبد العزيز بنت عاصم بن عمر بن الخطاب وأوصى اليه بالخلافة سليمان بن عبد الملك لما اشتد مرضه بدابق وبويع عمر بن عبد العزيز الخلافة في صفر سنة تسع وتسعين بعد موت سليمان

« ذكر ابطال عمر بن عبد العزيز سبّ علي بن ابي طالب على المنابر »

كان خلفاء بني أمية يسبون علياً رضي الله عنه من سنة احد واربعين وهي السنة التي خلع الحسن فيها نفسه من الخلافة الى أول سنة تسع وتسعين آخر ايام سليمان بن عبد الملك فلما ولي عمر ابطل ذلك وكتب الى نوابه بأبطاله ولما خطب يوم الجمعة أبدل السب في آخر الخطبة قرآءة قوله تعالى (ان الله يأمر بالعدل والاحسان وايتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي يعظـكم لعلـكم تذكرون) فلم يسب علي بعد ذلك واستمرت الخطباء على قراءة هذه الآية ومدحه كثيرون منهم عبد الرحمن الخزاعي فقال :

وليت فلم تشتم علياً ولم تخف بريا ولم تتبع سجية مجرم
وقلت فصدقت الذي قلت بالذي فعلت فاضحى راضياً كل مسلم

وكان الخليفة عمر بن عبد العزيز محباً للعدالة فرفع اليه المصريون شكواهم على

اسامة فأمر بعزله وتولية ايوب بن شرحبيل . وكان هذا ورعاً منزهاً مستقيماً عادلاً فزاد في الاعطائيات وعطل الحارات فانسى المصريين ما كان من استبداد اسامة وغلاظته ثم بعث اليه الخليفة بالقبض على اسامة وتكبيله بالحديد وتسمير يديه ورجليه باطواق من الخشب وارساله اليه ففعل فمات اسامة في الطريق

وكان على الجيش في مصر حيان بن شريح فبلغ عمر بن عبد العزيز انه يطالب المسلمين بالجزية فعظم عليه ذلك وكتب اليه « أرى يا حيان ان تضع الجزية عمن اسلم من اهل الذمة فان الله تعالى قال (فان تابوا واقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم ان الله غفوررحيم) وقال (قاتلوا الذين لايؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ماحرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين اوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون) فاجابه حيان « اما بعد فان الاسلام قد اضر بالجزية حتى سلفت من الحارث بن ثابتة عشرين الف دينار تمت بها عطاء اهل الديوان فان رأى امير المؤمنين ان يأمر بقضائها فعل » فكتب اليه عمر « اما بعد فقد بلغني كتابك وقد وليتك جند مصر وانا عارف بضعفك وقد امرت رسولي بضربك على رأسك عشرين سوطاً فضع الجزية عمن اسلم قبح الله رأيك فان الله بعث محمداً (صلعم) هادياً ولم يبعثه جابياً ولعمري لعمر أشقى من ان يدخل الناس كلهم الاسلام على يده » وفي ٢٥ رجب سنة ١٠١ هـ توفي الخليفة عمر بن عبد العزيز بعد ان حكم سنتين وخمسة اشهر و١٤ يوماً فرجعت الخلافة لابناء عبد الملك حسب اشتراط سليمان قبل موته فبويع يزيد بن عبد الملك

« خلافة يزيد بن عبد الملك »

فأقر يزيد ايوب بن شرحبيل على مصر ثم انفذ اليه ان يسلم الحكم لبشر بن صفوان الكلبي وبعد يسير امره ان يتوجه الى افريقية واقام مكانه حنظلة بن صفوان وفي ايامه امر الخليفة بتكسير ما بقي من التماثيل والاصنام في مصر فكسر معظمها . وفي ايام يزيد ابن عبد الملك خرج يزيد بن المهلب بن ابي صفرة واجتمع اليه جمع فأرسل يزيد بن عبد الملك اخاه مسلمة فقاتله وقتل يزيد بن المهلب وجميع آل مهلب بن ابي صفرة وكانوا مشهورين بالكرم والشجاعة وفيهم يقول الشاعر

نزلت على آل المهلب شاتياً غريباً عن الاوطان في زمن المحل
فما زال بي احسانهم وافتقادهم وبرّهم حتى حسبتهم أهلي

وفي سنة ١٠٤ هـ عزل حنظلة وتولىٰ الامارة محمد بن عبد الملك اخو الخليفة وفي ٢٥ شعبان سنة ١٠٥ هـ توفى الخليفة يزيد بن عبد الملك في حران فبويع اخوه هشام ولم ير المصريون في مدة خلافة يزيد يوم نعيم

« خلافة هشام بن عبد الملك »

وهو عاشرهم وكان عمره لما ولى الخلافة اربعاً وثلاثين سنة واشهراً وكان هشام بالرصافة لما مات يزيد بن عبد الملك في دويرة صغيرة فجاءته الخلافة على البريد فركب من الرصافة وسار الى دمشق فلما بويع هشام امر بصرف محمد بن عبد الملك عن مصر وقام عليها الحر بن يوسف وفي امارته كان اول انتقاض القبط سنة ١٠٧ هـ ثم وفد الى الخليفة واستعفى من الامارة في سنة ١٠٨ هـ فولى مكانه حفص بن الوليد وفي سنة ١٠٩ هـ استبدل حفص بعبد الملك بن رفاعة وفي تلك السنة توفي ابن رفاعة فتولى مكانه بامر امير المؤمنين اخوه الوليد بن رفاعة

وفي ولايته نقلت قبيلة قيس الى مصر ولم يكن فيها احداً منهم فانزلوا في الحوف الشرقي « الشرقية » وفي سنة ١١٧ توفيت سكينة بنت الحسين بن علي بن ابي طالب وفي هذه السنة توفي الوليد فى الفسطاط بعد ان حكم تسع سنين . فتولى مكانه عبد الرحمن بن خالد الفهمي وبعد سنة توفي عبد الرحمن وخلفه حنظلة بن صفوان فحكم في مصر هذه المرة ست سنوات

وفي سنة ١٢٤ هـ عزله الخليفة عن مصر وأمره ان يتوجه الى افريقية ففعل فولى مكانه حفص بن الوليد الحضرمي وهذه هي المرة الثانية لامارته . وفي ٦ ربيع آخر من سنة ١٢٥ توفى الخليفة هشام بن عبد الملك بالرصافة وعمره ٥٥ سنة ومدة حكمه ١٩ سنة و ٧ اشهر و ١١ يوماً ومن اعماله التي تستحق الذكر انه تغلب على الروم . وكان هشام حازماً سديد الرأي غزير العقل عالماً بالسياسة . واختار هشام الاقامة بالرصافة وبناها واليه تنسب فيقال رصافة هشام

«خلافة الوليد بن يزيد بن عبد الملك بن مروان»

ولما توفى هشام بويع الوليد بن يزيد الملقب بابي العباس فأمر بصرف حفص عن مصر مع ما عرف به من النزاهة والاستقامة وثقة الاهالي واقام عوضاً عنه عيسى بن ابي عطاء على الخراج فقط ولم يكن عيسى من السياسة على شيء فأثار بسوء تصرفه

خواطر المصريين ثانية . والخليفة لم يكن أحسن سياسة منه لانه جمع جميع الصفات التي تحط من قدر الملوك فأثار عليه رعاياه ولا سيما اهل الشام فشقوا عصاه الطاعة وطلبوا ان يبدل بيزيد بن الوليد بن عبد الملك وطلبوا من هذا اذا كان يقبل ذلك فاجاب بالايجاب وجعل لمن يأتيه برأس الوليد بن يزيد ماية الف دينار ثم قتل الوليد وعمره ٤٢ سنه ولم يحكم الا سنة واحدة وشهرين و٢٠ يوماً

« خلافة يزيد بن الوليد ثم ابراهيم بن الوليد »

فبويع يزيد بن الوليد الملقب بابي خالد في ١٨ جمادي الآخرة من سنة ١٢٦ هـ الا أن تلك المبايعة لم تكن كافيـة لتسكين خواطر الناس لان الثورة كانت قد امتدت الى اطراف العالم حتى هددت المملـكة بالسقوط . ولما قتل الوليد وتولى يزيد الخلافة خالفه اهل حمص وهجموا دار اخيه العباس بحمص ونهبوا ما بهـا وسلبوا حرمه وأجمعوا على المسير الى دمشق لحرب يزيد ويطالبون بدم الوليد . وسليمان بن هشام نجا من سجنه في عمان وجمع اليه اجناداً وسار الى دمشق يطالب بحقوق الخـلافة . واهل فلسطين ثاروا على اميرهم وقتلوه . ومروان بن محمد الحمار جرّد من ارمينيا مطالباً بدم الوليد وكان جيشه غفيراً فلما بلغ حران خافه يزيد فكاتبه وعاهده على ان يخلي له ما بين النهرين وارمينيا واذربيجان حقناً لدماء العباد وبعد ذلك بيسير توفي يزيد بالطاعون بدمشق وعمره ٤٠ سنة ولم يحكم الا خمسة اشهر وعشرة ايام .

وفي يوم وفاة يزيد بويع ابراهيم بن الوليد اخوه من ابيه ولم تكن تلك المبايعـة مفرحةً له لانه جاء الخلافة وهي في معظم الاضطراب . فلما علم مروان بن محمد بوفاة يزيد نكث المعاهدة وجرد جيشاً من ٨٠ الف مقاتل الى قنسرين ينكر المبايعـة على ابراهيم فبعث ابراهيم مائة الف مقاتل تحت قيادة سليمان بن هشام لملاقاته في حمص وكان مروان ينتحل سبباً يسوغ له الهجوم على دمشق فارغى انه جاء لانقاذ الحـكم وعثمان ابني الوليد بن يزيد من سجن دمشق . وقبل مباشرة الحرب كتب مروان الى سليمان بن هشام في حمص يسأله اذا كان يوافقه على خلع الخليفة ابراهيم وتولية احد ابنـاء الخليفة السابق فأبي فحاربه مدة ففر سليمان ورجاله الى دمشق . فلما دخلها تعاقد مع الخليفة ابراهيم وجعلا ايديهما على الخزائن ثم أخرجا ابني الوليد من السجن وقطعا عنقيهما لانهما منشأ تلك المتاعب لعلهما يتخلصان من المقاومين فجاء الامر بالعكس اذ عظمت دعوى مروان فادعى ان الخليفة الذي يقتل ابناء اخيـه بغير الحق لا يصلح

للخلافة وطلب خلعه وما زال حتى دخل دمشق في الشهر الثاني من سنة ١٢٧ ﻫ ووضع يده على الاحكام ودعا الى مبايعته فبايعه الجميع حتى الخليفة ابراهيم لانه اشترى حياته بهذه المبايعة وكانت مدة خلافة ابراهيم ٦٩ يوماً وعاش بعد الخلع ست سنوات

« خلافة مروان بن محمد »

وهو رابع عشر خلفاء بني أمية وآخرهم . وكان لمروان بن محمد ثلاثة القاب الأول أبو عبد الملك لقب به يوم ولادة ابنه البكر والثاني الجاري نسبة الى عمه جاد ابن درهم والثالث الحمار وكان مشهوراً به اكثر مما بغيره واصل تلقيبه به أنه كان ثابتاً في الحروب فلقبوه بحمار الوحش ثم اهملت الكلمة الثانية فتنوسيت وبقيت الاولى وحدها .

فلما تمت له المبايعة في دمشق بالخلافة واستقر له الامر رجع الى منزله بحران وارسل ابراهيم المخلوع ابن الوليد وسليمان بن هشام فطلبا من مروان الامان فامنهم فقدم عليه ومع سليمان واخوته واهل بيته فبايعوا مروان سنة ١٢٧ ﻫ أبدل حفص ابن الوليد أمير مصر بحسان بن عتاهية النجيبي فشق ذلك على المصريين فوثبوا عليه وقالوا لا نرضى الا بحفص وركب جماعة منهم الى المسجد ودعوا الى خلع مروان وحبسوا حسان في داره وقالوا اخرج عنا فانك لا تقيم معنا ببلد فأخرجوه بعد ١٧ يوماً من توليته وأخرجوا معه عيسى بن ابي عطاء صاحب الخراج فولى مروان على مصر الحفص ابن الوليد وهي المرة الثالثة لولايته عليها . وفي سنة ١٢٨ ﻫ صرفه مروان وولى مكانه الحوثرة بن سهل بن عجلان والمصريون غير راضين بذلك فسار اليها في الاف باول المحرم وقد اجتمع الجند على منعه فأبى عليهم حفص فخافوا حوثرة وسألوه الامان فامنهم ونزل في ظاهر الفسطاط . وبعد سنة ونصف « في ٢٤ رجب سنة ١٣١ » عزل حوثرة وولى مكانه عبد الملك بن موسى وكان والياً على الخراج فلما تولى الامارة امر باتخاذ المنابر في الكور ولم تكن قبله وكان ولاة الكور يخطبون على العصى الى جانب القبلة . والمغيرة آخر من تولى مصر من قبل الدولة الاموية . لانها كانت على شفا السقوط وقد انتشر الفساد في أنحاء المملكة الاسلامية فثارت حمص على مروان وكانت اول من جاهر بدعوته كما علمت فسامها الرضوخ فأبت . ومثل ذلك فعلت دمشق وكانت اول من دعا الى بيعته وبويع سليمان بن هشام على البصرة ثم تقدم بجيشه الى قنسرين فحاربه مروان وقتل من رجاله ثلاثين الفاً فانهزم سليمان

الى حمص وحاصر فيها فجهز اليه مروان وحاصره هناك

وكثر منازعو مروان على الخلافة وفي مقدمتهم ابو العباس الهاشمي أول خلفاء الدولة العباسية وقد بايعه الفرس في اقصى الشرق « خراسان » بمساعدة ابي مسلم الخراساني وكان قد ارسله اليهــا داعياً وهو لم يبلغ التاسعة عشرة من العمر لكنه أظهر همة ودراية لا تتفقان الا بالرجال العظام فتملك قلوب الناس وجمع كلمتهم اليــه وحارب جيوش مروان في خراسان فظفر بهــا فتقدم الى العراق حتى اتى الكوفة فافتتحها وخطب فيها لابي العباس . اما مروان فلم يظفر بحمص وسار الى الموصل فاضطهدة اهلها فقنط من الفوظ فعاد على اعقابه الى سوريا فرآها مجمعة على عصيانة فلم ير له ماجأ الا مصر لانها كانت لا تزال الى ذلك الحين على بيعته

أما ابو العباس فلما استتب له الامر في الكوفة جعل على البلاد التي صارت تحت حكمه ولاة اختارهم من ذويه ثم بايعه اهل الشام ومن ولاهم . وهكذا كانت نشأة الدولة العباسية التي أقيمت على انقاض الدولة الاموية . ثم رأى ابو العباس تثبيتاً لقدمه في الخلافة ان يقتل كل من بقي من ابناء الدولة الاموية ودعاتها ولو بايعوه فامر بالقبض عليهم وهم ثمانون نفساً بين نساء ورجال واولاد فامر بذبحهم معاً بغير شفقة فلقب من ذلك الحين بالسفاح . ولم ينج من هــذه المذبحة الا شاب يقال له عبد الرحمن حفيد الخليفة هشام فرّ الى الاندلس « اسبانيا » وأسس فيها دولة أخرى أموية

اما مروان فجاء مصر على ان يستبقيها له فارسل عبد الله عم ابي العباس اخاه صالح بن علي يقتفي اثره وامره ان يقبض عليه باي وسيلة كانت فسار صالح في جيش عظيم ومعه ابو عون عبد الملك بن يزيد ونزل على جبل يشكر حيث جامع ابن طولون اليوم وكان قسماً من الفسطاط في اول عهدها ثم صار خراباً . فأمر ابو عون اصحابه بالبناء فيه فابتنوا واقاموا فيه معسكرهم ودعوه بالعسكر واتصل بناؤه ببناء الفسطاط وبنيت فيه بعد ذلك دار الامارة وجامع عرف بجامع العسكر ثم عرف بجامع ساحل الغلة وصار هناك مدينة ذات اسواق ودور عظيمة وصار امراء مصر ينزلون فيه من بعد ابي عون الى ان بنى احمد طولون القطائع واقام فيها قصره

ثم اخذ صالح بن علي في مطاردة مروان فادركه في قرية بوصير من الجيزة وقتله في ٢٧ جمادى الآخرة سـنة ١٣٢ هـ وعمره سبعون سنة وقال آخرون ٥٩ ونقل رأسه الى ابي العباس السفاح . وكانت مدة خلافة مروان خمس سنوات وشهراً واحداً وهو آخر خليفة من الدولة الاموية بالشام

« الدولة العباسية للمرة الاولى »

(خلافة ابي العباس بن محمد)

بويع الخليفة ابو العباس عبد الله بن محمد الملقب بالسفاح في ١٣ ربيع اول سنة ١٣٢ هـ وهو من العباس بن عبد المطلب واول الخلفاء العباسيين فأقال ولاة الامصار الذين كانوا قبل خلافته وابدلهم بولاة من اقاربه وذويه . فجعل على مصر عمه صالح ابن علي قاتل مروان . فسار صالح حتى دخلها في محرم ١٣٣ هـ وبعد يسير بعث الى الخليفة وفداً من اهل مصر بمبايعتها ثم قبض على عبد الملك بن موسى وجماعته وقتل كثيراً من دعاة بني امية وحمل طائفة منهم الى العراق فقتلوا بقلنسوة من ارض فلسطين وفي غرة شعبان سنة ١٣٣ هـ ورد اليه كتاب امير المؤمنين بأمارته على فاسطين وان يستخلف على مصر من اراد فاستخلف ابا عون عبد الملك بن يزيد نائباً عنه وسار ومعه عبد الملك بن نصير وعدة من اهل مصر .

وفي ١٣ ذي الحجة سنة ١٣٦ هـ توفي ابو العباس في الهاشمية سرير خلافة بعد ان قضى على دست الخلافة ٤ سنوات و٨ اشهر و٢٦ يوماً وعمره ٣٣ سنة ونصف وهو اول من اتخذ وزيراً لأن خلفاء بني أمية لم يكونوا يستوزرون ولكنهم استكتبوا

« خلافة المنصور بن محمد »

وخلف ابا العباس اخوه المنصور بن محمد الملقب بأبي جعفر واتخذ الهاشمية سريراً للملك كما فعل سلفه . وفي سنة ١٤٠ هـ عهد ولاية مصر الى ابي عون الذي كان نائباً فيها وفي سنة ١٤١ هـ عزل ابا عون عن مصر وولى موسى بن كعب وكان احد نقباء العباسيين فدخل مصر في ١٥ ربيع آخر من السنة المذكورة ونزل العسكر . وفي ٥ ذي الحجة من تلك السنة عزل موسى وولى محمد بن الاشعث الخزاعي واراد توليته امر الخراج فابى فتولاه نوفل بن الفرات ثم رأى بعد حين ان اهل الدواين مالوا بكليتهم نحو صاحب الخراج فندم وآل الامر الى نفور بينه وبين نوفل وفي رمضان سنة ١٤٤ هـ صرف محمداً وولى حميد بن قحطبة بن شبيب الطائي فجاء مصر بجيش . وفي ٢٢ ذي القعدة سنة ١٥٤ هـ صرفه وولى يزيد بن حاتم المهلبي

فترى انه تقلب على مصر في مدة لا تتجاوز سبع سنوات ستة امراء الامر الدال

على ما فطر عليه المنصور من التقلب فانه كان لا يثق باحد ولا يقر على امر وكان كثير الهواجس والظنون سريع الحكم ويدلك على ذلك ماكان من امره مع ابي مسلم الذي له الفضل على جميع الخلفاء العباسيين اذ لولا مساعيه ما وصلت الخلافة الى يدهم فانه بمجرد ما قيل له ان ابا مسلم متشيع لاهل البيت امر بقتله . واشتدة هواجسه ترك الهاشمية التي كانت الى ذلك العهد (سنة ١٤٥ هـ) سريراً للخلافة العباسية وشرع في بناء مدينة دعاها مدينة السلام ثم دعيت بغداد عاصمة الخلفاء العباسيين . ثم خلع عن ولاية العهد ابن اخيه عيسى بن موسى وكان السفاح قد اوصى له بها بعده . وبايع لابنه محمد المهدي بن المنصور مكانه على ان يكون عيسى المذكور خليفة بعده

ثم دخلت سنة ١٤٦ فيها تحول المنصور من مدينة ابن هبيرة الى بغداد وليكمل عمارتها واستشار اصحابه وفيهم خالد بن برمك في نقض ايوان كسرى والمدائن ونقل ذلك الى بغداد فقال خالد لا رأى ذلك لانه من اعلام المسلمين فقال المنصور ملت يا خالد الى اصحابك العجم وامر المنصور بنقض القصر الابيض فنقضت ناحية منه فكان ما يغرمون على نقضه اكثر من قيمة ذلك المنقوض فترك فقال له خالد اني لا أرى تبطل ذلك لئلا يقال انك عجزت عن تخريب ما بناه غيرك فلم يلتفت المنصور الى ذلك وترك هدمه ونقل المنصور ابواب واسط فجعلها على بغداد وجعل المنصور بغداد مدورة لئلا يكون بعض الناس اقرب الى السلطان من بعض وبنا قصره في وسطها والجامع في جانب القصر

وفي سنة ١٥٠ هـ توفي الامام ابو حنيفة النعمان بن ثابت وكان ابو حنيفة عالماً عاملا زاهداً وربما راوده أبوجعفر المنصور في ان يولى القضاء فامتنع وكان حسن الوجه ربعة وقيل طويلا احسن الناس منطقاً قال الشافعي قيل لمالك هل رأيت أبا حنيفة فقال نعم رايت رجلا لو كلمته في هذه السارية أن يجعلها ذهباً لقام بحجة وكان ولادته بالكوفة سنة ٨٠ للهجرة وكان وفاته ببغداد في السجن ليلى القضاء فلم يفعل وقيل انه توفي يوم الذي ولد فيه الامام الشافعي في رجب هذه السنة وسنه ٧٠ سنة وقبره ببغداد مشهور .

وفي ٦ ذي الحجة سنة ١٥٨ هـ توفي ابو جعفر المنصور وهو في بئر ميمون على بضعة اميال من مكة حيث توجه لقضاء فروض الحج وكان عمره ٦٣ سنة ومدة حكمه ٢٢ سنة الا ٧ ايام .

« خلافة محمد المهدي »

فخلفه محمد المهدي ابنه وهو الخليفة الثالث من بني العباس وكان كابيه متقلباً متردداً وفي سنة ١٥٩ هـ صرف موسى بن علي عن مصر وولى محمد بن سليمان من اهل سوريا ثم عزله واعاد موسي . بن علي . وفي سنة ١٦٠ هـ صرف هذا وولي عيسى بن لقمان الجمحي وفي هذه السنة صرف عيسى وولى واضحاً مولى ابي جعفر وبعد يسير ابدله بمنصور بن داود بن يزيد الرعيني وهو ابن خال الخليفة المهدي . وفي سنة ١٦٣ هـ ابدله بيحيي بن داود الملقب بابي صالح من اهل خراسان وكان ابوه تركياً وهو من اشد الناس واعظمهم هيبة واقدمهم على الدم واكثرهم عقوبة فمنع من اغلاق الدروب ليلا ومن اغلاق الحوانيت حتى جعلوا عليها شرائح القصب لمنع الكلاب . ومنع حراس الحمامات ان يجلسوا فيها وقال « من ضاع له شيء فعلي اداؤه » فكان الرجل يدخل الحمام فيضع ثيابه ويقول « يا ابا صالح احرسها » فكانت الامور جارية على هذا النمط مدة ولايته وفي سنة ١٦٤ هـ عزل ابو صالح وولى سالم بن سوادة التميمي . وفي ١٥ محرم سنة ١٦٥ هـ عزله المهدي وولى ابراهيم بن صالح بن علي بن عبدالله بن عباس وفي ٧ ذي الحجة سنة ١٦٧ هـ عزله وولى موسى بن مصعب بن الربيع من اهل الموصل . ولما جاء هذا مصر اخذ من ابراهيم وممن كان معه ثلثمائة الف دينار ثم سيره الى بغداد . وشدد موسى في استخراج الخراج وزاد على كل فدان ضعف ما يقبل الرشوة وضرب خراجاً على الحوانيت وعلى الدواب فتضايق الاهالي وكره الجند ذلك ونابذوه وثارت قيس واليمانية وكاتبوا اهل الفسطاط فاتفقوا عليه فبعث بجيش لقتال دحية بالصعيد وخرج في جند مصر كلهم لقتال اهل الحوف فلما التقوا انهزم عنه اهل مصر باجمعهم واسلموه فقتل في ٩ شوال سنة ١٦٨ هـ من غير ان يتكلم احد منهم . وكانت ولايته عشرة اشهر وكان ظالماً غاشماً . فولى المهدي مكانه اسامة ابن عمر وقتياً الى ان انفذ الحوف وخاف خروج دحية لان الناس كانوا قد كاتبوه ودعوه فسير الفضل عساكره اليه وكان قد اتى بها من الشام فانهزمت رجال دحية وقبض عليه وسيق الى الفسطاط فضربت عنقه في جمادى الآخرة سنة ١٦٩ هـ وكان يقول للفضل أنا اولى الناس بولاية مصر لاني قمت في امر دحية وقد عجز عنه غيري ويقال انه ندم على قتل دحية وفي تلك السنة بنى الفضل الجامع العسكر وكان الناس يجتمعون فيه

وبقيت مصر في راحة وهدوء تامين بعد اخماد ثورة اهل الحوف وكذلك كانت سائر الامارات الاسلامية فسكن بال الخليفة المهدي من قبيل داخلية المملكة فعكف على توسيع نطاقها فغزا ملك اليونان بجند تحت قيادة ابنه هارون الرشيد فتغلب هارون على بلدان عديدة ضمها الى مملكة ابيه ووضع على القسطنطينية جزية مقدارها سبعون الف دينار فاظهر هارون شجاعة واقداماً وقعا في عين ابيه موقعاً عظيما فكافأه بان جعل له حق الخلافة بعد اخيه موسى الهادي . وفي ٢٢ محرم سنة ١٦٩ هـ توفى الخليفة المهدي وله من العمر ٤٢ سنة ومدة حكمه عشر سنين وشهران ونصف

« خلافة موسى الهادي »

فبويع موسى الهادي وهو الخليفة الرابع من بني العباس وحالما استلم زمام الاحكام عزل الفضل بن صالح عن مصر وولى علي بن سليمان وحاول الغاء وصية ابيه القاضية بخلافة هارون من بعده على نية ان يجعل الخلافة لابنه لكنه لم يأت على ادراك مناه حتى ادركه الموت في يوم الجمعة الواقع في ١٤ ربيع الاول سنة ١٧٠ هـ وعمره ٢٤ سنة ولم يحكم الا سنة وشهراً و٢٢ يوماً

« خلافة هارون الرشيد »

فبويع ابنه هارون الرشيد يوم وفاة أخيه وهو الخليفة الخامس من بني العباس وفي ايامه بلغت دولة العرب من العمران والمجد ما فاح ارجه في اقاصي الارض المعمورة ولم تعد ترى عصراً مثل ذلك العصر وكأن شمس الدولة العربيه في ايامه بلغت خط المهاجرة ثم تنحدر بعده رويداً رويداً نحو الافق . وفي يوم مبايعة ولد له غلام دعاه عبد الله وهو بكر اولاده وولي عهده ولقب بعدئذ بالمأمون

واقر هارون الرشيد علياً على مصر فاظهر هذا في ولايته حزماً وسياسة فأمر بالمعروف ونهى عن المنكر ومنع الملاهي والخمور لكنه عكف على هدم الكنائس المحدثة في مصر فبذل له النصارى خمسين الف ديناراً على ان يتخلى عن هدمها فابى . وكان كثير الصدقة فعلق به الاهلون حتى قالوا انه اهل للخلافة فطمع فيها فسخط عليه هارون الرشيد وعزله وولى مكانه موسى بن عيسى العلوي في (١) ربيع الاول سنة ١٧١ هـ وحالما استلم زمام الامارة اذن للمسيحيين بابتناء الكنائس التي هدمت بامر علي بن سليمان فأبتنيت بمشورة الليث بن سعد وعبد الله بن لهيعة . وفي ١٤

رمضان سنة ١٧٢ هـ عزل بعد ان تولى الامارة سنة وخمسة اشهر وتولى مكانه مسلمة ابن يحي وفصل بين ادارة الحكومة والمالية أو الخراج وجعل على الخراج عمر بن غيلان وفي ٥ شعبان سنة ١٧٣ هـ عزل مسلمة بن يحي عن الصلاة وتولى محمد بن زهير وفي غاية ذى الحجة سنة ١٧٣ هـ عزل وتولى مكانه داود بن يزيد بن حاتم بن قبيصة وفي ٧ صفر سنة ١٧٥ هـ عزل داود بن يزيد وولى مكانه موسى بن عيسى ثانية . وفي هذه السنة اوصى هارون الرشيد بالخلافة لابنه الثاني محمد الملقب بالامين وهو لم يبلغ الخامسة من العمر واخوه المأمون في السادسة . وسبب ذلك ان الامين كان ابن زبيدة ابنة عم الخليفة واما المأمون فكان ابن جاريته فارسية فغضبت زبيدة لحرمان ابنها من الخلافة وكان الرشيد يحبها فاوصى لابنها الامين على ان يكون للمأمون حق الخلافة بعده

وفي سنة ١٩٠ هـ سار الرشيد في مائة وخمسة وثلاثين الفاً من الجنود الموظفة سوى من لا ديوان له من الاتباع والمتطوعة حتى نزل على هرقلة وحصرها ثلاثين يوما ثم فتحها في شوال من هذه السنة وسبى اهلها وبث عساكره في بلاد الروم ففتحوا الصفصاف وملقونية وخرّبوا ونهبوا وبعث تقفور بالجزية عن رعيته وعن راسه ايضاً ورأس ولده وبطارقته وفي هذه السنة نقض اهل قبرس العهد فغزاهم معتوق بن يحي وكان عاملا على سواحل مصر والشام وسبى اهل قبرس وفيها أسلم الفضل بن سهل على يد المأمون وكان مجوسياً وفيا توفي أسد بن عمرو وابن عامر الكوفي صاحب ابي حنيفة وفيها توفي يحي بن خالد بن برمك محبوساً بالرقة وفي سنة ١٩٢ فيها سار الرشيد من الرقة الى خراسان فنزل بغداد ورحل عنها الى نهروان لخمس خلون من شعبان واستخلف على بغداد ابنه الامين

« ذكر وفاة هارون الرشيد »

وفي هذه السنة مات الرشيد في ٣ جمادى الاخرة وكان به مرض من حين ابتدأ بسفره فاشتدت علته بجرجان في صفر فسار الى طوس فمات بها في التاريخ المذكور وكان قد سير ابنه المأمون الى مرو وحفر الرشيد قبره في موضع الدار التي كان فيها ولما دنت منه الوفاة غشي عليه ثم أفاق فرأى الفضل بن الربيع على رأسه فقال يا فضل

أحين دنا ما كنت أخشى دنوه … رمتني عيون الناس من كل جانب
فاصبحت مرحوماً وكنت محسداً … فصبراً على مكروه مر العواقب
سأبكي على الوصل الذي كان بيننا … واندب ايام السرور الذواهب

ومدة حكمه ٢٣ سنة و ١٩ يوماً . ولا حاجة لتعداد خلال هذا الخليفة الذي

رفع شأن الخلافة الاسلامية الى حد من العظمة لم تدركه في سائر أطوارها فقد كان حازماً عادلاً تقياً باسلا وديعاً محباً للعلم والفضل وأهلهما ولدينا من الاحاديث عن كرم أخلاقه ما يتحدث به العامة والخاصة فنكتفي بانه جعل الخلافة علماً هو مسماها فاذا قيل لنا ان الامر الفلاني حصل في أيام الخليفة نفهم انه حصل في خلافة هارون الرشيد

ومما يحكى عنه انه كان بينه وبين شرلمان ملك فرنسا في ذلك العهد صداقة وولاء وانه أهدى اليه أشياء كثيرة من أعمال الشرق منها الساعة الشهيرة المكتوب عليها بالحروف الكوفية

« خلافة محمد الامين »

وفي يوم وفاة هارون الرشيد خلفه أبنه محمد الامين أما المأمون فكان ابوه قبل وفاته قد وهبه جميع حلله وأسلحته الخصوصية وولاه خراسان بما فيها من العدة والرجال وأن يكون عليها حاكماً مستقلا عن أخيه الامين . فالامين عند استلامه زمام الخلافة أنكر على أخيه وصية ابيهما ولم يسلمه شيئاً مما له الحق به ويقال ان كل ذلك كان بدسيسة الفضل بن ربيع . فتنافر الاخوان والامين أشدهما ضغينة فأرسل الى الكعبة فأتى بالكتابين الذين جعلهما الرشيد هناك بيعة الامين والمأمون فاحرقهما الفضل وجعل ولاية العهد لموسى بن الامين فلم يبق بعد ذلك باب للمصالحة بين الاخوين . وكان الامين منهمكاً باللذات وشرب الخمر واللهو حتى ارسل الى جميع البلاد في طلب الملهين وضمهم اليه وأجرى عليهم الارزاق وأحتجب عن أخوته وأهل بيته وقسم الاموال والجواهر في خواصه وفي الخصيان والنساء وعمل خمس حراقات في دجلة على صورة الاسد وعلى صورة الفيل وعلى صورة العقاب وعلى صورة الحيـة وعلى صورة الفرس وانفق في عملها مالاً عظيماً وذكر ذلك أبو نواس في شعره فقال

سخر الله للامين مطايا ... لم تسخر لصاحب المحراب
فاذا ما ركابه سرن برّاً ... سار في الماء راكباً ليث غاب
عجب الناس إذ رأوك عليه ... كيف لو أبصروك فوق العقاب
ذات سور ومنسر وجناحيـ ... ـن تشق العباب بعد العباب

أما المأمون فكان متيقظاً يتحين الفرص فدعا الى مبايعته بخراسان فالتف حوله حزب كبير يدعون الى نصرته لما رأوا فيه من العدل وكرم الاخلاق ثم جعل المأمون يجمع قواته ويستنصر دعاته واتحد معه هرثمة بن اعين الذي كان أميراً على مصر قبل

ذلك الحين فعظم الامر على الامين فولى حاتم بن هرثمة على مصر سنة ١٩٤ هـ استعطافاً لابيه هرثمة ولكن ذلك لم يجده نفعاً لان هرثمة لم يتحول عن ولاء المأمون

وفي سنة ١٥٩ هـ انفذ الامين جيشاً فيه اربعون الف مقاتل الى خراسان لمقاتلة أخيه فلاقاهم طاهر بن الحسين قائد جند المأمون وأرجعهم على أعقابهم فعظم المأمون في عيون المسلمين عموماً فبايعه أهل خراسان وتابعهم كثيرون . فلما رأى الامين ذلك ورأى ان تولية حاتم بن هرثمة على مصر لم تجده نفعاً عزله وولى جابر بن الاشعث في السنة عينها . وابتنى حاتم بن هرثمة في سفح جبل المقطم حيث القلعة الان قبة عظيمة دعاها قبة الهواء بقيت الى انقراض دولة بني طولون وخراب القطائع . وبعد تولية جابر على مصر اشتد ازر الامين وطمع بالفوز على أخيه فجند جنداً مؤلفاً من اربعين الفاً لمحاربته وجنداً آخر انفذه من جهة اخرى تحت قيادة عبد الله بن حميد بن قحطبة الذي كان ابوه اميراً على مصر في عهد ابي العباس . أما طاهر بن الحسين فسار لملاقاتهم ولم يبال بتلك الجيوش لكنه لم يلتق بهم فتقدم الى الاهواز

وكان على مصر جابر بن الاشعث كما تقدم فلما حدثت فتنة الامين والمأمون قام السرى بن الحكم غضباً للمأمون ودعا الناس الى خلع الامين فاجابوه وبايعوا المأمون في ٢٢ جمادى الاخرة سنة ١٩٦ هـ . وقام في بغداد الحسين بن علي احد سراتها ودعا الناس الى خلع الامين وتولية المأمون فاجابوه وبايعوا في ١١ رجب من تلك السنة . ووثب العباس بن عيسى على الامين ووالدته زبيدة واودعهما السجن موثقين . ثم تمكن الامين ببعض الوسائط من تسلق كرسي الخلافة ثانية فبايعه من في بغداد فقط . أما خلافة المأمون فكانت على الحجاز واليمن والشام ومصر وغيرها . وعقد على مصر لحاتم ابن هرثمة بن أعين وارسل اليها عباد بن محمد نائباً عنه موقتاً

وفي سنة ١٩٧ هـ حمل طاهر بن الحسين وهرثمة بن أعين على بغداد وحاصراها نحواً من سنة فضجر الاهالي وملوا من طول هذه المحاصرة وصاروا ينتظرون لها نهاية فلم يروا لها حلا الا بخلع الامين فخلعوه للمرة الثانية ففر وبعد قليل قبض عليه وقتل وجيء برأسه والخاتم والقضيب والبردة الى المأمون ولم يكن عمر الامين عند موته الا ٢٩ سنة و ٣ أشهر وبضعة ايام ومدة حكمه اربع سنين وثمانية أشهر وثمانية عشر يوماً وكفت بموته الحروب وحقنت الدماء

« خلافة عبد الله المأمون »

فبويع المأمون مبايعة قطعية في محرم سنة ١٩٨ ه يوم قتل أخيه الامين . فاستقدم عباد بن محمد الذي كان عينه نائباً في مصر وعهد امارتها الى المطلب بن عبد الله الخزاعي . وبعد أشهر قليلة أبدل بالعباس بن موسى بن عيسى الذي تولى على مصر ثلاث مرات في أيام هارون الرشيد فتولى صلاتها وخراجها . وفي سنة ١٩٩ ه تخلى العباس بن موسى عن امارة مصر فارسل المأمون عوضاً عنه المطلب بن عبد الله سلفه وبعد قليل أبدل بالسرى بن الحكم . واخذت من ذلك الحين تنتشر في المملكة الاسلامية إلا أن الايام تلد العجائب فتأتيك كل يوم بنبأ جديد

فان العلويين سلالة الامام علي بن ابي طالب لم يكفوا عن المطالبة بحقوقهم في الخلافة فدعوا الناس الى مبايعة علي بن موسى . فلما علم المأمون بذلك وكان لا يزال في خراسان استشار وزيره الفضل بن سهل في الامر فنصح له أن يوصي بالخلافة بعد وفاته لعلي المذكور لان الفضل كان شيعياً . إلا أن تلك السياسة لم تفد الا زيادة الخرق اتساعاً فتضاعف التمرد ونمت الاحزاب وقد شق ذلك خصوصاً على بني العباس لانهم رأوا الخلافة قد خرجت من أيديهم الى العلويين فثاروا في بغداد سنة ٢٠٢ ه ثورة شفت عن خلع المأمون ومبايعة ابراهيم بن المهدي . اما سطوته فلم تتجاوز سور بغداد لانه لم يكن أهلاً للاحكام فخارت قواه دون ذلك فعجز الذين أقاموه عن استبقائه اكثر من سنة وبضعة أشهر فتنازل عن الخلافة سنة ٢٠٣ ه وفرّ هارباً فعاد المأمون الى بغداد في سنة ٢٠٤ ه فدخلها في حلة خضراء علوية وبعد أسبوع عادت الجنود الى الملابس السوداء العباسية

وفي هذه السنة توفي الامام محمد بن أدريس الملقب بالشافعي صاحب المذهب الشافعي وكانت وفاته في الفسطاط ولم يبلغ من العمر اكثر من ٥٤ سنة . وتوفي أيضاً السري ابن الحكم أمير مصر واقيم مقامه محمد بن السرى بمبايعة الجند له بقطع النظر عن أوامر الخليفة بهذا الشأن . وفي سنة ٢٠٧ ه توفي طاهر بن الحسين رئيس قواد المأمون في مرو عاصمة خراسان وكان قد أقامه المأمون هناك حاكماً فقدم ابنه عبد الله بن طاهر الى مصر واقام في بلبيس

وفي سنة ٢١٣ ه انفذ المأمون الى عبد الله بن طاهر أن يقف عند حده وينسحب من مصر وعقد على مصر وسوريا لاخيه المعتصم وأعطاه خمسمائة ألف دينار وأمر بمثل هذا المبلغ هبة لعبد الله بن طاهر للتعيش . ويقال انه أمر بمثل ذلك أيضاً لابنه العباس .

فيكون جملة ما أخرج من خزينته في يوم واحد مليوناً وخمسمائة ألف دينار وهذا منتهى السخاء

وسبب قدوم الخليفة الى مصر أنه كان عائداً من محاربة الروم فرأى أن يمر بمصر لمراقبة شؤونها وكان قلقاً عليها لما بلغه من تمرد اهلها ونقص عمالها فدخلها وجعل يمر بقراياها يتفقد أحوالها . ويقال انه كان يبني له في كل قرية دكة يضرب عليها سرادقه والعساكر حوله وكان يقيم في القرية يوماً وليلة . وبلغ الفسطاط في يوم الجمعة ٩ محرم سنة ٢١٧ هـ وما زال يتحرى أصول الفساد ويقتلعها الى أن برح مصر في آخر صفر من تلك السنة قاصداً دمشق

ولم يفتر المأمون في اثناء تجوله بمصر عن تنظيم أحوالها واصلاح داخليتها وتأييد مجالسها واحكامها وأمر بترميم مقياس النيل الذي بناه اسامة في الروضة وبناء جامع فيه ومقياس آخر في بنبنود « الصعيد » وترميم مقياس اخميم

وبعد ان برح المأمون مصر بلغه ان الدواوين في مصر سارت على خطة لا يرضاها . من حيث قبول الزيادات وفسخ عقود الضمانات وانتزاعها ممن كابد المشقة والتعب في اصلاحها واسمادها وتسليمها لمن يدفع الزيادة من غير كلفة ولا نصب . فلما علم بذلك انكره ومنع ارتكابه وأصدر اوامره الصارمة باعفاء الكافة أجمعين والضمناء والعاملين من قبول الزيادة فيما يتصرفون فيه ويستولون عليه ما داموا مغلقين وبأقساطهم قائمين وتضمن ذلك منشور قرئ على الناس ينبههم فيه الى ما جاء في الكتاب العزيز « يا أيها الذين آمنوا أوفو بالعقود »

وفي ١٩ رجب سنة ٢١٨ هـ توفى الخليفة المأمون على اثر حمى حادة على نهر البذندون في سليسيا ودفن في طرسوس وعمره ٤٨ سنة وبضعة اشهر ومدة خلافته عشرون سنة وخمسة أشهر و١٣ يوماً

اما آثار المأمون فاجل آثار الخلفاء لانها تدل على ما بلغه العلم وما بلغت اليه الصناعة من السعة والاتقان . وقد كان لشدة تعلقه بالعلم والصناعة يتعاطاها بنفسه ويأخذ بناصرهما وكان يبذل النفس والنفيس في سبيل تقدمهما ولولاه لفات العرب كثير من المؤلفات التي كتبت بالفارسية أو السريانية أو اليونانية أو الهندية أو اللاتينية فهو الذي سعى في نقل اكثرها الى اللغة العربية ونشط رعيته لمطالعتها والاستفادة منها . ولا يقتصر فضله من هذا القبيل على ابناء اللغة العربية فان اهالي أوربا عموماً مدينون له لانه حفظ لهم كتابات كثيرة يونانية ولاتينية لولا نقلها الى العربية وحفظها فيها لازالتها يد الزمان

كما أزالت غيرها مما نسمع به ولا نراه . وكان كلفاً بمجالسة العلماء والحكماء لا يخلو مجلسه منهم ولم يكن يقتصر على العلماء من شعبه وملته لكنه استدعى اليه جماعة من علماء النصارى واليهود واليونان والفرس حتى المجوس والهنود وقربهم منه ولم يفرق بين أحد منهم بالاكرام والسخاء

« خلافة محمد المعتصم »

فلما توفى الخليفة المأمون خلفه أخوه محمد المعتصم بن هارون الرشيد الثالث في ١٨ رجب سنة ٢١٨ هـ وهو اول من اتخذ لفظ الجلالة في لقبه فلقب نفسه المعتصم بالله . وكان قد اقر امارة مصر لكيدر الذي كان نائباً عنه فيها ثم كتب اليه يأمره باسقاط من في ديوان مصر من العرب وقطع العطاء عنهم . ففي شهر ربيع آخر سنة ٢١٩ هـ توفى كيدر وتولى مكانه المظفر بن كيدر . وفي سنة ٢٢٠ هـ توفى المظفر وتولى مكانه موسى ابن أبي العباس الملقب بالشيباني ويلقبه آخرون بالشامي . وفي سنة ٢٢٤ هـ استدعى موسى من مصر فاستخلف مالكاً الذي يلقبه بعضهم بالهندي والبعض الآخر بالكندي وهو ابن كيدر المتقدم الذكر . وفي سنة ٢٣٥ عزل مالك وعهدت ولاية مصر بامر الخليفة الى ابى جعفر اشناس وهو آخر من ولي مصر بأمر المعتصم

وفي سنة ٢٢٧ هـ أصيب الخليفة المعتصم بحمى في سامرّا وفي ١٨ ربيع الاول من تلك السنة توفى . ومن الغريب ما لهذا الخليفة من الحظ في الرقم (٨) فان بينه وبين أبي العباس اول الخلفاء العباسيين ثمانية اعقاب ولد في شعبان وهو الشهر الثامن من السنة القمرية وهو الخليفة الثامن من بني العباس وتولى الخلافة سنة ٢١٨ وعمره ٣٨ سنة وثمانية اشهر ومدة حكمه ٨ سنين و٨ اشهر و٨ ايام وتوفى في ١٨ ربيع الاول في السنة الثامنة والاربعين من عمره وترك ثمانية اولاد ذكور وثماني أناث وحضر ثماني مواقع حربية وأخيراً وجد في خزينته عند موته ثمانية ملايين من الدنانير وثمانون الف درهم وقد قيل انه بناء على هذا الاتفاق الغريب دعي (بالمثمن)

وقد كان هذا الخليفة نقطة ابتداء تقهقر دولة العرب ولعله كان السبب في ذلك التقهقر لانه كان ضعيف السياسة بعيداً من الفضائل والآداب أمياً لا يعرف الكتابة لكنه كان قوي البدن يحمل ما وزنه الف رطل (ليبرا) ويمشي به خطوات وكان مع ذلك شجاعاً ومحباً على نوع خصوصي للحرب ولاقتناء الاسلحة والخيل الجياد والعساكر المنتظمة وهو اول من جند الاتراك واستعان بهم في الحرب

« مبدأ الدولة الطولونية »

ان الامة العظيمة التي يدعوها بعض المؤرخين تركية وبعضهم تترية وفيها شعوب التركمان والمغول والتتر تشغل بقعة من الارض في آسيا الشمالية تمتد من نهر جيحون الى حدود الصين ويحدها شمالاً الاوقيانوس المتجمد . ونظراً لما بينها وبين شبه جزيرة العرب من الابعاد والجبال والاودية والانهار مما لا يسهل تخطيه كانت في مأمن من غزوات العرب وفتوحهم وفي غنى عن معاهداتهم أو غير ذلك مما يستدعى ارتباطهما الواحدة بالاخرى . الا ان الشعوب التركية أخذت من عهد الخلفاء الراشدين في غزو بلاد التتر مما يلي بلادها والعرب ايضاً كانوا يفعلون مثل ذلك مما يلي ولاياتهم وما زالوا يفتحون فيها حتى بلغوا حدود تركستان وما وراءها فافضى الامر الى تزاحم هاتين الامتين فتنازعتا فقامت الحرب بينهما سجالاً مدةً طويلة في اماكن مختلفة وكان الاستئسار بينهما متبادلاً فكان العرب يرسلون باسراهم من الترك الى بلاد الخلافة بمثابة الجزية لاستعمالهم في منازل الخلفاء وكبار الامراء ويدعونهم بالمماليك

والمماليك الذين كانوا في دور الخلفاء كانوا يمتازون غالباً بالقوة البدنية والعقلية وكانوا يتقربون من اسيادهم شيئاً فشيئاً حتى استخدموهم في بلاطهم

وقد كان المماليك في بادىء أمرهم في ظلمات من الجهل والهمجية وعلى ابعاد من الفضيلة وشعائر الدين لا يعرفون القراءة لكنهم بمخالطتهم للامراء ورجال الدولة اصبحوا على جانب من التهذيب والاستنارة لاعتناقهم الديانة الاسلامية ثم تدربوا شيئاً فشيئاً في شؤون الدولة فبرعوا في السياسة وتدبير الاحكام وادارة الاعمال فعظموا في عين الخلفاء فلما كثر تمرد ولاة الامصار صار الخلفاء يعهدون اليهم ولاية الامصار فكثر انصارهم فاقاموا لهم احزاباً من ابناء البلاد ينجدونهم عند الحاجة . ولم يكن ذلك كل مافعله الخلفاء لكنهم كانوا يبذلون المبالغ الوافرة في ابتياعهم ينتقون منهم الممتازين جمالا وقوة وذكاء ليدخلوهم في خدمتهم الخاصة . ومن ذلك ما فعله الخليفة المعتصم اذ رغب في تعزيز حاشيته فابتاع من اولئك المماليك الوفاً فوق ما كان عنده منهم وأمر بتدريبهم على استعمال السلاح والحاقهم بالجيش ليختار منهم متى شاء من يصلح لبطانته فكبرت نفوسهم وجعلوا يعيثون فيمن حولهم فكثرت التشكيات في حقهم وكثر الهرج في بغداد حتى اضطر المعتصم الى بناء مدينة سامرّا لاقامته معهم

وكان للمعتصم بالله بطانة من المماليك عليهم رئيس يقال له « طولون » من قبيلة

الطغرغر احدى الاربع والعشرين قبيلة التي تتألف منها تركستان وكانت عائلته مقيمة في جوار بحيرة (لوب) في بخارا الصغرى فأسر في احدى المواقع الحربية وجيء به الى ابن اسد الصمامي وكان من عمال المأمون يدفع له جزية سنوية من المماليك والخيول التركية وأشياء أخرى ففي سنة ٢٠٠ ه كان طولون في جملة من ارسلهم ابن أسد من المماليك وكان متناسب الاعضاء قوي البنية فاعجب المأمون به فالحقه بحاشيته وما زال يرقيه حتى جعله رئيس حرسه ولقبه بامير الستر. وهذا المنصب لم يكن يناله الا من كان للخليفة ثقة خصوصية بامانته واخلاصه ليكون محافظاً على حياته الشخصية. وبعد ان صرف طولون نحواً من ٢٠ سنة في هذا المنصب في أيام المأمون فالمعتصم أصبح ذا عائلة واولاد منهم أحمد الذي لقب بعد ذلك بابي العباس وهو مؤسس الدولة الطولونية. ولد في بغداد وقال آخرون في سامرا سنة ٢٢٠ ه من والدة تركية تدعى قاسمة ويدعوها بعضهم هاشمة كانت في عداد السراري. وقال آخرون انه ابن المهلبي خادم طولون وان طولون رباه صغيراً والله أعلم

« خلافة الواثق بن المعتصم »

وقبل ان يترعرع أحمد بن طولون توفي المعتصم بالله وبويع ابنه هارون ابو جعفر فلقبوه بالواثق بالله وفي السنة الاولى من خلافته عزل القسم الاعظم من ولاة الامصار وأصحاب المناصب الذين كان قد ولاهم أبوه وكان في نيته اقالة أشناس من امارة مصر لكنه لم يكد يفعل حتى توفى أشناس في الفسطاط سنة ٢٢٨ ه فأقام مقامه علي بن يحيي الارمني وبعد نحو سنة أبدل بعيسى بن منصور للمرة الثانية. وفي سنة ٢٣١ ه توفي الخليفة الواثق بالله في ٢٤ ذى الحجة وعمره ٣٤ سنة ومدة حكمه ٥ سنوات و ٩ أشهر و ١٣ يوماً

« خلافة المتوكل بن المعتصم »

وعند وفاة الخليفة تواطأ وزيراه احمد بن أبي داود ومحمد بن عبد الملك الملقب بالزيات مع واصف التركي رئيس الحجاب على ان يبايعوا محمد بن الواثق ويلقبوه بالمهتدي بالله لانهم رأوا سنه لا يجيز له تعاطي الاحكام فعدلوا عنه الى جعفر بن المعتصم فبايعوه ولقبوه بالمتوكل على الله. وقد كان الواثق والمتوكل أخوين من أب واحد ووالدتين والدة الاول جارية يونانية تدعى قراطيس ووالدة الثاني جارية تركية تدعى سرجه

وفي سـنة ٢٣٢ هـ عقد المتوكل على مصر لهرثمة بن نضر الجبلي وفي السنة التالية أبدله بابنه المنتصر بن المتوكل وسنة ٢٣٤ هـ تولاها حاتم بن هرثمة

وفي تلك السنة أبدل حاتم بن هرثمة بعلي بن يحي الارمني « ثانية » وفي سنة ٢٣٥ أبدل هذا باسحق بن يحي الجيلي وفي هـذه السنة أوصى المتوكل بالخلافة بعده لابنه المنتصر وبعده لابنه الثاني المعتز بالله وبعد هذا لابنه الثالث المؤيد بالله وجعل ممالكته حصصاً فولى المنتصر افريقية وكل المغرب من العريش الى آخر حدود المغرب بما فيه مصر واضاف الى ذلك قنسرين وسوريا وبين النهرين وديار بكر والموصل وكل البقاع التي يرويها دجلة ومكة والمدينة واليمن وحضرموت والبحرين والسند وساءرا والكوفة وكل توابعها . وولى المعتز خراسان وطبرستان وفارس وارمينيا واذربايجان وولى المؤيد دمشق وحمص والاردن وفلسطين . أما المنتصر فلم يقنع بما قسم له وطمع بتولية الخلافة قبل وفاة ابيه فاخذ يسعى في خلعه

وفي سنة ٢٣٦ هـ أقيم على مصر خوط عبد الواحد بن يحي وفي سنة ٢٣٨ هـ أبدل بعنبسة بن اسحق وفي سنة ٢٣٩ هـ أمر المتوكل ببناء حصن في مدينة الفرما وحصون أخرى في دمياط وتنيس وتولى بناءها عنبسة وانفق عليها اموالاً طائلة وقايةً من غزوات الروم لكنهم لم يكادوا يتحصنون حتى هجم الروم على دمياط وملكوها ومن فيها وقتلوا جمعاً كثيراً من المسلمين وسبوا النساء والاطفال وأهل الذمة فلما علم بذلك عنبسة ركب اليهم يوم النحر في جيشه ونفر كثير من الناس فاخبروه ان الروم قد ساروا الى تنيس وتحصنوا في اشموم فلم يتبعهم عنبسة فكتب يحي بن الفضل الى الخليفة المتوكل على الله رسالة فيها هذه الابيات

أترضى بأن يوطأ حريمك عنوةً ... وأن يستباح المسلمون ويحربوا
حمار أتى دمياط والروم وثبٌ ... بتانيس رأي العين منه وأقرب
مقيمون بالاشموم يبغون مثلما ... اصابوه من دمياط والحرب ترتب
فما رام من دمياط شبراً ولا درى ... من العجز ما يأتي وما يتجنب
فلا تنسنا إنا بدار مضيعة ... بمصر وان الدين قد كاد يذهب

وفي ٢٠ رجب سنة ٢٤٢ هـ سار المنتصر الى ابيه في سامرا وأخذ يسعى بالدسائس والتواطؤ مع المفسدين على ابيه واستخلف على مصر يزيد بن عبد الله . وفي سنة ٢٤٥ هـ خرج يزيد بن عبد الله الى دمياط مرابطاً ثم رحل فبلغه نزول الروم في الفرما فرجع اليها فلم يلقهم . وفي سنة ٢٤٧ هـ بنى مقياس النيل في جزيرة الروضة وكان قد سقط

بزلزلة فاعاد بناءه فعرف من ذلك الحين بالمقياس الجديد او الكبير وهو المقياس الباقي هنالك الى هذه الغاية . وجرت على العلويين في ايام يزيد شدة . هذا ما كان من امر يزيد

اما المتوكل ففي سنة ٢٤٣ هـ انتقل الى دمشق على نية ان يتخذها مستقرًا الى حين فتبعه المنتصر وما زال ساعياً بالمفاسد توصلا الى بغيته حتى سنة ٢٤٤ هـ اذ قارب الفوز بغرضه الوخيم فثارت عصبة من الاتراك المجندين في دمشق على الخليفة بدعوى تأخر دفع مرتباتهم وكان ذلك بدسيسة المنتصر فتلافى الخليفة الشر بدفع المتأخر لهم وبرح دمشق عائداً الى سامرّا . وفي سنة ٢٤٧ هـ علم الخليفة بمقاصد ابنه فامر به اليه فوبخه على مسمعٍ من الناس . وفي يوم الاربعاء الرابع من شوال من السنة المذكورة ذبح المتوكل على فراشه في منتصف الليل بيد احد ضباط الحرس التركي المدعو بغا الصغير بدسيسة المنتصر وكان عمر المتوكل عند موته ٤١ سنة ومدة حكمه ١٤ سنة و ١٠ اشهر و ٣ ايام

« خلافة المنتصر بن المتوكل »

فاستوى المنتصر على منصة الخلافة قبل ان تفارق اباه رجفة الموت فلما استتب له الملك حدثته نفسه ان يحرم اخويه مما اوصى به ابوه لهما على ما مر بك . فحملهما سنة ٢٤٨ هـ على ان يوقعا على صك بحرمانهما من الخلافة ومما اوصى لهما به ابوهما من المدن . وساعد المنتصر على ذلك وصيف التركي وشركاؤه بقتل المتوكل مخافة ان يلقوا جزاء ما فعلته ايديهم اذا وصلت الخلافة الى احد الاخوين . على ان حياة المنتصر لم تكن لقصرها تستحق كل هذه الاحتياطات لانه اصيب بعد توليته بايام بداء اعيا الاطباء وما زال حتى ذهب بحياته وهو يتقلب على مثل جمر الغضا من الالم

« خلافة المستعين بن محمد »

وبعد وفاة المنتصر تشاور وصيف التركي وبغا الصغير وبغا الكبير والوزراء والاعيان فيمن يجب ان يكون الخليفة عليهم فاجمعوا على حرمان ابناء المتوكل ووقع اختيارهم على احمد بن محمد بن المعتصم وقالوا لا تخرج الخلافة من ولد مولانا المعتصم فبايعوه يوم وفاة المنتصر ولقبوه بالمستعين بالله . ولم يكد يتم ذلك حتى قامت عصبة يريدون استخلاف المعتز بالله الا انهم كانوا نفراً يسيراً فتفرقوا ولم تكن النتيجة الا القبض على ولدي المتوكل وسجنهما

ومن ذلك الحين اخذ نجم احمد بن طولون بالظهور في افق الاعمال السياسية فتوفي والده سنة ٢٣٩ هـ وهو لم يبلغ التاسعة عشرة من العمر وكان ذلك في ايام الخليفة المتوكل في الثاني السنوات الاولى فرأى في احمد اللياقة ليخلف اباه على امارة الستر . وكان احمد قد تعلم وتربى تربية حسنة وكان تقيا رضيّ الخلق كريم النفس لين العريكة مع اقدام وبسالة وعلم بالسياسة وكان مغرماً بمطالعة الحديث فاكتسب شهرة بالتقوى والعدالة فاحبه جميع الضباط الاتراك الذين كانوا في بلاط الخليفة وفيهم احد كبرائهم برقوق فازوج احمد ابنته فجاءه منها غلام دعاه عباساً

وفي سنة ٢٥٠ هـ ثارت عصبة كبيرة تريد خلع المستعين وذلك ان المماليك الاتراك الذين كانوا يخدمون في بلاط الخلفاء وجندهم على ما تقدم كانوا يزدادون عدداً وقوة منذ ايام المعتصم لتقلبهم في المناصب العالية فامسوا وفي ايديهم ازمة الدولة يديرونها كيف شاءوا . وقد كانوا قبل وفاة المتوكل يقتنعون بعزل وتولية الامراء والوزراء وقتل من شاءوا ممن ليس على غرضهم لكنهم بعد ذلك لم يعد يرضيهم الا التداخل في عزل الخلفاء وتوليتهم . فكانوا اذا لم يعجبهم خليفة سعوا في استبداله فيستنجدون احزابهم وينفذون مآربهم . وقد كانت تولية المستعين بالله بمساعي بعض كبراء الحرس الخاص فاستاء البعض الآخر وجعلوا يسعون في خلعه فخلعوه سنة ٢٥٢ هـ بعد ان تولى امرها ثلاث سنوات و ٨ اشهر

« خلافة المعتز بن المتوكل »

وبعد خلع المستعين بايعوا ابن عمه المعتز بالله وهو ابن المتوكل على الله واخو المنتصر وكان محروماً من حقوق الخلافة منذ قتل ابيه وعمره اذ ذاك ١٨ سنة وبضعة اشهر . وكان بعد ان فرّ من سجن سامرّا مع اخيه المؤيد بالله قد اعادهما ابن عمهما المستعين الى القيود . فالاحزاب التي قويت بعد ذلك وخلعت المستعين لم يكن لها دخل في قتل المتوكل فحلوا قيود المعتز وبايعوه يوم الجمعة في ١٤ محرم سنة ٢٥٢ هـ وجاؤا الى المستعين واجبروه على ان يتنازل ففعل فنقلوه الى قلعة وجعلوا عليه حراساً ثم ارسلوه الى واسط في سرب تحت قيادة احمد بن طولون فقتل في الطريق . ويقال ان الحاجب سعيداً هو الذي قتله بناء على اوامر سرية من المعتز بالله . وقال البعض ان احمد بن طولون هو الذي فعل ذلك بيده . غير ان الجمهور اجمع على تبرئته من هذه التهمة الفظيعة

وفي ٢٥ رجب سنة ٢٥٥ هـ كثرت دسائس الاتراك في بغداد بمساعدة الحاجب صالح بن واصف احد قتلة المتوكل فاوعز الى المعتز وعمره اذ ذاك ٢٤ سنة ان يتنازل عن الخلافة ولم يحكم فيها الا ٤ سنوات و ٦ أشهر فتنازل في ذلك اليوم فاودعوه السجن وقطعوا عنه الغذاء فمات جوعاً بعد ستة ايام فاقاموا عوضاً عنه ابن عمه المهتدي بالله بن الوائق وعمره ٣٧ سنة .

« خلافة المهتدي »

وفي يوم الاربعاء لثلاث بقين من رجب من هذه السنة بويع لمحمد بن الوائق بالخلافة ولقب بالمهتدي بالله وكنيته ابو عبد الله وأمه رومية اسمها (قرب) وفي هذه السنة في رمضان ظهرت قبيحة أم المعتز وكانت اختفت لما قتل ابنها وكان لقبيحة أموال عظيمة ببغداد وكان لها مطمور تحت الارض الف الف دينار ووجدلها في سفط قدر مكوك زمرد وفي سفط آخر مقدار مكوك لؤلؤ وفي سفط مقدار كيلة ياقوت أحمر لا يوجد مثله ونبش ذلك كله وحمل جميعه الى صالح بن واصف فقال صالح قبح الله قبيحة عرّضت ابناها للقتل لاجل خمسين الف دينار وعندها هذه الاموال كلها وكان المتوكل قد سماها قبيحة لحسنها وجمالها كما يسمى الاسود كافور ثم صارت قبيحة الى مكة تدعو بصوت عال على صالح بن واصيف وتقول هتك ستري وقتل ولدي واخذ مالي وغربني عن بلدي وركب الفاحشة مني

« خلع المهتدي وموته »

وفي رجب سنة ٢٥٦ هـ خلع محمد المهتدي بن هارون الوائق بن المعتصم وتوفى لاثنتي عشرة ليلة بقيت منه وكان سببه انه قصد قتل موسى بن بغا وكان موسى المذكور معسكراً قبالة بعض الخوارج وكتب بذلك الى بايكيال وكان من مقدمي الترك ان يقتل موسى بن بغا ويصير موضعه فاطلع بايكيال موسى على ذلك فاتفقا على قتل المهتدي وسار الى سامرّا ودخل بايكيال الى المهتدي فحبسه المهتدي وقتله وركب لقتال موسى ففارقت الاتراك الذين كانوا مع المهتدي عسكر المهتدي وصاروا مع اصحابهم الاتراك مع موسى فضعف المهتدي وهرب ودخل الدور فامسك وداسوا خصيتيه وصفوه فمات ودفن بمقبرة المنتصر وكانت خلافة المهتدي احد عشر شهراً ونصفاً وعمره ثمانية وثلاثين ومولده بالقاطول وكان ورعاً كثير العبادة قصد ان يكون في بني العباس مثل عمر بن عبد العزيز في بني امية .

الدولة الطولونية

« حكم احمد بن طولون »

كان احمد بن طولون قد عرف دسائس ابن المدبر وشقير الخادم وكان الوزير قد ارسل اليه جميع الكتب الواردة منهما بحقه . وبعد يسير توفى شقير خوفاً وهمّ ابن طولون بعزل ابن المدبر لكنه عرف بعد ذلك ان اخاه على خزينة الخليفة فاغض عنه اما ابن المدبر فكان قد ملّ مناظرة ابن طولون وهو لا يقوى على كيده فطلب الى اخيه ان ينقله الى وكالة خراج سوريا ففعل وقبل تركه مصر اعاد صلات المودة مع ابن طولون فازوج ابنته لخمارويه بن احمد طولون ووهبه معها الاملاك التي كانت له في مصر ثم ارسل المعتمد يستحث ابن طولون في جمع الخراج فاجابه لست اطيق ذلك والخراج في يد غيري فاحيل الخراج اليه فاصبحت جميع اعمال مصر الادارية والعسكرية والمالية بيده

« أصلاحاته »

واول جامع شاده ابن طولون جامع التنور ابتناه على قمة جبل المقطم في مكان كان يدعى تنور فرعون يقال انه سمي كذلك لانه على مرتفع فكانوا يضرمون فيه النار ليلاً فظن بعض المشايخ ان في ذلك المكان كنزاً فاخذ يحتفر فيه فلم يظفر بشيء فعلم ابن طولون فاحتفر فاصاب مالاً اكثر كثيراً من ذي قبل وعند ذلك امر ببناء الجامع هناك ودعاه جامع التنور . واحتفر ابن طولون بئراً عند بركة الحبش تعرف ببئر عفصة وابتنى ساقية وقناطر خارج المغافر عرفت بقناطر ابن طولون ناظر بناءها مهندس مسيحي ماهر ولا تزال آثارها باقية

« بناء الجامع »

وكثر اتباع ابن طولون ورجال حاشيته وجنده حتى ضاق جامع العسكر ذرعاً عن احصائهم ايام الجمعة للصلاة فرفعوا اليه ان يبتني لهم جامعاً آخر اكثر اتساعاً فاستجاب التماسهم على ان يبتنيه على جبل يشكر وكان لهذا الجبل شأن ديني عندهم وكانوا يقولون ان موسى الكليم ناجى ربه عليه مراراً وانه اقتبل في ذلك المكان بعض الشرائع المقدسة وعزم احمد ان يجعل ذلك الجامع اعظم ما بني من الجوامع الى ذلك العهد

وان يقيمه على ثلاثمائة عمود من الرخام . فقيل له ان مثل هذا العدد لا يتيسر الحصول عليه وانه اذا اصر على عزمه لا يترك للمسيحيين ما يقوم ببناء معابدهم فتردد بين ان يتم مشروعه وان لا يحرم الطوائف الاخرى من التمتع بحقوقها الدينية في بناء المعابد

وكان المهندس المسيحي الذي تقدم ذكره ويسمى ابن الكاتب الفرغاني ومن ذوي الاطلاع والمعرفة بفن الهندسة وصنعة البناء وقد اودع السجن لتهمة توجهت نحوه بغير الحق . فلما بلغه ماكان من عزم ابن طولون وتردده كتب اليه من السجن انه قادر على اتمام مشروعه وانه لا يحتاج في ذلك الى اكثر من عمودين يجعلهما عمودي القبلة. فاستحضره وقد طال شعره حتى نزل على وجهه وطلب اليه ان يشرح له ذلك فرسم الجامع على الكيفية التي كانت في ذهنه فجاء كثير الشبه بجامع سامرّا . فاعجب ابن طولون كثيراً وامر باطلاقه وخلع عليه وجعل تحت امره مائة الف دينار وقال له انفق وما احتجت اليه بعد ذلك اطلقناه لك. وامر ابن طولون ان يكون بناء الجامع من القرميد والجير ونهى عن ادخال اي مادة كانت مما يقبل الاشتعال قائلاً « ورغبتي من ذلك انه اذا طرأ على الفسطاط دمار بالماء أم بالنار فلا يكون على جامعي بأس فيبقى ولو دمرت جميعها »

ولما اتم بناء هيكل الجامع اخذ في زخرفته فبيضه وعلق فيه القناديل الجميلة النحاسية بالسلاسل النحاسية الطوال وجعل على افاريزه آيات من القرآن الشريف لا يزال معظمها ظاهراً الى هذا اليوم وفرش الحصر وحمل اليه صناديق المصاحف ونقل اليه القراء والفقهاء . ويقال انه هو الذي رسم القبلة والمنارة بنفسه وجعلها منفصلة عنه برواق يحيط بالجامع ويفصل المنارة عن صحن ثان خارجي وقد هدم بعض هذه المنارة الا ان الناظر اليها لا يسعه الا التعجب من عظمتها ويقال ان تجاه المنارة المذكورة الباب الكبير وجعل للجامع ٣٣ شباكاً . واقام بجوار الجامع بناء دعاه دار الامارة يستطرق الى الجامع من كوة في جداره القبلي قرب المحراب والمنبر مزين بالستائر . وفي الدار المسائد الجميلة والطنافس الثمينة فكان ابن طولون ينزل في تلك الدار اذا ذهب الى الصلاة يوم الجمعة فانها كانت تجاه القصر والميدان فيجلس فيها ويجدد وضوءه ويغير ثيابه وفي موضعها الآن سوق الجامع

ومن يزر هذا الجامع اليوم يره خراباً مهجوراً وقد استعملته الحكومة مراراً منازل للحجاج والفقراء فبنوا في قناطره فسدوها . وقد هدم بعض تلك القناطر

وبعض المنارة وفي صحن الجامع الميضأة ولا يزال أثر المنبر الخشبي باقياً وفي جوار المنارة غرف يقال انها كانت مصلى احمد ابن طولون وذريته

وابن طولون اول من بنى قلعة في يافا . وترك عند وفاته ٣٠ ولداً ١٧ ذكراً و١٣ انثى ولم يكن عمره عند وفاته أكثر من خمسين سنة . واوصى ان تكون الاحكام لبنيه من بعده ليكون له من نسله دولة تخلد ذكره . الا ان هذه الدولة لم تمكث بعده الا ٢٢ سنة

« خمارويه بن أحمد »

وبعد وفاة ابن طولون اقيم ابنه خمارويه حالاً في مكانه في ذي القعدة سنة ٢٧٠ هـ وعمره ٢٠ سنة ولقب بأبي الجيش فسر الناس من توليته . واما العباس فكان لا يزال في السجن وقد كرهته الامة لما كان من عقوقه . وقال بعضهم ان اباه ناداه قبل وفاته وعفا عما كان منه واوصى له بامارة الشام تحت امارة اخيه خمارويه لكنه ما لبث ان اقيم اخوه على الاحكام حتى ذهبت حياته بأمره . ولم يشأ خمارويه ان يجعل مركز حكومته في الفسطاط كما فعل ابوه فجعلها في القطائع التي كان قد بناها ابوه مقرّاً لرجاله

« حدائق خمارويه واصطبلاته »

ثم أخذ في تدبير الاحكام فلم يغير شيئاً مما كان في ايام ابيه فابقى ارباب المناصب كما كانوا فبقيت قيادة جيش الشام في يد ابي عبد الله وقيادة ما بقي من الجيوش في يد سعيد الايسر . ولكي يتأكد مناعة الشام ارسل اليها مراكب حربية تطوف في مياهها . ولما اطمأن باله من قبيل ذلك عطف على الداخلية فاقبل على قصر ابيه وزاد فيه واخذ الميدان فجعله كله بستاناً وزرع فيه انواع الرياحين والشجر المطعم العجيب وانواع الورد والزعفران وكسا اجسام النخل نحاساً مذهباً وجعل بين النحاس واجسام النخل مزاريب الرصاص واجرى فيها الماء المدبر وغرس فيه من الريحان المزروع على نقوش معمولة وكتابات مكتوبة يتعهدها البستاني بالمقراض حتى لا تزيد ورقة على ورقة وطعموا له شجر المشمش باللوز واشباه ذلك وبنى في البستان برجاً من خشب الساج المنقوش بالنقر النافر ليقوم مقام الاقفاص وسرح فيه من اصناف القماري والدباسي والنونيات وكل طائر مستحسن حسن الصوت . وجعل فيه اوكاراً تفرخ الطيور فيها وسرح في البستان من الطير العجيب كالطواويس ودجاج الحبش ونحوها . وعمل في

داره مجلساً في رواقه سماه بيت الذهب طلى حيطانه كلها بالذهب المجاول باللازورد على احسن نقش وجعل في حيطانه صوراً بارزة من خشب معمول على صورته وصور حظاياه والمغنيات اللاتي يغنينه بما عليهنّ من اللباس بألوانه وجعل عليهنّ من الحلى مثل ما اعتدن لبسه

وجعل امام هذا البيت فسقية ملأها زئبقاً . وسبب ذلك انه شكا الى طبيبه الارق فاشار عليه بالتغميز فانف من ذلك فقال تأمر بعمل بركة من زئبق فعمل بركة يقال انها ٥٠ ذراعاً طولا في ٥٠ عرضاً وملأها من الزئبق وجعل في اركان البركة سككا من الفضة الخالصة وجعل في السكك زنانير من حرير في حلق من الفضة . وعمل فراشاً من ادم يحشى بالريح حتى ينتفخ فيحكم حينئذ شده ويلقى على تلك البركة وتشد زنانير الحرير التي بحلق الفضة في سكك الفضة وينام على هذا الفراش ولا يزال هذا الفراش يرج ويتحرك بحركة الزئبق ما دام عليه . ولم يعرف ملك قط تقدم خمارويه في عمل هذه البركة

وبنى ايضاً بالقصر قبة تضاهي قبة الهواء سماها الدكة وكان كثيراً ما يجلس فيها ليشرف منها على جميع ما في داره من البستان وغيره ويرى الصحراء والنيل والجبل وجميع المدينة . وبنى ميداناً آخر اكبر من ميدان ابيه . وبنى ايضا في داره داراً للسباع عمل فيها بيوتا بآزاج كل بيت يسع سبعا ولبوته وبجانب كل بيت حوض من رخام وجعل لتلك السباع سياساً يقومون بما تحتاج اليه من الطعام والشراب والتنظيف وكان من جملة هذه السباع سبع ازرق العينين يقال له زريق قد انس بخمارويه وصار مطلقاً في الدار لا يؤذي احداً ويقام له بوظيفة من الغذاء في كل يوم . فاذا نصبت مائدة خمارويه اقبل زريق معها وربض بين يديه يلتقط ما يرميه اليه من فضلاتها . فاذا نام جاء زريق ليحرسه فان كان قد نام على سرير ربض بين يدي السرير واذا كان على الارض فبجانبه لا يغفل عن ذلك لحظة واحدة

واتسعت ايضاً اصطبلات خمارويه فعمل لكل صنف من الدواب اصطبلا مفرداً وعمل للنمور داراً مفردة ومثل ذلك للفهود والفيلة والزرافات كل ذلك سوى الاصطبلات التي في الجيزة . وكان له ايضاً بمصر اصطبلات تنتج فيها الخيل لحلبة السباق وللرباط في سبيل الله برسم الغزو . وبلغت مرتبات الجيش في ايامه تسعماية الف دينار في كل سنة . وكانت حلبة السباق في ايامهم تقوم مقام الاعياد لكثرة الزينة وركوب سائر العساكر والغلمان على كثرتهم بالسلاح التام والعدة الكاملة فيجلس الناس لمشاهدة

ذلك كما يجلسون للاعياد وكان له معرض للخيل فريد

وفي سنة ٢٧٨ هـ توفي الموفق وبايع قواده بولاية العهد لابنه المعتضد بعد المفوض ابن اخيه . وفي اول سنة ٢٧٩ هـ خلع المعتمد ولاية العهد عن ابنه المفوض وجعلها للمعتضد . وفي تلك السنة توفى الخليفة المعتمد على الله بعد ان حكم ٤٣ سنة فبويع ابن اخيه المعتضد بالله فاغتنم خمارويه الفرصة لتوطيد العلائق بينه وبين الخليفة الجديد فانفذ الحسين بن عبد الله المعروف بابن القصار وفداً الى بغداد ومعه الهدايا الثمينة يعلن الخليفة ان مصر ستؤدي الخراج وقدره مائتا الف دينار . وانها ستدفع ايضاً عن السنين الماضية ٣٠٠ الف دينار . فاجابه الخليفة بتثبيته في امارته لمدة ٣٠ سنة على ما كان تحت امارته او امارة ابيه وارسل اليه ايضاً السيف والخلعة المختصين بهذا المنصب فدفع خمارويه الدفعة الاولى تماماً لكنه تأخر بعد ذلك رويداً رويداً على انه لم يكن يغفل عن توطيد علائق المودة بين الخليفة فارسل اليه وفداً يعرض عليه زفاف ابنته قطر الندى لابن المعتضد فقبل الخليفة بان يكون الزفاف له . وحصل ذلك على اعجب سبيل فحملت قطر الندى الى المعتضد وذهبت معها عمتها العباسة بنت احمد بن طولون مشيعة لها الى آخر اعمال مصر من جهة الشام ونزلت هناك وضربت فساطيطها وبنيت هناك قرية فسميت باسمها وقيل لها العباسة

ولما استقر له السلام على هذه الصورة مع الخليفة جعل يوسع سلطانه فامر طغج ابن جف امير دمشق ان يتقدم بفرقة من عساكر طرسوس الى بلاد الروم . ففعل وحارب الروم واستولى على عدة مدن وعاد بالغنائم . وفي سنة ٢٨٢ هـ التي كانت زاهية بزفاف قطر الندى سودت بموت خمارويه مقتولا في دمشق . وذلك انه نمي اليه ان بين بعض نسائه وبعض كبراء خدامه علائق حبية سرية فشق ذلك عليه فاخذ في تحقيق الامر وتأكيد الجرم على فاعله ومقاصته بما يقتضيه العدل فخشي هؤلاء من العقاب الشديد فاتفقوا مع نسائه على قتله لينجوا كلهم من شره فقتلوه على فراشه في ليلة من ليالي ذي الحجة من سنة ٢٨٢ هـ وقال آخرون في كيفية قتله غير ذلك . وبعد موته القي القبض على عشرين من الخدم الذين وقعت عليهم الشبهة وبعد التحقيق تأكدت الجريمة على عشرين فحكم عليهم بالاعدام فنقلت جثة خمارويه الى مصر ودفنت بسفح المقطم بقرب جثة ابيه احمد . وكانت مدة حكمه ١٢ سنة و١٨ يوماً وكان من احسن الناس خطاً . وحال موته بويع ابنه جيش الملقب بأبي العساكر وهو صغير لم يبلغ رشده

« جيش بن خمارويه »

وفي سنة ٢٨٣ هـ ابى طغج بن جف حاكم الشام مبايعة جيش على بلاده وبعد يسير ثارت الجيوش في مصر بدعوى انهم لا يقبلون موضع احمد بن طولون صبياً لم يبلغ رشده ولا يعرف شيئاً من امور الاحكام . وكان اذا ابدل رجلاً بآخر قالوا قد اختار من هو في سنه او على شاكلته . وبعد تسعة اشهر من حكمه ثار عليه الجميع وقتلوه ونهبوا قصره وأحرقوا المدينة .

« هارون بن خمارويه »

واقام زعماء الثورة اخاه هارون مكانه . وقيل ان المعتضد ثبته على مصر لانه وعده بمال يحمله اليه مقداره مليون من الدنانير

وفي سنة ٢٨٤ هـ اي بعد تنصيب هارون بسنة أخذ الاهلون ورجال الحكومة يقللون من الطاعة له ويحتقرون اوامره شيئاً فشيئاً حتى صاروا في استعداد كلي لنبذ الطاعة والمجاهرة بالعصيان . ورئيس هذه الثورة طغج بن جف صاحب الشام . وفي سنة ٢٨٥ هـ علم المعتضد بما كان من تقسيم بلاد هارون وكره الرعايا له فرأى ان يغتنم الفرصة لاسترجاع تلك البلاد لسلطانه كما كانت في عهد اسلافه . فتقدم نحو آمد فبايعه حاكمها محمد بن احمد بن عيسى بن شيخ وكان مستقلا بها ثم تقدم الى قنسرين وتملكها

فلما بلغ ذلك هارون اوجس خيفة ولم يعد يعلم ماذا يفعل وله من رعاياه اعداء الداء فكتب الى المعتضد انه مستعد لتسليمه البلاد التي هي قريبة من العصيان عليه وكتب ايضاً الى حكام قنسرين والعواصم جميعها ان يذعنوا لسلطة الخليفة المعتضد فقبل المعتضد تلك العطية بكل سرور فوضع يده على تلك الاماكن فبايعه اهلها

« ذكر وفاة المعتضد »

وفي سنة ٢٨٩ هـ كانت حروب بالشام بين طغج بن جف امير دمشق وبين القرامطة . وفي ربيع الاخر من هذه السنة توفى ابو العباس أحمد المعتضد ودفن ليلا وكان مولده في ذى الحجة سنة ٢٤٢ هـ وكانت خلافته ٩ سنين و ٩ اشهر و ١٣ يوماً وخلف من الذكور علياً وهو المكتفي وجعفراً وهو المقتدر وهارون وخلف احدى عشرة بنتاً ولما حضرت المعتضد الوفاة انشد ابياتاً منها

ولا تأمنن الدهر انى امتنته   فلم يبق لي خلاً ولم يرع لي حقا
قتلت صناديد الرجال ولم أدع   عدواً ولم امهل على طغيه خلقا
واخليت دار الملك من كل نازع   فشرّدتهم غرباً ومزقتهم شرقا
فلما بلغت النجم عزاً ورفعة   وصارت رقاب الخلق اجمع لي رقا
رماني الردى سهماً فاخمد جمرتي   فها انا ذا في حفرتي عاجلا القى

وكان المعتضد شهماً مهيباً عند اصحابه يتقون سطوته ويكفون عن المظالم خوفاً منه وكان فيه الشح وكان عفيفاً

وفي سنة ٢٩٢ ﻫ كان على دست الخلافة العباسية الخليفة المكتفي بالله بن المعتضد فاحب ان ينفذ ما كان نواه سلفه في سوريا ومصر فانفذ جيشاً الى الشام تحت قيادة محمد بن سليمان فتملكها حالا وكانت له مباه ثم هجم على مصر فاخترقها حتى بلغ عاصمتها (الفسطاط) فاستعد هارون للمدافعة ورجاله ينقصون يوماً فيوماً لما كان يسير منهم الى صفوف الاعداء بعد كل واقعة . ولم يكن ذلك منتهي الشقاء فان معسكر هارون نفسه كان مرسحاً تتلاعب فيه الدسائس وينمو فيه الخصام بين رجاله . واشتد القتال بينهم يوماً فركب هارون جواده واخذ في ردهم بعضهم عن بعض فاصيب بطعنة من احد المغاربة فسقط ميتاً في ١٨ صفر سنة ٢٩٢ ﻫ وكانت مدة حكم هارون ٩ سنوات كلها تعاسة وشقاء ويقال ان عمه شيبان هو الذي قتله

« شيبان بن احمد »

(وانقضاء الدولة الطولونية)

وفي يوم موته اقيم عمه شيبان مكانه الا انه لم يهنأ بالحكم لان الناس رفضوه بصوت واحد وخابروا محمد بن سليمان ان يعطيهم الامان فأمنهم ثم حرضوه على المسير الى مصر فسار حتى نزل العباسة فلقيه طغج في اناس من القواد كثيرين فساروا به الى الفسطاط واقبل اليهم عامة اصحاب شيبان

ولما راى شيبان اصرارهم على ذلك ولم يبق لديه احد ممن يعتمد عليهم وافقهم على التسليم فاستلم محمد بن سليمان زمام الامور فاعطاهم الامان فبايعوه . اما شيبان فلم يكن يأمن من سكناه في مدينة اقام فيها مغتصبها منه ففر من المعسكر ليلا فبعث محمد ابن سليمان من يقبض عليه فلم يظفر به وقال آخرون انه لم يفر ولكنه قتل جزاء قتله هارون بعد عشرة ايام من قتله . وهكذا انتهت الدولة الطولونية بعد ان حكمت ٣٧ سنة وبضعة اشهر

« الدولة العباسية للمرة الثانية »

من سنة ٢٩٢ — ٣٢٣ هـ

« خلافة المكتفي بن المعتضد »

فعادت مصر الى سلطة الدولة العباسية في خلافة المكتفى فاقام عليها عيسى النوشري . وبعد ٣ سنوات توفى المكتفي يوم الاثنين في ١٣ ذىالقعدة سنة ٢٩٥ هـ وعمره ٣١ سنة و ٣ اشهر بعد ان حكم ٦ سنوات و ٧ اشهر و٢٢ يوماً

« خلافة المقتدر بن المعتضد »

في يوم وفاة المكتفي بويع اخوه جعفر المقتدر بالله وعمره ١٣ سنة . فلم يحدث في الامارات تغييراً يذكر فاقر عيسى النوشري على مصر . على ان هذا اضطر بعد حين ان يتخلى عنها لمحمد بن الخليج ولم يلبث بضعة اشهر حتى اقتضت الاحوال اعادة النوشري فعاد فتولاها نحو ٣ سنوات وفي شعبان سنة ٢٩٧ هـ توفي فابدل بتكين الخزري ابي منصور وبقي الى سنة ٣٠٢ هـ فاقيل وأقيم مقامه زكا الرومي ابو حسن الاعور . فتولى مصر خمس سنوات ومات في ربيع الاول سنة ٣٠٧ هـ فاعيد تكين ثانية . وبعد ايام توفي تكين تاركاً ولداً يدعى محمداً . وهذا وضع يده على حكومة مصر بدون اذن الخليفة . اما الخليفة المقتدر فقتل في ٢٨ شوال سنة ٣٢٠ هـ وعمره ٣٨ سنة بعد ان حكم ٢٤ سنة و ١١ شهراً و١٦ يوماً

« خلافة القاهر بن المعتضد »

فبويع اخوه القاهر بالله الابن الثالث للمعتضد بالله . فاراد هذا ان يقاص محمد ابن تكين على جسارته فولى على مصر ابا بكر محمد بن طغج ومن هذا نشأت دولة حكمت مصر وسوريا مدة من الزمن عرفت بالدولة الاخشيدية

« خلافة الراضي بن المقتدر »

وفي ٥ جمادى الاولى سنة ٣٢٢ هـ عزل القاهر بالله عن دست الخلافة بعد ان حكم سنة و ٦ اشهر وستة ايام وفي اليوم الثاني بويع ابن اخيه الراضي بالله بن المقتدر

وحال توليته الخلافه عزل ابن كيغلغ عن مصروولى مكانه محمد بن طلغج فقدم لاستلام الامارة فامتنع ابن كيغلغ من تسليمه وتخاصما حتى عمدا الى السلاح وبعد محاربات شديدة كان الفوز لمحمد بن طغج وفر احمد بن كيغلغ بمن معه من ذويه الى برقة ومنها الى القيروان

وفي هذه السنة في منتصف ربيع الاول مات الراضي بالله وكانت خلافته ست سنين وعشرة ايام وعمره ٣٢ سنة وكان مرضه علة استسقاء وكان اديباً وشاعراً فمن شعره

كل صفو الى كدر كل أمن الى حذر
أيها الآمن الذي تاه في لجة الغرر
اين من كان قبلنا درس العين والاثر
دردر المشيب من واعظ ينذر البشر

« مبدأ الدولة الفاطمية »

وكانت القيروان وسواحل الغرب تحت سلطة دولة مستقلة عن العباسيين تدعى الدولة الفاطمية نسبة الى الفاطميين وهم من كتامة بالقرب من فاس في الطرف الغربي من افريقيا ويدعون انهم من سلالة اسماعيل الامام السادس من سبط علي وبعبارة اخرى من سلالة فاطمة ابنة النبي ومنها لقبهم . ويلقبون ايضاً بالاسماعيليين والعبيديين والعلويين وكانوا قد اخذوا في نشر سلطتهم منذ سنة ٢٦٩ هـ في شمالي افريقيا وغربيها في احزاب من الاغالبة والادريسيين كانوا قد خلعوا طاعة الخلفاء العباسيين في بغداد وخلفاء بني امية في الاندلس

وفي سنة ٢٨٠ هـ استولى زعيم الفاطميين ابو محمد عبيد الله على القيروان . وفي سنة ٢٩٦ هـ رأى من نفسه القوة فادعى الخلافة فبويع ولقب بالخليفة عبيد الله المهدي وانه آخر الأئمة العلويين الذي يدعى انه منهم وانه احق من سواه بالخلافة . فاصبحت الدولة الاسلامية بذلك منقسمة الى ثلاث دول على كل منهـا خليفة يدعي الاحقية بالخلافة وهم بنو أمية في الاندلس وبنو العباس في بغداد والفاطميين في القيروان . فلما سمع عبيد الله المهدي زعيم الفاطميين عن حالة مصر مع ما هي من الثروة والخصب تاقت نفسه اليها واخذ يسعى في الاستيلاء عليها

وبعد خلافته بخمس سنوات اي في سنة ٣٠١ هـ بعث الى مصر اربعين الف مقاتل

في ٣ فرق مع الرجاء الوطيد بفوزها . فعلم الخليفة المقتـدر بالله بما نواه المهدي فجهز جيشاً لدفع هذه الرزيئة عن مصر بين الفريقين وقائع عديدة شفت عن فوز الجيوش المصرية . فعاد الفاطميون على اعقابهم وطاردهم المصريون حتى اخرجوهم من حدود مصر . فرأى عبيد الله بعد هذا الفرار ان يؤجل افتتاح مصر لوقت آخر ولـكنه رأى ايضاً حصونه غير كافية فأسس مدينة دعاها المهدية نسبة اليه على ان تكون عاصمة وقتية ريثما يفتح مصر فيجعل عاصمتها عاصمته . لانه كان مصمماً على افتتاحها الا ان ذلك الافتتاح لم يتيسر لعبيد الله ولا لخلفه الاول ولا الثاني . وفي سنة ٣٢٢ هـ توفى عبيد الله المهدي وسنه ٦٣ سنة بعد ان تولى الخلافة الفاطميـة ٢٦ سنة فتولى ابنه ابو القاسم محمد الملقب بالقائم بامر الله وكان اكثر تشوقاً للافتتاح من ابيه

وفي ايام القائم هذا جاء احمد بن كيغلغ مطروداً من مصر يطاب ماجاء عنده وجعل بحثه على المسير الى مصر وافتتاحها فرأى القائم ان في افتتاحها عظمة وفخراً فجهز اليها فعلم محمد بن طغج ذلك فحصن الحدود الغربية لمصر وجعل فيها حامية قوية . لـكن ذلك لم يمنع من نزول القضاء لان الفاطميين فتحوا الاسكندرية وبعد ان مكنوا قدمهم فيها تقدموا بجيوشهم حتى دخلوا الفسطاط واحتلوا قسماً كبيراً من الصعيد . ثم رأى القائم بأمر الله ان جنده لا يقوون على افتتاح العاصمة فاجل ذلك ريثما تضعف شوكة الدولة العباسية اكثر من ضعفها اذ ذاك فيسهل عليه افتتاحها

اما الدولة العباسية فكانت في غاية الضعف لان اماراتها اخذت تستقل عنها شيئاً فشيئاً . فاستولى القرامطة على سوريا وقسم من جزيرة العرب والسامانيون على خراسان والامويون على الاندلس والفاطميون على افريقيا والحمدانيون على ما بين النهرين وديار بكر وبنو بويه على بلاد فارس ولم يبق للعباسيين الا بغداد وبعض ضواحيها ومصر

« الدولة الاخشيدية »

« محمد الاخشيد »

فلما راى ابو بكر محمد بن طغج امير مصر ماكان من انحلال الدولة العباسية وانقسام الدولة الاسلامية على ما تقدم طلب نصيبه من تلك القسمة فصرح باستقلاله في مصر سنة ٣٢٤ هـ فاضطر الخليفة الى تثبيته وملكه فوق ذلك سوريا مع انهـا لم تـكن بيده . وفي ٣٢٧ هـ لقبه بالاخشيد وكان ذلك لقب ملوك فرغانة وهو من اولادهم

ومفاد هذه اللفظة في لغتهم ملك الملوك وكان كل من ملك فرغانة لقبوه بالاخشيد كما يلقب الفرس ملكهم كسرى والروم قيصر والترك خاقان واليمن تبع والحبشة النجاشي الخ . ومن سلالة ابي بكر هذا جاءت الدولة الاخشيدية . وفي تلك السنة امر الاخشيد بنقل دار الصناعة من الجيزة الى ساحل النيل فنقلت

وفي سنة ٣٣٤ ﻫ توفى محمد الاخشيدي في دمشق في ذي الحجة وعمره ٦٠ سنة ومدة حكمه ١١ سنة و٣ اشهر ويومان ودفن في القدس الشريف

« أنوجور بن الاخشيد »

وتولى بعد محمد الاخشيد ابنه ابو القسم محمد الملقب بانوجور . وكان صغير السن ضعيف الرأي فعهد بتدبير الاحكام الى كافور وزير ابيه . وكان كافور يعمل لابي القسم بامانة ونشاط يستوجب عليهما المدح . فعزل ابا بكر محمداً جابي الخراج لتعدد التشكيات وثبوتها عليه واقام مقامه رجلاً من ماردين يقال له محمد كان عفيفاً مستقيماً . فعلم سيف الدولة بوفاة محمد الاخشيدي وسفر ابنه الى مصر فشخص هو الى دمشق واستولى عليها . واسرع كافور بجيش عظيم فلاقى سيف الدولة في الرملة قادماً من دمشق والتحم الفريقان فانهزم سيف الدولة الى الرقة واستولى كافور على دمشق قبل ان يستقر سيف الدولة فيها

وفي سنة ٣٤٥ ﻫ اغار ملك النوبة على مصر حتى اتى اصوان فارسل كافور جيشاً تحت قيادة محمد بن عبد الله الخازن عن طريق البر وانفذ عمارة بحرية في النيل وفرقة سارت في البحر الاحمر فنزلت على سواحله ومنها الى ما وراء النوبة لتسد على النوبيين السبيل . فتضايق النوبيون وفروا يطلبون النجاة تاركين حصنهم في ابريم « على ١٥٠ ميلاً وراء اصوان » في ايدي المصريين

وفي ذي القعدة سنة ٣٤٩ ﻫ توفى انوجور بن محمد الاخشيد بعد ان حكم ١٤ سنة وعشرة ايام وولى مكانه اخوه علي الملقب بابى الحسن

« أبو الحسن علي بن الاخشيد »

وحكم ابو الحسن على مصر خمس سنين وشهرين ويومين وكان كافور مع علي كما كان مع اخيه انوجور . وفي سنة ٣٥١ ﻫ لم يرتفع ماء النيل الارتفاع اللازم للري . وكان في السنة التالية اقل ارتفاعاً ثم هبط بغتة والارض لم ترتو فحصل في مصر جوع

شديد تعاقب القحط بعده ٩ سنوات رافقه اضطراب آل الى الانشقاق بين ابي الحسن وكافور

وفي أثناء هذه الاضطرابات الداخلية في سنة ٣٥٤ هـ قدم روم القسطنطينية تحت قيادة الامبراطور « نيسوفورس فوكاس » الى سوريا ودخلوها بجيش جرار فاستولوا على حلب وكانت لا تزال الى ذلك الحين في حوزة بني حمدان والتقوا بسيف الدولة فحاربوه فتجند صاحب دمشق تحت رعاية الاخشيديين واسرع لمساعدة بني حمدان بعشرة الاف رجل وعلم نيسوفورس بمجيء هذا المدد فاختار الرجوع

« كافور الاخشيدي »

وفي محرم سنة ٣٥٥ هـ توفى ابو الحسن علي فخلفه كافور وتلقب بالاخشيدي وطلب من الخليفة المطيع الله ان يثبته في مصر. ففعل وهكذا عادت سلطة العباسيين الى مصر. وكان يدعى لكافور على المنابر بمكة والحجاز جميعه والديار المصرية وبلاد الشام من دمشق وحلب وانطاكية وطرسوس وغيرها

وبقي كافور في منصبه هذا سنتين و٤ اشهر . وكان الفاطميون قد استولوا على الفيوم والاسكندرية كما تقدم فأخذوا في مد سلطتهم رويداً رويداً الى سائر الصعيد . وتوفى كافور في ١٠ جمادى الاولى سنة ٣٥٧ ودفن في القرافة الصغرى . وقبته معروفة هناك

« احمد أبو الفوارس بن علي »

فخلف كافوراً احمد ابو الفوارس بن ابى الحسن علي بن محمد الاخشيدي ولم يكن لابي الفوارس من العمر اكثر من احدى عشرة سنة فلم يثبته الخليفة في الحكم . اما سوريا وغيرها من البلاد الخاضعة للاخشيديين فبايعت حسيناً الاخشيدي الا انه ما لبث ان استتب له المقام حتى جاءه القرامطة واخذوا البلاد من يده ففرّ الى مصر قاصداً اغتيالها من احمد ابى الفوارس

ولما انقسمت العائلة الاخشيدية على نفسها قرب حين انقراضها شأن الممالك والدول فلما رأى رجال الدولة ما حصل من الانقسام بين اعضاء الاسرة الحاكمة ملوا الانتظار فساروا يستنجدون الفاطميين وكانوا قد تملكوا قسما عظيماً من مصر فلبوا الدعوة ففرّ حسين الى سوريا واستولى على دمشق . واما احمد ابو الفوارس فعزل من مركزه

وهو آخر من تولى مصر من الدولة الاخشيدية وبعزله انتهت ايام هذه الدولة ولم يدم حكمها اكثر من ٣٤ سنة و٢٤ يوماً

« الدولة الفاطمية »

(خلافة المعز لدين الله)

وكانت الدولة الفاطمية اذ ذاك في خلافة معد ابي تميم الملقب بالمعز لدين الله بن القائم بامر الله وقاعدتها المهدية وسلطتها منتشرة على افريقية (يراد بها شمال افريقية من برقة الى مراكش) ومالطة وسردينيا وصقلية واكثر جزائر البحر المتوسط . وما فتىء هذا الخليفة منذ جلوسه على دست الخلافة يمد سطوته في القطر المصري وقد حاول افتتاحه غير مرة ولم يفز . حتى اذا كان الخلاف بين ابي الحسن علي وكافور تقدم . فلما تولى كافور على هذه الديار بنفسه توقف المعز قليلاً . وعند نهاية حكم كافور جرد جيشاً ارسله تحت قيادة جوهر

وجوهر هذا مملوك رومي رباه المعز لدين الله وكناه بابي الحسن وعظم محله عنده وفي سنة ٣٤٧ هـ صار في رتبة الوزارة فصيره قائداً للجيوش وبعثه في صفر منها في جيش الى تاهرت فاوقع في عدة اقوام وافتتح مدناً وسار الى فاس فنازلها مدة ولم يأخذ منها شيئاً فرحل الى سجلماسة ومنها الى ان بلغ البحر المحيط (الاتلانتيك) واصطاد منه سمكاً وجعله في قلة ماء وبعث به الى مولاه المعز واعلمه انه قد استولى على كل ما مر به من البلدان والامم حتى انتهى الى البحر المحيط . ثم عاد الى فاس والح عليها بالقتال حتى افتتحها عنوة ثم عاد في اخريات هذه السنة وقد عظم شأنه وبعد صيته

ولما قوي المعز عزم على تسيير الجيوش لاخذ مصر وقد تهيأ أمرها . فقدم القائد جوهر فبرز الى رمادة ومعه ماينيف على مائة الف فارس وبين يديه اكثر من الف صندوق من المال وكان المعز يخرج اليه كل يوم ويخلو به ويتداول معه سراً واطلق يده في بيوت امواله فاخذ منها ما يريد زيادة على ما حمله معه . ويحكى ان المعز خرج يوماً فقام جوهر بين يديه وقد اجتمع الجيش فالتفت المعز الى المشايخ الذين وجههم مع جوهر وقال « والله لو خرج جوهر هذا وحده لفتح مصر ولتدخلن مصر بالاردية من غير حرب ولتنزلن في خرابات ابن طولون وتبني مدينة تسمى القاهرة تقهر الدنيا » وامر المعز بافراغ الذهب في هيئة الارحية وحملها مع جوهر على الجمال ظاهرة للعيان

وامر اولاده واخوته الامراء وولي العهد وسائر اهل الدولة ان يمشوا في خدمة جوهر وهو راكب وكتب الى سائر عماله يأمرهم اذا قدم عليهم جوهر ان يترجلوا مشاة في خدمته . فلما قدم برقة اقتدى صاحبها ترجله ومشيه في ركابه بخمسين الف دينار ذهباً فابى جوهر الا ان يمشي في ركابه ورد المال فمشى

ولما رحل من القيروان الى مصر في ١٤ ربيع اول سنة ٣٥٨ هـ ودعه اهلها ومما قاله محمد بن هانيء بهذا الشأن قوله

رأيت بعيني فوق ما كنت اسمع — وقد راعني يوم من الحشر اروع
غداة كأن الافق سدَّ بمثله — فعاد غروب الشمس من حيث تطلع
فلم أدر اذ ودعت كيف اودع — ولم أدر اذ شيعت كيف اشيع

فما زال جوهر في طريقه الى مصر برًّا حتى دخلها وسار نحو الصعيد واسرع جنوباً ليرد هجمات ملك النوبة الذي كان نازلاً نحو مصر ولم يدركه جيش جوهر حتى بلغ اصوان وقد نهبها وذبح اهلها واستعبد من بقي حياً وعاد الى بلاده . أما جوهر فكان قد تملك الصعيد كله

ولما توفي كافور ووقع الخلاف بين أبي الفوارس وحسين كان جوهر على حدود الفسطاط فاتاه الاهلون والامراء ومعهم الوزير جعفر وجماعة من الاعيان الى الجيزة في يوم الثلثاء ١٢ شعبان سنة ٣٥٨ هـ والتقوا بالقائد ونادى منادٍ فنزل الناس كلهم الا الشريف والوزير فترجلوا وسلموا عليه واحداً فواحداً والوزير عن شماله والشريف عن يمينه . ولما فرغوا من السلام ابتدأوا في دخول البلد من زوال الشمس وعليهم السلاح والعدد . ودخل جوهر بعد العصر وطبوله وبنوده بين يديه وعليه ثوب ديباج مثقل وتحته فرس اصفر ونزل في ماهو موضع القاهرة اليوم . ثم نزل الى الفسطاط بمن معه وخطب في جامع عمرو باسم المعز لدين الله وازال الشعار الاسود العباسي وألبس الخطباء الثياب البيض فبايعه الناس . وبعد يسير اصبحت جميع البلاد المصرية خاضعة للدولة الفاطمية بدون مقاومة فكتب لمولاه المعز بما أتاه الله من الفتح

وفي يوم الجمعة الثامن من ذي القعدة أمر جوهر ان يزاد عقيب الخطبة « اللهم صلّ على محمد المصطفى وعلى علي المرتضى وعلى فاطمة البتول وعلى الحسن والحسين سبطي الرسول الذين اذهب اللهّ عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً . اللهمّ وصلّ على الأئمة الطاهرين اباء المؤمنين » وفي ايامه صار يذكر بالآذان حي على خير العمل

فلم يأل القائد جوهر جهداً في تثبيت قدم هذه الدولة في الديار المصرية وقد اخذ

على عاتقه صلاتها وخراجها وكان قدهجرها النظام ودخل بهما الفساد وساد فيهما الخصام الناتج عن زيادة الضرائب وسوء الاحكام . فأخذ في تخفيض الضرائب وحفر الترع فارتوت الارض فزادت غلتها فشبع الزارع وربح التاجر فاستتب النظام وساد الامن وبلغ خراج مصر في السنة التي دخلها فيها جوهر ٣٤٠٠٠٠٠

فلما رأى جوهر مناعة الديار المصرية ووفرة عزها لم يقنع لها بالفسطاط عاصمة فشرع ببناء مدينة جديدة جعلها قاعدة القطر المصري دعاها بالقاهرة . وكان تشييد المدن سنة عمومية في ملوك الاسلام اذ ذاك فكانوا يبتنون المدن وينقلون اليها عظمتهم والغالب ان يكون سبب بنائها ان يجعلوها حصناً لهم تقيم فيه رجالهم وجندهم ثم يبني حولها الناس . فقد كانت قاعدة المملكة المصرية في عهد الفراعنة منف ثم ابدلت بطيبة ثم بغيرها فغيرها الى عهد اليونان فاستبدلت بالاسكندرية . ولما جاء المسلمون ابتنوا الفسطاط . حتى اذا كانت الدولة الطولونية استبدلت الفسطاط على نوع ما بالعسكر والقطائع الى ان جاء جوهر القائد فرغب في تخليد ذكره وذكر مولاه فعمد الى بناء عاصمة الفاطميين ليفاخر بها بغداد عاصمة العباسيين

« بناء القاهرة المعزية »

ففي سنة ٣٥٩ هـ شرع جوهر ببناء القاهرة فاختط بقعة من الارض حيث اناخ جماله يوم جاء لفتح الفسطاط فانه نزل الى شماليها بين الجبل والخليج وكانت هذه البقعة رمالاً ولما نزل فيها جوهر لم يكن فيها الا بساتين قليلة منها بستان كافور الاخشيدي شرقي الخليج وميدان الاخشيد ودير للنصارى كان يدعى دير العظام فيه بئر تعرف ببئر الجامع الاقمر وتسميها العامة بئر العظمة . وكان في تلك البقعة موضع يعرف بقصير الشوك ثم عرف بعد بناء القاهرة بقصر الشوك . فأمر جوهر ببناء القاهرة في ذلك المكان وابتنى فيها قصرين احدهما اكبر من الآخر عرفا بالقصر الكبير والقصر الصغير جعلهما لاقامة المعز عند قدومه الى مصر . مكانهما الآن محل المحكمة الشرعية المعروف ببيت القاضي يتصل اليه من شارع النحاسين

ففي نحو ثلاث سنوات تم بناء القاهرة (في اواخر سنة ٣٦١ هـ) وقد بني حولها السور وفيه الابواب ولم يزل بعض آثارها باقياً الى هذا العهد . فبعث جوهر الى مولاه المعز بذلك فترك المنصورية التي بناها ابوه وسار قادماً الى عاصمته الجديدة مستخلفاً على افريقية وزيره يوسف بن زيرى فركب في عمارة بحرية الى جزيرة سردينيا ومنها الى صقلية قضى فيها بضعة اشهر يتفقد احوالها ثم سار منها الى طرابلس الغرب فالاسكندرية

فالقاهرة فوصلها في شعبان سنة ٣٦٢ هـ وكان دخوله اليها باحتفال عظيم من باب زويلة يصحبه يعقوب بن يوسف بن كلس . وكان لزويلة بابان متلاصقان بجوار زاوية سام بن نوح المجاورة لسبيل العقادين بجوار الخرنفش . فدخل المعز من الباب الملاصق ولم يبقَ له اثر الآن فتيامن الناس به وهجروا الباب الآخر حتى جرى على الالسنة ان من مرّ به لا تقضى حاجته

« تاريخ القاهرة المعزية »

كانت عاصمة الديار المصرية يومئذ مدينة الفسطاط « بين القاهرة ومصر القديمة الآن » فلما جاء جوهر بجنده سنة ٣٥٧ هـ نزل شماليها في البقعة التي تقدم ذكرها وفيها اليوم الجامع الازهر وبيت القاضي وشارع النحاسين وخان الخليل وما جاورها من المنازل والاسواق بين المقطم والخليج الذي ردموه اليوم واجروا فوقه قطر الترامواي بين جنوبي القاهرة وشماليها

وكانت تلك البقعة لما عسكر فيها جوهر رمالاً يمر بها المسافر من الفسطاط الى المطرية. فلما فتح جوهر الفسطاط بنى القاهرة في تلك البقعة وسماها القاهرة المعزية نسبة الى مولاه . وكانت مربعة الشكل تقريباً يحدها من الشرق الجبل ومن الغرب الخليج وطول هذا الحد ١٢٠٠ متر يسير فيه السور بموازاة الخليج وعلى بعد ٣٠ متراً منه نحو الشرق . ومن الشمال خط يمتد من الخليج قرب باب الشعرية الآن على موازاة سكة مرجوش الى الجبل وطوله ١١٠٠ متر . ومن الجنوب خط نحو هذا الطول يبدأ بباب الخلق عند التقاء الخليج بشارع محمد علي الآن قرب محافظة مصر ويسير شرقاً الى الجبل . ومساحة هذه المدينة بين هذه الحدود ٣٤٠ فداناً او ١٤٢٨٠٠٠ متر مربع بنى فيها قصراً سماه القصر الكبير الشرقي شغل خمس هذه المساحة وشغل ما بقي بالجامع الازهر والقصر الغربي ومساكن الجند والاسطبلات ونحوها . اما الارض خارج المدينة حيث الآن الفجالة والظاهر والمهمشة والعباسية والازبكية والتوفيقية والاسماعيلية وبولاق فكان أكثرها بساتين ومزارع وبركاً

ولم تتسع القاهرة في اثناء مدة الفاطميين **الا قليلاً** فصارت مساحتها على عهد امير الجيوش في اواخر القرن الخامس للهجرة ١٦٨٠٠٠٠ متر حتى اذا دالت هذه الدولة ودخلت مصر في حوزة الايوبيين وتملكها السلطان صلاح الدين سنة ٥٦٧ هـ اباح للناس سكنى القاهرة وبنى القلعة في سفح المقطم له ولجنده يعتصم بها من اعدائه لانه كان يخاف الشيعة الفاطمية على ملكه . فاقدم الناس على بناء المنازل جنوباً خارج القاهرة بينها وبين

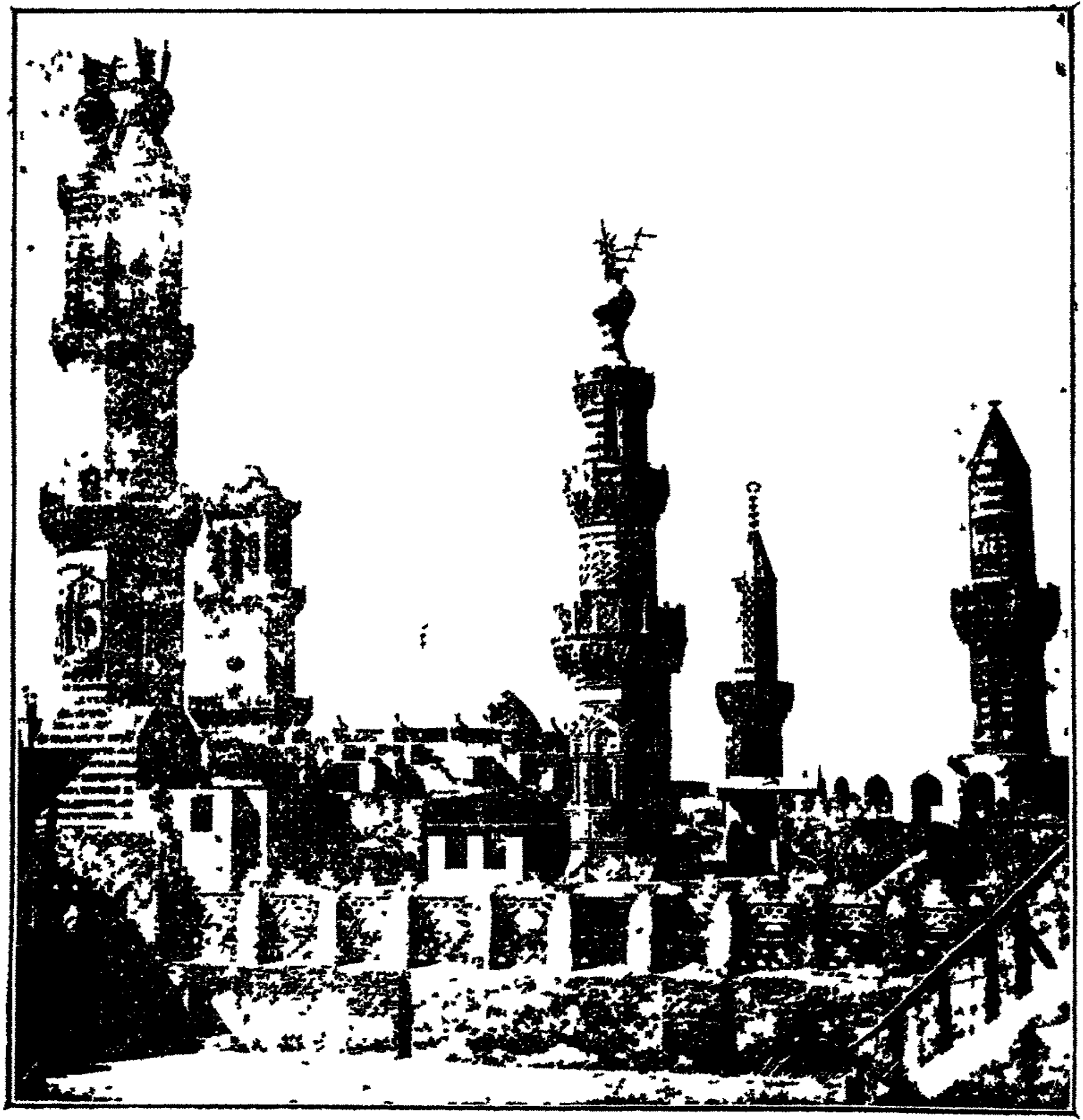
الفسطاط وغرباً بينها وبين النيل وامر ببناء سور كبير يحيط بها وبالقلعة وبالفسطاط جميعاً اكمله من جاء بعده فبلغ طوله ٢٤٠٠٠ متر في شكل كثير الاضلاع وبلغت مساحة القاهرة ضمنه ١٩٤٨ فداناً او ٨١٦١٦٠٠ متر مربع

وتولى بعد الايوبيين السلاطين المماليــك وتغير شكل القاهرة في ايامهم ثم نقصت مساحتها واستنزف عمرانها في ايام امراء المماليك ولكنها عادت في زمن الاسرة المحمدية العلوية الى النهوض فبلغت مساحتهــا في اواخر ايام محمد علي باشا ٩٠٠٠٠٠٠ متر مربع وحدودها من الشرق الجبل المقطم ومن الغرب شارع باب الحديد وشارع عابدين بخط منحرف نحو باب اللوق ثم يعود الخط شرقاً الى قرب عابدين ويسير جنوباً حتى يقطع الخليج قرب باب غيط العدة ومن هناك الى باب السيدة زينب . وكان يحدها من الشمال شارع الفجالة ومن بعده شرقاً الى باب الشعرية فباب النصر وباب الفتوح الى الجبل . ويحدها من الجنوب خط ممتد من باب السيدة زينب فباب طولون الى باب القرافة واتسعت مساحتهــا في عهد الخديويين بعد محمد علي حتى صارت سنة ١٨٨٠ م قبيل الحوادث العرابية ١٢١٨٠٠٠٠ متر . واسرعت في الاتساع بعد الاحتلال الانكليزي حتى صارت مساحتها الآن اكبر من ستة اضعافها قبله واكبر من خمسين ضعفها لما بناها القائد جوهر بما دخل فى حدودها من الضواحي العامرة عاماً بعد عام

وفي يوم الثلاثاء من رمضان سنة ٣٦٢ ﻫ دخل المعز لدين الله قصره بالقاهرة وعند دخوله خرّ ساجداً ثم صلى ركعتين وصلى بصلاته كل من دخل معه واستقر في قصره باولاده وحشمه وخواص عبيده والقصر يومئذ بهجة وكله تحف ومثمنات وبعــد ذلك باسبوع أذن بدخول من يريد مقابلته للتهنئة وجلس في الايوان فدخل اولا الاشراف ثم اذن بعدهم للاولياء وسائر وجوه الناس وكان القائد جوهر قائماً بين يديه يقدم الناس قوماً بعد قوم . وبعد وصوله بيسير امر ببناء تربة في القصر الكبير دفن فيهــا اجداده الذين استحضرهم معه بتوابيت من بلاد المغرب . وصارت بعد ذلك مدفناً يدفن فيه الخلفاء واولادهم ونساؤهم وكانت تعرف بتربة الزعفران وكان موقعها حيث خان الخليلي الآن فلما انشأ الامير جهاركس الخليلي خانه اخرج ما شاء من عظامهم فألقيت على المزابل

وفي سنة وصوله عهد ليعقوب بن يوسف بن كلس بخراج مصر وجميع وجوه الاموال والحسبة والاعشار وجميع ما يضاف الى ذلك في سائر الاعمال . ويعقوب هذا كان يهودياً جاء مصر وتقلد بعض مصالحها في ايام كافور الاخشيدي واسلم طمعاً بالدنيا فأحبه كافور ورقاه . واشرك مع يعقوب في امر الخراج عسلوج بن الحسن وكتب المعز لهما سجلاً

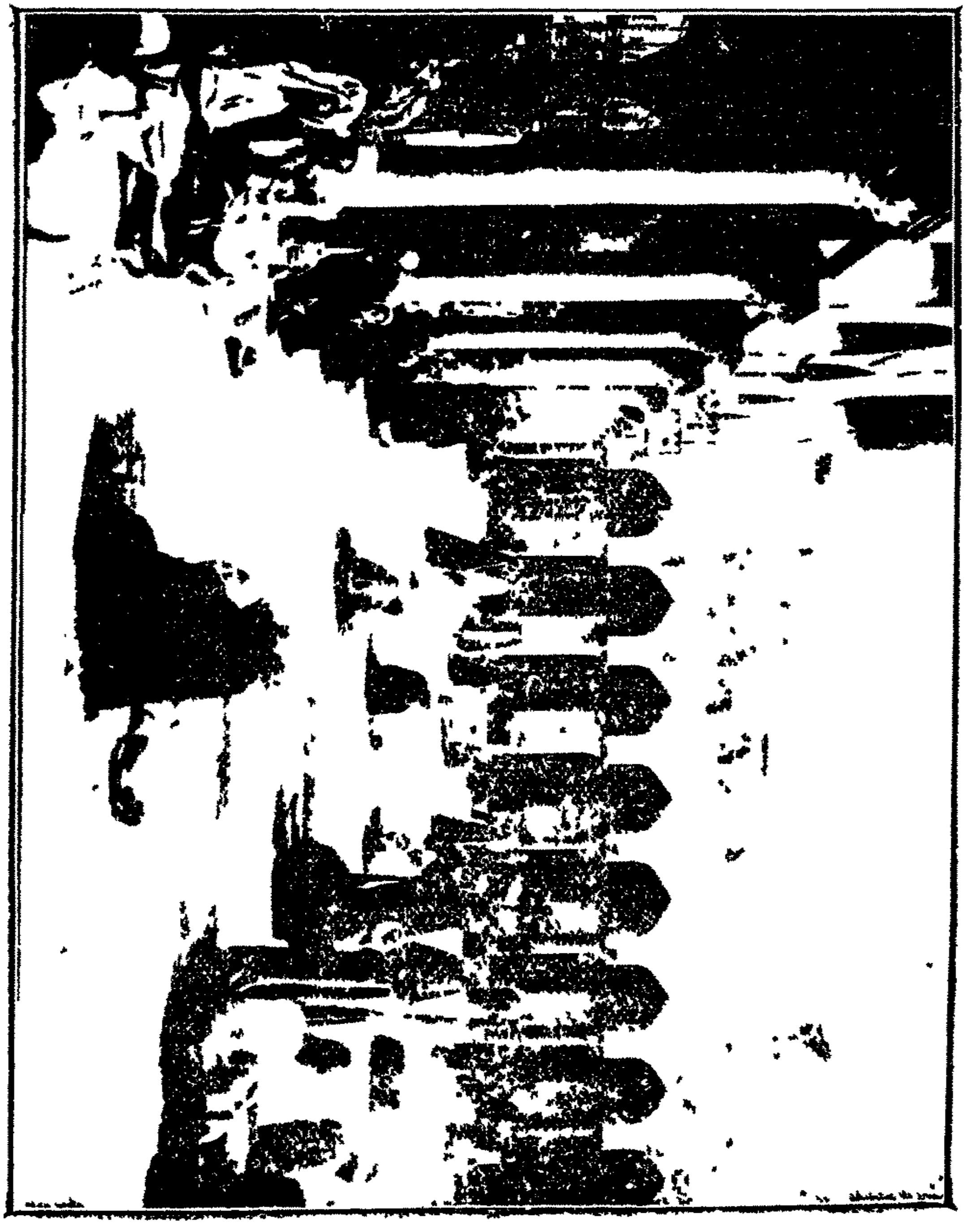
بذلك فجلسا في دار الامارة في جامع ابن طولون للنداء على الضياع وسائر وجوه الاموال وحضر الناس للقبالات « الالتزام » وطالبا بالبقايا من الاموال على المتقبلين والمالكين والعمال واستقصيا بالطلب و نظرا في المظالم فتوفرت الاموال وزيد في الضياع وتزايد الناس وتكاثفوا وحسنت الاحوال وكثر ضرب النقود الى حد يفوق التصديق



جامع الازهر

ثم ابتنى جوهر جامعاً دعاه الجامع الازهر وهو اقدم جوامع القاهرة الا جامع ابن

طولون واكثرها اتساعاً ولذلك لقب بالجامع الكبير واقام جوهر في الجامع المذكور بامر الملك العزيز الآتي ذكره مكتبة نفيسة ومدرسة ذاع صيتها في الآفاق وكان القصد الرئيسي من بناء هذا الجامع اقامة الشعائر الدينية وتأييد مذهب الشيعة العلوية لاختلاط السياسة بالدين في الدولة الاسلامية من ذلك العهد . وكانت هذه الشيعة قد قاست الامرّين تحت سلطة العباسيين من قتل ونفي . فلما تأتى لها تغلبها على مصر جعلتها عاصمة دولتها وانشأت القاهرة معقلاً لجندها والجامع الازهر لتأييد مذهبها لان العامة لا تحكم بمثل الدين . وكان



جامع الازهر من داخله

المصريون يومئذ على مذهب الامام الشافعي لان هذا الامام قضى اخريات ايامه بمصر ومات فيها وقبره معروف في ضواحي القاهرة . وكان الفاطميون يعترفون بهذا المذهب ايضاً واما العباسيون فكانوا على مذهب ابي حنيفة . فتوافق الفاطميون والمصريون في المذهب فهان على الفاتحين تأييد سلطانهم وتوسيع دائرة نفوذهم فقربوا الفقهاء والعلماء واستقدموهم من سائر اقطار العالم الاسلامي واجروا عليهم الارزاق وفرقوا فيهم الاموال وكانت مجالسهم تعقد في الازهر على عادة الفقهاء في ذلك العهد فتزاحمت فيه الاقدام وكانوا كلما ضاق بهم وسعوه بابنية ينشئونها بجانبه ويوسعون دوره حتى اصبحت سعته الآن نحو ١٢٠٠٠ متر مربع . وكانت اقل من نصف ذلك . وتضاعفت اساطينه مراراً وكان عددها يوم بني ٧٦ اسطوانة متفرقة في احزائه وصارت ابوابه تسعة

وكانت اعطية الخليفة للفقهاء في اول الامر على غير قياس او ميقات . فلما افضت الخلافة الى العزيز بالله ثاني الخلفاء الفاطميين سنة ٣٦٥ هـ امر وزيره يعقوب بن كلس ان يرتب للفقهاء ارزاقاً معينة وان يبني لهم منازل يقيمون فيها بجانب الجامع . وكانوا يأتون المسجد في بادىء الرأي لصلاة الجمعة وقراءة الفقه على مذهب الشيعة والوعظ والمباحثة فتدرجوا من القراءة الى التعليم حتى اصبح الجامع مدرسة كبرى اكثر دخلها مما وقفه لها الخلفاء والامراء ويقدر دخله السنوي اليوم بعشرين الف جنيه

« علوم الازهر »

ظل الازهر مدرسة شيعية طول خلافة الفاطميين « نحو مئتي سنة » حتى غلبهم صلاح الدين الايوبي على مصر سنة ٥٦٧ هـ وكان سني المذهب وليس له بدّ من مبايعة خليفة يثبته في منصبه فبايع الخليفة العباسي في بغداد وخطب له في الجامع الازهر . وكان صلاح الدين على مذهب الامام الشافعي فلم يضطر لتبديل كثير من طرق التعليم وقبل الناس سلطته على اهون سبيل . على انه لم ير مندوحة عن مراعاة مذهب الخلفاء العباسيين وهو مذهب ابي حنيفة ورأى بحكمته وسداد رأيه ان يكتسب ولاء سائر المسلمين فاجاز تعليم المذاهب الاربعة كل مذهب يحضره اهله . فآل ذلك الى اتساع شهرة هذه المدرسة وتقاطر اليها الطلاب من اقطار المسكونة . ولم يبق التعليم قاصراً فيها العلوم على الفقه وعلوم الدين واللغة ولكنه تناول شيئاً من الرياضيات والنجوم وبعض الطبيعية

وما زال ذلك شأنها في ايام السلاطين الايوبيين ومماليكهم حتى جاء السلطان سليم العثماني وفتح مصر والسودان في اوائل القرن العاشر للهجرة . ثم استبد الامراء المماليك في الحكومة واشتغل الناس عن العلم . وكان العنصر العربي قد ضعف شأنه في سائر

المملكة الاسلامية "الا في مصر لان مدرسة الازهر كانت اكبر وسيلة لاستبقاء اللغة العربية لتعليم العلوم الدينية واللسانية لكنها اقتصرت يومئذ على هذه العلوم واهملت سواها من الطبيعيات والرياضيات

« طرق التدريس فيه والمطالعة »

كان في السابق لكل اهل المذاهب الاربعة عمد معينة من عمده لا يجلس للتدريس فيها غيرهم ولو وقع الشقاق والقتال بينهم ولكل شيخ من اهل المذهب عموداً لا يتعداه ولا يتعدى احد عليه لكن لا يشدد على ذلك كتشديد تعدي اهل مذهب والمتكلم على ذلك مشايخ المذاهب كشيخ المالكية وشيخ الحنفية واذا تفاقم الامر يرفع الى شيخ الجامع ويجلس الشيخ امام العمود مستقبلا والطلبة حلقة حوله فاذا كثروا جلس على كرسي من خشب او جريد وهم امامه وكانت العادة سابقاً ان لا يجلس على الكرسي الا شيخ الجامع ولا يمكن ذلك من غيره ثم بطل هذا فجلس كثيراً من العلماء على الكراسي ولكل طالب مكان لا يتعداه ويقيم من يجلس فيه فاذا جلسوا ابتدأ الشيخ بالبسملة والحمد والصلاة على النبي ثم يقرر لهم الدرس بالدقة وهم يقابلون عليه في الورق ويسألونه ما بدا لهم وبعد ختم الدرس يقومون لتقبيل يده ولو كباراً وليس على الشيخ ان يلاحظ حال الطالب من اجتهاد أو تكاسل أو حضور أو غيبة بل هو موكول لنفسه الا ان يكون ولياً عليه كما انه ليس لهم امتحان شهري ولا سنوي ومن له اجتهاد من نفسه أو وليه يلتفت الى حفظ المتون قبل زمن الحضور او معه فيحفظ جميع المتون أو بعضها فينجح مسعاه لان من حفظ المتون حاز الفنون وقبل حضورهم حلقة الدرس لا بد ان يطالعوه بالدقة متناً وشرحاً وتقريراً مرة فاكثر . جماعات او فرادى . وقد يطالع الشيخ عليه مواد أخر حتى يكون مستحضراً لاطراف المسئلة وما يرد عليها وما يجاب به وكذا كبار الطلبة وكان العادة فيه غالباً ان افضل الطلبة يطالع لباقيهم درس شيخه مطالعة بحث وتفتيش حتى يأتوا الى الشيخ وهم متهيئون لما يلقيه

« شروع الاصلاح العام لهذا المعهد القديم الجليل »

وفي سنة ١٣١٨ هـ صدر الامر العالي لاعادة تنظيم جامعة الازهر والمعاهد الدينية الاخرى في الاسكندرية وطنطا ودسوق ودمياط وفي هذه المعاهد كلها ١٤٠٠٠ طالب و ٥٢٤ استاذاً

والادارة العامة في يد شيخ الجامع ويعاونه مجلس من الاساتذة يعين بعضهم

جمهور الاساتذة والبعض الاخر مجلس النظار . وهناك مجلس اعلى يرأسه شيخ الجامع اعضاؤه ثمانية اربعة منهم من موظفي الحكومة ومدير ديوان الاوقاف واحد منهم

وقد زيد بروجرام التعليم فاضيف اليه علوم لم تعلم في الازهر كالرسم والهندسة وحفظ الصحة والتاريخ الطبيعي وعلم التعليم

ومما جدّ في الازهر تأليف هيئة كبار العلماء من ثلاثين عضواً ينتخبون من الاساتذة الذين حازوا درجة معلومة وهي تسن القوانين لنفسها ويخطب اعضاؤها للجمهور ولطلبة الازهر ثلاث مرات في الاسبوع في ثلاث مواضع خصوصية

وقد زاد في بناء الجامع الازهر وغير فيه كثير من الملوك والامراء الذين تولوا مصر بعد المعز. وعلى الخصوص الملك الظاهر بيبرس وقايت باي والغوري من سلاطين المماليك. والسيد محمد باشا من ولاة الدولة العثمانية واسماعيل بك وعبد الرحمن كخيا من امراء المماليك . وعبد الرحمن المذكور انشأ في مقصورة الجامع الازهر مقدار النصف طولاً وعرضاً يشتمل على خمسين عموداً من الرخام تحمل مثالها من البوائك المقوصرة المرتفعة من الحجر المنحوت وسقف اعلاها بالخشب النقي فبنى به محراباً جديداً ومنبراً وانشأ له باباً عظيما جهة حارة كتامة وبنى باعلاه مكتباً بقناطر معقودة على اعمدة من الرخام لتعليم الايتام من اطفال المسلمين القرآن وجعل بداخله رحبة متسعة وصهريجاً عظيما وسقاية لشرب ابناء السبيل وعمل لنفسه مدفناً بتلك الرحبة وجعل عليه قبة معقودة وتركية من رخام بديعة الصنعة وجعل بها ايضاً رواقاً مخصوصاً بمجاوري الصعايدة المنقطعين لطلب العلم يسلك اليه من تلك الرحبة بدرج يصعد منه الى الرواق وبه مرافق ومنافع ومطبخ ومخادع وخزائن كتب وبنى بجانب ذلك الباب منارة وانشأ باب آخر جهة مطبخ الجامع وجعل عليه منارة ايضاً وبنى مدرسة الطيبرسية وانشأها انشاء جديداً وجعلها مع مدرسة الاقبضاوية المقابلة لها من داخل الباب الكبير الذي انشأه خارجهما جهة القبور الموصل للمشهد الحسيني وخان الجراكسة وهذا الباب عبارة عن بابين عظيمين كل باب بمصراعين وجعل على يمينهما منارة وجعل فوقه مكتباً ايضاً وبداخله على يمين السالك بظاهر الطيبرسية ميضأة وانشأ لها قبة لاجراء المياه اليها وبداخل باب الميضأة درجا يصعد منه للمنارة ورواق البغداديين والهنود فجاء هذا الباب وما بداخله من الطيبرسية والاقبضادية والاروقة من احسن المباني في العظم والوجاهة والفخامة وارخ بعضهم ذلك بهذه الابيات الركيكة

تبارك الله باب الازهر انفتحا   وعاد احسن مما كان وانصلحا

تقر عيناً اذا شاهدت بهجته   باخلاص بانيه للعلماء والصلحا
وادخل على ادب تلق الهداة به   قد قرروا حكماً ميزانها رجحا
بالباب قد بدأ الاكوان أرخه   بعبد الرحمن باب الازهر انفتحا

واخيراً سعيد باشا بن محمد على باشا سنة ١٢٧٢ هـ . ولذلك يكاد لا يوجد فيه شيء من الجدران والاعمدة التي وضعها جوهر القائد .

فلما رسخت قدم الفاطميين بمصر اصبحت المملكة الاسلامية في الشرق يتنازعها خليفتان المعز لدين الله الفاطمي في مصر والمطيع لله العباسي في بغداد وكل منهما يجتهد في اثبات الخلافة العامة له وحرمان الاخر منها . ودعوى المعز بالاسبقية مبنية على انتسابه لفاطمة بنت النبي . وقد اختلف النسابون في حقيقة دعواه على انه قلما كان يعتمد على شرف الحسب والنسب . ومما يحكى عنه لما كان قادماً الى القاهرة وخرج الناس للقائه اجتمع به اناس من الاشراف وفيهم عبد الله بن طباطبا المشهور فتقدم الى الخليفة المعز وقال له « الى من ينتسب مولانا » فقال له « سنعقد مجلساً نجمعكم فيه ونسرد عليكم نسبنا » .

ولما استقر المعز في القصر جمع الناس في مجلس عام وجلس بهم وقال « هل بقي من رؤسائكم احد » قالوا « لم يبق معتبر » فسل نصف سيفه وقال « هذا نسبي » ونثر عليهم ذهباً كثيراً وقال « هذا حسبي » فقالوا جميعاً سمعنا وأطعنا

ولم يسكن المعز لدين الله قصره طويلا فتوفي بعد ثلاث سنوات من حكمه بمصر « الجمعة في ١١ ربيع آخر سنة ٣٦٥ هـ » وعمره ٤٥ سنة ومدة حكمه جميعها ٢٤ سنة معظمها في المغرب . وكان عاقلا حازماً اديباً حسن النظر محباً للنجامة

« خلافة العزيز بن المعز »

فلما توفى المعز بويع ابنه نزار بن معد ابو منصور الملقب بالعزيز بالله ويدعوه بعضهم العزيز بدين الله ومولده المهدية في افريقية واتسعت المملكة في ايامه حتى اتصلت بمكة ولم يكن سن العزيز عند مبايعته الا ٢١ سنة فترك ازمة الجند لجوهر . وفوض ليعقوب ابن كلس النظر في سائر الامور وجعله وزيراً له في رمضان سنة ٣٦٨ هـ . وفي محرم سنة ٣٧٣ هـ امر العزيز ان تكون جميع المكاتبات الرسمية باسم يعقوب وان تمضى الاوامر باسمه واهداه كثيراً من الغلمان والاموال. فرتب يعقوب الدواوين فجعل ديوانا للجيش وآخر للاموال وآخر للخراج وآخر للسجلات والانشاء وآخر للمستغلات

وجعل في كل منها كتاباً ورؤساء كتاب . وكان يجلس في مجلسه الادباء والشعراء والفقهاء وارباب الصنائع وخصص لكل منهم الارزاق والف كتباً في الفقه والقرآات وكان يجلس في كل جمعة يقرأ مصنفاته على الناس بنفسه . وكان له مجلس في داره للنظر في رقاع المرافعين والمتظامين ويوقع بيده في الرقاع ويخاطب الخصوم بنفسه . وتوفى الوزير يعقوب في ٥ ذي الحجة سنة ٣٨٠ ﻫ وهو اول وزراء الدولة الفاطمية بمصر

وتزوج العزيز بالله امرأة مسيحية من الطائفة الملكية وكان يحبها كثيراً فاكتسبت نفوذاً عليه فكان يراعي ابناء طائفتها ويرفق بهم اكراماً لها

وفي ١٨ رمضان سنة ٣٨٦ ﻫ توفى عبد العزيز بالله في بلبيس على اثر مرض طويل بالقولنج والحصاة وعمره ٤٢ سنة وبضعة اشهر ومدة خلافته ٢١ سنة وخمسة أشهر ونصف فنقل الى القاهرة ودفن في تربة القصر مع ابائه . وكان العزيز كريماً شجاعاً حسن العفو عند المقدرة وكان محباً للصيد ولا سيما صيد السباع وكان اديباً فاضلاً . ومن آثاره انه اسس جامع الحاكم فلما جاء الخليفة الحاكم اتمه

« خلافة الحاكم بامر الله بن العزيز »

ولما توفى العزيز خلفه ابنه المنصور ابو علي فبويع ولقب بالحاكم بامر الله ولكننا سنرى انه لم يحكم الا خلافاً لامر الله . وكان عمره عند مبايعته احدى عشرة سنة فكان الوصي عليه الوزير ارجوان فاستأثر بالنفوذ حتى تجاوز الحد

وكانت مدة حكمه نحو ٢٥ سنة ثارت في اوائلها عصبة ادعى زعيمها انه من سلالة الخليفة هاشم بن عبد الملك بن مروان وجرى بسبب ذلك خصام وحرب كان النصر فيها متبادلا وفي المرة الاخيرة قبض على زعيم العصاة والقي في السجن وهرب اتباعه . ثم اراد الحاكم ان يبرهن على اختلال شعور هذا الرجل فاركبه جملاً واركب وراءه قرداً وطوّفه في المدينة والقرد لا ينفك عن قرع ذلك الرجل على رأسه الى ان مات شر موتة

وفي سنة ٣٩١ ﻫ امر الحاكم الناس بان يوقدوا القناديل على الحوانيت وابواب الدور والمحال والسكك الشارعة وغير الشارعة ولازم الركوب في الليل . وكان ينزل في كل ليلة الى موضع موضع والى شارع شارع والى زقاق زقاق وصار الناس من الزينة والوقود الكثيرة يوصلون ليلهم بنهارهم فيقضون طول الليل في البيع والشراء . وكان اذا مشى في موكبه امر حاشيته أن لا تمشي بقربه وزجرهم وقال « ابعدوا ولا تمنعوا

احداً مني » فكانت تقترب الناس منه وتحدق به وتكثر من الدعاء له

وبعد يسير أصيب الحاكم بتغيير في عقله لم يفارقه حتى فارقته الحياة . وظهر في أثناء ذلك متمذهب يدعى ضرار وتبعه جماعة عرفوا بالضرارية . ثم توفى الزعيم وخلفه احد تلاميذه المدعو حمزة بن احمد الملقب بالهادي . وسنّ هؤلاء شرائع كثيرة وعلموا تعاليم مختلفة منها تعظيم يوم الجمعة والاحتفال بالاعياد والتعويض عن الحج لمكة بزيارة مقام طالب في اليمن . ومن شرائعهم انهم اباحوا الزيجة بين الاخ وأخته والاب وبناته والام وابنائها . وجاؤا بامور كثيرة تخالف او تناقض ما جاء في القرآن

فارتاح الحاكم لهذه الديانة الجديدة وافتتن بها فتبعها ونسي ديانة ابيه وجده . وكان يصعد كل صباح منفرداً الى جبل المقطم حيث أدعى انه يناجي الله كما كان يفعل موسى وبعد ان كان اشد نصير للديانة الاسلامية نادى جهاراً بمقاومتها وادعى بالسوء على الصحابة . وسعى في ابطال الديانة الاسلامية واقامة ديانة جديدة فخبطت مساعيه فاحتقرته الرعية ولم تعد تعبأ بمدعياته فعاد الى نصرة الاسلام فاضطهد النصارى واليهود

وكان السبب الرئيسي في ذلك الاضطهاد تقدم النصارى في ايامه حتى صاروا كالوزراء وتعاظموا لاتساع احوالهم وكثرة اموالهم فتزايدت مكايدتهم للمسلمين على عهد عيسى بن نسطوروس وفهد بن ابراهيم النصرانيين فغضب الحاكم بامر الله — وكان اذا غضب لا يملك نفسه فيبلغ غضبه الى حد الجنون . فامر بقتل هذين الرجلين وشدد على النصارى فامرهم بلبس ثياب الغيار وشد الزنار في اوساطهم ومنعهم من عمل الشعانين والتظاهر بما كانت عادتهم فيه وقبض على ما في الكنائس وادخله الديوان ومنع النصارى من شراء العبيد وهدم كنائسهم واجبرهم على الاسلام وغير ذلك من التشديد والعنف بما لم يقاس النصارى مثله من قبل ولعله اعظم ما اصابهم من الاضطهاد في ابان التمدن الاسلامي . ولا جناح على التمدن به لان مرتكبه اتاه عن حمق او جنون

فكان هذا الحاكم حملاً ثقيلاً على عاتق المصريين ولم يستطع احد مقاومته فكان كل منهم يكظم غيظه وهو يسمع باذنه رنة السهم في قلبه

ولكن الامور تجري على سنن محدودة ولا بد لكل منها من نهاية فعلمت أخت الحاكم وقائد جيشه ان الحاكم ينوي قتلهما فعمدا الى اغتياله قبل أن يغتالهما فاخذا الاحتياطات الممكنة . وفي سنة ٤١١ هـ قتلاه على جبل المقطم وبعد موته صار النفوذ الى أخته ونادت بابنه علي ابي الحسن الملقب بالظاهر لاعزاز دين الله وريثاً له فاستلم ازمام الاحكام فبايعوه وبقيت الاحكام في يده ١٧ سنة

ومن آثار الحاكم بامر الله الجامع المعروف بجامع الحاكم وقد تقدم ان العزيز وضع أساسه على يد وزيره يعقوب بن كلس فاتم الحاكم بناءه وانفق في سبيل ذلك اربعين الف دينار ودعاه جامع باب الفتوح لمجاورته له

« خلافة الظاهر بن الحاكم »

وفي ايام الظاهر سنة ٤٢٢ ﻫ توفى الخليفة القادر بالله العباسي الذي كان قد أقيم سنة ٣٨١ ﻫ خلفاً للطائع وأقيم مقامه في بغداد القائم بامر الله . وكان سن الظاهر لما تولى الخلافة ١٦ سنة فخرج الى صلاة العيد وعلى راسه المظلة وحوله العساكر وصلى بالناس في المصلى وعاد فكتب بخلافته الى الاعمال واباح شرب الخمر ورخص فيه للناس وفي سماع الغناء وشرب الفقاع فاقبل الناس على اللهو

وكان الظاهر ضعيف الرأي منصرفاً الى اللهو فافضى النفوذ الى بضعة من رجال دولته وقرروا ان لا يدخل على الظاهر غيرهم . فاصبحوا يتصرفون بأمور الدولة ويمنعون اهل النصح من الوصول الى الخليفة . واخذوا في الاستئثار بالاموال فضاقت ابواب الرزق

وفي سنة ٤٢٧ ﻫ توفى الظاهر لاعزاز دين الله في ليلة الإحد منتصف شعبان بعد ان تضعضعت الدولة فبويع ابنه معد ابي تميم خليفة مكانه ولقب بالمستنصر بالله

« خلافة المستنصر بن الظاهر »

ولم يكن سن المستنصر عند مبايعته اكثر من سبع سنوات وامه جارية سوداء ابتاعها الظاهر من تاجر يهودي اسمه ابو سعيد سهل بن هارون التتري . فلما رأت انها في هذا المنصب اتت بسيدها الاصلي وولته الاستشارة . وكانت مدة خلافة المستنصر اطول من كل خليفة فاطمي واكثر حوادث من الجميع

ففي سنة ٤٢٩ ﻫ عقد المستنصر هدنة مع امبراطور الروم وكان لا ينفك عن مهاجمة التخوم الاسلامية حتى اخضع حلب وتبعها سائر الشام فساد الامن بعد الهدنة الى ان كانت سنة ٤٣٤ ﻫ بويلاتها فثارت داخلية مصر بفتنة جديدة لظهور رجل اسمه سكين كان يشبه الحاكم بامر الله فادعى انه الحاكم وقد رجع بعد موته . فاتبعه جمع ممن يعتقد رجعة الحاكم فاغتنموا خلو دار الخليفة بمصر من الجند وقصدوها مع سكين نصف النهار فدخلوا الدهليز فوثب من هناك من الجند فقال لهم اصحابه انه الحاكم فارتاعوا لذلك ثم ارتابوا

به فقبضوا على سكين ووقع الصوت واقتتلوا فتراجع الجند الى القصر والحرب قائمة فقتل من اصحابه جماعة وأسر الباقون وصلبوا احياء ورماهم الجند بالنشاب حتى ماتوا

على ان ذلك لم يكن ليسكن بال المستنصر اذ قد تخلص من شر ووقع في آخر لان « دكز » لم يكن اقل معاكسة له من غيره فالتجأ المستنصر الى بدر الجمالي حاكم سوريا فكتب اليه سراً ان يأتي بجيشه الى مصر ليوليه عليها فقبل بدر مشترطاً ان يستبدل جنود مصر بمن يختارهم من اهل الشام

سافر بدر الجمالي من سوريا في عصبة من الرجال قد اختبر شجاعتهم وامانتهم طويلا وسار الى عكا ومنها بحراً الى مصر . وكانت الريح جيدة على غير المعتاد في مثل ذلك الفصل لانه برح عكا في اول دسمبر (كانون الاول) وبلغ مصر ولم يشعر احد به ونزل بين تنيس ودمياط . فاستقبله سليمان كبير اهل البحيرة وتوجهوا نحو القاهرة فنزلوا في قليوب وبعثوا الى الخليفة ان يقبض على (دكز) قبل دخولهم فقبض عليه واعتقله في خزانة البنود . فدخل بدر الجمالي القاهرة يوم الاربعاء ٢٩ جمادى الاولى سنة ٤٦٨ هـ ولم يكن للامراء علم باستدعائه فما منهم الا واضافه . فلما انقضت نوبهم في ضيافته استدعاهم الى وليمة أعدها لهم في منزله وبيت مع اصحابه « ان القوم اذا اجنهم الليل فانهم لا بد يحتاجون الى الخلاء فمن قام منهم الى الخلاء يقتل هناك » ووكل بكل واحد واحداً من اصحابه وانعم عليه بجميع ما يتركه ذلك الامير من دار ومال واقطاع وغيره . فصار الامراء اليه وظلوا نهارهم عنده وباتوا مطمئنين فما طلع ضوء النهار حتى استولى اصحابه على جميع دور الامراء وصارت رؤوسهم بين يديه . فقويت شوكته وعظم امره وخلع عليه المستنصر بالطيلسان المقوّر وقلده وزارة السيف والقلم . فصار القضاة والدعاة وسائر ارباب الدولة من تحت يده وزيد في القابه لقب « امير الجيوش كافل قضاة المسلمين وهادى دعاة المؤمنين » . وتتبع المفسدين فلم يبق منهم احد حتى قتله

« اصلاحات امير الجيوش »

فلم يعد امام بدر الجمالي من يخالف امره ويقف في سبيل ارادته في اصلاح البلاد وكان سور القاهرة قد تهدم بعضه فشرع في ترميمه وتقويته فزاد فيه الزيادات التي بين بابي زويله وباب زويله الكبير وبين باب الفتوح الذي عند حارة بهاء الدين وباب الفتوح الآن . وزاد عند باب النصر ايضاً جميع الرحبة التي تجاه جامع الحاكم الى باب النصر . وجعل السور من اللبن واقام الابواب من حجارة . وبنى باب زويله وعلى

ابراجه ولم يعمل له باشورة كما هي عادة ابواب الحصون من ان يكون في كل باب عطف حتى لا تهجم عليه العساكر في وقت الحصار ويتعذر سوق الخيل ودخولها جملة . لكنه جعل في بابه زلاقة من حجارة صوانية عظيمة حتى اذا هجم عسكر على القاهرة لا تثبت قوائم الخيل على الصوان . فلم تزل هذه الزلاقة باقية الى ايام السلطان الملك الكامل بن العادل الايوبي فاتفق مروره من هنـاك فاختل فرسه وزلق به واحسبه سقط عنه فامر بنقضها فنقضت وبقي منها شيء يسير . وكان احدها في ايام المقريزي لا يزال موجوداً قرب قبو الخرنفش

وفي الشهر الاول من سنة ٤٨٧ هـ توفى المقتدي بالله الخليفة السابع والعشرون من بني العباس . وفي الشهر الاخير توفى المستنصر ووزيره الباسل امير الجيوش وكانت وفاتهما خسارة جسيمة على العالم الاسلامي وصدمة قوية على الخلافة

« خلافة المستعلي بن المستنصر »

اما المستنصر فاوصى بالخلافة لابنه الثاني احمد الملقب بابي القاسم فبادر الافضل الى القصر واجلس ابا القاسم احمد بن المستنصر في منصب الخلافة ولقبه بالمستعلي بالله وسير الى الامير نزار والامير اسماعيل ولدي المستنصر فجاءا اليه فاذا اخوهما قد جلس على سرير الخلافة فامتعضا لذلك وشق عليهما . فامرهما الافضل بتقبيل الارض وقال لهما « قبلا الارض لمولانا المستعلي بالله وبايعاه فهو الذي نصّ عليه الامام المستنصر قبل وفاته بالخلافة من بعده » فامتنعا من ذلك وقال كل منهما ان اباه قد اوصى له بالخلافة وقال نزار « لو قطعت يدي ما بايعت من هو اصغر مني وخط والدي عنـدي بأني ولي عهده وانا احضره » وخرج مسرعاً ليحضر الخط فمضى لا يدري به احد وتوجه الى الاسكندرية . فلما ابطأ مجيئه بعث الافضل اليه ليحضر بالخط فلم يعلم له خبراً فانزعج لذلك انزعاجاً عظيماً

وكان الافضل حاقداً على نزار لاسباب منها انه دخل يوماً من باب وهو راكب فصاح به نزار « انزل يا ارمني » فحقدها عليه وصار كل منهما يكره الآخر . فلما مات المستنصر خاف الافضل من مبايعة نزار لانه كان رجلاً كبيراً همّاماً وله حاشية واعوان فعمد الى مبايعة أخيه احمد بعد ان اجتمع بالامراء وخوفهم من نزار وما زال بهم حتى وافقوه على الاعراض عنه . وكان من جملتهم محمود بن مصال فبعث الى نزار واعلمه بما كان من اتفاق الافضل مع الامراء على اقامة أخيه احمد وادارته لهم عنه ثم كان

استدعاه الافضل له ولاخيه لمبايعة أخيهما . فلما خرج نزار ليأتي بوصية ابيه له بالخلافةسار من القصر متنكراً ومعه ابن مصال الى الاسكندرية وفيها الامير نصر الدولة افتكين احد مماليك امير الجيوش بدر الجمالي ودخلا عليه ليلاً واعلماه بما كان من الافضل وتراميا عليه ووعده نزار بأن يجعله وزيراً مكان الافضل فقبلهما اتم قبول وبايع نزاراً واحضر اهل الثغر لمبايعته فبايعوه ونعته بالمصطفى لدين الله

فبلغ ذلك الافضل فأخذ يتجهز لمحاربتهم واخرج في آخر محرم سنة ٤٨٨ هـ بعساكره الى الاسكندرية فبرز اليه نزار وافتكين وكانت بين الفريقين وقائع شديدة انكسر فيها الافضل ورجع بمن معه منهزماً الى القاهرة . فقوي نزار وافتكين وصار اليهما كثير من العرب . واشتد نزار وعظم واستولى على الوجه البحري واخذ الافضل يتجهز ثانية لمحاربته ودسّ الى اكابر العربان ووجوه اصحاب نزار وافتكين ووعدهم. وسار قاصداً الاسكندرية فنزل اليها وحاصرها حصاراً شديداً والح في مقاتلتها

فلما كان في ذى القعدة وقد اشتد البلاء من الحصار جمع ابن مصال ماله وفرّ في البحر الى جهة بلاد الغرب فانكسرت شوكة نزار واشتد الافضل وتكاثرت جموعه فبعث نزار وافتكين اليه يطلبان الامان فأمنهما ودخل الاسكندرية وقبض على نزار وافتكين وبعث بهما الى القاهرة . فأما نزار فانه قتل في القصر بأن اقيم بين حائطين بنيا عليه فمات بينهما . واما افتكين فقتله الافضل بعد قدومه

فعاد السلام الى المملكة فعكف الافضل على استرجاع البلاد التي كانت قد خرجت من الدولة الفاطمية ودخلت في حوزة دولة الارتقيين

وفي يوم الثلاثاء ١٧ صفر سنة ٤٩٥ هـ توفى الخليفة المستعلي بالله في القاهرة بعد ان حكم ٧ سنوات وشهرين وله ولدٌ اسمه المنصور لم يبلغ السادسة من عمره فكان شاهين شاه وصياً عليه كما كان وصياً على ابيه قبله . وكان قد عهد اليه ان يلقبه عند مبايعته بالآمر باحكام الله ففعل

« خلافة الآمر بن المستعلى »

وكان الصليبيون في اثناء ذلك لا يزالون في فتوحهم بسوريا وقد فازوا لانقسام الدول الاسلامية . وكان الواجب في مثل هــذه الحال ان يتحدوا يداً واحدة لمقاومة اعدائهم لكنهم جاؤا بالعكس فانقسمت الآراء وتشتتت القوات فكانت تلك فرصة لجماعة الصليبيين لم يضيعوها لان (كونت سنجيل) بعـد ان استولى على طرسوس

وحمص وجبيل وطرابلس الشام تقدم نحو عكا سنة ٤٩٧ هـ وحاصرها براً وبحراً وكانت عكا في ذلك الحين تابعة لمصر وحاكمها يدعى زاهر الدولة ويلقب بالجيوشي لانه من اتباع امير الجيوش . وطال امد الحصار حتى ملّ الصليبيون الانتظار فهاجموا المدينة ودخلوها عنوة وفتكوا بمن فيها . وفرّ زاهر الدولة الى الشام ومنها الى مصر

ففي سبع سنين كلها حروب دموية استولى الصليبيون على سوريا وفلسطين وجعلوا بيت المقدس قصبة ملكهم . أما مصر فكانت في جميع هذه الحوادث على الحياد الا المدافعة عند الحاجة . وكانت تعد ذاتها سعيدة لنجاتها من هجمات اولئك الصليبيين وكل ذلك بتدبير الافضل امير الجيوش

وفي سنة ٥٠٦ هـ امر الافضل ببناء خليج سماه بحر ابي المنجا لان الذي ناظر على حفره هو ابو المنجا ابو شعيا اليهودي . وانشأ الافضل ايضاً مرصداً عظيماً كلفه مشقات جسيمة . وجعل مركز ذلك المرصد على مرتفع في جوار المقطم كان يعرف قديماً بالجرف ثم لما اقيم فيه المرصد صار يعرف بالرصد

وفي سنة ٥١٨ هـ نشأت طائفة الباطنيين ويدعوهم بعض المؤرخين بالحشاشين لانهم كانوا يكثرون من تدخين الحشيش وهم فئة جمع بينهم التعصب والطمع . وكان رئيسهم يترصد فرصة للغزو والنهب فلما رأى الدول القوية مشغولة بالحرب في انحاء المشرق وضع يده على بعض القرى الجبلية بجوار دمشق ثم جعل يناهض الصليبيين فيحاربهم تارة ويصالحهم اخرى الى ان انتهى الامر فاقام حكومته بين ظهرانيهم وابتنى حصوناً منيعة ارهبت الولاة المسيحيين وخلفاء الاسلام فاجبرهم على دفع الجزية وقاية من فتكه بحياتهم فانه كان متفنناً في القتل بطرق سرية على يد بعض رجاله الدهاة . وفي سنة ٥٢٤ هـ سعى امير الباطنيين في قتل الآمر باحكام الله فانفذ اليه بعض دهاته فقتلوه في ٢ ذي القعدة من السنة المذكورة وعمره ٣٥ سنة وحكمه ٣٠ سنة تقريباً

« خلافة الحافظ بن محمد »

ولم يكن للآمر اولاد ذكور فكان الحق بالخلافة لابن عمه عبد المجيد بن القاسم ابن محمد ولكن ارملة الخليفة كانت حاملاً فلقب عبد المجيد بنائب الملك ريثما تلد ويرون ماذا يكون المولود فوضعت ابنة فبويع عبد المجيد ولقب بالحافظ لدين الله . فاستوزر احمد بن الافضل بن امير الجيوش فقام بالوزارة حق القيام فعظم في عيني الخليفة فكثر حسادة فقتلوه . فاستوزر وزيراً آخر اختبر فيه الدراية والحكمة واسمه بهرام لكنه

لم يلبث ان قتل في اواخر سنة ٥٤٣ هـ فعزم الخليفة بعد ذلك ان يتولى اعباء الوزارة بنفسه

وتوفى الخليفة الحافظ في جمادى الثانية سنة ٥٤٤ هـ بعلة القولنج . وكان عمره ٨٠ سنة ومدة حكمه ١٩ سنة و٧ اشهر .

« خلافة الظافر بن الحافظ »

واستخلف الحافظ ابنه اسماعيل ابا المنصور فبويع ولقب بالظافر بأمر الله لكنه لم يكن مطابقاً لذلك الاسم . وكان عمره ١٧ سنة وهو اصغر اولاد ابيه سناً وكان كثير اللهو واللعب والتفرد بالجوارى واستماع الاغاني فكان ينظر الى الدسائس الجارية في قصره الآيلة الى خراب مملكته بعين المتردد المتهامل ويمثل ذلك كان ينظر الى تهديد جنود صقلية من جهة الغرب والصليبيين من الشرق وكل منهما يقترب رويداً رويداً من قاعدة المملكة الفاطمية والظافر مشعر بقرب سقوط خلافته ولا يبدي حراكاً

ومن سنة ٥٤٩ هـ انتهت حياة الخليفة الظافر وحكمه معاً وسبب موته انه كان منهمكا بالشهوات الوحشية مشتغلا عن مهام الدولة فشق ذلك على وزيره العباس فأوعز الى ابنه نصر ان يقتله وينجي البلاد من شره ويتخلص مما كان يتقول الناس في عرضهما من معاشرته اياه فاستدعاه الى دار ابيه سراً ولم يعلم به احد وتلك الدار هي المدرسة الحنفية التي عرفت بالسيوفية فقتله بها واخفى قتله في منتصف محرم سنة ٥٤٩ هـ فأتى نصر الى ابيه العباس واخبره بذلك من لياته . ولما كان الصباح اقبل العباس الى القصر على جارى عادته في الخدمة واظهر عدم الاطلاع على قضيته وطلب الاجتماع به ولم يكن اهل القصر قد علموا بقتله بعد لانه خرج من عندهم خفية وما علم احد بخروجه فدخل الخدم الى موضعه ليستأذنوا للعباس فلم يجدوه فدخلوا الى قاعة الحرم فقيل لهم انه لم يبت هنا فتطلبوه في جميع مظانه في القصر فلم يقعوا له على خبر فتحققوا قتله . فأخرج العباس اخوي الظافر وهما جبريل ويوسف وقال لهما « انتما قتلتما امامنا وما نعرف حاله الا منكما » فاصرّا على الانكار وكانا صادقين في ذلك فقتلهما حالا لينفي التهمة عن نفسه وعن ابنه

« خلافة الفائز بن الظافر »

فاستدعى عباس الفائز بن الظافر وتقدير عمره خمس سنوات وقيل سنتان فحمله على كتفه ووقف في صحن الدار وامر ان يدخل الامراء فدخلوا فقال لهم « هذا ولد

مولاكم وقتل عماه اباه وقد قتلتهما به كما ترون والواجب اخلاص الطاعة لهذا الطفل » فقالوا باجمعهم « سمعنا واطعنا » وصاحوا صيحة واحدة اضطرب منها الطفل وبال على كتف عباس وسموه الفائز وسيروه الى امه وقد اختل من تلك الصيحة فصار يصرع في كل وقت ويختلج

فاخذ عباس من ذلك الحين يدبر الامور وانفرد بالتصرف ولم يبق على يده يد واما اهل مصر فانهم اطلعوا على باطن الامر واخذوا في اعمال الحيلة على قتل عباس وابنه فكاتبوا بذلك الصالح طلائع بن رزيك الارمني — وهو ابو الغارات الملك الصالح فارس المسلمين نصير الدين كان قد سار الى زيارة مشهد الامام علي بن ابي طالب بأرض النجف من العراق في جماعة من الفقراء وكان من الشيعة الامامية فتنبأ له الامام انه سيتولى مصر بناء على رؤيا رآها في منامه فسار من ساعته الى مصر وصار يترقى في الخدم حتى ولي منية خصيب (المنيا)

فلما صار اهل القصر الى ما صاروا اليه كتبوا الى طلائع وسألوه الانتصار لهم ولمولاهم والخروج على عباس وقطعوا شعورهم وسيروها في طي الكتاب وسودوا الكتاب فلما وقف الصالح عليه اطلع من حوله من الاجناد وتحدث معهم في المعنى فاجابوه الى الخروج واستمال جمعاً من العرب وساروا الى القاهرة وقد لبسوا السواد فلما قاربوها خرج اليهم من بها من الامراء والاجناد والسودان وتركوا عباساً وحده فخرج عباس في ساعته من القاهرة وخرج معه ولده نصر ومعهما شيء من المال وجماعة يسيرة من اتباعهم وقصدوا طريق الشام على ايلة في ١٤ ربيع اول سنة ٥٤٩ هجرية . اما الصالح بن رزيك فانه دخل القاهرة بدون قتال وما قدم شيئاً على النزول بدار عباس المتقدم ذكره . واستحضر الخادم الصغير الذي كان مع الظافر ساعة قتله وسأله عن الموضع الذي دفن فيه فعرفه به وقلع البلاطة التي كانت عليه واخرج الظافر ومن معه من المقتولين فحملوا وقطعت لهم الشعور وانتشر البكاء والنواح في البلد ومشى الصالح والخلق قدام الجنازة الى موضع المدفن في تربة الفاطميين

وتكفل الصالح بالخليفة الصغير ودبر احواله . وأما العباس فان اخت الظافر كاتبت صليبي عسقلان بشأنه وسرطت لهم مالاً جزيلا اذا امسكوه فخرجوا عليه والتقوا به فتواقعوا وقتلوا عباساً واخذوا ماله وولده وانهزم بعض اصحابه الى الشام وفيهم ابن منقذ فسلموا . وسير الصليبيون نصر بن عباس الى القاهرة تحت الحوطة في قفص من حديد . فلما وصل تسلم رسولهم ما شرطه من المال فاخذوا نصراً وضربوه بالسياط

ومثلوا به وصلبوه بعد ذلك على باب زويله ثم انزلوه يوم عاشوراء سنة ٥٥١ هـ واحرقوه ولم يحكم الخليفة الفائز بنصر الله الا ست سنوات . وفي سنة ٥٥٥ هـ توفي . وكانت مصر قد انحطت في ايامه الى مهاوي الضعف حتى انه كان يؤدي الاموال الطائلة ترضية للصليبيين في بيت المقدس ليتوقفوا عن الغزو من جهة عسقلان وغزة

« خلافة العاضد بن يوسف »

وبعد وفاة الخليفة الفائز اخذ الملك الصالح يهتم في اقامة من يخلفه فقدم السراي فقدموا له شيخاً من الاسرة الفاطمية لم يكن ثم احق منه للخلافة فهمّ بمبايعته فجاء احد اصدقائه وهمس في اذنه « ان سلفك في الوزارة كان احسن تدبيراً منك لانه لم يسلم نفسه لخليفة عمره اكثر من خمس سنوات » فرنت هذه العبارة في اذن الوزير فعدل عن تنصيب هذا الشيخ وعمد الى عبد الله بن يوسف بن الحافظ لدين الله ولم يكن بالغاً رشده فبايعه ولقبه بالعاضد لدين الله . وهو الخليفة الرابع عشر للدولة الفاطمية ثم زوجه ابنته ومعها ثروة عظيمة

ولما كانت ادارة الاحكام منوطة بالوزير كان النفوذ الاكبر له ولم يكن الخليفة العاضد لدين الله اقل استعباداً من سلفه فلقب وزيره الصالح بلقب الملك . ففتحت اعين الاعداء عليه وفي جملتهم عمة الخليفة . فعزمت على قتله فارسلت اولاد الراعي فكمنوا له في دهليز القصر وضربوه حتى سقط على الارض على وجهه وحمل جريحاً لا يعي الى داره فمات يوم الاثنين ١٩ رمضان سنة ٥٥٦ هـ وكان شجاعاً كريماً جواداً فاضلا محباً لاهل الادب جيد الشعر وفيه عقل وسياسة وتدبير

« حضارة الفسطاط »

يجدر بنا هنا ان نذكر ما كانت عليه الفسطاط من الحضارة والثروة . وقد تقدم بناؤها على يد عمرو بن العاص وهي اول مدينة اسلامية بناها المسلمون بمصر . وبلغ طولها على ضفة النيل ثلاثة اميال . وذكر مؤرخو العرب من مقدار عمارتها انه كان فيها ٣٦٠٠٠ مسجد ٨٠٠٠ شارع مسلوك و١١٧٠ حماماً . ومما نظمه الشعراء في مدحها قول الشريف العقيلي :

احنُّ الى الفسطاط شوقاً وانني   لادعو لها ان لا يحل بها القطر
وهل في الحيا من حاجة لجنابها   وفي كل قطر من جوانبها نهر
تبدت عروساً والمقطم تاجها   ومن نيلها عقد كما انتظم الدرّ

وبلغ من تزاحم الناس في الفسطاط حتى جعلوا المنازل طبقات عديدة بلغ بعضها خمس طبقات الى سبع وربما سكن في البيت الواحد ٢٠٠ نفس

« الخطبة العباسية بمصر »

وفي سنة ٦٦٧ هـ جعل صلاح الدين الخطبة بمصر للخليفة العباسي بدلا من الفاطمي . ومعنى ذلك في اصطلاحهم ان مصر عادت الى سيطرة العباسيين وخرجت من سلطة الفاطميين الشيعة وكان صلاح الدين سنياً . وكيفية البيعة ان صلاح الدين لما ثبتت قدمه بمصر وازال المخالفين له وضعف امر الخليفة العاضد وصار قصره يحكم فيه صلاح الدين ونائبه قراقوش وكان من اعيان الامراء الاسدية وكلهم يرجعون اليه فكتب اليه نور الدين محمود بن زنكى يأمره بقطع الخطبة العاضدية واقامة الخطبة للمستضيء بالله العباسي . فامتنع صلاح الدين واعتذر بالخوف من قيام اهل الديار المصرية لميلهم الى العلويين وكان صلاح الدين يكره قطع الخطبة لهم ويريد بقاءهم خوفاً من نور الدين فانه كان يخافه ان يدخل الى الديار المصرية ويأخذها منه . فكان يريد ان يكون العاضد معه حتى اذا قصده نور الدين امتنع به وباهل مصر عليه فلما اعتذر الى نور الدين بذلك لم يقبل عذره والح عليه بقطع الخطبة والزمه الزاماً لا فسحة له في مخالفته لانه على الحقيقة نائب نور الدين . واتفق أن العاضد مرض في هذا الوقت مرضاً شديداً . فلما عزم صلاح الدين على قطع خطبته استشار امراءه فنهم من اشار به ولم يفكر في المصريين ومنهم من خافهم الا أنه لم يمكنه الا امتثال امر نور الدين

وكان قد دخل الى مصر انسان اعجمي يعرف بالامير العالم فلما رأى ما هم فيه من الاحجام وان لا احداً يتجاسر ان يخطب للعباسيين قال « انا ابتدىء بالخطبة له » فلما كان اول جمعة من المحرم صعد المنبر قبل الخطيب ودعا للمستضيء بالله ففعلوا ذلك ولم ينتطح فيها عنزان . وكتب بذلك الى سائر بلاد مصر ففعلوا

وكان العاضد قد اشتد مرضه فلم يعلمه احد من اهله واصحابه بقطع الخطبة وقالوا ان عوفى فهو يعلم وان توفى فلا ينبغي ان نفجعه بمثل هذه الحادثة قبل موته . فتوفى يوم عاشوراء ولم يعلم بقطع الخطبة . ولما توفى جلس صلاح الدين للعزاء واستولى على قصر الخلافة وما فيه فحفظه بهاء الدين قراقوش وكان قد رتبه قبل موت العاضد

فحمل جميع ما فيه الى صلاح الدين وكان من كثرته يخرج عن الاحصاء وفيه من الاعلاق النفيسة والاشياء الغريبة ما تخلو الدنيا عن مثله من الجواهر التي لم توجد

عند غيرهم — فنه الحبل الياقوت وزنه سبعة عشر درهما اوسبعة عشرمثقالاً واللؤلؤ الذي لم يوجد مثله . ومنه النصاب الزمرد الذي طوله اربع اصابع في عرض عقد كبير ووجد فيه طبل كان بالقرب من موضع العاضد وقد احتاطوا بالحفظ عليه . فلما رأوه ظنوه عمل لاجل اللعب فيه فسخروا من العاضد وكسروه ثم علموا انه طبل قولنج فندموا على كسره لما قيل لهم ذلك . وكان في القصر من الكتب النفيسة المعدومة المثل ما لا يعد فباع جميع ما فيه . ونقل اهل العاضد الى موضع من القصر ووكل بهم من يحفظهم واخرج جميع من فيه من امة وعبد فباع البعض واعتق البعض ووهب البعض وخلا القصر من سكانه كانه لم يكن بالامس . وكان العاضد لما مرض ارسل الى صلاح الدين يستدعيه فظن ذلك خديعة فلم يمض اليه فلما توفى علم صدقه فندم على تخلفه عنه وكان يصفه كثيراً بالكرم ولين الجانب وغلبة الخير على طبعه

الدولة الايوبية

« سلطنة صلاح الدين يوسف »

ولما علم صلاح الدين بوفاة العاضد وضع يده على القصر . وكان قد عهد الى بهاء الدين قراقوش ان يحفي التحف التي كانت قد جمعت . ثم القى القبض على جميع من بقي من الاسرة الفاطمية وهم الامير داود بن ولى العهد وينعت بالحامد لله واخواه ابو الامانة جبريل وابو الفتوح وابنه ابو القاسم . وسليمان بن داود بن العاضد وعبد الوهاب بن ابراهيم بن العاضد واسماعيل بن العاضد وجعفر بن ابي طاهر بن جبريل وعبد الظاهر بن ابي الفتوح بن جبريل بن الحافظ وجعلهم تحت الحجر في مكان بعيد من القصر . اما مماليك العاضد وعبيده فباع بعضها وفرق البعض الآخر في ارباب دولته

هكذا كانت نهاية دولة الفاطميين فقد غادروا القاهرة وفيها من آثارهم بنايات عظيمة وقصور ومناظر منها القصر الكبير الذي بناه جوهر عند ما اناخ جماله في موضع القاهرة والقصر الصغير الغربي ونحو عشرة قصور اخرى جميعها متقنة ثمينة كلها قاعات ومناظر داخل سور القصر كان يقال لها القصور الزاهرة

ومن آثارهم عدة بساتين ومناظر باماكن مختلفة من القاهرة . وقلما بقي من تلك الآثار على حاله . ولكن هناك اثراً عظيما لا يمحوه كرور الايام نعني به القاهرة فانها

ن بنائهم كما علمت . وللفاطميين احاديث مطولة فيما يتعلق بهيئاتهم في مجالسهم العامة كيف كان يجالسهم ارباب الدولة والفقهاء والعلماء وسائر انواع الاتباع وكيفية صلاتهم ي المساجد وما يجري في ذلك من الاحتفال فمن احب الاطلاع عليه فليطالعه في خطط المقريزي

ويقال ان صلاح الدين وجد بين تلك الخزائن مكتبة تحتوي على مئة الف مجلد منتخبة من احسن المؤلفات . ولا يزال قسم منها الى الآن في مكتبة ليدن بالمانيا



صلاح الدين

« اصلاحات صلاح الدين بمصر »

وعاد صلاح الدين من الشام الى مصر في ٢٠ محرم سنة ٥٧٢ ﻫ بعد ان استخلف اخاه طوران شاه على دمشق وكان قبل مسيره الى الشام قد استخلف على مصر وزيره الامير بهاء الدين الاسدي الخصي الفارسي . فعهد اليه تدبير الاحكام وامره ان يقيم البنايات اللازمة لرونق البلاد ومنعتها . فانفذ بهاء الدين ما عهد اليه بغيرة و نشاط وكانت الجسور المبنية لتنظيم مجرى النيل عند الفيضان قد أهمل شأنها منذ تولى الخلفاء الفاطميون فاذا فاض النيل طغت مياهه على اليابسة وخربت الطرق وافسدت الزرع . فمهد الطرق واحتفر الترع واقام الجسور والسدود واستخدم لذلك بعض حجارة الاهرام الصغيرة التي كانت تحيط باهرام الجيزة وغيرها من ابنية المصريين القدماء . وانشأ طريقاً يمتد طولا على ضفة النيل فيقيها من صدمات المياه وتسهل علائق العاصمة بمصر العليا والسفلى . وشاد فوق الترعة التي كانت تجري بين الجيزة واهرامها جسراً عظيما مؤلف من اربعين قنطرة

ولم يكن لصلاح الدين اذ ذاك مسكن الا القصران اللذان كانا للخليفة والوزير السابقين ولم يكونا منيعين حق المنعة فجعلهما منزلا لامراء الدولة وقواد الجند وبنى في الطرف الشمالي من جبل المقطم على سفحه قلعة منيعة لارهاب الاهالي اذا حاولوا العصيان وجعل فيها قصراً لبلاطه . وكان في ذلك المكان بناء قديم من عهد الدولة الطولونية يعرف بقبة الهواء فهدمه واقام القلعة في مكانه واتى بحجارتها من خرائب منف والاهرام وغيرها فجاءت قلعة منيعة الجانب تشرف على كل المدينة وليس في القاهرة بناء آخر امنع موقعاً من القلعة وهي لا تزال باقية الى هذا العهد وتعرف بقلعة الجبل وقلعة القاهرة . واحتفر بهاء الدين في القلعة بئراً نقراً في الصخر عميقة جداً تسع كل ما تحتاج اليه الحامية من الماء ولا يزال البئر والقصر الى هذه الغاية ويعرفان باسمه فالبئر يدعى بئر يوسف ويظن بعض العامة انها سميت هكذا نسبة الى يوسف الصديق ابن يعقوب والصحيح نسبتها الى يوسف صلاح الدين الذي امر باحتفارها . والغالب ان هذه البئر كانت محفورة من ايام قدماء المصريين ثم طمرت بالرمال فاعاد صلاح الدين حفرها وما بقي من القصر يعرف بديوان يوسف او ديوان صلاح الدين . وابتنى هذا الوزير ايضاً حواصل كبيرة في الفسطاط لخزن الغلال التي ترد من الاعمال سنوياً ولا تزال تدعى الى يومنا هذا بمخازن يوسف وقد ظن بعضهم انها من بناء فرعون في زمن يوسف الصديق

« واقعة حطين »

وفي ١٤ ربيع آخر سنة ٥٨٣ هـ كانت بداية واقعة حطين الشهيرة في وسط نهار الجمعة والاسلام كثيراً ما يحاولون لقاء عدوهم يوم الجمعة عند الصلاة تبركاً بدعاء المسلمين والخطباء على المنابر في سائر العالم الاسلامي في وقت واحد . فسار السلطان صلاح الدين بما اجتمع لديه من الجند على أتم نظام وحط رحاله عند بحيرة طبرية على سطح الجبل على أمل ان الافرنج اذا بلغهم نزوله هناك يقدمون اليه وكانوا معسكرين في مرج صفورية بارض عكا فلم يتحركوا من منزلتهم . فسار صلاح الدين في جريدة من جيشه الى طبرية واستلمها بساعة بعد القتل والنهب الا أن القلعة بقيت سالمة بمن فيها . فبلغ الافرنج ما حصل في طبرية فساروا نحوها فعلم السلطان بذلك فترك على قلعة طبرية من يحاصرها وعاد لملاقاة العدو فالتقى به على سطح جبل طبرية الغربي في يوم الخميس ٢٢ ربيع آخر وبعد حرب شديدة تفرقت جيوش الصليبيين الا فرقة منهم تحصنت في تل يقال له تل حطين وهي قرية هناك عندها قبر النبي شعيب فضايقهم المسلمين واشعلوا حولهم النيران فاشتد بهم العطش الى أن الجأهم الامر للقتال يأساً فاسرت مقدمتهم وقتل الباقون

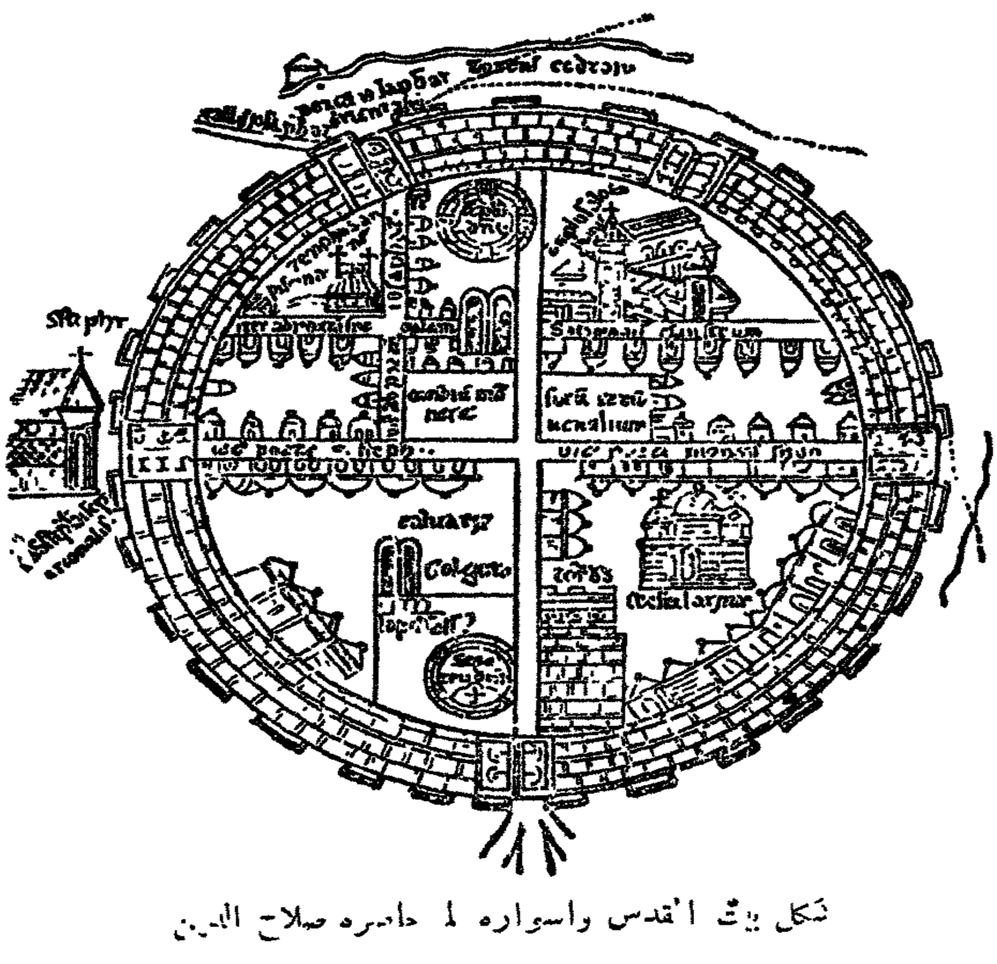
وكان في جملة المأسورين الملك جفري وأخوه البرنس أرباط صاحب الكرك والشوبك وغيرهما من القواد والامراء . فجلس السلطان صلاح الدين في خيمته وامر بتحضير الاسرى بين يديه فاحضروا وفيهم الملك جفرى فامر له بشربة من جلاب ثلج فشربها وكان في غاية الظمأ ثم أعطى البرنس أرباط أخاه فشرب وقال السلطان للترجمان « قل للملك أنت الذي سقيته أما أنا فما سقيته » اذ كان من جميل عادة العرب ان الاسير اذا أكل او شرب من مال من أسره أمن . فقصد السلطان بقوله هذا ان الملك جفري قد أمن أما أخوه فلم يأمن . وكان في قلب صلاح الدين حقد على البرنس ارباط السابق تعديه على جماعة من المسلمين وقتلهم في حال سلمية لغير داع فسبق من السلطان قسم انه اذا ظفر بهذا الامير قتله . فبعد ان شربا ارسلهما للمائدة فاكلا ثم أعيدا الى السلطان فأخذ بيده سيفاً وتقدم الى البرنس ارباط قائلاً « ها أنا انتصر لمحمد » ثم عرض عليه الاسلام فأبى فضربه بالسيف فحل كتافه وتم قتله من حضر ورميت جثته على باب الخيمة فلما رأى جفري ذلك وقع الرعب في قلبه . فكلمه السلطان وطيب خاطره وقال له « لم تجر العادة أن يقتل الملوك الملوك اما هذا فقد تجاوز الحد وتجرأ على الانبياء » وفي أثناء هذه الحروب التقى صلاح الدين بريكاردس قلب الاسد

وفي اليوم التالى نزل السلطان على طبرية فاستلم قلعتها ثم رحل طالباً عكا فبلغها يوم

الاربعاء غاية ربيع آخر . وفي اليوم التالي حاربها واخذها وأنقذ من كان فيها من اسارى المسلمين وكانوا اكثر من ٤٠٠٠ واستولى على ما فيها من الاموال . ثم فرق المسلطان صلاح الدين جيشه فرقاً في انحاء سوريا فاستولى على نابلس وحيفا وقيسارية وصفورية والناصرة . وسار هو يطلب تبنين فنزلها يوم الاحد ١١ جمادى الاولى وهي قلعة منيعة فحاصرها اسبوعاً ونصب عليها المنجنيق حتى فتحها عنوة ثم رحل عنها الى صيدا فنزل عليها وتسلمها في غد نزوله ثم سار الى بيروت وركب عليها المنجنيق وما زال حتى اخذها في يوم الخميس ٢٩ جمادى الآخرة وسارت سرية من رجاله الى جبيل من اعمال لبنان فاستلمها . ثم حول شكيمته فتوجه جنوباً قاصداً عسقلان فمر على مواضع كثيرة كالرملة والدارون فاستولى عليها فلما وصل عسقلان نصب عليها المنجنيق وقاتلها قتالا شديداً حتى تسلمها ثم بعث من رجاله من استلم غزة وبيت جبريل والبترون بغير قتال

« فتح بيت المقدس »

ولما تم لصلاح الدين الاستيلاء على البلاد المحيطة ببيت المقدس شمر عن ساعد الجد



شكل بيت المقدس واسواره لما حاصره صلاح الدين

في المسير اليه فجمع جنده وكانوا متفرقين في الساحل وسار بهم حتى أتى بيت المقدس يوم الاحد ١٥ رجب سنة ٥٨٣ هـ . وكان به البطريرك المعظم عندهم وهو اعظم شاناً من ملكهم . وبه أيضاً باليان بن بيرزان صاحب الرملة وكانت مرتبته عندهم تقارب مرتبة الملك وبه أيضاً من خلص من فرسانهم من حطين . وقد جمعوا وحشدوا واجتمع اهل تلك النواحي من عسقلان وغيرها فاجتمع به كثيراً من الخلق كلهم يرى الموت ايسر عليه من ان يملك المسلمون بيت المقدس ويأخذوه منهم ويرى ان بذل نفسه وماله واولاده بعض ما يجب عليه من حفظه . وحصنوه تلك الايام بما وجدوا اليه سبيلا . وصعدوا على سوره بحدهم وحديدهم مجمعين على حفظه والدفاع عنه بجهدهم وطاقتهم مظهرين العزم على المناضلة دونه بحسب استطاعتهم ونصبوا المنجنيق ليمنعوا الدنو منه والنزول عليه . ولما قرب صلاح الدين منه تقدم امير في جماعة من اصحابه غير محتاط ولا حذر فلقيه جمع من الصليبيين قد خرجوا من القدس فقاتلوه وقاتلهم فقتلوه وقتلوا جماعة ممن معه . فاهم المسلمين قتله وفجعوا بفقده وساروا حتى نزلوا على القدس في منتصف رجب فلما رأى المسلمون على سوره من الرجال ما هالهم وسمعوا لاهله من الغلبة والضجيج من وسط المدينة ما استدلوا به على كثرة الجمع. وبقي صلاح الدين خمسة ايام يطوف حول المدينة لينظر من اين يقاتلها لانها في غاية الحصانة والامتناع فلم يجد عليها موضع قتال الا من جهة الشمال نحو باب عمود او كنيسة صهيون فانتقل الى هذه الناحية في العشرين من رجب ونزلها ونصب تلك الليلة المنجنيقات فاصبح من الغد وقد فرغ من نصبها ورمى بها . ونصب الصليبيون على سور البلد منجنيقات ورموا بها وقوتلوا أشد قتال رآه أحد من الناس كل واحد من الفريقين يرى ذلك ديناً وحتماً واجباً فلا يحتاج فيه الى باعث سلطاني بل كانوا يمنعون ولا يمتنعون ويزجرون ولا يزدجرون . وكان خيالة الصليبيين كل يوم يخرجون الى ظاهر البلد يقاتلون ويبارزون فيقتل من الفريقين — وممن قتل من المسلمين الامير عز الدين عيسى بن مالك وهو من اكابر الامراء وكان أبوه صاحب قلعة جعبر وكان يصطلي القتال بنفسه كل يوم فقتل . وكان محبوباً الى الخاص والعام . فلما رأى المسلمون مصرعه عظم عليهم ذلك واخذ من قلوبهم فحملوا حملة رجل واحد . فازالوا الصليبيين عن مواقفهم فادخلوهم بلدهم ووصل المسلمون الى الخندق فجاوزوه والتصقوا الى السور فنقبوه وزحف الرماة يحمونهم والمنجنيقات توالى الرمي لتكشف الصليبيين عن الاسوار ليتمكن المسلمون من النقب . فلما نقبوه حشوه بما جرت به العادة فلما رأى الصليبيون شدة قتال المسلمين وتحكم المنجنيقات بالرمي المتدارك وتمكن النقابين من النقب وانهم قد أشرفوا على الهلاك

اجتمع مقدموهم يتشاورون فيما يأتون ويذرون. فاتفق رأيهم على الامان وتسليم بيت المقدس الى صلاح الدين فارسلوا جماعة من كبرائهم وأعيانهم في طلب الامان . فلما ذكروا ذلك للسلطان امتنع من اجابتهم وقال « لا افعل بكم الا كما فعلتم باهله حين ملكتموه سنة ٤٩٢ هـ من القتل والسبي وجزاء السيئة بمثلها » . فلما رجع الرسل خائبين محرومين ارسل باليان بن بيرزان وطلب الامان لنفسه ليحضر عند صلاح الدين في هذا الامر وتحريره . فاجيب الى ذلك وحضر عنده ورغب في الامان وسأل فيه فلم يجبه الى ذلك واستعطفه فلم يعطف عليه واسترحمه فلم يرحمه . فلما آيس من ذلك قال له ايها السلطان اعلم اننا في هذه المدينة في خلق كثير لا يعلمهم الا الله تعالى وانما يفترون عن القتال رجاء الامان ظناً منهم أنهم تجيبهم اليه كما أجبت غيرهم وهم يكرهون الموت ويرغبون في الحياة فاذا رأينا الموت لا بد منه فوالله لنقتلن ابناءنا ونساءنا ونحرق أموالنا وأمتعتنا ولا نترككم تغتنمون منا ديناراً واحداً ولا درهماً ولا تسبون وتأسرون رجلاً ولا امرأة واذا فرغنا من ذلك اخربنا الصخرة والمسجد الاقصى وغيرهما من المواضع ثم نقتل من عندنا من أسارى المسلمين وهم خمسة آلاف أسير ولا نترك لنا دابة ولا حيواناً الا قتلناه ثم خرجنا اليكم كلنا قاتلنا كم قتال من يريد ان يحمي دمه ونفسه وحينئذ لا يقتل الرجل حتى يقتل أمثاله ونموت اعزاء او نظفر كراماً »

« شروط التسليم »

فاستشار صلاح الدين اصحابه فأجمعوا على اجابتهم الى الامان وان لا يخرجوا ويحملوا على ركوب ما لا يدري عاقبة الامر فيه عن ان شيء تنجلي وقالوا « نحسب أنهم أسارى بايدينا فنبيعهم نفوسهم بما يستقر بيننا وبينهم » فاجاب صلاح الدين حينئذ الى بذل الامان للصليبيين فاستقر أن يؤخذ من الرجل عشرة دنانير يستوي فيه الغني والفقير وتزن الطفل من الذكور والبنات دينارين وتزن المرأة خمسة دنانير فمن أدى ذلك في أربعين يوماً فقد نجا ومن انقضت الاربعون يوماً عنه ولم يؤد ما عليه فقد صار مملوكاً . فبذل باليان ابن بيرزان عن الفقراء ثلاثين الف دينار فاجيب الى ذلك وسلمت المدينة يوم الجمعة السابع والعشرين من رجب ، وكان يوماً مشهوداً ورفعت الاعلام الاسلامية على أسوارها ورتب صلاح الدين على ابواب البلد في كل باب أميناً من الامراء ليأخذوا من أهله ما استقر عليهم .

فلما ملك البلد وفارقه الصليبيون امر صلاح الدين باعادة الابنية الى حالها القديم

فان الداوية بنوا في غربي الاقصى ابنية ليسكنوها وعملوا فيها ما يحتاجون اليه من هرى ومستراح وغير ذلك وادخلوا بعض الاقصى في ابنيتهم فاعيد الى حاله الاول . وامر بتطهير المسجد والصخرة من الاقذار والانجاس ففعل ذلك اجمع . ولما كانت الجمعة الاخرى رابع شعبان صلى المسلمون فيه الجمعة ومعهم صلاح الدين وصلى في قبة الصخرة وكان الخطيب والامام محي الدين ابن الزكي قاضي دمشق . ثم رتب فيه صلاح الدين خطيباً واماماً برسم الصلوات الخمس وامر ان يعمل له منبر فقيل له ان نور الدين محموداً كان قد عمل بحلب منبراً امر الصناع بالمبالغة في تحسينه واتقانه وقال « هذا قد عملناه لينصب بالبيت المقدس » فعمله النجارون في عدة سنين لم يعمل في الاسلام مثله فامر باحضاره فحمل من حلب ونصب بالقدس وكان بين عمل المنبر وحمله ما يزيد على عشرين سنة

ولما فرغ صلاح الدين من صلاة الجمعة تقدم بعمارة المسجد الاقصى واستنفاد الوسع في تحسينه وترصيفه وتدقيق نقوشه فاحضروا من الرخام الذي لا يوجد ومن الفص المذهب القسطنطيني وغير ذلك مما يحتاجون اليه وقد ادخر على طول السنين . فشرعوا في عمارته ومحوا ماكان في تلك الابنية من الصور . وكان الصليبيون فرشوا الرخام فوق الصخرة وغيبوها فامر بكشفها وكان سبب تغطيتها بالفرش ان القسيسين باعوا كثيراً منها للصليبيين الواردين اليهم من داخل البحر للزيارة فكانوا يشترونه بوزنه ذهباً رجاء بركتها وكان احدهم اذا دخل الى بلاده باليسير منها بنى له الكنيسة وجعله في مذبحها . فخاف ملوكهم ان تفنى فامر بها وفرش فوقها حفظاً لها . فلما كشفت نقل اليها صلاح الدين المصاحف والربعات ورتب القراء وأدر عليهم الوظائف الكثيرة

« تهاني الشعراء بالفتح »

وكانت ليلة المعراج وكان يوم فخر لجيش المسلمين فتقاطر الشعراء من سائر الانحاء لتهنئة السلطان صلاح الدين بما اتاه الله من الفتح ونظموا القصائد وقالوا الخطب على الجماهير وسالت اقلام الكتاب وفاضت قرائحهم فكنت ترى فيهم اما خطيباً يبشر ويحرض واما شاعراً يحمد الله ويمدح الفتح أو مؤرخاً يذكر الحادثة بما فيها من الفخر لجيش المسلمين وكان من جملة من كتب القاضي الفاضل صاحب السيرة الايوبية وعماد الدين الاصبهاني . وممن انشد في هذا الشأن عبد الرحمن بن بدر النابلسي فقال قصيدة منها :

هذا الذي كانت الايام تنتظر ... فليوف لله اقوامٌ بما نذروا
بمثل ذا الفتح لا والله ما حكيت ... في سالف الدهر اخبارٌ ولا سير

الآن قرت جنوب في مضاجعها ... ونام من لم يزل حلفاً له السهر
يا بهجة القدس اذ اضحى به علم ال ... اسلام من بعد طي وهو منتشر
يا مالك الارض مهدها فما أحد ... سواك من قائم للمهد ينتظر
ما اخضر هذا الطراز الساحلي ثمراً ... الا لتعلو به اعلامك الصُفر
اضحى بنو الاصفر الانكاس موعظة ... فيها لاعدائك الآيات والنذر
صاروا حديثاً وكانوا قبل حادثة ... على الورى يتقيها البدو والحضر
هذا الذي سلب الافرنج دولتهم ... وملكهم يا ملوك الارض فاعتبروا
ولا أصرّح باسماء البلاد فقد ... اسهبت والقائل المنطيق يختصر
يغنيك اجمال قولي عن مفصلة ... في لفظة البحر معنى تحته الدّرر

وهي طويلة تزيد على مائة بيت يمدح بها السلطان ويهنئه بالفتح

« ومن مآثره »

ولما صارت مصر الى الايوبيين وجلس على تختها يوسف صلاح الدين أبطل مذهب الشيعة من جميع الديار المصرية واقام بها مذهب الامام مالك والامام الشافعي واول مدرسة حدثت بديار مصر كانت بجوار الجامع العتيق بناها صلاح الدين سنة ٥٦٦ هـ . وعرفت بالمدرسة الناصرية وكانت للشافعية وبنى في السنة المذكورة المدرسة القمحية بقرب الناصرية للمالكية وبنى أيضاً المدرسة السيوفية للشافعية وحذا حذو صلاح الدين خلفاؤه من الايوبيين حتى كانت عدة المدارس بعد زوال ملكهم خمساً وعشرين مدرسة منها الخاصة للشافعية سبعة والمالكية ستة واربعة للحنفية وواحدة للحنابلة وتارة كان يدرس بالمدرسة مذهبان فكان للشافعية والمالكية معاً اربعة مدارس ومثلها للشافعية والحنفية ولما تولى الملك من بعدهم مماليكهم ساروا على سير ساداتهم وحذا حذوهم امراؤهم واصحاب الاموال من الرجال والنساء حتى كمل عدد المدارس الى آخر حياة المقريزي خمساً واربعين مدرسة في نحو ماية وثمانين سنة وصار في القاهرة سبعون مدرسة يدرس بها المذاهب الاربعة وبعضها كان مختصاً بالصوفية وكان يتأنق في بناء تلك المدارس وزينتها وزخرفتها وترخيمها وتعمل لها الشبابيك من النحاس المكفت بالذهب والفضة وتصفح ابوابها بالنحاس المكفت ويجعل فيها خزانة بها عدة من المصاحف والكتب في الحديث والفقه وغيرهما من انواع العلوم وكان يتأنق في عظم المصاحف وكتابتها فمنها ما كان طوله اربعة اشبار الى خمسة وعرضه قريب من ذلك ولها جلود في غاية الحسن معمولة

في اكياس الحرير الاطلس وكانت العادة عند انتهاء المدرسة أن يدعو صاحبها القضاة والاعيان وغيرهم من الامراء ويعد لهم سماطاً جليلة وتملأ البركة التي بوسط المدرسة ماء قد اذيب فيه سكر مزج بماء الليمون ويسقى منه الحاضر

« وفاة صلاح الدين ومناقبه »

على ان المنية مع عجزها عن مهاجمة هذا الباسل في ساحة الحرب لم تخف مهاجمة على فراشه وبين اولاده واخوانه . ففي يوم الجمعة ١٥ صفر ركب السلطان لملاقاة الحج فعاد الى منزله كسلا ثم غشيته حمى صفراوية . ثم اصبح في اليوم التالي اكثر كسلاً وضعفاً وما زال المرض يتزايد يوماً فيوماً الى ان توفاه الله بعد صلاة الصبح من يوم الاربعاء ٢٧ صفر سنة ٥٨٩ ﻫ وكان يوم موته يوماً لم يصب الاسلام بمثله منذ فقد الخلفاء الراشدين وغشى القلعة والملك وحشة عظيمة وكان الناس يتمنون فداه من يعز عليهم بنفوسهم . وكان عمره عند وفاته ٦٧ سنة ومدة حكمه ٢٤ سنة في مصر و١٩ سنة مع سوريا . فحضر الجميع وشيعوا جنازته ودفنوه في الدار التي كان متمرضاً فيها وكانت بينهم شقيقة الفقيد المدعوة ست الشام وفرقت في الناس الصدقات العظيمة من جيبها الخاص لانه لم يترك في خزينته الخصوصية الا ديناراً واحداً و٤٧ درهماً من الفضة . ولم يجدوا في جميع صناديقه اثراً للذهب أو لغيره من الحجارة الكريمة وذلك مما يدل على فرط كرمه لانه اصاب اموالاً كثيرة جاد بها على آله وذويه

***

في سنة ١٣٣٠ ﻫ الموافق ١٩١٢ ميلادية انعقد في « الاوبرة الخديوية » حفلة لاعانة منكوبي حادثة بيروت بمدافع الايطالية وهذه الحفلة تحت رياسة صاحب الدولة الامير محمد علي باشا شقيق الجناب العالي الخديو الاعظم عباس حلمي الثاني ادام الله اجلاله وكان الحقير موجود في هذه الحفلة الخيرية والقى حضرة شاعر العرب النابغة عبد الحليم افندي حلمي قصيدة غراء في دار التمثيل العربي فيما جرى بين صلاح الدين والملك (شارل) من الحرب التي سبق الكلام عليها نذكرها . وها هي :

هو السيف حتى يعرف الله جاهله ... ويعزز جيش الله في الحرب عاذله
وما الجيش الا أنفس ملؤها اللظى ... وما السيف الا منتضيه وكافله
سلام « صلاح الدين » والجيش مائج ... وعزمك مجريه وسيفك ساحله
رميت به في جفن كل تنوقة ... فما راقدت حتى اطمأنت رواحله

ومزّقت أثواب الظلام عن الضحى ... ليبصر فيه رونق السيف صاقله
كتائب تأمتها الحروب فلم ترح ... لها مقرباً حتى تحلى عواطله (١)
بنتها يد الله الذي لا بناؤه ... مهدمة أسواره ومعاقله
سريت بها في كل فج كأنما ... يعد لك الاسباب ما أنت آمله
صدعت حيازيم الزمان بجدها ... فدانت لها أقياله وعباهله
وعدت وطيف النصر في جلية الظبي ... يغازلها تحت الدجى وتغازله
فبيضت وجهاً خضب الدم حسنه ... وخضبت رأساً شيب الشعر باسله
كتبت تواريخ الفتوحات بالظبي ... على كل حصن لم تطعك مداخله
وقائع في أذن الزمان دويها ... كم ارتعدت من هولهن مفاصله
لها سمر كالمسك ملء فم الدجى ... يعطر أنفاس امرئ هو ناقله
أتيت أرض الشرق بعدك غازياً ... اذا قال هاب الغرب ما هو قائله
فلو كنت في أيامك الغر شاعراً ... لنلت من الايام ما أنا سائله
ولو عجمت مني صفوفك فارساً ... لدمرت جيشاً كنت قبلي تنازله
ولو قيل من يحمي اللواء لربه ... فها أنا حاميه وها أنا حامله
أما انّ هذا الفتح مجد مؤثل ... أواخره ميمونة وأوائله
سلوا قلب ذاك الليث(٢) كم هدّ ركنه ... وكم أظلمت عن جانبيه وسائله
وكم بات صوب القدس حيران طرفه ... عزيزٌ على آماله ما تحاوله
به زورة لا يشفع الدمع عندها ... ولا تعصم الانسان فيها موائله
يزور بعينيه المنازل في الضحى ... بعيداً قريباً ما تزارُ منازله
يسير بنفس المستميت الى الردى ... وتأبى عليه ان تسير قوافله
يصاح به لا تخط بالجيش خطوة ... فجيش صلاح لا محالة خاذله
نبا بك «ياريشارد» ظنك في الوغى ... وظن الفتى في الحرب والسلم قاتله
فلا تأب تلك الكاس انّ مذاقها ... شفاء وكم يشفيك ما أنت جاهله
وهل أنت أعجزت الطبيب محارباً ... فترديك في ظلّ السلام أنامله
لعارٌ على العرب الاباة وسبة ... لهم ختلة المضنى اذا ناء كاهله
سيشفيك اخلاص الطبيب لتنبري ... اليه فان تسقم شفتك ذوابله
عزيز عليها من طوته سيوفه ... ذليل عليها من طوته حمائله

(١) تامتها أي تيمتها والمقرب الجود (٢) هو ريكاردوس الملقب بقلب الاسد

ومن يَبتني الآمال في المهد نالها ورنت على معراجهنّ خلاخله
ومن بات يرمي للاماني حبائلا تزم على تلك الاماني حبائله
لك الله يا ذكرى صلاح فانني لا بكي اذا جالت بنفسي شمائله
صلاح اسمع ان الهلال لصائح يقول ألا صافني فهل أنت واصله
على (علم) شابت حواشيه في الوغى وأوساطه مخضوبة ما تماثله
ملائكة الرحمن في السلم جنده وفي الحرب آساد المرامي صوائله
فان كنت الهلال فلا تخف عليه فهذي سوقه ومحافله
سرت في دماء من بنيك حمية فسلوا حساما في يديك حمائله
وماتوا يشيدون الذي سامه البلى ويبنون ما غاته منهم غوائله

وترك صلاح الدين من الاولاد ١٧ ذكوراً . وأنثى واحدة اسمها مؤنسة خاتون تزوجت ابن عمها ناصر الدين محمد بن يوسف الدين الذي لقب بعدئذ بالملك الكامل فلما توفى صلاح الدين اقتسم اولاده واخوته واولادهم مملكته فيما بينهم غير ان الحصص لم تكن متساوية لان ثلاثة من اولاده أخذوا اكبرها واقتنع الباقون بمقاطعات صغيرة . وتم كل ذلك بموافقة الامراء فتلقب اول اولاد صلاح الدين المدعو نور الدين بالملك الإفضل وكان من نصيبه مملكة دمشق والشطوط البحرية واورشليم والبصرة وبانياس وسوريا الغربية . ولقب ابو الفتح غازي بالملك الظاهر غياث الدين فأخذ حلب وجميع سوريا الشرقية ومن ضمنها حران وتل باسر وعيراز ومنبج . ولقب عماد الدين عثمان بالملك العزيز وتولى مصر

ومن هؤلاء الامراء الثلاثة تكونت ثلاث دول مختلفة هي الدولة الايوبية الحلبية والدمشقية والمصرية . أما ما بقى من تلك العائلة فكانوا ولاة على بلاد اقطعهم اياها صلاح الدين الا انهم تحت سلطة هؤلاء الثلاثة . فسيف الدين ابو بكر الملقب بالملك العادل بن ايوب واخو صلاح الدين كان حاكما في الكرك والشوبك . وناصر الدين محمد الملقب بالملك المنصور بن تقى الدين عمر بن شاهين شاه احد اخوي صلاح الدين كان اميراً على حماه والسلامية ومارا . وبهرام شاه الملقب بالملك الامجد حفيد شاهنشاه ايضاً كان ملقباً بملك الرها . وشمس الدولة طوران شاه بن ايوب الذي كان قد فتح اليمن بامر ابيه سنة ٥٦٩ هـ كان قد اقام فيها مماسكة . وكان اخوه توغتغن حاكما فيها تحت اسم الملك المعز

« سلطنة الملك العزيز بن يوسف »

وبعد ان قسمت الدولة الايوبية على ما تقدم عرف كل منهم نصيبه . وبعد يسير

نهض اعداء صلاح الدين وكانوا ينتظرون فرصة للانتقام منه لقهره اياهم . فلما لم يستطيعوا ذلك في حياته قاموا على خلفائه واجمعوا على محاربتهم . فاتحد الايوبيون في بادىء الرأي دفعاً لمناهضيهم ثم تفرقت كلمتهم لما قام بينهم من التحاسد انقياداً للمطامع واصغاء لذوى المفاسد فاصبحوا بما بينهم في شاغل عن دفع مهاجميهم

ففي سنة ٥٩٢ هـ . رأى الملك العادل صاحب الكرك والشوبك ان حصته قليلة ومنصبه حقير بالنسبة لغيره من الاسرة الايوبية فتواطأ مع الملك العزيز عثمان سلطان مصر على خلع الملك الافضل نور الدين علي عن دمشق وتولية احدهما الملك العادل عليها وفعلا ذلك بسهولة . ففرّ الملك الافضل من دمشق الى بغداد ملتجئاً الى الخليفة الناصر لدين الله العباسي

وسبب موت الملك العزيز انه توجه الى الفيوم فساق فرسه وراء صيد فتقنطر به فاصابته الحمى فحمل الى القاهرة فتوفى في الساعة الرابعة من ليلة الاحد سنة ٥٩٥ هـ

« سلطنة الملك المنصور بن العزيز »

وخلف العزيز ابنه ناصر الدين محمد وعمره ٨ سنوات فلقبوه بالملك المنصور ثم استقدموا عمه الملك الافضل من سوريا ليكون وصياً على ملكهم الجديد . فقبل وجاء القاهرة ونودى به اتابكا اي وصياً على ابن اخيه الا انه لم يتمتع بهذا المنصب لان عمه الملك العادل قدم بجيش جرار الى القاهرة وبين حقوقه بالتوصية بناء على انه جد الصبي الحاكم وعمّ وصيه . فحاول الافضل مقاومة فلم ينجح . فحاصره في قصره في القاهرة ثم فرّ راجعاً الى حكومته في دمشق مكتفياً بما قسم له

« سلطنة الملك العادل بن ايوب »

ولما خلا الجو للملك العادل خلع الملك المنصور في شوال سنة ٥٩٦ هـ بعد ان حكم ٢١ شهراً . وتولى سلطنة مصر وسوريا بنفسه وخلع الملك الافضل عن دمشق وما زال حتى جعل جميع من بقى من الحكام الايوبيين في الامارات الصغيرة خاضعين لسلطانه وفي جملتهم ابن اخيه الظاهر ملك حلب فعادت مملكة صلاح الدين بعد ان انقسمت حصصاً الى مملكة واحدة تحت سلطان واحد

« عود الصليبيين الى الحرب »

وفي سنة ٥٩٨ هـ ارسل الملك العادل ابنه ابا الفتح موسى الملقب بالملك الاشرف

مظفر الدين الى الرها فتملكها ثم اضيفت اليه حران وكان الاشرف رجلا محبوباً من الناس مسعوداً مؤيداً في الحروب . وفي سنة ٦٠٠ هـ حصلت بينــه وبين نور الدين ارسلان شاه صاحب الموصل موقعة حربية عظيمة وكان النصر له

وكان الصليبيون عند انقسام الدولة الايوبية قد اغتنموا الفرصة لاعادة سلطتهم فاكثروا من الجند وجاهروا بطلب الفتح فسار اليهم العادل وعسكر على جبل طابور امامهم . وكانوا قد استمدوا اوربا على امل ان تأتيهم الامدادات واملاك المسلمين منقسمة وكلمتهم متفرقة فيسهل قهرهم لكنها لم تصل اليهم الا بعد ان اتحد المسلمون واصبحت بلادهم مملكة واحدة تحت سلطان واحد هو السلطان الملك العادل سيف الدين فحاربهم فعادوا على اعقابهم وقد حبط مسعاهم فتعقبهم نحواً من شهر فجاءه مخبر يخبره بحصول زلزلة عظيمة في مصر شعر بها اهل سوريا وقبرص واسيا الصغرى حتى العراق ومابين النهرين. وهذه الزلزلة هي التي هدمت اسوارصورسنة ٦٠٠ هـ . وكانت تهدد مصر زلزلة اخرى سياسية وهي عمارة صليبية عظيمة احتلت سواحلها واخترقتها حتى بلغت فوة على فرع رشيد فاستولت عليها بعد ان نهبتها وذبحت اهلها فاضطرب العادل لهذين الخبرين فاسرع لملافاة الامر فتخابر مع قواد الصليبيين وعقدوا معاهدة تقضي بانسحابهم من مصر على ان يتنازل لهم بمقابلة ذلك عن يافا ويسحب من كان في اللد والرملة من المسلمين

فاجلى الصليبيون من مصر لكنهم لم ينفكوا عن المحاربة في سوريا وهم لم يقبلوا بتلك المعاهدة الا ليشغلوا السلطان العادل في مصر ويسيروا الى فتح حماه والاستيلاء على ما بطريقهم اليها . فاتصل ذلك بالسلطان العادل فبرح مصر في جيش للمدافعة عن حماه فحصلت بينه وبينهم مواقع كثيرة وبينما هم في ذلك جاء الخبر بقدوم المدد الى الصليبيين وهي الحملة العظيمة التي ارسلها (البابا) وحطت رحالها عند عكا وغيرهــا فهرع الملك العادل الى نابلس ليقيم فيها حصناً فطردوه منها فرجع الى برج الصفر . فقطع الصليبيون المخابرات مع مصر حتى جؤا على نهاية الحروب الصليبية في سوريا فحولوا اعنتها الى مصر

فجاؤا اليها بحراً وحصروا دمياط في يوم الثلاثاء في ٤ ربيع اول سنة ٦١٥ هـ . وهم نحو ٧٠ الف فارس و٤٠٠ الف راجل فخيموا تجاه دمياط في البر الغربي وحفروا على معسكرهم خندقاً واقاموا عليه سوراً وشرعوا في قتال برج دمياط فانه كان برجاً منيعاً في سلاسل من حديد غلاظ تمتد على النيل لتمنع المراكب الواصلة في البحر المالح

من الدخول الى ديار مصر في النيل . وكان البر الذي نزل عليه الصليبيون جزيرة محاطة بالنيل من جهة وبالبحر المالح من الاخرى يقال لها جزيرة دمياط وكان المسلمون في مدينة دمياط محاصرين حصاراً منيعاً من البحر والبر والسلسلة ممتدة بين البرج والسور فحاول الصليبيون امتلاك ذلك البرج لانهم اذا ملكوه تمكنوا من العبور في النيل الى القاهرة وكان هذا البرج مشحوناً بالمقاتلين تأتي اليه المؤن من دمياط على جسر خشبي منصوب في عرض النيل وبعد مدة انكسر ذلك الجسر فاغتنم الصليبيون تلك الفرصة واصطنعوا برجاً خشبياً نصبوه على مركبين موسوقين قيوداً وانزلوا اليه أقوى رجالهم واحسن عدتهم وصاروا في النيل لمهاجمة برج المسلمين . فلما رأى المسلمون ذلك تجمهروا من البرج والسور واخذوا يرمي السهام والحراب والحجارة والمنجنيق على برج الصليبيين فلعبت النار به نخاف الذين فيه ثم انطفأت حالاً وتشدد الصليبيون حتى استولوا على برج المسلمين وطمعوا بالاستيلاء على دمياط

فبلغ قدوم الصليبيين الملك الكامل وكان يخلف اباه الملك العادل على ديار مصر فخرج بمن معه في ثالث يوم من وقوع الطائر بخبر نزول الصليبيين وامر والي الغربية بجمع العربان وسار هو في جمع كبير بمن معه من العساكر بمنزلة العادلية قرب دمياط وامتدت عساكره الى دمياط لتمنع الصليبيين من السور والقتال مستمر اربعة اشهر والعادل يسير العساكر من البلاد الشامية شيئاً بعد شيء حتى تكاملت عنده واشتد خوفه من نزول الصليبيين على دمياط فرحل من مرج الصفر الى عالقين فنزل به المرض ومات في جمادى الاخرة فكتم الملك المعظم عيسى موته وحمله في محفة وجعل عنده خادماً وطبيباً راكباً الى جانب المحفة والشرابدار يصلح الشراب ويحمله الى الخادم فيشربه ويوهم الناس ان السلطان شربه الى ان دخلوا به الى قلعة دمشق وصارت اليها الخزائن والبيوتات فاعلن موته وتسلم ابنه الملك المعظم جميع ما كان معه ودفنه بالقلعة ثم نقله الى مدرسة العادلية بدمشق

« سلطنة الملك الكامل بن العادل »

وبلغ الملك الكامل موت ابيه وهو بمنزلة العادلية فاستلم زمام الاحكام اما الصليبيون فألحوا في القتال ولا سيما عندما علموا بموت الملك العادل وقطعوا السلاسل التي كانت تتصل بالبرج لتجوز مراكبهم في بحر النيل ويتمكنوا من البلاد . فنصب الملك الكامل بدل السلاسل جسراً عظيماً في عرض النيل فقاتل الصليبيون قتالاً شديداً الى ان

قطعوه وكان قد انفق عليه وعلى البرج ما ينيف على سبعين الف دينار

وفي يوم الثلاثا ٢٥ شعبان سنة ٦١٦ هـ هجم الصليبيون على دمياط فاستولوا عليها وكانت مدة الحصار جميعها ١٦ شهراً و٢٢ يوماً . فدخلوها واحكموا السيف فيمن بقي فيها من الاحياء الى ان تجاوزوا الحد في القتل وكانت الابخرة الفاسدة تتصاعد عن جثث الموتى ما يلحق الاحياء بهم . وكانت تلك الجثث متراكمة في الاسواق والبيوت وعلى الاسرة فكان يموت الابن جوعاً وليس من يسعى في دفنه فيبقى في مكانه فيلحقه الاخ ثم الام ثم الاب وهكذا

واتصل ذلك بالسلطان الملك الكامل فرحل بعد سقوط دمياط بيومين ونزل قبالة طلخا على رأس بحر اشموم ورأس بحر دمياط ليمنع الصليبيين من المسير الى داخلية القطر بحراً وحيز في محلة المنزلة واقام معسكره هناك

واما الصليبيون فتركوا امتعتهم ومؤنهم في دمياط بعد ان اقاموا فيها حامية وساروا الى ان وصلوا تجاه المنصورة في ما هو امام سراي المنصورة الآن وعسكروا هناك وكان عدد الصليبيين اذ ذاك نحو مائتي الف رجل وعشرة الاف فارس . فقدم المسلمون شوانيهم امام المنصورة وعدتها مائة قطعة . فاصبح المسلمون في ضيق . فامر الملك الكامل ان ينادى بالمسلمين للجهاد من سائر انحاء القطر فاجتمع الناس من سائر النواحي من اصوان الى القاهرة . ونودي بالنفير العام ايضاً فيما بين القاهرة الى آخر الحوف الشرقي فاجتمع عالم لا يقع عليه حصر . وانزل السلطان على ناحية شارمساح الف فارس في آلاف من العربان ليحولوا بين الافرنج ودمياط وسارت الشواني ومعها حراقة كبيرة على رأس بحر المحلة وعليها الامير بدر الدين بن حسون فانقطعت الميرة عن الافرنج من البر والبحر

وفي اثناء ذلك اتت النجدات للملك الكامل من الشام والشرق يتقدمها الملك الاشرف موسى بن العادل وعلى ساقتها الملك المعظم عيسى . فتلقاهم الملك الكامل وانزلهم عنده بالمنصورة في ١٣ جمادى الاخرة . وتتابع مجيء الملوك حتى بلغت عدة جيوش المسلمين نحو اربعين الف فارس فحاربوا الصليبيين في البحر والبر واخذوا منهم ست شوان واسروا منهم الفين ونيفاً . فتضعضع الافرنج وضاق بهم المقام فخابرهم الملك الكامل بامر الصلح ليخرجهم من بلاده فعرض عليهم ان يعطيهم بيت المقدس وعسقلان وطبرية وجبلة واللاذقية وسائر الاماكن التي فتحها السلطان صلاح الدين الا الشوبك والكرك لانهما اصبحتا ملكاً خاصاً له نالهما بالارث بن السلطان صلاح الدين وطلب

اليهم في مقابل ذلك ان يردوا له دمياط وينسحبوا من القطر المصري

فاصرّ الصليبيون على طلب تينك المدينتين ومبلغ ٣٠٠ الف دينار تعويضاً لما سببه الملك المعظم عيسى صاحب دمشق بهدم اسوار بيت المقدس فامتنع المسلمون عن التسليم لهم بذلك . ثم بعثوا سرية من رجالهم لتسير سرّاً من وراء معسكر الصليبيين وتخرق سد ترعة المحلة وكان النيل في معظم ارتفاعه فطافت مياه الترعة حتى اغرقت جميع الارضين التي تفصل جيش الصليبيين من دمياط فاصبحوا على مثل الجزيرة وقد حال الماء بينهم وبين نجدة اصحابهم فخافوا سوء المصير وباتوا يشكون من قلة الطعام وكثرة المياه . ولم يكن باقياً بينهم وبين دمياط الا طريق ضيق فامر السلطان بنصب الجسور عند اشمون طناح فعبرت العساكر عليها وملكت تلك الطريق فاضطرب الصليبيون وضاقت عليهم الارض

واتفق مجيء مرمة عظيمة مدداً للصليبيين حولها عدة حراقات وقد ملئت كلها بالميرة والاساحة فقاتلها شواني المسلمين حتى ظفروا بها . فاتصل ذلك بالافرنج فزاد خوفهم وندموا على رفضهم المعاهدة كما طلبت اليهم . فطلبوا الامان على ان ينسحبوا من القطر المصري جميعه ولا يطالبوا لذلك مقابلا فقبل السلطان الكامل في ٧ رجب سنة ٦١٨ هـ بان يعطي كل من الفريقين رهائن فاعطى الصليبيون ملك عكا ونائب البابا رهناً واعطى الملك الكامل ابنه الملك الصالح وكان عمره ١٥ سنة وجماعة من الامراء فسار الصليبيون الى دمياط وسلموها الى المسلمين في ١٩ رجب بعد ان كانوا قد اجهدوا انفسهم في تحصينها وخرجوا من القطر . وبعد خروجهم بقليل جاءت نجدة عظيمة في البحر الى الصليبيين فشكر المسلمون الله لتأخرها الى ذلك الحين . ولما بلغ الصليبيون مكانهم ارسلوا الملك الصالح ومن معه الى ابيه فارسل لهم رهنهم وتفرق الناس الى بلادهم ودخل الملك الكامل دمياط باخوته وعساكره وكان ليوم دخوله اليها احتفال عظيم

ولما استتب للملك الكامل المقام على سلطنة مصر اخرج زعماء الثورة منها وطهر البلاد منهم حتى لم يعد لديه من ينازعه في الملك . ثم عمد الى الصليبيين مغتنما فرصة ضعفهم وعقد معهم معاهدة على كيفية تمكنه من الاغتيال باخويه الذين لولاهما لم تقم له قائمة في مصر فاغرى الامبراطور فريدريك ملك الصليبيين على الاغتيال باخيه الملك المعظم واستخراج دمشق من يده فقدم هذا الامبراطور الى عكا فاتصل به خبر وفاة الملك المعظم سلطان دمشق وتنصب ابنه الملك الناصر صلاح الدين داود مكانه

فاستبشر الملك الكامل ووضع يده على الشوبك وبيت المقدس وغيرهما مما هو من مملكة دمشق فشق ذلك على الملك الناصر فاستنجد عمه الاشرف وكان متسلطاً على بلاد المشرق وما بين النهرين فجاءه حالا في جيش كبير ولكن بدلا من ان يدافع عنه ضد الملك الكامل جاء بعكس الامر

اما فريدريك فسار توًّا من عكا لافتتاح مملكة دمشق ففتح اولا صور وسار فالتقى بالملك الاشرف فتخاصما على الفريسة تخاصما انتهي بموت الملك الاشرف . فخلا الجو للملك الكامل واصبح الوارث لكلا الملكين فاتى سوريا لهذه الغاية فوصل دمشق ومات فيها في رجب سنة ٦٣٥ هـ ودفن في قلعتها

« سلطنة الملك العادل بن الكامل »

ولما علم المصريون بوفاة الملك الكامل بايعوا ابنه سيف الدين ابا بكر الملقب بالملك العادل (الثاني) وكان قد استخلفه ابوه على مصر عند ما سار الى سوريا . واقاموا الامير يونس الملقب بالملك الجواد اميراً على سوريا تابعاً لمملكة مصر الا ان امارته هذه لم تطل لانه اتفق في السنة التالية مع الملك الصالح نجم الدين ايوب شقيق سلطان مصر وكان اميراً على ما بين النهرين على ان يتبادلا الامارات . فأتى الملك الصالح الى سوريا وسار الامير يونس الى ما بين النهرين وكان غرض الملك الصالح من هذه المبادلة الاقتراب من مصر والسعي في اختلاس الملك من اخيه فتنبأ الملك العادل بذلك واوجس خيفة فسار بجيوشه الى بلبيس ليوقف سير اخيه اذا حاول المجيء الى مصر . فلما وصل بلبيس نزل فيها وما اصبح الا وهو في قبضة امرائه مقيداً وذلك يوم الجمعة في ٨ ذي الحجة سنة ٦٣٧هـ وفي الحال خلعوه واستقدموا اخاه الملك الصالح وبايعوه على مصر فدخل القاهرة في موكب حافل واصوات الترحاب والدعاء مالئة الجو فانتهت سلطنة الملك العادل الثاني وكانت مدتها سنتين

« سلطنة الملك الصالح بن الكامل »

ولما استوى الملك الصالح على سلطنة مصر اخذ في تمكين قدمه فيها فأمر في السنة التالية بالقبض على الامراء والمماليك الذين ساعدوه على خلع أخيه وبايعوه مكانه وقتلهم جميعاً وولى مكانهم من اختبر امانتهم نحوه

وفي ٢٤ صفر سنة ٦٤٧ هـ عسكر في المنصورة وحصنها الا انه لم يعش بعد ذلك

كثيراً فتوفاه الله في ١٤ شعبان وعمره أربعون سنة . ولم يكن له من البنين الاّ غياث الدين طوران شاه وكان قد تركه في سوريا

وكان من جملة جواري الملك الصالح جارية تدعى شجرة الدر مربية غياث الدين فتواطأت مع الامير فخر الدين ورئيس الخصيان جمال الدين محسن على مبايعة ابنها وكانت عارفة بأمور الحكومة وسياستها . ويقال ان الملك الصالح كثيراً ما عهد اليها دارة الاحكام في اثناء غيابه عنها في حملاته الحربية . فلما توفى الملك الصالح كتمت أمر موته ووقفت في جمهور الامراء والاعيان قائلة « ان السلطان يأمركم ان تبايعوا بعده ابنه الملك المعظم غياث الدين طوران شاه وقد عين الامير فخر الدين اتابكا لادارة الاحكام » فبايع جميع الامراء . ثم أرسلت هذه الاوامر الى القاهرة فبايع جميع من فيها من القواد واعيان السلطنة وبعثت بالرسائل في ذلك مختومة بختم السلطان الملك الصالح الى جميع انحاء المملكة وكان الجميع يظنون ان الملك الصالح لا يزال حياً لكنهم عند ما علموا باستقدام الملك المعظم بسرعة الى القاهرة داخلهم الريب

اما الصليبيون فكانوا في خلال ذلك قد تقدموا قاصدين المنصورة وحاربوا في أثناء الطريق محاربات طفيفة ولما بلغوا المنصورة حاربوها محاربة قوية وكان الجيش الاسلامي تحت قيادة الامير فخر الدين فحارب ببسالة كلية . كل ذلك وبين الجيشين بحر اشمون ولم يستطع الصليبيون العبور الى المنصورة ولم يكونوا يعلمون طريقاً اليها غير النيل فأتى أليهم بعض من غدروا من المسلمين واخبروهم عن طريق يمكنهم سلكها بسهولة فسارت سرية من فرسانهم وهاجمت المنصورة بغتة . وكان الامير فخر الدين في الحمام فاتته الاخبار بهجوم الصليبيين على المحلة فبغت ونادى في رجاله وخرج للدفاع فادركه بعضهم فقتله وكادت الدائرة تدور على المسلمين لولا مماليك الصالح فانهم دافعوا دفاعاً شديداً وانتهت الواقعة وقد اعيا الفريقين التعب ولم يكن احدهما يجسر على تجديد القتال لعظم ما قاسيا من الخسائر . وفي اثناء ذلك وصل الملك المعظم الى المنصورة قادماً من سوريا فاشتد عزم المسلمين به وهاجموا النصارى في البر والبحر فاسروا منهم ٣٢ مركباً فلما رأى الصليبيون ما كان من ضعفهم طلبوا المصالحة على ان يأخذوا بيت المقدس وضواحيه وينسحبوا من مصر بعد اخلاء دمياط . فلم يقبل المصريون فاقاموا في المنصورة حتى نفد زادهم وقد انقطعت السابلة بينهم وبين دمياط وفي ٢ محرم سنة ٦٤٨ﻫ عزموا على التقهقر فتعقبهم المصريون حتى ادركوهم غربي فرسكور فاستلحموهم واثخنوا في قتلهم . ويقال انهم قتلوا منهم ٣٠ الفاً واسروا الملك لويس التاسع وكثيراً من

ضباطه وكبار جيشه وكانوا قبل ان قبض عليهم قد فروا الى منية ابي عبد الله فاسروهم هناك

« سلطنة الملك المعظم بن الصالح »

فلما تأكد الفوز للمصريين شهروا وفاة الملك الصالح ومبايعة الملك المعظم طوران شاه فاقام الملك المذكور في فرسكور احتفالاً لمبايعته وانتصاره معاً . ثم عزل كل من كان في يده ازمة الحكومة من المصريين وولى مكانهم رجالا ممن جاؤا معه من بين النهرين لانه كان اشد ثقة فيهم فشغب الناس وتحدثوا في ذلك كثيراً . وفي غاية محرم ثار عليه المماليك وهموا بقتله وفي جملتهم مملوك يدعى بيبرس . ففرّ الملك المعظم والتجأ الى برج من الخشب كان قد اقامه للحصار في فرسكور . فاحرقوا البرج فالقى بنفسه الى النيل لعله يجد قارباً يركبه فينجو بحياته . فادركه المماليك وقطعوه ارباً ارباً . وهكذا كانت نهاية الحملة الصليبية السابعة وموت السلطان الملك المعظم غياث الدين طوران شاه وهو آخر من ملك من الاسرة الايوبية وبموته انقضت دولتهم وقامت دولة المماليك الاولى

دولة المماليك الاولى

« منشأ المماليك ومبدأ أمرهم في السلطنة »

قد تقدم الكلام عن اصل استخدام المماليك الاتراك في الدولة في ايام المعتصم عند كلامنا عن مبدا الدولة الطولونية . اما السلاطين المماليك فلهم تاريخ آخر في منشأهم وذلك انهم من قفجاق من شمالي آسيا . وكانت من المستعمرات الاسلامية فكانوا يجعلون عليها ولاة من امراء السلاف الذين كانوا من حكام روسيا . فلما غزا المغوليون تلك الاصقاع تحت قيادة باتوخان حفيد جنكيزخان اخرجوا منها سكان الولايات القزوينية والقوقاسية فتشتت قبائلهم وتفرقوا في القارة . فالخوارزميون نزلوا اعالي سوريا وما بين النهرين وحطوا رحالهم هناك . اما من بقي من تلك القبائل التائهة فلم يجدوا لهم مقراً يقيمون فيه . فجعلوا يطوفون البلاد باولادهم ونسائهم لا يستقرون على حال وكانت تجارة الرقيق في ابانها فاغتنم تجارها فرصة ثمينة وجعلوا ينتقون من ابناء اولئك المساكين اجملهم صورة واقواهم بنية وانورهم عقلاً ويبيعونهم بيع السلع . اما الضعفاء وقبيحو الصورة فكانوا يذبحونهم . فاكثر امراء سوريا وملوكها من اقتناء اولئك الارقاء البيض ودعوهم بالمماليك

فالملك الصالح من سلاطين الدولة الايوبية كان قد ابتاع منهم نحو الالف حتى جعل منهم امراء دولته وخاصة بطانته والمحيطين بدهليزه . ودعاهم بالحلقة اشارة الى انه لا يبرح محاطاً بهم كيفما توجه كما فعل الخليفة المعتصم العباسي بالاستكثار من المماليك الاتراك

وكانت سطوة المماليك البحرية تنتشر يوماً فيوماً الى انهم طمعوا بخلع السلطان وتولى الملك مكانه . فلما تولى الملك المعظم آخر سلاطين بني ايوب وكان على ما كان عليه من الاستبداد انفت نفوسهم من أعماله فسعوا بما سعوا الى ان قتلوه على ما تقدم وكان الملك لويس التاسع والذين معه لا يزالون اسرى في برج الخشب الذي التجأ اليه الملك المعظم قبل قتله . ولما لعبت النار بالبرج فرّ الملك لويس ومن معه ومروا بين المصريين وهم يقتلون ملكهم ثم نزلوا على مراكب كانت في انتظارهم واقلعوا بعد ان شاهدوا مقتل الملك المعظم . ثم جاءهم رجل من المصريين يدعى الفارس اقطاي حاملا قلب الملك المعظم واعطاه للملك لويس وطلب اليه ان يكافئه على قتل عدوه . وقال بعض المؤرخين ولا أراه في مكان الثقة ان الامراء المصريين بعد قتلهم ملكهم طلبوا الى لويس المذكور ان يتولى زمام الاحكام مكانه فرفض

« سلطنة شجرة الدر »

فلما قتل الملك المعظم اختلفت الاحزاب على من يبايعون بعده وكل فئة منهم تحاول استبقاء الحكم في يدها . وعلا الخصام حتى كاد يفضي الى الحرب فتداركت الامر شجرة الدر بعد ان رأت ما حل بالملك المعظم وتبصرت في امر من يجب ان يخلفه فرأت حزب المماليك اعز جانباً من الجميع . ونظراً لكونها من ابناء جلدتهم وافقتهم على رأيهم وكانت قبل ذلك قد تمكنت بطريقة غريبة لم يسبق لها مثيل في الاسلام ان تستلم زمام الاحكام باقرار الجميع . وكيفية ذلك انها تواطأت مع ايبك عز الدين وكان من اعظم الامراء المماليك واقواهم نفوذاً وكان بينهما علاقات ودية منذ ايام الملك الصالح . ويقال انه من قتلة الملك المعظم فتمكنت بذلك التواطؤ من مبايعة جميع الاعيان لها ولقبت بعصمة الدين ام خايل في ١٠ صفر وكانت توقع بما مثاله « والدة خايل » ونقشت اسمها على النقود بما هو « المستعصمة الصالحية ملكة المسلمين والدة المنصور خايل خليفة امير المؤمنين » وخطب لها على المنابر بعد الدعاء للخليفة وهذه صورة الخطبة : « واحفظ اللهم الجبهة الصالحية ملكة المسلمين عصمة الدنيا والدين ذات الحجاب الجميل والستر الجليل والدة المرحوم خايل زوجة الملك الصالح نجم

الدين ايوب » وعينت عز الدين اتابكا عندها لتدبير المملكة . ثم اخذت في التقرب من ارباب الدولة ووجهاء البلاد فجعلت تخلع عليهم الخلع الثمينة وتمنحهم المناصب والرتب وتخفض الضرائب . الاَّ ان جميع هذه المساعي لم تأتها بفائدة لان الناس لم يرتاحوا الى طاعتها . فانفذ السوريون الى الخليفه العباسي في بغداد يستفتونه في امر هذه الملكة . فكتب اليهم يقول : « من بغداد لامراء مصر . اعلمونا ان كان ما بقي عندكم في مصر من الرجال من يصلح للسلطنة فنحن نرسل لكم من يصلح لها . اما سمعتم في الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه قال « لا افلح قوم ولوا امرهم امرأة»

فاستمسك مماليك مصر بهذه الفتوى وثار رفقاؤهم في دمشق وخلعوا طاعة شجرة الدر وبايعوا سلطان حلب الملك الناصر يوسف الايوبي في ٨ ربيع اول وقتلوا كل من في دمشق من المماليك على دعوة شجرة الدر . ومثل ذلك فعل اهل بعلبك وشميس وعجلون . فنشأ بسبب ذلك خصام بين مماليك سوريا ومماليك مصر آل الى وقائع حربية فتمكن عز الدين ايبك في هذه الانقسامات من الاستقلال عن صديقته والجأ الامراء شجرة الدر على الاستقالة فاستقالت . وهي اول من ارسل المحمل من مصر الى مكة ولا يزال ذلك جارياً الى الآن

« سلطنة ايبك الجاشنكير والاشرف بن يوسف »

وفي سنة ٦٤٨ هـ بويع عز الدين ايبك على مصر ولقب بالملك المعز الجاشنكير التركماني الصالحي وتزوج بشجرة الدر فانضم حزبها الى حزبه واحتفلوا بتوليته السلطنة على جاري عادتهم في الاحتفالات الكبرى فركب هو بشعار وحملت على رأسه القبة والطير ولعبوا قدامه بالغواشي الذهب وجلس على سرير الملك وجميع الامراء قبلوا الارض بين يديه . وبعد قليل انقسم المماليك الى قسمين عظيمين عرفا بالمعزيين نسبة الى الملك المعز ايبك والصالحيين نسبة الى الملك صالح نجم الدين وتنازعا النفوذ ففاز الصالحيون وطلبوا ان يكون السلطان عليهم من الايوبيين وقالوا « لا بد لنا من واحد من ذرية بني ايوب نسلطنه علينا » وكان المتكلم يومئذ من الامراء الامير باباي الرشيدي والامير فارس الدين اقطاي والامير بيبرس ركن الدين البندقداري والامير سنقر الرومي وغيرهم جماعة من المماليك البحرية فوقع الاتفاق بينهم وبين المعز ايبك بان يحضروا بشخص من بني ايوب يقال له مظفر الدين يوسف من اولاد الملك مسعود صاحب بلاد الشرق

فاعتزل ايبك السلطنة وبايع مظفر الدين بن يوسف اتسز ملك اليمن وعمره نحو عشرين سنة فبايعه في ٥ جمادي الاولى وبايعه الناس ولقبوه بالملك الاشرف وتعين عز الدين اتابكاً له غير ان ازمة الاحكام ما برحت في يده ولم يكن الاشرف الا اسما بلا رسم ومن الغريب تألف هذه السلطنة المزدوجة من احد سلالة الاسرة الايوبية واحد مماليكها والاغرب من ذلك ان يخطب لهما معاً

وفي خلال ذلك نهض سلطان دمشق الجديد ناصر الدين يوسف الايوبي للاخذ بثار الملك المعظم فدعى اليه اقرباءه الاسرة الايوبية للتعاضد على ذلك وتأكيداً لنجاح مسعاه استمد لويس التاسع ملك فرنسا وكان اذ ذاك في عكا ان يعيد له في مقابلة ذلك بيت المقدس . فارسل ملك فرنسا الى ناصر الدين راهباً لعقد المعاهدة وانفذ الى المماليك في مصر مندوباً يطالب اليهم التعويض عن نكث المعاهدة التي عقدوهـا مع الصليبيين. وكان من مصلحتهم الاتفاق مع الصليبيين على سلطان دمشق فاجابوا مطاليبه واطلقوا عدداً كبيراً من الاسرى المسيحيين بعثوا بهم الى عكا وارفقوهم بمندوبين لتجديد المعاهدة فاقترح لويس التاسع ان يضاف اليها البنود الآتي ذكرها وهي :

اولاً ارجاع رؤوس الصليبيين التي كانت مغروسة على متاريس القاهرة

ثانياً ارجاع جميع الاولاد الذين قد اجبروا على الاسلام

ثالثاً التنازل عن المائتي الف دينار التي تعهد الصليبيون بدفعهـا بمقتضى معاهدة المنصورة

فرضي المماليك بجميع ذلك واهدوه فوقها فيلاً جميلاً وكان هذا اول فيل ارسل الى فرنسا ووعدوه ان يعيدوا اليه بيت المقدس اذا تغلبوا على سلطان دمشق. فاتصل امر تلك المخابرات بسلطان دمشق فانفذ عشرين الف مقاتل تحول دون اتحاد الجيشين فعثروا بالمصريين في غزة فناهضوهم حتى ارجعوهم الى الصالحية فانجدهم الفارس اقطاي فاعادوا السوريين على اعقابهم الى سوريا . ثم تشدد السوريون وعادوا بعدد كبير تحت قيادة شمس الدين لولو صاحب دمشق ومعهم سلطان دمشق نفسه فالتقوا بالمماليك تحت قيادة ايبك والفارس اقطاي يوم الخميس ١٠ ذي القعدة سنة ٦٤٩ هـ في العباسة وتقاتلا فانكسر المصريون اولاً فتعقبهم السوريون فجعل ايبك والفارس اقطاي انهزامهما نحو سوريا ومعهما جماعة من الفرسان فالتقيا بشمس الدين لولو في شرزمة من رجاله فقتلاه وشتتا رجاله فاشتد ازرهما فعادا لمهاجمة سلطان دمشق وكان في معسكره مع شرزمة قليلة من الجند اما باقي الجيش فكانوا يتعقبون الجيوش المصرية

المنهزمة فاضطر السلطان الى الفرار بنفسه فتبعاه فلم يدركاه فعادا الى مصر فرأيا الجيوش السورية قد دخلت القاهرة وخاف اهلهـا ظناً منهم ان النصر لناصر الدين فبايعوه وخطبوا له . الا ان الفقهاء لم يوافقوا على المبايعة شخصيا على انهم لم ينجوا من انتقام ايبك . فلما علم المصريون ان النصر لهم فرحوا جدًّا وابطلوا مبايعة ناصر الدين . اما هذا فلما رأى امر انكساره على ما تقدم لم يعد يمكنه استئناف الحرب فصالح المصريين على ان يتخلى لهم عن مصر وغزة وبيت المقدس وقد ربح من الجهة الثانية ماكان يرومه من فساد المعاهدة بين المصريين والصليبيين فاتفق مع المماليك على محاربة الصليبيين

وعظم الفارس اقطاي في عيون المصريين لما اظهره من البسالة والاقدام في الحروب الاخيرة فلقبه احزابه بالملك وتزوج اخت المنصور سلطان حماه واسكنها في القلعة لاتصال حبل قرباها بالعائلة الملوكية فاوجس ايبك شرًّا من نفوذ الفارس المذكور حتى خشي مناظرته في الملك فاخذ يسعى في التخلص منه وكان الفارس زعيما لحزب من المماليك الصالحيين وكانوا يطلبون له المشاركة في الملك مع الملك الاشرف وما زالوا حتى نالوا مطلوبهم فرقى كثيرين منهم وفي جملتهم سيف الدين قطوز الذي صار بعد ذلك ملكا اما الفارس اقطاي فقتله ايبك وهو داخل بسراي القلعة ثم خشي الوقوع في شر اعماله فامر باقفال القلعة وابواب المدينة ولبث يتوقع الحوادث فلم تمض برهة حتى الامراء الصالحيين تحت رئاسة بيبرس وتجمهرو على ابواب القلعة وطلبوا الفارس اقطاي وهم يحسبونه مأسوراً فرمي اليهم برأسه من اعلى السور فلما علموا بقتله رتاعت قلوبهم فعمدوا الى الفرار نحو باب القراطين ففتحوه وساروا قاصدين سور وبقي منهم شرذمة قبض عليهم واودعوا السجن

فلما تخلص الملك المعز ايبك من طائفة الصالحين قبض على الملك الاشرف والقاه في سجن مظلم فمات فيه نحساً بعد ان حكم سنة وشهراً

ولما استتب المقام لايبك وتخلص من المماليك الصالحيين وغيرهم ممن كانو ينازعونه الملك حسب الجو قد خلا له وما دري ان شجرة الدر لا تزال واقفة له بالمرصاد بعد ان صارت له زوجة فكانت تحول دون كثير من مقاصده ولم يكن يجسر على مقاومتهـا مع علمه باستقالتها من مهام الملك على انه لم يستطع احتمال هذا التقييد والسلطان في يده وهي تمن عليه بانها سبب وصوله الى ذلك المنصب فجعل يبحث عن طريقة تنقذه من هذه القيود مع علمه ان مكايدة النساء اشد وطأة من ملاقاة الرجال . فادعى

انها عقيمة لا يرجو منها نسلاً فاقتني عليها سراري اخريات فولدت له احداهن ولداً دعاه نور الدين علي ثم بلغها انه ساع في التزوج بابنة بدر الدين لولو ملك الموصل وكان قد امسك عن زيارتها فاشتعلت حسداً لعلمها ان هذه الزوجة الاخيرة من بنات الملوك نخافت ان تحل محلها من العظمة فاقرت على الكيد به

وكانت شجرة الدر صعبة الخلق شديدة الغيرة قوية البأس سكرانة من خمرة العجب فلما ضايقت ايبك نزل من القلعة وهو غضبا فبعثت تتلطف به حتى عاد الى القلعة فلاقته وقامت اليه وقبلت يديه على غير عادة منها وكانت قد اضمرت له السوء فندبت له خمسة من الخدم الخصيان الروم وقالت لهم « اذا دخل الحمام فاقتلوه » فلما طلع الى القلعة اصطلح مع شجرة الدر وتراضيا ثم دخل الحمام فلما صار هو وشجرة الدر هناك دخل عليه اولئك الخدم وبايديهم السيوف فقام ايبك وقبل يد شجرة الدر واستغاث بها فقالت للخدم اتركوه فاغلظ عليها بعض الخدم في القول وقال « ان تركناه فلا يبق عليك ولا علينا » فقتلوه في الحمام خنقا وقيل ربطوا محاشمه بوتر وجذبوه حتى مات . فلما حملوه واخرجوه من الحمام اشاعوا انه قد اغمي عليه في الحمام فوضعوه على فراش الحمام واشاعت انه مات مصروعاً . وكان ايبك ظلوماً غشوماً سفاكاً للدماء . فبايعوا ابنه نور الدين علي وعمره ١٥ سنة ولقبوه بالملك المنصور

وكانت مدة ايبك في الاحكام عشر سنوات واحد عشر شهراً شاد في خلالها بنايات عظيمة وفي جملتها مدرسة دعاها المدرسة المزية نسبة اليه بناها على ضفة النيل في مصر القديمة وربط لها دخلا مخصوصاً للنفقة عليها . وهو اول من اقام من ملوك الترك بقلعة الجبل

« سلطنة نور الدين علي بن ايبك »

فالملك المنصور حالما بويع قبض على قاتلة ابيه وعهد بها الى نساء بيته فاماتوها ضرباً بالقباقيب على رأسها وطرحوا جثتها في خندق القلعة فاكلت الكلاب نصفها ودفن النصف الباقي قرب مدفن السيدة نفيسة

فانتهت حياة هذين الخادعين شجرة الدر وايبك كما رأيت فجوزي كل منهما بما فعل لانهما قتلا الملك المعظم

وفي ايام هذا السلطان بمصر هجم هولاكو التتري على مدينة بغداد وقتل الخليفة المستعصم بالله وخرب بغداد . ووصل الخبر انه حامل على بلاد الشام ومصر وعقد

قطز مجلساً من العلماء والقواد اقروا فيه ان تقتضي ان يتولى السلطنة رجل حازم . فانزلوا نور الدين في ٤ ذى القعدة سنة ٦٥٧ هـ بعد ان حكم سنتين وبايعوا سيف الدين قطز وكان نور الدين طائش العقل يلعب الحمام مع الغلمان

« سلطنة المظفر سيف الدين قطز »

وسيف الدين هذا شريف الاصل من عائلة ملوكية خلافاً لسلفه فهو ابن مودود شاه ابن اخي ملك خراسان فتح التتر بلاده فتشتت اسرته . ولما تولى سلطنة مصر لقب بالملك المظفر وحالاً استوى على السلطنة قبض على نور الدين وامر بقتله فحاول وصيه شرف الدين المدافعة عنه فصلبه على باب القلعة

وفي ١٧ ذي القعدة سنة ٦٥٨ بعد ان حكم ١١ شهراً و١٣ يوماً . بينما كان عائداً بجيشه الى القاهرة ظافراً من محاربة التتر في فاسطين مر من امامه ارنب بري وكان مولعاً بالصيد فسار على اثره في عرض الصحراء حتى احصن فيها ثم عاد وحدة ولا صيد معه فتقدم لملاقاته احد امرائه المدعو ركن الدين بيبرس البندقداري فلما دنا منه هم تيده كانه يريد تقبيلها فامسكها باحدى يديه وطعنه بالاخرى في قلبه فسقط صريعاً يخبط الارض . فجاء باقي الامراء وكانوا متواطئين معه على هذه الفعلة فرفعوا جثة سلطانهم ودفنوها في قبر صغير قرب قبر خلف نخشى ذو الفقيد ان تبلغ الموسي لما هم فتفرقوا في مصر السفلى لا يظهرون على احد . وكان الاتابك اذ ذاك في الصالحية مع السواد الاعظم من الجيش فسار اليه قتلة قطوز واخبروه بما فعلوا فقال لهم « من منكم ضربه الضربة الاولى » فاجاب بيبرس « انا هو » فقال له « فاحكم مكانه »

فبويع بيبرس للحال ولقب بالملك القاهر ثم تشاءم من هذا اللقب فابدله بالملك الظاهر واضاف اليه ابو الفتوح وكان يلقب ايضاً بالعلائي وبالبندقداري نسبة الى سيده الذي كان يدعي علاء الدين بندقدار

« سلطنة الظاهر بيبرس البندقداري »

ولما تمَّ لبيبرس امر السلطنة سار الى القاهرة واستوزر بهاء الدين بن حنا واتخذ بلباي « ببلي ملك » الخزندار وهو من اعز اصدقائه بل هو صنيعته وجعله نائب السلطنة وصار صاحب الحل والعقد فيها . واستقدم من بقي من عائلة قطوز فأمنهم وضمهم اليه واطلق من في السجون جميعاً بغير استثناء واكثر من العطايا لرجاله وابطل كثيراً

من الضرائب التي كان قد ضربها سلفه كتصقيع الاملاك وتقويمها واخذ ذكاة ثمنها في كل سنة وجباية دينار من كل انسان وغير ذلك . واعان امره هذا على لسان الخطباء في المنابر

« موت الملك الظاهر ومناقبه وأعماله »

في سنة ٦٧٥ ﻫ اتت اخبار بان التتر زحفوا على البلاد فخرج اليهم السلطان وتوجه الى حلب وتقاتل مع التتر فكسرهم وقتل منهم خلائق لا تحصى . وكان ملك التتر ابغا خان فلما انكسر هرب فتبعه السلطان الى نحو الا بلستين فكانت بينهما هناك وقعة عظيمة قتل فيها من الفريقين نحو مائة الف انسان فانكسر ايفاوهرب فتبعه السلطان نحو زبيد . ثم رجع السلطان من هناك الى قيسارية وحاصر اهلها فارسلوا يطلبون منه الامان فارسل لهم الامان على يد الامير بيسري فسلموا المدينة فدخلها السلطان وكان يوم دخوله يوماً مشهوداً . فنزل بدار السلطنة وصلى بها ركعتين وحكم بين الناس وقام بها اياماً ثم رحل الى دمشق وحلب سنة ٥٧٦ ﻫ فتوعك واخذته الحمى فسقاه الحكماء مسهلا فافرق في الاسهال وثقل عليه المرض فرحل من حلب وقصد الدخول الى دمشق فمات في بعض ضياعها . فلما مات كتم موته عن العسكر وحمل في محفة الى ان دخل دمشق فدفن هناك ليلا . وكان موته في يوم الخميس ثامن عشر المحرم سنة ٦٧٦ ﻫ وله من العمر نحو ستين سنة وكان ملكا عظيما جليلا مهيباً كثير الغزوات مشهوراً بالفروسية وكان يلقب بابي الفتوحات لكثرة الفتوح في ايامه

« سلطنة بركة خان بن بيبرس »

فلما توفى بيبرس اقر الامراء على مبايعة ابنه البكر محمد ناصر الدين بركة خان . ولكنهم كانوا قد اجمعوا بعد المشورة على ان يكتموا وفاة بيبرس لئلا يطمع فيهم العدو فارسلوا جثته سرًّا الى دمشق واشاعوا هناك انه مرض فنقلوه الى القاهرة في محفة ثم استقدموا الجيوش جميعها الى مصر فقدمت فحالما ادخلوا الجثة الى القلعة بايعوا ابنه البكر بركة خان ولقبوه بالملك السعيد . واقاموا الامير بلباي اتابكا وكان بلباي في الاصل مملوكا ابتاعه بيبرس بثمن بخس الا انه ارتقى في خدمته حتى صار امين خزائنه ونائبه كما تقدم

وكان شرف الدين سنجر الملقب بالاشقر والياً على دمشق تحت رعاية بركة خان فادعى الملك لنفسه فبايعه اهلها ولقبوه بالملك الكامل فاسرع بركة خان الى دمشق ونزل بجيشه في القصر الابلق الذي كان قد بناه ابوه وبعد التحري عن اسباب تلك الثورة علم انها دسيسة من امرائه . فلما علم هؤلاء بظهور امرهم عادوا بمن كان على دعوتهم من المماليك الى القاهرة وتحصنوا فيها فتبعهم بركة خان فامتنعوا عليه وعجز عن قهرهم لكثرتهم فالتجأ الى قلعة الجبل فحاصروه فيها وشددوا عليه الحصار فانحط قدره عندهم وهموا بقتله فنعهم الخليفة الحاكم بامر الله العباسي لكنهم اصروا على خلعه فخلعوه في ربيع اول سنة ٦٧٨ هـ بعد ان حكم سنتين وثلاثة اشهر فبعثوه الى قلعة الكرك منفياً وحبسوه فيها ثم عادوا الى قتله فانفذوا اليه من يقتله ثم بلغهم انه سقط عن جواده ومات

« سلطنة سلامش بن بيبرس »

فبايعوا اخاه بدر الدين سلامش وسنه سبع سنوات وبعضة اشهر ولقبوه بالملك العادل واقاموا الامير سيف الدين قلاون الالفي وصياً عليه ولم يكن همهذا الوصي الا خلع ذلك السلطان الرضيع . وفي رجب من تلك السنة تمكن من مراده فبعثه الى قلعة الكرك منفياً واستلم هو زمام الاحكام وطلب المبايعة فبايعه الناس ولقبوه بالملك المنصور وهولقب ثاني سلاطين هذه الدولة

« سلطنة الملك المنصور قلاون »

وهو من مماليك اق سنقر الكاملي وقدمه الى الملك الصالح فعتقه سنة ٦٤٧ هـ فلماتولى السلطنة قربانصاره وانعم عليهم واستوزر فخر الدين وكان كاتب سره الخصوصي وبعث الامير طرنطاي الى دمشق لاخماد ثورة اهلها . فسار في فرقة من الجند فلاقاه الملك الكامل ودافع دفاعاً حسناً ولكنه ألجئ في سنة ٦٨٠ هـ الى التسليم فقبضوا عليه وجاءوا به الى القاهرة واودعوه سجناً مظلماً وولوا على دمشق وسائر الشام الامير حسام الدين لاجين

(وفاة قلاون وآثاره)

ولما اطمأن باله في داخليته عكف على تنظيم الوزارة وما زال يعزل ويولي حتى اقر على وزارة شمس الدين سنة ٦٨٥ هـ فبقي على دستها زمناً طويلاً . ثم اوصى قلاون بولاية العهد لابنه علي ولقبه بالملك الصالح (الثالث) وأخذ منذ ذات الحين في تدريبه على

الاحكام وادارتها على ان يستخلفه عليها اذا طرأ عليه ما يستدعي غيابه عن مصر في حرب او غيرها فلم يصح تقديره لان علياً أصيب بحمى شديدة ذهبت بحياته سنة ٦٨٧ هـ فحزن قلاون حزناً شديداً وكثرت هواجسه حتى كره الاحكام. ثم رأى ان يجرد حملة لافتتاح طرابلس الشام تسلية له عن هواجسه . وكانت في حوزة الصليبيين منذ مائة وثمانين سنة لم ينازعهم احد عليها . فسار اليها قلاون وافتتحها وذبح من فيها واخربها ثم اعاد بناءها وجعل عليها حامية

ولما عاد الى القاهرة جاءه وفد من قبل الفونس ملك ارغون عقدوا معه معاهدة في ١٣ ربيع اول . غير ان ذلك لم يكن ليشغله عن احزانه وما زال كئيباً حتى قضى يوم السبت في ٦ ذي القعدة فاحتفل بجنازه احتفالاً حضره جمع غفير من جهادية وملكية وشيعوه الى البيمارستان حيث واروه التراب ولا يزال مقامه هناك الى هذا العهد وكانت مدة حكمه ١١ سنة و٣ اشهر و٦ ايام

وقد كان قلاون سبباً لاخراج السلطنة من نسله كما كان الملك الصالح الايوبي باستكثاره من المماليك الشراكسة حتى جمع منهم نحواً من ١٢ الفاً جعل منهم بطانته وكان يلقب بعضهم بالالفي اي المبتاع بالف دينار وبعضهم بابي المعالي وغير ذلك

« سلطنة خليل بن قلاون ثم الملك القاهر بيدرا »

وتولى بعده على سلطنة مصر ابنه البكر صلاح الدين خليل ولقب بالملك الاشرف فاستوزر علم الدين سنجر وجرد للجهاد على الصليبيين فسار في سنة ٦٩٠ هـ حتى اتى عكا فحاصرها . وكانت الحصن الوحيد الذي بقي لهم فحصنوه تحصين اليأس لكنه لم يمتنع على جيوش المسلمين فهدموه ودخلوا المدينة وامعنوا فيها قتلاً ونهباً . وفي سنة ٦٩١ هـ عاد الى القاهرة واخرج سلامش منفياً الى القسطنطينية لانه كان سبباً للقلاقل . ثم سار الى ارمينيا وفتح ارضروم فذاع صيته حتى ارهب اعداءه فعاد الى القاهرة ليستريح من الاسفار ففاجأته المنية على فراشه . وسبب موته ان احدى نسائه تواطأت مع مملوك له يدعى بيدرا فقتلاه بخنجر في جوفه في شهر محرم سنة ٦٩٣ هـ بعد ان حكم ثلاث سنوات وشهرين واربعة ايام

وبويع بعده بيدرا ولقب بالملك القاهر الا انه لم يحكم الا يوماً واحداً ثم قتله المماليك اخذاً بثار سلطانهم السابق . وبايعوا الملك الاشرف المدعو محمد بن قلاون وعمره تسع سنوات ولقب بالملك الناصر

« سلطنة الملك الناصر بن قلاون (اولا) »

وسلطنة هذا الملك اكثر أهمية من سلطنات سلفائه لكثرة ماحصل فيها من التقلبات السياسية والثورات المتعددة . ونظراً لصغر سنه اقاموا له وصياً يدعى زين الدين كتبغا الملقب بالمنصوري لانه كان من مماليك الملك المنصور قلاون . فلما استتبت له الوصاية حتى تاقت نفسه الى السلطة وكان معه وزير آخر هو علم الدين سنجر وكانت تحدثه نفسه بمثل ذلك ايضاً فاختلفا وتخاصما وانتهت المخاصمة بقتل سنجر . ولما خلا الجو لكتبغا ولم يعد من ينازعه عمد الى الملك الناصر فخلعه وتولى مكانه سلطاناً على مصر ونفاه الى الكرك ولم يحكم هذه المرة الا سنة واحدة

« سلطنة الملك العادل كتبغا »

وفي شهر محرم سنة ٦٩٤ هـ بويع كتبغا ولقب بالملك العادل وهو اللقب الذي لقب به قبله سلامش بن بيبرس الاول واستوزر فخر الدين وزير قلاون . ولما كان هذا الاختلاس داعياً لتراكم المصائب على مصر وتداخل الاجانب فيها داهمها الطاعون ثم القحط فاهلك جزءاً كبيراً من اهلها ثم جاءت الحرب تتمة لهذه الضربات

وذلك ان قبيلة المغول التي كانت تحت قيادة بيدو بن طرغاي بن هولاكو اصبحت بعد وفاته تحت قيادة الملك غازان محمود بن خربنده بن ابغاني فتخوفت منه طائفة من رجاله عرفوا باسم الاويراتية وفروا من بلاده الى نواحي بغداد . فنزلوا هناك مع كبيرهم طرغاي وجرت لهم خطوب آلت بهم الى اللحاق بالفرات فأقاموا بها هناك وبعثوا الى نائب حلب يستأذنوه في قطع الفرات ليعبروا الى ممالك الشام فأذن لهم وعبروا الفرات الى مدينة بهنا فاكرمهم نائبها وقام لهم بما ينبغي من العلوفة والضيافة فاتصل ذلك بالملك العادل زين الدين كتبغا فاستشار الامراء فيما يفعل بهم فاتفق الرأي على استقدام اكابرهم الى الديار المصرية وتفريق باقيهم في البلاد الساحلية وغيرها من بلاد الشام فجيء بثلاثمائة من اكابرهم الى القاهرة وفرق الباقون بالبقاع العزيزية وبلاد الساحل . ولما قرب الجماعة الى القاهرة خرج الامراء بالعسكر الى لقائهم واجتمع الناس من كل مكان حتى امتلأ الفضاء للفرجة عليهم . فكان لدخولهم يوم عظيم فساروا الى قلعة الجبل فانعم السلطان على مقدمهم طرغاي بامرة طبلخانه واجرى عليهم الرتب وانزلهم بالحسينية وكانوا على غير الدين الاسلامي فشق ذلك على الناس وابتلوا مع ذلك منهم بانواع البلاء لسوء اخلاقهم ونفرة نفوسهم وشدة جبروتهم وكان اذ ذاك في مصر والقاهرة غلاء عظيم فتضاعفت

المضرة واشتد الامر على الناس . وقال في ذلك شمس الدين محمد بن دينار

ربنا اكشف عنا العذاب فانا　　قد تلفنا في الدولة المغلية

جاءنا المغل والغلا فانصلفنا　　وانطبخنا في الدولة المغلية

وفي اول رمضان سنة ٦٩٥ ﻫ لم يصم احدمن الاويراتية فأعلن السلطان بذلك فابى ان يكرههم على الاسلام ومنع من معارضتهم ونهى ان يشوش عليهم احد . وكان مراده ان يجعلهم عوناً له فبالغ في اكرامهم فشق ذلك على امراء الدولة وخشوا ايقاعه بهم لان الاويراتية كانوا من مواطني كتبغا وكانوا مع ذلك جميلي الصورة فافتتن بهم الامراء وتنافسوا فيهم وبالغوا في تقربهم حتى بعثوا الى البلادالشامية فاستجلبوا طائفة كبيرةمنهم فتكاثر نسلهم في القاهرة واشتد التحاسد والتشاجر بسببهم بين اهل الدولة حتى آل الامر بسببهم وباسباب اخرى الى خلع السلطان الملك العادل كتبغا وذلك فيصفر سنة ٦٩٦ ﻫ

« سلطنة الملك المنصور لاجين »

وبويع حسام الدين لاجين المنصوري ولقب بالملك المنصور كما كان لقب سيده قلاون فاذن لكتبغا ان يخرج الى صرخد فيسوريا وقبض على طرغاي مقدم الاويراتية وعلى جماعة من اكابرهم وبعث بهم الى الاسكندرية فسجنهم بها . ثم قتلهم وفرّق جميع الاويراتية على الامراء فاستخدموهم وجعلوهم من جندهم فصار اهل الحسينية لذلك يوصفون بالحسن . وما برحوا ايضاً يوصفون بالزعارة والشجاعة وكان يقال لهم البدورة فيقال البدر فلان والبدر فلان وكانوا يمانون لباس الفتوة وحمل السلاح ويؤثر عنهم حكايات كثيرة . وكانت الحسينية قد فاقت عمارتها على سائر اخطاط مصر والقاهرة

(ذكر قتل الملك المنصور لاجين)

قال عماد الدين اسماعيل أبي الفدا : في سنة ٦٩٦ ﻫ وثب على لاجين المذكور جماعة من المماليك الصبيان الذين اصطفاهم لنفسه ليلة الجمعة حادي عشر ربيع الآخر في اوائل الليل فقتلوه وهو يلعب بالشطرنج وأول من ضربه شخص منهم يقال له سيف الدين كرجي بالسيف وضربه الباقون بعده حتى قتلوا لاجين المذكور وطلعوا ليقتلوا مملوكه ونائبه منكو تمر فاستجار بسيف الدين طغجي الاشرفي وكان طغجي مقدم هؤلاء المماليك الذين قتلوا لاجين فأجاره طغجي وبعث بمنكو تمر المذكور الى الجب فحبسه فيه ثم بعد استقراره في الجب توجه كرجي ومعه جماعة فاخرجوا منكو تمر وذبحوه على رأس

الجب ولما اصبح الصباح عن ذلك جلس طغجي في موضع النيابة وأمر ونهى وهنالك جماعة من الامراء اكبر منه مثل الحسام استاذ الدار وسلار وبيبرس الجاشنكير وغيرهم فاتفق آراءهم على الوقيعة بطغجي واعادة الملك الى مولانا السلطان الملك الناصر المقيم بالكرك واتفق بعد ذلك وصول بعض العسكر المجردين على حلب فوصل الأمير سلاح وغيره واشار الامراء المذكورون على طغجي بالركوب وتلقى الامير سلاح فامتنع وعاودوه فاجاب وركب طغجي من قلعة الجبل وجعل نائبه بها كرجي الذي قتل لاجين فعند ما اجتمعت الامراء بالامير سلاح تحدثوا فيما فعله الصبيان من قتل السلطان وانكرت الامراء وقع مثل ذلك وقالوا ان طغجي هو الذي فعل ذلك فحطوا عليه بالسيوف وهرب منهم فادركوه وقتلوه وقصدوا كرجي بقلعة الجبل فهرب واتبعوه فقتلوه ايضاً وذلك في ربيع الآخر من هذه السنة وكانت مدة الملك المنصور لاجين المذكور سنتين وثلاثة اشهر

« سلطنة الملك الناصر بن قلاون ثانية »

فمكر المماليك في انتخاب سلطان يحكم فيهم فاقروا على استقدام الملك الناصر بن قلاون من منفاه وقد بلغ الخامسة عشرة من العمر ليبايعوه . فبعثوا اليه وفداً يبلغه ذلك القرار فقدموا اليه في الكرك . وكانت والدته عنده فلم تسمح بسفره معهم لئلا يكون تحت اقوالهم مقاصد خطرة . فألحوا عليها وأكدوا لها صدقهم ثم جثوا امام الملك الناصر وبايعوه فتأكدت اخلاصهم فاذنت بمسيره معهم فساروا حتى أتوا القاهرة فحاول بعض دعاة لاجين الايقاع بحياة الملك الناصر لكنهم هددوا فبايعوه

وفي سنة ٧٠٢ هـ داهمت الشرق زلزلة قوية اخربت قسماً عظيماً من سوريا ومصر واخرجت المياه من الآبار الى سطح الارض وطافت الابحر على اليابسة فاغرقت خلقاً كثيراً . والظاهر ان هذا الحادث الطبيعي اثر في اخلاق المصريين فانقسموا احزاباً يضاد بعضها بعضاً ثم عادوا فاتحدوا على خلع الناصر فرأى انه لا يقوى على دفعهم وخاف على حياته فترك القاهرة مظهراً للحج وسار مع بطانته الى الكرك وكان له فيها ثروة تبلغ سبعة وعشرين الف دينار ومليون وسبعمائه الف درهم فاستولى عليها وحصن المدينة ثم بعث بالختم السلطاني الى المماليك مصرحاً بتنازله ومفوضاً لهم تولية من ارادوا

« سلطنة بيبرس الجاشنكير »

فوصل كتابه اليهم في ٢٥ رمضان سنة ٧٠٨ هـ فبايعوا الامير ركن الدين بيبرس

الجاشنكير (بيبرس الثاني) ولقبوه بالملك المظفر وهو من مماليك الملك المنصور قلاون

ومن آثاره في القاهرة جامعه المعروف بجامع جاشنكير في الجمالية مبني على مثال جامع السلطان حسن ولا يزال مسجداً الى هذه الغاية

ثم ندم الملك الناصر لاستقالته وتخليه عن تقليد الاعمال لاحد مماليكه فجعل يترقب فرصة لتسلق العرش ثالثة . وفي شهر شعبان من سنة ٧٠٩ هـ برح الكرك مستخلفاً عليها ارغون احد مماليكه المقربين وجاء دمشق فبايعه امراؤها فجند الى مصر ومعه رجال عديدون . وكان الامير برلك احد زعماء المماليك قد نبذ طاعة بيبرس ومعه كثيرون من نخبة رجاله فتشجع الناصر وقدم القاهرة . اما بيبرس فخاف ولم ير سبيلاً لنجاته الا بالتنازل فاستقال واخذ معه مبلغاً مقداره ٣٠٠ الف دينار وكثيراً من الجمال والخيل وخرج الى مصر العليا طامعاً في الاستلاء عليها فلاقاه خارج القاهرة سرب من الاسافل اوسعوه شتما ورجماً فرشقهم بما كان معه من النقود وسار حتى جاء اخميم فنزل فيها

« سلطنة الملك الناصر بن قلاون — ثالثة »

وفي غد خروج بيبرس من القاهرة دخلها الملك الناصر باحتفال عظيم وهي المرة الثالثة لتوليه . وكان ذلك في يوم عيد رمضان فزاد العيد بهجة وبويع بالسلطنة ولبس خلعة السلطنة وهي جبة سوداء بعذبة زركش وسيف بداوي . فجلس على سرير الملك وجميع الامراء من كبير وصغير قبلوا الارض بين يديه وهو جالس في الايوان الاشرفي. ثم خلع على سائر الامراء والنواب الذين حضروا معه خلع الاستمرار . وخلع على الخليفة المستكفي بالله سليمان والقضاة الاربع وارباب الدولة من اصحاب الوظائف ثم تتبع الهاربين وقبض عليهم وجردهم مما اخذوه . وفي جملة الذين قتلهم الامير سلار النائب وضبط امواله

وكان سن الملك الناصر لما تولى للمرة الثالثة ٢٠ سنة صرف ١٦ منها في مقاساة الاهوال حتى عرف كيف تؤكل الكتف وكيف يجب ان ترسخ قدمه في الملك . فكان ذلك بمثابة الامثولة له فمكث على دست السلطنة هذه المرة حتى توفي اي مدة ٣٣ سنة

ومن آثاره البنائية جامعه المسمى الجامع الجديد عند موردة الحلفاء . ويقال انه نقل حجارته من صنم عند قصر الشمع اسمه السرية عمل منه قواعد للاعمدة الكبار وعمل القصر الابلق بالقلعة . وجر الماء الى قلعة القاهرة سنة ٨١٨ هـ في مجراة على

قناطر مبنية بالحجر وركز للمياه آباراً وجعل عليها سواقي نقالة من عدة اماكن وهي الباقية الى الآن تعرف بالسبع سواقي عند فم الخليج وتمتد منها نحو القلعة قناطر تفصل بين القاهرة ومصر القديمة

وفي سنة ٧٤٠ توفي ابنه انوك فحزن عليه حزناً شديداً اورثه مرضاً رافقه حتى الموت فتوفي الناصر في ٢١ ذي الحجة سنة ٧٤١ هـ وعمره ٧٥ سنة ومدة حكمه ٤٤ سنة وبضعة اشهر عن ثمانية اولاد ذكور تناوبوا الملك بعده الواحد بعد الآخر الا ان تنصيبهم وخلعهم كانا منوطين باحزاب متضادة لا يستقرون على حال . فكانت مدة حكمهم قصيرة جداً

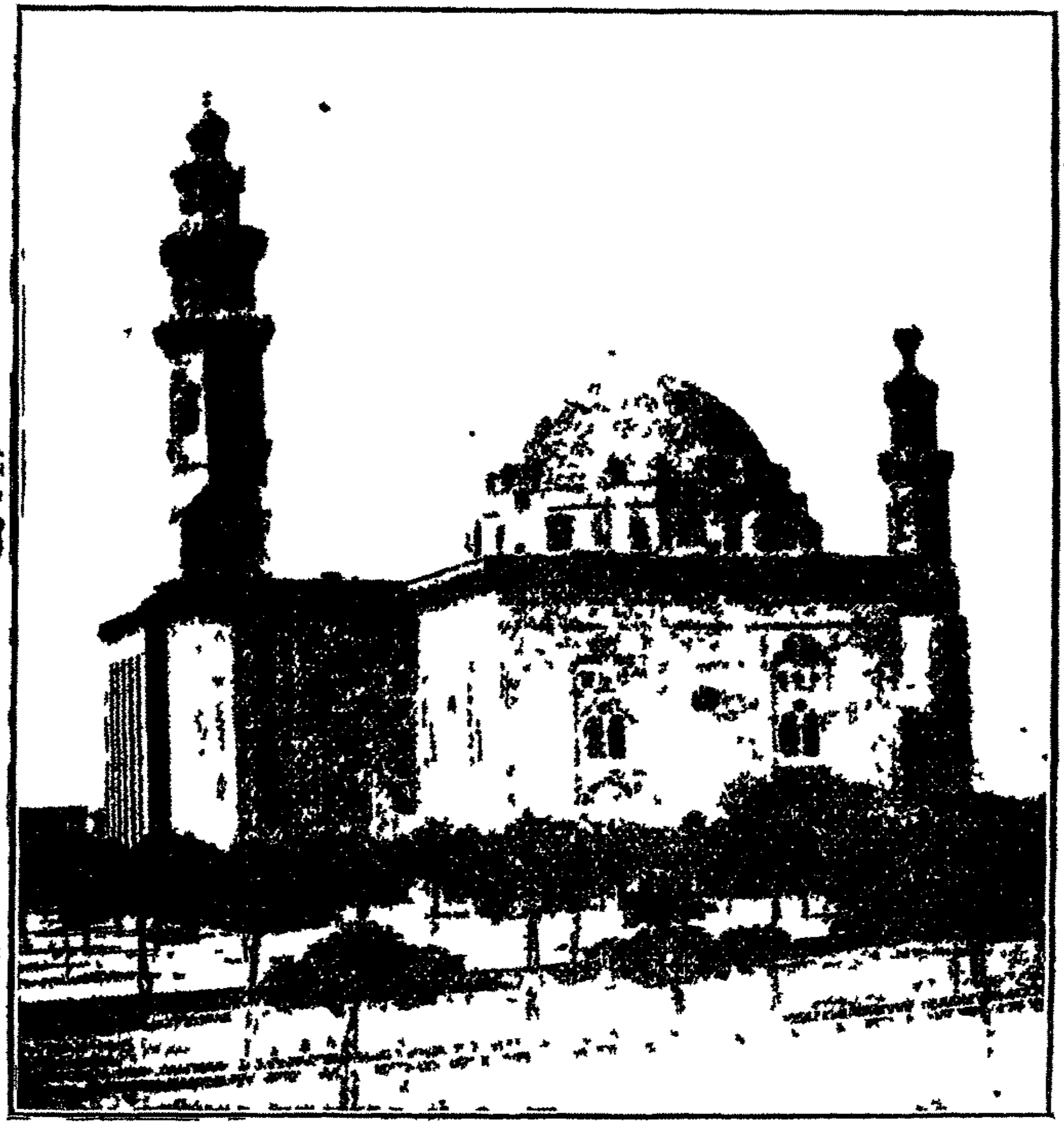
« سلطنة اولاد الناصر »

(وهم ابو بكر وكجك واحمد واسماعيل وشعبان وحاجي وحسن وصلاح الدين)

فاول من تولى بعد الملك الناصر ابنه البكر سيف الدين ابو بكر ولقب بالملك المنصور (الرابع) وبعد اربعين يوماً عزل ونفي الى قوص في مصر العليا وتوفي سنة ٧٤٢ هـ وفي يوم خلعه سطا المماليك على نساء ابيه واهانوهن ونهبوا متاعهن . فبويع اخوه علاء الدين كجك وله من العمر ست سنوات فقط ولقب بالملك الاشرف

وبعد خمسة اشهر اي في رمضان من تلك السنة خلع الاشرف وسجن في قلعة القاهرة فتوفي هناك . فبويع اخوه شهاب الدين احمد وكان متغيباً في الكرك فاستقدم وبويع ولقب بالملك الناصر (الثاني) وفي ١٢ محرم سنة ٧٤٣ هـ اعيد الى الكرك منفاه الاول . فبويع اخوه عماد الدين اسماعيل ولقب بالملك الصالح وهذا بقي على كرسي السلطنة اكثر قليلاً من اخوته السابقين اي ثلاث سنوات وشهرين وبضعة ايام وهم ما حصل في ايامه انه اعاد منصب الوزارة الى حكمه سنة ٧٤٤ هـ وكان قد الغاه ابوه كما رأيت . وانه قتل اخوه شهاب الدين احمد سنة ٧٤٦ هـ وكان منفياً في الكرك ثم انتهت سلطنته بموته في ٤ ربيع آخر سنة ٧٤٦ هـ فبويع اخوه الخامس زين الدين شعبان ولقب بالملك الكامل ولكنه لم يكن اسماً على مسمى فابغضته الرعية وهجاه الشعراء ومكث حاكماً سنة وبضعة اشهر وفي جمادى الاولى ٧٤٧ هـ عزل . فبويع اخوه السادس زين الدين حاجي ولقب بالملك المظفر (ثالث) وكان اكثر استبداداً من سلفه فلم تطل مدة حكمه اكثر من سنة وثلاثة اشهر فسلخ في ١٢ رمضان سنة ٧٤٨ هـ فبويع اخوه السابع ناصر الدين حسن ولقب بالملك الناصر (الثالث) وقد كان من سيره في

الملك ماكان لابيه فحكم ثلاث سنوات وعشرة اشهر بمساعدة نائبه الامير الطمش وخلع في غرة رجب سنة ٧٥٢ هـ وسجن في قلعة القاهرة . فبويع اخوه الثامن صالح صلاح الدين ولقب بالملك الصالح وكان على وزارته الامير شيخو العمري والى هذا الامير ينسب الجامع المعروف بجامع شيخون او شيخو في الصليبة غربي الرميلة ويقابله خانقاه . وبقي الصالح على دست السلطنة ثلاث سنوات وثلاثة اشهر و١٤ يوماً



جامع السلطان حسن

وكان من المترشحين للوزارة وزيران قبطيان مرتدان هما موفق الدين وعلم الدين

فتنازعا عليها وانضم الى كل منهما احزاب فانتهى الخصام بخلع الملك الصالح في ٢٢ شوال سنة ٧٥٥ هـ وكان منشأ هذا النزاع دسيسة من اخيه الملك الناصر حسن باتفاق مع الامير تاج الدين وكان الناصر مسجوناً ففاز بمراده وخلع اخاه فاخرج من السجن وبويع وبقي الملك الناصر حسن على دست السلطنة هذه المرة ست سنوات وسبعة اشهر وبضعة ايام بمساعدة الامير تاج الدين فولاه الوزارة مكافأة لمسعاه. وفي ٩ جمادى الاولى سنة ٧٦٢ هـ قتل بمكيدة من كبار امرائه

ومن آثاره الباقية الى هذا العهد جامعه في الرميلة مقابل قلعة الجبل في القاهرة وهو المعروف بجامع السلطان حسن او بجامع الحسنية وهو من اجمل جوامع القاهرة واتقنها واقتضى لبنائه ٣ سنوات انفق عليه في خلالها ما يساوي ستمائة جنيه كل يوم. وقد جاء بالحجارة الكبيرة من انقاض الاهرام ونقش عليه الكتابات الكوفية والعربية فزادته رونقاً وجمالاً وقد اصبح الآن وعلى وجهه ملامح الشيخوخة لكنها لم تزده الا عظمة ووقاراً

« سلطنة محمد بن حاجي »

ولما قتل السلطان حسن بويع ابن اخيه محمد بن الملك المظفر حاجي وسنه ١٤ سنة ولقب بالملك المنصور (الخامس) وفي منتصف شعبان سنة ٧٦٤ هـ اضطر الى التنازل عن الملك لابن شعبان بن حسن وسنه عشر سنوات فبويع ولقب بالملك الاشرف (الثالث)

« سلطنة شعبان بن حسن »

وحكم الاشرف شعبان ١٤ سنة وشهرين وبضعة ايام معظمها سكينة وسلام وفي السنة الثالثة من حكمه اصيبت مصر وسوريا بقحط ضيق على الناس حتى اكلوا الكلاب والقطط واكل بعضهم اولاده من شدة الجوع. واستمر الامر كذلك في بعض الاماكن ٣ سنوات ولما كانت السنة الحادية عشرة من حكمه اصاب البلاد حروب اهلية اشد وطأة من الجوع. وسببها ان يلبغا العمري احد امراء المماليك كان نائباً للملك. ففي سنة ٧٧٦ هـ سطت عليه عصبة من مماليكه في قصره فقتلوه وساروا يريدون مثل ذلك من السلطان نفسه فردهم بعد حرب هائلة قتل فيها زعيمهم فتشتتوا فولى على النيابة الجاي اليوسفي وكان طماعاً فتقرب من السلطان حتى تزوج بوالدته

فنال منها ثروة عظيمة فقويت شوكته وكثر اشياعه فطمع بالسلطة فقتل زوجته المذكورة وتواطأ مع قاتلي يلبغا على قتل السلطان فهاجموه فدفعهم ورئيسهم وقتل منهم جمعاً كبيراً وتبعهم رجاله حتى اغرقوهم في النيل . ولم يكد يطمئن من هذا القبيل حتى اجتمع عليه اضداد يريدون قتله فتربصوا ينتظرون فرصة حتى اذا كان عائداً من زيارة الحرمين كمنوا له في مضيق العقبة فقتلوا من معه من الحاشية ولم يقفوا للسلطان على أثر فظنوه قتل فعادوا الى القاهرة وعهدوا الى الخليفة المتوكل بالله العباسي وكان قد تولى الخلافة بعد المعتضد بالله سنة ٧٦٣ هـ ان يبايع من يشاء فكتب اليهم « اختاروا من بينكم من تشاؤون وأنا اصادق على بيعته » ثم علم الامراء ان الاشرف لا يزال حياً مختبئاً في القاهرة فقبضوا عليه وخنقوه في ١٥ ذي الحجة سنة ٧٧٨ هـ

« سلطنة علي بن شعبان »

وبايعوا ابنه علاء الدين علي وسنه سبع سنوات فسرَّ بذلك المنصب لصغر سنه ولم يعلم انه مدفن ابيه ولا يلبث حتى يلحق به . فلقبوه بالملك المنصور (السادس) واقاموا له الامير لاين بك وصياً . ثم ابدل لاين بالامير قرطاي ثم ابدل هذا بالامير برقوق . وهو الذي أتى على ختام هذه الدولة وتأسيس دولة جديدة وكانت هذه مقاصده منذ ولي الوصاية لكنه بقي محافظاً على ولاء مولاه الى ان توفاه الله في شهر ربيع الاول سنة ٧٨٣ هـ وكانت مدة حكمه اربع سنوات واربع اشهر

« سلطنة حاجي بن شعبان »

فبويع اخوه زين الدين حاجي وسنه ست سنوات ولقب بالملك الصالح ولم تمض على مبايعته سنة ونصف حتى مل برقوق من اخفاء مقاصده فخلعه ونفاه في ١٩ رمضان سنة ٧٨٤ هـ واستلم مقاليد الملك . وكان الملك المنصور هذا آخر من حكم من دولة المماليك الاولى المسماة بالبحرية أو التركمانية فانقرضت دولتهم بعد ان حكمت نحواً منماية وست وثلاثين سنة اولها امرأة وآخرها صبي وقامت دولة المماليك الثانية او التراكسة

دولة المماليك الثانيـة

من سنة ٧٨٤ — ٩٢٣ هـ او من ١٣٨٢ — ١٥١٧ م

منشأ المماليك الشراكسة

دعيت هذه الدولة بدولة المماليك الشراكسة نسبة الى منشأ سلاطينها فانهم من الشعب الشركسي ويدعى أيضاً كركس او جركس وهم لم ينشأوا في اسيا العليا وانما جاؤا اليها من سبيريا ونواحي بحيرة يقال منذ القرن السادس الميلاد . هاجروا الى غربي بحر قزوين يحملون من بلادهم للاتجار بهم في جهات العالم فاقتنى منهم سلطان المماليك البحرية الاخير عدداً وافراً فضلاً عن المماليك البحرية اقتداء باسلافه . وكانوا يستخدمونهم في مصالح الدولة فارتقوا فيها تبعاً لما خصتهم به الطبيعة من الجمال والذكاء حتى صارت اليهم حماية الحصون والقلاع فجعلوا سكناهم في الابراج فلقبوا بالبرجية . وما زالوا يزدادون عدداً وقوة ومنعة حتى تاقت نفوسهم الى تسلق كرسي الملك يجعلونه ارثاً لنسلهم . وقد رأينا انهم تمكنوا مما ارادوا فخلعوا حاجي بن شعبان وبايعوا برقوق

اما برقوق فهو ابن مرتد شركسي اسمه انس من قبيلة كسا استملك في شركاسيا وقيد الى القرم فاشتراه رجل مسلم يقال له عثمان وجاء به الى مصر سنة ٧٦٢ هـ وباعه للامير يلبغا فجعله في عداد مماليكه الا ان نباهة برقوق وجماله ومهابته استلفتت انتباه سيده فبالغ في ترقيته حتى ادخله في بطانته ولقبه بالشيخ اشارة الى براعته بالفقه وسائر العلوم الاسلامية وجعله في مصاف الامراء وكان يلقب بالعثماني واليلبغاوي. وما زال في خدمته الى ان قضى الله على يلبغا بما قضى وتشتتت مماليكه فبقي برقوق وامير آخر يقال له بركه لانهما كانا في السجن ثم اطلقا فدخلا في خدمة منجك صاحب دمشق . ثم عادا الى مصر بطلب الاشرف شعبان فتمكن برقوق بوسائط مختلفة من الحصول على رتبة باش امير ياخور وقيادة الف رجل فاصبح من الذين يطمعون في نيابة الملك فتولاها ولقب باتابك الجيوش وتولى رفيقه بركة رئاسة الاعمال (المديريات) وما زالت الحال كذلك حتى خلع الملك الصالح حاجي . فتمكن برقوق بمساعدة احزابه ان يتسلق كرسي الملك في ١٩ رمضان سنة ٧٨٤ هـ كما رأيت

« سلطنة الملك الظاهر برقوق »

فاقرّ الخليفة المتوكل على الله على تولية برقوق وبايعه جميع القضاة والمشايخ والعلماء والامراء ولقبوه بالملك الظاهر وهو لقب اعظم من حكم مصر من دولة المماليك الاولى نعني به ركن الدين بيبرس البندقداري . واول شيء خالف فيه اسلافه انه ابطل حمل القبة والطير على رأس السلطان عند توليته وابطل ما كان يعمل في يوم النيروز اول السنة القبطية

وكان تيمورلنك القائد التتري الشهير اذ ذاك قد ملأ الارض بفتوحاته حتى سمع دويها في سوريا اذ جاء يهدد حدودها فنهض اليه برقوق في جيش عظيم فاوقفه عند حده لكنه لم يكد يتخلص منه حتى ظهر له عدوّ في بيته نعني به الخليفة المتوكل على الله فانه دعا الى خلع برقوق فالتفت حوله دعاة عديدون فاجتمع برقوق بالمشايخ والائمة والعلماء واجمع معهم على خلع الخليفة فخلعه وحبسه في القلعة سنة ٧٨٧ ه ونصب عمراً اخا ابراهيم ولقبه الواثق بالله . ثم توفى الواثق في ١٩ شوال سنة ١٨٨ ه فنصب ابا يحيي زكريا عمر بن الخليفة المستنصر بالله . وهذا لم يلبث طويلاً لانه اساء السلطان برقوق فخلعه في جمادي الاولى سنة ٧٩١ ه واعاد المتوكل على الله لكنه ندم بعد ذلك لما رأى من سعيه في خلعه فحاول تنزيله ثانية فلم يستطع لان المتوكل كان قد تواطأ مع احد الامراء المسمى منطاش على خلعه ووافقهما سائر الامراء ورجال الدولة فخلعوه بعد ان حكم ست سنوات وسبعة اشهر وبضعة ايام وارسلوه منفياً الى قلعة الكرك منفى السلاطين في تلك الايام واستقدموا السلطان حاجي آخر سلاطين دولة المماليك البحرية وهو الذي خلعه برقوق . فبايعوه في ٦ جمادى الاخرى سنة ٧٩١ ه وكان يلقب بالملك الصالح فابدله بالملك المنصور لكنه لم يهنأ بهذه التولية الثانية لان المتوكل ومنطاش بعد ان سعيا في توليته ندما فانزلاه واعادا برقوق في ٤ صفر سنة ٧٩٢ ه فتعلم برقوق هذه المرة كيف يستبقي الملك في يده فبادر حالاً الى المنصور حاجي واماته وقتل كل من كان على دعوته منعاً لدسائسهم ثم عمد الى الخارجية فوطد الامن في انحائها ولم يكن يشق بمقاصد اعوان الخلفاء فدخل في احزابهم يتحد تارة مع هؤلاء وطوراً مع هؤلاء ليدوم الشقاق بينهم فلا يتفقوا على خلعه

وفي سنة ٧٩٤ ه اهداه قرا يوسف امير فارس مدينة تبريز فبعث اليه برقوق خلعة وفوض اليه ان يفتتح ما استطاع من المدن على ان يكون والياً عليها . لكنه

ما لبث ان جاء القاهرة في السنة التالية مع احد محالفيه احمد بن اويس فارين من وجه تيمورلنك وكانا قد التجأا الى (منويل) امبراطور القسطنطينية فلم يؤمنهما لانه كان في ريب من امره مع دولة اخرى قارب صبحها الانفجار — وهي الدولة العثمانية نسبة الى عثمان الغازي اول سلاطينها . وجرى ذلك في عهد بايزيد بن مراد رابع سلاطين هذه الاسرة الظافرة . وكان قد غزا معظم ايالات المملكة الرومانية الشرقية (مملكة الروم) واعظمها حتى هدد القسطنطينية فجاء التتر من ورائه بقيادة تيمورلنك فاوقفوه عن مقصده واصبحت قارة اسيا بين مناظرين عظيمين يتنازعانها وكل منهما ذو بأس شديد وهما تيمورلنك التتري وبايزيد التركي فتلاطمت الزوبعتان فارتعدت لهما افريقيا واضطربت مصر من دويهما

وطمحت انظار هذين الفاتحين الى مصر فبعث كلٌّ منهما وفداً الى القاهرة فطلب وفد بايزيد الى برقوق ان يعاهده على السلم والى الخليفة المقيم في القاهرة ان يقر بايزيد رسمياً على سلطنة الاناطول فاجابهم الى ماطلبوه . أما وفد تيمورلنك فاتخذوا خطة اخرى لانهم استعملوا الخشونة والفظاظة في اقوالهم ومطالبهم فطلبوا اليه ان يسلم لهم قرا يوسف واحمد بن اويس الذين قد التجأا اليه فطيب برقوق خاطرهم واخذهم بالملاينة فازدادوا فجوراً فامر بقتلهم . فشق ذلك على تيمورلنك فساق جيشه وقدم للانتقام فمر بالرها فافتتحها وقتل من فيها ثم جاء حلب فانكى فيها . ثم توقف عن مسيره لغرض في نفسه ليسهل عليه افتتاح مصر . فلم يغفل برقوق عن ذلك فاكثر من الجند والسلاح وتأهب للدفاع او الهجوم لكنه لم يكد يتم هذه التأهبات حتى ادركته الوفاة بداء الصرع في يوم الجمعة ١٥ شوال سنة ٨٠١ ﻫ وعمره ستون سنة

ومن آثاره انه ابتنى جامعاً لا يزال معروفاً الى الآن باسم جامع السلطان برقوق بجانب جامع الملك الناصر في شارع النحاسين . وبنى سوراً على مدينة دمنهور وعمّر قناة العروب بالقدس وجدد عمارة المجراة التي تجر الماء من بحر النيل الى قلعة الجبل

« سلطنة فرج بن برقوق — اولاً »

فلما توفى السلطان برقوق بايعوا بكر ابنائه فرج زين الدين الملقب بابي السعادات وعمره ٣٦ سنة ولقبوه بالملك الناصر . وفي اول حكمه ثار الاتابك ايتمش وتنم الفرساني حاكم سوريا فتواطأ هذا الاخير مع يلبغا السالمي حاكم حلب فاستولى على مضايق فلسطين على نية الاستيلاء على سائر مدنها . الا ان حدسه لم يتحقق فأخذت منه المضايق وضويق

عليه حتى قيد اسيراً وقتل هو وكل دعاته . ولم تكد تنجو مصر من هذه النازلة حتى داهمتها نازلة اشد وطأةً واصعب مراساً . فان تيمورلنك بعد ان اتم حروبه في الهند وبغداد وسيواس وملاطية سنة ٨٠٣ . امعن في سوريا فاستولى على حلب وحمص بعد حروب شديدة . وفرّ فرج الى مصر فجمع اليه رجاله وتأهب للدفاع فبلغه ان عدوه شغل عنه بمحاربة بايزيد في الاناطول فسكن روعه ثم جاءته الانباء بفوز تيمور وانكسار بايزيد وأسره سنة ٨٠٤ ﻫ في واقعة انقرة فخارت قواه ويئس من الفرج . فبعث اليه تيمورلنك فيلاً هندياً وطلب اليه ان يبايعه ويبعث اليه باحمد وقرا يوسف حالاً . فلم يسع فرج الا الاذعان لقضاء الله . فاجابه الى طلبه صاغراً وأهداه زرافة حبشية وبايعه واعترف بسيادة التتر على مصر وانه قائم باحكامها بالنيابة عنهم . اما احمد وقرا يوسف فقال انهما احتميا به وحقوق الضيافة تمنعه من تسليمهما فيكون هو الجاني عليهما لكنه وعد ان يسجنهما عنده فاستقرت سيادة تيمورلنك على مصر

ثم اخذ فرج بالتأهب لاسترجاع سوريا بنفسه فلم يكد يتم الاستعداد حتى ضويق عليه في قصره . لان المصريين لما رأوا اذعانه لتيمور وتسليمه بسيادته حسبوا ذلك خيانة وضعفاً وايقنوا انه لا يصلح لادارة الاعمال فاقروا على خلعه وتولية اخيه عز الدين عبد العزيز وكان اعظم في عيونهم منه . فاجتمعوا تحت لوائه وساروا لمحاصرة أخيه في قصره في ١٦ ربيع اول سنة ٨٠٨ ﻫ وما زالوا يهددونه حتى تنازل حفظاً لحياته وقد حكم ست سنوات وخمسة اشهر و١١ يوماً

« سلطنة عبد العزيز بن برقوق »

ثم خرج من قصره واختفى في مكان غير معلوم فظن الناس انه قتل من الضوضاء والازدحام فبايعوا اخاه ولقبوه بالملك المنصور . ولم يمض شهران على توليته حتى تحققوا خيبة ظنهم به فملوا من طاعته ومالوا بكليتهم الى سلفه فاتصل ذلك بفرج فخرج من خبائه فتقدم اليه الناس ورجال الدولة ان يعود الى منصبه فعاد في جمادى الآخرة ونفى اخاه عز الدين الى الاسكندرية فعاش فيها اشهراً قليلة وتوفي في ٧ ربيع آخر سنة ٨٠٩ ﻫ

« سلطنة فرج بن برقوق — ثانية »

فلما عاد فرج الى منصبه وجه انتباهه خصوصاً الى استرجاع ثقة الاهلين فيه فغزا دمشق وافتتحها ثم فتح غيرها من مدن سوريا واهتم براحة الرعية فخيم الامن وسكنت

القلوب . وفي سنة ٨١٣ هـ ظهرت في القاهرة ثورة دينية ذهبت بحياته . وذلك ان احد امراء المماليك المدعو ابا النصر الملقب بالشيخ المحمودي الظاهري نسبة الى سيده الامير محمود احد امراء الملك الظاهر برقوق وكان الملك الظاهر قد اعتقه ووعده بالمناصب الحربية فطمحت ابصاره الى السلطنة فاستخدم لهذه الغاية الخليفة المستعين بالله وقد ولي الخلافة بعد الخليفة المتوكل على الله منذ خمس سنوات . وكان الخلفاء العباسيون منذ استئصال شوكتهم من بغداد وانتقالهم الى القاهرة لا يخرجون في اعتبار الاهالي عن حد السلطة الدينية وكانوا يلقبونهم بالأئمة . فاسرّ الشيخ المحمودي الى المستعين انه يقدر ان يعيد السلطة السياسية كما كانت لاسلافه وقال له « ان الناس ميالون الى ذلك بكليتهم وهم مستعدون لمبايعتكم وتنفيذ اوامركم » فتنبه في قلب الخليفة حب السيادة فوافق الشيخ المحمودي . وكان فرج اذ ذاك في دمشق فاتفقا على استقدامه فانفذا اليه اولاً ان يتنازل عن الملك فاجاب أن لا جواب عنده غير السيف واخذ في اعداد مهمات الحرب ومثل ذلك فعل الخليفة والشيخ المحمودي وتقدم الجيشان لكنهما لم يتلاحما حتى اصدر الخليفة امراً بتوقيعه فجاء بما لا يجيء به السيف ونصه « من الامام ابي الفضل المستعين بالله امير المؤمنين الى اهل مصر . اعلموا اننا قد خلعنا فرج بن برقوق عن سلطنة مصر والشام لان سيدها الحقيقي انما هو الخليفة خليفة الرسول (صلعم) فويل لمن خالفه »

فلما دار ذلك بين الجيوش اعرضوا عن فرج ولم يبق له نصير فحاول الفرار فلم ينجح فقبض عليه وقيد الى الخليفة فانتحل له ذنباً يستوجب عليه المحاكمة — وهو انه كان قد اضطر لكثرة ما انفقه الى محاربة التتر أن يضرب ضرائب فوق العادة فرفعت عليه عرائض التشكي الى مجلس الائمة والفقهاء انه اختلس الاموال وخرب البلاد وانه تمرد على الخليفة ظل الله على الارض فاتخذ الخليفة ذلك ذريعة للحكم على فرج بالاعدام فقتلوه في ٢٥ محرم سنة ٨١٥ هـ خارج اسوار دمشق وتركوا جثته ملقاة على دمنة هناك

« سلطنة الامام المستعين بالله »

فاجتمعت السلطتان الروحية والسياسية للمستعين بالله فبايعه الامراء وقواد الجند ولقبوه بالملك العادل فاستلم مقاليد الاحكام وجعل الشيخ المحمودي اتابك العسكر ومدير المملكة . واخذ في اصلاح الاحوال ووجه انتباهه الى ما يكتسب قلوب الرعية فاعاد الامن الى البلاد بمقاصة المعتدين واظهر لياقته لما عهد اليه فشرع في تنظيم الاحكام وانصاف المظلومين وبذل العطاء فاحبه الناس. أما الشيخ المحمودي فانه قام بهذه الثورة

خدمة لاغراضه وليس للخليفة فرأى انه اصبح آلة بيده فاضمر له شراً ونوى على خلعه لكنه استخدم الحزم والتأني واغتنام الفرص خوفاً من الوقوع في شر اعماله فعمل على توطيد العلاقات الودية بينه وبين أمراء المماليك والتقرب منهم واقناعهم تحت طي البساطة والاخلاص ان في هذا الخليفة شيئاً من ضعف الرأي والخمول فضلاً عن كونه غريباً عنهم . فاستمال قلوبهم واشتد ازره بهم فاخذ يشكو من منصبه فولاه الخليفة نيابة الملك في ٨ ربيع اول من تلك السنة فصار اقدر على تنفيذ ماربه وما زال ساعياً الى مطامح انظاره حتى كثرت احزابه واصبحت ازمة البلاد في يده فاجبر الخليفة على مشاركته في السلطة فاجاب ولقبه بالملك المؤيد ثم خطا خطوة أخرى فخلع الخليفة وحبسه في بعض غرف القصر

« سلطنة الشيخ المحمودي »

فلم يستطع المستعين بالله مقاومة لكنه كتب سراً الى نوروز احد اصدقائه القدماء وكان قد ولاه سوريا يستنجده فقدم نوروز مسرعاً الى القاهرة في جيش فرأى انه يقصر عن مناوأة المحمودي فاوعز الى الخليفة ان يستخدم الوسائط الدينية كما فعل المرة الماضية . وكان الشيخ المحمودي في دمشق فاصدر منشوراً بخلعه فاغتنم المشائخ والامراء فرصة غيابه وجاهروا بخلعه . وبلغ ذلك الشيخ المحمودي فاسرع الى القاهرة فخافه المشائخ والعلماء وانكروا خلعه وقالوا ان الخليفة اولى بذلك الخلع والحوا على معاقبته لانه تمرد على سلطانهم فخلعوه من السلطنة والخلافة وسجنوه ثم نفوه الى الاسكندرية سنة ٨١٨ هـ واقاموا أخاه داود خليفة مكانه ولقبوه بالامام المعتضد بالله . فعاد الشيخ المحمودي الى كرسي السلطنة واخذ يسعى في اكتساب ثقة الاهلين فاتبع خطة الخليفة المستعين فانصف ورفق فأمنت الرعية وسعدت البلاد . وما زالت الحال كذلك ثماني سنوات وخمسة اشهر وفي ٩ محرم سنة ٨٢٤ هـ توفى السلطان الشيخ المحمودي . وكان محباً للعلماء يكرم مثواهم . وله بنايات جميلة من جملتها الجامع المسمى جامع المؤيد بالقرب من باب زويلة وقد جدد بناؤه وهو كثير النقوش ولم يبق من البناء القديم الا ايوان القبلة . وبعد وفاته عادت الامور الى مجراها الاول من القلاقل فتولى السلطنة بعده ثلاثة سلاطين لم يحكموا الا مدة قصيرة

« سلطنة احمد بن المحمودي ثم سيف الدين ططر ثم محمد بن ططر »

اولهم ولده شهاب الدين احمد الملقب بالملك المظفر وفي شوال من تلك السنة تخلى

عن الملك لوصيه وحميه سيف الدين ططر الملقب بالملك الظاهر وهذا توفي في ذي الحجة من السنة المذكورة فبويع ابنه ناصر الدين محمد ولقب بالملك الصالح وبعد اربعة اشهر خلعه وصيه سيف الدين برس باي فقضى باقي حياته في الشقاء

« سلطنة الملك الاشرف برس باي »

من سنة ٨٢٥ — ٨٤١ ﻫ او من ١٤٢٢ — ١٤٣٧ م

وبعد خلعه اختلف الامراء في من يخلفه فتنحى برس باي حتى اهلك الاحزاب بعضها بعضاً فالتقم السلطنة غنيمة باردة . فبويع في ٨ ربيع آخر سنة ٨٢٥ ﻫ ولقب بالملك الاشرف وقد كان برس باي مملوكاً احبه سيده الملك الظاهر ططر فاعتقه ورقاه حتى جعله وصياً على ابنــه . وفي اول حكمه فاض النيل حتى غمر الارض بالخيرات فكثرت الحبوب وشبع الفقراء . وكان برس باي كالشيخ المحمودي حكمة ورفقاً وقد رمم عدة مدن وشاد في القاهرة عدة بنايات منها الجامع المعروف بجامع الاشرفية تجاه سوق العطارين ابتدأ في بنائه سنة ٨٢٦ ﻫ . وقد تمكن برس باي لحسن سياسته وحزمه من استبقاء السلطة بيده مدة طويلة والبلاد في سكينة الا في سنة ٨٢٧ ﻫ اذ ثار الامير بنيق النجاشي نائبه في دمشق . غير ان تلك الثورة ما لبثت ان ظهرت حتى اضمحلت وعوقب الثائرون بمساعدة امير زنجي يقال له عبد الرحمن فولاه برس باي على سوريا بدلاً من النجاشي وكانت هذه الثورة اول القلاقل وآخرها في ايامه

اما محارباته مع الدول الاخرى فجديرة بالاعتبار لانه جرد على الافرنج عدة تجريدات وتغلب عليهم فاخضع جزيرة قبرص وحمل الملك جان لوسينيان الثالث على الاعتراف بسلطانه واداء الجزية . وعقد مع ملوك الصليبيين وسلطان آل عثمان اذ ذاك مراد ابن محمد معاهدات سلمية تدل على عظيم شوكته . فكانت مصر في ايامه سعيدة داخلاً وخارجاً وقال بعض المؤرخين ان الملك الاشرف برس باي اجدر الملوك الشراكسة بالمدح لانه كان اعلاهم همة واشدهم عزيمة واكثرهم تدرباً في الاحكام . ومما يتمدح عليه انه ابدل جميع التذللات التي كانت تقدم للملوك قبله بتقبيل اليد فقط . لكنه اصيب في اواخر ايامه بمرض في عقله كما اصيب الحاكم بامر الله فاصدر اوامر غريبة منها انه امر بنفي الكلاب الى بر الجيزة . فصار كل من امسك كلباً يأخذ نصف فضة من صيرفي باب السلسلة فامسك العياق من الكلاب نحو الف كلب فنفوها الى بر الجيزة . ثم انه امر بأن لا تخرج امرأة من بيتها الا باذن من الحكومة فكانت الغاسلة اذا

ارادت التوجه الى ميتة تأخذ ورقة من المحتسب تجعلها في رأسها وتمشي في السوق . ثم انه نادى في القاهرة بأن لا يلبس الفلاحون زمطاً مطلقاً فامتثل الناس امره . ثم انه رسم بتوسيط الحكماء فوسط الرئيس خضر . ووسط الرئيس شمس الدين بن العفيف واستمر على امثال ذلك الى ان مات بعد ان حكم ١٧ سنة و٨ اشهر و٦ ايام . قضى يوم السبت ١٣ ذي الحجة سنة ٨٤١ هـ وعمره ستون سنة

« سلطنة يوسف بن برس باي »

من سنة ٨٤١ — ٨٤٢ هـ او من ١٤٣٧ — ١٤٣٨ م

فبويع ابنه جمال الدين يوسف الملقب بأبي المحاسن ولقب بالملك العزيز وبعد ثلاثة اشهر من مبايعته تخاصم مماليكه وسيف الدين جقمق اتابك جيشه خصاماً انتهى بعزله ومبايعة جقمق في ١٩ ربيع اول سنة ٨٤٢ هـ

« سلطنة الملك الظاهر جقمق »

من سنة ٨٤٢ — ٨٥٧ هـ او من ١٤٣٨ — ١٤٥٣ م

وكان سن جقمق اذ ذاك ٦٩ سنة ولقب بالملك الظاهر وبعد سنتين من حكمه اصيبت مصر بطاعون تفشى في انحائها . وفي سنة ٨٤٦ هـ توفي الامام المعتضد بالله وكان باراً تقياً واوصى بالخلافة بعده لاخيه بالرحم فبايعوه ولقبوه بالمستكفي بالله وكان صديقاً للسلطان جقمق وبعد ثماني سنوات من خلافته توفي سنة ٨٥٤ هـ وكان كاخيه تقياً وباراً فتخاصم الاعيان والكبراء في المسابقة الى حمل نعشه وقت الجنازة حتى السلطان جقمق فانه حمل به على منكبيه . فبويع اخوه ولقب بالقائم بامر الله . وكان سير هذا الخليفة مغايراً لسير اسلافه فابغض السلطان وخاف دسائسه وكان قد تجاوز الثمانين من سنه ولم تبق فيه عزيمة على مقاومة الدسائس فتنازل عن السلطنة لابنه فخر الدين عثمان وتوفي في ٢٩ صفر سنة ٨٥٧ هـ وهي السنة التي فتح فيها السلطان محمد الثاني القسطنطينية

« سلطنة عثمان بن جقمق »

من سنة ٨٥٧ — ٨٥٧ — او من ١٤٥٣ م

وبويع فخر الدين عثمان ولقب بالملك المنصور اما الخليفة فلم ينفك عن دسائسه طمعاً بالسلطة فدعا اليه زمرة من الامراء وحملهم على نبذ طاعة الخليفة على امل ان

ينال بذلك ما ناله المستعين بالله فانتشبت الثورة وخلع الملك المنصور عثمان في غرة شهر ربيع آخر من تلك السنة بعد ان حكم شهراً ويوماً . اما الخليفة فخاب انتظاره وحبطت مساعيه فغادرته الاحزاب وبايعوا مملوكاً مسناً اسمه ابو النصر اينال ولقبوه بالملك الاشرف

« سلطنة الملك الاشرف اينال »

من سنة ٨٥٧ — ٨٦٥ اومن ١٤٥٣ — ١٤٦٠ م

فقال الخليفة في نفسه ان هذا السلطان شيخ فلننتظر وفاته ولا يلبث ان يصيب حتفه . فانتظر ست سنوات فلم يمت فعمد الى الدسيسة فاتصل ذلك بالوزير بلجيوني فاعلم السلطان بامره فاستحضر الخليفة وقرَّعه ثم امر بخلعه عن الخلافة . فقال الخليفة « من اين لك ان تخلع الخلفاء ولهم وحدهم ان يولوا ويعزلوا » فلم يجبه الا بالنفي الى الاسكندرية فبقي فيها مدة ثم مات . فبايعوا يوسف اخا المعتضد بالله ولقبوه بالمستنجد بالله وكان حكيماً معتدلاً وعاش السلطان اينال بعد ذلك سنتين ولى وعزل في اثنائها كثيراً من الوزراء ثم توفى يوم الخميس ١٥ جمادى الاولى ٨٦٥ هـ بعد ان حكم ٨ سنوات وشهرين وستة عشر يوماً

« سلطنة احمد بن اينال »

فولى بعده ابنه شهاب الدين احمد الملقب بابي الفتح وقد تعاطى الاحكام في آخر ايام ابيه . فلما بويع لقب بالملك المؤيد ولكنه لم يحكم الا اربعة اشهر فعزل في ١٨ رمضان من تلك السنة وبويع سيف الدين خوش قدم ولقب بالملك الظاهر

« سلطنة الظاهر خوش قدم »

ويعرف خوش قدم هذا بالرومي لانه يوناني الاصل و بالناصري لانه كان من مماليك الملك الناصر وكان محباً للآداب اليونانية محافظاً عليها . وكان حكيماً باراً حليماً محباً لرعيته ساهراً على راحتهم ولم يكن يستوزر الا الذين اختبر نزاهتهم ونشاطهم فاحبته الرعية واجمعوا على طاعته والاخلاص له وقد اقتدى به رجال دولته . اما الخليفة فلم يكن يتجاوز سلطته الدينية فحكم خوش قدم ست سنوات ونصف كلها سلام ونعيم وتوفى في ١٠ ربيع اول سنة ٨٧٢ هـ وعمره ستون سنة

« سلطنة الملك الظاهر بلباي ثم الظاهر تمربغا »

فبايعوا ابا سعيد بلباي ولقبوه بالملك الظاهر فكان سمياً لسابقه بالاسم لا بالفعل فجاء من السيئات اكثر مما جاء من الحسنات لانه كان مستبداً عاتياً لا يغادر كبيراً ولا صغيراً فكرهته الناس ولم يمض ٦٦ يوماً من توليته حتى خلعوه وذلك في ١٧ جمادى الاولى من تلك السنة وبايعوا الامير ابا سعيد تمربغا الملقب بالظاهري ولقبوه بالملك الظاهر ايضاً فكان حظه من الملك كحظ سلفه لانه خلع بعد شهرين من توليته وبايعوا الامير قايت باي الملقب بالمحمودي وبالظاهري ولقبوه بالملك الاشرف

« سلطنة الملك الاشرف قايت باي »

فتوالى على مصر في سنة ٨٧٢ ﻫ اربعة سلاطين . اما السلطان الاخير فمكث على سرير السلطنة مدة طويلة رغم ما كانت عليه البلاد من الاضطراب . وكان قايت باي مملوكاً محرراً من مماليك جقمق وكان لعلو همته وحسن سياسته قابضاً على ازمة الاحزاب فكانت البلاد آمنة مطمئنة لانها اضطربت بخبر انتصار السلطان محمد الثاني العثماني على اوزون حسن ملك الفرس

وعاش قايت باي خمس سنوات وتوفى في ٢٢ ذي القعدة سنة ٩٠١ ﻫ بعد ان حكم ٢٩ سنة واربعة اشهر وعشرين يوماً . ومن آثاره جامعه المعروف باسمه الى هذا العهد في القرافة خارج القاهرة وجامعاً في جزيرة الروضة لا يزال يشاهد هناك الى هذا اليوم

« سلطنة محمد بن قايت باي ثم قنسو خمسمئة ثم قنسو ابي سعيد »

(ثم قنسو جانبلاط ثم الملك العادل طومان باي)

وتولى بعد قايت باي ابنه ابو السعادة محمد ولقب بالملك الناصر ولم يجلس على سلطنة مصر رجل اقل لياقة لها منه فانه كان احمق جبيصاً وحشياً لا ديدن له الا الانغماس في الملذات الحيوانية ولو كلفه ذلك ارتكاب شر الآثام . وقد زادت قحته حتى سلخ جلد احد مماليكه حياً فثار عليه المماليك وخلعوه بعد ان حكم ستة اشهر . وبايعوا الامير قنسو الملقب بخمسمئة لانه ابتيع بالاصل بخمسمائة دينار ولقبوه بالملك الاشرف وبعد خمسة أشهر تنازل عن الملك عجزاً فاعادوا الملك الناصر محمد ثانية لكنه لم يبق

الا ١٨ شهراً ونصف فذبحه المماليك في ١٦ ربيع اول سنة ٩٠٤ هـ وبايعوا عم قنسو واسمه قنسو الثاني الملقب بأبي سعيد ولقبوه بالملك الظاهر وهو لم يقبل هذا المنصب الخطر الا بالرغم عنه . وبعد عشرين شهر وبضعة ايام عزلوه وبايعوا قنسو الثالث جانبلاط ولقبوه بالملك الاشرف ولم يحكم الا سبعة اشهر ثم خلع في ١٨ جمادى الآخر سنة ٩٠٦ هـ فاقام امراء دمشق الامير سيف الدين طومان باي وكان من مماليك قايت باي ولقبوه بالملك العادل . فوافقهم امراء القاهرة على ذلك . وبعد ثلاثة اشهر اضمر له المماليك مكيدة يقتلونه بها فعلم هو بذلك ففر طالباً للنجاة فأوى الى مكان ظنه ملجأ حصيناً مكث فيه اربعين يوماً فاكتشف عليه المماليك وقتلوه في ذي القعدة سنة ٩٠٦ هـ ثم اجتمع المماليك والاعيان وارباب الدولة وتداولوا فيمن يجب ان يختاروا ليحكم من اهل اللياقة فاقروا على امير قنسو الرابع الملقب بالغوري وكان هو ايضاً من مماليك قايت باي وكان رجلا تقياً مخاصاً محترماً عفيفاً غير عالم بما كان يتخاصم عليه الامراء وما كانوا يدسونه من الدسائس . فلما بلغه امر مبايعته اندهل ورفض قائلاً للذين انتخبوه « لا اخالف لكم امراً انما اراني غير لائق بهذا المنصب لاني لم اعتد معاناة الاحكام والامر والنهي فاجابوه ان صدق نيته واخلاصه وثقة الناس فيه كافية لاستحقاق هذا المنصب . فلم ير بدًّا من القبول لكنه قال لهم « اكون في غاية السرور اذا جئتموني يوماً تنبؤني بالاقالة من هذا المنصب فارجع الى ما اعتدته من معيشة السكينة » فولوه في غرة شوال من تلك السنة ولقبوه بالملك الاشرف أيضاً

« سلطنة قنسو الغورى »

من سنة ٩٠٦ – ٩٢٢ هـ او من ١٥٠١ – ١٥١٦ م

فاستلم الغوري مقاليد الاحكام واخلص في الحكم فاطمأنت البلاد وسكن حالها فاخذ في اصلاح شأنها فابتنى في القاهرة جامعاً ومدرسة ينسبان اليه وهما مدرسة الغورية وجامع الغورية في اول شارع الغورية في السكة الجديدة كل منهما الى جانب من الطريق . فالى الشرق البناية التي كانت فيها المدرسة وبابها الى الجنوب مدفن فيه مقام بعض اهله . والى الغرب الجامع ويظهر للناظر عندما يشرف عليه انه هائل وهو مبني على مثال جامع قايت باي وعلى القبة كتابة كوفية . وقد رمم بمساعي جمعية حفظ الآثار والى الشمال سبيل جميل

ثم كانت الحوادث السياسية فتوقف الغوري عن اتمام ما كان يقصده من البناء والتحسين فان البرتغاليين لما استولوا على بعض بلاد الهند اثقلوا على العلاقات التجارية

بينها وبين مصر فجهز قنسو الغوري الى محاربتهم حملة عظيمة ذهبت غنيمة باردة لجيوش الافرنج في البحر الاحمر

وفي سنة ٩١٨ هـ جهز قنسو الغوري عشرين بارجة بحرية لافتتاح القسطنطينية فذهبت هذه العمارة غنيمة لمراكب اورشليم في البحر المتوسط ولم تكن النتيجة الا اثارة غضب السلطان سليم على مصر فجهز اليها وابتدأ بافتتاح الحدود السورية وارسل الى مصر رسائل التهديد فاتحد الغوري مع ملك الفرس اسماعيل شاه على قهر العثمانيين وكان الفرس في حرب معهم الاَّ ان الجيوش العثمانية لم تبال بكثرة العدد فشتتت الجيشين وأي تشتيت . فعمد قنسو الغوري الى مخابرة العثمانيين بامر الصلح على أي وجه كان و بعث الى السلطان سليم بذلك فسارت الرسل حتى اتوا السلطان سليم فخروا ساجدين وخاطبوه بامر الصلح فقال لهم وقد استشاط غيظاً « لقد فات الاوان انهضوا وارجعوا الى سلطانكم وقولوا له ان الرجل لا تعثر بحجر واحد مرتين . وها انا ذاهب الى القاهرة فليستعد للدفاع ان كان له اهلاً » فعادوا واخبروه بما كان فجمع اليه رجاله وسار لملاقاة الجيوش العثمانية فالتقى بها في مرج دابق قرب حلب فانتشبت الحرب هناك واظهر الغوري بسالة واقداماً عظيمين حتى اوشكت رجاله ان تستظهر فمنعتها مدافع العثمانيين من ذلك ولم يكن سلاح المصريين الا الرماح والحراب والسيوف فتشوش نظامهم ووقع الرعب في قلوبهم وانحاز قائد جناحيهم الى العثمانيين وكان الغوري قائداً لقلب الجيش فاضطر الى الفرار فحول شكيمة جواده فسقط عنه لشدة الازدحام وذهب قتيلا تحت ارجل الخيل في ٢٥ رجب سنة ٩٢٢ بعد أن حكم ١٥ سنة وتسعة اشهر و٢٥ يوماً

« سلطنة الملك الاشرف طومان باي »

وكان السلطان قنسو الغوري قبل خروجه من القاهرة هذه المرة قد استخلف عليها ابن اخيه طومان باي (الثاني) فلما اتصل خبر تلك الموقعة بالامراء بايعوا طومان باي ولقبوه ايضاً بالملك الاشرف وكان حازماً باسلا . فلما وصلت بقية الجيوش المنهزمة الى القاهرة امر باعداد حملة اخرى لمحاربة العثمانيين . وكان العثمانيون في سوريا قد توقفوا للاستراحة فظن طومان باي ان الرمال المتراكمة بين سوريا ومصر تحول بين العثمانيين وما يريدون . الا ان الامر لم يكن كما ظن لانه لم يكد يتم اعداداته حتى اتاه كتاب السلطان سليم الى القاهرة ونصه :

من السلطان سليم خان بن السلطان بايزيد خان سلطان البرين وخاقان البحرين السلطان الخ . الى طومان باي الشركسي

« الحمد لله . أما بعد فقد تمت ارادتنا الشاهانية وباد اسماعيل شاه المرطوقي . اما قنسو الكافر الذي حملته القحة على مناواة الحجاج فقد نال جزاءه منا ولم يبق لدينا الا ان نتخلص منك فانك جارٌ معاد والله سبحانه وتعالى يساعدنا على معاقبتك فاذا اردت اكتساب رحمتنا الملوكانية اخطب لنا واضرب النقود باسمنا وتعال الى اعتابنا واقسم على طاعتنا والاخلاص لنا والا ..... »

فلما قرأ طومان باي الكتاب وما في ذيله من التهديد المستتر استشاط غيظاً واصر على المقاتلة وكان عالماً بعجزه لكنه فضل الموت في ساحة الحرب على التسليم . فزاد في حصون دمياط وغيرها من الحدود السورية وجمع كل ما امكنه جمعه من الرجال وسار لملاقاة العثمانيين حتى اتى الصالحية فعسكر هناك . اما السلطان سليم فسار من مرج دابق وافتتح غزة والعريش والقطيعة . ثم علم بتقهقر الجيوش المصرية في الصالحية وما هم فيه من العزم على المدافعة لشدة اليأس فعرج بجيشه تاركا الصالحية عن يمينه وسار حتى اتى الخانكاه على بضع ساعات من القاهرة

فلما بلغ طومان باي تقدم العثمانيين الى هذا القدر عاد بجيشه لمهاجمتهم من الوراء فالتقى الجيشان في سهل قرب بركة الحج يوم الجمعة في ٢٩ ذي الحجة سنة ٩٢٢ هـ واقتتلا طويلاً والمصريون يحاربون ببسالة شديدة لكنهم لم يكونوا يعرفون البارود والمدافع كما قدمنا فكانت الغلبة للعثمانيين ففر المصريون الى القاهرة وعسكر العثمانيون في الروضة . فجمع اليه طومان باي عدداً كبيراً من العربان بعد ان ارضاهم بالمال وهجم على معسكر السلطان سليم هجمة اليأس فلم ينل هذه المرة غير ما نال في المرة الماضية فعاد الى القاهرة على نية الحصار فزاد في حصونها واستحكاماتها وحصن القلعة تحصيناً عظيماً واقام في كل شارع وفي كل بيت طابية للدفاع وحمل السلاح كل من يستطيع حمله للمدافعة عن الوطن . ولكن رغم كل هذه الاعدادات وما اظهره طومان باي من البسالة والاقدام وما سعى اليه امراؤه لم تنج القاهرة من يد العثمانيين فانهم دخلوها عنوة وامعنوا فيها قتلاً ونهباً وحرقاً واستلموا القلعة

اما طومان باي فتمكن من الفرار على معدية قطع بها الى الجيزة ثم سار منها قاصداً الاسكندرية فقبض عليه بعض العربان لرحل وباعوه للعثمانيين . فستحضره السلطان سليم مغلولاً ونظر اليه فاذا هو في حالة الكدر وقد علا وجهه القنوط لما

حل ببلاده من الذل والدمار فتحركت عواطف السلطان سليم فامر بان تحل قيوده وان يؤذن له بالحضور في مؤتمرات كان يعقدها السلطان سليم لاجل المداولة في امر البلاد فكان يسأله مسائل كثيرة تتعلق بمحصولات البلاد وخراجها وادارتها وبقي الحال كذلك نحو عشرة ايام وفي اليوم العاشر رأى السلطان سليم انه لم يعد في احتياج الى مشورة طومان باي فامر بشنقه في ١٩ ربيع اول سنة ٩٢٣ هـ فعلقوه تحت رواق باب زويله بكلاب من حديد كان باقياً هناك الى عهد قريب

وبقتل طومان باي انتهت دولة المماليك الشراكسة او البرجية بعد ان تسلطوا نحو ١٣٩ سنة واصبحت مصر احدى الايالات الكبيرة



(١) فاتح مصر وسودان سلطان سلیم دادگر   قهرمان شیردل دارای اسکندرسیر

(٢) هپ جهانگیران دوران (مهریا) شابا ندر   ایده تصویر همایونیله تنویر بصر

(ترجمته بالعربية)

(١) السلطان الغازي ياوز سليم خان العادل فاتح مصر والسودان البطل الهمام قلب الاسد الذي فاق دارا والاسكندر في السلطنة والشوكة والعظمة

(٢) يا (مهري) يحق لكل الفاتحين ان ينوروا ابصارهم برؤية هذه الصور الهمايونية

(ابيات باللغة التركية)

(١) بقاى دولتيله شوكت اسلام قائمدر بوني فهم ايتمان واراايسه اولدر ابله ونادان
(٢) نه ايوب وامويه نه ده عباسيون ايتدى بودولت ايتديكي دين مبينه خدمتى هرآن
(٣) اوقو تاريخ آل دولة عثماني يى اكلا اولور روشن ـ كااولدم بو نطقم چوز مه تابان
(٤) يدي يوز يله يقتدرلواى نصر اسلامي آلوب دست همايونه بو نسل پاك والاشان

(ترجمته بالعربية)

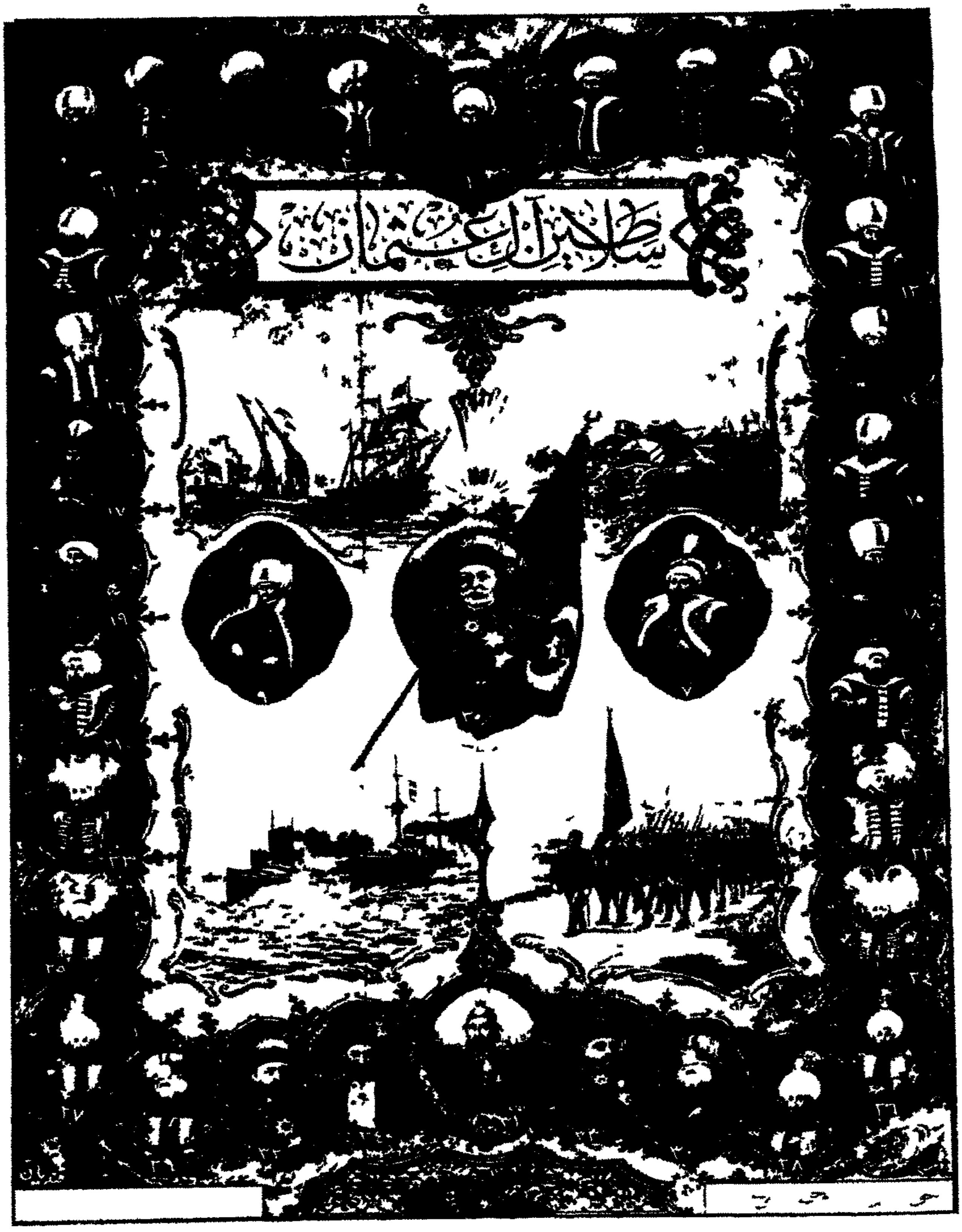
(١) تدوم قوة وشوكت الاسلام بدوام هذه الدولة . ومن لا يعرف هذا القول فهو جاهل لا محالة

(٢) شعائر الدين وخدمة الملة الاسلامية والفتوحات التي اتت بها هذه الدولة . فاقت ما فعلته الدولة الاموية والعباسية والايوبية

(٣) اقرأ تاريخ دولة آل عثمان فيظهر لك هذا القول كبدر منير للعيان من نحو سبع مائة سنة وهذا النسل المبارك الجليل الشان قابضاً بيده العلم الاسلامي المنصور .

(٤) مضى من نشأت الاسلام الف وثلثماية واثنين وثلاثين سنة ولم تدم فيها خلافة ولا سلطنة كما دامت سلطنة خلافة هذا النسل الكريم . ادامها الله بالنصر المبين الى يوم الدين

وحاربت هذه الدولة معظم دول اوروبا وفتحت القسطنطينية وبلاد المجار وحاصرت فينا عاصمة النمسا واخذت الجزية من الارشيدوق فردينان واكتسحت البحر الابيض الى شواطئ اسبانيا — ووجهت انظارها نحو الشرق ففتحت العراق والشام ومصر على يد السلطان سليم السابق الذكر



١ ـ سلاطين آل عثمان

(جدول اسماء سلاطين آل عثمان)

		ولد سنة	جلس سنة	توفي سنة
١	السلطان الغازي عثمان خان الاول	٦٥٦	٦٩٩	٧٢٦
٢	» » اورخان بن السلطان عثمان	٦٨٠	٧٢٦	٧٦١
٣	» » مراد خان الاول بن السلطان اورخان	٧٢٦	٧٦١	٧٩١
٤	» يلديرم بايزيد خان بن السلطان مراد خداوندكار	٧٦١	٧٩١	٨٠٥
٥	» محمد چلبي بن السلطان يلديرم بايزيد	٧٨١	٨٠٦	٨٢٤
٦	» الغازي مراد خان الثاني بن چلبي السلطان محمد	٨٠٦	٨٢٤	٨٥٥
٧	» » ابو الفتح محمد خان الثاني بن السلطان مراد الثاني	٨٣٣	٨٥٥	٨٨٦
٨	» » بايزيد خان بن فاتح السلطان محمد	٨٥١	٨٨٦	٩١٨
٩	» » ياوز سليم خان بن السلطان بايزيد	٨٧٥	٩١٨	٩٢٦
١٠	» » سليمان خان » » »	٩٠٠	٩٢٦	٩٧٤
١١	» » سليم خان الثاني بن السلطان سليمان القانوني	٩٣٠	٩٧٤	٩٨٢
١٢	» » مراد خان الثالث بن السلطان سليم الثاني	٩٥٣	٩٨٣	١٠٠٣
١٣	» » محمد خان الثالث بن السلطان مراد الثالث	٩٧٤	١٠٠٣	١٠١٢
١٤	» » احمد خان بن السلطان محمد الثالث	٩٩٨	١٠١٢	١٠٢٦
١٥	» » مصطفى خان بن السلطان محمد خان خلع بعد الشهر وجلس ثانية وخلع بعد شهرين	١٠٠١	١٠٢٦	١٠٤٨
١٦	» عثمان خان الثاني بن السلطان احمد الاول	١٠١٣	١٠٢٦	١٠٣١
١٧	» الغازي مراد خان الرابع بن السلطان احمد	١٠١٨	١٠٣٢	١٠٤٩
١٨	» ابراهيم خان الاول بن السلطان احمد خلع وتوفي	١٠٢٤	١٠٤٩	١٠٥٨
١٩	» الغازي محمد خان الرابع بن السلطان ابراهيم خلع سنة ١٠٩٩	١٠٥١	١٠٥٨	١١٠٤
٢٠	» سليمان خان الثاني » » »	١٠٥٢	١٠٩٩	١١٠٢
٢١	» احمد خان الثاني » » »	١٠٥٢	١١٠٢	١١٠٦
٢٢	» مصطفى خان الثاني بن اوجي السلطان محمد	١٠٧٤	١١٠٦	١١١٥
٢٣	» الغازي احمد خان الثالث بن اوجي السلطان محمد خلع سنة ١١٤٢	١٠٨٤	١١٠٦	١١٤٩

		ولد سنة	جلس سنة	توفي سنة
٢٤	السلطان الغازي محمود خان الاول بن السلطان مصطفى الثاني	١١٠٨	١١٤٣	١١٦٨
٢٥	السلطان عثمان خان الثالث بن السلطان مصطفى الثاني	١١١٠	١١٦٨	١١٧١
٢٦	« مصطفى خان الثالث بن الساطان احمد الثالث	١١٢٩	١١٧١	١١٨٧
٢٧	« الغازي عبد المجيد خان بن « « «	١١٣٧	١١٨٧	١٢٠٣
٢٨	« « سليم خان الثالث بن السلطان مصطفى الثالث	١١٧٥	١٢٠٣	١١٢٣
٢٩	السلطان مصطفى خان الرابع بن السلطان احمد الاول	١١٩٣	١٢٢٣	١٢٢٣
٣٠	السلطان الغازي محمود خان الثاني بن « « «	١١٩٩	١٢٢٣	١٢٥٥
٣١	« « عبد المجيد الثاني بن السلطان محمود الثاني	١٢٣٧	١٢٥٥	١٢٧٧

٣٢ « عبد العزيز خان بن الساطان عبد المجيد خان ولد في سنة ١٢٤٥ وجاس سنة ١٢٧٧ وخلع وتوفي سنة ١٢٩٣

٣٣ « مراد خان الخامس بن السلطان عبد المجيد خان ولد سنة ١٢٥٦ وجلس سنة ١٢٩٣ وخاع بعد ٣ اشهر وايام

٣٤ « الغازي عبد الحميد خان بن السلطان عبد المجيد خان جلس سنة ١٢٩٣ وخلع سنة ١٣٢٧ ومدة حكمه ٣٣ سنة

٣٥ ناشر جنـاح العدل في العالمين حامي حمى الملة والدين امام الغزاة والمجاهدين السلطان المعظم والخاقان المفخم امير المؤمنين وخليفة رسول رب العالمين سيدنا ومولانا السلطان بن السلطان الغازي محمد خان الخامس لا زالت سلسلة سلطنته مسلسلة الى انتهـاء سلسلة الزمان ولد في ٢٠ شوال سنة ١٢٦٠ وجلس في ٧ ربيع الآخر سنة ١٣٢٧

« حال القاهرة في ايام الدولة العلية العثمانية »

لما انقرضت دولة المماليك بموت السلطان الغوري ثم السلطان طومان باي واستولت على مصر الدولة العلية العثمانية كانت القاهرة مع ما كان قد أصابها من التغير والحوادث على جانب من الاتساع والعمار بسبب انها كانت عاصمة مملكة عظيمة تمتد أطرافها الى الجهات الشامية والاقطار الحجازية وجزء عظيم من بلاد سواحل البحر الاحمر كمصوع وسواكن وجميع بلاد النوبة وبرقة على البحر المتوسط فكانت المتاجر ترد اليها من كل جهة وتصدر عنها الى جهات كثيرة وكذلك الصنائع والعلوم وذلك من لدولة الفاطميين

الى آخر دولة المماليك ولم تعقها الفتن والحوادث المهمة عن الاتساع والتقدم بل كان ما يخرب بالفتن ونحوها يتعوّض فكانت العمائر في تلك الازمان من ضواحي المطرية ومنية الشيرج الى دير الطين ومن شاطئ النيل الى الصحراء كما سبق بيانه فلما زال عنها الاستقلال وتوالى عليها ممن كان بها من الاضطراب والفتن والاختلال اورثها ذلك نقصاً في عزها ووهناً في ثروتها وسرى هذا الحال الى باقي بلاد القطر بسوء تصرف العمال وسير كل منهم على حسب ما سوّلت له نفسه فكان كل ذي صولة يجد في تحصيل أطماعه من غير التفات الى ما به عمارة البلاد وسعادة الاهالي ومن كثرة الحروب وتعاقب الاهوال لم يتمكن الفلاحون من زراعة الارض ولا من اعمال الطرق التي بها ريها من احكام الترع والقناطر والجسور فكانت الارض تارة تبور وتارة تظمأ وفسد كثير منها فصار غير صالح للزرع وبسبب ذلك كثر الغلاء والقحط والوباء والامراض وانتقل كثير من سكان العاصمة وغيرها وتعاقب ذلك بحيث لا تمضي أربع سنين أو خمسة الا بشيء من تلك الاهوال فتخرب جزء عظيم من العاصمة ومن مدن الارياف وليس الغرض الآن تفاصيل تلك الحوادث ومن اراد الوقوف على ذلك فعليه بما اسهب به العلامة الجبرتي وغيره في هذا الشأن وانما القصد ذكر بعض مهمات الحوادث ليعلم القارئ كيف كانت سياسة العمال للرعايا واسباب العمارة والدمار

واول حادثة تستحق الذكر هي حادثة دخول عساكر الدولة العلية العثمانية في مصر بعد موت السلطان الغوري وذلك انه لما تولى المملكة السلطان طومان باي والفتن قائمة بين مصر والدولة العلية لم يقم غير قليل حتى حضرت العساكر العثمانية سنة ٩٢٣ هـ واشتعلت نيران الحرب بينهم وبين عساكر طومان باي فكانت في جهة العباسية ثم صارت في بولاق ثم جهة القصر العالي وباب اللوق وجهة السيدة زينب رضي الله عنها وفي مصر العتيقة والصليبة وقره ميدان والرميلة وحدرة البقر فتخرب لذلك كثير من المساكن والقصور الفاخرة وجامع شيخون وجامع طولون وصارت القتلى مطروحة في الطرقات والشوارع والحارات من العباسية الى بولاق الى مصر العتيقة الى الصليبة الى القلعة ولم تخمد نار الحرب الا بعد هروب طومان باي وكانت مدتها اربعة ايام قتل فيها نحو عشرة آلاف نفس ولما تم الامر للعثمانيين واستولوا على مصر اخذوا يفتشون على امراء الجراكسة فكل من وجدوه منهم قتلوه ونهبوا منزله حتى فنيت عدة من امراء البلد وخربت منازلهم ومكث السلطان سليم بالديار المصرية ثمانية اشهر يرتب امورها ويمهد قواعدها ثم رحل عنها الى القسطنطنية بغنائم كثيرة وعدد عديد من

أرباب الصنائع وغيرهم واستصحب معه ايضاً المتوكل على الله العباسي الذي كان خليفة بمصر حين ذاك بعد ان استنزله عن الخلافة فخلع نفسه منها وتنازل عن حقوقها وفوض أمورها الى السلاطين من آل عثمان وابقى السلطان ما كان مقرر للحرمين الشريفين والمساجد والاضرحة والارامل والايتام والفقراء وغيرهم من الاوقاف والارزاق والخيرات بل زاد في ذلك ورخص باستخدام من بقي من المماليك وقرر من القوانين والنظامات ما رأى انه يترتب عليه استمرار التبعية للسلطنة واستقرار الامن والراحة والرفاهية للرعية لو بقي ذلك مرعيّ الاجراء لكن لم يمض غير تسع سنين حتى قامت العساكر على احمد باشا الوالي اذ ذاك ومن معه بسبب انه رغب في الاستقلال وجاهر بالعصيان فحصل بينه وبينهم مقتلة عظيمة في الرميلة وما جاورها وحاصروه في القلعة حتى قتلوه وانقضت تلك الحادثة بخراب بعض ما جاور الرميلة ثم تولى بعده عدة ولاة اهتم بعضهم في عمارة بعض الجوامع وبنى بعضهم وكائل في القاهرة وبولاق وبنى داود باشا مدرسة في سويقة اللالا سنة ٩٥٥ هـ وبنى اسكندر باشا جامعاً وانشأ عمارة عظيمة في باب الخرق وقد زال كل ذلك وصار ميداناً كما قدمنا وكذا سنان باشا انشأ جامعاً وعمارة جليلة في بولاق وفي غيرها واوقف كل منهم اوقافاً دارة على عمارته لاجل بقائها عامرة ومن عادتهم ان كل من اراد وقف شيء اخذ من وقف غيره واوقفه باسمه أو نهب من ايدي الناس واوقفه فلذلك لم تستمر بعدهم بل أخذت تلك الاوقاف في التقهقر والخراب حتى صارت بعضاً من كلّ وقل ايرادها فاختل لذلك بعض العمائر ولانحلال عرى الضبط والسياسة اختل حال الرعية وقل الامن وكثرت اللصوص وقطاع الطريق واهل الفساد في سائر جهات القطر حتى صاروا يدخلون البلاد للنهب جهاراً ليلاً ونهاراً بلا مبالاة لانتماء رؤسائهم الى الامراء وكانت الحكام تكثر من الاوامر والتشديدات بلا ثمرة ولا تأثير في ردع المفسدين الى ان تولى مصر مسيح باشا في سنة ٩٨٧ هـ فتصدى لكبح المفسدين وازالة اهل الشر فقبض على نحو عشرة آلاف منهم وقتلهم وفي زمن حسن باشا الخادم كثرت الرشوة للحكام واتسع نطاقها حتى صارت امراً معتاداً يستحصل عليه بدون مبالاة وجعل همه في جمع المال فكان يحتال بكل حيلة لتحصيله لا يراعي حلا ولا حرمة ولم يكن له أثر قط يذكر به الا تغير زي اليهود والنصارى فألبس اليهود الطراطير السود وألبس النصارى البرانيط السود وكان زي النصارى قبل ذلك العمائم السود وزي اليهود العمائم الزرق وفي سنة ٩٩٤ هـ قامت العساكر على الوالي عدة مرات وعارضوه في أوامره ورفضوا طاعته

وأوقعوا السلب والنهب بالتجار والاهالي واستمرت الفتن وفي زمن محمد باشا الشريف في سنة ١٠٠٤ هـ حصلت محاربات في الرميلة وباب الوزير وكذا في زمن خضر باشا في سنة ١٠٠٧ هـ وفي زمن علي باشا فشا شرب الدخان بمصر ولم يكن معروفاً بها قبل ذلك وفي سنة ١٠١٢ هـ قتلت العساكر ابراهيم باشا الوالي وصارت الحكومة فوضى لا رئيس لها فحل بالناس كل مكروه وتعطل السفر براً وبحراً لقيام الاشقياء من العرب والفلاحين وحل بالقاهرة من القحط والغلاء والوباء ما تسبب عنه خراب كثير منها وازداد الفساد في سنة ١٠١٦ هـ وحصلت في بركة الحاج حروب بين عساكر الوالي والعساكر القائمة مع الامراء العصاة وفي كل واقعة تغتنم العرب فرصة النهب والسلب وبعضهم يفر في جهات الارياف والبعض ينتمي ظاهراً الى احد الطائفتين واتسع نطاق فسادهم وتقاسموا الاقاليم القبلية والبحرية وفي سنة ١٠٢٧ هـ حضر من الاستانة اربعة آلاف عسكري أبعدتهم الدولة عن مقر الحكومة لانهم كانوا أثاروا بها الفتن وانفذت لوالي مصر أن يبعث بهم الى اليمن عند حلولهم بديار مصر فلما أراد الباشا ارسالهم الى تلك الجهة وشرع في تجهيزهم قاموا على قدم العصيان وقفلوا باب الفتوح وباب النصر وعملوا متاريس بالطرق والشوارع واستولوا على كثير من المنازل ووصلوا بعضها ببعض فوجه اليهم الباشا العساكر المصرية ووقع بين الفريقين القتال عدة أيام حتى انتهى بخراب جهة الجمالية والخرنفش وباب الشعرية والحسينية وما جاور ذلك واستمرت الفتن بين العساكر الى سنة ١٠٣٥ هـ بما يتخلل ذلك من الغلاء كالغلاء الفاحش الذي حصل في زمن ابراهيم باشا السلاحدار فقد لقي الناس فيه هولاً شديداً .

وفي سنة ١٠٣٧ زمن الوزير محمد باشا عين العساكر للسفر الى بلاد الحبشة صحبة الامير قانصوه فعسكروا بالعباسية وجعلوا يخطفون الاولاد والبنات ويفتكون بالمارين ويسلبون وينهبون حتى انقطعت الطرق وضاق ذرع الناس وحل بهم الكرب من كل مكان ولم يجدوا مغيثاً ولم تكن المصائب قاصرة على ما حصل من العسكر والعرب بل كثير من الامراء كان لا فكرة له الا فيما يجلب به الضرر للناس وجمع أموالهم كما فعل احمد باشا الذي كان يلقب برامي النحاس فانه جلب نحاساً كثيراً وأراد عمله نقوداً فانشأ بحوش بردق الوجاقات ووضع المسابك وجمع الصناع فلم يحصل على ما كان يؤمل منه من الفائدة فرماه على التجار وسائر ارباب الحرف والطوائف فلحق الناس من ذلك ما لا مزيد عليه من الضنك والشدة ثم قامت عليه العساكر وعزلوه وكان اكثر الحكام يقرر الرشوة على الناس ثم يستعملها من بعده حتى تصير كأنها حقوق

ثانية ولما تولى منصور باشا حاكما على مصر سنة ١٠٥٢ هـ كانت عدة أنواع الفرض والبلص اثنين وثلاثين نوعاً منهـا عشر البن ومنها ما هو على البغايا واولاد الهوى وما هو على المغنيات ونحو ذلك

واستمر هذا الحال الى ان دخلت سنة ١٠٧١هـ فحصلت واقعة السناجق وهي واقعة هائلة انقسمت فيها الامراء احزاباً واشتعلت نيران الحرب في شوارع القاهرة وضواحيها وامتد ذلك الى الاقاليم القبلية وجهز فيها الباشا الوالي عدة تجاريد حتى انتهت بقتل اغلب الامراء الفقارية نسبة الى رئيسهم ذي الفقار وذهبت صولتهم وفي اثر ذلك سنة ١٠٧٤ هـ كان والي مصر عمر باشا فاهتم بجمع السلاح من كافة البـلاد وكانت الضغائن كامنة في نفوس من بقي من الفقارية يترقبون انتهاز فرصة الانتقام من اخصامهم طمعاً في رجوع صولتهم وما كانوا عليه من النعيم فلم يمض غير قليل حتى حصلت واقعة الزرب وهم قوم حضروا من الشام اغلبهم أروام ودروز فانخرطوا في سلك العسكرية ووصل بعضهم الى المناصب السامية وانضموا الى محمد بيك حاكم جرجا وصاروا انصاره واخذو في الظلم والايقاع بالناس واكثروا من النهب والسلب وكانوا يقتلون النفس على اقل سبب فرفع الناس شكواهم الى الوالي فزجرهم فلم ينزجروا بل زادوا في الطغيان وفتكوا بالناس وتجاوزوا الحدود وخرجوا عن طاعة الله ورسوله فاضطر الوالي لمحاربتهم فاعد لهم ما استطاع من القوة ووجه عليهم المدافع وكانوا قد تحصنوا بجامع المؤيد فحاصرهم فيه وقاتلهم قتالاً شديداً مات فيه خلق كثيرون وخربت عمائر كثيرة في العسكرية والداودية وقصبة رضوان والدرب الاحمر وتحت الربع وما جاور ذلك ثم بعد معاناة شديدة اخذوا وقتلوا واكتفى الناس شرهم ثم تبع ذلك في سنة ١٠٨١ هـ حريق هائل في جهة باب زويله استمر اياماً حتى مات فيه خلق كثيرون وتخرب فيه غالب عمائر تلك الجهة

ولما دخلت سنة ١٢٠٢ هـ كان الفساد قد بلغ منتهاه وانتشرت العرب للفساد في كل جهة وكان الحاكم اذ ذاك علي باشا قلج فعجز عن ردع المفسدين وتأمين الرعايا وتسبب عن ذلك انقطاع ورود الغلال الى الشون السلطانية وخلت الخزينة من الاموال فلم يتمكن من صرف مرتبات الحرمين ولا غيرهما لجهات الاوقاف والعلماء والاشراف والايتام والارامل وكان قد اتسع نطاق الحمايات وكانت عادة اتخذها العسكر تأخذ في حمايتها جملة من التجار أو المزارعين أو الملاحين في البحر فيقتسمون مع الناس ارباحهم ويمنعونهم من اداء حقوق الحكومة ولا يتمكن الحاكم من التعرض

لاحد منهم فلما تولى الحكم علي باشا قلج بذل جهده في ابطال الحمايات حتى ابطلها وحارب العرب حتى قمعهم وأفنى منهم خلقاً كثيراً فهدأت الامور وأمن الناس على انفسهم واموالهم لكن حصل من الغلاء والوباء ما فاقت شدته على تلك الحالة وفي سنة ١١١٩ هـ كان الحاكم بمصر حسين باشا الوزير وكان قد حجز على العساكر ومنعهم مما كانوا يفعلونه فضجوا من ذلك وقاموا عليه قومة واحدة وحاصروه بالقلعة ونهبت البلد واقفلت الحوانيت والخانات وتعطلت الاسواق. وفي سنة ١١٢٢ هـ حصلت من العسكر ثورة اعظم من تلك حاصروا فيها الوزير خليل باشا وانقطع المرور عن طريق المحجر وعرب اليسار والرميلة والصليبة والدروب الموصلة الى القلعة واستمرت هذه الحادثة سبعين يوماً خرب بسببها الدرب الاحمر والمحجر وثمن قوصون وسوق السلاح وخط الداودية والصليبة والسيوفية والخليفة والعمارات التي كانت جهة القصر العيني وبركة الناصرية وما جاور ذلك الى مصر العتيقة وخط السيدة زينب رضي الله عنها . وفي سنة ١١٢٥ هـ في زمن عابدين باشا كانت واقعة القاسمية وسببها ان الباشا تحزب لهم واخذ في اعمال الحيلة على قتل غيطاس بك وكان غيطاس بك صاحب الحل والعقد يومئذ وكانت العادة في يوم العيد ان تعمل جمعية في قره ميدان فلما كان يوم العيد وحصلت الجمعية وحضر غيطاس بك أغرى عابدين باشا بعض اتباعه من العسكر على قتله فقتلوا عدة من امرائه واتباعه وتسامع الناس بذلك فقام بقية حزبه ووقعت معركة خرب لاجلها حارات ودروب ومات فيها خلق كثير وصار بعدها الحل والعقد بيد القاسمية بعد ان كان بيد الفقارية ولم تنقطع الضغائن فلما كان سنة ١١٣٣ هـ كان الوالي على مصر محمد باشا البستانجي فأخذ في تعضيد الفقارية الى ان كان يوم فيه جمعية بالقلعة فأغر العساكر على الفتك بامراء القاسمية فوقع القتال بين الفريقين ونزلوا الى الرميلة وامتد الى جهة الصليبة ودرب الحصر والمحجر وعرب اليسار وخط الدحديرة والدرب الاحمر ثم وقع الصلح بين الفريقين على تقسيم الوظائف نصفين وعزلوا الباشا وفي سنة ١١٤٢ هـ حضر عبد الله باشا والياً والضغائن لم تزل كامنة في الصدور فقام الفريقان يقتتلان فانتصرت القاسمية على الفقارية فتفرق الفقارية في الانحاء وخرجوا من القاهرة واستولى الامراء على منازلهم بما فيها من حريم وعيال وامتعة وفي سنة ١١٥٢ قام الامراء على الباشا وتحصنوا بجامع السلطان حسن وفي سنة ١١٦١ هـ قامت فتنة بين الدمياطية وكان رئيسهم علي بك الدمياطي وبين القطامشة ورئيسهم ابراهيم بك قطامش وبعد حروب انتصرت فيها الدمياطية على اخصامهم احتاطوا بما لهم من

الارض والعقار والاثاث وغيره واستمر الحال هكذا في حروب وقتل ونهب الى سنة
١١٧٩ هـ فاستقل علي بك الكبير بأمور مصر وعزل الباشا وخلع طاعة الدولة وقويت
شوكته وملك الحجاز والشام وضربت السكة باسمه ونفى الامير عبد الرحمن كتخدا
صاحب العمارات الكثيرة الباقية الآن عند الازهر وغيره وكان هو صاحب الحل
والعقد قبل علي بك الكبير فصفا لوقت لعلي بك الى ان ثار عليه مملوكه محمد بك أبو
الذهب صاحب المدرسة الباقية أمام الازهر الى الآن فقام على سيده واجتمع عليه
اعداءه فوقع بين علي بك وبينهم محاربات آلت الى فرار علي بك الى الشام وصار
الامر لمحمد بك أبي الذهب فتحزب مع علي بك كثير من اهل الشام وانضم اليه جمع
عظيم من المصريين الفارين والعرب وساروا لمحاربة محمد بك أبي الذهب فوقع بينهم
القتال جهة الصالحية وانتهى بقتل علي بك وانتهت الرئاسة لمحمد بك ابي الذهب ولكن
حياته لم تطل . ولما مات الامير محمد بك ابو الذهب انفرد مراد بك وابراهيم بك بالحل
والعقد وتصرفا في امور البلد واخذا في التعدى على الامراء وغيرهم وتبين الغدر
لبعض الامراء ومن جملتهم اسماعيل بك وكان صاحب عز وسطوة وله مماليك واتباع
كثيرة وظهر ذلك من سوء معاملتهم وخشونة كلامهم فتبين للامراء ما يراد بهم فقاموا
وقصدوا الخروج من المدينة فلما علم بذلك ابراهيم بك ومراد بك جمعا مماليكهما
وحزبهما بالرميلة وقره ميدان واستولوا على ابواب القلعة والبلد وحصل بينهم وبين
الامراء الفارين مناوشات وانتهت بهزيمة رجال ابراهيم بك ومراد بيك فدخلوا القلعة
وحصنوا ابوابها فحاصرهم الامراء وضايقوهم اشد المضايقة حتى الجأوهم الى الفرار ففروا
الى اقاليم القبلية وتمكن اسماعيل بك من البلد وتسلم زمام الحل والعقد وعينه محمد
باشا عزت الكبير الوالي من حين ذاك شيخاً للبلد فقام من وقته ونهب بيوت الامراء
الفارين هو وامراؤه واتباعه وجهز التجاريد لمحاربتهم فلما التقى الجمعان بالصعيد وقع
بينه وبينهم وقعات آلت الى انهزام عساكره فولوا مدبرين وعادت الامراء القبلية في
أثرهم وزحفت الى القاهرة ففر اسماعيل بيك بمن معه الى الشام ودخل البلد من كانوا
في الجهات القبلية واستولوا على بيوت الامراء المنهزمين ودورهم وامعنوا بمن وجدوه
منهم قتلاً ونفياً وحبسا وخلا الجو لمراد بك وابراهيم بك فتصرفا في البلد كيف
شاءا وزادا في التعدي والظلم فانقسمت امراء مصر الى قسمين قسم يقال لهم المحمدية
نسبة لمحمد بيك ابي الذهب وقسم العلوية نسبة لعلي بيك الكبير وكل قسم يحقد على
الآخر ويتمنى هلاكه ويتربص به ريب المنون ووقع بينهم التحاسد والعدوان وتسبب عن

ذلك فتن وحروب دمرت البلاد وافسدت أحوال القطر وعطلت أرزاق أهله وأحس العلوية من مراد بك بالغدر فتجمعوا وتحصنوا في حوش الشرقاوي وصنعوا متاريس في جهة باب زويلة والخرق وجهة السروجية فدخل ابراهيم بيك القلعة وتحصن بها ووجه المدافع على جهات العلوية وتمادى بالضرب عليهم اثنين وعشرين يوماً وعساكره تتناقل على عسكرهم في الحارات والدروب وكل منهم يوصل البيوت بعضها ببعض ليتمكن من قتل عدوه وانتهت تلك الحادثة بخراب هذه الجهات وهرب العلويين الى الشرقية وغيرها فاقتفى المحمدية اثرهم وسلطوا عليهم العرب فقتلوهم عن آخرهم ولم ينج منهم الا القايل ففروا الى الشام ومن بقى أودع السجن . وعزل محمد باشا وتولى مكانه اسماعيل باشا ولم تنقطع الفتن وتجهيز التجاريد والمصادرات وكثر الظلم والتعدي ففر كثير من الامراء والتحقوا باسماعيل بك بالجهات القبلية وبعد حروب طويلة حصل الصلح على أن يعطى اسماعيل بيك اخميم وأعمالها وحسن بيك قنا واعمالها ورضوان بك اسنا واعمالها فاستلم كلٌّ ما استقر عليه الرأي ولم يمض غير القايل حتى انتقض الصلح ورجعت الامور الى ما كانت عليه

وفي سنة ١١٩٧ هـ في زمن محمد باشا السلحدار اهتم ابراهيم بك في مصالحة القبالي فرجع اغابهم واقام بمنزله وكان ذلك على غير ارادة مراد بك فقام بغزوته وخرج الى بني سويف وقطع الوارد عن القاهرة فلحق الناس ما لا مزيد عليه من الضنك والغلاء المفرط وضاق ذرع الفقراء وازداد ذلك اضعافاً لما حضر مراد بك بجموعه الى الجيزة وعسكر ابراهيم بك بجيوشه في مصر العتيقة مقابلاً لها واستمر هذا الحال بهم عشرين يوماً وكان ضرب المدافع متواصلاً بينهم فاشتد الكرب باهل المدينة وخفت الرقع والاشوان من الغلال وحاق الناس كل مكروه واخيراً حصل الصلح بين ابراهيم بك ومراد بك فخاف امراء حزب اسماعيل بك عاقبة هذا الصلح لما تبين لهم من خيانة ابراهيم بك فهاجروا من مصر فتابعتهم عساكر مراد بك وابراهيم بك والعرب من خلف الجبل فقطعوا طريقهم وقتلوا منهم ما لا يحصى وشتتوهم ثم رجعوا فاحتاطوا باملاكهم واستولوا على عيالهم واموالهم ومذ خلا الجو من اسماعيل بك وعائلته لم يحصل اتفاق بين ابراهيم بك ومراد بك بل زاد ظالم مراد بك وتعديه هو وجماعته وكثر منهم النهب والسلب والقتل فقام ابراهيم بك بغزوة الى الصعيد فعزل مراد بك الوالي وتصرف في امور البلد بصفته قائم مقام واعطى رجاله ومماليكه المناصب السامية وفرق عليهم املاك الفارين وجرت بينه وبين ابراهيم بك أمور لا خير فيها

فسعى بينهم المشايخ والامراء في الصلح حتى تم ذلك وفي سنة ١١٩٩ عمت البلوى بمصر من الطاعون فكانت هذه الايام ليس لها مثيل في الشدائد لما حصل فيها من الغلاء والفتن وقصور النيل وتواتر المصادرات والمظالم وتعدي الامراء وانتشار اتباعهم في النواحي لجلب الاموال من القرى والبلدان واحداث انواع المظالم بأي نوع كان من تسمية البعض مال الجهات والبعض رفع المظالم وغير ذلك حتى اهلكوا الحرث والنسل وقل الزرع واشتد الكرب وتشتت الفلاحون من بلادهم فخربت اغلب بلاد الارياف ومذ رأوا انه لا فائدة في الفلاح حولوا الطلب على الملتزمين وبعثوا لهم في بيوتهم فاحتاج متوسطي الحال لبيع امتعتهم ودورهم ومواشيهم مع ما هم فيه من المصادرات الخارجة عن الحد ثم تتبعوا من يشم فيه رائحة الغنى ايضاً فاخذوه وحبسوه وكلفوه فوق طاقته اضعافاً وطلب السلف ايضاً من تجار البن والبهار عن المكوسات المستقبلة وطمع ابراهيم بك في المواريث فكانوا اذا مات الميت يحيطون بمتروكاته سواء كان له وارث أم لا حتى صار بيت المال من جملة المناصب التي يتولاها اشرار الناس بجملة من المال يدفعها في كل شهر ولا يعارض فيما يفعل من الجزئيات واما الكليات فيختص بها الامير فيحل بالناس ما لا يوصف من انواع العناء حتى خرب الاقليم باسره وانقطعت الطرق وفقد الامن ومنعت السبل الا بالخفارة وانتشر الفلاحون في المدينة بنسائهم واولادهم يضجون من الجوع ويأكلون ما يتساقط في الطرقات من قشر البطيخ واوراق الشجر حتى اكلوا الميتة من الخيل والحمير والبغال والجمال فكان اذا خرج حمار ميت تزاحموا عليه وقطعوه فنهم من يأكل ما اخذه نيئاً من شدة الجوع ومنهم من هو على خلاف ذلك ومات كثيرون جوعاً هذا والغلاء مستمر والاسعار في نمو والدرهم والدينار عزيز بين ايدي الناس والتعامل قليل الا فيما يؤكل الى آخر ما قاله الجبرتي ومع ذلك كانت الامراء انتهت في المدينة ورجالهم تنهب في بلاد الارياف وما من مجير وتشكى الناس الى ابراهيم بك فلم يجدوا منصفاً . ولما اشتد الامر وعمت البلوى وكثر التعدي على التجار من الافرنج وغيرهم وانتشر خبر ذلك في الآفاق ارسلت الدولة في سنة ١٢٠٢ هـ حسن باشا القبطان ومعه العساكر ليرجع هؤلاء العساكر عما هم فيه فلما وصل ثغر الاسكندرية وبلغ الخبر الامراء هاجت المدينة وماجت واخذ كل يخفي امواله ويستعد للخروج وجرت المخابرات بين الامراء وحسن باشا القبطان فلم تفد شيئاً . فتوجه مراد بك بعسكره الى فوّة ووقع بينه وبين عساكر الدولة محاربة كانت الدائرة فيها عليه فانهزم ورجع الى مصر واراد ابراهيم بك ان يدخل القلعة

فسبقه الباشا اليها فلم يجد بداً من مفارقة مصر هو ومن معه من الامراء ففروا الى الجهات القبلية وحضر قبطان باشا في اثرهم ودخل مصر واخذ في الاستيلاء على بيوتهم وتتبع أموالهم وجهز طائفة من العساكر وامر عليهم عابدين باشا وارسلها لاقتفاء آثار الفارين فوقعت بينهم جملة مناوشات مات فيها خلق كثير من الطائفتين وتعطلت اسباب الارزاق وفي كل هذه الاوقات كانت العرب تنهب وتسلب وتقتل في جميع انحاء القطر ولا مانع يمنع ولا حاكم يردع

وفي تلك السنة نفسها أعني سنة ١٢٠٢ ﻫ تولى اسماعيل باشا كتخدا حسن باشا بعد انفصال عابدين باشا والامور على ما هي عليه الى سنة ١٢٠٥ ﻫ وفيها نزل سيل كثير من ناحية الجبل الاحمر وامتد في جهة الجمالية وجامع الحاكم الى أمد بعيد في الحارات المجاورة لذلك وخرب بسببه اكثر خط الحسينية وما جاورها وعقب ذلك طاعون دام ثلاثة اشهر مات فيه اسماعيل بك شيخ البلد واقيم خلفه مملوك عثمان بك طبل فمال الى الامراء القبلية سراً فدخلوا مصر بجموعهم فلم يسع من بها من الامراء الا الفرار فاحتاط بهم العرب والعسكر فقتل من قتل وفر من فر ورجع مراد بك وابراهيم بك واخذا فيما كانا عليه من السلب والنهب والغدر وفي سنة ١٢٠٧ ﻫ في زمن محمد باشا عزت الثاني لم يف النيل اذرعه فحصل القحط فأكلوا الميتة والاطفال ومات الكثير من الخلائق جوعاً وفي سنة ١٢٠٩ ﻫ تولى صالح باشا والامور على حالها وعقبه باكير باشا سنة ١٢١٠ ﻫ والظلم سائد والخلل عام للكبير والصغير والقريب والغريب من حوادث أملاها الجبرتي فكان آخرها حضور الدونانمة الفرنساوية ودخولهم ارض مصر وحصول ما سيتلى عليك ان شاء الله تعالى

« حال القاهرة في مدة الفرنساويين »

لم يمكث الفرنساويون بالديار المصرية زمناً طويلاً فان مدتهم لا تزيد على ثلاث سنين ومع ذلك حصل فيها حوادث شتى خرب بسببها كثير من البلاد والاقاليم وتهدم كثير من دور القاهرة وفارقها كثير من السكان وقد تكلم عن هذه الحادثة حضرة الفاضل جرجي بك زيدان في كتابه (تاريخ مصر الحديث) واسهب في شرحها فمن اراد الوقوف عليها فليراجعه هناك وسنذكر لك بالاختصار ما يتعلق بالقاهرة خصوصاً وبباقي القطر عموماً حتى لا تخلو مقدمتنا عن هذه الفائدة فنقول ان دخولهم الى ثغر الاسكندرية كان في المحرم سنة ١٢١٣ ﻫ وبعد مناوشات حصلت بينهم وبين مراد بك

عنـد قرية الرحمانية من مديرية البحيرة انهزم مراد بك وحضر الى امبابة وعمل بها متاريس وحضر الفرنساويون في أثره فهجموا على تلك المتاريس واخذوها بعد ثلاثة ارباع الساعة وانهزم مراد بك ومن معه الى الصعيد ولم تنفع جموع العرب ولا الفلاحين بشيء وكذلك فارق ابراهيم بك القاهرة وفر الى الوجه البحري بمن لحق به وتشتت الامراء الى الجهتين وكانت العرب وقد ملأت تلك الجهات فتعرضت للفارين بالسلب والقتل والنهب وصار القطر فوضى وتعدى الناس بعضهم على بعض ودخل الافرنج القاهرة ثاني يوم انهزام الامراء وسكنوا بيوتهم فسكن بونابارت بيت محمد بك الالفي بالازبكية وسكن كل امير منهم فيما اعجبه من بيوت الامراء ورتبوا مجلساً من العلماء فاطمأن الناس لذلك ورجع كثيرون منهم الى منازلهم ثم ان الافرنج اخذوا في الكشف على بيوت الامراء والاعيان وتتبعوا الاوباش الذين ثاروا في البلد ونهبوا البيوت الخالية فاخذوا منهم عدداً وافراً وعاقبوهم اشد العقاب وقتلوا البعض بالرصاص في جنينة الازبكية وفتشوا بيوتهم واخذوا ما وجدوه فيها من المنهوبات وضرب على تجار المسلمين خمسمائة الف ريال فرنساوي ثم جعلوا مبلغاً على كل حرفة قالوا انها سلف يرد فحصل بذلك للفقراء اشد المضايقة وشدد عليهم في الطلب فكثر لغط الناس وكانت العساكر تدخل البيوت وتنهب ما فيها من غير مبالاة فحق بالناس الكرب والخوف فلا يأمن الانسان الا بتعليق بنديرة « اي راية » على بابه او يلصق ورقة من طرف الفرنساويين واخذ نساء الامراء المختبيات في الظهور وصالحن على انفسهن بمبالغ دفعتهـا على نسبة حال كل منهن فدفعت زوجة مراد بك ١٢٥٠٠٠ ريال فرنساوي ودفع غيرها اقل من ذلك

وصار الناس يتوجهون الى الافرنج ويخبرون عن ودائع الامراء وخباياهم فكثر الهجوم على البيوت ونبش الارض وهدم الحيطان واتسع نطاق الفتن خارج البلد وداخلها وتحير الناس في امرهم فانهم ان خرجوا من المدينة دنوا عرضة لقبائح العرب وعساكر مراد وابراهيم وان اقاموا بها كانوا هدفا لسهام فتن الافرنج غير آمنين مكائدهم وفي خلال ذلك ظهر الطاعون فمنع الافرنج الدفن في المقابر الموجودة داخل البلد كمقبرة الازبكية والرويعي وغيرهما وشددوا في نظافة البلد وكنس الازقة والحارات والتفتيش على ذلك ورفعوا ابواب الدروب والعطفات جميعها وامروا بتعليق قناديل على ابواب البيوت طول الليل وعاقبوا من خالف اشد العقاب ثم وضعوا مجلساً مركباً من ستة من تجار المسلمين ومثلهم من تجار النصارى لتحقيق حجج الاملاك وقرروا مبالغ

تؤخذ من المواريث والرزق والهبات والمبايعات والدعاوي فلحق بالناس من هذه الغرامات ما لحقهم وكثرعويلهم وشكواهم ولا معين ولا نصيروالتقت عساكرهم بعساكر مراد بك في الجهات القبلية فوقع بينهم مناوشات وسافر من عساكر الافرنج ايضاً جماعة الى الجهات البحرية لتسكين الفتن وضبط تلك الجهات فكانت العرب تعارضهم ولكن على غير طائل واخذ من بقي في القاهرة منهم في الاحتياطات خوفاً مما عساه ان يحصل من الاهالي فهدموا أبنية كثيرة من حول القلعة وزادوا على بدنات باب العزب بالرميلةوغيروا معالمها ومحوا ما كان بهامن آثار الحكماءوالعلماء ومعالم السلاطين وماكان في الابواب من الاسلحة والدرق والبلط والحراب الهندية وهدموا من داخل القلعة قصر يوسف صلاح الدين وطاب النقود من البلاد لم يزل متوالياً وتنويع الضرائب مستمراً فلم يلحق باهالي القطر اشد ولا اعظم مما لحقهم في هذه المدة لان العرب كانت تهجم على البلاد وتستحوذ على ما وجدت من اموال الاهالي فيسلبون وينهبون ويليهم الافرنج يقتلون ويفجرون فعجز الناس عن رد هذه الاحوال خصوصاً اهل القاهرةفقاموا وتحشدوا بين القصرين وعملوا متاريس في بعض الحارات وحصل بينهم وبين الفرنساويين مناوشات فكانت المدافع من القلعة تضرب على هذه الجهات وعلى الجامع الازهر فتخرب بهذا السبب جملة من البيوت وتشتت كثير من الناس ومات كثير منهم وشدد الفرنساويون على الاهالى زيادة على ما كان وضربوا عليهم فرضة مستجدة واخذوا يجمعونها باي نوع من الطرق وزادوا في احتياطهم فعملوا قلاعاً فوق التلال المحيطة بالقاهرة من جهاتها الاربع وكذا بمصر العتيقةوشبرا والجيزة ووضعوا بها المدافع وشددوا في جمع الاسلحة واخلوا بيوت الازبكيةمن اهلها واسكنوا بها رجالهم ومن ينتمي اليهم من نصارى الشام والقبط وعقيب ذلك حضرت المراكب العثمانية واخرجت عساكرها في ابي قير وتحصنوا وشاع خبرهم في القاهرة فكثر لغط الناس واظهروا العداوة للفرنساويين وفرحوا ظناً منهم بالخلاص ولكن كان الامر خلاف ما ظنوا فان بونابرت توجه لحرب العثمانيين فالتقوا في تلك الجهات فانهزم العثمانيون ورجع بونابرت الى مصر ومعه الاسرى ومن جملتهم الوزير فدهش الخلق وزاد وجلهم وكان الفرنساويون يشاهدوا عداوة الاهالي وكراهتهم لهم فاكثروا من التشديد وزادوا في الاحتياط ثم حضرت عساكر عثمانية من جهة العريش وشاع بين الناس التكلم في امر الصلح وبالفعل توجه مندوبون من طرف الفرنساويون ودخل عساكر الترك ووصلت المطرية وانتشرت في الجهات ودخلت المدينة بعد عقد الاتفاق

على الشروط اللازمة وبالفعل اخذ الفرنساويون في اهبة السفر واخلوا القلاع لكن لما قُدر في علم الله لم يدخلها العثمانيون واكتفوا بدخولهم المدينة واشتغلوا بالنهب والسلب وحصل بين بعض الفرنساويين والاتراك بعض مناوشات تجر الى القتال لولا ان تداركها الامراء فحصل الاتفاق على خروج العثمانيين واقامتهم خارج البلد حتى تتم المدة المتفق عليها وتم الامر على ذلك ولكن لم يمض غير قليل حتى وصل الخبر للفرنساويين بعدم رضاء الانكليز بهذه الشروط وبلغ ذلك العثمانيون ولكنهم لم يستعدوا لما عساه ان يحدث أما الفرنساويون فرجعوا بالتدريج الى القاهرة واقاموا برجالهم الى قبة النصر وهجموا على الاتراك وهم في غفلتهم فقتلوا منهم كثيراً ورجع الباقون الى جهة الصالحية وهم يسوقونهم وكان نصوح باشا داخل المدينة من خلف الجبل مع كثير من الاتراك والعرب وهيج الناس وحرضهم على القيام على الفرنساويين فانضم اليه كثيرون وهجموا على من بقي من الفرنساويين فى جهة الازبكية وغيرها وانتشب القتال بينهم فبينما هم على ذلك اذ رجع العساكر الذين سافروا خلف العثمانيين فحاصروا القاهرة وبولاق ونهبوا أغلب دور الحسينية وهدموها وكذا قرية الدمرداش وما حولها ومنعوا الاتصال بين المدينة والخارج ووجهوا المدافع عليها وصار الهجوم منهم على أخطاط البلد واستمر ذلك عشرة ايام بعد ذلك نصب الفرنساويون راية الصلح في الازبكية وتوجه عندهم بعض المشايخ فافهموهم ان هذه الحرب مبنية على غير اسباب موجبة ومضرة بهم وطلبوا منهم نصيحة الاهالي ورجوعهم للطاعة والتزموا لهم بالعفو العام فلما رجع المشايخ تكلموا بذلك فلم يسمع قولهم واستمر الحرب ولم تنته الا بعد سبعة وثلاثين يوماً خرب فيها خط الازبكية وخط الرويعي الى حارة النصارى وخربت اغلب حارات بولاق ايضاً من الحرق والهدم وجهة بركة الرطل وباب البحر وانتهت هذه النازلة بتقرير مبلغ مليونين من الريالات الفرنساوية على الاهالي فحصل لهم غاية المضايقة في تحصيلها واهانوا الاعيان والمشايخ وضربوا السادات وحبسوهم وأخذت منهم اموال جمة ونهبت عدة بيوت من بيوت الامراء وصودر كثير منهم فكانت هذه المدة أشنع مما قبلها ففيها انقطع السفر براً وبحراً ومنعت الانكليز الصادر والوارد عن جهة القطر وانقطع الحج ووقف العرب وقطاع الطريق بجميع الجهات وتسلطوا على القرى والفلاحين وقصر مد النيل واشتد الغلا . وحصل القحط والوباء فمات كثير من الخلق وفي خلال ذلك سافر بونابرت الى بلاده واستخلف على الجنود الفرنساوية بمصر قائداً من زعمائهم اسمه (كليبر) فاغتاله رجل حلبي حضر من بلاده لهذا القصد يقال

له سليمان الحلبي وقتله واختفى فاشتد غيظ الفرنساويين وحقدهم على اهل مصر وأرادوا بهم السوء فراموا حرق المدينة لولا ان الله تعالى رفق بوجود القاتل فقتلوه وقتلوا معه عدة ممن اتهموا بمساعدته وبعدقليل تم الصلح وخرجوا من مصر واعقبهم العثمانيون فيها واستقروا بها فحصل ما سيتلى عليك

« القاهرة بعد خروج الفرنساويين »

لم يهدأ لمصر حال بعد مفارقة الفرنساويين بل ازداد التعب وعم الاضطراب جميع الخلق وتخرب كثير من منازل القاهرة وضواحيها وقاس الناس خصوصاً التجار والمستورين من الغرامات والتكلف بما لا يمكن وصفه الى ان صدر الامر بتولية محمد علي باشا عليها سنة ١٢٢٠ هـ وكان قد تولى عليها قبله اناس اولهم محمد باشا المعروف بابي مرق فدخلها بموكب حافل وفرح الناس بقدومه ظناً انهم ينالوا الراحة والامن فخاب ظنهم منهم وانعكس مأمولهم لعدم قيامه برعاية المصالح فان النصارى الاروام الذين كانوا مع الفرنساويين وحصل منهم الاذى للمسلمين اندرجوا مع الارنؤد والعسكر ومن بالبلد من الاتراك وجعلوا يعبثون ويعربدون في انحاء القاهرة وينهبون الاهالي ويطردونهم من منازلهم ويسكنونها واستعملوا في السلب انواع الحيل فيما لم يجدوا اليه سبيلاً فربما جلس العسكري على دكان بدعوى الاستراحة أو شراء شيء ثم يقوم ويعود بعد قليل قائلاً انه نسي كيسه او فقد دراهمه ويجعل ذلك سبباً لاهانة صاحب الحانوت ونهب ما عنده وعم منهم الفساد وشاركوا الباعة فيما يبيعون وساهموا التجار فيما يرجون وضاق اخناق الخلق واتسع ميدان الكرب خصوصاً في جهات الأرياف فان العسكر صاروا يقتلون ويخطفون المردان والبنات ويفتضون العذارى ومن مانع عن عرضه قتلوه ولا معارض ولا مغيث وتضاعف الكرب وعم الهرج واكثر مما كان حين قال قاضي العسكر بان الاملاك كافة صارت ملكاً للدولة لان انتصارها على الفرنساويين يعد فتحاً جديد وعارضه في ذلك العلماء وضج اصحاب الاملاك واكثروا الشكوى حتى لم ينفذ ما قاله ولكن الباشا اكثر مصادرات من اشم فيه رائحة الثروة وتفريد الفرض على التجار وغيرهم حتى تجرد الناس من انفسهم واستمر الحال على ما هو عليه زمن محمد باشا خسرو كتخدا حسين باشا قبودان الذي عقبه سنة ١٢١٦ هـ وكان قد اتحد مع قبطان باشا على الغدر بالامراء المصريين اذا نزلوا بالغليون في الاسكندرية لملاقاته فلما حضر الامراء واحسوا بما يراد

بهم من القتل ثاروا فحصلت مقتلة عظيمة وتخلص الامراء ولحقوا بالانكليز الذين كانوا بثغر الاسكندرية وبلغ ذلك محمد بيك الالفي وهو بالاقاليم القبلية فاظهر العصيان فتبع الباشا مماليكه وأتباعه وكذا مماليك الامراء وأتباعهم بالقتل والنهب ونهب بيوت الامراء وسبي حريمهم ونشأ من ذلك ما نشأ من المفاسد المعتادة لهم . ولما تولى بعده محمد باشا اخذ في قمع مفاسد العسكر وشدد في عقابهم وكان يطوف الحارث ليلاً بنفسه ومعه طاهر باشا ويقتل على اقل ذنب وجرد على الامراء القبلية عدة تجاريد احدها تحت رئاسة المرحوم محمد علي سر چشمة فغلبهم القبلية وشدد في أمر الحسبة حتى خزم انوف الخبازين وعلق فيها الخبز الناقص وكذا الجزارون فحسن الحال نوعاً وامن الناس بعض الامن وابطل الرطل الزياتي الذي كان يكال به الادهان وكان وزنه اربع عشرة اوقية واستعوضه برطل وزنه اثنتا عشرة اوقية وبقي للآن واتخذ جملة من العبيد والتكرور واسكنهم بقلعة الظاهر وسماهم بالنظام الجديد واهتم بعمارة مسجد السيدة زينب رضي الله عنها ومع ذلك كان غشوماً جهولاً عجولاً في اموره محباً لسفك الدماء ولم تسكن ثائرة الاضطراب فان الامراء في الجهة القبلية كانوا دائماً يشنون الغارات على البلاد حتى نهبوا الفيوم وقتلوا كثيراً من اهله ونهبوا بلادها وكذا الجيزة وبني سويف وقطعوا الجسر الاسود وتقابلوا مع العساكر العثمانية في دمنهور فحصل بينهم واقعة عظيمة انهزمت فيها العساكر فكان الحرب عاماً لجميع أنحاء القطر والفرض والغرامات تطلب من التجار وتمت دائرة الحرب حين قام العسكر بالقاهرة بسبب منع جوامكهم وهجموا على بيت الدفتردار وبيت المحروقي وهو بيت الشيخ البكري القديم وصار الباشا يضرب عليهم بالمدافع من القلعة حتى ضرب خط الازبكية ونهب ما فيه وعملت متاريس عند رأس الوراقين والعقادين والمشهد الحسيني ورتب العساكر بجامع ازبك وبيت الدفتردار وبيت محمد علي وكوم الشيخ سلامة وقام طاهر باشا وأحضر مدافع من القلعة وانتشب الحرب بين العساكر العثمانية وعساكر الارنؤد بالقاهرة وبولاق والقصر العيني فانهزم الباشا بعسكره الى جزيرة بدران ومنها توجه الى المنصورة وضرب على اهلها تسعين الف ريال فرنساوي ثم توجه الى دمياط فكانت مدته كلها حروب ونهب وقتل وتخربت فيها حارات القاهرة وضواحيها الا القليل وقام بعده طاهر باشا بصفة قاعقام فاكثر من مصادرة الناس من المسلمين وغيرهم واغدق على الارنؤد وصرف جوامكهم ولم يعط الانكشارية فقاموا عليه وقتلوه فكانت مدته ستة وعشرين يوماً وعند هذه الحادثة كان بمصر احمد باشا متوجهاً الى المدينة المنورة على ساكنها أفضل الصلاة والسلام واليأمن قبل الدولة فعينه العساكر والياً

على مصر فلم يرض بذلك محمد علي وقام وملك القلعة وحضر اليه اكثر امراء القبلية وانضموا اليه وتفرقوا في القاهرة وملكوا بابي النصر والفتوح وضربت المدافع على بيت احمد باشا بالداوودية فتفرق عنه الانكشارية وامر بالخروج من مصر فامتثل ومذ خرج نهبت العساكر بيته ولما فارق باب الفتوح رأى نفسه قد وقع في وسط العسكر فلم يسعه الا الالتجاء الى قلعة الظاهر فدخلها محتمياً بها وصفا الوقت حينئذ لمحمد علي وعساكر الارنود فتسلطوا على الانكشارية ونهبوا بيوتهم وقتلوا أعيانهم فاجتمعوا بمصر العتيقة وأرادوا التوجه الى الشام من طريق الصحراء فهجم عليهم الارنؤد واوقعوا بهم.فقتلوهم عن آخرهم ولم يبق الا من اختفى ففتشوا عليهم البيوت والمساجد ثم مدوا ايديهم الى أذى الاهالي والتعدي عليهم وتفرقوا في النواحي واكثروا من السلب خصوصاً بلاد القليوبية والغربية والمنوفية واتخذ سليم كاشف المحرجي قلعة الظاهر مستقراً وفرض على كل بلد من بلاد القليوبية الف ريال فرنساوي وسبعين من كل صنف أي سبعين خروفاً وسبعين رطل عسل وهكذا خلاف حق الطريق وهو خمسة وعشرون الف نصف فضة ولذلك الحين كان محمد باشا مقيماً بدمياط يقرر على اهلها ومن جاورهم الضرائب الباهظة فتوجه اليه محمد علي وعثمان بك البرديسي فقاتلاه وهزما من معه واسراه وارسلاه الى مصر ونهبت دمياط وفعل الارنؤد كل شنيعة ثم توجه البرديسي الى رشيد لمقاتلة العثمانيين وكانوا ببرج مغيزل فلما التقى الجمعان انهزم العثمانيون وأسر علي باشا القبطان وأرسل الى مصر وحصل برشيد من النهب والسلب والسبي ما حصل بدمياط وأدهى خلاف ثمانين ألف ريال فرنساوي ضربت على أهلها وحصلت منهم وفي سنة ١٢١٨ هـ حضر الوزير علي باشا الطرابلسي وأقام بالاسكندرية وقطع جسر أبي قير لمنع وصول البرديسي اليه فعندها رجع البرديسي الى مصر وجعلت عساكره كلما مرت ببلد نهبتها حتى حصل للناس منهم من الضرر ما لامزيد عليه واشتد الغلاء تلك السنة بسبب قصور النيل وعدم الري وعربدت الطغاة وأصبح القصر بلا حاكم وفي اثناء ذلك أيضاً رفع العساكر لواء العصيان بسبب منع الصرف فاتفق الرأي على توزيعها على الطوائف والتجار وجعلها درجات أعلاها خمسون كيساً وأدناها خمسة اكياس فوزعت كذلك وشدد في طلبها فاغلقت هذه الحوانيت وتعطلت الاسواق وبطل البيع والشراء ونهب العسكر بيوت الافرنج فحصل بينهم مقتلة عظيمة قتل وجرح فيها عدد من الفريقين واشتد الخوف بالناس وشكت القناصل للدولة فلم يجد شيئاً وعلي باشا لم يبارح الاسكندرية لذلك الحين مشتغلاً بجمع العساكر وترتيبهم على هيئة عساكر الافرنج فتراءى للامراء انه يدبر عليهم أمراً فاحتالوا

عليه من باب تعش بفلان قبل ان يتغدى بك فاظهروا له الطاعة وطلبوا منه الحضور اليهم ليمكنوه فقام بعسكره قاصداً مصر فلما وصل الى شلقان خرج عليه عسكر ارنؤد فلم يجد بداً من المدافعة فاشتد القتال بين الفريقين وقتل خلق كثير منهما وتمت بهزيمة عساكر العثمانيين واسر الباشا وارساله الى مصر ثم توجة الالفي الى القليوبية فنهبها وقتل اناساً كثيراً من أهلها وكذا فعل بعرب بلي محتجاً انهم كانوا مائلين للباشا ظلما وافتراء ثم اتفق الامراء على اخراج علي باشا الى الشام فاصحبوه بعدة من العسكر فلما وصل القرين قام عليه العسكر وقتلوه وعندما وصل الخبر الى الامراء اظهروا عدم الرضا وسكتوا وكان مع كل ذلك يرغب كل امير ان تكون له السلطة ويعمل فيما يقوي أمره ويضعف غيره وعقارب الحقد تدب بينهم ومحمد علي لسياسته لا يظهر ما في نفسه لاحد بل كل من رآه قويا مال اليه واظهر له أنه معه ولم يهمل أمر غيره بل يواسيهم وهو يترقب الفرصة ويسير بعقل وسياسة وكان البرديسى اذ ذاك هو المتبين فيهم فتحالف معه وجرح كل منهما نفسه وشرب الآخر من دمه تمكيناً للاخوة على زعمهما ولكنه لما كان يرى من سوء سيرتهم وطيش عقولهم يعلم انهم مخذولون وأن امرهم لا يتم فكان يراعي الاهالي ويواسي العلماء ويتواضع لهم ويتأدب مع وجوه الناس ويعاونهم بما في وسعه فمالوا اليه وأحبوه ثم ان الامراء اتفقوا فيما بينهم على اضمار العداوة للألفي الكبير لما رأوا من فوقانه عليهم فخافوا على انفسهم منه فدس البرديسي للحاكم رشيد ان يقتله فاستشعر الألفي فاحتال حتى قرب من مصر واستطلع حقيقة الخبر فمذ ثبت عنده توجه الى الجهات القبلية وكذا الألفي الصغير فانه لما بلغه ما يراد بقريبه لم يسعه الا اللحاق به فنهب الامراء بيوتهما وبيوت اتباعهما وحواشيهما ولما رأى الامراء كثرة حزبه بالجهة القبلية خافوا على تفاقم شره فجردوا اليه تجريدة وجعلوا بعض مصروفها على التجار وفرضوا الباقي الاملاك فجعلوا نصف ما فرض على كل منزل على المالك والنصف الآخر على المستأجر ووزعوا على القرى الغرامات الباهظة فكان هولاً هائلاً في جميع القطر المصري حتى قامت النساء يندبنَ وصبغنَ وجوههنَّ وأيديهنَّ بالنيلة وشكا الناس الى محمد علي لما كانوا يرون منه من الميل اليهم فتلقاهم بالبشر ووعدهم بمناصرتهم وكثرت بينهم قبائح البرديسى حتى قام عليه العسكر والزعر فما وسعه الاَّ الخروج الى قبلى ونهبوا بيته وبيت ابراهيم بك بالداوودية وحصل بين العسكر ومماليك المذكور قتال شديد وطلع محمد علي الى القلعة واقام بها ووجه المدافع الى الداوودية فخرب اكثر منازلها وانتهت هذه الحادثة بخروج الامراء الى قبلي ونهب بيوتهم وسبي نسائهم وأولادهم ثم حضر أحمد باشا سنة ١٢١٩ هـ

والياً على مصر وكان الغلاء قد بلغ منتهاه حتى وصل ثمن الاردب من القمح خمسة عشر ريال فرنساوي والاضطراب مستمر والعسكر قائم والامراء القبالى يعبثون في البلاد واحتاطوا بالقاهرة وخربوا ضواحيها كبولاق والشيخ القمر والعدوى والويلية فخرج اليهم محمد علي وهم بجهة طرا فكبسهم وهم غافلون وأوسع فيهم القتل فانهزموا وتشتتوا في الجهات وحصل بينهم وبين العساكر المتفرقة وقعات بجهة شبرا وأبي زعبل والخانقاه أعقبت خراب تلك الجهات ولم تزل العسكر مع ذلك تقوم لطلب الجوامك ويحصل منهم ما لا خير فيه والوالي كل مرة يضرب على الاهالي مبالغ يحصلها بانواع الظلم . وبينما محمد علي متجهز للخروج بعسكره اثر امراء القبالى اذ حضرت فرقة من عساكر الدلالة من جهة الشام فأراد محمد علي أن يكونوا معه فامتنع الوالي من ذلك وحصل بينهما كلام فأمره الوالي بالخروج من البلد فامتنع وهاجت الارنؤد وخاف كل فريق من الآخر وبينما هم على ذلك اذ ورد فرمان بتولية محمد علي على جدة فأظهر الامتثال وأخذ في الاستعداد فاضطرب العسكر والاهالي لعدم رضاهم بمفارقة البلد وفي اثناء ذلك طلب منه العسكر مرتباتهم فأحالهم على الوالي ولم يكن بيده شيء فاغلظوا له في القول ولسوء تدبيره قال لهم عليكم بنهب القليوبية فتفرقوا في بلادها ونهبوهـا وسبوا النساء وباعوا الاولاد فأوغرت صدور الاهالي وحصل في قلوبهم بغض الوالي والميل الى محمد علي لما يرون منه من الحزم والمساعدة فكان عاقبة ذلك ان كتبوا للدولة بانهم رضوه والياً فأجابتهم الدولة الى ذلك وصدر له الامر بولاية مصر في شهر صفر سنة ۱۲۲۰هـ وانقرضت به دولة الغز وحصل منه ما سيتلى عليك الى أن انقضى نحبهم والله يؤتي ملكه من يشاء

« حال القاهرة فى مدة محمد علي باشا »

لما صدر الامر له بولاية مصر في صفر سنة ۱۲۲۰ هـ طبقاً لمرغوب أعيانها وسلسلة الفتن محكمة حلقاتها وعقد الحوادث صعب حلها والاضطراب عام في جميع الانحاء والعقول غالب عليها حب الاهواء والعرب تعربد في النواحي والمناسر تقطع الطرق وتنهب الضواحي والعسكر تجلب على الاهالى كل داهية والامراء المصرية تعبث في البلاد واذا ارسل لقتالهم عسكراً زادوا عنهم اضعافاً في الفساد مع ما بين فرقهم من العداوة والعناد والارنؤد تخالف الانكشارية وتعاتبها والدلاة تعادي كل فرقة وتصاولها والكل معاد للاهالي عاص للوالي اخذ الباشا بالجد والحزم وتصدى لحل تلك المشكلات المعضلة والفتن المتطاولة فشرع في استمالة قلوب المشايخ أصحاب الكلمة كالسيد عمر مكرم والشيخ الشرقاوي

والدواخلي حتى صاروا معه فجعل يحل بهم المشاكل ويستعين برأيهم على مهمات النوازل ولم يزل يعاني الامور بعقل ثابت وسياسة تامة حتى تفرد بالامر كما سيتلى عليك . ولما صدر الامر ابلغوه لاحمد باشا الوالي فلم يلتفت اليه بل تحصن بالقلعة فقام اليه محمد علي باشا وحاصره بها وحفظ ابوابها بعساكر الارنؤد فلم يكن غير قليل حتى جاهروه بالعصيان لعدم صرف جوامكهم وتفرقوا عنه وانتشروا في القاهرة ينهبون ويسلبون فاتحد محمد علي مع المشايخ ورتب من الاهالي بدلهم بالسلاح والمساوق والنبابيت وفي اثناء ذلك حضر قابوجي من الدولة ومعه أوامر لاحمد باشا بعزله فلم يمتثل مرسومها واستمر على عناده وبعد قليل حضر قبطان باشا باوامر تعضد ما سبق فلم يصغ لها ظنا منه ان ذلك كله شباك حيل تنصب له وارسل الى الامراء القبالي وطلبهم لمساعدته فوقع بعض المكاتبات في يد محمد علي باشا فاخذ حذره وبعد قليل حضروا الى الجيزة وعدا بعضهم الى البر الشرقي واحتاطوا بالبلد ودخلها كثير منهم من باب الفتوح والحسنية وتوجه بعض كبرائهم الى السيد عمر مكرم والشيخ الشرقاوي وغيرهما يدعونهم الى نجدتهم والقيام بنصرتهم فلم يقبلوا منهم فخرجوا خائبين وكان محمد علي باشا مذ بلغه خبرهم ارسل جنداً لضبطهم فادركوا بعضهم قد خرج من البلد فاوقعوا بمن أدركه منهم بالسكرية والدرب الاحمر وهرب بعضهم الى جامع برقوق فامتنع به وبعضهم تساق فوق السور من خلف الجامع فنجا ومن امتنع بالمسجد دل عليه وكانوا نحواً من خمسين رجلاً فلما احضروهم الى داره بالازبكية وكان يريد الركوب فرح بالظفر وأمر لمن احضروهم بالعطايا واحضر الجزارين وأمر بقتلهم وشاع ذكر هذه الواقعة في سائر الاطراف فهابه الاعداء وكان يظن ان هذه الحادثة تفسد عليه ما دبره فكانت على خلاف ما ظن فخرج احمد باشا وخرج عساكر الدلاة العصاة على وجوههم وانتشروا بالجهات البحرية ينهبون ويسلبون فوجه خلفهم حسن باشا الارنؤدي ومحمد بيك المبدول وعمر بيك الاشقر بعساكرهم فاجلوهم من البلاد واحتاطوا على جميع ما سلبوه وذهب اولئك الى الشام مدحورين واما الاهالي فانهم في هذه المدة كانوا متقلبين على جمرات البلايا غارقين في بحا الشدائد فارنؤد تنهب البيوت وتخطف ما تريد من البضائع ويبيعونه باغلى الاثمان حتى انعدم اللحم والسمن بعد شدة غلائهما وتتعرض لنساء الامراء الغنيات بقصد تزوجهن والعسكر تقوم بسبب الجوامك فلا يجد بد من توزيعها على الطوائف والتجار ثم توجه فكره الى الالتزامات فتكلم مع العلماء في ذلك فاتفق الرأي على أخذ ثلث الفائض منها وكل ما يتحصل يصرف في شؤون التجاريد وطلبات العسكر وليس بالكافي مع ما ضرب على النواحي

وطلب من المديريات اموال سنة ١٢٢١ هـ مقدماً وتعين الكشاف للتحصيل فكان الكاشف يعين من طرفه المأمورين ومعهم قوائم بالمطلوب من كل بلد مع ما يتبع ذلك لقوائم البشارات وأوراق تقبيل اليدوحق الطريق ولبس القفطان مع طلب العرب العلائق والكلف

(الالفي ومحمد علي)

وكان المماليك لا يزالون منتشرين في جهات القطر يحكمون ويستبدون وكان الالفى مقيما فى الصعيد وقد التف حوله جمهور من المماليك وحالما علم بتولية محمد علي باشا نزل بفرسانه طالباً خلعه وتخابر مع خورشيد باشا ليساعده فى غرضه وتعهد انه اذا فعل ذلك يعيد الاحكام ليده ويكون بعد ذلك خاضعاً لاوامر الولاة العثمانية ضارباً بسيفها هذا اذا كانت تخلع محمدعلى باشا . وكان الالفي قد سافر الى دولة انكلترا ووعدها انها اذاعضدت مشروعه هذا يكون مستعداً ان يسلمها ابواب القطر المصرى حالا . فعلم بذلك قنصل فرنسا فعرقل مسعاه فعكف على مصالحة محمد على باشا على شيء يرضى به الاثنان فحصلت المخابرات فلم يتفقا فعاد الالفى الى مسعاه ثانية بواسطة سفير انكلترا في مصر فطلب هذا الى الباب العالي بالنيابة عن دولته ارجاع ساطة المماليك الى البلاد وتعهد بامانة الالفي وخضوعه لاوامر الدولة . فقبل الباب العالي بذلك فاصدر عفواً عاماً عن المماليك باسم اميرهم الكبير الالفي فوصله في غرة ربيع الآخر سنة ١٢٢١ وفي ١٤ الشهر المذكور وصل الفاهرة خبر قدوم عمارة عثمانية تقل موسى باشا مرسلا من قبل الباب العالي والياً على مصر ومعه عدة من معساكر المنظمه على النظام الجديد وخط شريف الى محمد على باشا ان ينتقل الى ولاية سلانيك وأن يرجع المماليك المصرية الى مراكزهم في الامارات والاحكام

فخاف محمد علي من حبوط المسعى فأخذ الامر بالحزم والحكمة فرأى ان احزاب المشائخ والعلماء جميعها معه وانضم اليهم بعض المماليك الذين كانوا في الاصل من الجيش الفرنساوي وظلوا في مصر بعد سفر الحملة لعدم امكانهم مرافقتها واعتنقوا الديانـة الاسلامية وانضموا الى المماليك فاستكينهم الى الباب العالي يطلبون فيه استبقاء محمد علي باشا وارجاع موسى باشا ويبنون الاسباب الموجبة لذلك . فكتبوه وأمضوه وأرسلوا منه نسخة الى الاستانة واخرى الى قبطان باشا قائد العمارة التي أتت بموسى باشا من مصر حالاً . وكان لسفير فرنسا في الاستانة رغبته شديدة في بقاء محمد علي باشا على مصر لـما علم من عزم الا لفى على تسليم البلاد للدولة الانكليزية فسعى جهده مع قبطان باشا في

بقاء محمد علي باشا وعلم بعد ذلك ان المماليك لم ينفكوا منذ وجودهم في مصر عثرةً في سبيل حقوق الدولة وأنهم منقسمون فيما بينهم لا يتفقون على أمر

فرأى طلب أهل البلاد أقرب الى الصواب فكتب اليهم أن يعيدوا طلبهم وأن يبعثوا الطلب مع ابن محمد علي باشا . فكتبوه وأرسلوه مع ابنه ابراهيم بك على يد قبطان باشا. وفي ٥ شعبان سنة ١٢٢١ برحت العمارة العثمانية الاسكندرية وعليها قبطان باشا وموسى باشا وابراهيم بك

وفي اواخر شعبان (نوفمبر) سنة ١٨٠٦ م وردت الاوامر الشاهانية بتثبيت محمد علي باشا على ولاية مصر مع الايعاز اليه أن لا يعترض للماليك بعد ذلك لصدور العفو عنهم قبلاً . وفي الشهر التالي مات عثمان البرديسي . وفي ١٩ ذي القعدة سنة ١٢٢١ ﻫ (يناير سنة ١٨٠٧ م) توفي محمد الالفي وهما زعيمان احزاب المماليك فولوا عليهم شاهين بك رئيساً الا انهم مع ذلك لم تعد تقوم لهم قائمة وقد خلا الجو لمحمد علي باشا

« مقاومة الانكليز لمحمد علي »

ثم ان الحكومة الانكليزية اعتبرت تثبيت محمد علي مخلاً بنفوذها ومضراً بمصالحها فجردت حملة من ثمانية آلاف مقاتل تحت قيادة الجنرال « فرازر » لارجاع سلطنة المماليك وكانوا قد تبعثروا في البلاد وفي أثناء ذلك صدرت الاوامر من الدولة لمحمد علي باشا بالاحتياط وحفظ الثغور خوفاً أن تدهمه دولة الانكليز على غرّة فان مراكبهم أخذت تجول في البحر الابيض ولا يعلم ماذا تقصد . وفي محرم سنة ١٢٢٢ ﻫ ورد الخبر لمحمد علي باشا بوصول الدونمه الانكليزية واخذها ثغري الاسكندرية ورشيد وان الانكليز راسلوا القبائل لينضموا اليهم وأفهموهم أنهم ما حضروا الا لنصرتهم فأخذ في الاستعداد وبنى الاستحكام الذي كان بانبابة وساعده على ذلك قنصل دولة فرنسا لما بين دولته ودولة الانكليز من العداوة اذ ذاك ومحمد علي باشا اهتم بجمع العساكر والنظر فيما يلزمهم فبينما هو كذلك اذ حضر البشير بهروب الانكليز من رشيد وقتل كثير منهم وان العسكر قد أسر منهم خلقاً كثيراً ففرح محمد علي باشا والناس ودقت الطبول وزينت البلد وبعد قليل حضر الاسارى وكان لدخولهم يوم مشهود وأمر الباشا بمعاملتهم بالحسنى ورتب لهم ما يكفيهم وكانوا قد قطعوا جسر أبو قير لقطع المواصلة بين ثغر الاسكندرية وداخل القطر فعم المياه اغلب بلاد البحيرة وأخرب بلادها وأتلف أرضها وكرومها واعدم منها نحواً من مائة وأربعين بلداً بقيت الى الآن وهي ما تراه حول اتكو وبحيرة المعدية الى المحمودية وما جاور بحيرة مريوط ممتداً الى القرب من دمنهور

وفي ١٣ رجب سنة ١٢٢٢ هـ ١٤ سبتمبر سنة ١٨٠٧ م انسحبت الجيوش الانكليزية باتفاق صلح مع القطر فاستتبت القوة لمحمد علي باشا وقد رضي جلالة السلطان محمود عنه ودخلت الاسكندرية في ولايته . ثم سعى بعضهم في المصالحة بينه وبين المماليك فتحت بقدوم شاهين بك الى مصر بالهدايا الثمينة فاكرمه محمد علي وبني له قصراً نفيساً لسكناه في الجيزة ثم تبادلوا الزيارات وكل علائق المودة وهكذا فعل سائر المماليك

فلما رسخت قدم محمد علي باشا في مصر اخذ في تسليم مصالح « الحكومة الى من يثق بهم من ذوى قرباه لانه كان شديد المحبة لعائلته ولا شك ان ازره اشتد بهم . ثم استفحل امر الوهابيين في شبه جزيرة العرب فارسل السلطان محمود يعهد الى محمد علي باشا امر اخضاعهم وتخليص البلاد من ايديهم

والوهابيون طائفة من المسلمين تذهب الى اغفال الكتب الدينية الاسلامية الا القرآن والحديث . زعيمهم الاول محمد بن عبد الوهاب ولد في العينية من اقليم العارض من نجد سنة ١١٠٦ هـ (١٦٩٦) وكان ابوه شيخاً فقيهاً فربي في حجره على المذهب الحنبلي ثم انتقل لاتمام دروسه في البصرة وهم بزيارة مكة والمدينة وعاد الى بلده . ثم تزوج في الحريملة بالعارض وقام فيها واشتهر بين قومه بالتقوى وصدق التدين . وانحى عليهم باللائمة لتقاعدهم عن الفروض الدينية واهمالهم قواعد الدين الاساسية وبالغ في تعنيفهم حتى تآمر بعضهم على قتله وتربصوا له في مكمن فادرك غرضهم ففر الى بلده العينية واخذ يجتذب الاحزاب اليه من اهله وابناء قبيلته بالوعظ والمراسلة والاقناع فالتف حوله جماعة من الانصار في بلدته وما يحيط بها من البلاد

ومحمد بن عبد الوهاب ينشر مذهبه بالاقناع والموعظة ومحمد بن سعود ينتشر معهما نفوذه وسلطانه في نجد . فعارضه اهل الرياض من ذلك الاقليم بقيادة أميرهم دهيم بن دواس وحمل برجاله على المنفوحة فعادوا خائبين . فتشدد ابن سعود وشيخه ابن عبد الوهاب وتمكنا من الثبات في الدعوة . فتزوج ابن سعود ابنة محمد بن عبد الوهاب فولدت عبد العزيز فخلف اباه عند موته سنة ١٧٦٥ وكان الوهابيون قد تكاثروا وصاروا جنداً كبيراً فحمل بهم من اطراف جزيرة العرب

وكان عبدالعزيز شجاعاً حازماً شديد البطش مع تقوى وورع فغدره رجل من فارس بطعنة خنجر وهو يصلي فقتله سنة ١٨٠٣ م فخلفه ابنه سعود وكان قد تعود الحرب من صغره فقاد بعض رجال ابيه وهو لا يزال في الثانية عشرة من عمره . ثم ما زال يقود الجند في الحرب حتى هدد الدولة العثمانية في الشام والعراق . وقد قام في اعتقاد العرب

انه لا يلبث ان ينشر هذا المذهب في العالم كله فحاموا حوله . فخافت الدولة العثمانية بطشه فجندت اليه حملة بقيادة سليمان باشا فقهرها ثم حمل بعشرين الف مقاتل على كربلاء وفيها قبور أئمة الشيعة وصاح برجاله « اقتلوا هؤلاء الكفار الذين يشركون بالله » فاخذوا في هدم المزارات كلها من قبر الحسين الى اقل الابنية. فلم يتركوا حجراً على حجر واستولوا على ما كان هناك من التحف والاموال واستعانوا بها على امورهم

وفي السنة التالية فتحوا مكة ودخل سعود الكعبة رسمياً في ٢٧ افريل سنة ١٨٠٣ واستولى على ما فيها من التحف وشدد في نشر تعاليمه هناك . وبادر سعود فكتب الى السلطان سليم الثالث وهو يومئذ على العرش العثماني كتاباً هذا معناه :

« من سعود الى سليم: أما بعد فقد دخلت مكة في الرابع من المحرم سنة ١٢١٨ هـ وامنت اهلها على ارواحهم واموالهم بعد ان هدمت ما هناك من اشباه الوثنية والغيت الضرائب الا ما كان منها حقاً وثبت القاضي الذي وليته انت طبقاً لشرع الاسلام فعليك ان تمنع والي دمشق ووالي القاهرة من المجيء الى هذه البلد المقدس بالمحمل والطبول والزمور فان ذلك ليس من الدين في شيء وعليك رحمة الله وبركاته »

ولم تمض تلك السنة حتى دخلت المدينة في حوزة الوهابيين واجرى سعود فيها اصلاحه الديني فهدم قبة القبر النبوي ونزع الستائر التي كانت هناك . وأخذ في نشر سيادته على بلاد العرب فاصبحت حدود مملكته سنة ١٨٠٩ من الشمال صحراء سوريا ومن الجنوب بحر العرب ومن الشرق خليج العجم ومن الغرب البحر الاحمر وقد استفحل امرهم ولم ير الباب العالي بدًّا من تكليف بطل مصر ومحيي معالمها رحمه الله

فأجاب محمد علي مطيعاً وجعل يجمع القوات اللازمة لتلك الحملة لكنه فكر في أمر المماليك فخشي اذا سارت الحملة ان لا تكون البلاد في مأمن منهم فيجمعوا كلمتهم ويعودوا الى ما كانوا عليه من القلاقل فعمد الى اهلاكهم قبل مسير الحملة . لكنه في الوقت نفسه أخذ في اعداد المهمات فجند اربعة آلاف مقاتل تحت قيادة ابنه طوسون باشا ثم طلب الى الباب العالي ان يبعث الى السويس باخشاب لبناء المراكب اللازمة لنقل الجند ومعدات الحرب فارسل اليه ما طلب فابتنى ثمانية عشر مركباً واعدها عند السويس في انتظار الحملة

« مذبحة المماليك »

اما المماليك فكانوا قد يئسوا من الاستقلال بالاحكام بعد ان رأوا ما حل بسلفائهم وما عليه محمد علي باشا من العزيمة فكفوا عن مطامعهم واكتفوا بالتمتع بارزاقهم وممتلكاتهم في حالة سامية . فقطن بعضهم الصعيد وبعضهم القاهرة وتشتتوا في انحاء القطر . وكان

شاهين بك وهو الذي تولى رئاستهم بعد وفاة الالفي قد اذعن لمحمد على باشا كما تقدم . فاقطعه أرضاً بين الجيزة وبني سويف والفيوم فأوى اليها . وفي محرم سنة ١٢٢٦ هـ فبراير سنة ١٨١١ م سار قواد الحملة من القاهرة وعسكروا في قبة العزب في الصحراء ينتظرون سائر الحملة ومعها طوسون باشا . وتعين يوم الجمعة لوداع طوسون والاحتفال بخروجه ورجاله الى قبة العزب فاعلن ذلك في المدينة ودعى كل الاعيان لحضور ذلك الاحتفال ومن جملتهم المماليك وطلب اليهم أن يكونوا بالملابس الرسمية

ففي يوم الجمعة ٥ صفر سنة ١٢٢٦ هـ مارس سنة ١٨١١ م احتشد الناس في القلعة وجاء شاهين بك فى رجاله فاستقبلهم الباشا في قصره بكل ترحاب . ثم قدمت لهم القهوة وغيرها ولما تكامل الجمع وجاءت الساعة امر محمد علي بالمسير فسار الموكب وكل في مكانه جاعلين المماليك الى الوراء يكتنفهم الفرسان والمشاة . حتى اذا اقتربوا من الباب الغربي من أبواب القلعة في مضيق بين هذا الباب والحوش العالي أمر محمد علي فاغلقت الابواب وأشار الى الالبانيين « الارناؤط » فهجموا على المماليك بغتة فانذعر اولئك وحاولوا الفرار تسلقاً على الصخور ولكنهم لم يفوزوا لان الالبانيين كانوا اكثر تعوداً على تسلقها. واقتحم المشاة المماليك من ورائهم بالرصاص فطلب هؤلاء الفرار بخيولهم من طرق أخرى فلم يستطيعوا لصعوبة المسالك على الخيول ولما ضويق عليهم ترجل بعضهم وفروا سعياً على اقدامهم والسيوف في ايديهم فتداركتهم الجنود بالبنادق من الشبابيك فقتل شاهين بك امام ديوان صلاح الدين . وحاول بعضهم الالتجاء الى الحريم او الى طوسون باشا بدون فائدة . ثم نودي في المدينة ان كل من يظفر باحد المماليك في أي محل كان يأتي به كتخدابك فكانوا يقبضون عليهم ويأتون بهم اليه أفواجاً وهو يقتلهم

وكان عدد المماليك المدعوين الى الوليمة اربعمئة فلم ينج منهم الا اثنان احدهما احمد بك زوج ديلة هانم بنت ابراهيم الكبير كان غائباً بناحية موش والثاني امين بك اتى القلعة متأخراً فرأى الموكب سائراً نحو الباب الغربي فوقف خارج الباب ينتظر خروج الموكب . ثم لما اقفلت الابواب بغتةً وسمع اطلاق النار ادرك المكيدة فهز جواده وطلب الصحراء قاصداً سوريا . والمتناقل على الألسنة ان امين بك هذا كان داخل القلعة فعندما حصات المعركة همز حواده فوثب به من فوق السور لجهة الميدان فقتل جواده وسلم هو وقد صوروا تلك الاشاعة في الرسم والاقرب للحقيقة ان هذه الاشاعة مختلفة او مبالغ فيها . ثم نودي في الاسواق ان شاهين بك زعيم المماليك قد قتل فخافت الناس ثم طافت العساكر في المدينة ينهبون بيوت المماليك ويأخذون حريمهم وعلا الصياح



امين بك ـــ المملوك الشارد

وفي اليوم التالي نزل الباشا من القلعة وطوسون معه وطاف المدينة يأمر الناس بايقاف النهب وقتل كل من حاول ذلك ولكنه حرض على قبض من يظفرون به من المماليك في سائر انحاء القطر فكانوا يأتون بهم أفواجاً يسوقونهم كالغنم الى الذبح . فبلغ عدد من قتل من البكوات ٢٣ بيكا . أما الجثث التي كانت في القلعة فاحتفروا لها حفراً جعلوا فوقها التراب وصرح محمد علي بحماية نساء المماليك ولم يسمح بتزويجهن الا الى رجاله

« عود الى الوهابيين »

ولما خلت البلاد من المماليك عكف محمد على باشا على المهام الاخرى واخصها مسألة الوهابيين فكتب الى غالب شريف مكة يخبره باعداد حملة تنفذه من الوهابيين فيفتح طريق الحرمين لجمع المسلمين وطلب اليه ان يمهد له السبيل . فجوبه شاكراً ووعد بالمساعدة أما سعود أمير الوهابيين فانبأته الجواسيس بما نواه محمد علي فأمر فاجتمع حوله

خمسة عشر الفاً ليدفع بهم جنود مصر . اما حملة طوسون فركبت البحر من السويس حتى أتت ينبع على الساحل الشرقي من البحر الاحمر ومنها يتصل الى المدينة فتملكوا ينبع وساروا منها الى صفر وفيها معسكر الوهابيين وقد تأهبوا للدفاع فهجم طوسون باشا فتقهقر سعود ورجاله اولا ثم ارتدوا علي الجيوش المصرية فانهزموا وتركو مؤنهم وذخائرهم وجمالهم وعادوا الى ينبع فعلم محمد علي باشا بذلك فجند جنداً كبيراً مدداً الى ابنه فاشد ازر طوسون وجمع اليه القوتين وسار حتى الى المدينة فاطلق عليها القنابل فهدم بعض السور ثم دخلها واثخن في حاميتها حتىسلمت فكنف السيف عنها . فانتشر خبر افتتاح المدينة في سائر الحجاز فخاف الوهابيون وفرح اعداؤهم ولا سيما الشريف غالب . وقدكان في جدة لا يدري ماذا يكون من امر تلك الحملة فلم علم بانتصارها كاد يطير من الفرح

وأجلى الوهابيون عن مكة خوفاً من اهلها فجاءها طوسون واحتلها وكتب الى ابيه ففرح فرحاً لا مزيد عليه لما اتاه الله من النصر على يدابنهلم يتأتَّ لغيره من القواد العثمانيين وجيء اليه بقائد حامية المدينـة من الوهابيين فارسله في خفر الى الاستانة فقتلوه حال وصوله اليهـا . اما من بقي من دعاة الوهابيين فكانوا لا يزالون في أمن خارج مكة تحت قيادة كبيرهم سعود

فلما جاء صيف سنة ١٢٢٨ هـ سنة ١٨١٣ م علموا انجنود طوسون لا يحتملون حر تلك البلاد وانهم اذا ناهضوهم اذ ذاك ربما تغلبوا عليهم ثم ساروا الى تربة شرقي مكة فحاربوها واستولى عليها ثم ساروا الى المدينة وهددوها بعد ان استولوا على كل ما بين هاتين المدينتين من القرى والمدن . فاتصل الخبر بمحمد علي فلم ير بدًّا منذهابه بنفسه لنصرة الجنود المصرية وقد اصبحت مصر في مأمن من المماليك وغيرهم فسار في جند عظيم حتي اتى جدة فنزلها في ٣٠ شعبان سنة ١٢٢٨ هـ ٢٨ اغسطس سنة ١٨١٣ م فلاقاه الشيخ غالب شريف مكة ورحب به . وبعد ان ادى فروض الحج رأى ان الشريف ليس ممن يعول عليهم في الدفاع فعمد الى خلعه بطريقة تضمن حقن الدماء ففاز ثم وضع يده على ممتلكاتهوبعث به وعائلته الى القاهرة ومنها الى سالونيك فعاش فيها اربع سنوات ومات

اما الوهابيون فمات قائدهم سعود في درعية في ٢٦ ربيع آخر سنة ١٢٢٩ هـ فانحطت سطوتهم فاقاموا عليهم ابنه عبد الله ولم يكن كفؤاً فحصلت بينه وبين الجنود المصرية مناوشات كثيرة لم تأتِ بنتيجة . وفي ٢٨ محرم سنة ١٢٣٠ هـ حصلت معركة

كبيرة بين جنود محمد على والوهابيين تحت قيادة فيصل اخي عبد الله شفت عن انتصار المصريين فتقدم طوسون الى نجد الا انه اضطر اخيراً الى التوقف لقلة المؤن وهو لم يبلغ درعية

ثم اقتضت الاحوال عود محمد علي الى مصر فعاد وقد فتح طريق الحرمين لكنه لم يبد جمع الوهابيين . فوصل القاهرة في ٤ رجب سنة ١٢٣٠ ه فاهتم بتدريب الجند على نظام جند اوروبا وهو اول من فعل ذلك في مصر فاصدر امراً عالياً في شعبان سنة ١٢٣٠ ه مؤداه ان الجنـود المصرية ستدرب على النظام الحديث وهو النظام الفرنساوي فعظم على الجهادية ولا سيما الارناؤط الامتثال الى هذه الاوامر فرأى ان يدخل هذا النظام اولا بين الجنود الوطنية لانهم اقرب الى الطاعة من هؤلاء الالبانيين ومن كان على شاكلتهم — وسنعود الى ذلك

وفي اثناء ذلك عاد طوسون باشا من الحجاز فخرج الناس لملاقاته بالاحتفال والاكرام ثم نزل الاسكندرية حيث كان ابوه مقيما فوجد امرأته قد وضعت في اثناء غيابه غلاماً دعته عباساً . وبعد يسير اصيب طوسون بألم شديد في رأسه وحمى لم يعش بعدها الا قليلاً واختلفت الروايات في اسباب موته وكيفيته ومكانه ولكنهم اتفقوا ان موته كان شديد الوطأة على ابيه . ونقلت جثة طوسون باشا الى القاهرة ودفنت قرب مسجد الامام الشافعي وراء جبل المقطم حيث مدفن العائلة الخديوية اليوم

وبعد قليل عاد محمد علي الى روعه فأخذ يهتم في امر الوهابيين خشية ان يعودوا الى ما كانوا عليه فكتب الى عبد الله سعود ان يأتي اليه بالاموال التي استخرجهـا الوهابيون من الكعبة وان يتأهب متى قدم للمسير الى الاستانة العلية . فاجابه يعتذر عن الشخوص وقال ان تلك الاموال قد تفرقت على عهد ابيه . وارسل له هدايا فاخرة فارجع اليه محمد علي تلك الهدايا واوسعه تهديداً . ثم جرد اليه حملة عهد قيادتها الى ابنه ابراهيم باشا وكان باسلا مقداماً وقائداً مجربا لا يهاب الموت شديد الغضب سريعه . ولكنه كان سليم القلب حرّ الضمير ولذلك كانت احكامه عادلة صارمة

وفي ١٠ شوال سنة ١١٣١ ه سار ابراهيم باشا بحملة من القاهرة في النيل الى قنا ومنها في الصحراء الى القصير على شاطىء البحر الاحمر ومنها بحراً الى ينبع ثم الى المدينة وتربص هناك يجمع قواته يستعد لهجوم شديد امتثالا لمشورة ابيـه . فالتف حوله عصبة جديدة من القبائل المتحابة ولما تكاملت قواته اقام الحرب سجالا ومازال بين هجوم ودفاع حتى فاز وقبض على زعيم الوهابيين عبد الله فارسله الى ابيه فوصل

القاهرة في ٢١ محرم ١٢٢٣ هـ فاذن له بالمثول بين يدي محمد علي باشا وتقبيل يديه فرحب به كثيراً لانه كان يعجب بشجاعة الوهابيين . ثم سأله ما طه بابراهيم فأجابه قائلا « انه قد قام بما عليه ونحن قمنا بما علينا وهكذا اراد الله » . وفي ٢٠ محرم اوسل الى الاستانة وطافوا به في اسواقها ثلاثة ايام ثم قتلوه . وخلع السلطان على ابراهيم باشا خلعة شرف مكافأة له وسماه والياً على مكة . فاتصلت هذه الاخبار بدرعية فخاف اهلها فهدموا المدينة وفروا من وجه الموت فاحتلتها الجنود الظافرة وانتهى امر الوهابيين . اما محمد علي باشا فانه نال من انعام السلطان لقب خان مكافأة لاخلاصه وبسالته وهو لقب لم يمنح لاحد من وزراء الدولة الا حاكم القرم

« فرمان ولاية محمد علي »

« رأينا بسرور ما عرضتموه من البراهين على خضوعكم وتأكيد امانتكم وصدق عبوديتكم لذاتنا الشاهانية ولمصلحة بابنا العالي . فطول اختباركم وما لكم من الدراية باحوال البلاد المسلمة ادارتها لكم من مدة مديدة لا يتركان لنا ريباً بانكم قادرون بما تبدونه من الغيرة والحكمة في ادارة شؤون ولايتكم على الحصول من لدنا الشاهاني على حقوق جديدة من تعطفاتنا الملوكية وثقتنا بكم . فتقدرون في الوقت نفسه احساناتنا اليكم قدرها وتجتهدون ببث هذه المزايا التي امتزتم بها في اولادكم . وبمناسبة ذلك صممنا على تثبيتكم في الحكومة المصرية المبينة حدودها في الخريطة المرسومة لكم من لدن صدرنا الاعظم ومنحناكم فضلا عن ذلك ولاية مصر بطريق التوارث بالشروط الآتي بيانها :

متى خلا منصب الولاية المصرية تعهد الولاية الى من تنتخبه سدتنا الملوكية من اولادكم الذكور وتجري هذه الطريقة نفسها بحق اولاده وهلم جرّا . واذا انقرضت ذريتكم الذكور لا يكون لاولاد نساء عائلتكم الذكور حق اياً كان في الولاية وارثها . ومن وقع عليه من اولادكم الانتخاب لولاية مصر بالارث بعدكم يجب عليه الحضور الى الاستانة لتقليده الولاية المذكورة . على ان حق التوارث الممنوح لوالي مصر لا يمنحه رتبة ولا لقباً اعلى من رتبة سائر الوزراء ولقبهم ولا حقاً في التقدم عليهم بل يعامل بذات معاملة زملائه . وجميع احكام خطنا الشريف الهمايوني الصادر عن كلخانة وكافة القوانين الادارية الجاري العمل بها او تلك التي سيجري العمل بموجبها في ممالكنا العثمانية وجميع العهود المعقودة او التي ستعقد في مستقبل الايام بين الباب العالي والدول



محمد على باشا

(مؤسس العائلة الخديوية)



(محمد علي باشا بالطربوش)

(مؤسس العائلة الخديوية)

المتحابة يتبع الاجراء على مقتضاها جميعها في ولاية مصر ايضاً . وكما هو مفروض على المصريين من الاموال والضرائب يجري تحصيله باسمنا الملوكي . ولكي لا يكون اهالي مصر وهم من بعض رعايا بابنا العالي معرضين للمضار والاموال والضرائب غير القانونية يجب ان تنتظم تلك الاموال والضرائب المذكورة بما يوافق حالة ترتيبها في سائر الممالك العثمانية وربع الايرادات الناتجة من الرسوم الجمركية ومن باقي الضرائب التي تحصل في الديار المصرية يحصل بتمامه ولا يخصم منه شيء ويؤدي الى خزينة بابنا العالي العامرة والثلاث الارباع الباقية تبقى لولايتكم لتقوم بنفقات التحصيل والادارة المدنية والجهادية وبنفقات الوالي وباثمان الغلال الملزمة مصر بتقديمها سنوياً الى البلاد المقدسة مكة والمدينة . ويبقى هذا الخراج مستمراً دفعه من الحكومة المصرية بطريقة تأديته المشروحة مدة خمس سنوات تبتدئ من عام ١٢٥٧ من يوم ١٢ فبراير سنة ١٨٤١ م ومن الممكن ترتيب حالة اخرى بنشأتهم في مستقبل الايام تكون اكثر موافقة لحالة مصر المستقبلة ونوع الظروف التي ربما تجدّ عليها . ولما كان من واجبات [illegible] العالي الوقوف على مقدار الايرادات السنوية في تحصيل العشور وباقي الضرائب وكان الوقوف على هذه الاحوال يستلزم تعيين مراقبة وملاحظة في تلك الولاية فينظر في ذلك فيما بعد ويجري ما يوافق ارادتنا السلطانية . ولما كان من اللازم ان [illegible] لي ترتيباً لسك النقود لما في ذلك من الاهمية بحيث لا يعود يحدث فيها خ[illegible] لا من جهة العيار ولا من جهة القيمة اقتضت ارادتنا السنية أن تكون النقود [illegible] مضيه الجائز لحكومة مصر ضربها باسمنا الشاهاني معادلة للنقود المضروبة في [illegible] العامرة بالاستانة سواء كان من قبيل عيارها او من قبيل هيئتها وطرزها

[illegible] ان يكون لمصر في اوقات السلم ثمانية عشر الف نفر من الجند لمحافظة [illegible] مصر ولا يجوز ان تتعدى ولايتكم هذا العدد . ولكن حيث ان قوات مصر [illegible] لخدمة الباب العالي كسائر قوات المملكة العثمانية فيسوغ ان يزاد هذا [illegible] الحرب بما يرى موافقاً في ذلك الحين . على انه بحسب القاعدة متبعة في [illegible] ان الخدمة العسكرية بعد ان تخدم الجند مدة خمس سنوات يستبدلون [illegible] الجديدة . فهذه القاعدة يجب اتباعها ايضاً في مصر بحيث ينتخب [illegible] موجودة في الخدمة حالاً عشرون الف رجل ليبتدئوا الخدمة [illegible] عشر الفاً في مصر وترسل الالفان لاداء مدة خدمتهم . وحيث [illegible] الف رجل واجب استبدالهم سنوياً فيؤخذ سنوياً من مصر

اربعة آلاف رجل حسب القاعدة المقررة من نظام العسكرية حين سحب القرعة بشرط ان تستعمل في ذلك مواجب الانسانية والنزاهة والسرعة اللازمة فيبقى في مصر ثلاثة آلاف وستمائة من الجنود الجديدة والاربعمائة يرسلون الى هنا ومن اتم مدة خدمته من الجنود المرسلة الى هذا الطرف ومن الجنود الباقية في مصر يرجعون الى مساكنهم ولا يسوغ طلبهم للخدمة مرة ثانية . ومع كون مناخ مصر ربما يستلزم اقمشة خلاف الاقمشة المستعملة لملبوسات العساكر فلا بأس من ذلك فقط يجب ان لا تختلف هيئة الملابس والعلامات التمييزية ورايات الجنود المصرية عن مثلها من ملابس ورايات باقي الجنود العثمانية . وكذا ملابس الضابطان وعلامات امتيازهم. وملابس الملاحين وعساكر البحرية المصرية ورايات سفنها يجب ان تكون مماثلة لملابس ورايات وعلامات رجالنا وسفننا . وللحكومة المصرية ان تعين ضباطاً برية وبحرية حتى رتبة الملازم اما ما كان اعلى من هذه الرتبة فالتعيين اليها راجع لارادتنا الشاهانية . ولا يسوغ لوالي مصر ان ينشئ من الآن فصاعداً سفناً حربية الا باذننا الخصوصي . وحيث ان الامتياز المعطى بوراثة ولاية مصر خاضع للشروط الموضحة اعلاه ففي عدم تنفيذ احد هذه الشروط موجب لابطال هذا الامتياز والغائه للحال . وبناء على ذلك قد اصدرنا خطنا هذا الشريف الملوكي كي تقدروا انتم واولادكم قدر احساننا الشاهاني فتعتنوا كل الاعتناء باتمام الشروط المقررة فيه وتحموا اهالي مصر من كل فعل اكراهي وتكفلوا امنيتهم وسعادتهم مع التحذر من مخالفة اوامرنا الملوكية واخبار بابنا العالي من كل المسائل المهمة المتعلقة بالبلاد المعهودة ولايتها لكم»

« فرمان ولايته على السودان »

ثم صدر فرمان آخر يثبت ولايته على النوبة ودارفور وكردوفان وسنار هذا نصه :

« ان سدتنا الملوكية كما توضح في فرماننا السلطاني السابق قد ثبتتكم على ولاية مصر بطريق التوارث بشروط معلومة وحدود معينة . وقد قلدتكم فضلاً عن ولاية مصر مقاطعات النوبة ودارفور وكردوفان وجميع توابعها وملحقاتها الخارجة عن حدود مصر ولكن بغير حق التوارث . فبقوة الاختبار والحكمة التي امتزتم بهما تقومون بادارة هاته المقاطعات وترتيب شؤونها بما يوافق عدالتنا وتوفير الاسباب الآيلة لسعادة الاهلين وترسلون في كل سنة قائمة الى بابنا العالي حاوية بيان الايرادات السنوية جميعها . وحيث انه يحدث من وقت لآخر ان تهجم الجنود على قرايا المقاطعات

المذكورة فيأسرون الفتيان من ذكور واناث ويبقونهم في قبضة يدهم لقاء رواتبهم وحيث ان هذه الامور مما تقضي معها الحال ليس فقط لانقراض اهالي تلك البلاد وخرابها بل انها امور مخالفة للشريعة الحقة المقدسة وكلا هاتين الحالتين ليست اقل فظاعة من امر آخر كثير الوقوع وهو تشويه الرجال ليقوموا بحراسة الحريم ذلك مما ليس ينطبق على ارادتنا السنية مع مناقضته كل المناقضة لمبادىء العدل والانسانية المنتشرة من يوم جلوسنا المأنوس على عرش السلطنة السنية . فعليكم مداركة هذه الامور بما ينبغي من الاعتناء لمنع حدوثها في المستقبل ولا يبرح عن بالكم ان فيما عدا بعض اشخاص توجهوا الى مصر على اسطولنا الملوكي قد عفوت عن جميع الضابطان والعساكر وسائر المأمورين الموجودين في مصر . نعم بموجب فرماننا السلطاني السابق ان تسمية الضابطان المصرية لما فوق رتبة المعاون تستلزم العرض عنها لاعتابنا الملوكية الا انه لا بأس من ارسال بيان باسماء من رقيتم من ضباط جنودكم الى بابنا العالي كي ترسل لهم الفرمانات المؤذنة بتثبيتهم في رتبهم . هذا ما نطقت به ارادتنا السامية فعليكم الاسراع في الاجراء على مقتضاها »

فاصبحت حكومته بعد ذينك الفرمانين محصورة في مصر والسودان . وبمقتضى ذلك تنازل محمد علي باشا عن عشرة آلاف من جنود سوريا فلم يبق عنده الا ثمانية عشر الفاً بين مشاة وفرسان وغيرهم . فاضطر اذ ذاك الى الاقتصاد لاصلاح مالية البلاد فاوقف كثيراً من المدارس العمومية التي كان قد خصص مبالغ معلومة للنفقة عليها ومن ضمنها مدرسة شبرا الزراعية وابدل الاساتذة الاوروباويين لما بقي من المدارس باساتذة اتراك او وطنيين وسار من ذلك الحين في خطة الاصلاح قانعاً بما قسم له من البلدان فعمل على ارضاء جلالة السلطان فانفذ الى جلالته ابنه سعيد باشا لتقديم فروض العبودية

« اواخر ايامه »

ثم أصيب ابراهيم باشا بانحراف في صحته فسار الى اوروبا لقضاء فصل الصيف سنة ١٨٤٥ م فاصاب ترحابا عظيماً في سائر الممالك الاوروبية ولا سيما في فرنسا وانكلترا وعاد الى مصر في اواخر صيف عام ١٨٤٦ م وكان والده قد توجه قبل وصوله بيسير الى الاستانة بدعوة رسمية ليقدم عبوديته لجلالة السلطان فوصلها في ١٩ يوليو عام ١٨٤٦ م ونزل في سراي رضا باشا ثم تشرف بالمثول بين يدي جلالة السلطان فرحب به . ولما اراد تقبيل الاعتاب الشاهانية امسكه جلالته واجلسه بجانبه ومكثا ساعة

بحادثان. ثم انصرف شاكراً وزار عدوّه القديم خسرو باشا وتصافيا . وفي ١٧ أغسطس من تلك السنة برح الاستانة قاصداً قواله مسقط رأسه فقام فيها عدة ابنية لتعليم الفقراء واعانة الضعفاء والمساكين ثم برحها الى الاسكندرية فقوبل بالانوار وسار منها الى القاهرة فتقاطر اليه المهنئون من الاصدقاء افواجاً فكان يستقبلهم وعلى صدره الطغراء الشاهانية تلألأ كالشمس

وفي منتصف عام ١٨٤٨ توعك مزاج محمد علي باشا وازدادت فيه ظواهر الخرف فلم يعد ثم بد من تولية ابراهيم باشا فتوجه هذا الى الاستانة في اوغسطس من تلك السنة لاجل تثبيته على ولاية مصر خلفاً لابيه فثبته السلطان بنفسه فعاد لمعاطاة الاحكام . ثم راجعه العياء واشتد عليه بغتة ففارق هذا العالم في ١٠ نوفمبر عام ١٨٤٨م وبعد وفاته باحدى عشر ساعة دفن في مدفن العائلة الخديوية بجوار الامام الشافعي بالقاهرة

وكان عباس باشا غائباً في مكة فاستقدم حالا لاستلام زمام الاحكام فوصل القاهرة في ٢٤ دسمبر بعد ان قضى فروض الحج ولم يكن ثم اعتراض على توليته فجاء الفرمان الشاهاني من الاستانة مؤذناً بذلك فتولى الامور

كل ذلك ومحمد علي باشا في الاسكندرية وقد أخذ منه المرض مأخذاً عظيما وما زال يهزل جسداً وعقلا الى ٢ اغسطس عام ١٨٤٩ م فتوفى ولم يستغرب الناس وفاته لانه مكث في حالة النزاع مدة طويلة . وفي ٣ منه تقاطر الناس من الاعيان والقناصل الى سراي رأس التين في الاسكندرية لحضور مشهد ذلك الرجل المعظم . فاذا هو في قاعة الاستقبال في تابوت تغطيه شيلان الكشمير وعلى صدره سيفه والقرآن الكريم وعلى رأسه طربوشه الجهادي احمر تونسي وحوله العلماء في الملابس الرسمية يتلون القرآن بأنغام التجويد . وكان سعيد باشا اكبر من وجد في الاسكندرية من عائلة الفقيد فكانت توجه نحوه خطابات التعزية . ونقلت جثت الفقيد ودفنت في جامعه في القلعة ولا تزال هناك الى الآن

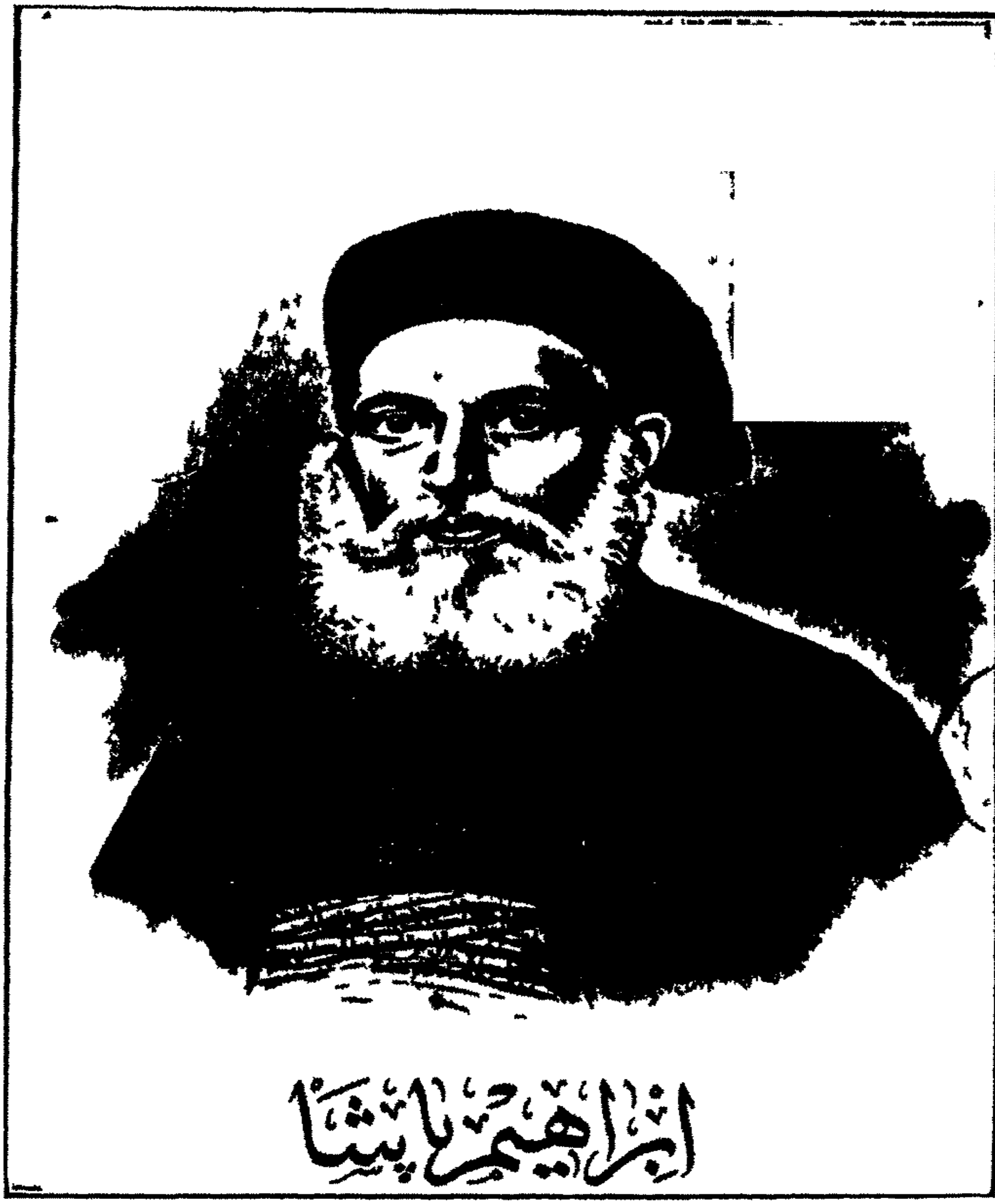
ويقال انه شرع بتعلم القراءة والكتابة وهو في الخامسة والاربعين من عمره . وهذا مما يزيده شرفاً وفخراً ويبرهن على ما فطر عليه من قوة الادراك والحذاقة والمقدرة على المهام السياسية . وكان صارم المعاملة مع لين ورقة وحسن اسلوب . وكان متمسكاً بالاسلام مع احترام التعاليم الاخرى ولا سيما التعاليم المسيحية فكان يقرب اصحابها منه ويعهد اليهم اهم اعماله

ويقال انه كان بالاجمال أباً حنوناً لرعيته وصديقاً مخلصاً ونصيراً مسعفاً لذوي

قرباه اباً حقيقياً لأولاده وكذلك تراه بعد ان اصيب بفقد اكثرهم غلب عليه الحزن حتى اثر في صحته تأثيراً رافقه الى اللحد . اما حبه للرعية فلا يحتاج الى دليل فهذه الديار المصرية عموماً اذا قصرت السنة اهلها عن تعداد مآثره ينطق جمادها بمزيد فضله هذه الترع والجسور والبنايات والشوارع والجناين . هـذه المطابع والمدارس . هذه النظامات الجهادية والملكية والقضائية والزراعية والفلاحة . هذه شبه جزيرة العرب تردد ما لاقته من نجدته . وقد كان موضع احترام رعيته وذويه حتى الاجانب البعيدين منه وضناً وديناً ومشرباً وكثيراً ما تقربوا اليه بالنياشين والهدايا اقراراً بفضله على العالم عموماً بتمهيد سبل التجارة بين اوروبا والهند على الخصوص

« ابراهيم باشا بن محمد علي »

ولد سنه ١٢٠٤هـ تولى وتوفي سنه ١٩٦٥ م



هو نجل محمد علي باشا وقد تقدم في سيرة ابيه معظم سيرة حياته لانهما عملاً معاً في مصر وكان ابراهيم ساعد ابيه الايمن في فتوحه وسائر اعماله العسكرية . ولد في قواله عام ١٢٠٤ هـ ومال من صغر سنه للاعمال الحربية وفيه مواهب اعاظم القواد يشهد

بذلك ما آتاه من الاعمال العظمى في مصر والشام والمورة والسودان وغيرها . وكان يعرف الفارسية والتركية والعربية وله اطلاع في تاريخ البلاد الشرقية تولى الامارة المصرية بعد تنازل ابيه عام ١٢٦٥ هـ فسار على خطواته سيراً حسناً وان كان في الحقيقة يختلف عنه بمواهبه الاصلية فقد كان ابراهيم صارم المعاملة صعب المراس شديد الوطأة كما يغلب ان يكون رجال العسكرية . وكان ابوه لين العريكة حسن السياسة ذا دهاء وحكمة . ولم يبق حكم ابراهيم الا ١١ شهراً وتوفى قبل والده . وكان نقش خاتمه « سلام على ابراهيم »

« عباس باشا الاول »

ولد سنة ١٢٢٨ هـ وتولى سنة ١٢٦٥ هـ وتوفى سنة ١٢٧٠ هـ



هو عباس باشا بن طوسون باشا بن محمد علي باشا ولد عام ١٢٢٨ هـ (١٨١٣م) وربي احسن تربية وكان محباً لركوب الخيل فرافق عمه ابراهيم باشا في حملتــه الى الديار الشامية وشهد اكثر الوقائع الحربية وفي سنة ١٢٦٥ هـ تولى زمام الاحكام على الديار المصرية بعد وفاة عمه ابراهيم وكان على جانب من العلم والمعرفة لان المرحوم جده كان يحبه كثيرا فاعتنى بتعليمه في مدرسة الخانكاه

ومن مشروعاته المهمة الشروع في انشاء الخط الحديدي بين مصر والاسكندرية وتأسيس المدارس الحربية في العباسية ومد الخطوط التلغرافية لتسهيل سبل التجارة وغير ذلك

وكان له غلام يدعى البرلس ابراهيم الهامي كان على جانب عظيم من الجمال والذكاء واللطف والمعرفة والعلم زار الاستانة سنة ١٢٧٠ هـ وتشرف بمقابلة السلطان عبدالمجيد فاحبه وزوجه بابنته وغمره بنعمه . فرجع الى مصر حامداً شاكراً والمرحوم الهامي باشا هو والد ذات العفاف والعصمة حرم المغفور له توفيق باشا الخديو السابق ووالدة مولانا الخديو الحالي

وعباس باشا هو الذي وضع الحجر الاول لمسجد السيدة زينب بيده وقد كان لذلك احتفال عظيم حضره كثير من الاعيان ورجال الدولة وذبحت فيه الذبائح وفرقت الصدقات على الفقراء كمية كبيرة

وفي ايامه كانت بين الدولة العلية والروسيين حروب فبعث لنجدة الدولة حملة كبيرة سارت عن طريق بولاق في البحر وسار هو بنفسه لوداعها هناك وقبل ركوبها النيل نهض لوداعها فألقى في الجمهور خطاباً بليغاً منشطاً

وتوفي عباس باشا في شوال سنة ١٢٧٠ هـ او يوليو سنة ١٨٥٤ في قصره بمدينة بنها العسل ثم نقل ودفن في مدفن العائلة الخديوية في القاهرة

« سعيد باشا »

ولد سنة ١٢٣٧ هـ وتولى سنه ١٢٧٠هـ وتوفى سنة ١٢٧٩ هـ

هو ابن محمد علي باشا ولد في الاسكندرية عام ١٢٣٧ هـ (١٨٢٢م) وقد كان محباً للعلم بارعا فيه وعلى الخصوص في اللغات الشرقية والعلوم الرياضية وسلك الابحر والرسم وكان يتكلم الفرنساوية جيدا . تولى زمام الاحكام عام ١٢٧٠ هـ او ١٨٥٤ م بعد وفاة عباس باشا ابن أخيه وكان مؤثراً للعدل والفضيلة مهتما بالاصلاح الاداري . ومن

اعماله المبرورة اتمام الخطوط الحديدية والتلغرافية بين الاسكندرية ومصر والشروع في مد غيرها وتنظيم لوائح الاطيان واسترجاعها من المتعهدين الى اربابها . وقد عدل الضرائب فجعلها عادلة ورفع كثيراً من الضرائب التي كان يتظلم منها الرعايا ونزح ترعة المحمودية وفي ايامة تمت معاهدة ترعة السويس وقد نشطها تنشيطا كبيراً واقام على طرفها الشمالي مدينة حديثة دعيت باسمه وهي بورت سعيد وغرس الاشجار في طريق المنشية



4 EGYPTE — Said Pacha

وفي السنة الثانية من توليه على مصر وضع الحجر الاول لاساس القلعة السعيدية عند رأس الدلتا فيما بين القناطر الخيرية تداعت اركانها الآن وقد عثرنا على قطعة فضية مستديرة قطرها قيراطان ونصف على احد وجهيها رسم النيل عند تفرعه

والقناطر الخيرية يليها على الجانبين برجا القناطر وبينهما عند رأس الدلتا القلعة السعيدية وكل ذلك في اجمل ما يكون من الرسم . وعلى الوجه الآخر كتابة تركية تفيد » ان المغفور له سعيد باشا بن محمد علي باشا المشهور قد وضع اساس القلعة السعيدية وما يليها من الاستحكامات بيده في يوم الاحد ٢٣ جمادى الآخرة عام ١٢٧١ هـ لاجل حماية الديار المصرية » هذا نصها التركى .

« قواله لى مشهور محمد علي صلبندن بيك ايكييوز اوتوز يدى سنهٔ هجريه سنده اسكندريه ده دنيايه كلوب يتمش سنه‌سى شوال مكرمنده خطهٔ جسيمهٔ مصره حكمى جارى اولان محمد سعيد محافظهٔ ام دنيا ايچون اشبواستحكامات قويه‌يه بيك ايكيوز يتمش سنه سى جمادى الثانينك يكرمى اوچنجي دوشنبه كونى ومولودينك اتوزنجى سنه سنه‌سى كندى يديله وضع اساسى ايتمشدر »

وفي عام ١٢٧٨ هـ او ١٨٦١ م توفى المغفور له السلطان عبد المجيد خان وتولى السلطان عبد العزيز . وفي يوم السبت ٢٦ رجب عام ١٢٧٩ هـ او يناير ١٨٦٣ م توفى سعيد باشا في الاسكندرية ودفن فيها

« اسماعيل باشا »

ولد سنة ١٨٣٠ وتولى سنة ١٨٦٣ وخلع سنة ١٨٧٩ وتوفي سنة ١٨٩٥

(ترجمة حاله) هو اسماعيل باشا بن ابراهيم باشا بن محمد علي باشا الكبير . وكان لوالده ثلاثة أولاد ذكور اكبرهم البرنس احمد ولد عام ١٨٢٥ ثم البرنس اسماعيل ولد عام ١٨٣٠ ثم البرنس مصطفى فاضل ولد عام ١٨٣٢ م وكان البرنس احمد من نوابغ الزمان ذكاء وفطنة كثيرالشبه بوالده شكلاً واخلاقاً ولكنه توفى في اثمن سني حياته بين الشباب والكهولة فأصبح صاحب الترجمة كبير ابناء ابراهيم

وربى اسماعيل باشا في حجر والده وتعلم وتثقف بحياطة جده لان جده رحمه الله كان قد انشأ لأولاده الصغار واولاد اولاده الكبارمدرسة خصوصية في القصر العالى فيها نخبة من مهرة الاساتذة فتلقى صاحب الترجمة فيها مبادىء العلوم واللغات العربية والتركية والفارسية ونذراً يسيراً من الرياضيات والطبيعيات . فلما بلغ السادسة عشرة من عمره بعث به جده مع ولديه المرحومين البرنسين حليم باشا وحسين بك والمرحوم البرنس احمد باشا مع ارسالية فيها نخبة من شبان مصر الاذكياء الى مدرسة باريس . فقضوا في تلك المدرسة بضع سنوات تلقوا بها العلوم العالية ثم عادوا الى مصر

الا حسين بك فان المنية ادركته هناك . ومن العلوم التي تلقاها اسماعيل اللغة الفرنساوية والطبيعيات والرياضيات وخصوصاً الهندسة وعلى الاخص فن التخطيط والرسم . وهذا هو سبب شغفه بعد ذلك بتنظيم الشوارع وزخرفة البناء



EGYPTE — Ismail Pacha

ولما عادت الارسالية كان عباس باشا الاول والياً على مصر فمكث اسماعيل معه على صفاء ومودة حتى وقع بين عباس باشا وسعيد باشا نفور مبني على اختلاف في اقتسام التركة وانحاز سائر افراد العائلة الخديوية الى سعيد وفي جملتهم اسماعيل . فساروا كافة الى الاستانة ورفعوا دعواهم الى جلالة السلطان فصدرت الارادة الشاهانية بانفاذ المرحوم فؤاد باشا الصدر الاعظم وكان يومئذ فؤاد افندي وجودت افندي وهو جودت باشا المؤلف الشهير الى مصر . فأتيا وسويا الخلاف وتصالح افراد هذه العائلة

الكريمة فعادوا الى مصر الا اسماعيل فانه بقي في الاستانة وتعين عضواً في مجلس احكام الدولة العلية

وفي سنة ١٨٥٤ م توفى عباس باشا الاول وتولى عمه سعيد باشا فعاد صاحب الترجمة الى مصر فولاه عمه المشار اليه رئاسة مجلس الاحكام فاهتم بشأنه اعظم اهتمام ونظمه على مثال مجلس احكام الدولة العلية

وفي عام ١٨٦٣ م توفى المغفور له سعيد باشا فأفضت ولاية مصر الى اسماعيل باشا وهو خامس ولاتها من السلالة المحمدية العلوية فأخذ منذ تبوئه الاحكام في رفع شأن هذه الديار واعادة رونقها الذي كان لها في عهد محمد علي باشا فاطلق يده في النفقة لتنظيم الشوارع وتشييد الابنية وانشاء المشروعات النافعة على انواعها مما سيأتي تفصيله غير مبال بما قد يجر اليه ذلك من الضيق

وكانت ولاية مصر تنتقل في الاسرة الخديوية الى من يختاره جلالة السلطان الاعظم بقطع النظر عن علاقته بالوالى السابق . وكان ولاة مصر يلقبون بالعزيز أو الوالي أو الباشا واذا لقبوه احياناً بالخديوى فانما يكون ذلك على سبيل التجمل والتفخيم وأما اسماعيل باشا فهو اول من نال رتبة الخديوية ولقب الخديوي فأصبحت ولاية مصر ارثاً صريحاً في نسله ينتقل منه الى اكبر اولاده ومنه الى اكبر اولاده وهكذا على التعاقب . وهاك اهم نصوص الفرمان المؤذن بذلك الصادر في ١٢ جمادى الاولى سنة ١٢٩٠ هـ الموافق ٨ يوليو عام ١٨٧٣ م

« الفرمان الخديوى »

ان كيفية وراثة الحكومة المقررة في فرماننا الصادر ثانى ربيع الآخر عام ١٢٨٥ هـ قد غيرت على وجه ان تنتقل الخديوية من متبوئي كرسيها الى بكر ابنائه ومن هذا الى بكر ابنائه ايضاً وهلم جرّا علماً بأن ذلك ادنى الى المصلحة واشد ملاءمة لاحوال البلاد المصرية. واختصاصاً لك بانعطافي الذي صرت له اهلاً بحسن سعيك واستقامتك واجتهادك وأمانتك واثباتاً لذلك اجعل قانون الوراثة الخديوية مصر ومتعلقاتها وما يتبعها من البلاد وقائمقامية سواكن ومصوّع وتوابعهما كما تقدم بيانه . بحيث تكون الولاية لبكر ابنائك ثم لبكر ابنائه من بعده . فاذا لم يرزق من تولى الخديوية ولداً ذكراً كانت الولاية من بعده لاكبر اخوته أو لاكبر بني أخيه الاكبر كما تقرر . ولا تكون هذه الوراثة لابناء البنات . ولاجل تأييد هذه الاحكام ينبغي ان تكون الوصاية

في حال كون الوارث قاصراً على الصورة الآتية وهي :

«اذا توفي الخديوي وكان كبير ولده قاصراً أي غير بالغ من العمر ثمانية عشرة سنة يكون هذا القاصر بالحقيقة خديوياً بحق الوراثة فيصدر له فرماناً بوجه السرعة. واذا كان الخديوي المتوفي قد نظم قبل وفاته اسلوباً للوصاية وعين كيفيتها وذوي ادارتها بصك مثبت بشهادة اثنين من رؤساء حكومته فأولئك الاوصياء يقبضون اذ ذاك على ازمة الاعمال عقب وفاة الخديوي ثم ينهون بذلك الى الباب العالي فيثبتهم في مناصبهم ولكن اذا توفي الخديوي بغير وصية وكان ابنه قاصراً فمجلس الوصاية عند ذلك يؤلف من متولي ادارة الداخلية والحربية والمالية والخارجية والحقانية وقائد العسكر ومفتش المديريات . فيجتمع هؤلاء الذوات وينتخبون للخديوي وصياً باجماع الرأي أو بأغلبيته فاذا تساوت الآراء لاثنين من المنتخبين كانت الوصاية لارفعهما رتبة باعتبار الترتيب السابق من الداخلية فما بعدها . ويشكل مجلس الوصاية من الباقين فيباشرون جميعاً امور الخديوية ويعرضون ذلك لسلطنتنا السنية ليصدق عليه بالفرمان الشريف . وكما أنه لا يجوز تبديل الوصي وتغيير هيئة الوصايا قبل انتهاء مدتها في الصورة الاولى اي فيما اذا كان تنظيمها بحكم وصية الخديوي المتوفي فكذلك لا تغير في الثانية . واما اذا توفى الوصي او احد اعضاء مجلس الوصاية في خلال تلك المدة فينتخب بدل الاول احد اعضاء المجلس وبدل الثاني احد ذوات المملكة . وبمجرد بلوغ الخديوي القاصر ثماني عشرة سنة يكون راشداً فيباشر ادارة امور الخديوية وذلك مما تقرر لدينا واقتضت ارادتنا السلطانية

«ولما كان تزايد عمارة الخديوية المصرية وسعادة حالها ورفاهة سكانها من اهم الامور لدينا وكانت ادارة المملكة الحالية ومنافعها المادية المتوقف عليها تكامل وسائل الراحة وتوفر اسباب السعادة عائداً على الحكومة المصرية رأينا ان تذكر كيفية تعديل الامتيازات وتوضيحها على شرط بقاء جميع الامتيازات الممنوحة سابقاً للحكومة المصرية . وذلك انه لما كانت ادارة المملكة الملكية والمالية بجميع فروعها واحوالها ومنافعها عائدة بالحصر على الحكومة ومتعلقة بها وكان من المعلوم ان ادارة اي مملكة وحسن انتظامها وتزايد عمرانها وسعادة سكانها مما لا يتم الا بالتوفيق والتطبيق بين الادارة العمومية والاحوال والموقع وامزجة السكان وطبائعهم فقد منحنا كم الرخصة المطلقة في وضع القوانين والنظامات الداخلية حسب الحاجة واللزوم . ولاجل تسهيل تسوية المعاملات سواء كانت من قبل الرعية او من قبل الحكومة مع الاجانب .

ولتوسيع نطاق الصناعة والحرف وتوفير اسباب التجارة منحنا كم ايضاً الرخصة التامة في عقد المشاركات وتجديد المقاولات مع مأموري الدول الاجنبية في امور المملكة الداخلية وغيرها على شرط ان لا يكون ذلك موجباً للاخلال بمعاهدات الدولة السياسية

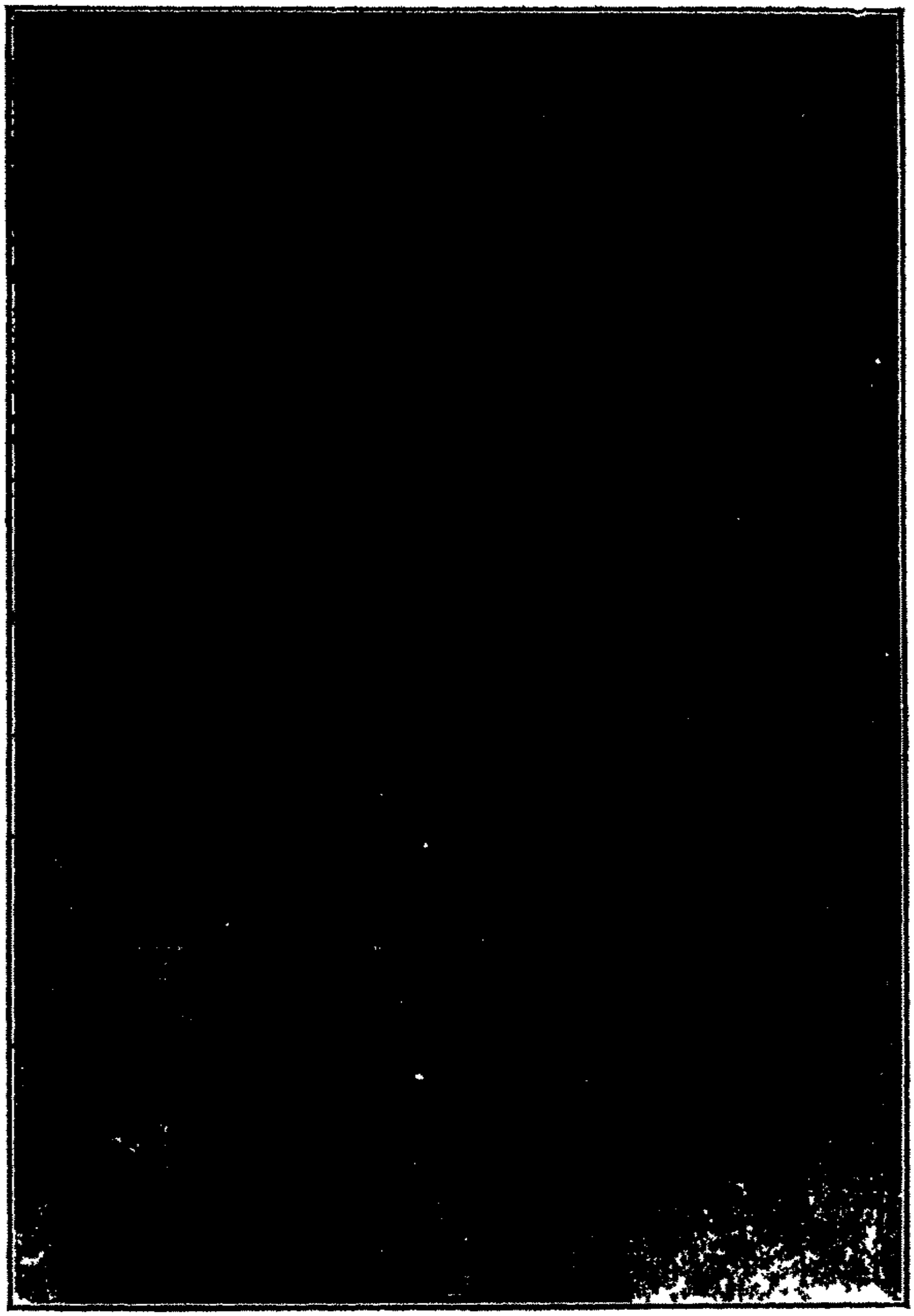
«ولكون خديوي مصر حائزاً حق التصرف المطلق في الامور المالية قد اعطيت له الرخصة في عقد القروض من الخارج بغير استئذان عند ما يجد لذلك لزوماً على شرط ان يكون القرض باسم الحكومة المصرية . وبما ان امر المحافظة على المملكة وصيانتها من الطوارق « وهو اهم الامور واحوجها الى العناية » من اقدم الوظائف المختصة بخديوي مصر قد منحناه الاذن المطلق بتدارك اسباب المحافظة وتنسيبها على مقتضى ضرورات الزمان والحال وبتكثير او تقليل عدد العساكر المصرية الشاهانية حسب اللزوم بغير تقييد ولا تحديد . وابقينا كذلك لخديوي مصر الامتياز القديم بمنح الرتب العسكرية الى رتبة ميرالاي والملكية الى الرتبة الثانية على شرط ان تكون المسكوكات المضروبة في مصر باسمنا الشاهاني وتكون اعلام العساكر البرية والبحرية في القطر المصري كاعلام عساكرنا السلطانية بلا فرق اوتمييز ولا يجوز لخديوي مصر ان ينشئ البوارج المدرعة بغير استئذان اما سائر السفن والبوارج ففي استطاعته ان ينشئها متى شاء » انتهى

وقد امتاز اسماعيل باشا عن سائر ولاة مصر الذين قبله انه حبب سكنى الديار المصرية الى الاجانب من جالية اوربا واميركا وغيرهما بما مهده من وسائل الراحة والطمأنينة مع الاخذ بناصرهم وتأييد مشاريعهم وتنشيطهم وتوسيع نطاق التجارة فتقاطروا اليها افواجاً واقاموا فيها على الرحب والسعة لما آتوه من الكسب الحسن والعيش السهل

وفي عام ١٨٦٩ احتفل اسماعيل باشا بافتتاح ترعة السويس وكان قد بوشر بحفرها على عهد عمه سعيد باشا فحضر ذلك الاحتفال ملوك اوربا او من يقوم مقامهم . وكان له رنة بلغ صداها اربعة اقطار المسكونة لما اعده فيه اسماعيل من وسائل الزينة مما قد تقصر عنه همم الملوك العظام . وفي جملة ذلك انه بنا الاوبرا الخديوية بالقاهرة لتكون مرسحاً يشاهد فيه ضيوفه صنوف التمثيل وكانت المدة غير كافية لتشييد ذلك البناء . فبذل الدرهم والدينار فلم تمض خمسة اشهر حتى تم البناء وسائر معدات التمثيل على ما نشاهده الآن وهو من المراسح التي لا مثيل لها الا في عواصم اوربا العظمى



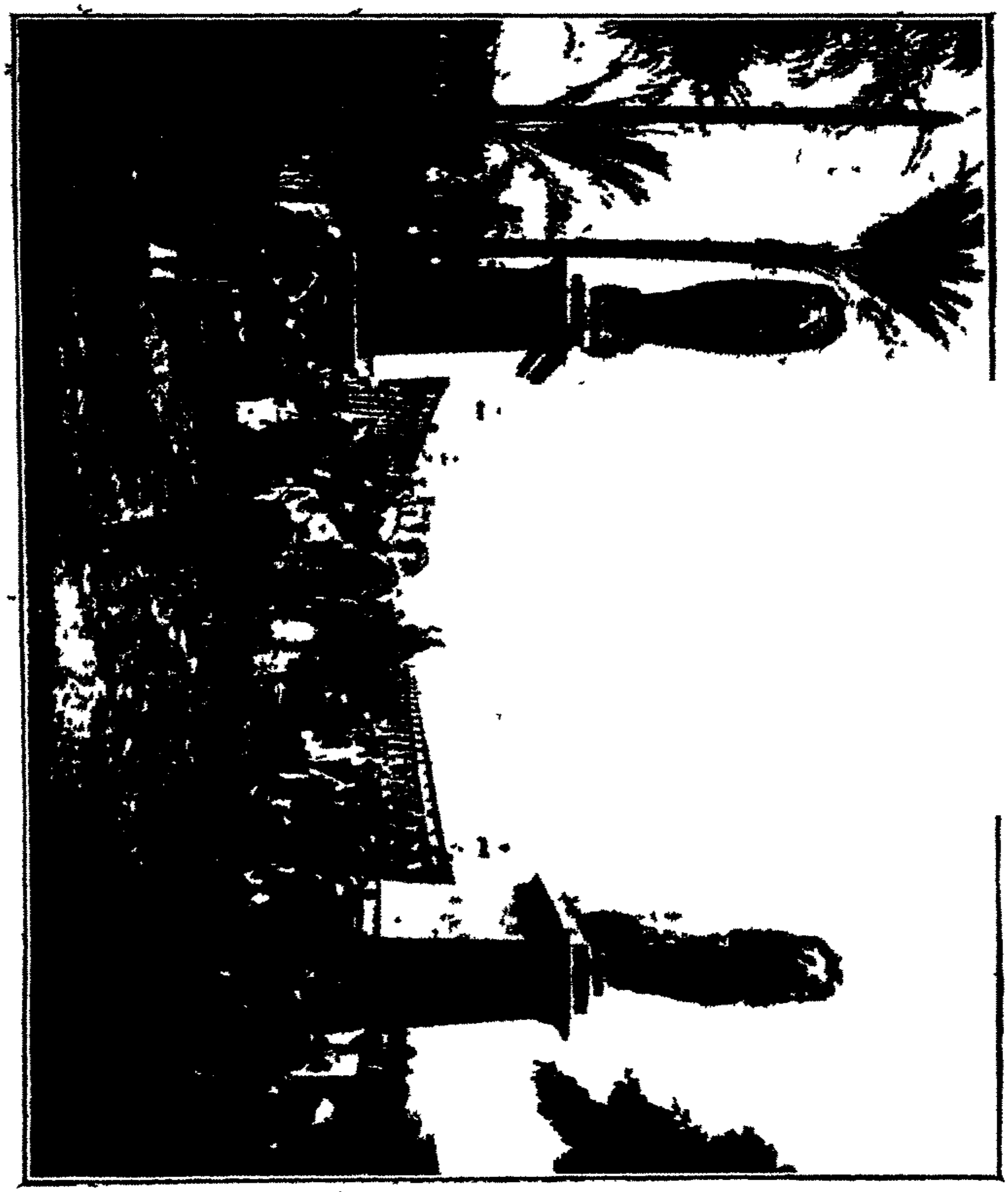
ميدان الاوبرا الخديوية وتمثال ابراهيم باشا



القاهرة منظر عمومي
يشتمل على شارع محمد علي والمباني التي على جنبيه بما فيها جامع السلطان حسن
وجزءٌ من القلعة عليها جامع محمد علي

وكان اسماعيل باشا شديد الشغف بتنظيم المدن حتى قيل انه يريدان يجعل القاهرة تضاهي باريس بالنظام والترتيب فنظم طرقها ووسعها وا كثر من فتح الشوارع الجديدة وابتناء الابنية الفاخرة والقصور الباذخة في القاهرة والاسكندرية واعظم تلك الابنية

سراي الجيزه وهي مما تقصر عنه همم الملوك حتى ضربت بها الامثال وانشأ المتحف المصري في بولاق والمكتبة الخديوية وهما اجل الآثار وانفعها . اما المتحف فقد انشأه بامره ماريت باشا وقبره فيه . وكان المتحف اولا في بولاق ثم نقله على عهد الخديو السابق الى سراي الجيزه ثم نقل في عهد الخديو الحالي الى بناية بنوها له خاصة بجوار قصر النيل



كوبري قصر النيل



« محمد توفيق باشا الخديوي السابق »

ولد سنة ١٨٥٢ وتولى ١٨٧٩ وتوفي ١٨٩٢ ميلادية

هو اكبر انجال المرحوم اسماعيل باشا الخديوي الاسبق . ادخله والده مدرسة المنيل وسنه تسع سنوات فدرس فيها اللغة والجغرافيا والتاريخ والطبيعيات واللغة العربية والتركية والفرساوية والانكليزية وكان ميالاً للعلم من صغر سنه فاحرز منه جانباً اهله لرئاسة المجلس الخصوصي في حياة والده وسنه ١٩ سنة . ثم تقلد نظارة الداخلية ونظارة الاشغال العمومية ورئاسة مجلس النظار

ولما بلغ الحادية والعشرين من عمره تزوج بكريمة المرحوم الهامي باشا وهي مشهورة بالعقل والكمال . وفي السنة التالية (١٨٧٤) ولد له بكره (الخديو الحالي) فسماه

عباس حلمي . ثم ولد البرنس محمد علي سنة ١٨٧٦ والبرنسس خديجه هانم سنة ١٨٧٧ والبرنسس نعمت هانم سنة ١٨٨١

وما زال يتقلد المناصب في عهد المرحوم ابيه حتى قضت الاحوال باقالته . فاستلم رحمه الله ازمة الاحكام في ٢٦ يونيو سنة ١٨٧٩ وجاءه تلغراف من الصدر الاعظم يؤذن بذلك هذا نصه :

« بناء على ان الخطة المصرية هي من الاجزاء المتممة لجسم ممالك السلطنة السنية وان غاية حضرة صاحب الشوكة والاقتدار انما هي تأمين اسباب الترقي وحفظ الامن والعمارة في الممالك وبناء على ان الامتيازات والشرائط المخصوصة الممنوحة للخديوية المصرية مبنية على ما للحضرة الشاهانية من المقاصد المذكورة الخيرية . وبناء على تزايد اهمية ما حصل في القطر المصري ناشئاً عما وقع فيه من المشكلات الداخلية والخارجية الفائقة العادة وجب تنازل والد جنابكم العالي اسماعيل باشا . ثم انه بناء على ما اتصفت به ذاتكم السامية الآصفية من الرشد وحسن الروية على ما ثبت لدى ملجأ الخلافة الاسمى من ان جنابكم الداوري ستوفقون الى استحصال اسباب الامنية والرفاهية لصنوف الاهالي والى ادارة امور المملكة على وفق ارادة الحضرة الشاهانية الملوكانية توجهت الارادة العلية بتوجيه الخديوية الجليلة الى عهدة استئهال آصفايتكم وبناء على الفرمان العلي الشأن الذي سيصدر حسب العادة على مقتضى الارادة السنية السلطانية التي صار شرف صدورها وبناء على ما كتب في التلغراف الى حضرة المشار اليه اسماعيل باشا من تخليه عن النظر في امور الحكومة وتفرغه منها بصورة وقوع انفصاله . وقد تحرر تلغراف هذا العاجز لكي يعلن حال وصوله للعلماء والامراء والاعيان واهل المملكة جميعاً وتباشر من بعده امور الحكومة . وهذا من التوجيهات الوجيهة الى اثر استحقاق آصفايتكم لتجري التنظيمات والترقيات مبدأ ومقدمة ويصير تكرير الدعاء بتوفيق الذات الجليلة الفخيمة السلطانية ولذلك صارت المبادرة الى ايفاء لوازم التهنئة لحضرتكم ايها الخديوي المعظم والامر والفرمان على كل حال لمن له الامر افندم »

الامضاء

خير الدين

فصدرت الاوامر باعداد ما يلزم للاحتفال بذلك وجلس سموه في القلعة يستقبل المهنئين من الوزراء والعلماء يتقدمهم نقيب الاشراف ثم القاضي شيخ الجامع الازهر ثم جاء القناصل وبعد ذلك دخل الذوات وامراء العسكرية والملكية ثم رجال الحقانية

ثم النواب ووجهاء البلاد ثم ارباب الجرائد ثم الموظفون والمستخدمون وغيرهم
وبعد ذلك ارسل الجناب الخديوي تلغرافاً الى الباب العالي جواباً على التلغراف
المؤذن بارتقائه الى كرسي الخديوية

« الفرمان بولاية توفيق باشا »

«الدستور الاكرم والمعظم الخديوالافخم المحترم نظام العالم وناظم مناظم الامم مدبر امور الجمهور بالفكر الثاقب متم مهام الانام بالرأي الصائب ممهد بنيان الدولة والاقبال مشيد اركان السعادة والاجلال مرتب مراتب الخلافة الكبرى مكمل ناموس السلطنة العظمى المحفوف بصنوف عواطف الملك الاعلى خديوي مصر الحائز لرتبة الصدارة الجليلة فعلاً الحامل لنيشاننا الهمايوني المرصع العثماني ولنيشاننا المرصع المجيدي وزيري سمير المعالي توفيق باشا ادام الله تعالى اجلاله وضاعف بالتأييد اقتداره واقباله

« انه لدى وصول توقيعنا الهمايوني الرفيع يكون معلوماً لكم انه بناء على انفصال اسماعيل باشا خديوي مصر في اليوم السادس من شهر رجب سنة ١٢٩٦ هـ وحسن خدمتكم وصداقتكم واستقامتكم لذاتنا الشاهانيــة لمنافع دولتنا العلية ولما هو معلوم لدينا ان لكم وقوفاً ومعلومات تامة بخصوص الاحوال المصرية وانكم كفؤ لتسوية بعض الاحوال الغير المرضية التي ظهرت بمصر منذمدة واصلاحها وجهنا الىعهدتكم الخديوية المصرية المحددة بالحدود القديمة المعلومة مع الاراضي المتضمنة اليها المعطاةالى ادارة مصر توفيقاً للقاعدة المتخذة بالفرمان العالي الصادر في ١٢ محرم سنة ١٢٨٣ هـ المتضمن توجيــه الخديوية المصرية الى اكبر الاولاد وحيث انكم اكبر اولاد الباشا المشار اليه قد وجهت الى عهدتكم الخديوية المصرية . ولما كان تزايد عمران الخديوية وسعادتها وتأمين راحة كافة اهاليها وسكانها ورفاهيتهم هي من المواد المهمة لدينا ومن اجل مرغوبنا ومطلوبنا وقد ظهر ان بعض احكام الفرمان العالي الشأن المبني على تسهيل هــذه المقاصد الخيرية المبين فيه الامتيازات الحائزة لها الخديوية المصرية قديماً نشأت عنها الاحوال المشكلة الحاضرة المعلومة فلذلك صار تثبيت المواد التي لا يلزم تعديلها من هذه الامتيازات وتأكيدها وصار تبديل المواد المقتضى تبديلها واصلاحها فما تقرراجراؤه الآن هوالمواد الآتية وهي :

« ان كافة واردات الخطة المذكورة يكون تحصيلها واستيفاؤها باسمنا الشاهاني . وحيث ان اهالي مصر أيضاً من تبعة دولتنا العلية وان الخديوية المصرية ملزمة بادارة

امور المملكة والمالية والعدلية بشرط ان لا يقع في حقهم أدنى ظلم ولا تعد في وقت من الاوقات لخديوي مصر يكون مأذوناً بوضع النظامات اللازمة للداخلية المتعلقة بهم وتأسيسها بصورة عادلة . وايضاً يكون خديوي مصر مأذوناً بعقد وتجديد المشارطات مع مأموري الدول الاجنبية بخصوص الجمرك والتجارة وكافة امور المملكة الداخلية لاجل ترقي الحرف والصنائع والتجارة واتساعها ولاجل تسوية المعاملات السائرة التي بين الحكومة والاجانب او بين الاهالي والاجانب بشرط عدم وقوع خلل بمعاهدات دولتنا العلية البولوتيقية وفي حقوق متبوعية مصر اليها . وانما قبل اعلان الخديوية فالمشارطات التي تعقد مع الاجانب بهذه الصورة يصير تقديمها الى بابنا العالي . وايضاً يكون حائزاً للتصرفات الكاملة في امور المالية لكنه لا يكون مأذوناً بعقد استقراض من الآن وصاعداً بوجه من الوجوه وانما يكون مأذوناً بعقد استقراض بالاتفاق مع المداينين الحاضرين او وكلائهم الذين يتعينون رسمياً وهذا الاستقراض يكون منحصراً في تسوية احوال المالية الحاضرة ومخصوصاً بها . وحيث ان الامتيازات التي اعطيت الى مصر هي جزء من حقوق دولتنا العلية الطبيعية التي خصت بها الخديوية واودعت لديها لا يجوز لاي سبب او وسيلة ترك هذه الامتيازات جميعها او بعضها او ترك قطعة ارض من الاراضي المصرية الى الغير مطلقاً . ويلزم تأدية مبلغ ٧٥٠ الف ليرة عثمانية وهو الويركو المقرر دفعه في كل سنة في اوانه . وكذلك جميع النقود التي تضرب في مصر تكون باسمنا الشاهاني . ولا يجوز جمع عساكر زيادة عن ثمانية عشر الفاً لان هذا القدر كاف لحفظ امنية ايالة مصر الداخلية في وقت الصلح . وانما حيث ان قوة مصر البرية والبحرية مرتبة من اجل دولتنا يجوز ان يزاد مقدار العساكر بالصورة التي تستتب فيها حالة دولتنا العلية محاربة . وتكون رايات العساكر البرية والبحرية والعلامات المميزة لرتب ضباطهم كرايات عساكرنا الشاهانية ونياشينهم . ويباح لخديوي مصر ان يعطي ضباط البرية والبحرية الى غاية رتبة اميرالاي والملكية الى الرتبة الثانية . ولا يرخص لخديوي مصر ان ينشيء سفناً مدرعة الا بعد الاذن وحصول رخصة صريحة قطعية اليه من دولتنا العلية . ومن الواجب وقاية كافة الشروط السالفة الذكر واجتناب وقوع حركة تخالفها . وحيث صدرت ارادتنا السنية باجراء المواد السابق ذكرها قد اصدرنا امرنا هذا الجليل القدر الموشح اعلاه بخطنا الهمايوني وهو مرسل صحبة افتخار الاعالي والاعاظم ومختار الاكابر والافاخم علي فؤاد بك باشكاتب المابين الهمايوني ومن اعاظم دولتنا العلية الحائز والحامل للنياشين العثمانية والمجيدية ذات

الشأن والشرف »

« حرر في ١٩ شهر شعبان المعظم سنة ١٢٩٦ من هجرة صاحب العز والشرف »

وكان توفيق باشا من اشد الخديويين غيرة على الوطن المصري ولم يكن له بدٌّ من تشكيل وزارة يثق بهـا تعينه على الحكومة مع تحديد سلطته وسلطتها وعلاقة البلاد بالدولة العثمانية . فانتدب المرحوم شريف باشا لتشكيل وزارة فلبي الدعوة لكنه عرض عليه لائحة في انشاء الدستور فلم يوافق الخديوي عليها فقدم استعفاءه في ١٨ اغسطس سنة ١٨٧٩ . فعزم الخديوي رحمه الله ان يتولى رئاسة الوزارة بنفسه . ولم يطل ذلك فانتدب رياض باشا لتشكيل الوزارة فشكلها في ٢٢ سبتمبر تحت رئاسته

وفي أثناء ذلك وافق الخديوي على تعيين المفتشين الماليين لمراقبة مالية مصر وهما المسيو بارنج (اللورد كرومر) عن انكلترا والمسيو بلينيار عن فرنسا .وكانت الحكومة الخديوية قد اصدرت امراً عالياً بحدود سيادة هذين المفتشين فجعلت لهما حق الحضور في مجلس النظار على ان يكون لهما رأي استشاري . فلم تمض بضعة اشهر حتى استقرت احوال الحكومة وتشكلت الوزارة وتقررت العلائق بين مصر والسلطان وبينها وبين المراقبين او المفتشين الماليين . ولم يتم حسن التفاهم بينهما وبين الوزارة الا بعد حين . وكان من جملة العراقيل في سبيل الازمة المالية مسألة تصفية الديون وتقدير الميزانية الجديدة .

« تصفية الديون »

اما تصفية الديون فتعينت لها لجنة في ٥ ابريل سنة ١٨٨٠ من خمسة اعضاء اوروباويين وعضو وطني وهو بطرس باشا غالي لينوب عن الحكومة المصرية .واخذت اللجنة في عقد جلساتها والعمل مع المفتشين الماليين وفرغت من ذلك في ١١ يوليو من تلك السنة ووضعت قانوناً صادق عليه الجناب الخديوي هذه خلاصته :

(١) ان صافي ايرادات السكك الحديدية والتلغرافات وميناء الاسكندرية يكون مخصوصاً لتسديد فوائد واستهلاك الدين الممتاز دون غيره اما فائدته فتبقى ٥ بالمائة على القيمة الاسمية . والقيمة التي تدفع سنوياً لفـائدة واستهلاك هذا الدين تكون ١ ١٥٧ ٧٦٨ جنيهاً سنوياً

(٢) ان صافي ايرادات الجمارك وعوائد الدخان الوارد ومديريات الغربية

والمنوفية والجيزة واسيوط بما فيه جميع الرسوم المقررة الا ايراد الملح والدخان البلدي . جميع صافي هذه الايرادات تبقى مخصصة لتسديد الدين الموحد والفائدة باعتبار اربعة بالمائة

(٣) ان املاك الدائرة السنية واملاك الدائرة الخاصة المذكورة في الكشوف والرهون العقارية المسجلة وغيرها تكون ملكاً للحكومة وهي تكون مخصصة لضمانة دين الدائرة السنية العمومي

(٤) تسوية الدين السائر تكون من البواقي من سلفة الاملاك الميرية ومن النقود الباقية لغاية سنة ١٨٧٩ ميلادية في خزينة النظارات والمديريات والمصالح التي لم تخصص للدين ومن الزائد من دفعات المقابلة والموجود نقدية في صندوق الدين العمومي ومن المبالغ التي يمكن تحصيلها من المتأخرات لغاية ١٨٧٩ ميلادية ومن العوائد والرسوم والاموال من اي نوع كانت . ومن العقارات الجائز للحكومة التصرف بها ولم تكن مخصصة . وما ينتج من تغير البونات او السندات . ومن سندات الدين الممتاز التي توجد على مقتضى المدون في البند السادس من قانون التصفية . ومن الجزء المخصص لاستهلاك الدين المنتظم حسب المدون في البند ١٥ من القانون . ومن الزيادات التي تظهر في الموازين كما هو مبين في البند السابع من قانون التصفية

هذه شذرة صغيرة من قانون التصفية ومن احب التفصيل فليراجع القانون نفسه فانه مؤلف من ٩٩ بنداً ومعه كشفان عن التسويات التي حصلت وغيرها

« عباس باشا حلمي الخديو الحالي »

ولد سنة ١٨٧٤ وتولى العرش الخديوي سنة ١٨٩٢

هو بكر الخديوي السابق ولد في ١٤ يوليو سنة ١٨٧٤ ولما توفى والده سنة ١٨٩٢ كان سموه اعزه الله في مدرسة فينا وكان قبل ذهابه اليها قد تثقف في مدرسة عابدين (التوفيقية) التي شادها والده له ولدولة شقيقه البرنس محمد علي . فلما اتما دروسهما فيها ارسلهما والدهما الى مدرسة جنيف بسويسرا فمكثا فيها مدة يجدّان في تحصيل العلوم . ثم برحاها الى فينا وانتظما في مدرستها الملوكية العليا وفي اثناء اقامتهما في تلك المدرسة استأذنا والدهما المرحوم بالتجول في انحاء اوربا لاستطلاع احوال تلك المدنية من مصادرها . فزارا المانيا وانكلترا وروسيا وايطاليا وفرنسا ولقيا من ملوك هذه



« عباس حلمي باشا الثاني »

الممالك ترحاباً حسناً وزار الممالك الاخرى

وفي سنة ١٨٨٩ ميلادية عادا الى مصر واستأذنا والدهما المرحوم في زيارة معرض باريس لذلك العام فاجابهما الى ذلك فلقيا هناك ترحاباً جميلاً وعادا الى المدرسة . وفي سنة ١٨٩١ عادا الى مصر في اثناء راحة المدرسة ثم رجعا الى المدرسة في فينا . وفي

٨ يناير من السنة التالية عام ١٨٩٢ جاءهما النبأ البرقي بوفاة الخديوي السابق فاصبح سمو اكبرهما مولانا الامير خديوياً على مصر من ذلك اليوم . ثم جاءته رسالة الصدر الاعظم بتثبيته على ذلك العرش فاسرع الى مقر حكومته فوصل الاسكندرية في ١٦ يناير المذكور فاحتفل القطر بقدومه احتفالاً يليق بمقامه

واشتهر سمو الخديوي بانعطاف المصريين اليـه اكثر مما الى كل خديوي سواه لمـا يلاقونه من دعته ولطفه وصدق محبته لهم . ويمتاز عصره عن عصور سائر اسلافه بنهضة الاقلام واتساع نطاق الصحافة واطلاق حرية المطبوعات وتكاثر المطابع والجرائد والمجلات والمكاتب وسائر عوامل النهضة العلمية

وهو اوسع الخديويين اطلاعاً على اسباب المدنية الحديثة لانه تثقف في مدارس اوربا مع كثرة أسفاره اليها والى الاستانة . ولد ولي عهده البرنس محمد عبد المنعم في ٢٠ فبراير سـنة ١٨٩٩ . وقد سافر سموه الى الحرمين سنة ١٣٢٧ ﻫ (١٩٠٩ م) لقضاء فريضة الحج فبرح موكبه القاهرة في ٢٩ ذي القعدة سـنة ١٣٢٧ (١١ دسمبر سنة ١٩٠٩) فوصل جدة في ١٤ دسمبر وحلت ركابه في مكة فزار مناسك الحج وأدى فرائضه وكان موضوع الاحترام والاعجاب حيثما حـل ثم يمم المدينة فادى الزيارة وبرحها في ١٥ يناير سنة ١٩١٠ فوصل مصر في ٢٥ منه فزينت له العاصمة زينة لم يسبق لها مثيل

« الاعمال السياسية »

نريد بهذا الباب ذكر ما جرى في زمن الجناب الخديوي مما يتعلق بالدول الاخرى وليس هو من قبيل ادارة البلاد الداخلية . واول تلك الاعمال تحديد تخوم مصر في الفرمان الشاهاني . فقد صدر الفرمان المذكور في ٢٧ شعبان سنة ١٣٠٩ او ٢٦ مارس ١٨٩٢ وفيه اختلاف عن الفرمان الصادر للمرحوم توفيق باشا الخديوي السابق من حيث حدود مصر الشرقية عند شبه جزيرة سينا . فدارت المخابرات بين وزارة خارجية انكلترا والباب العالي بهذا الشأن حتى اصدر الصدر الاعظم ملحقاً تلغرافياً يخوّل الحكومة المصرية فيه ادارة شبه جزيرة سينا مؤرخاً في ٨ ابريل من تلك السنة . وهذا نص الفرمان المذكور بعد المقدمة :

« فرمان الخديوي الحالي »

انه لدى وصول توقيعنا الهمايوني الرفيع يكون معلوماً لكم انه بنـاءً على ما قضى به الله من انتقال جنتمكان محمد توفيق باشا خديوي مصر الى رحمته تعالى واعلاماً

بجليل التفاتنا ونظراً الى حسن خدامتكم وصداقتكم واستقامتكم لذاتنا الشاهانية ولمنافع دولتنا العلية ولما هو معلوم لدينا من ان لكم وقوفاً ومعلومات تامة بخصوص الاحوال المصرية وانكم كفء لاصلاحها وجهنا الى عهدتكم الخديوية المصرية المحدودة بالحدود القديمة المبينة في الفرمان الشاهاني الصادر بتاريخ ٢ ربيع الثاني سنة ١٢٥٧ هـ والمبنية ايضاً في الخريطة الملحقة بالفرمان المذكور مع الاراضي المنضمة اليها طبقاً للفرمان الشاهاني الصادر بتاريخ ١٥ ذي الحجة سنة ١٢٨١ هـ وذلك بمقتضى ارادتنا الشاهانية الصادرة في جمادى الثانية سنة ١٣٠٩ هـ ولانكم اكبر اولاد جنتمكان الخديوي المتوفي وجهت الى عهدتكم الخديوية المصرية توفيقاً للقاعدة المقررة بالفرمان الشاهاني الصادر في ١٢ محرم سنة ١٢٨٣ هـ القاضي بان الخديوية المصرية تؤول الى اكبر الاولاد البكر فالبكر

« ولما كان تزايد عمران الخديوية المصرية وسعادتها وتأمين راحة اهليها ورفاهيتهم هي من المواد المهمة لدينا . ومن اجل مرغوبنا ومطلوبنا كنا وجهنا فرماناً شاهانياً لتحقيق هذه الغاية الحميدة بتاريخ ١٩ شعبان سنة ١٢٩٦ هـ الى جنتمكان والدكم بتوليته الخديوية المصرية وضمناه المواد الآتية :

« ان جميع ايرادات الخديوية المصرية يكون تحصيلها واستيفاؤها باسمنا الشاهانى وحيث ان أهالي مصر أيضاً من تبعة دولتنا العلية وان الخديوية المصرية ملزمة بادارة أمور المملكة الملكية والمالية والعدلية بشرط أن لا يقع فى حقهم أدنى ظلم ولا تعدٍّ في وقت من الاوقات . فخديوي مصر يكون مأذوناً بوضع النظامات اللازمة الداخلية المتعلقة بهم وتأسيسها بصورة عادلة . وأيضاً يكون خديوي مصر مأذوناً بعقد تجديد المشارطات مع مأموري الدول الاجنبية بخصوص الجمرك والتجارة وكافة أمور المملكة الداخلية لاجل ترقى الحرف والصنائع والتجارة واتساعها ولاجل تسوية المعاملات السائرة التي بين الحكومة والاجانب اوالاهالي والاجانب مع امور ضابطة الاجانب بشرط عدم وقوع الخلل بمعاهدات دولتنا العلية البوليتيقية وفي حقوق متبوعية مصر لها ولكن قبل اعلان الخديوية المشارطات التي تعقد مع الاجانب بهذه الصورة يصير تقديمها الى بابنا العالي . وأيضاً يكون حائزاً للتصرفات الكاملة في امور المالية لكنه لا يكون مأذوناً بعقد استقراض بوجه من الوجوه . وانما يكون مأذوناً بعقد الاستقراض بالاتفاق مع المداينين الحاضرين أو وكلائهم الذين يتعينون رسمياً وهذا الاستقراض يكون منحصراً في تسوية احوال المالية الحاضرة ومخصوصاً بها . وحيث

أن الامتيازات التي اعطيت لمصر هي جزء من حقوق دولتنا العلية الطبيعية التي خصت بها الخديوية واودعت لديها فلا يجوز لأي سبب أو وسيلة ترك هذه الامتيازات جميعها أو بعضها او ترك قطعة ارض من الاراضي المصرية للغير مطلقاً ويلزم تأدية مبلغ ٧٥٠ الف ليرة عثمانية الذي هو الويركو المقرر دفعه في كل سنة في اوانه . وكذلك جميع النقود التي تضرب في مصر تكون باسمنا الشاهاني ولا يجوز جمع عساكر زيادة عن ثمانية عشر الفاً لان هذا القدر كاف لحفظ امنية مصر الداخلية في وقت الصلح . ولكن حيث ان قوة مصر البرية والبحرية مرتبة كذلك من اجل دولتنا يجوز ان يزاد مقدار العساكر بالصورة التي تستدعي فيها حالة دولتنا العلية محاربة . وتكون رايات العساكر البرية والبحرية والعلامات المميزات لرتب ضباطهم كرايات عساكرنا الشاهانية ونياشينهم . ويباح لخديوي مصر ان يعطي الضباط البرية والبحرية الى غاية رتبة اميرالاي والملكية الى الرتبة الثانيــة . ولا يرخص لخديوى مصر ان ينشيء سفناً مدرعة الا بعد الاذن وحصول رخصة صريحة قطعية اليــه من دولتنا العلية . ومن اللزوم المحافظة على كل الشروط السالفة الذكر واجتناب وقوع حركة تخالفها وحيث صدرت ارادتنا السنية باجراء المواد السابق ذكرها قد اصدرنا أمرنا هذا الجليل القدر الموشح أعلاه بخطنا الهمايوني وارسلناه »

« تحريراً في « ٢٧ شعبان المعظم سنة ١٣٠٩ من هجرة صاحب العزة والشرف »

وهذا تلغراف الصدر الاعظم المتمم له :

« معـلوم لدى جنابكم العالى ان جلالة مولانا السلطان الاعظم كان قد صرح للحكومة المصرية بوضع عدد كاف من الجند بجهات الوجه والمويلح وطابا والعقبة الواقعة على شواطئ الحجاز . وكذلك في بعض الجهات من شبه جزيرة طور سينا بسبب مرور المحمل المصري من طريق البر

« ولما كانت جميع هذه الجهات غير مبينة أصلا في خريطة سنة ١٢٥٧ هـ المسلمة الى جنتمكان محمد علي باشا المبينة بها الحدود المصرية لذلك اعيد الوجه اخيراً الى ولاية الحجاز بمقتضى ارادة شاهانية كما اعيد اليها طابا والمويلح وضمت العقبة كذلك الآن الى الولاية المذكورة . أما من جهة شبه جزيرة طور سينا فهي باقيــة على حالتها وتكون ادارتها بمعرفة الخديوية المصرية بالكيفية التي كانت مدارة بها في عهــد جدكم اسماعيل باشا ووالدكم محمد توفيق باشا » اهـ

« وداد العائلة الخديوية لدولتنا العلية »

لقد برهنت العائلة الخديوية في هذه الكارثة الكبرى التي نزلت على دولتنا العلية بما دل انها هي العائلة الكريمة الوحيدة في الشرق التي تهتم بالدولة العلية والتي تشد ازرها وقت الملمات وتساعدها وتعاونها في الشدائد لا سيما كبير هذه العائلة اعني الخديوى الاعظم الحاج عباس حلمي باشا الثانى الذى كان اكثر العثمانيين اهتماماً بأمر الحرب الطرابلسية والبلقانية واكثرهم سعياً في الانتصار لدولتنا العلية والذودُ عن شرفها والوقوف معها جنباً لجنب وقت الازمة معضداً مشجعاً بل لولا السياسة ومقتضياتها ومركز مصر الغريب الذى باتت فيه لردت هي « اي مصر » وحدها غائلة الطليان عن طرابلس وقام جيشها بمساعدة العرب والعثمانيين في حرب هذه الدولة وارغامها على الانجلاء من هذه الولاية العثمانية ولكن الحكومة المصرية وان كانت مغلولة الايدى لا تستطيع مثل هذه المساعدة الكبرى ولكنها لم تُقصر من مساعدة اخرى لا تقل عن هذه اهمية وهي المساعدة بالمال فان اعضاء العائلة الخديوية قاموا بجمع المال اللازم اوساله للمحاربين وانفاقهِ على هذه الحرب الشعواء ومساعدتهم ايضاً بالاطباء والعقاقير لمداواة الجرحى والمصابين وبفضل هذه المساعدة استمر الجيش في طرابلس على مقاومته الى ان أُمضيت شروط الصلح ولولا مسألة البلقان لاستمر الجيش يدافع عن بلاده والاعانة تُرسل من مصر حتى النقطة الاخيرة

ولما اعلن الاعداء وهم البلغار والصرب والجبل الاسود واليونان حربهم على دولتنا العلية وهم متفقون عليها متحدون على سلب املاكها نهضت العائلة الخديوية في الحال وتبرعت بالمال وتظاهرت بالانعطاف على الدولة والتمسك بحبل مودتها والاخلاص لها وسافر سمو الامير حفظهُ الله الى الاستانة وبقى هناك بجانب الوزارة ليقف على ماجريات الامور بنفسه ويساعد برأيه وبواسطة بين الدول والسفراء في بعض المهام وتبرع من ماله الخاص بمبلغ عظيم اعانة للحرب

« ابيات باللغة التركية »

خديو عد پيراى جهان عباس ثانيدر	كريم كامبخشاى زمان عباس ثانيدر
زمين مزرع آمال فلاحين كيم نيل عدالتله	سراسر حزم وشاداب ايدان عباس ثانيدر
انك راى منزى آفتاب عالم آرادر	علو همتي اول آفتابك آسما نيدر
ضميرى مهر عدليله هميشه پرتو افزادر	اكاروز ازل اولمش عطا بر فيض ربانيدر



صاحب الدولة الأمير الخطير محمد علي باشا

شقيق الجناب العالي الخديوي

اساس استوار ملك كيم داد وعدالتدر   عدالت اولمينجه ملك هپ ويران وفانيدر
عدالتشعشعه پيراى ملك وتخت وافسردر
عدالت باعث اعمار ملك جاويد انيدر

وبينما كان دولة الامير الخطير محمد علي باشا شقيق الجناب العالي برأس جمعية الهلال الاحمر ويتبرع لها بالمئات من الجنيهات وكان ايضاً دولة الامير الغيور عمر باشا طوسون فضلاً عما تبرع من المال ويجمع من اهل البلاد ما جادوا به على مساعدة دولتنا العلية وكذا دولة الامير الكريم يوسف كمال باشا رئيس لجنة التنفيذ الذي تبرع ايضاً بمبلغ وافر من الدنانير والذخائر ويعد البعثات الطبية لمعالجة الجرحى في ساحة الوغى وهم بانتظار اسعاف مصر والمصريين

« الابيات باللغة التركية في مدح هؤلاء الامراء الكرام »

(١) ادهم خامه كه اي «مهرى» قيل ارخاء عنان
ساحهٔ صفحهٔ قرطا سده ايده برجولان

(٢) مدح اول داور زيشان محمد علي ده
كهرافشان اوله هريانه همال يم وكان

(٣) اوطن پرور عالي همم وعالي نژاده
مدح خوان اوله سزا جملهٔ اهل عرفان

(٤) حرب بلقان وطربلسده اوذات ذيشان
قيلدي هپ عالم اسلامى مسارو شادان

(٥) خط زرين ايله بازلسه بجا سنجق عثمانيه يه
دولت وملة كيم ايلديكى خدمتن اول والاشان

(٦) چين وژاپون وبتون قطعهٔ اوروپا يى
دورسير ايلمش اول داور عالى عنوان

(٧) اوجهانكرد جهان ديده پرعقل وكمال
يكه تاز صف ميدان دليران جهان

(٨) بر نظر له ينجه بيك راز واموور دولي
كشف حل ايلر اوفرخنده ضميرو وجدان

(٩) اوعمر عدل كرمكارعمر پاشايه   عالم ارض وسما اوله ثناكو شايان

(١٠) وطن اوغورنده اولان همت مردانه لرى
افرين صيحه سيله طولدى صماخ آكوان
(١١) اوجوا نمرد سرافراز مكارم شيمه
پيرويرناى مصر اوله سزا ادعيه خوان
(١٢) هله اول داور داد وكرم يوسف باشا
جان ومال ايله ايدوب ملة خدمت هرآن
(١٣) مدح اخلاق جميل وكرم وهمت عاليسنده
فكرو انديشه قالور عاجزو بى تاب وتوان
(١٤) اول اميرانه ويره عمر طويل رب قدير
هم ايده ثروت وسامان لرى صد چندان

« ترجمتها باللغة العربية »

(١) ارخي عنان قلمك الادهم يا « مهرى » يجول في ميدان صفحة القرطاس
(٢) في مدح دولة الامير محمد علي باشا لينثر الجواهر كبحار والمعادن على كل جانب
(٣) محب الوطن عالي الهمم شريف الحسب والنسب اهلاً لثناء من كل عارف
(٤) بمكارم ذاته العلية وخدماته الجليلة في حرب طرابلس والبلقان . سرّ عالم الاسلام باسره
(٥) الهمة الجليلة التي اظهرها في خدمة الملة والدولة . تستحق ان تكتب على العلم العثماني بماء الذهب
(٦) هذا الذي تجوّل في جميع اوربا والسين واليابان . وشاهد بنظره الدقيق كلما فيها من السياسة والعلم والعرفان
(٧) ساح الدنيا وشاهد ما فيها بنظر الامعان . فريد عصره في صف ميدان الابطال
(٨) هذا الامير الجليل يكتشف بنظرة واحدة الوف من الاسرار الخفية ويحل بفكره الثاقب اهم المشكلات الدولية
(٩) كذا — صاحب الاخــلاق الكريمة دولة الامير عمر باشا طوسون المتبع خطة عمر الفاروق بعدله يستحق الدعاء والثناء عليه من اهل السماوات والارض

(١٠) ما اظهره هـذا البطل الغيور في خدمة الوطن ، ملأ صماخ الا كوار صيته الحسن



دولة الامير عمر باشا طوسون

(١١) لجوده وكرمه وحسن شيمه دعوا له ، سكان مصر من شبان وشيوخ

(١٢) ونخص بذكر كرمه واحسانه من خدم الملة بالروح والمال ، في كل حين وآن دولة الامير يوسف كمال باشا

(١٣) ويعجز الفكر عن وصف محاسن اخلاقه وكرمه وعلو همته

(١٤) اطال الله جل وعلا اعمار هؤلاء الامراء وزاد في دولتهم وثروتهم مائة اضعافها

واما ام المحسنين صاحبة الدولة والعصمة والدة سمو الخديو الاعظم فقد بيضت صفحة تاريخ مصر بما قامت به من جليل الاعمال وما تبرعت به من المال للحرب وللهلال والعائلات الشهداء في ساحة القتال فنالت بذلك رضاء الله وجلالة ظل الله في العالم امير المؤمنين وخليفة رسول رب العالمين السلطان ابن السلطان السلطان الغازى محمد رشاد الخامس ادام الله دولته

« ابيات باللغة التركية »

« في مدح تاج المخدرات وام المحسنات صاحبة الدولة والعصمة الاميرة الحاجة امينه هانم والدة جناب الخديو الافخم »

(١) نه عظما عصمت وعز وشرفدر شان انسانه * اوله كيم مظهر انظار ظل حضرت يزدان

(٢) دل پر رحمى فيض رحمت رحمان ايله مالى * اودر تاج عصمت خيرخواه مرحمت وجدان

(٣) در كنج عناياتن آچوب اول حرب بلقانده * نثار ايتدى زر وسيم فراوان مال بى پايان

(٤) بو لطف وبو عنايات بلا غايه سى ايله كيم * سراسر عالم اسلامى قيلدى خرم وشادان

(٥) هز اران بيكس وبيچار كاني ايلدى احيا * او حرب شوم بلقانده اولان كيم خانمان ويران

(٦) وجودنادر الموجودي ايله فخر ايتسونلر * سزا عصمتپناهان جهان بر والاحسان

(٧) او فخر جمله بانويان قطر ام دنيايه

ويره عمر بلا غايه جناب خالق اكوان

« ترجمته بالعربي »

(١) ما اعظم شأن والعز والشرف للانسان في هذه الدنيا بان يكون مظهر وجهات انظار امير المؤمنين وظل الله في العالمين

(٢) هي الجوهرة الوحيدة تاج العصمة وقلبها مملوء بالشفقة والرحمة خلقها الله رحمة للفقراء والمساكين

(٣) فتحت ابواب خزائنها في حرب البلقان ونثرت من اموالها دراهم ودنانير لا تعد ولا تحصى

(٤) فبهذا اللطف والكرم الذي لا نهاية له صيرت العالم الاسلامي في سرور وحبو

(٥) احيت الوفاً من الفقراء والمهاجرين في حرب البلقان المشؤمة التي خربت بيوتهم ونهبت اموالهم وصاروا لا ملجأ لهم ولا مأوى

(٦) · فيجب على السيدات صاحبات البر والاحسان ان يفتخرن بهذه الكريمة النادرة الوجود

(٧) سيدة السيدات أم الدنيا وفخر مخدراتها تلك الاميرة المحسنة اطال الله عمرها .

وايضاً تبرعت والدة دولة الامير المشار اليه يوسف كمال باشا . ن . و . بالمئات من الجنيهات في سبيل هذه الحرب . فلم يبق بعد ذلك برهان على صدق اخلاص الخديو الاعظم وسائر آل بيته الكرام لدولة آل عثمان وجلالة الخليفة الاعظم

ولو كانت مصر مستقلة كما كانت في عهدها الاول وذات قوة برية وبحرية كافية لكانت الحليفة الوحيدة لدولة آل عثمان تنصرها وقت الملمات وتعينها في ايام الشدائد

ولكن قضى الله ان تكون كما هي الآن مقصوصة الجناح وان تبقى الدولة العلية منفردة عن العالم في عصر المحالفات والاتفاقات الدولية . واهملت كلما يجب عليها من الاستعداد لدفع الاعداء حتى بلغوا منها ما بلغوا ونالوا من املاكها بالاغتصاب ما نالوا ولكن الله شاء ذلك لنتنبه نحن يا معشر العثمانيين من هذه الدروس ما ينفعنا في المستقبل ومع ذلك فان ما عندها من الولايات الباقية في حيازتها يساوي اضعاف اضعاف ما ضاع منها . ولا يزال في حوزتها من الاراضي الخصبة والبلاد العامرة ما يغنيهـا لو بذل رجالها الجهد في اصلاحها وادخلت في حكومتها بعض النظامات الملائمة للحالة

ونعود فنقول ان الفضل في العلاقات الودية التي تربط مصر بالدولة العلية الآن يرجع لسموّ الامير المعظم فهو منذ ارتقى العرش حافظ على ولاء دولته وخليفته محافظة كانت سبب هذا الارتباط الذي تراه الآن بين مصر والاستانة ولو كان لسموّه مطمع سياسي كما اشاع الاعداء ما رأينا منه هذا التفاني في نصرة دولته ومعاونتهـا ومساعدتها في الظروف الحرجة التي برهن فيها على انه امين دولته الكريم المخلص وصديقها البار الودود الذي ليس لها سواه في الشرق ولا في الغرب « ادام الله حياته واجلاله » وهدى هذه الدولة لسلك سبيل النفع والخير وارشد رجالهـا الى الاتفاق والاتحاد والاصلاح لتعيش سعيدة بعد هذه النكبات مطمئنة بعد هذه الحروب والثورات فانه على ما يشاء قدير

« وفي هذا الصدد ابيات باللغة التركية للشاعر الشهير المرحوم المعلم ناجي »

(١) اتحاد اولسه طبع ملتده	هيچ اولورمی زوال دولتده
(٢) ملكه آفت شقاق ملتدر	روح ملك اتفاق ملتدر
(٣) آيريلان ملت اتحادندن	كسسون اميدينى مرادندن
(٤) اتحاد اولسه وطن يشامز	چونكو جان اولمينجه تن يشامز
(٥) قوت وعزت اتفاق ايله‌در	ضعف دولتده افتراق ايله در

« ترجمته بالعربية »

(١) اذا كان الوفاق والاتحاد غزيرة في طبع الملة هل يمكن زوال الملك واضمحلال هذه الدولة . من نظر في تاريخ البشر لا يجد امةً عظيمةً قامت على الارض ثم تطرق اليها الضعف والاضمحلال الا بعلة تفريق اجزائها وانفصال اعضائها الملتحمة وهو قول حق يؤيده العقل ويثبته البرهان ويعززه الواقع ولا بيان بعد العيان

(٢) الشقاق والنفاق آفة الملك ، وروح الملك الوفاق واتفاق الملة . ان الامة التي لا تتماسك اجزاؤها ولا تتلاحم اعضاؤها لا تعيش طويلاً ولا تبقى الا قليلاً

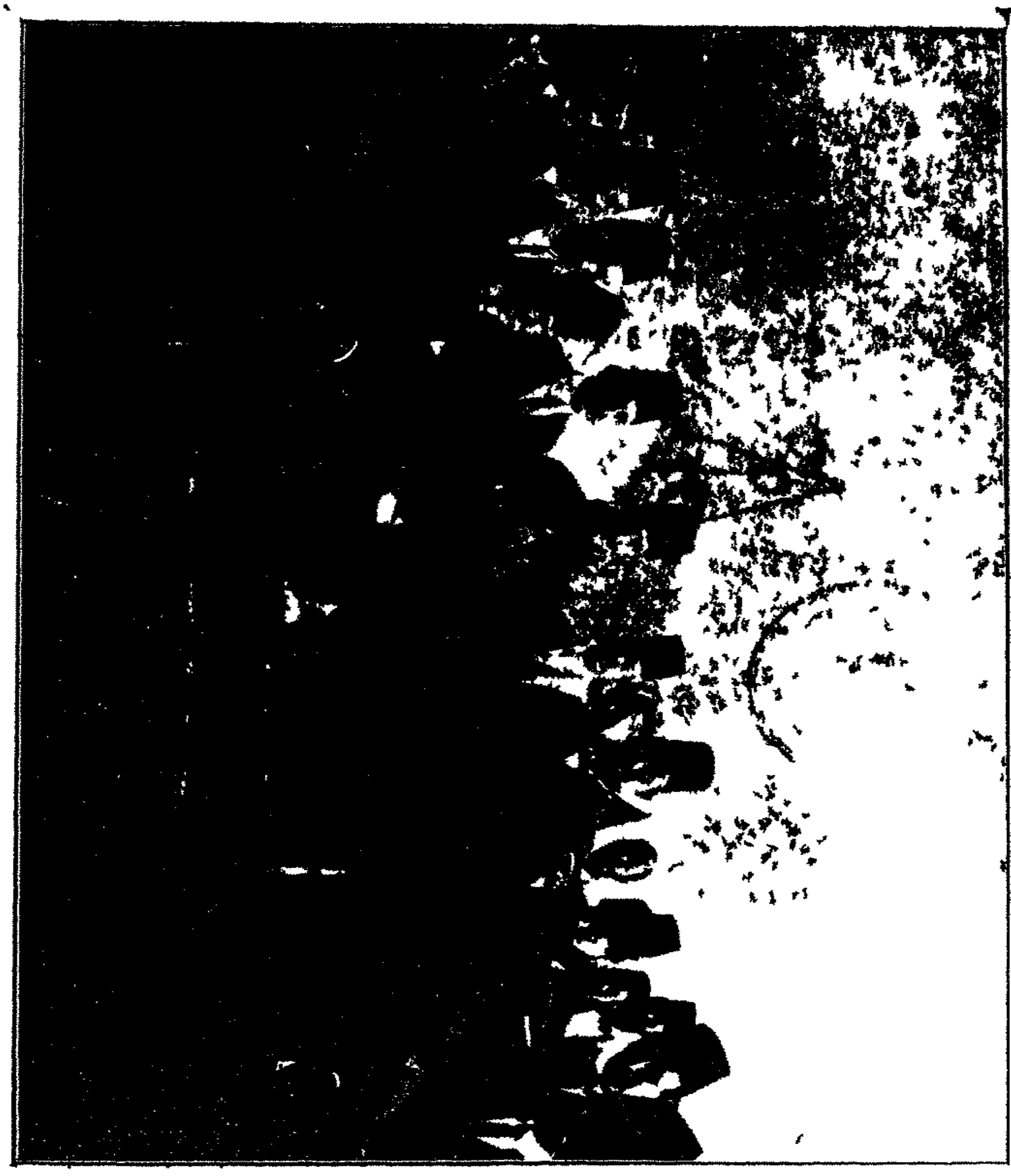
(٣) الامة التي تنقطع فيها رابطة الاتحاد تنقطع آمالها في بقاء الملك ودوام الدولة . وان الامة لا تزال بخير ما دامت متلاحمة الاعضاء متماسكة الاجزاء وكذلك لكل شأن شيء . وكما ان الصخرة العظيمة اذا انحلت عادت ذرات لا قيمة لها فكذلك الشعب الذي يكون كل عنصر من عناصره منحل من غيره وكل فرد من افراد هذا العنصر لا ارتباط بينه وبين الآخر . فلا تجد شعباً من الشعوب معرّضاً للفناء مثل الشعب الذي يضيع روابطه ولا يبقي على جوامعه

(٤) لا حياة للوطن بلا اتفق واتحاد ، كجسم بلا روح لا يعيش بلا محالة . والتاريخ يحدثنا عن كثير من الامم التي لم يبقَ لها أثر في الوجود وفي مقدمة العوامل التي قصرت اعمارها وذهبت آثارها بانحلال الروابط والجوامع

(٥) عز الدولة وسطوتها وقوتها باتفاق الامة والنفاق والشقاق والافتراق موجب لضعف الدولة واضمحلال الملة. فلتعرف هذه الحقيقة الناصعة كل امة تحرص على حاضرها ومستقبلها ولتكن كلٌّ امةً محبةً للبقاء والعزة والسمو وقوية الجانب بالاتحاد والائتلاف فانه لا بقاء ولا عزة ولا سمو لأمة فرطت في جمعاتها بل هي قصيرة العمر وان طالت عليها الايام

« الطياران العثمانيان في القاهرة »

« وصف وصولهما وطيرانهما والاحتفال بهما »



البرنس محمد علي حسن . سالم بك . البرنس عزيز حسن . البرنس ابراهيم حليم . كمال بك .

ومن جملة ما تكرم به اعضاء العائلة الخديوية برهاناً على صدق ودادها واخلاصها للدولة العلية كما سبق ذكره واهتمام امراء هذه العائلة الكريمة بتشكيل لجنة للاحتفال بالطيارين العثمانيين يرأسها دولة الامير عزيز باشا حسن واعضاؤها دولة الامير ابراهيم باشا حليم ودولة الامير محمد علي بك حسن

« الاستقبال في هليوبوليس »

في يوم الاحد ١٥ جمادى الثاني سنة ١٣٣٢ هـ ١٠ مايو سنة ١٩١٤ م قطعهما المسافة بين التل الكبير وهليوبوليس « مصر الجديدة » في ٢٢ دقيقة بسرعة ١٢٠ كيلو متراً في الساعة وعلى علو ٨٠٠ متر واجتمع جمهور عظيم من كبار المصريين وفي مقدمتهم الامراء المشار اليهم وعطوفة متولي اعمال القومسيرية العثمانية وسعادة محافظ العاصمة وجناب وكيل الحكمدار وجمع كثيف من سراة الوطنيين والاجانب ووقف الجميع بساحة الطيران في انتظار وصول الطيارين سالم بك وكمال بك

« وصول الطيارة »

ولم تنتصف الساعة السادسة حتى سمع المستقبلون ازيز محرك الطارة ولم يلبثوا ان رأوا الطيارة « ادرميد » تشق الهواء

وبعد ما دارت الطيارة حول الميدان بضع دورات نزلت تدريجاً بخفة ولياقة تشهد لراكبيها الكريمين بالحذق والمهارة حتى كادت تداني الارض ولكنها عادت فصعدت في الهواء فوق اطراف العاصمة وظلت كذلك بضع دقائق ثم حطت في المكان المعد لها قبل الساعة السادسة بنحو عشر دقائق بخفة تحاكي خفة الطير

ولما استقرت الطيارة في مكانها نزل منها الطياران وتقدما الى حيث كان اصحاب الدولة الامراء وحضرات اعضاء اللجنة وغيرهم محيين فقدم لهما الرئيس طاقتين لطيفتين من الازهار الجميلة وهنأهما بالسلامة ثم اجتمع المستقبلون حولهما يدعون لجلالة السلطان الاعظم الغازي محمد رشاد الثاني بالعز والتأييد وللدولة العلية بالنصر والسعد ويحيون الضيفين الكريمين والطيارين الباسلين بالهتاف

« اكتشاف مصادر النيل »

وهذه الصعوبات في سفر النيل مع بعده السحيق والاخطار الجمة في الطريق من الغرق والجوع والحرّ والبرد والامراض ومن الشعوب المعادية الهمجية والحيوانات المفترسة والمفاوز البعيدة والصحارى المحرقة عن جانب النيل هذه الصعوبات والاخطار كلها وقفت في سبيل العالم المتمدين فصدّته عن الوصول الى مصادر النيل مدة ألفي سنة مع انه لم تبق دولة من الدول التي ملكت مصر في تلك المدة الا اهتمّ ملوكها وعلماؤها باكتشاف تلك المصادر ومعرفة اسباب الفيض فجرّدوا حملات عديدة

وامدوها بالمعدّات القوية فذهبت اتعابهم سدًى وعادت الحملات كلها بالعجز والتقصير حتى لقد يئس الاقدمون من النجاح وقالوا في المجاز « ان الآلهة تريد اخفاء هذه المصادر عن اعين الناس لغرض في نفسها » وقال هوميروس الشاعر اليوناني المشهور « النيل سيل نازل من السماء » اما المصريون القدماء فقد رفعوهُ الى مقام الآلهة كما هو مشهور في تاريخهم

واشهر من كتب من علماء الاقدمين في النيل نقلاً عن الرواة فاقترب من الحقيقة هيبرخبس الفلكي اليوناني الذي عاش سنة ١٠٠ ق . م . فقال « النيل ينبع من ثلاث بحيرات في شمال خط الاستواء » وجاء بعده بطليموس الكبير الذي عاش سنة ١٥٠ ب . م . فجعل منابع النيل في جبل القمر في جنوب خط الاستواء . ثم بعد ذلك بألف سنة ونيف اي سنة ١١٥٤ ب . م . قام الادريسي أشهر جغرافيّ العرب فجعل منابع النيل جبال القمر في اواسط القارة وقال ان مياه الينابيع تجري من ثلاث الجبال الى بحيرتين واسعتين تصبان في بحيرة ثالثة منهــا ينبع النيل وهو كلام يقرب جدًّا من الحقيقة . ولكن علماء الافرنج لم يعتمدوا كلام الادريسي بل لم يكتفوا به فما زالوا يجدُّون وراء الحقيقة ويجِدون بالنفوس والاموال الى ان فازوا بالغرض المقصود

اما النيل الازرق فقد اكتشف مصادره السائح بروس الانكليزي سنة ١٧٧٢ م . ووصفها وصفاً دقيقاً وكان قد سبقه الى هذا الاكتشاف راهبان برتوغاليان وهما بايز ولوبو سنة ١٦١٨ م ولكنهما لم يوضحا الحقيقة كما اوضحها بروس فتفرد وحده بالشهرة واما النيل الابيض فلم يعلم مصادره الا منذ عهد قريب جدًّا وذلك بمساعي الجمعية الجغرافية الانكليزية . واما فكتوريا نيانزا فقد اكتشفها الرحالتان الانكليزيان سبيك وغرانت فانهما سارا عن طريق زنجبار على نفقة الجمعية المذكورة فشاهدا النيل خارجاً من شماليها في ٢٨ يوليو سنة ١٨٦٢ م وسمياها فكتوريا باسم ملكتهما . واما ألبرت نيانزا فقد اكتشفها السر صموئيل باكر الانكليزي فانه سار اليهــا عن طريق الخرطوم فوصلها في ١٤ مارس سنة ١٨٦٤ م وسماها البرت نيانزا باسم زوج ملكتهِ . وأما ألبرت ادوارد نيانزا فقد اكتشفها الرحالة ستنلي الانكليزي سنة ١٨٧٦ م وسماها ألبرت ادوارد باسم ولي عهد انكلترا في ذلك العهد وهو ملكها السابق . وعليه فالفضل الاعظم في اكتشاف منابع النيل للانكليز وقد شاركهم في هذا الفضل خديو مصر العظام الذين فتحوا البلاد ومهدوا للسر صموئيل باكر وغيره سبل الاكتشاف

« النيل الابيض »

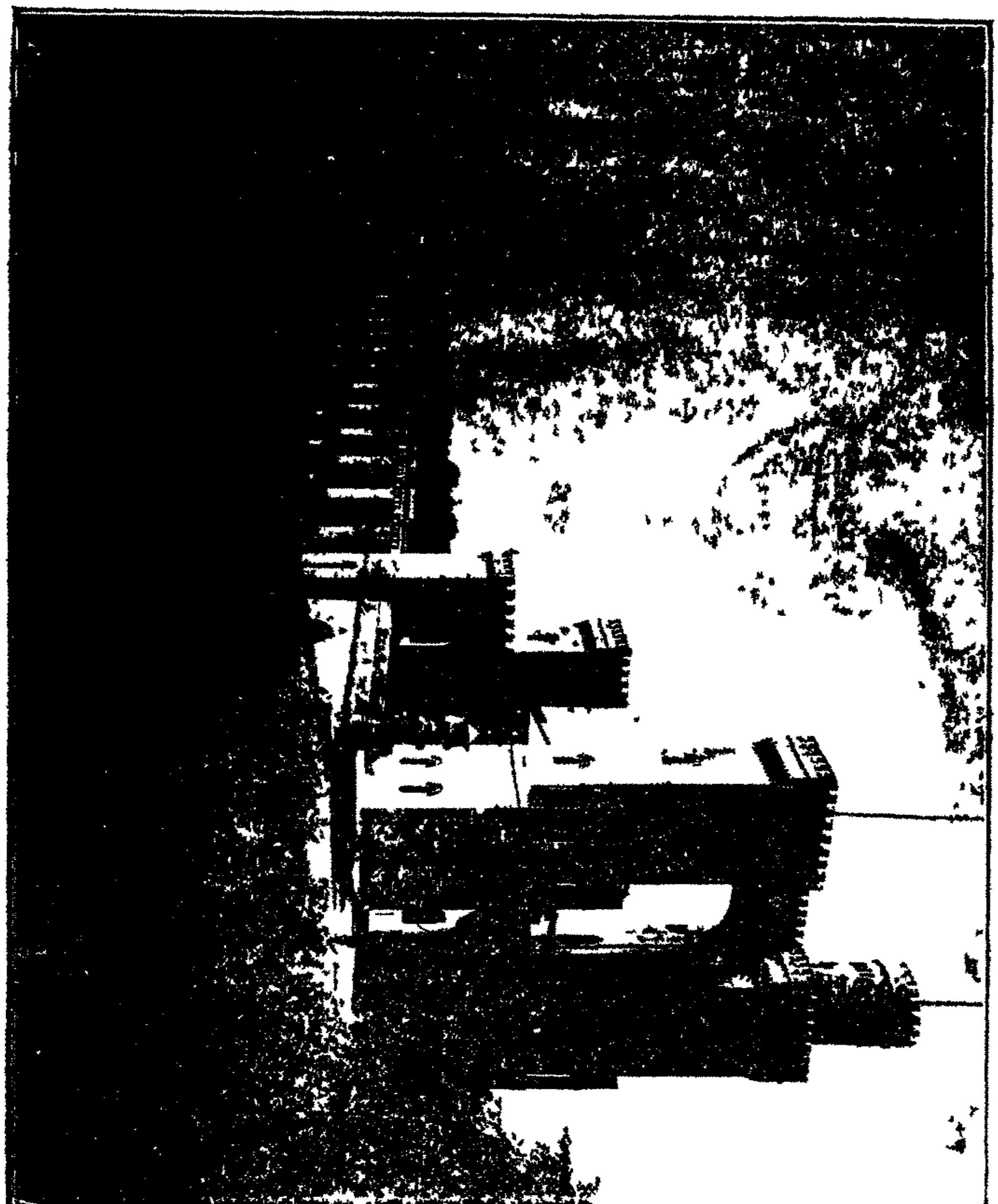
ويخترق هذه البلاد من الجنوب الى الشمال نهر النيل العظيم وله مصادر كثيرة اهمها مصدران النيل الابيض والنيل الازرق . اما النيل الابيض فيخرج من بحيرات ثلاث في أواسط القارة اكبرها بحيرة فكتوريا نيانزا عند خط الاستواء فيخرج منها نهر ويجرى الى الشمال الغربي متعرجاً نحو ٢٩٠ ميلاً فيصب في بحيرة البرت نيانزا في شمالها. ويصب في جنوبها نهر آخر آت من بحيرة البرت ادوارد نيانزا طوله ١٨٠ ميلاً . ثم يخرج النيل من بحيرة البرت نيانزا ويجري شمالاً في بلاد خط الاستواء باسم بحر الجبل أو بحر الرجّاف مسافة ٤٧٠ ميلاً فيتفرع منه بحر يعرف ببحر الزراف ويسير البحران شمالا منفرجين الى ان يبلغا عرض ٩° ويكون الرجاف على نحو ٢٠٠ ميل من نقطة انفراج الزراف عنه فيلتقي ببحر الغزال وهو بحر كبير آتٍ من الجنوب الغربي مؤلف من عدة ابحرٍ اشهرها بحر العرب . ثم يسير النيل شرقاً مسافة ٤٥ ميلاً فيقترن ببحر الزراف ويسير ٢٥ ميلاً اخرى فيقترن ببحر سبت الآتي من الجنوب الشرقي . ثم يجري النيل الابيض شمالاً ٥٠٠ ميل ونيف من مصب نهر سبت و١٥٣٠ ميلاً او حواليها من مخرجه الاول من بحيرة فيكتوريا فيلتقي بالنيل الازرق عند مدينة الخرطوم

« النيل لازرق »

اما النيل الازرق فيخرج من بحيرة تسانا في وسط الحبشة ويجرى منها الى الجنوب حتى يكون على عرض ٤٠' ٩° فينقلب نحو الشمال الغربي الى ان يدخل بلاد سنار ويكون على ١٦٠ ميلاً من الخرطوم فيصب فيه نهر الدندر . ثم يسير ٢٠ ميلاً فيصب فيه نهر الرهد . وكلاهما يأتيانه من جبال غربي الحبشة ويجفان في الصيف . ويسير النيل الازرق الى ان يلتقي بالنيل الابيض عند الخرطوم بعد مسيرة ٨٤٦ ميلا من بحيرة تسانا التي خرج منها

« النيل الكبير »

ثم يسير النيل الكبير الى ان ينتهي الى قرية الدامر على ١٨٠ ميلاً من الخرطوم فيلتقي بنهر الاتبرا وهو نهر غزير سريع الجري مؤلف من عدة نهيرات آتية من جبال الحبشة الشمالية ويجف بهبوط النيل مدة ستة اشهر . ومن هناك يجري النيل شمالاً في بلاد لا يصيبها المطر الا نادراً فلا يصادف نهراً أو جدولاً معروفاً الى ان



القناطر الخيرية القائمة عند رأس الدلتا

يصيب في البحر المتوسط . وعند وصوله الى بلدة ابى حمد بعد مسيرة ١٤٠ ميلاً أو نحوها من مصب الاتبرا ينعطف نحو الجنوب الغربي الى جهة مخرجه كأنه يحنُّ الى اصلهِ ويسير كذلك متعرّجاً مسافة نحو ١٩٤ ميلا فيصل بلدة الدبة . ثم يستأنف السير شمالا على تعرُّجهِ مسافة نحو ٥٨٥ ميلاً من الدبة ويدخل مصر عند مدينة اسوان

« الدلتا »

ويجري النيل في ارض مصر حتى ينتهي الى مكان يقال له بطن البقرة على بعد ١٥ ميلاً من القاهرة و٦٠٥ اميال من الاسوان فينقسم شطرين احدهما يميل نحو الشرق فيصب في البحر المتوسط بقرب مدينة دمياط والآخر يميل نحو الغرب فيصب فيه عند مدينة رشيد . ويتكوَّن من هذين الشطرين مع البحر مثلث سماه اليونان الدلتا لمشابهته كحرف الدال عندهم وسماه العرب روضة البحرين لكثرة خصبه وطول قاعدة هذا المثلث نحوه ٨٥ ميلا وعلوه ٩٠ ميلا وطول احد شطريه نحو ٩٩ ميلاً . فيكون طول النيل على وجه التقريب من مصدره من بحيرة فكتوريا نيانزا الى مصبهِ في البحر المتوسط ٣٣٣٣ ميلا وهو اطول انهار الدنيـا الأ نهر امازون في اميركا الجنوبية فانه اطول من النيل نحو ٦٦٧ ميلا الأ ان النيل اقدم تاريخاً واقدم آثاراً واعظم شأناً من نهر امازون بل من جميع انهار الدنيا

« فيضان النيل »

ويفيض النيل ثم يهبط ثم يعود الى الفيض كل سنة في اوقات معلومة وسبب فيضه نزول الامطار الغزيرة على الجبال المجاورة لمصادره . ويبدأ النيل الابيض بالفيض قبل النيل الازرق فيظهر الفيض فيه عند الخرطوم وفي اواخر مايو ولكن لا يبلغ معظمه الا في اوائل سبتمبر . واما النيل الازرق فيظهر الفيض فيه عند الخرطوم في اواخر يونيو وكذلك الاتبرا ويبلغ معظم الفيض في اواخر اوغـطس . واما في النيل الكبير فيظهر الفيض فيه عند حلفا في اوائل يونيو ويصل الى معظم الفيض في اوائل سبتمبر ثم يعود الى النقصان فينقص تدريجاً كما ارتفع الى اوائل يونيو فيعود الى الزيادة وهكذا على توالي السنين . ومعدل زيادة النيل في السنة نحو ٢٦ قدماً فاذا زاد عن ذلك الى ٢٨ قدماً سبب غرقاً واذا قصر عنه نحو ٢٣ قدماً سبب جوعاً . وعند آخر حدّه في النقصان يخضر ماؤه ويتغير طعمه فيقرب من طعم الماء المستنقع . وقد قدَّروا ان الباقي فيه من الماء اذ ذاك لا يزيد على $\frac{1}{٢٠}$ مما يكون فيهِ عند معظم الفيض

« مقاييس النيل »

وقد جعلوا للنيل منذ القديم مقاييس في اماكن خاصة في مجراهُ لمعرفة مقدار الزيادة والنقصان فيه على مدار السنة . واشهر هذه المقاييس : « مقياس الروضة »

في جزيرة الروضة تجاه مصر القديمة وهو مقياس قديم من عهد الخلفاء الامويين وانما رُمم في هذا العهد

« مقياس اسوان » في الجانب الشرقي من جزيرة ألفَنتين تجاه مدينة اسوان وهو قديم العهد ايضاً وينسب الى زمن البطالسة اي منذ الف سنة ونيف هجر مدة من الزمان ثم جدّد سنة ١٢٧٨ هـ (١٨٧٠ م) في ايام المغفور له اسماعيل باشا الخديوي الاسبق

« ومقياس حلفا » على شاطىء النيل الشرقي في معسكر حلفا وهو حديث النشأة وبناهُ ودهوس باشا اذ كان محافظاً للحدود سنة ١٨٨٩ م وقد رأيته حديثاً فاذا هو عبارة من سلم عادي قائم بين حائطين من الحجارة المنحوتة وفي رأس السلم حجر من الرخام منقوش عليه تاريخ انشاء المقياس واسم منشئه

« مقياس بربر » على النيل الكبير . « ومقياس ام درمان » على النيل الابيض.
« ومقياس الخرطوم » تحت سراي الخرطوم على النيل الازرق

« سرعة النيل »

اما سرعة مجرى النيل فتختلف فيه وفي فرعيه بالنسبة الى درجة الفيض . فهو يزداد سرعة كلما ازداد فيضاناً . ففي الساعة الواحدة يجري النيل الازرق ٣ اميال في زمن التحاريق وستة اميال او اكثر في زمن الفيض . والنيل الابيض ميلاً واحداً او اقل في التحاريق وميلين ونصف ميل في الفيض. والنيل الكبير ميلا ونصف ميل في التحاريق و٣ اميال أو أكثر في الفيض . فيكون النيل الازرق اسرع جرياً من النيل الابيض والنيل الكبير لان بحيرة تسانا التي يخرج منها النيل الازرق تعلو ٥٨٠٠ قدم عن سطح البحر مع ان أعلى بحيرات النيل الابيض التي هي بحيرة فيكتوريا نيانزا لا يزيد علوها عن ٣٩٠٠ قدم عن سطح البحر . والنيل الازرق يجرف في طريقه التراب الذي تتكون منه ارض مصر

« شلالات النيل »

ويمرّ النيل في سيرهِ من الجنوب الى اسوان بعدَّة جنادل تُعرف بالشلاّلات وهي مجتمع صخور كبيرة وجزر صغيرة تعترض مجراهُ . والشلالات نوعان اما صغيرة يغمرها النيل عند فيضه فتسير السفن من فوقها مدة الفيض حتى اذا ما نزل النيل وانكشفت الشلالات مرَّت السفن من مضايق معلومة فيها تعرف بالابواب . واما كبيرة

لا يغمرها النيل كلها مهما اشتدّ فيضه فتمر السفن في ابوابها وذلك في ايام معدودة في معظم الفيض فاذا انقضت تلك الايام انحصرت السفن بين الشلاّلات . والشلالات الكبيرة من اسوان الى الخرطوم ستة بينهما عدة شلالات صغيرة وهي :

الاول « شلاّل اسوان » طوله ستة اميال وربع ميل

الثاني « شلال حلفا » عنـد قرية حلفا على بعد ٢٢٦ ميلاً من الشلال الاول . طوله ١٤ ميلا وهو اصعب شلاّلات النيل

الثالث « شلال حنّـك » عند قرية حنّـك وعلى بعد ٢٤١ ميلاً من الشلال الثاني وطوله ٣ اميال . وبين الشلال الثاني والثالث عدة شلالات صغيرة وهي من الشلال الجنوب معتوقة وسمنه وامبقول وتجور وعكمة وعكاشه ودال وعمارة وخيبر . طول الواحد منها من ميل الى اربعة اميال والبعد بينهما من ١٠ اميال الى ٦٠ ميلاً

الرابع «شلال الادرميّـة » في بلاد الشايقية على بعد ٢٥٠ ميلاً من الشلال الثالث

الخامس « شلال وادي الحمـار » الواقع على بعد ١٦٧ ميلاً من الشلال الرابع قيل سُمي شلال وادي الحمار لان في شرقيه وادياً ينتابه حمار الوحش . وبين الشلال الرابع والخامس عدة شلالات صغيرة صعبة اهمها شلالات كعب العبد والمسحاني وام حبوبة والرخمـة وآخر بلاد الشايقية . ورقبة الجمل وابو سيال في بلاد المناصير . ومقرات ابو هشيم والباقير في بلاد الرباطاب

السادس « شلال السبلوقة » بين شندي والخرطوم على بعد ١٩٤ ميلاً من الشلال الخامس وطوله عشرة اميال وهو متحدر للغاية واتساع النيل عند مدخله ٢٠٠ يرد وينحدر الماء منه انحداراً ظاهراً كانحداره من ميزاب كبير ومن ذلك اسمه اذ السبلوقة في لفظ عرب السودان بمعنى الميزاب

ثم ان في النيل الازرق شلالا كبيراً يعرَف « بشلال الرصيرص » أو بالشلال السابع يبدأ عند قرية الرصيرص ٤٢٦ ميلا من الخرطوم ويمتد جنوباً نحو ٤٠ ميلاً وفي اعالي النيل الابيض في بحر الرجاف سلسلة من الشلالات تمتد من بلدة الرجاف الى الجنوب نحو ١٠٠ ميـل اصعبها الشلال في آخرها يعرف « بشلال الفوله » او بالشلال الثامن ويبعد نحو ١١٠٠ ميل من الخرطوم

« اتساع النيل »

واما اتساع النيل في معظم الفيض فيختلف باختـلاف الاماكن فمتوسط اتساع النيل الازرق ٥٥٠ يرداً ولا يزيد عن ٧٧٠ يرداً في أي مكان كان . ومتوسط اتساع

النيل الابيض ١٨٦٠ يرداً وهو في اماكن كثيرة ٣٨٠٠ يرداً ونيف فتراه اشبه بالبحيرة منه بالنهر اما النيل الكبير فيختلف اتساعه ٥٠٠ يرد « وهو اتساعه عند كوبري قصر النيل » ١٠٠٠ يرد بل قد يضيق في بعض الاماكن حتى لا يزيد اتساعه عن ٢٠٠ يرد

« جزائر النيل »

وفي نيل السودان جزائر شتى متفاوتة في الكبر منها ما يغمرها النيل عند الفيض ومنها ما لا يغمرها مهما اشتدّ فيضه وكلها صالحة للزراعة وتأتي بغلال كثيرة . واشهر هذه الجزائر :

« جزيرة أبا » في النيل الابيض على ١٥٠ ميلاً من الخرطوم طولها ٢٨ ميلاً وقد اشتهرت بظهور محمد احمد المتمهدي فيها كما سيجيء

« وجزيرة توتي » تجاه الخرطوم وهي مشهورة بجودة تربتها وطيب هوائها

« وجزيرة مقرات » تجاه ابى حمد وهي جزيرة كبيرة تخترقها عدة تلال صخرية

« وجزيرة ارقو » الى جنوب شلال حنَّك وطولها ٢٠ ميلاً وهي اشهر جزائر النيل وفيها خرائب من زمن مملكة ايثيوبيا تدل على قدمها وعظم اهميتها . وفي ايام نزول النيل تجفّ ذراعهُ اليمنى فتتصل الجزيرة بالبرّ الشرقى وربما لم تكن اكبر من جزيرة مقرات لكنها اخصب منها

« وجزيرة ساي » وهي ثاني جزيرة ارقو في الاتساع والشهرة وفيها خرائب طابية من ايام السلطان سليم الفاتح

« وجزيرة الفنتين » عند الشلاّل الاول تجاه اصوان وهي شهيرة في تاريخ مصر

« السفر في النيل »

وهذه الجزر والشلاّلات مع ما يتكون في مجرى النيل من وقتٍ الى آخر من « الدبور » الرملية تقف عوائق في وجه السفن وتزيد السفر في النيل مشقة وخطراً بخلاف نيل مصر من اسوان فنازلاً شمالاً فان الشلالات والجزر تنقطع منه ويسهل السفر فيه بالسفن الشراعية والتجارية من اقصى البلاد الى اقصاها . وهذا الذي جعل مصر منذ القديم بلاداً واحدة حدّها الطبيعي اسوان . وآخر حد السفن في النيل الازرق شلال الرصيرص وفي النيل الابيض شلال الفوله . وفي بحر الغزال مشرع الريك على نحو ١٣٠ ميلاً من .صبه بالنيل الابيض و٧٢٥ ميلاً من الخرطوم . وفي بحر سُبت نقطة

الناصر على ١٧٠ ميلاً من مصبه بالنيل الابيض . ثم ان النيل الازرق لا يصلح للملاحة الا في زمن الفيض فاذا جاء زمن التحاريق قلّ ماءه وانقطع سير السفن فيه بخلاف النيل الابيض فانه صالح لسير السفن على مدار السنة

« في اراضيها »

« وادي النيل » ويجري النيل في واد ضيق لا يزيد عرضه على اربعة اميال وقد يضيق في بعض الامكنة حتى لا يكون الا مضيقاً بين جبلين يمر فيه النيل . الا ان هذا الوادي على ضيقه خصب كوادي نيل مصر أو اخصب ويزرع على السواقي والشواديف

« الجزيرة » وتُعرَف البلاد الواقعة بين النيل الابيض والنيل الازرق بالجزيرة على الاطلاق . وتعرف أيضاً بجزيرة سنار وجزيرة الخرطوم نسبة الى سنار وجزيرة الخرطوم اللتين اشتهرتا فيها . واما تسميتها بالجزيرة ففيهِ تساهل لانها في الواقع شبه جزيرة وهي بلاد خصبة للغاية وتزرع على النيل والامطار واكثر غلال السودان يأتي منها

« البُطانة » وعرفت البلاد الواقعة بين النيل والاتبرا قديماً بجزيرة مروي لانه قام فيها مملكة اشتهرت في التاريخ بمملكة مروى كما سيجيء مروي واما الآن فتعترف بالبطانة ويعرف القسم الجنوبي منها ببلاد القضارف وهذه البلاد مشهورة بالجودة والخصب حتى لقد سماها بعضهم أهراء السودان . وهي تزرع على الامطار

«صحاريها وجبالها » ويكتنف وادي النيل من الخرطوم سلسلتان من الجبال القاحلة ترافقانه الى مصر الواحدة الى الشرق وتليها الصحراء الشرقية التي تمتد الى البحر الاحمر والاخرى الى الغرب وتليها الصحراء الكبرى وصحراء كردوفان ودارفور والصحارى الشمالية من خط بربر فنازلاً شمالاً رملية مجدبة لا نبت فيها ولا شجر الا ما ندر بل اكثرها مفازات طويلة لا ماء فيها تعرف « بالعقبات » واما الصحارى الجنوبية فقابلة للزراعة ويكثر فيها النبات والاشجار حتى يكون منها في بعض الجهات غابات عظيمة . وسبب ذلك ان الصحارى الشمالية لا يقع فيها مطر الا قليلاً او نادراً بخلاف الجنوبية التي هي في منطقة الامطار فانه يقع فيها مطر غزير . ويتخلل الصحاري جبال او تلال متفرقة لا ماء فيها ولا نبت ما عدا جبل مرة في وسط دارفور وبعض جبال النوبة في جنوبي كردوفان فان فيها الينابيع والاشجار

« خيرانها » ويجري من جبالها الجنوبية وفي زمن الامطار سيولٌ عَرمة تغور في الرمال وتصب في النيل او البحر الاحمر تعرف عندهم بالخيران واشهرها : « خور بركة » يأتيها من جبال شمالي الحبشة ويصب في البحر الاحمر بعد ان يروي بلاد طوكر كلها فيزرع اهلها على ريّه

« وخور القاش » فانه يأتي ايضاً من شمالي الحبشة ويجري في بلاد كسلا فيرويها ويغور في الرمال قبل ان يصل نهر الاتبرا

« وخور ابي حبـــل » يأتي من جبال النوبة الشمالية ويجري شرقاً مسافة ١٩٠ ميلاً فيغور في الرمال قريباً من النيل او يصل النيل عند جزيرة أبا

« وخور تندلتي » وهو يخرج من جبال دارفور الشمالية ويجري جنوباً فيخترق مدينة الفاشر وتصده تلال رملية في جنوبيها عن الجري فيغور تدريجاً



مناظر الهرمين الكبيرين بالجيزة

الاهرام

ابنية مصرية قديمة ضخمة مرتفعة عظيمة الاسفل دقيقة الاعلى وقد أكثر الناس من التكلم عليها والتدوين فيها عرباً وعجماً قديماً وحديثاً نظماً ونثراً وذلك لفخامتها والتعجب منها وممن كتب عليها من غير العرب هيرودوط وديودور الصقلي وديوريس واستاجوراس وديبيس وارتميدور واسكندر ودمتريوس وايون واسترابون وبلين

وغيرهم ومن العرب كثير وأكثرهم يقول ان الاهرام سابقة على الطوفان قال المقريزي في خططه قال الهمداني في كتابه الاكليل لم يوجد مما كان تحت السماء وقت الغرق من القرى قرية فيها بقيــة سوى نهاوند وجدت كما هي اليوم لم تتغير واهرام الصعيد من ارض مصر انتهى . ومع كثرة ما كتبوا عليها لم يقفوا عند حد فيمن بناها ولا في تاريخ بنائها ولا في المقصود منها ونريد ان نلخص مما قالوه فيها بنبذة حسب الامكان . ونرتب ذلك على ستة مباحث

« المبحث الاول في أسمائها ومأخذها »

(الاهرام) بفتح الهمزة جمع هرم وبفتح الهاء والراء المهملة مثل سبب واسباب واصل الهرم اقصى الـكبر كما في القاموس العربي ومنه الهرم بفتح فكسر وهو الشيخ الفاني نقل مؤرخو العرب وغيرهم عن جالينوس انه قال ما معناه ان اسم الهرم الذي هو طاعن في السن مشتق من الاهرام التي هم اليها صائرون عن قريب انتهى . ويؤخذ مما نقله المقريزي من ابي يعقوب النديم ان تسمية هرم الجيزة بالهرمين من وضع العامة وانما يعرفان في مدينة مصر (بأبي هرمس) والافرنج يسمون هذا البناء بكلمة (پيراميد) بدال في آخره واشتغل كثير من علمائهم بالبحث عن أصل اشتقاق هذه الكلمة فاشتقها العالم (وولني) من كلمة پوراميت بالتاء المثناة وهي كلمة قبطية معناها مخدع الميت ومقره ومال الى ذلك كثير من المؤلفين . واشتقها العالم (أدلير) من كلمة (پيرامي) العبرانية التي معنى الجزء الاخير منها وهو رامي الارتفاع والجزء الاول وهو پي هو اداة التعريف فكأنه يقول البناء المرتفع حساً أو معنى واشتقها بعضهم من كلمة (پيراميس) الرومية التي معنى الجزء الاول منها وهو پير النار المشابهة شكل هذا البناء لشكل اللهب الذي يحدث من تأجج النار في الوقود ويريدون بذلك ان الاهرام معبد الشمس

وعلى هذا فالاسم الاصلي لهذا البناء حفظ في جميع اللغات لكن حرّفه أهل كل لغة بما يناسب لغتهم فالاروام نطقوا بكلمة پيراميس والافرنج بكلمة پيراميد والعرب قالوا أبو هرمس وعلى كل فهو منسوب الى هرمس الذي هو أصل العلوم وهو ادريس عليه السلام . وسيأتي بعض ما يتعلق بذلك

« المبحث الثاني فيمن بنى الاهرام وفي تاريخ بنائها »

قال في القاموس العربي الهرمان بالتحريك بنا آن أزليان بمصر بناهما ادريس عليه السلام لحفظ العلوم فيهما عن الطوفان أو بناء سنان بن المشلشل أو بناء الاوائل لما



هيكل (خوفو) الذى بنى الاهرام الكبير

علموا بالطوفان من جهة النجوم وفيهما طب وسحر وطلسم وهناك أهرام صغار كثيرة انتهى . وقد حكى المقريزي عن جملة من المؤرخين أقوالا عديدة فيمن بناها وأطال في ذلك وملخصه انه حكى عن ابي الريحان البيروني في كتاب الآثار الباقية عن القرون الخالية ان الذي بني اهرام مصر وبرابيها هو هرميس الاول الذي تسميه العرب الادريس

قال ومن الناس من زعم ان هرميس الاوّل المدعو بالمثلث بالنبوة والملك والحكمة هو الذى تسميه العبرانيون خنوخ بن برد بن مهلايل بن قينان بن أنوش بن شيث بن آدم عليه السلام وهو ادريس عليه السلام استدل من أحوال الكواكب على كون الطوفان يعم الارض فاكثر من بناء الاهرام وقال في موضع آخر وكان هرمس قد ألهمه الله علم النجوم فدلته على انه سينزل بالارض آفة وانه سيبقى بقية من العالم يحتاجون فيها الى علم فبنى هو وأهل عصره الاهرام والبرابي وكتب علمه فيها

وهيرودوط نفسه الذي ساح في مصر قبل المسيح بأربعمائة وخمسة وأربعين سنة سمى باني الهرم الكبير كيويس وسماه مانيتون سوفيس ويسمى في نقوش المعابد « خوفو » قال هيرودوط انه لما أراد بناءه أمر بقفل المعابد ومنع القرابين وحكم على المصريين بدون استثناء بالعمل في الاشغال الشاقة فبعضهم ينحت الحجارة وبعضهم ينقلها الى النيل والبعض يستلمها فينقلها الى جبل ليبيا على النيل في المركب وكان المشتغل بذلك على الدوام مائة الف يتغيرون بمثلهم كل ثلاثة اشهر وكان طول الطريق خمس غلواة وعرضها عشرة اورجي (١) وارتفاعها ثمانين اورجي

وحفر حوالي الهرم خليجاً وأخرجه من النيل فصار هذا البناء في جزيرة يحيط بها الخليج من كل جهة وسمي هذا الهرم باسمه ومدة بناءه عشرون سنة وقال بعضهم ثلاثين سنة

قال هيرودوط وبعد موته تقلد بأعباء المملكة اخوه وسماه شفرين و(يسمى في نقوش المعابد شفرا) قال وسار في الملك بسير أخيه بنى هرماً اقل من الاول كما حققنا ذلك بالقياس ولم يجعل تحته مخادع ولا حواليه خليجاً يصبّ في داخله كالخليج الذي جعله اخوه حوالى الهرم الاول الخارج ماءه من النيل في مجار من البناء تحت الارض ويجري تحت الجزيرة المدفون فيها اخوه (كيويس) وذلك الهرم الثاني بقرب الهرم الكبير وينقص عنه في الارتفاع اربعين قدما وهو متكىء على مدماك من الحجارة ايتوبيا (النوبة) وهي حجارة مختلفة الالوان والهرمان قائمان على هضبة ارتفاعها نحو مائة قدم وقد أقام شفرين في الملك ستا وخمسين سنة وكان للمصريين في هذين الملكين كراهة شديدة جداً حتى انهم كانوا يتحاشون عن النطق باسمهما ولايكادون يذكرونهما

---

(١) « الاورجي » مقياس رومي قدره اربعة عشر متراً وثمانية وتسعون جزءا من مائة متر



العمال الذين كانوا يشتغلون في بناء الاهرام الكبير

فلذا كانوا يضيفون الهرمين الى اسم (راع) يسمى فيليتون كان يرعى مواشيه بقربهما وقت بنائهما فيقولون هرم فيليتون ولا يقولون (كيوبس) مثلا انتهى .

قال هيرودوط وديودور ان هذين الملكين أي باني الهرم الكبير وباني الهرم الثاني لم يدفنا في الاهرام وان كان القصد منها ابتداء جعلها مدافن وذلك ان الاهالي بسبب ما قاسه من الشدائد في بناء الهرمين حلفوا انهم بعد موت هذين الملكين لا بد ان يخرجوا جثتهما ويقطعونها ارباً ارباً فأوصوا اقاربهم انهم لا يدفنوهم في الاهرام وان يجعلوا جثتهم محفوظة من الايدي . قال والكتابة التي وجد على الجرن من تاريخ العائلة الثامنة عشر فلا مانع من ان هذا القبر استعمل فيما بعد في دفن الملوك الآخرين وقد عثر مريبت بك على قبر باني الهرم الثاني قال وهو المعبد المسمى عند الناس بمعبد ابي الهول وازج الدخول يتجه الى وسط الضلع الشرقي للهرم ووجد تمثاله فنقله الى خزانة الآثار مصر وهي فيها الآن

وقد وجد في المعبد بجوار الاهرام سبعة تماثيل من الحجر الصوان مصنوعة على مثال ذلك الملك بغاية الدقة وهي الآن في المتحف المصري

« المبحث الثالث في عدد الاهرام ومم بنيت وكيف كان بناؤها »

قال المقريزي في خططه اعلم ان الاهرام كانت بأرض مصر كثيرة منها بناحية بوصير شيء كثير بعضها كبار وبعضها صغار وبعضها طين ولبن واكثرها حجر وبعضها مدرج واكثرها مخروط أملس وقد كان منها بالجيزة تجاه مدينة مصر عدة كثيرة كلها صغار هدمت في ايام السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب الكردي على يد قراقوش وبنى بها قلعة الجبل والسور المحيط بالقاهرة ومصر والقناطر التي بالجيزة كما سبق ذكره واعظم الاهرام الثلاثة التي هي اليوم قائمة تجاه مصر

هيرودوط يظهر في كيفية بناء الهرم الكبير انهم جعلوا الاوجه في شكل مدرج كالسلالم وبعد تمامه على هذه الصفة شرعوا في كونه فاستعملوا آلات صغيرة من الخشب لرفع الحجارة التي كسوه بها فبعض الآلات يرفع الحجارة الى درجة الاولى فتأخذها آلة أخرى وترفعها الى درجة الثانية وتأخذها الثانية وترفعها الى الثالثة وهكذا

وقدم في كلام هيرودوط ان كيوليس كسا الاهرام الكبير جميعه بالحجر المصقول المحكم اللحامة وكل حجر منه لا ينقص من ثلاثين قدما وان الهرم الثاني متكىء على مداميك من حجارة ايتوبيا وهي حجارة مختلفة الالوان



« المبحث الرابع في صفة الاهرام ومشتملاتها »

لما كان اعظم الاهرام وافخمها واشهرها هي اهرام الجيزة الثلاثة كان اكثر كلام المتكلمين على الاهرام دائر على هذه الثلاثة وهي مطمح انظار السياحين والمتفرجين والناثرين والناظمين . قال المقريزي في كتاب عجائب البنيان قد انفردت مصر بهذه الاشكال (يعني الاهرام) فليس لها بغيرها تمثال ثم قال وقد سلك في بناء الاهرام

طريق عجيب من الشكل والاتقان ولذلك صبرت على مر الايام لا بل على مر صبر الزمان فانك اذا تأملتها وجدت الازهان الشريفة قد استهلكت فيها والعقول الصافية قد افرغت عليها مجهودها والانفس النيرة قد افاضت عليها اشرف ما عندها والملكات الهندسية قد اخرجتها الى الفعل مثالا في غاية امكانها حتى انها تكاد تحدّث عن قوة قومها وتخبر عن سيرتهم وتنطق عن علومهم واذهانهم وتترجم عن سيرهم واخبارهم وذاك ان وضعها على شكل مخروط ويبتدىء من قاعدة مربعة وينتهي الى نقطة ومن خواص الشكل المخروط ان مركز ثقله في وسطه يتساند على نفسه ويتواقع على ذاته ويتحامل بعضه على بعض وليس له جهة اخرى يتساقط عليها ومن عجيب وضعه انه شكل مربع قد قوبل بزواياه مهاب الرياح الاربع فان الريح تنكسر سورتها لمسامتتها الزاوية وليس كذلك عندما تاتي السطح . قال خردازيه

خليليّ ما تحت السماء بنيــة تماثل في اتقانها هرمي مصر
بناء يخاف الدهر منه وكل ما على ظاهر الدنيا يخاف من الدهر
تُنَزه طرفي في بديع بنائها ولم يتنزه في المراد بها فكري

أخذ هذا من قول بعض الحكماء كل شيء يخشى عليه من الدهر الا الاهرام فان الدهر يخشى عليه منها . وفي مثلها يقول ابو العلاء احمد بن سليمان المعري

تضل العقول الهبرزيات رشدها ولا يسلم الرأي القويم من الافن
وقد كان أرباب الفصاحة كلما رأوا حسناً عدّوه من صنعة الجن

وفي كلام بعض علماء الافرنج انه لم يكن في داخل الاهرام كتابة ولا زينة وليس ذلك ناشئاً عن جهل بالنقش على الصخور فان القبور الموجودة من زمن بناء الاهرام الى الآن فيها النقوش والكتابة وعلى الخصوص قبر المعمار الذي كان في زمن الفرعون (سوفيس الاول) وانما تجرد الاهرام عن النقوش كما زعم بعضهم اتساع اسطحتها الظاهرة فكانت كافية لان ينقش عليها ما يلزم نقشه بخلاف القبور

وتضاربت الاقوال في وجود كتابة داخل الاهرام الكبير وخارجها ولكن من المشاهدة والمباحثة التي اجريتها بنفسي في سنة ١٨٩٣ ميلادية لم ارى أثراً يدل على وجود الكتابة . فلو قال قائل انها محيت مع مرور الزمان اقول ان الكتابة التي على الهياكل والمعابد الموجودة في (لقصر) وغيرها رأيتها باقية لحد الآن مع كونها عرضة للحوادث الجوية ولذلك احكم بعدم وجود الكتابة في داخلها مطلقاً وقد استغربت عند زيارتي للاهرام المذكور من عدم وجود كتابة والنقش في ظاهرها

وداخلها حيث صعدت على قمة وبعد نزولي دخلت من الفتحة الصغيرة التي فتحها المأمون احد خلفاء العباسيين وقت مجيئه الى مصر فوجدت سرداباً فدخلت فيه وزحفت الى الاعلا بكل صعوبة نحو عشرين خطوة تقريباً فانتهيت منه الى غرفة طولها ستة امتار وعرضها وارتفاعها كذلك وسقفها مكون من حجرين كبيرين ورايت فيها رف على يمين الداخل طوله مترين وعرضه متر يقال انه عمل لوضع التابوت عليه وعند خروجي منها رأيت دهليزاً مشيت فيه بعض خطوات وفي آخره بئر يبلغ عمقه نحو ستين قدماً تقريباً .

ونقل دساسي عن كثير من مؤلفي العرب ما تدل على أنه كان على الهرم كتابة قديمة مجهول . وقد قال هيرودوط انه كتب على الهرم ما صرف بنائه من الخضارات فكل هذا يدل على ان ظهور الاهرام كانت عليها كتابة فان لم تكن على الاعلى فعلى الاسفل وانما زالت بازالت الكسوة

« المبحث الخامس في الغرض المقصود من بناء الاهرام »

كما تنوعت الاقوال فيمن بنا الاهرام تنوعت في الغرض المقصود ومنها فالذي غلب على أفهام كثير من الناس في جميع الاجيال والبقاع انهـا قبور لبعض ملوك مصر الاولين . ومن الناس من يقول انهـا معابد للمقدس « أوزريس » الذي هو من اسماء الشمس واسماء النيل وسيأتي ما يرجح هذا . ومنهم من يقول انها محلات وضعت لرصد الكواكب وأول من قال بذلك من الاقدمين أفلاطون وتبعه جماعة كثيرون الى وقتنا هذا وكثيرون من العلماء يميلون الافهام انها آثار بنيت لابداع العلوم الهندسية والطبية والفلكية والحسابية والطلاسم وغير ذلك مما لو استقصى قصاً

قال المقريزي . ان قلمون الكاهن الذي كان مع نوح في السفينة كان قد زوج ابنته بيبصر بن حام بن نوح عليه السلام وجاءت معه الى مصر وولدت منه ولداً سماه مصرايم فلما مات بيبصر دفن في موضع أبي هرميس غربي الاهرام ويقال انها أول مقبرة دفن بها بأرض مصر وكان ذلك بعد الطوفان بألف وثمانمائة وست سنين

ونقل أيضاً في باب فضائل مصر من خطة عن صاعد اللغوى انه قال في كتاب طبقات الامم ان جميع العلوم التي ظهرت قبل الطوفان انما صدرت عن هرمس الاول الساكن بصعيد مصر الأعلى وهو أول من تكلم في جواهر العلوية والحركات النجومية وهو أول من ابتنى الهياكل ومجد الله فيها وأول من نظر في علم الطب

وألف لأهل زمانه قصائد موزونة في الاشياء الارضية والسماوية وقالوا انه أول من أنذر بالطوفان ورأى ان آفة سماوية تصيب الارض من الماء والنار نخاف ذهاب العلم واندراس الصنائع فبنى الاهرام والبرابي التي في صعيد مصر الأعلى وصور فيها جميع الصنائع والآلات ورسم فيها صفات العلوم حرص على تخليدها لمن بعده وخيفة أن يذهب رسمها من العالم وهرمس هذا هو ادريس عليه السلام . ونقل في الكلام على الاهرام أيضاً عن ابي يعقوب محمد بن اسحق النديم الورّاق في كتاب الفهرست انه اختلف في أمر « هرمس البابلي » فقيل انه كان أحد السدنة السبعة الذين رتبوا لحفظ البيوت السبعة وانه كان لترتيب عطارد وباسمه سمي عطارد باللغة الكلدانية (هرمس) وفي الكنز المدفون والفلك المشحون للجلال السيوطي ان هرمس اسم لعطارد كما ان كيوان اسم لزحل وتير اسم للمشترى ويسمى المشترى ايضاً البرجيس وللمريخ بهرام وللشمس مهر وللزهرة أناهيد وبيدخت ايضاً وللقمر ماه وقد جمعت في بيتين وهما هذان

لا زلت ترقى وتبقى العلا أبداً ما دام للسبعة الافلاك أحكام
مهر وماه وكيوان وتير معاً وهرمس وأناهيد وبهرام

وأقربهم الينا القمر وفوقه عطارد ثم الزهرة ثم الشمس ثم المريخ ثم المشترى ثم زحل وانتهى

وفي كلام بعض الافرنج أيضاً ان كلمة سوريد الواقعة في عبارة المقريزي محرفة عن سوريس وأن سوريس محرف عن زريس الذي هو اسم النيل . وقال جول الافريقي أن هذا ليس تحريفاً بل هما اسمان لمسمى واحد ومعلوم ان ازريس من اكابر مقدسي المصريين ويزعمون انه نبع الخير وانه هو ايس نزل بين الناس وتعرض لمعاناة المشاق الارضية في احسن اشكال الحيوان وهو شكل الثور ويقولون ان مصر كانت منقسمة قديماً الى أقسام دينية وهي صارت فيما بعد أقساماً سياسية يسمى القسم منها (نوم) أو مديرية وكان في كل مديرية بل وفي كل مدينة مقدس مختص بها وكان اوزيس هو المقدس بجهة أبي دوس ومع ذلك فكان مقدساً في جميع ارض مصر في كل عصر . قال هيرودوط ان المصريين ولو ان لكل طائفة منهم مقدساً مخصوصاً لكن جميعهم يقدسون اوزريس واوزيس ومن خرافاتهم ايضاً ما زعموه ان أم اوزريس حملت به من العقل الروحاني بعد تشكله في صورة افتاء وهي عبارة عن حرارة والتهاب سماوي

واذا فارق أرض المزارع الى صحراء الاهرام واحس بأوعارها ورأى الهرم الجيزة

من بعيد كأنه جبل شامخ في معزل عن العمران والخصوبة تحوّل فكره الى أحوال هذا البناء الهائل واذا فكر في انه قد مضى عليه سنة آلاف ستة وهو قائم بمكانه مشاهد على تعاقب الامم والاجيال والحوادث . سأل كم مضى ايضاً من الزمان قبل بنائه وما نسبة ذلك الى ما بقي فعند ذلك لا يرد جواباً. قال بعضهم

الست ترى الاهرام دام بناؤها ويفنى لدينا العالم الانس والجن
كأن رحي الافلاك أكوارها على قواعدها الاهرام والعالم الطحن

« المبحث السادس فيمن تهجم على الاهرام وحاول فتحها »
« أو ازالة شيء منها وفي تاريخ ذلك »

قال بعض العلماء الافرنج يظهر ان ملوك عائلة جمشيد هم الذين ابتدأوا بالتعدي على الهرم والظاهر أن ذلك كان في زمن « دريوس اكوس » اذ في زمنه قام المصريون على العجم وأرادوا طردهم من مصر فتغلب العجم عليهم واذلوهم وردوهم الى طاعتهم وعند ذلك سطوا على معابدهم ومقدسيهم بالتخريب والتحقير ثم لما دخلت اليونان مصر تمسكوا بديانة المصريين وعوائدهم فمال اليهم المصريون ولكن لما وجدوا الاجساد المقدسة قد نبشت وضاع كثير منها لم يعتنوا لها كالاعتناء الاول فأخذت في النقص وطمس الذكر الى أن اضمحلت اهمها بل نقل بعضهم عن هيرودوط ان جمشيد نفسه هو الذي فتح قبور الملوك وكانت قبل محترمة للغاية

وقال لطرون الفرنساوي ان الاهرام كانت مكسوة بحجارة مصقولة على قول الاكثر وان تلك الكسوة قد أزيلت باستطالة الايدي عليها خلافاً لمن يقول انها بنيت هكذا غير مكسوة ثم قال ان ابتداء ازالة الكسوة كان في زمن العرب ولم يكن في زمن البطالسة ولا الرومانيين لان هذه المباني في وقتهم كانت مقدسة تحت حماية الديانة فلما استولت العرب على مصر أخذ كثير من الناس في البحث عن الكنوز ففتح المأمون الهرم وكذا غيره ولما لم يجدوا شيئاً أخذوا يبحثون في أعلاه فأزالوا المدماك الاول ثم حفروا في وسط الهرم من الاعلى طمعاً في ان يصلوا الى داخله فكان سعيهم على غير طائل ويظهر أن الكسوة بقيت الى القرن السادس من الهجرة بدليل ما قاله عبد اللطيف البغدادي في رسالته وهو من أهل هذا القرن . وممن شاهد كسوتها في العالم جرار المرسل من طرف فريدرك « بربروس » الي صوب الملك صلاح الدين سنة ١١٨٥ ميلادية قبل سياحة عبد اللطيف بثلاث عشرة سنة اذ قال ان الهرم الكبير

مكسو بحجر مصقول يشبه الرخام . وذكر العالم « زوبجا » ان اسكندر اريوستو كان في مصر سنة ١٤٧٦ ميلادية وانه رأى ناساً يهدمون كسوة الهرم وينقلونهـا لمبانيهم ومن ذلك يعلم ان أخذ أنقاض الـكسوة استمر الى آخر القرن الخامس عشر من الميلاد وقال ابوالعباس احمد المعروف بشهاب الدين في كتابه الموجود في كتبخانة باريس أن حجارة أوجه الهرم متلاصسة ومستحكمة الوضع وذلك في سنــة ١٣٤٨ م فعلى هذا لم تبتدىء ازالة الكسوة الا في القرن الرابع عشر للميلاد

« الجيزة »

وهي اول المديرية من مديريات الثمانية الموجودة بالوجه القبلي فيحدها من الشمال القناطر الخيرية ومن الغرب صحراء ليبيـا ومن الشرق النيل وتنقسم الى اربع مراكز اولها (امبابه) وهي تحتوي على ٣٥ قرية

وكانت امبابة ذات اهمية في القرون الوسطى فكان فيها معابد عظيمة واصنام كبيرة ولما حارب الرومانيين مصر في زمن قسطنطين واستعمل السيف لنشر الدين المسيحي ولم يكن للمسيحيين كنائس مختصة بهذا الدين فهدم وخرب المعابد التي كانت فيها من زمن الفراعنــة واخذ ما فيها من الاشياء النفيسة وجعلها نذراً وصرفها لنشر الدين المسيحي . والقسم الثاني مركز الجيزة وفيه ٤٧ قرية

والقسم الثالث : مركز العياط ويحتوي على ٢٧ قرية وتتبعها المناتيه ويوجـد في مقابلتها من الجهة الشرقية للنيل جبال الرشراش ويوجد فيها حيوان يسمى (البدن) وفي سنة ١٣٢٦ الهجرية قصد دولة الامير يوسف كمال باشا تلك الجهة لصيد الحيوان المذكور وكنت في معيتــه فوصلناها بعد الغروب وبتنا تلك الليلة في الكوشك الذي اعدّ لصيد دولة الامير كمال الدين باشا على شكل جميل وجعل فيها حديقة وحوض للماء وحفر فيــه بئر مركـب عليها طولمبه وغرس حوله الاشجار وغير ذلك من الاستعدادات اللازمة للاقامة

وفي الصباح طلع دولة الامير يوسف كمال باشا الى اعلى الجبال الشاهقة ومعه بعض الخدم لاستكشاف الصيد ثم عاد وقت الغروب وقرّ رأيه على الاقامة في الكوشك تلك الليلة . وفي اليوم الثاني ركبنا الهجن وسرنا في الوادي الذي بين الجبال وبعد ان قطعنا مسافة عشرين كيلومتر تقريباً نزلنا ونصبنا الخيام وبتنا فيها ذلك الليل وفي الصباح صعد دولة الامير على قمة الجبل للصيد وعاد وقت الغروب ومعــه واحداً من الحيوان المذكور فكان غنيمة للعربان البدو الذين كانوا معنا وطبخوه واكلوه بشهية



S. A. le Prince Kemaleddin Pacha

امیرکامران حاجی کمال الدین پاشا در　　کمال وعقل ودانشله همیشه کار فرمادر
کریم عالی همت قهرمان شیر صولتدر　　محب اهل دانش داور بی مثل وهمتادر

غريبة واما نحن فلم نذقه لكننا تلذذنا من رؤية الحالة البدوية التي كانوا عليها.وفي اليوم الثاني عدنا الى مصر

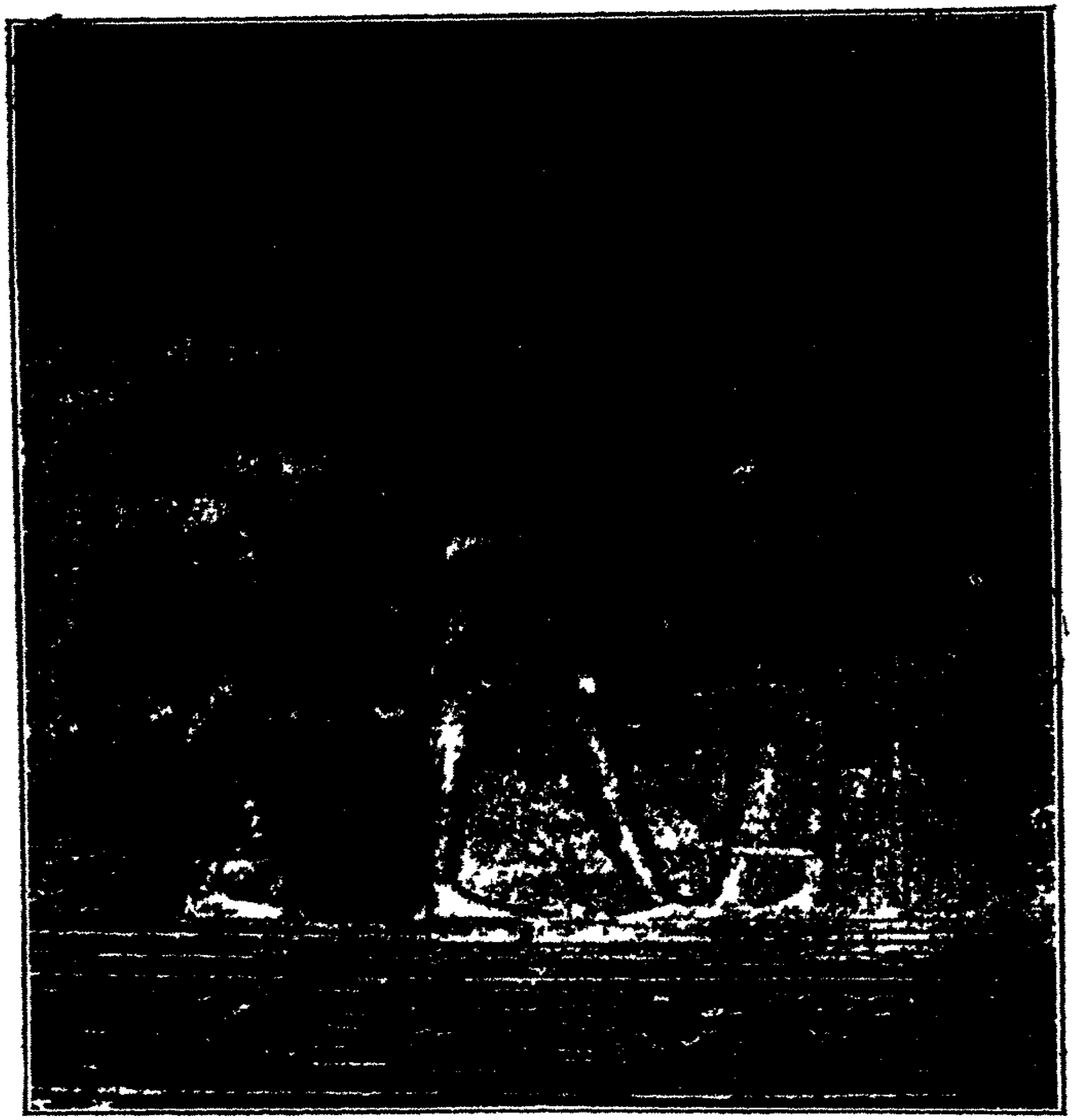
ومن ملحقات العياط التي سبق ذكرها قرية تدعى « ميت رهينة » ويقال انها كانت من ضمن بلاد « منفيس » لما فيها من الخرابات المندثرة . وسبب تسميتها بهذا الاسم هو انه حزراً من وقوع عصيان اثناء فتح مصر اخذوا منها مائة شخص رهناً . وبجوارهامن النخيل ما يزيد عن عشرين الف نخلة وفي الجهة الشرقية منها يشاهد بقايا مدينة منفيس التي كانت مركز ادارة مصر في كثير من العصور السابقة كما يستدل عليه من بقايا الانقاض والتلول الموجودة فيها والمؤسس لهذه المدينة «مصرايم» أو « منا » واول ملوك الفراعنــة . ولما كان مجرى النيل في ذلك الزمن يمر في ذيل الجبل الغربي كانت الاراضي التي على ساحل النيل يبلغ مساحتها اثنى عشر الف فدان وبناء على ذلك اكتسبت هذه المدينة شهرة عظيمة حتى كان عدد سكانها يبلغ نحو سبعة الاف نفس وفيها معبد (سرابيس) احد كهنة الفراعنة وكتبخانة عظيمة وكثير من المباني وغير ذلك من الآثار العجيبة الجديرة بالاعتبار كما هو مذكور في كتاب الاعتبار لعبد اللطيف البغدادي

ولما كانت هذه الجهة مقر الحكومة على مدى العصور تسلطت عليها الهجمات من العمالقه مرة واحدة والحبش مرة والفرس مرتين وغيرهم من معارضة الملوك الذين في داخلية البلاد وغاراتهم على بعضهم واخيراً تعرض لها اليونانيين حينما انتقل مركز الحكومة الى ثغر الاسكندرية ومع ذلك كانت رسوم التتويج للحكام تعمل في مدينة منفيس

ولما كان رؤساء الديانة من الكهنة الفراعنة تسكن هذه المدينــة صاروا يتداخلون في الاحكام حتى فقد منفيس نفوذه وشرفه وبقوا على هذه الحالة الى زمن دخول اليونان فاضطروا هؤلاء لتخريب المعابد لاجل نشر الدين المسيحي ونقلوا كثيراً من الحجارة ذات القيمة والآثار النفيسة الى الاسكندرية حتى لم يبق منها شيء وكذا صار محو الفسطاط في عهد فتح الاسلام وجعلوا محله ابنية وعمارات كثيرة والآن لم يبق منها اثراً يذكر

ومن عائلات الفراعنة الذين حكموا في منفيس هي العائلة الاولى حكمت ٢٥٣ سنة والعائلة الثالثة ٢٤١ سنة والرابعة ٢٨٢ سنة والخامسة ٢٤٠ سنة والسابعة ٧٠ سنة والثامنة ١٤٢ سنة فتكون مدة حكمهم ١٢٢٨ سنة وعلى هذا التقدير يكون مبدأ

حكمهم في سنة ٥٠٠٠ ونهايته في سنة ٣٥٠٠ ق . م واقاموا كل هذه المدة في مدينة رمسيس التي سبق الكلام عليها كما تبين من تاريخ (مانيتو) المؤرخ الشهير من الكهنة الذين وجدوا في ذلك الوقت وتؤيده صحة الآثار القديمة التي اكتشفت ويظهر مما تقدم ان هذا المؤرخ كان في سنة ٨٧٢ قبل الهجرة بوجه التقريب



رسم تتويج الفراعنه

البدرشين : بمديرية الجيزة في الجانب الغربي للنيل تمر سكة الحديد بينها وبين النيل وفي قبليها جسر سقارة وانواع لنسج المقاطع الكتان وغيره . وفي بعض التواريخ ان محلها في الاصل جزيرة ويقال انه كان بها قصر لزليخا امراة العزيز في

عهد الملك الريان فلما وضع سيدنا يوسف يده على خزائن الارض وخرج يوماً في موكب للنزهة على البحر قابلته زليخا وقالت سبحان من اذل الملوك واعز العبيد فقال لها من انتِ فقالت زليخا فقال لها اصبح البدرشين فسميت بهذا الاسم الى الآن

« المركز الرابع »

في قرية (الصف) وملحقاتها ٣١ قرية ويروى ان موسى عليه السلام ولد في هذه القرية سنة ١٧٥٥ ق . م ومن ضمن هذا المركز قرية اطفيح وكان اسمها القديم (افرود) و(بوليش) وكان في هذه القرية صنم برأس حيوان وجسم انسان يعبدونه واحياناً يجعلونه على شكل بقرة وابنها يرضع من ثديها ويسمونه (ايزيس) وكانوا يعبدون صنم آخر ينسبوه لكوكب (الزهرة) وعدد سكان المراكز السابق بيانها بمديرية الجيزة يبلغ ٤٦٠٠٨٠ نفس واراضيها المنزرعة ٢١٥٠٩٩ فدان واشهر محصولاتها القطن والذرة والقمح والفول والشعير والليمون والبطيخ وكثير من الخضروات وتقيم في داخلها سبع قبائل من العربان

« مديرية بني سويف »

مديرية بني سويف واقعة على الساحل الغربي للنيل ما بين مديرية الجيزة والمنيا ومصنوعاتها الشهيرة نسج الصوف لعمل المفروشات وهي محل معروف بتجارة القطن وانواع الحبوب . وهي منقسمة الى ثلاث مراكز . الاول مركز بني سويف وهو يحتوى على ٦٠ قرية ومن ضمنها قرية تسمى (طحابوش) على الساحل الغربي من النيل وفيها معامل لنسج الطعابط وقد اشتهر اهاليها في هذه الصناعة

ويستدل من جدول (ماينتون) ان قرية (اهناس) الواقعة شرقي بحر يوسف وغربي النيل وهي من ضمن قرى هذا المركز كانت مقر سلطنة العائلة التاسعة والعاشرة من الفراعنة مدة ثلثمائة سنة وذلك قبل الهجرة ٣٩٨٠ سنة وقبل الميلاد ٣٣٥٨ سنة وهذه الرواية تحققت من الاستكشافات الاخيرة ايضاً . ويروى ان السيدة مريم وابنها عيسى عليه السلام اقاموا في هذا البلد الى ان مات (هيرود)

القسم الثاني : مركز الواسط . والثالث مركز (ببا) وملحقاتهما ١٨٣ قرية . ومجموع سكان الثلاث اقسام المذكورة في هذه المديرية ٣١٠١٠٥ نفس واراضيها المنزرعة ٣١٠١٠٥ فدان وبجوار هذه المديرية جبل تستخرج منه احجار تشبه احجار السماكي ويوجد فيها سبع قبائل من العربان

« مديرية الفيوم »

الفيوم واقعة في صحراء واسعة بعيدة عن ساحل النيل وهي كائنة في الجهة الغربية من بني سويف وفي جنوب المديرية الجيزة وفي شمال مديرية المنيا بمعنى انها محصورة بين الثلاث مديريات . واراضي هذه المديرية الواسعة منحط عن سطح مياه النيل في زمن الفيضان ٣٠ متراً وفي المواسم العادية ٢٧ متراً ومن ذلك يعلم انها اكثر انخفاضاً من جميع اراضي مصر والوصول اليها يكون من طريق الجبل الغربي

ويمر من وسط مركز الفيوم ترعة تسمى بحر يوسف نسبة لمنشئها يوسف عليه السلام . ومن مصنوعاتها الزكائب والصوف والكتان وفيها معصرة للزيتون ولكثرة ما فيها من الحدائق والكروم اشتهرت باحسن انواع العنب وماء الورد

وكانت رديئة الهواء وغير نظيفة ورطبة لانحطاطها ومياهها راكدة قبل ان يدخلها يوسف عليه السلام ويجرى ما فيها الاصلاحات والتدابير الباقي بعض آثارها لحد الآن حتى اصلح هوائها وتحسنت اراضيها ومزروعاتها بواسطة تجفيف المياه التي كانت عليها وجعل لها قناة تجري فيها المياه تحت المباني من اول البلد الى آخرها لري الاراضي وركب عليها طواحين تدور بقوة المياه حتى انه مع عدم الفيضان ونقص مياه النيل وحصول القحط كانت محصولاتها كافية لسد احتياج الجهات الاخرى

وهذه المديرية تنقسم الى قسمين الاول مركز (الفرق) وهي قرية كائنة في ذيل الجبل الغربي وامامها وادي متسع يسمى (الريان) وهو نسبة الى «ريان » ابن الوليد المعروف بفرعون يوسف ويوجد فيه كثير من الآثار القديمة

ومن جملتها (اللاهون) التي كانت من اشهر المدن القديمة وفيها قنطرة ذات عين واحدة في نقطة تفرع بحر يوسف وبجوارها توجد خرابات (لابرنيت)

وفي شرق بحر يوسف يوجد (بحر موركس) ومعناه (معبد فم البحر) وكان يطلق عليه باللسان اليوناني القديم (لابورامونت) ويقال انه كان في هذا الموقع سراي مقسمة الى ستة اقسام في الجهة اليمنى وستة في الجهة اليسرى ومداخلها متوازية ومتقابلة لبعضها ويتوصل اليها بواسطة اثنى عشر شارع وفيها ثلاث الاف حجرة منها الف وخمساية في الطبقة الاولى والف وخمساية في الطبقة الثانية هذا بخلاف الصالونات وفي نهايتها يوجد اهرام مزينة باشكال عجيبة وهذا كان مخصص لاجتماع الحكام وموظفي الحكومة للمفاوضة في امور الدولة .ومن ضمن ما اشتملت عليه جملة سراديب تحت الارض يتوصل منها الى اهرامات داخلها مقابر مدفونة فيها جثث الذين بنوها

ويشاهد فيها الآن تلال تدل على تلك الآثار التي هدمت حتى وان النقوش والكتابة التي عليها مسحت لا يمكن قراءتها

وللملوك العائلة الثانية عشر بالفيوم جملة آثار وبالاخص المدعو (امتمحت) وهو فرعون الثالث ينسبون له آثار مهمة . ومن ضمن اعماله انه كان يخزن مياه النيل في المنطقة المنخفضة التي سبق ذكرها حتى اذا نقصت مياه النيل يصرفها لري الاراضي وتبين ذلك من اكتشاف الآثار القديمة

وكانت توجد بحيرة لتصفية بحر يوسف بجوار قرية (وجرد) و (ابوصير) و (دفنوا) وهناك قريتين معروفتين باسم (البصية الرمان) مشهورتين بحسن نسيج الصوف وبجودة رمانها . ويوجد كثير من الآثار القديمة في قرية (كيمان الفارسي) ويقال انها كانت في الاصل هي مدينة الفيوم

مركز اطسا : وهو القسم الثاني وسنورس هو القسم الثالث ومركز ادارته (دار الرمان) وقراه الشهيرة هي سنهور وابوكساه وسيلبين ومعصرة الدودة . وفي داخل هذا المركز يوجد كشككين قديمين احدهما يسمى قصر قارون والثاني قصر كافور

ويبلغ عدد سكان مديرية الفيوم ٤٤١٥٨٧ واراضيها المنزرعة ٥٧٥٥٥٥ فدان ويسكنها سبع قبائل من العربان

« مديرية المنيا »

المنيا هي عاصمة هذه المديرية وهي مدينة تجارية وموجود في اسواقها كافة ما يلزم من الامتعة والمحصولات وتمتاز عن غيرها من المدن في انتظامها وحسن موقعها ولطافة هوائها وكان هارون الرشيد من خلفاء العباسيين ارسل اليها خصيب بن عبد الحميد لتحصيل الأموال الاميرية ولذا سميت بمنية الخصيب . ويقال لها من الجهة الشرقية (زاوية المتين) ويوجد في الجبل المشرف عليها جملة مغارات فيها رسوم ونقوش مما كانوا يجروه قدماء المصريين بشأن الرسوم الدينية وما يتعلق برسوم الملاحة في البحار

وهذه المديرية كائنة في الجهة الغربية من النيل ما بين مديريتي اسيوط وبني سويف وتتقسم الى ستة اقسام . الاول مركز المنيا وملحقاته ٤٤ قرية

والثاني : ابو قرقاص على شرق النيل والقرى التابعة له تله ودمشير والمطاهره وعلى بعد نصف ساعة من غربي قرية (طهنسا) وفيها معامل لنسج الصوف ويوجد ايضاً في الجبل الشرقي المقابل لناحية ابوقرقاص مغارات مشهورة باصطبل عنتر

والثالث : مركز (سمالوط) ومن ضمن ملحقاته قرية (اشروبه) الموجود فيها مقام الشيخ ابرهيم شلقامى من السادات الحنفيـة على طريقة الخلوية ويعمل فيها مولد في كل سنة يجتمع فيه كثير من الاهالي

ومن اقدم بلاد مصر هي بلدة البهنسا التي قسموها الآن الى قسمين احدهما البهنسا الشرقية والثانية البهنسا الغربية فالاولى على شرق بحر يوسف والثانية جهة الغرب. ويعمل فيها كل سنة موسم للشهداء الذين استشهدوا فيها مدة الفتح الاسلامي ويكثر البيع والشراء في مدة هذا الموسم . وكان يعمل فيها سجاد وانواع الاقمشة النفيسة المزركشة بالذهب . ويقال ان معاوية بن سفيان كان يرسل من طرفه اناس ليشتروا له هذه الاقمشة ويصنع منها ألبسة

والرابع : مركز بني مزار . وفي الجانب الغربي من النيل قرية المعصرة فيهـا فوريقا لتعصير قصب السكر . وملحقات هذا المركز ٤٦ قرية

والخامس : مركز مغاغه ويحتوي على ٤٥ قرية

والسادس : مركز الفشن وملحقاته ٣٨ قرية

وعدد سكان هذه المديرية ٦٥٩٩٩٧ واراضيها المنزرعة ٥٠٠٥٤٤ فدان ومحصولاتها القمح والفول والدره العويجه وقصب السكر

« مديرية اسيوط »

هذه المديرية واقعة بين مديريتي المنيا وجرجا وعلى بعد نحو الف ومئتي كيلومتر واقعة في آخر المزارع على طرف حاجر الجبل الغربي وكانت تسميها اليونان (ليكو) أو ليكوبوليس أي مدينة الذئاب لان اهلها كانوا يحترمون الذئب ويقدسونه كما في الكتب الفرنساوية قالوا والى الآن توجد مومية هذا الحيوان في مغارتها وكان سكان اسيوط من المصريين الاول كما في كتب الافرنج يدفنون الاموات في مغارات في جبل ليبيـا الذي في غربيها وكانت به مغارات كثيرة متفاوتة في الكبر والصغر بعضها فوق بعض ومن ضمنها مغارة طولها نحو ستين متراً في اربعين تسميهـا الاهالي اصطبل عنتر والنقوش التي على جدران تلك المغارات تدل على انها كانت تسكن بعضها النصارى في مبدأ ظهور ديانتهم وبعضها كان معابد تقرب فيه القرابين حتى ان كيفيات الذبح واحضار الذبائح مرسومة في بعض الحيطان

ويوجد في مدينة اسيوط جامع عظيم فيه مقام الامام العلامة الشيخ جلال الدين

عبد الرحمن الاسيوطي الشهير بمؤلفاته التي بلغ عددها الثلثمائة تقريباً ولد في هذه المدينة سنة ٨٤٠ هـ . وكانت هذه المدينة مركزاً للتجارة ما بين مصر والسودان ومنذ ربع قرن انقطعت هذه التجارة

وتنقسم هذه المدينة الى ستة مراكز . الاول ملوى . الثاني ديروط . الثالث منفلوط . الرابع ابو تيج . الخامس البدارى . السادس ابنوب . ومجموع القرى التابعة لهذه المديرية ٢٨٠ قرية وعدد سكانها ٩٠٣٣٣٥ نفس واراضيها المنزرعة ٤٧٧٥١١ فدان ويوجد في داخلها اثنى عشر قبيلة من العربان

« مديرية جرجا »

هذه المديرية واقعة بين مديريتي اسيوط وقنا . وتنقسم الى خمس مراكز : الاول مركز جرجا والثانى مركز البلينه والثالث مركز سوهاج ومن ضمنها بندر اخميم والرابع مركز من مدينة (طهطا) على بعد كيلو متر ومن الجانب الغربي للنيل والخامس من مركز (طما) على ساحل الغربي النيل

وعدد سكان هذه المديرية ٧٩٢٩٧١ نفس واراضيها المنزرعة ٣٥٨٧٦٦ فدان . وهي اخصب من اراضي المديريات التي في جنوبها ثمانية قبائل من العربان

« مديرية قنا »

هذه المديرية واقعة بين مديرية جرجا وبندر (اسنا) وتنقسم الى ست مراكز وهي مركز قنا ونجع حمادي ودشنا والاقصر وقوص . وعدد سكان هذه المديرية ٧٧٨٧٩٢ واراضيها المنزرعة ٣٦٨٩٢٢ فدان

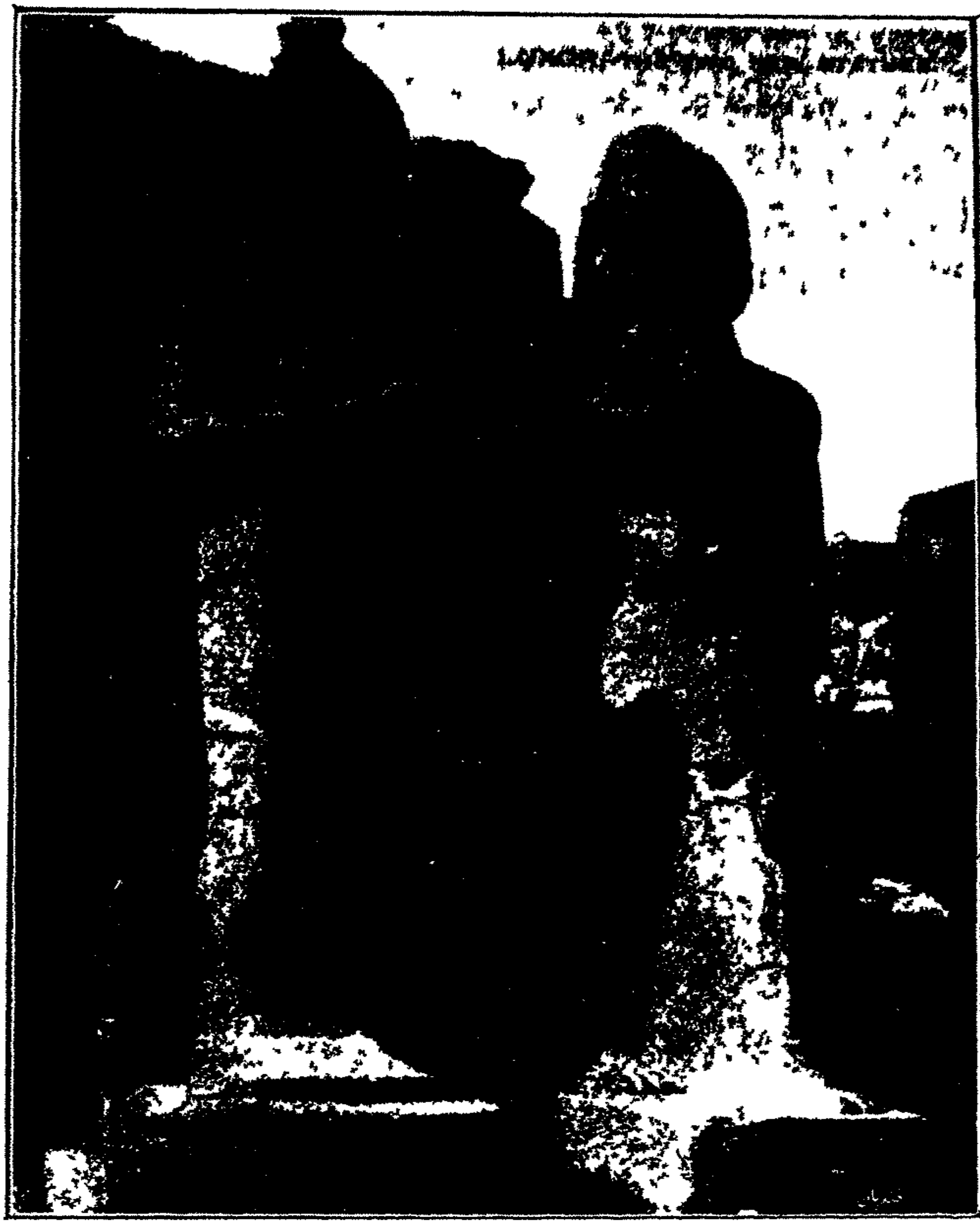
وبندر قوص كائن على بعد ٣٥٠ متر تقريباً من الساحل الشرقي للنيل وابنيتها القديمة منسوبة (لكليوبترا) ويقال ان كلمة قوص باللغة القديمة معناها (الدفن) ويحكى انه في قديم الزمان كانت فيها طائفة تشتغل بصناعة التكفين والتصبير وكلها يلزم لدفن موتى الملوك . وذكر ابو الفدا في تاريخه ان بندر قوص كانت مركزاً لتجارة الهند والحبش واليمن والحجاز وتعد في الدرجة الثانية في الكبر بعد الفسطاط ومع كونها آيلة الى الخراب

واستدل من بعض آثارها انها اقدم عهداً من مدينة منفيس في زمن حكام الكهنة . ولو ان المؤرخ (تؤدور) يدعي ان (مينا) مؤسس بناء منفيس وكذا (مصرايم) هما اللذان اسسا مدينة الاقصر وايضاً المؤرخ (هره دورت) يقول انها تأسست قبل

الميلاد باثني عشر الف سنة لكنه لا توجد ادلة واضحة تثبت قولهم . وقد بالغ ايضاً كل من (استرابون) و (اميروس) بانه كان يسكن بهذا البلد ملايين من النفوس وكان لها مئات من الابواب ومئات الالوف من البيوت . وما يمكن الاعتماد عليه مما هو عارٍ عن المبالغة ان وصول هذا البلد لدرجة الاستعمار هو لكونه كان محلا لسكن الكهنة ولهذا السبب صارت مقدسة وصار رونقها ولطافتها وثروتها تزداد يوماً فيوماً فيأتيها الاهالي من كل جانب ويقدمون الهدايا والنذور وانشأوا فيها معابد عظيمة ومباني كثيرة وزينوها بالذهب والفضة وسن الفيل فكانت تجذب اليها انظار الناس ومن بعد ذلك لم يبق لها اهمية . ثم هجم عليها السودانيين والعمالقة واخيراً العجم ونهبوا ماكان فيها وكسروا اكثر هياكلها وخربوا مبانيها واتخذ الفراعنة مدينة منفيس وجعلوها مقراً لسلطنتهم ومع ذلك لا يزال باقياً فيها كثير من المباني العظيمة والآثار المهمة . وبالجملة فان (امنويس) من العائلة الثالثة حكم جميع القطر المصري وكثير من بلاد آسيا في سنة ٢٠٣٩ ق . هـ . ودامت سلطنته مدة ثلاثين سنة حتى انه ادعى الالوهيـة . ويشاهد على بعض الآثار القديمة صورة فتوحات (طوطميس) الاول وكذا بيـان ولادة وتربية منفيس الثالث ابن طوطميس الرابع . وتوجد على مباني معبد (الدير) اشكال وصورة الوصية التي كانت تلقيها لاخيها الملكة المسماة (خزو) عند فتحها جزيرة العرب . وبلغ هذا المحل ارقى درجة في عهد سلطنة طوطميس الثالث ومنوفيس الثالث

« مدينة الاقصر »

كائنة على بعد خمسمائة خطوة من قوص وتوجد في هذه المدينة ابنية عظيمة وهي مكونة من بلدة الكرنك وقارنة وابو بلدة وبلدة طيبة وكانت مقر حكومة عائلة الفراعنة . ويشاهد فيها كثيراً من بقايا ابنيتهم . ولكن لحد الآن لم يقف المؤرخون على حقيقة مؤسسها . ويستدل من بعض آثارها انها اقدم عهداً من مدينة « منفيس » في زمن حكام الكهنة . ولو ان المؤرخ « تيودور » يدعي ان « مينا » مؤسس بناء منفيس وكذا « مصرايم » هما اللذان اسسا مدينة الاقصر وايضاً المؤرخ « هيرودوط » يقول انها تأسست قبل الميلاد بثني عشر الف سنة لكنه لا توجد ادلة واضحة تثبت قولهم وقد بالغ ايضاً كل من « استرابون » و « اميروس » بانه كان يسكن بهذا البلد ملايين من النفوس وكان لها مئات من الابواب ومئات الالوف من البيوت

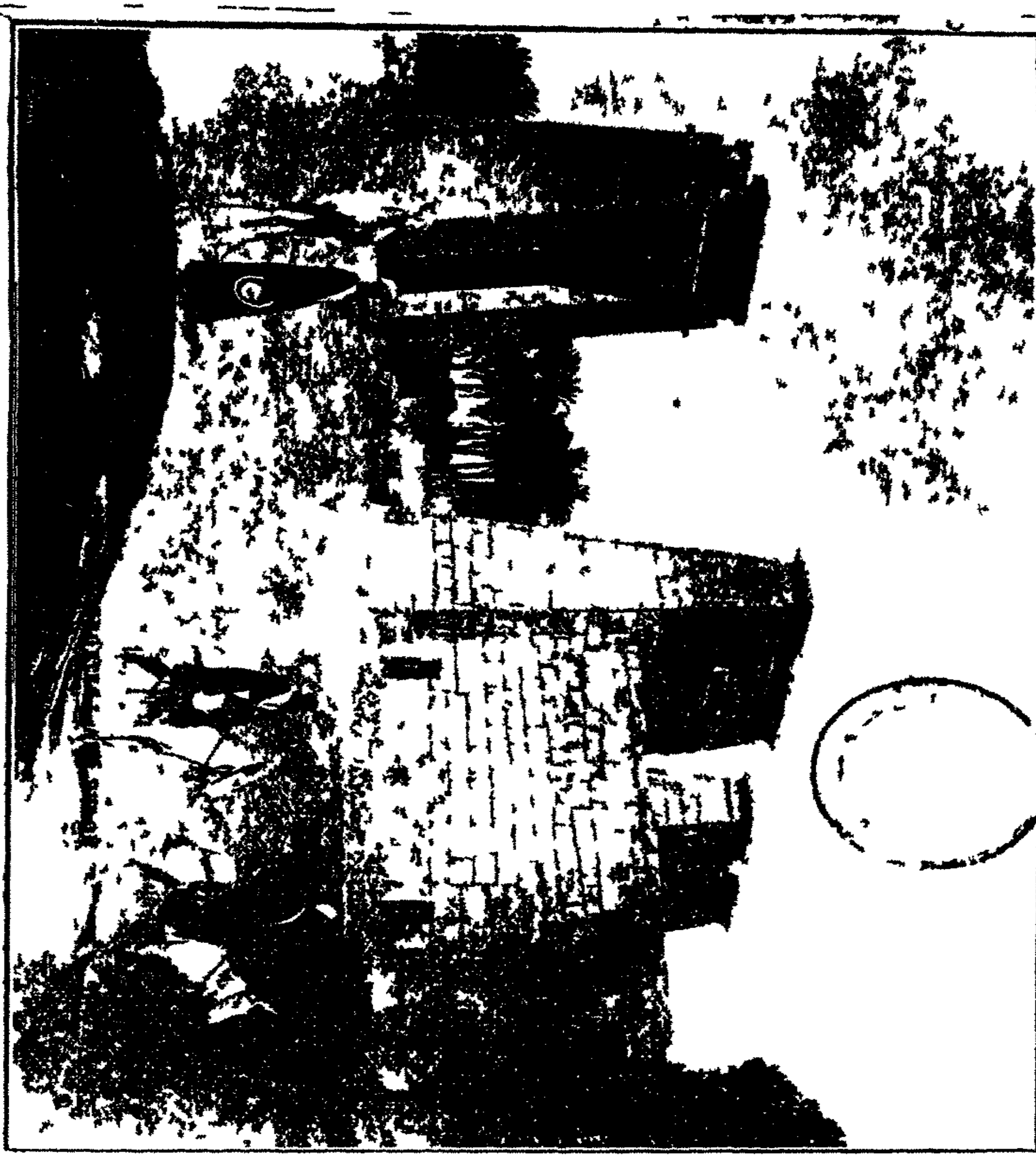


هيكلين فى الاقصر

واذا نظرنا في خراب هذه المدينة على شاطيء النيل ونظراً الى ما بقي من ابنيتها لعلم ما كانت عليه من العظم لانه اذا نظر الى الجهة الشرقية رأى آثار مرتفعة شاهقة وهي الآثار المسماة الآن بالكرنك وبين تلك الآثار سراي الاقصر وتماثيل ابي الهول المرتبة بالانتظام التام والتماثيل الكائنة على جانب الطريق الموصل للسراية

المذكورة وعلى الشاطيء الغربي للنيل في مواجهة سراي الاقصر وأبي الهول سراية القرنة ومن استمر في السير على ذلك الشاطيء صاعداً الى الجنوب شاهد آثار قبر الملك « أوزمندياس » الذي يعزى بناؤه الى « راميس الاكبر » المسمى « سيزوستريس » وبعد ذلك بقليل يرى هيكل ميمون ثم مدينة (أبو) وجميع تلك الآثار عبارة عن بقايا عمارات عظيمة بنيت في اوقات مختلفة وخلاصة ذلك ان في الجهة الشرقية الكرنك والاقصر وفي الغربية القرنة وقبر اوزمندياس ومدينة « آبو » وحول كل جملة من هذه الآثار اطلال سور وذلك مما يحقق قول « استرابون » ان هذه كانت عبارة عن عدة بلاد متقاربة وعلى مسافة مد البصر يرى جزؤها الغربي متصلا بجبل الغرب وفيه مغارات لا حصر لها كانت مقابر للاهالي وخلف هذا الجبل على حذاء السيل وادية قبور الملوك فاذا ثبت هذا الترتيب في حافظتك عرفت ان مدينة آمون التي تسميها اليونان المشترى جزء من تلك المدينة التي على الشاطيء الشرقي وان ما على الشاطيء الغربي هو المدينة المعروفة عند اليونان بمدينة الاموات « نيكوبوليس » وهذا على اعتقاد المصريين ان الجهة الغربية هي جهة الاموات

فاذا صحبتنا في السير بين هاتيك الآثار اطلعناك على كثير منها فتبدأ أولا بالكرنك فتجد به باباً جسيما مرتفعاً ارتفاعاً فوق المعتاد ومع ذلك يظهر للرائي انه لم يتم فاذا دخلنا منه وجدنا في دهليزه اعمدة كثيرة جميعها واقع على الارض ما عدا واحد منها وحول تلك الاعمدة قطع تشبه التيجان والكراسي ورأينا في مواجهة ذلك الباب باباً عظيماً كالاول امام الايوان المسمى بايوان الكرنك احد جهاته مهدوم والصخور التي حصلت من هدمه متراكمة بعضها فوق بعض كجبل مزقته الزلازل وامام باب هذا الايوان تمثال قائم هائل الصورة قد سطت عليه أيدي الهوان فتلفت معالمه وهو صورة (سيزوستريس) والداخل في تلك العمارة عند التفاته لمشتملاتها يحصل له الدهشة والحيرة خصوصاً اذا كان لم يسبق له رؤية مثل هذا الايوان الذي طوله ٣١٩ قدماً وعرضه مائة وخمسون قدماً وله مائة واربعة وثلاثون عموداً كل واحد مثل البرج قطر كل عمود عشرة اقدام وارتفاعه سبعون قدماً وجميعها موضوعة صفوفاً فوق ارض الايوان عليها تيجان ضخمة محيط الواحد منها خمسة وستون قدماً وفوق تلك التيجان سقف من الصخور منقوش بالكتابة المقدسة العتيقة وكذا جدرانه وأعمدته ومن العجيب أن من نظر لهذا الايوان رأى ما بقي منه في غاية من المتانة والحفظ كأنه تم بناؤه بالامس مع انه مضى عليه ما ينيف عن ثلاثة آلاف سنة فيها



باب في الكرك

يوجد مبان للآدميين تقاوم بقوتها الزمن وايدي الناس مثل هذه الابنية وهل لغير المصريين مبان من هذا القبيل بقيت على كيفيتها وحيوتها الاصلية ودفعت بقوتها ما سطا عليها من الاقوام المختلفة كالفرس والعرب وغيرهما ونجت من غائلة جميع الحوادث الدهرية حتى وصلت لعصرنا فما كأنها الا كتب مرسلة من طرف أهل القرون الماضية للقرون الآتية تخبرهم بما في امكان الانسان ان يفعله ثم ان الزلازل التي اطاحت

وجه باب ذلك الايوان لم تؤثر الا في اعمدته الاربعة القريبة من الباب دون غيرها فوقع منها ثلاثة وبقي الرابع على حاله حاملاً ما فوقه فانظر كيف كانت قوة المصريين وماكان غرضهم من مثل هـذا العمل وما قدر المدة التي استحضروا فيها جميع هذه الصخور وما مقدار مدة البناء التي بنوا فيها هذا الايوان وزعم المؤرخون ان هذا الايوان كان معداً للجمعيات العامة وليس معبداً من معابد الديانة وسيتوس الذي هو منفتا الاول على قول شامبليون الصغير هو الذي ابتدأ في بنائه وسيزوستريس الاكبر ابن ستوس المذكور هو المتمم له والعالمون باللغة المصرية القديمة قرأوا ما على الجدران من النقوش واتفقوا على انها وصف وقعات حصلت من سيتوس مع من حاربه حتى ان من تأملها ولو كان غير عالم بهذه الكتابة يرى من غير مشقة رسوم الوقعات فان النقاش قسم الحائط الى اقسام وبين في كل قسم منها واقعة باحوالها ورسم في تلك الاقسام صورة فرعون مصر رسما موافقاً لحالة من احواله فتارة فوق عربته كانه يضرب الاعداء بسهامه فيوقعهم الوفاً حوله في هيآت مختلفة وجعل ماربيت بك في كتابه طول الايوان مائة متر واثنين والعرض نصف الطول وقال ان اقدم ما وجد عليه من خراطيش الفراعنة خرطوش سيتي الاول ويقال له سيتوس الاول من العائلة التاسعة عشرة كان قبل المسيح ١٤٥٠ سنة وقد وجدت به اشارات ربما يؤخذ منها ان سيتي المذكور لم يكن هو الذي بناه وانما يعزى بناؤه الى أميسوفيس الثالث وكان اولا مسقوفاً جميعه وانما يدخله النور من شبابيك توجد آثارها الى الآن انتهى .

ثم ان النقاش كان ينوع في رسم فرعون مصر فتارة يرسمه وعربته وخيوله كبرج من أبراج الحصون المرتفعة والاعداء في حذاء ركبتيه وصدر الحصان مشرف على جيش العدو بتمامه وتارة يرسمه على هيئة شخص قابض باحدى يديه على منحردين من رؤساء جيش العدو ويده الاخرى متهيئة لذبحه وتارة يرسمه على هيئة شخص واضع قدمه على عنق احد الاعداء ليبحره وتارة يرسمه على صورة بحر خائفه الامم التي استحوذ عليها وفي قبضته جملة من أمرائهم يفعل بهم كما يفعل بالطفل وفي نفس الوقت يظهر على الاعداء صورة الطاعة والامتثال وترى امام جيوشه اصورة كأنهم يقطعون بانفسهم غابات بلادهم لتخليص الطريق لهم وترى صورة الامراء من جميع الطوائف امام ركابه في غاية من الخضوع والامتثال وكان كل طائفة تؤدي ما يجب عليها لسيدته من التبجيل والاحترام الى غير ذلك من الاحوال مع غاية احكام الصنعة ودقتها وهذا مما يدل على ان المصريين بلغوا النهاية القصوى في إحكام صناعة الرسم

وغيره وقد قرأ مريبت بك ما وجده منقوشاً على الحائط البحري للايوان فمن مضمونه أن الملك سيتى حارب عدة جهات من بلاد اسيا كالارمنت والعراقيين وعرب الصحارى المسمين قديماً بالشاذو ورأى في النقوش ان هذا الملك على عربته داخلا في وسط المعمعة وان اعداءه وهم الشاذو منهزمون وسهامه واقعة فيهم وكأنهم في انهزامهم يدخلون قلعة كنعانة ورأى انه في واقعة ثانية يحارب في بلاد (خارو) وان الاعداء يقعون قتلى بسهامه وخارو جهة من جهات مصر وفي واقعة ثالثة يرى انه يحارب العراقيين المسمين في اللغة القديمة (الرتنو) وان الاسرى منهم يقدمون الى مقدسي طيبة وان الملك بعد نصراته دخل مصر وانه مرّ بجملة قلاع ولما وصل الى قلعة (يننوم) وامامه الاسرى قابله امراؤه المصريون بقرب نهر به كثير من التماسيح وهنأوه بالسلامة انتهى . ووجد شامبليون الصغير على احد جدران الكرنك عبارة باللغة القديمة دالة على صحة ما قرره من المعاني التي كشف بها الحجاب عن الكتابة المقدسة وهذه العبارة مكتوبة على صدور طائفة من الاعداء مرسومة صدورهم في الحائط القبلي للايوان بكيفية يرى منها ان فرعون مصر يقودهم الى امام معبوده وفيها اسم بلده والامة التي هو منها ومكتوب على صدر آخرهم (جودا ملك) ومعنى ذلك بالعبراني (يهوذا) فان قلت كيف وجدت هذه الكلمة العبرانية مكتوبة بالحروف المصرية القديمة مع ان هذه اللغة ليست بعبرانية قلنا لا غرابة في ذلك الا ترى انا نكتب بحروفنا العربية كلمات افرنجية وتركية وهندية وهكذا في ترجمة التوراة ان ملك مصر سيزاك الذي هو سيزونك المكتوب على حائط ايوان الكرنك تغلب على الفرس واخذ الملك « روبعام » أسيراً ومن هذا يظهر أن ملك مصر استولى على ارض الفرس من ضمن البلاد التي تغلب عليها فقد حصلت موافقة تامة بين المذكور في ترجمة التوراة والمسطر على جدران المباني العتيقة وما فيهما مطابق لما هو مذكور في جدول « مانيتون » وعنده ان فرعون مصر سيزوستريس وهو سيزاك المذكور في الكتاب المقدس او سيزونك المكتوب على جدران المباني العتيقة وكان ذلك في القرن العاشر قبل الميلاد ومن هنا يؤخذ مبدأ وضع مدد الحوادث التي اتت بعد ذلك

وقال مريبت ان على الحائط الجنوبي للايوان من جهة الخارج كتابة جديد بالاعتناء تنعى بخصوص واقعة حربية في بلاد فلسطين حصل فيها نصرة للملك سيزاك اول ملوك العائلة الثانية والعشرين وفيها يرى سيزاك رافعاً يده كأنه يضرب الاسرى الجاثين تحت اقدامه وفي جهة الشمال يرى أمون مقدس مدينة طيبة وصورة امرأة

هي رمز للبلاد القبلية وبيدها جعبة السهام والقوس ودبوس الحرب وكلاهما واقف امام الملك وبقربه نحو مائة وخمسين انساناً كأنهم ينظرون من قلعة او مدينة ويعشون خلف



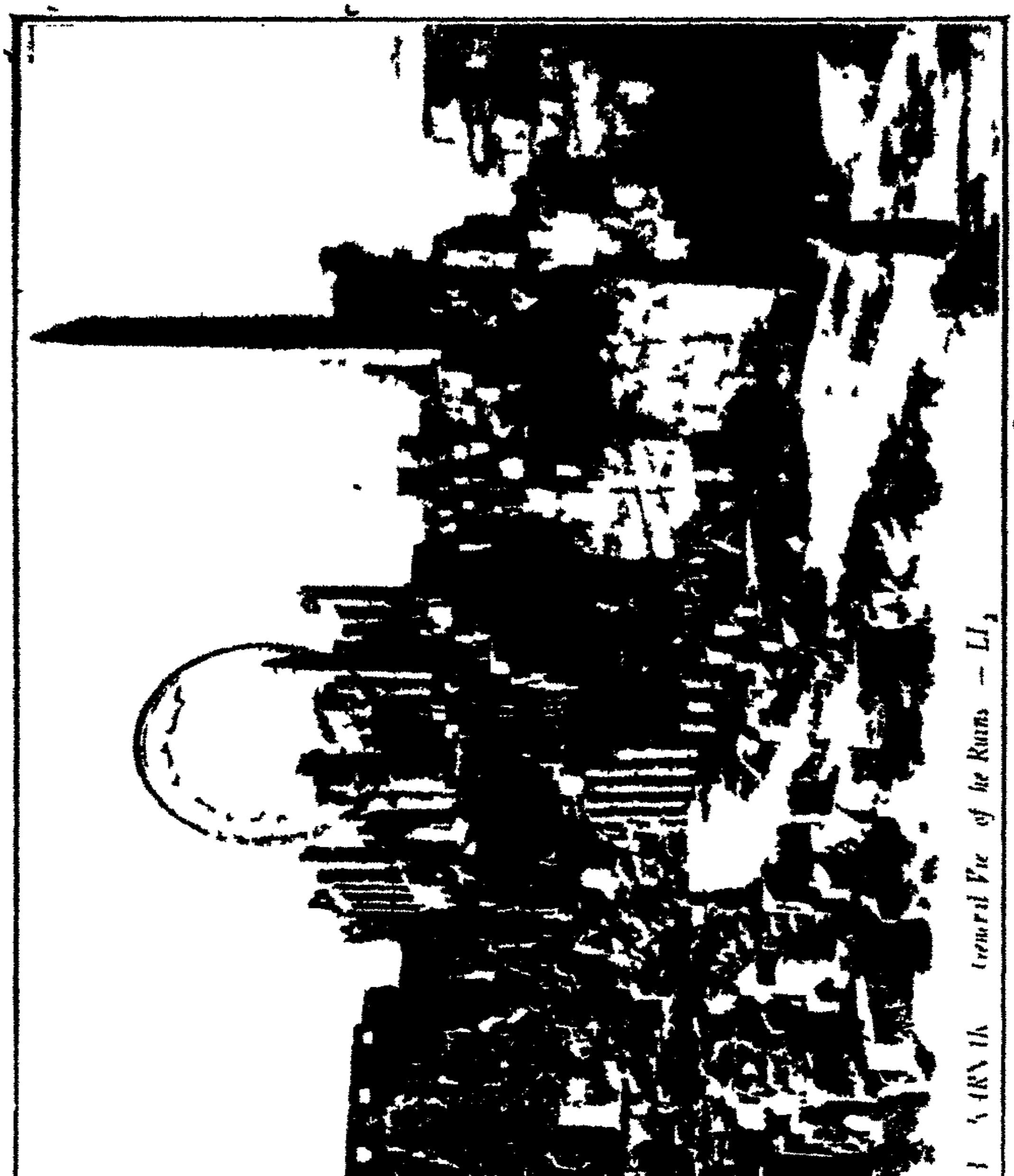
الهياكل الموجودة في الكرنك

المقدسين وفي النقوش معنى ذلك ان الآلهة المقدسين قد جلبوا ما في البلاد والمدن التي تغلب عليها الملك وفتحها ويهدونها له وان في الخرطوش التاسع والعشرين كما قرأ شامبليون جودا ملك واستنبط من الرأس المرسوم فوقها انها صورة الملك جودا الذي غلبه سيزاك

ولكن الذي يظهر من مباحث بركش ان اسم جودا ملك ككثير من الاسماء انما هو اسم لجهة من بلاد فلسطين وعلى هذا فلا نجزم بأن هذه صورة جيروبعام ثم ان المائة وخمسين صورة المرسومة تشير كل واحدة منها لقبيلة من الامم التي تغلب عليها هذا الملك وعلى الحائط المتقاطع عمودياً مع هذا الحائط لوحة كبيرة في نهايتها الشرقية عليها قصيدة شعرية قالها بنطور الشاعر يمدح بها رمسيس الثاني بعد محاربته للقوم المعروفين بالخيتاس وفي نفس الحائط رقوم يقرأ منها شروط الصلح بين خيتاس ورمسيس في السنة الحادية والعشرين من سلطنته انتهى . ويوجد في الكرنك بعد هذا الايوان مبان أخر بعضها متخرب وبعضها آيل للخراب الا انها ليست مثله في الفخامة ومما يمتاز من تلك المباني بحسن الكتابة والنقش المسلة التي على يسار الخارج من الايوان المذكور وتنسب الى ملكة كانت قامت باعباء الملك نيابة عن اخيها طوطموزيس وصورتها مرسومة على هذه المسلة كصورة رجل وجميع العبارات المكتوبة على المسلة متعلقة بهذه الملكة واسمها في الكتابة بنت الشمس وانما رسمت على صورة رجل لان شرف الديانة المؤسسة عليه الحكومة كان يمنع من ان تكتب صورة امرأة على الآثار برسم انها ملكة

وقال مرييت ا ن هذه المسلة تنسب الى الملكة (هتزو) من العائلة الثامنة والعشرين وهي من الملوك المشهورة تستحق الذكر في أكابر الملوك وان هذه المسلة أكبر مسلة صار العثور عليها الى الآن فانها كانت ثلاثة وثلاثين متراً وعشرين جزءاً من مائة من المتر بخلاف غيرها فان ارتفاع مسلة عين الشمس عشرون متراً وسبعة وعشرون جزءاً من مائه من المتر وارتفاع المسلة المنقولة من الاقصر الى باريس اثنان وعشرون متراً واربعة أخماس متر ومسلة رومة التي في ميدان بطرس خمسة وعشرون متراً وثلاثة عشر جزءاً من مائة من المتر والمسلة الموجودة في ميدان (ماري جان) اثنان وثلاثون متراً وخمسة عشر جزءاً فلم تساو واحدة منها هذه المسلة وكان محورها هو محور المعبد نفسه بالضبط والتحرير وهذا مما يثبت ان المصريين كانوا يستعملون وسائط ميكانيكية وعلى قاعدة المسلة سطر أفقي يؤخذ منه اولاً ان رأس المسلة كان مكسواً بالذهب الخالص المكتسب من الاعداء وربما كان المراد من ذلك الكرة التي على رأس المسلة في صورة هرم صغير ويؤخذ ثانياً من الدقة والصقل الذي في الكتابة انها كانت جميعها مذهبة وثالثاً ان هذه المسلة والمسلة الثانية المكسورة قد تم عملهما في سبعة أشهر من ابتداء قطعهما من الجبل الى آخر العمل انتهى .

ثم اذا دخلنا الخرائب نصل الى أمكنة بنيت قبل الايوان بقرون فهي أقدم المباني في جهة الكرنك وهي معابد فراعنة العائلة الثامنة عشرة وهناك فرعون من فراعنة

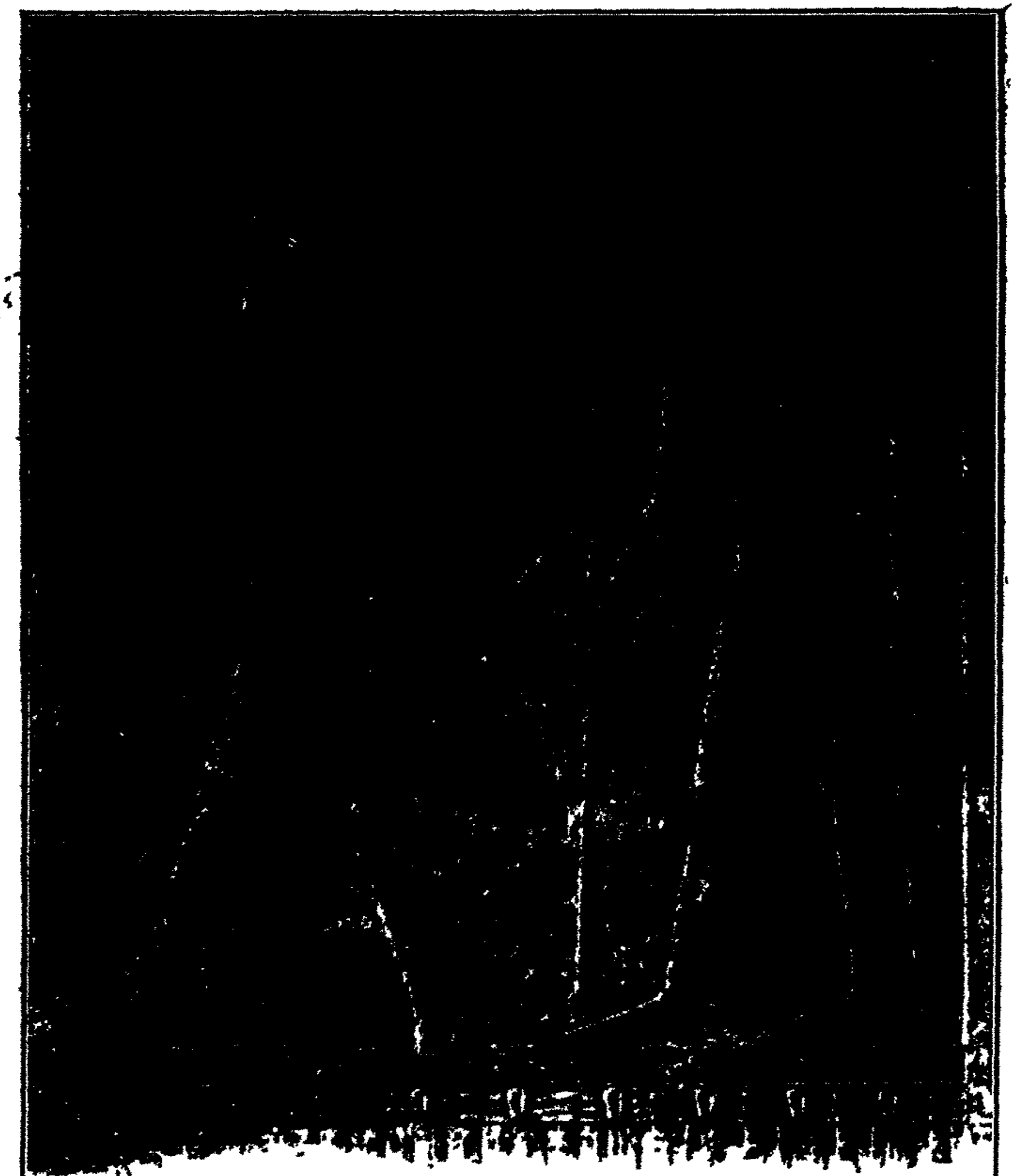


خرائب مدينة الكرنك

العائلة الثانية عشرة اسمه (أوزورتزان) الاول كان من ارباب السطوة قبل العرب الذين ملكوا مصر واسمه منقوش على عمد باقية لم تؤثر فيها حوادث الدهر وآثار هذه

المدة قليلة لكنها مفرحة لانها تدل على أعمال جليلة في زمن بعد مدة الاهرام بأعصر عديدة ومع ذلك فالمؤرخون اطلقوا عليها اسم المملكة القديمة وذلك النسبة للمدة التي انشئت فيها مباني طيبة لان هذه المباني كانت قبل الميلاد بخمسة عشر قرناً وهذه العمد المكتوب عليها اسم فرعون اوزورتزان ومسلة عين شمس التي هي من جملة عمله كما يدلان على علو درجة المصريين في الصناعة والعلوم ويدلان ايضاً على انهم في وقت دخول العرب ارض مصر كانوا في أعلا درجة من الثروة والابهة وذلك ان هؤلاء العرب لم يتركوا بناء من غير أن يخربوه فتارة يمحى أثره بالكلية وتارة تبقى منه بقية وكان ذلك دأبهم خمسة قرون متوالية وبعد نزع الارض من أيديهم حدثت مبان وشيدت سرايات ومعابد فاخرة لم تزل آثارها باقية الى الآن يتعجب منها كل من رآها ففي المدة التالية لخروجهم من مصر حصل الاعتناء والدقة في المباني والزينة والزخرفة وكثرت الرغبة في الرونق والبهجة بخلاف المدة التي تلت ذلك فان الرغبة كانت في العظم والمتانة فقط وهذا بخلاف المعهود الجاري على الطريق المألوف في الحرف والصنائع من ان الرغبة في المتانة تكون اولاً ثم الزخرفة تكون بعد ذلك والحق ان مدة العظم الاكبر وهي وقت بناء الاهرام وأبي الهول الموجود تحت الهرم الكبير الذي هو على صورة طوطموزيس الثالث كانت سابقة على مدة الزخرفة المذكورة وهذا ينتج ان الناس في ذلك الوقت كانوا يرغبون في التعظيم أيضاً لانه قد عمل اذ ذاك تماثيل هائلة وامور أخر مثل المسلة الموجودة في رومة فانها تعزى الى هذا الفرعون وكذا سرايته المسماة باسمه فهذه الابنية لو قورنت بغيرها لفاقته عظماً ما عدا ايوان الكرنك فانه ليس هناك بناء يقرب منه ثم انه كان باحدى زوايا هذه السراي قاعة تسمى قاعة الكرنك قد نقلت الى باريس بعد العناء الشديد والمشقة الزائدة بواسطة السياح الفرنسويين ويقال ان لبسيوس البروسياني بحث عنها وكان قصده نقلها الى وطنه لتحفظ به ولا تكون عرضة لغائلات الدهر وعلى جدرانها صورة فرعون مصر طوطموزيس الثالث يقدم قرباناً لعدة من الملوك السابقين عليه وصوراً أخرى وكلها ملحقة باسمه فهي أثر من الآثار الجليلة دال على أسماء فراعنة سابقين على العائلة الثالثة عشرة فهي بلا ريب عبارة عن سلسلة أجداده فحينئذ بمساعدة ذلك مع ما هو مذكور في الملف العتيق المحفوظ الآن بخزانة الآثار بمدينة تورين تحت البروسيا يمكن الوصول الى ترتيب سلسلة الفراعنة بطريق منتظم ثم اذا سرنا من ايوان الكرنك نحو الجنوب نجد أبواب أربعة بعضها داخل بعض على أبعاد معينة والثالث منها يقال له باب (هوروس) احد فراعنة

العائلة الثامنة عشرة وهو ممن جعلوا جل رغبتهم الزخرفة واتقان الصنعة فلذا لم يكن ادق من النقوش الموجودة على جدران هـذا الأثر الا أنه يخشى عليه من أيدي



هورس امام انوبيس

الفلاحين لانهم يرون ان اخذ الاحجار منه أهون عليهم من قطعها من الجبل وأخذ الحجارة من الآثار القديمـة هو دأبهم في كل زمن وهذا هو السبب في عدم العثور

الآن على ما يكمل به تاريخ الديار المصرية ومع ذلك فقد انكشفت اسماء كثيرة للسياحين كانت مجهولة واضيفت لما وجد سابقاً على احجار عثر بها الفلاحون وبقرب هذا الايوان معبد باسم المقدس خونس الذي جعلته اليونان (هيرقول) وقد حفر هناك السائح الفرنساوي الكبير المذكور آنفاً فاظهر اثنتي عشر قاعة على واحدة منها صورة مقدس له سبعة رؤوس ولم يوجد نظير ذلك الى الآن في سلسلة مقدس مصر فلعله غريب ليس من هــذه البلاد وقد وجد ايضاً معبد قرب سراي الكرنك تحت الارض مكتوب عليه اسم ملك من ملوك الحبش اسمه (طراكا) ولعله المعروف في ترجمة التوراة باسم طراش ووجـد في معبد خونس المتقدم رسوم تدل على الغارة التي حدثت عقب مدة رمسيس وان بناءه كان في مدة من ورث مصر من ضعفاء الفراعنة بعد رمسيس الاكبر الثاني الذي يشتبه على المؤرخين برمسيس المشهور باسم سيزوستريس ويقرب من اسماء هؤلاء الضعفاء ما وجد من أسماء عائلة من الكهنة يظهر انها تغلبت على ملك الفراعنة وعوضت السلطنة الملوكية بالسلطنة الدينية وصار بيدهــا الحل والعقد وأقدم هؤلاء الكهنة وضع اسمه بين أسماء الملوك وهو ما يسميه المؤرخون بالكارتوش من غير تعرض للقب الملك ومكتوب في معبد المقدس أمون ان اسمه الكاهن الاكبر وقد استكشف بعض السياحين في ركن من أركانه ان هــذا الخائن تلقب بلقب الملك في بعض الامور ومن هــذا يعلم ان طائفة القسيسين مترقبة لنزع السلطنة من الطائفة العسكرية ليستحوزوا عليها وتكون فيهم سلسلة السلطنة على ديار مصر بعد الرمامسة فاستعملوا الحيلة في ذلك حتى وصـلوا الى مطلوبهم ثم انه يشاهد في المعبد أثر قدمين عليهما كلمات مكتوبة بالحروف العادية التي كانت تستعملها الاهالي يستدل بها على ان الناس كانوا يحجون اليه بل بعضهم استدل بها على ان الحجاج كانوا يأخذون بعض اتربة من الصخرة التي عليها صورة القدمين على سبيل البركة كما تأخذ الناس الآن بعض اتربة من صخرة في بلاد الايرلاندة لاعتقادهم ان احد المقدسين دفن في هــذه الصخرة وهناك امرأة لا وظيفة لها غير حك الصخر وبيع ما تحلل منه على الحجاج ومهما وجه الانسان وجهه يرى آثار سرايات ومعابد وهياكل وثلاثة ابواب احدها في الجنوب والثاني في الشرق والثالث في الجهة البحرية وكلها حول الايوان الذي فيه مائة واربعة وثلاثون عموداً ومسلتان قائمتان في وسط تلك الاعمدة كاملتان لم ينقص منها شيء فعلم مما سبق سلسلة حوادث تاريخ الديار المصرية في ظرف عشرين قرناً متوالية ولكننا لم نعثر على آثار في الكرنك تدل على حوادث

مدة الاهرام او المدة العتيقة انما دلتنا هـذه الآثار على ان العرب تغلبوا على مصر واقاموا بهـا خمسمائة عام ثم اخرجهم منها الفراعنة المعروفون بالرمامسة وهم فراعنة العائلة الثامنة عشرة وفي مدة اشتغالهم بطردهم تأسست سراية طوطموزيس الثالث في محل المعبد القديم الذي ازالوه ومن هذه المدة اخذت المباني في الرونق والبهجة ثم في زمن رمسيس بني الايوان الهائل العجيب المنظر ونقش عليه وقعات فتوحاته ونصراته وعقب ذلك استوات على الملك طائفة القسيسين زمناً قليلاً ثم استولت بعدها عائلة من عائلات الملوك وأغارت على ارض البابليين وأسر ملك يهوذا احد ملوك المصريين من هذه العائلة ثم بعد ذلك هجمت الفرس على أرض مصر فدفعهم عنها فرعونها اميرتيـة ثم دخل الاسكندر التي ادّعى المصريون انه ابن نكتانيبو وادعت الفرس انه أخو دارا ثم استولت البطالسة على ملك الفراعنة والثلاثة الابواب التي تقدم ذكرها تعزى الى هؤلاء البطالسة وقد وجد اسم القيصر مكتوباً بجانب اسم رمسيس الاكبر. هذا مجموع ما دلت عليه الآثار المنتشرة حول القرية الصغيرة المعروفة بالكرنك ومن الزاوية الجنوبية الغربية بتلك القرية تمتد طريق في طرفها صورة ابي الهول الى جهة الجنوب وبعد الفي متر تقريباً تصل الى سراية الاقصر والغالب ان هذه الطريق هي التي كانت تسير فيها المواكب في المواسم ونحوها ثم ان صورة ابي الهول كانت عند المصريين السابقين علامة على العظمة والامارة ومما ينبغي التنبه له انه اذا كانت هيئة رأس الصورة كهيئة رأس الآدمي دلت على السلطنة واذا كانت على صورة رأس الجمل دلت على المقدس أمون وعلى القدرة الالهية وبالقرب من القرية المذكورة استعوض يدل صورة أبي الهول كباش على صدورها طوطموزيس الثالث على هيئة المقدس اوزوريس واما الآثار القديمة الباقية من عمائر الاقصر فانما توجد داخل بيوت اهل تلك الجهة بخلاف آثار الكرنك فانها بجنب البيوت وآثار الاقصر كآثار الكرنك من حيث ان كلاً منهما عبارة عن مباني بنيت في أعصر مختلفة لكن آثار الاقصر أقل من آثار الكرنك وتاريخها أبسط وجميعها منقسم بين المدتين اللتين اقيم فيهما مدينة الكرنك وأقدم ذلك ما بني في زمن امينوفيس الثالث المسمى عند اليونان ميمون وتماثيله قائمة في الجانب المقابل للنيل وهذه القرية بناهـا هذا الفرعون الذي هو من عائلة طوطموزيس وما فيها من الكتابة مخصوص بولادته وتربيته في حماية الاله ويوجد بجانبها البحري دهليز من اعمدة نصبها من تولى الملك بعده مجعولة طريقاً موصلاً للسراي التى بناها رمسيس الاكبر وفي هذه العمد تشاهد العظمة والابهة كما في ايوان

الكرنك وهذه السراي تشتمل على فضاء سعة الفان وخمسمائة متر مربع يحيط به



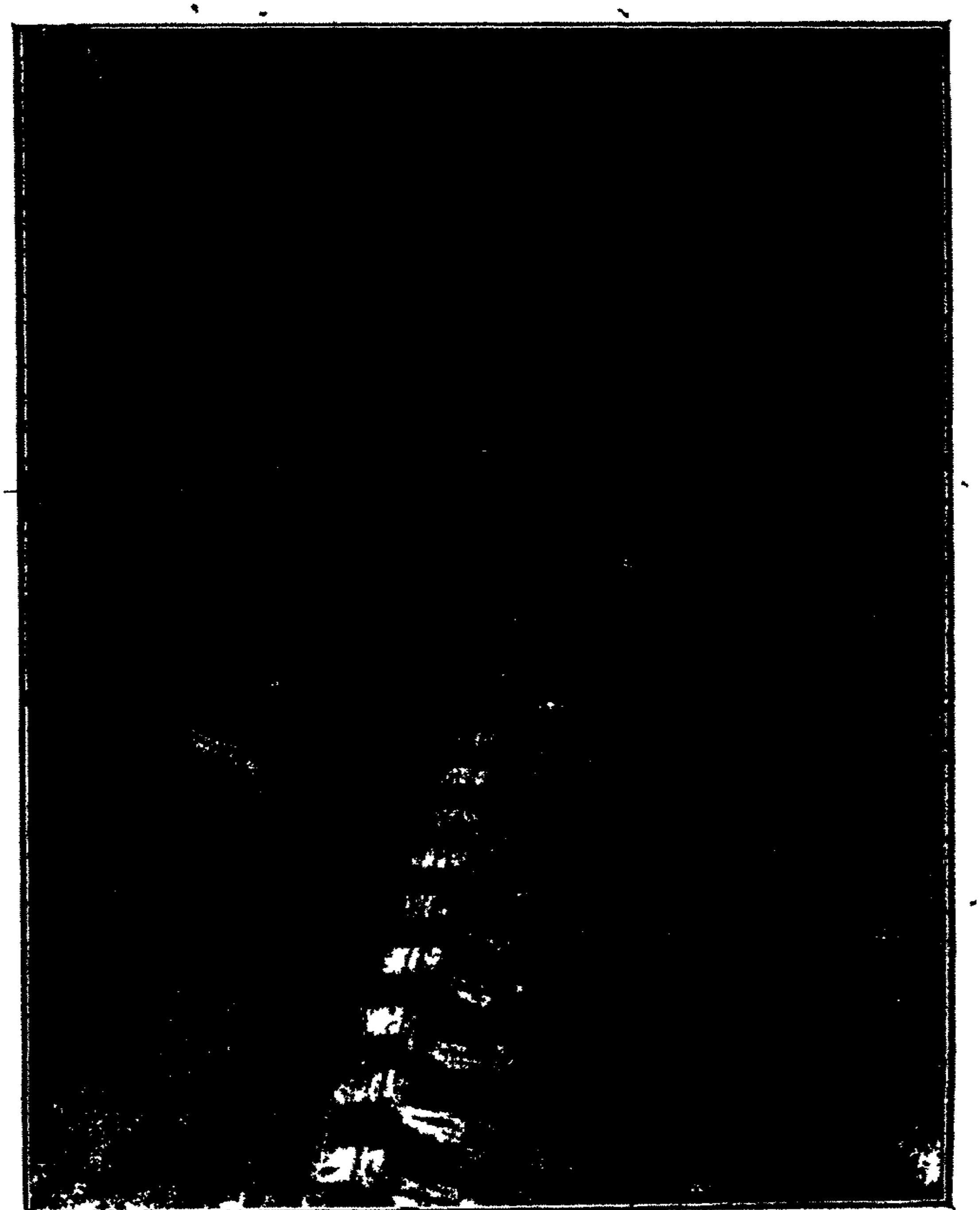
هيكل رامسيس الثاني

دهليز مغطى وأمام الباب الموضوع في اول مدخل لهذا الفضاء المسلتان اللتان نصبهما

رمسيس المذكور احداهما قائمة للآن في محلها والاخرى قد نقلت الى احد ميادين باريس عاصمة الديار الفرنساوية ثم ان المسلة عند المصريين كانت اشارة الى البقاء كما ان أبا الهول كناية عن العظمة والقدرة ولذلك لا توجد المسلات دائماً الا امام الايوان ومكتوب على أوجه هذه المسلة العظيمة التي هي قطعة واحدة ووزنها ثمانية آلاف قنطار أن رمسيس الثاني هو ابن الشمس ومحبوبها وهو اله الخير وملك الدنيا وقاهر الامم الى غير ذلك من الاوصاف الفخيمة وانه زين مدينة طيبة بالمباني الباقية العظيمة ويوجد قريباً من الباب بجانب المسلة أربعة تماثيل ارتفاع الواحد منها ثلاثون قدماً وهي صور رمسيس المذكور وقد زحف الرمل عليها ودفن اغلبها ولم يبق منها الا الصدر والرأس ومسطور على وجه الباب فتوحات فرعون ونصرته تقليداً لما فعله والده في سراية الكرنك ويعلم من هذه الآثار انه حصل ترميم في هذه المباني قبل مدة العائلة الثامنة عشرة والعائلة التاسعة عشرة ومما يستغرب في ذلك ان ملك الحبشى الاصلي سابافوو اجرى مرمة واجهات الباب في القرن الثامن قبل الميلاد ثم ان الاسكندر الذي وجد اسمه مكتوباً في نقوش سراية الكرنك وجد هنا انه عمل مرمة سراية الاقصر يعني سراية امينوفيس . وقال شامبليون الصغير ان الاسكندر هذا هو ابن الاسكندر الاكبر وليس اخاه ولا يوجد في الاقصر أثر لليونان ولا للاروام يعني قياصرتهم . هذا ما اطلعنا عليه في البر الشرقي وبقي علينا ان نطلع على ما في البر الغربي فنجوز البحر اولاً ثم نصعد الى الجهة القبليـة حتى نصل القرية المعروفة بالقرنة وهي من العمارات العتيقة التي تعزى الى رمسيس وهي في العظم أقل من سراية الكرنك وسراية الاقصر والموجود من هذه السراية بابان منعزلان وطريق مزين من طرفيه بصور الاسفينكس

واذا وصل الانسان الى العمارة رأى دهليزاً طوله مائة وخمسون قدماً وفيه عشر اعمدة ضخمة وايواناً صغيراً على ستة اعمدة بني مع بناء الايوان الذي في الكرنك ويعزى الجميع الى سيتوس وولده رمسيس والنقوش الموجودة على الجدران يفهم منها تعظيم فرعون للآلهة الذين وصله الملك منهم بدون واسطة الكهنة وهذه العبارة لا توجد في غير هذا المحل وهي من المهمّ بالنسبة لتاريخ هذه الاعصر لدلالتها على تداخل الكهنة في امور المملكة ويؤخذ منها أيضاً ان فرعون كان ملكاً وكاهناً وان الاله كان يخاطبه بقوله قد وهبناك القوة والعظمة والنصر وغير ذلك وكثيراً ما يرى الملك وبجانبه المقدس المعبود وهذا مما يدل على ان الامر كان مشتركاً بينهما

وأما العمارة المشهورة عند المؤرخين بقبر(اوزمندياس) فنذكرها لك باوضح بيان فنقول ان (ديودور الصقلي) ذكر في مؤلفاته ان هذه العمارة مقدار اربع عمارات من



الاسفنكس

عمائر طيبة العظام في السعة وانه كان بها دائرة فلكية من الذهب الخالص محيطها ستمائة قدم وسمكها قدم وكان بها ايضاً كتبخانة مكتوب على بابها غذاء الروح وقد

أنكر كثير ممن لهم معرفة باللغة المصرية القديمة كون هذه العمارة هي قبر (أوزمندياس) وما ذكره ديودورمن ان الدائرة الفلكية كانت من الذهب الخالص استبعده المتأخرون لكن ديودور قد ساح في هذه الارض في الزمن العتيق وبنى ما قاله على المشاهدة والعيان بخلاف المتأخرين فانهم بنوا كلامهم على الظن بسبب كون هذا الامر خارقاً للعادة وربما أيد قول الصقلي عدم المشابهة بين تلك المباني القديمة الموجودة الآن وبين المباني التي تصنع في وقتنا فان بينهما بوناً بعيداً بحيث لاتمكن المقارنة بين اعمالنا واعمال قدماء المصريين وهذه العمارة المعروفة بالقبر كان جزء منها سراية للسكنى وجزء كان معداً للعبادة وقال بعضهم هي سراية مثل السرايات التي بنيت في زمن العائلة الثامنة عشر والتاسعة عشر على شاطئ النيل وتلك السرايات عبارة عن عدة حيشان وأواوين يحيط بها أعمدة هائلة مصوّر عليهـا فرعون مصر بصور مختلفة فتارة على هيئة عابد متلبس بالعبادة ومرة كأنه يقرب القرابين وطوراً كأنه جالس مع الآلهة وكأن الاهالي تعبدهم وحيناً كأنه يشن الغارة على البلاد ويقهر العباد ويسلب الاموال ويسوق الاسرى وما أشبه ذلك وفرعون مصر رمسيس مصور كأنه جالس على تخت ارتفاعه ثلاثة وحسون قدماً وطول قاعدته يزيد على اثنا عشر قدماً والصاعد على ظهره كأنما يصعد فوق صخرة من جبل وايوان هذه السراية يظهر منه الرونق والظرف والدقة وفيه ثلاثة اعمدة في غاية الحسن تنشرح النفس عند رؤيتها وعلى احد جدرانه أسماء اولاده الذكور الثلاثة وعشرين وأما اسماء بناته الثلاثة عشرة فوجدت منقوشة في معبد ببلاد النوبة وفي جهة أخرى من الايوان كتابة قرئت فوجدت ترجمتها : هذه السنة الرابعة والستون من سلطنته . وفي هذا دليل على طول عمره وكثرة فتوحاته ونصراته في البلاد الشاسعة وكثرة الجهات التي تغلب عليها وادخلها تحت طاعته ومنه ايضاً يثبت ما قاله مؤرخو الروم وغيرهم من شهامته وعظيم سلطانه وسطوته وصورته مرسومة على احد أبواب السراية والقسيسون يعظمونه ويقربون له تماثيل ثمانية عشر فرعوناً من السابقين من ذلك التمثال منيس مؤسس ملك الفراعنة وتمثال رمسيس الثاني يعني تمثال نفسه وقد استدلوا بذلك على انه قبل زمنه حصـل تغلب ثمانية عشر عائلة على تخت الديار المصرية في مدة الفين وخمسمائة سنة من جلوس منيس على التخت وان عائلته أولى بالجلوس على تخت آبائه واجداده . وقال مرييت ان هذا القبر يسمى الرمسيوم ويسمى سراية ممنون وان بانيه هو راميس الثاني بنـاه على نسق ما كان يعمل في الازمان السابقة وكتب عليه صفاته واحواله ووقعاته ليطلع عليها من

رآها بعد موته الى آخر الزمان وكان ذلك جارياً في كثير من القبور ففي بني حسن قرئ على بعض احجار قبورها ان أميني أمينمها يقول اني لما كنت رئيس المشاة تغلبت على النوبيين ولما كنت مدير مديرية (صا) كنت شفوقاً على الارامل والاطفال ونحو ذلك وقد قرئ على جدران الرمسيوم صفة حوادث تاريخية ووقعات حربية في بلاد الشام على شاطئ نهر الاردن وفي احدى الوقعات ان رمسيس المذكور يحارب جملة قبائل اسمها العام الحطاثين وان المدينة القريبة من الوقعة هي مدينة عطيش وان الاعداء محيطة به وقد فارقه رجاله فلم يكترث بهم ولم يبال بجمعهم وهجم بمفرده عليهم فقتل رؤسائهم وشتت جموعهم وغرق اغلبهم في النهر وانتصر بمفرده نصرة تامة على جميعهم وهذه الواقعة مرسومة على الباب الاول للرمسيوم فتارة يرى في حالة الهجوم واعداؤه في حالة الانزعاج والخوف وتارة ترى الاعداء تحت العربات وارجل الخيول والبعض أصابته سهام الملك وقتلته وفي لوحة اخرى يرى الملك على تخته والامراء قد حضروا لتهنئته بالنصر وهو يوبخهم على فرارهم وتركه بين الاعداء بمفرده وصورة هذه الواقعة هي التي شرحها بنطاوور في شعره وكان تمثال رمسيس المذكور موضوعاً امام الباب وهو قطعة واحدة من الصخر ارتفاعها سبعة عشر متراً ونصف ووزنها مليون ومائتان وسبعة عشر الف وثمانمائة واثنان وسبعون كيلو غرام وقد سطت عليها ايدي الزمان فكسرتها وعلى واجهة الباب في الجهة المتكئ عليها التمثال صورة واقعة اخرى لرمسيس مع الخيتاس انتهى . وعلى بعد قريب من السراية توجد ارض متسعة مغطاة بالحشائش وقطع شتى من الصخور وبعضها قطع أعمدة وبعضها على هيئة الواح مستطيلة منها ما شكله مكعب ومنها غير ذلك واغلبها مغطى بالطين والرمل وهي آثار سراية ميمون الشهير عند المؤرخين باسم أمينوفيس الثالث احد فراعنة العائلة الثامنة عشر وكان لهذه العائلة سراية اخرى في البر الشرقي من النيل قد هدمت ولم يبق منها الآن غير التمثالين اللذين في وسط ارض طيبة أمام باب السراية متقابلين بوجهيهما وارتفاع كل منهما تسعة عشر متراً وستون جزءاً من مائة من المتر بما فيهما من القاعدة وهي اربعة امتار وكل منهما حجر واحد وهما تمثالا الفرعون امينوفيس المذكور احدهما في الجهة القبلية وثانيهما في الجهة البحرية وعنده تمثالان ملاصقان لقاعدته وهما تمثالا أمه وزوجته كما قال مرييت بك وهو الذي له الشهرة العظيمة بسبب الصوت الذي كان يسمع منه كل يوم عند طلوع الشمس وكان يعرف عند مؤرخي اليونان بتمثال ميمون ووجد على ساقه الايمن اثنتان وسبعون عبارة باللغة اللاتينية والرومية بعضها

شعر وبعضها نثر ولا يمكن من قراءتها الا بالصعود على درجة هناك سمكها متر واحد وهذه الكتابة بعضها كتبه الزائرون لهذا المكان من الاهالي شهادة منهم بسماع الصوت من ذلك التمثال ومنهاما كتبه بعض السلاطين والامراء الذين شاهدوا هذا المحل وكل من كتب عليه شيئاً ذكر اسمه فمن ذلك اسم القيصر أدريان واسم زوجته سابين ومنها ما لا فائدة فيه يعتد بها وفي بعض العبارات المكتوبة انه اتفق انقطاع الصوت في وقته الذي يحصلُ فيه فاقتضى الحال رجوع بعض الناس عدة مرّات لسماعه وكان حصوله دائماً في فصل الخريف والشتاء والربيع فلذا كان غالب الكتابة من السياحين الاجانب لانها اوقات سياحتهم الى الآن وبعض الناس تكلم على سبب هـذا الصوت بعد ثبوته بشهادة اثنين وسبعين رجلاً مابين قياصرةٍ وامراء ثقات فقال ان اول حدوثه كان في زمن نيرون قيصر الروم وسبب ذلك ان التمثال كان قد انكسر من زلزلة حصلت فصار يخرج منه الصوت عند طلوع الشمس بعد ان كان لا يسمع منه شيء اصلاً ويدل لذلك انه في مدة القيصر (سبتيم سوير) أمر بجبر كسره لشدة ميله لديانته فأصلح فانقطع الصوت منه بالكلية من ذلك الحين وصار لا يزار ولا يكتب فوقه شيء لا شعر ولا نثر فلم يزده الاصلاح الاّ عدم احترام الناس له وقال مرييت ان الزلزلة التي حصل منها هـذا الصوت كانت قبل الميلاد بسبع وعشرين سنة وبينها وبين اصلاحه الذي انقطع به صوته قرنان من الزمان انتهى . والحامل على تسميته ميمون باليونانية انه كان فيمن تعرض لاسمائهم اميروس في اشعاره بشجاع مسمى بهـذا الاسم واسم والده الغلس وان ملكاً من ملوك الحبشة سمي بهـذا الاسم ايضاً فرأوا أن الديار المصرية ربما كانت لا تخلو من وجود هذا الاسم فيها فبحثوا عنه في جميع جهاتها ونواحيها فوجدوا في مدينة طيبة في المحل الذي به التمثال حارة مسماة (بيمنونيوم) فاختصروه وجعلوه ميمون وسموا به ذلك التمثال ثم ان هذا الصوت انما كان يحصل من تعاقب حرارة النهار ورطوبة الليل اعني وقت الغلس لكن الكهنة لما رأوا انه يحصل دائماً في ذلك الوقت المخصوص انتهزوا فرصة تعظيم هذا التمثال على عادتهم في التمويه على الناس فقالوا ان ميمون صاحب هذا التمثال يقرأ على والدته وهي الشمس السلام كل يوم في هذا الوقت وجعلوا ذلك خصوصياً لهذا التمثال ومنقبة يحترم بسببها وادخلوا ذلك على الخلق على عادتهم في امور الديانة حتى تمكن من عقول الاكابر والاصاغر والعام والخاص فلما جاء اليونان تلقوه بالقبول واعتقدوه ديانة فلم يزدد عند الناس الا تمكناً وانتشاراً حتى صار الناس يزورونه ويتبركون به ويقربون اليه القرابين

وتسارع الى ذلك الملوك قبل الصعاليك والاكابر قبل الاصاغر . فانظر كيف اسس الكهنة هذه الخرافات التي سارت بها الركبان ولم يتدبرها احد من اهل العرفان وكثيراً ما ادخلوا الاباطيل على عقول الناس واستمر ذلك فيمن بعدهم جيلاً بعد جيل فلذا تجد المصريين من قديم الزمان الى الآن غارقين في بحار التقليدات واسرى تحت ايدي التمويهات مع ان دخول الخطأ على الانسان بسبب غيره اكثر من دخوله عليه بسبب نفسه ومن تنبه عرف ذلك ولكن نشأت الكافة على الغفلة والتسليم لارباب الدعوى حتى صار ذلك كالجبلة لهم واذا حصل لاحدهم شك في دعوى مدع فلا يمكن من مخالفته ولا الردّ عليه بل يكون مجبوراً على اتباعه ولذلك كانوا في كل زمن عرضة لان يقوم فيهم أناس يدعون انهم رجال الله أقامهم لهدى الخلق وتوصيلهم الى ما فيه رضاه مع ان دعوى أكثرهم باطلة وليس لهم مقصد الاّ تقييد الخلق بقيد الذل لهم ليستعبدوهم ويستعملوهم في اغراضهم ويوجهوهم كما شاؤا ولما تنبهت الخلق في ايامنا هذه نوعاً قلت الدعاوي وقلّ من يتبع مدعياً في دعواه وصار من النادر العثور على أناس يقبلون امراً ويصدقون به قبل وقوفهم على حقيقته . ثم ان مريت بك قال ان بين تمثال ميمون ومدينة أبي عمارة قرنة تعرف بقرنة مرعى خلف المقابر القديمة كالجوة صغيرة من الارض وهي من بناء بطليموس فيلا باطور وتممها خلفاؤه من بعده انتهى . واما مدينة (آبو) ففيها عمارات تشبه عمارات الكرنك من حيث ان بعضها معتنى فيه بالاتقان والاحكام اكثر من اعتنائه بالعظم والفخامة وهو الذي بني في زمن طوطموزيس الثالث على قول مريت وبعضها فيه العظم واكثر من الاتقان وهو الذي بني في زمن رمسيس الثالث فمن تلك الآثار سراي بناها رمسيس الثالث المسمى ميامون وهو من الفراعنة أرباب الفتوحات كأجداده رمسيس الاكبر وسيتوس وتلك السراي بجوارها معبد صغير لطوطموزيس الثالث وأمامها سراي اخرى ملاصقة لها تسمى بالقصر ليست من بناء هذا الفرعون واقدم هذه المباني ذلك المعبد الصغير فانه بني في زمن طوطموزيس الثالث ومدخله يظن انه من بناء الرومانيين وعليه وعلى جدران الحوش يقرأ اسماء القياصرة تيتوس وللدريان وانطونات والباب الذي يأتي بعده هو من زمن الرومانيين ايضاً وعلى المدخل من احد جهاته اسم (بطليموس لاطير) ومن الجهة الاخرى (بطليموس اوليث) وبعد ذلك حوش في آخره باب من المباني الفخيمة قرأ مريت بك عليه اسم الملك بطليموس لاطير وبتدقيق نظره تحقق له ان بطليموس هذا كان قد محا اسم الملك (نيكتا نيبو) من

المحل ووضع اسمه مكانه ونيكتا نيبوا هو من العائلة الثلاثين قبل المسيح بثلثمائة وخمسين سنة كما ان نيكتانيبو كان قد محا اسم الملك (طهراقا) من هذا المحل ووضع اسمه مكان اسمه وطهراقا هو احد ملوك الحبشة من العائلة الخامسة والعشرين قبل المسيح بستمائة وثمانين سنة فاولاً كان الاسم لطهراقا ثم كان لنيكتانيبو ثم كان لبطليموس هكذا استدل مربيت من آثار النقوش . ثم اذا نفذ الانسان من هذا الباب يكون في حوش آخر وهناك يقرأ اسم طوطموزيس الثاني وطوطموزيس الثالث واسم الثالث مكرر اكثر من اسم الثاني وبعد ذلك اسم بطليموس فيسكون ثم أسماء من اعقبه على تعاقب الازمان فانظر كيف تتعاقب القرون الامم والعائلات مع حفظ أخبارهم وهل بغير الآثار القديمة والكتابات العتيقة كان يمكننا ان نتوصل بافكارنا الى ما علمناه بواسطتها وقبل ان يكشف شامبليون الغطاء عن غامض هذه الكتابة كانت جميع المباني السابقة معدودة عن المباني المصرية لكن من غير تعرض لاوقات حدوثها ولا من حدثت في ايامه فهذه الآثار الجليلة تحصلنا على معرفة ما بني في زمن كل امة وكل عائلة ووقفنا على حقيقة عمل كل انسان من كل طائفة فمتى نظر القارئ الى الحائط وتأمل الخرطوش عرف من تنسب اليه العمارة من الفراعنة والعائلة التي ينسب اليها وان كان من الاغراب الذين اغاروا عليها عرف بلده ووقته فالعارف بهذه الكتابة اذا نقل نظره من حجر الى آخر ومن صورة الى أخرى من كل بناء أو تمثال كان كمن بيده كتاب ينظر في اسطره ويقلب نظره في صفحاته فيقف على حقيقة الغرض منه فالمسلات اشارة أو احرف من كلمات والصور والتماثيل كذلك وربما كان المبني نفسه اشارة او حرفاً من كلمات أيضاً فانظر كيف كان المصريون ومعارفهم ورموزهم واشاراتهم التي لا يفهم معناها ولا الغرض منها كل أحد

وأما السراي المسماة بالقصر فكانت مسكن الفرعون رمسيس الثالث وهو من ذرية رمسيس الاكبر وكان من اصحاب السطوة كجده وله فتوحات عظيمة وهي من احسن مباني الديار المصرية . قال مربيت ولها حوشان مربعان وجدرانها متماثلة وتميل كلها الى مركز واحد وزينتها وتفاصيلها تدل على انها كانت مسكناً ملوكياً وفي داخل غرفها يرى الفرعون رمسيس في احواله المنزلية وحوله عائلته واحدى بناته تناوله الازهار وهو يلعب الشطرنج مع امرأة ويتناول من أخرى فواكه وهو يبدي لها التشكر على صنعها ويؤخذ من ذلك ان هذا اللعب كان موجوداً في الازمان السابقة وقد وجد في في بعض المقابر حجارة الشطرنج ورقعته وهذا مؤيد لقول افلاطون انه من مخترعي



الملك ومعبوده

طوط يعني أدريس عليه السلام أو هرمس الهرامسة . قال مرييت وفي هـذه العمارة الفخيمة قد نقشت فتوحات رمسيس هذا فعلى جدران المدخل يرى رمسيس كأنه يقدّم الاسرى الى المقدسين ومما يستغرب من ذلك ان النقاش بين في نقوشه حقائق طوائف اسراهُ بالوانهم وهيئآتهم على وجه لا خفاء فيه فالناظر في النقوش يميز كل طائفة من طوائف سكان آسيا وبلاد ليبيا والسودان وغيرهم ممن دخلوا تحت طاعته والباب الشرقي يصل الى حوشين صغيرين مربعي الشكل وهناك يرى ان النقاش اجتهد في تصوير اجناس الاسرى ففي جهة الشمال صور اسرى آسيا وفي جهة الجنوب

صور أسرى بلاد الليبيا والنوبة وعنون أسرى آسيا بقوله اولا المحقر المأسور بالحياة رئيس الخيتاس ورسمه يوجد كامل بدون لحية وجعل فى أذنيه أقراطاً وعلى رأسه قلنسوة يبدو من تحتها شعر رأسه مرسلاً على ظهره وثانياً المحقر رئيس بلاد (أمارو) ورسم وجهه مطاولاً وبه لحيته مذبذبة كحد الدبوس. ثالثاً رئيس الطخارى وجعل برأسه طاقية مخروقة الوسط بوجه كامل بلا لحية. رابعاً بلاد شردينا الكائنة بالبحر وجعل على

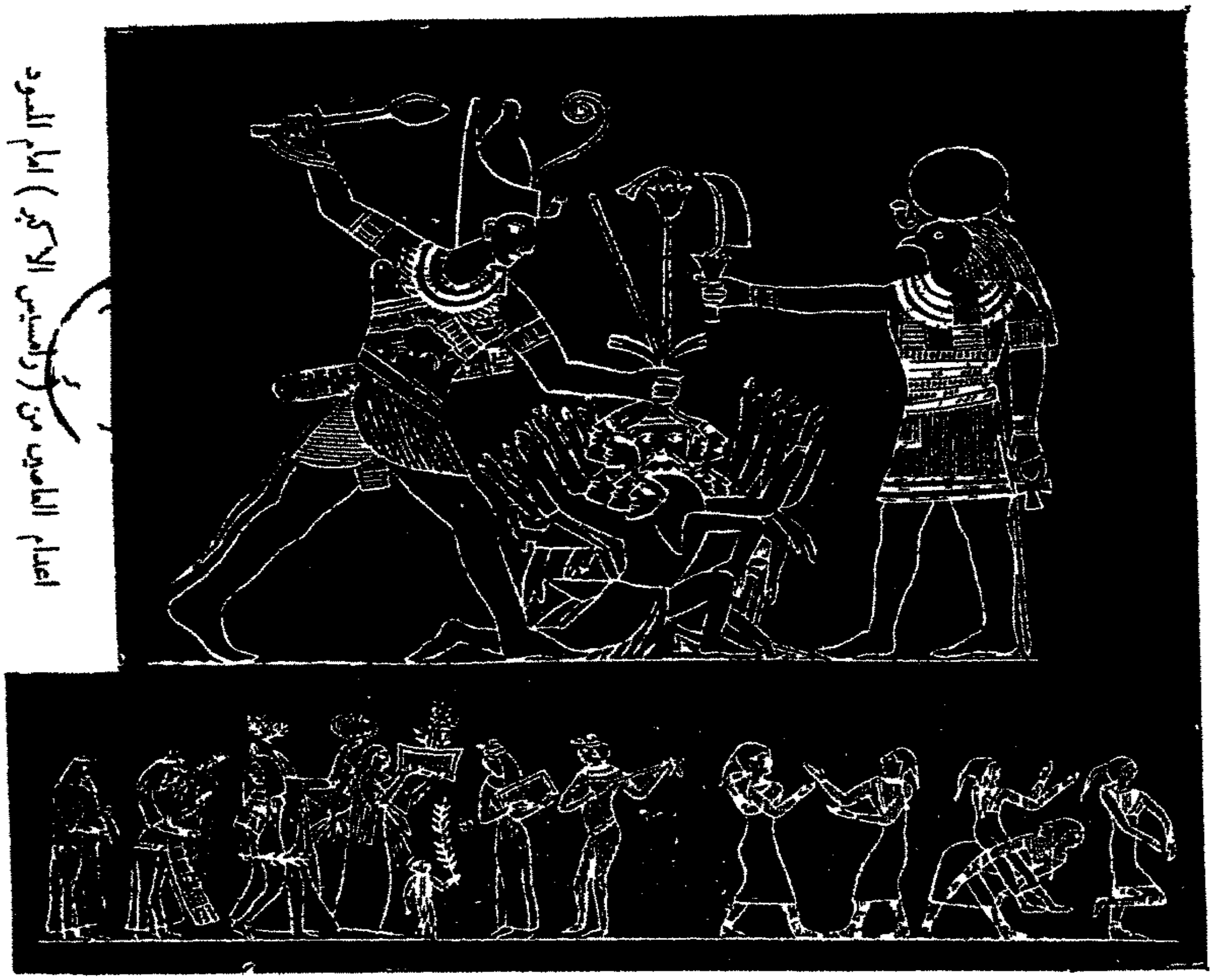


هيكل ٥ ب (هوروس امم ا بوس)

رؤوسهم بيضة من نحو نحاس وفوقها كرة . خامساً رئيس الشاذ . سادساً بلاد ترسا من بلاد البحر . سابعاً بلاد (كا) وأسرى بلاد آسيا والنوبة قد حصل في صورهم بعض تلف فيرى في صورة النوبيين اولاً رئيس النوبيين المحقر وتقاطيع وجهه كتقاطيع العبيد والصورة الثانية والثالثة تالفتان غير ظاهرتين والرابعة رئيس الليبيو أي الليبيين له لحية مذبذة وشعره مرخي بجنب اذنه والخامسة رئيس بلاد ترس من النوبة بانف منحن وقفطان له شراريب والسادسة رئيس بلاد مشوش والسابعة رئيس بلاد (طروا) وهذا الاخير مع الاول والثالث والخامس هم رؤساء الامم النوبية المختلطة في الرسم مع الليبيين وفي هـذه السراي لا يوجد الا خرطوش رمسيس الثالث كما ان الرامسيوم لا يوجد فيه الا خرطوش رمسيس الثاني

وقال مريبت بك ايضاً ان باب معبد (آبو) من المباني الفخيمة ومن نقوشه يفهم ان رمسيس الثالث في السنة الحادية عشرة والثانية عشرة من جلوسه على التخت حارب الليبيين ومن تعصب معهم من اهالي الشام وجزائر البحر الابيض وانه انتصر عليهم فعلى وجهة الباب من الجهة الشمالية يرى كأنه يضرب بدبوسه الاعداء جاثين على الركب والمقدس أمون ارمشيسر يناوله بلطة الحرب ويقول قد وجهت وجهي الى جهة بحري وأريد أن تكون بلاد كنعان تحت قدميك وان جميع أمم تلك الجهة التي لم تدخل في حكومة مصر تهدي اليك فضتها وذهبها وجواهرها وأوجه وجهي الى جهة الشرق وأريد أن بلاد العرب تهدي اليك بهاراتها وبخورها واخشابها الثمينة وسائر محصولاتها وأوجه وجهي الى جهة الغرب واريد ان سكان بلاد تهنو تهدي اليك مدائحها . ولم يوجد أحسن من حوشه الكبير وما اشتمل عليه من النقوش والآثار وفيه تمثال هائل لرمسيس متكئ على أحد الاكتاف والصور الموجودة هناك هي تماثيل رمسيس في صفات (أوزريس) فاذا كان الانسان في الحوش الثاني كانت الواجهة الامامية للباب امامه وعلى وجهها القبلي في جهة صورتا المقدس أمون وموت وفي الجهة الاخرى صورة رمسيس يقدم لهما الاسرى على ثلاثة صفوف الصف الاسفل من القوم المعروفين بالبرساطة أو پرسطا وربما كانوا هم الفلسطينيين اجداد القوم الذين جاؤا بعد ذلك واستوطنوا حدود مصر والوسط من القوم المعروفين (بتعناووانه) والاعلى من القوم يعرفون (بشكرشا) وجميع هؤلاء الاقوام من سكان سواحل البحر الابيض أو سكان جزائره تعصبوا مع اهل آسيا على مصر فحاربهم راميس وانتصر عليهم في البر والبحر

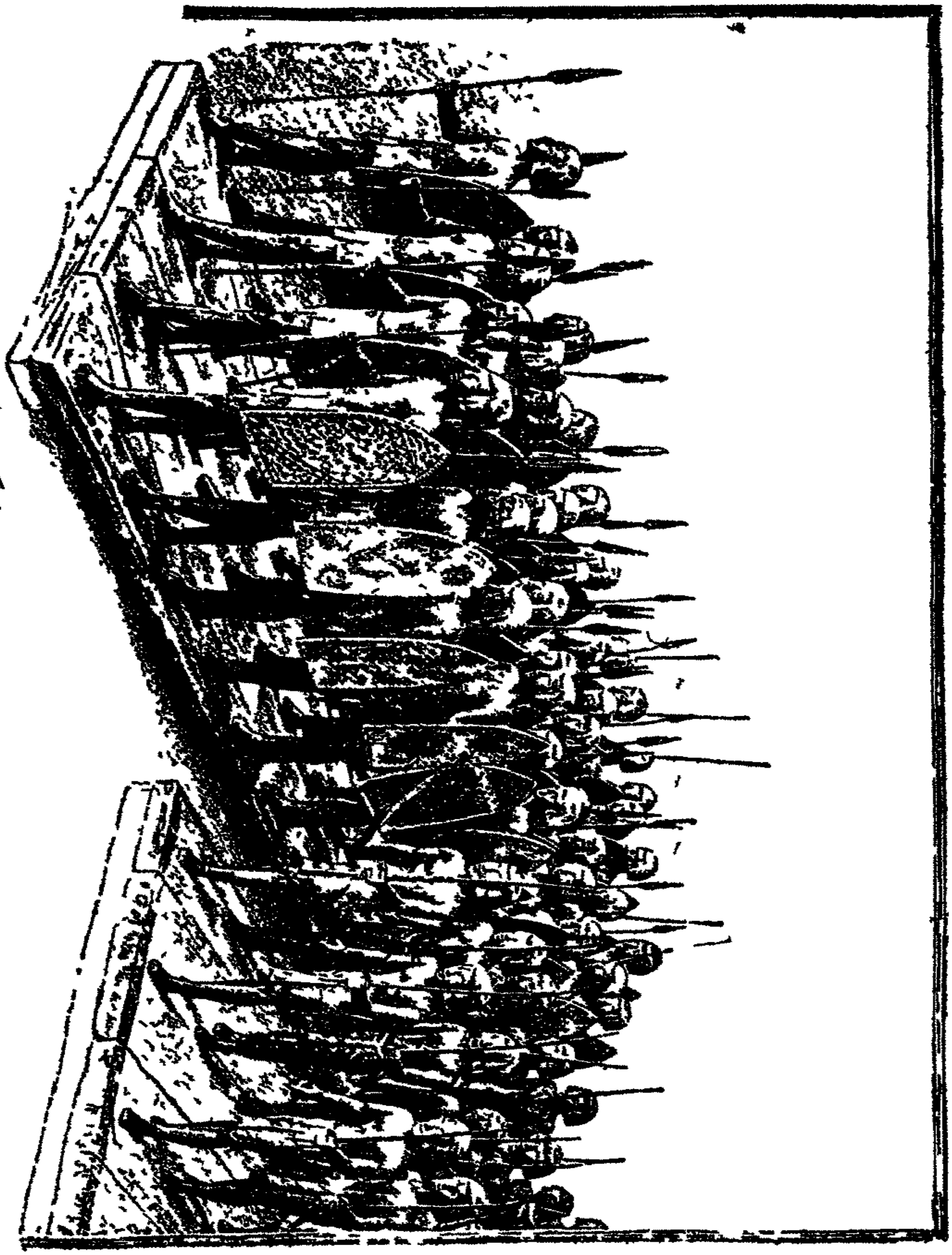
وفسر العالم روجير الفرنساوي النقوش التي على جانب البحري وقال ان القاب الملك رمسيس الثالث كلها في الخمسة عشر سطراً الاول وبعد ذلك اسماء القبائل



« رسم الرقاصين والمغنين من الفراعنة »

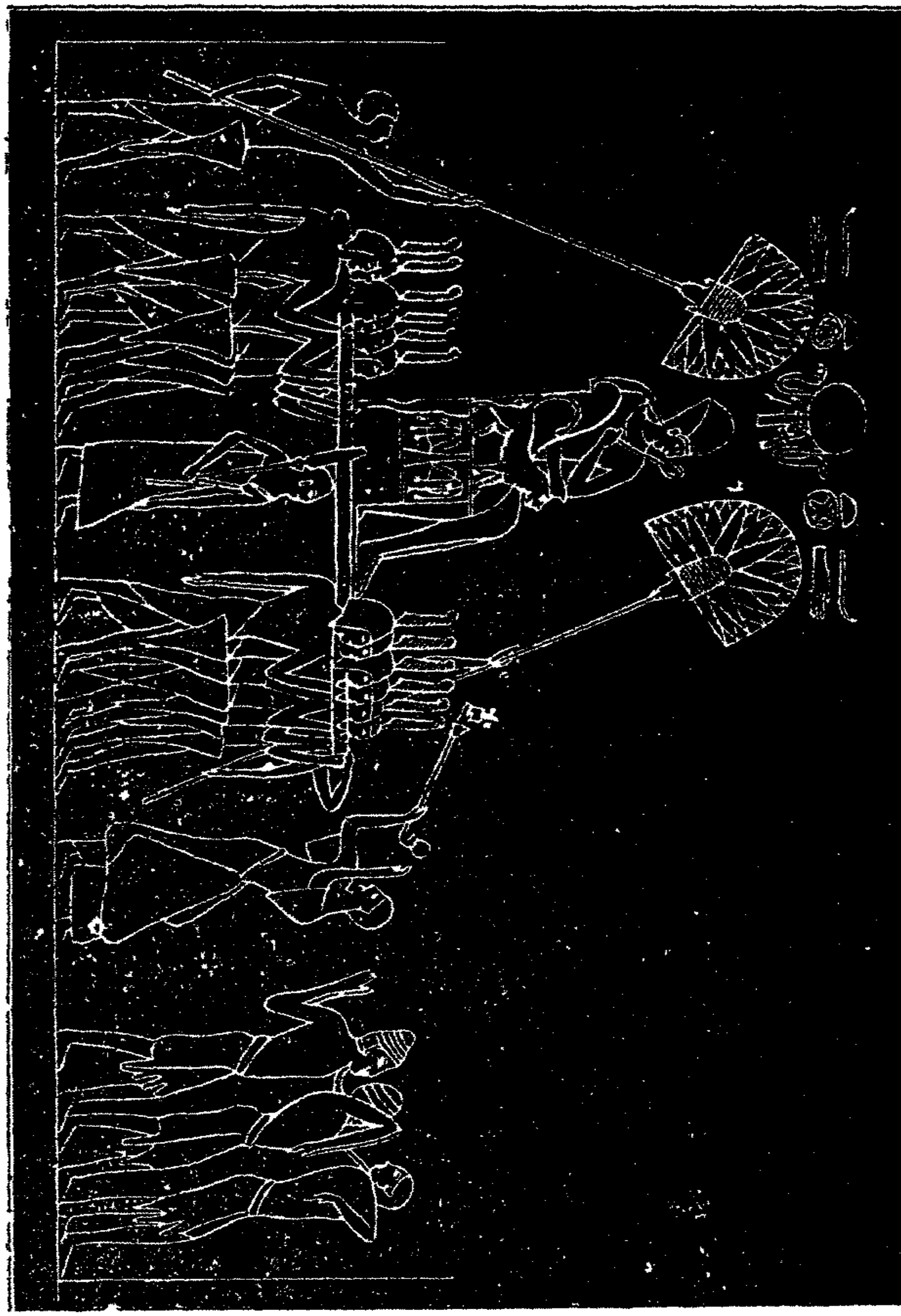
المتعصبة عليه الداخلة في الحرب فمن بلاد آسيا الخيطا والعطى وقرقسكا وعرطو وعرصا ثم جملة أخرى من غيرهــا وهم برساطه وتكاره وشكاشه أو شكرشا وتعناوونه ووسكاشه وهؤلاء من سكان البحر الابيض وجميعهم أعني الاولين والآخرين اجتمعوا في محل بارض الشام ليس معلوماً ففي الواقعة الاولى انتصر رمسيس على جميعهم وفي الواقعة الثانية وكانت في البحر اكمل تشتيتهم وبددهم تبديداً وتخلصت مصر بهمة هذا الفرعون من هؤلاء القوم العادين وحفظت حدودها التي كانت لها مع مملكة آسيا وبالدخول من الباب يتوصل الى الحوش الكبير وهو من احسن ما تركه المصريون من الآثار فان جهاته الاربع مزينة بدهاليز ومكسوة بالنقوش ذات الالوان الجميلة

ويسبق الدهليزين البحري والقبلي اعمدة ضخمة والشرقي الغربي سقوفهما على اكتاف تستند عليها صورة الملك وفي وسط الحوش اعمدة ملقاة على الارض ما بين صحيح ومكسور ويظهر ان هذا الحوش جعل كنيسة فيما بعد حين كانت مدينة آبو مسكونة بالقبط والنقوش التي على جدران الدهاليز الاربعة كثيرة جداً يعجز الانسان عن



عساكر الفراعنة المشاة «في الاكتشافات المصرية»

الاحاطة بمشتملاتهــا ورموزها فنها على شمال الداخل رسم صورة حرابة وفيها الملك كأنه على عربته يجول في المعركة بين صفوف الاعداء وهم من الليبيين ويرى في الرسم ان بعضهم يقع فوق بعض وعلى الواجهة الجنوبية رسم الملك ورؤساء جيوشه يقدمون اليه الاسرى ويقرأ في النقوش ان الاحياء من الاسرى الف والاموات منهــم ثلاثة آلاف وبقرب ذلك كتابة ممــا يتعلق بهذه الواقعة لكنها محوّة لا يمكن قراءتها وفي اللوحة الثالثة يرى الملك في دخوله مصر وامامه فرق من الاسرى مكبلين في القيود وحولهم العساكر ولوحة رابعة فيها دخوله طيبة وهو يقدم الاسرى الى المقــدسين ورسوم هــذه الواقعات انما هي في اسفل الواجهة الشرقية والجنوبية والشمالية من الحوش واما ما في اعلاها فقد وضعه شامبليون فقال ان رمسيس خارج من سرايته محمولاً في محفــة مزينة بأنواع الزينة على اكتاف اثنا عشر رئيساً من امرائه وتاجه مزين بريش النعام وهو في ابهة وملابسه الملوكية جالس على تخت مزين بتماثيل العدل والحق وهما تمثالان من الذهب لهما اجنحة منشورة كأنها تظله وفي جانب التخت صورة ابي الهول وهي علامة العقل والقوة وصورة السبع وهي علامة الشجاعة كأنهما يحفظانه وكأن كثيراً من امرائه يروحون على وجهه بالمراوح وبقربه اطفال من اولاد الكهنة يسيرون بسيره ويحملون قضيب الملك وجعبة السهام ونحو ذلك من لوازم الملك وخلف المحفة تسعة من عشيرته الاقربين مع بعض امرائه يمشون صفين وبعد ذلك يأتي باقي اقارب الملك وعائلته ومنهم جملة متكهنون ثم ابنه البكري وبعده رئيس الجيوش يطلق البخور امام الملك وغير ذلك عساكر تحمل كرسي المحفة وسلاليمها وبعدهم فرقة من العساكر في آخر الموكب ومشاهم امامهم وامام الجميع تخت الآلاتية مشتمل على المغنين والطبل والمزمار والكاس واهل الالحان ولما دخل الملك معبد هورس وقرب من المحراب اطلق البخور وقد حمل اثنان وعشرن من الكهنة تمثال المقدس على التخت وجعلوا يطوفون به في وسط جملة مراوح وغصون من الازهار ويرى الملك واقفاً على قدميه تعظيماً للمقدس وعلى رأسه تاج البلاد السفلى وهو يمشي امام التمثال خلف العجل الابيض المعتبرانه التمثال الحيّ لآمون هوروس او آمون رازوج أم المقدس وكان احد الكهنة يبخر العجل وترى زوجة الملك في اعلى الرسم كأنها من المتفرجين ووقت قراءة أحد الكهنة الدعاء بصوت مرتفع هو حين مجاوزة نور المقدس عتبة المعبد وحينئذ يتقدم تسعة عشر كاهناً يحملون أمتعة المقدس كالمواعين وأدوات العبادة وسبعة على أكتافهم تماثيل اسلاف الملك يمشون بها ثم يأتي اربعة طيور هي الحراس



احمال ملك الهوروس الى المعبد

اولاد أوزريس حافظون للاربع نقط الاصلية فيرسلهم رئيس الكهنة في الافق لكي ينشروا في أربع جهات الدنيا ان رمسيس قد لبس تاج الملك على الجهات العليا والسفلى وقال شامبليون ان منتهى العبادات بين حال الملك وهو يؤدي الشكر لقدس المعبد وأمامه جميع الكهنة وأهل بيته ويرى انه يحش جرزة من القمح ثم يلبس المغفر

بمثل حال خروجه من السراي ويستأذن من المقدس في الانصراف ويدخل المقدس في محله وفي كل ذلك تحضر الملكة زوجته ويتوسـل الكاهن بالآلهة ويناديهم واحداً واحداً وتقرأ صلواة طويلة ويقوم بقرب الملك العجل الابيض وصور اجداده

وقال مرييت بك ايضاً وقد حاولت اخراج الاتربة المغطية للجهة الغربيـة من الحائط حتى كشفتها فوجدت النقوش التي عليها متعلقة كلها بالديانة وأما ما على الحائط القبلية من خارجها ففيه بيان الاعياد والمواسم السنوية التي كانت جارية في هذا المعبد وعلى الحائط الشمالية عشرة الواح يظهر انها بخصوص واقعة حربية كانت في السنة التاسعة من ساطنة رمسيس المذكور بينه وبين الليبيين والقوم المعروفين بالتكارو ففي اللوحة الاولى يرى الملك عساكره كأنهم يسيرون متسلحين بآلات الحرب وفي اللوحة الثانية يرى التحام الحرب ونصرة المصريين على قوم من الليبيين يعرفون بماهو وان الملك يحارب بنفسه وان القتلى كثيرة بين يديه وفي الثالثة ان عدد القتلى اثنا عشر الفاً وخمسمائة وخمسة وثلاثون وفي الرابعة مقالة من الملك خطاباً للعساكر ورؤسائهم وكان العسكر تحت السلاح مستعدون للسير ثانياً الى العدو وفي الخامسة سفر العساكر ومقالات في مدح الملك وشكر المقدس وفي السادسة حربه مع التكارو فيها النصرة للمصريين والملك يقاتل بنفسه والاعداء طرحوا حوله وهو يهجم على معسكرهم والنساء والاطفال يهربون على عربات تسحبها الثيران وفي السابعة يرى سير الجيش في البلاد بها السباع كثيرة وان الملك قتل منها سبعاً وجرح آخر والغالب ان هذه الارض التي قتل فيها امينوفيس الثالث مائة سبع وعشرة فانه وجد على صورة جعل موجودة في خزانة التحف بجوار قصر النيل وان امينوفيس يفتخر بقتل هذا العدد بيده في العشر سنين الاولى من سلطنته وفي الثامنة وقعة بحرية بقرب الساحل في مصب نهر وان مراكب التكارو يساعده مراكب سردينيا وقد هجمت على مراكب المصريين والتحم الحرب بين الفريقين ومسيس في البر ومعه الرماة يذب عن مراكبه وفي التاسعة يرى سير الجيوش الى مصر في رجوعهم من هذه الواقعة وقد وقف الملك في حصن مجهول لعد القتلى بتعداد الايدي المنقطعة من اجسادها والاسرى تمر امامه وهو يلقي مقالة على أولاده ورؤساء جيوشه وفي العاشرة دخوله طيبة واداؤه الشكر للمقدسين وفيها مقالة تتعلق بالمقدسين ودعاء الاسرى للملك وطلبهم منه الرفق بهم وابقاءهم على قيد الحياة ليذكروه بالشجاعة الى آخر العمر انتهى

وهذا آخر ما اردنا ذكره من الكلام على ما بقي من مدينة الكرنك وقرنه وابو

بلده وبلدة طيبة ما سبق بيانهما بالتفصيل من قصورهم العظيمة وهياكلهم التي تحير العقول والآثارات والمعابد الجسيمة القديمة ففي سنة ١٣٢٦ طفت حوالي هذه الجهة مع دولة الامير يوسف كمال باشا المشار اليه وشاهدنا كل ما فيها بدقة النظر واحدة واحدة وبعد ان اخذ دولة الامير بعض رسومها بالفطوغرافيا اشتقت الى رؤية الذين بنوا وشيدوا هذه الآثار المهمة ومدافنهم ايضاً ورجوت ذلك من الامير المشار اليه فاوعدني بالتوجه اليها في اليوم التالي لرؤيتها

ففي اليوم الموعود اسرعنا بالتوجه لرؤية مدافنهم الواقعة على عشرين كيلو متراً تقريباً من الجهة الغربية من ساحل النيل وفي جبالها الشاهقة المغارات الموجودة فيها مدافن ملوك الفراعنة فاخذنا تذاكر الدخول بعد دفع الرسم المقرر عليها ودخلناها

وهذه المغارات بعضها في ذيل الجبال وبعضها في وسطه منارة بالانوار الكهربائية من منذ عشرين سنة تقريباً واجسامهم ممدودة في التوابيت المزينة للغاية بالنقوشات الذهبية نائمين على ظهرهم واياديهم موضوعة على صدورهم ونشاهد ملوك الفراعنة في صورة ظاهرة جسد بلا روح

وعلى حسب ما شاهدناه مع دولة الامير ان هذه الاجساد موجبة للحيرة ومجلبة للعبرة وكيف لا يحتار الرأي من دفنهم في المغارات من مدة ستة آلاف سنة تقريباً بغير ان يبلى او ينعدم شيء من اعضائهم حتى وان رمش عيونهم محفوظ كما كانت في زمان حياتهم

فكيف لايستوجب العبرة : وهؤلاء النائمين في هذه التوابيت المنقوشة المذهبة كان بعضهم في زمانه يدعي الالوهية والبعض كان يحكم حكم الجبروت على القبائل والاقوام ومع هذا كله فقد رميت اجسامهم اليوم في زوايا هذه المغاور بحكم القاهر القهار سبحان من خلق الموت والحياة

التحيط عند قدماء المصريين

وكانت عادة جميع المصريين ان لا يدفنون الميت الا بعد تصبيره كما تدل على ذلك التواريخ وما عثر عليه من موميات الموتى وقد ذكر هيرودوط ماكان يصنع بالميت بعد موته من تصبير وتشييع ونحو ذلك فقال ما معناه : من عادة المصريين في الجنائز ان الميت اذاكان من المعتبرين تسخم نساؤه واقاربه وجوههن ورؤسهن بالطين ويضربن على صدورهن المكشوفة ويطفن حول البلد مع الصراخ والعويل والقول القبيح مع

اقاربهن واحبتهن من النساء ويضرب الرجال على صدورهم ايضاً كذلك ثم يؤتى بالميت الى محل التصبير وللتصبير ناس مخصوصون فيعرضون على اهل الميت صوراً من خشب منقوشة في القدر الطبيعي اعظمها صورة من لا اذكر اسمه ثم صور اقل وهكذا فيختار اهل الميت واحدة على حسب اقتدارهم يتوافقون معهم على الثمن والمنصرف

وقال بورفير انه عند تصبير جثة المعتبرين تخرج الامعاء وتوضع في صندوق يعرضها احد المصريين على الشمس وهو يقول على لسان الميت « يا أيتها الشمس سلطانة هذا العالم ويا آلهة يا من افضتم الحياة على الخلق اقبلوا وانوا لي أن أسكن مع الباقين فقد امضيت عمري في عبادة آلهة آبائي ولم اتحول عن تعظيم من نشأ عنهم هذا الجسم ولم اقتل احداً ولم اسرق ولم افعل اساءة وان كان حصل مني خطأ عند أكلي وشربي فهو لهذه الاشياء يعني الامعاء فهي السبب في الخطأ » وبعد انتهاء مقالته يرمي الصندوق في البحر ·

« المرام في تحنيط الميت »

ان الحياة في الآخرة عند قدماء المصريين انهم لم يتفقوا على شكل هذا العالم الثاني . وكان لهم اربع عقائد في هذه المسألة . الاولى : أن لروح بعد الموت كانت تبقى في جوار الجثة وتعيش العيشة التي تعيشها وهي على قيد الحياة . ولذلك كانوا يقدمون لها الطعام والشراب ويبنون بيتاً صغيراً على انموذج البيت الذي كان يعيش فيها صاحبها . ومن هنا استنتج ان عادة وضع الطعام على القبور في الوجه القبلي الآن بقية من العقائد المصرية القديمة

الثانية : انهم كانوا يعتقدون ان الروح بعد الموت تذهب الى ملكوت « اوزوريس » وكانوا يصورون الحياة هناك على نحو ما هي في عالمنا ولذلك كانوا يصنعون تماثيل صغيرة للخدمة حتى يقوموا بخدمة سيدهم

والثالثة : ان الميت كان يذهب الى قارب الشمس الذي يدور حول العالم مرة في اليوم وللوصول الى هذا القارب كانوا يصنعون قارباً صغيراً يركبه الميت حين تأتيه الدعوة عن الاله

والعقيدة الرابعة : انهم كانوا يظنون ان الميت يحتاج الى جثة في العالم الآخر ومن هنا جاءت شدة اعتنائهم بعملية التحنيط . فترى اذن من هذا ان عملية التحنيط لم تكن الا واحدة من اربع طرق للدفن وبعبارة اخرى لم تكن عامة كما هو مشهور

« ديانة المصريين القدماء »

زعم بعض قدماء المؤرخين ان المصريين القدماء كانوا من عبدة الاوثان مستدلين على ذلك بما شاهدوه من التماثيل العظيمة التي اقيمت للعبادة . ولكن ظهر بعد استطلاع اسرار لغتهم وقراءة ما كتبوه على هياكلهم وفي كتب موتاهم انهم ليسوا من الوثنية على شيء وان هذه التماثيل انما اقاموها في بادئ الرأي تمثيلاً لبعض صفات اله حقيقي غير منظور ولكن الزمان ارخى على تلك الحقيقة حجاب التقاليد والخرافات فاصبح القوم لا يعرفون من معبوداتهم الا تلك الحجارة الصماء التي هي من صنع ايديهم . على ان الحقيقة لم تكن محجوبة عند حكمائهم وكهنتهم

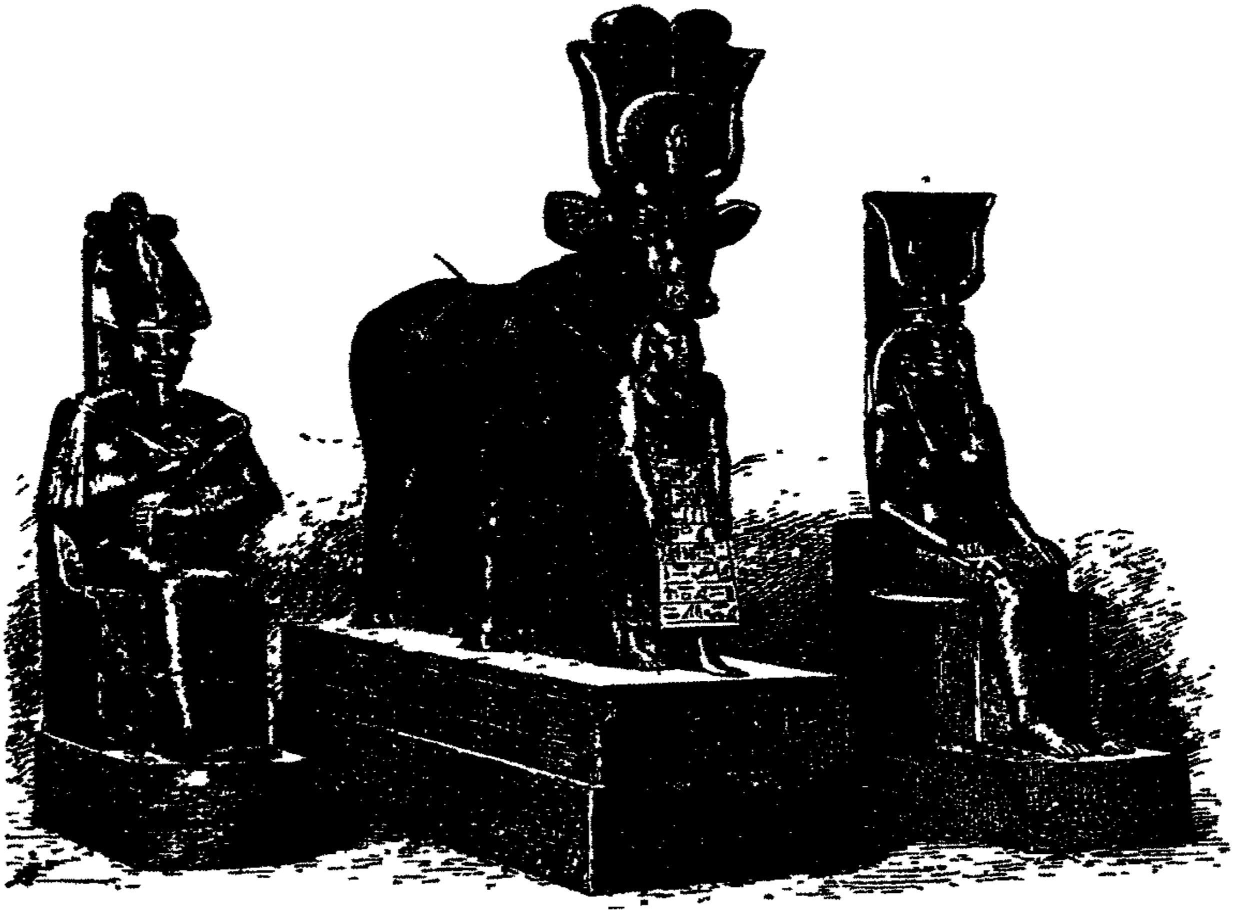
اما آلهتهم فعديدة واسماؤها مختلفة وصورها متنوعة مرجعها جميعاً الى الهين اصل هذه التنوعات وهما «فتاح» في منف ويقصدون به الخالق العظيم و «رع» في طيبة لانهم يعتبرون الشمس تمثالاً للاله الحقيقي الذي هو الخالق . ثم انتشرت هذه الديانة واتقنت صناعة البناء والرسم فاقاموا في كل مدينة تمثالاً لاحد هذين الالهين أو لكليهما وكانوا يسمونها باسماء مختلفة. فتعددت الاشياء ثم نسي المقصود الاصلي وبقيت الظواهر مواقعها من خط مسيرها فدعوها «هرمخيس» عند شروقها واقاموا لها ابا الهول تمثالاً . و «رع» عند ما تكون في خط الهاجرة. و «توم» عند الغروب و «اوزيريس» عند الظلام أي عندما تكون في العالم السفلي وجعلوا لكل من هذه محاكم سماوية وجعلوا من بينها قضاة وكتبة وجنوداً

وفي أثناء ذلك استنبطوا المثلثات الالهية فكانوا يضمون ثلاثة آلهة الى اله واحد منها مثلث مؤلف من الآلهة «اوزيريس» و «هوروس» وهو معروف بمثلث منف والمتأمل في صورها يرى ان الاول يشبه بالرجل والثاني بامرأة والثالث بصبي

وبين آلهة المصريين تفاوت في الدرجات فعندهم ثمانية آلهة من الدرجة الاولى في منف وهي فتاح وشو وتفنووست وتوت واوزيريس واوزيس وهورس . ولهم عن هذه الآلهة وغيرها اخبار وخرافات مطولة لا حاجة الى ذكرها هنا وانما يذكر فيها اسماء اهم الالهة المصرية مع ذكر مميزات كل منهما بقدر الامكان بحيث يمكن لمن يشاهدها في الآثار المصرية ان يميز احدها من الآخر وتسهيلاً لفهم تلك المميزات نقسمها الى قسمين بحسب نوع رؤوسها

اولاً : ذوات الرؤوس البشرية . ثانياً : ذوات الرؤوس الحيوانيــة . فالرؤوس

البشرية اما ان تكون رؤوس ذكور او اناث . والرؤوس الحيوانية اما ان تكون رؤوس طيور اوحيوانات اخرى



اوزيرس هوروس ايزيس

فالآلهة ذات الرؤوس البشرية للذكور سبعة وهي « فتاح » يمتاز بكونه على شكل جثة محنطة « مومية » وفي يديه صولجان وليس على رأسه شيء يمتاز به « آمن » او « رع » على هيئة رجل منتصف وعلى رأسه قبعة مبلطحة تنتهي بريشتين غليظتين مستطيلتين بيده « أمين رع » الواحدة مفتاح وبالاخرى عصا وقد يكون على شكل جثة محنطة جالساً على كرسي وعلى رأسه العقبة وفي يده نمشة وعقافة وصولجان . ويدعى في هذه الحالة امن اوزيريس

«هورس» صبي وعلى رأسه تاج مزدوج يراد به تاج الوجهين القبلي والبحري . يده اليسرى في فيه وفي يده اليمنى مفتاح صليبي التكل وقد يكون هو روس برأس طير كما سيجيء . «خم» جثة محنطة ويده اليمنى مرفوعة وحاملة زاوية كبيرة

« اوزيريس » جثة محنطة على رأسه تاج مصر العايا بريشتي نعام واحياناً بغير

يش . وفي يده النمشة والعقافة واحياناً الصولجان ايضاً . وقد يكون على رأسه هلال يه قرص الشمس

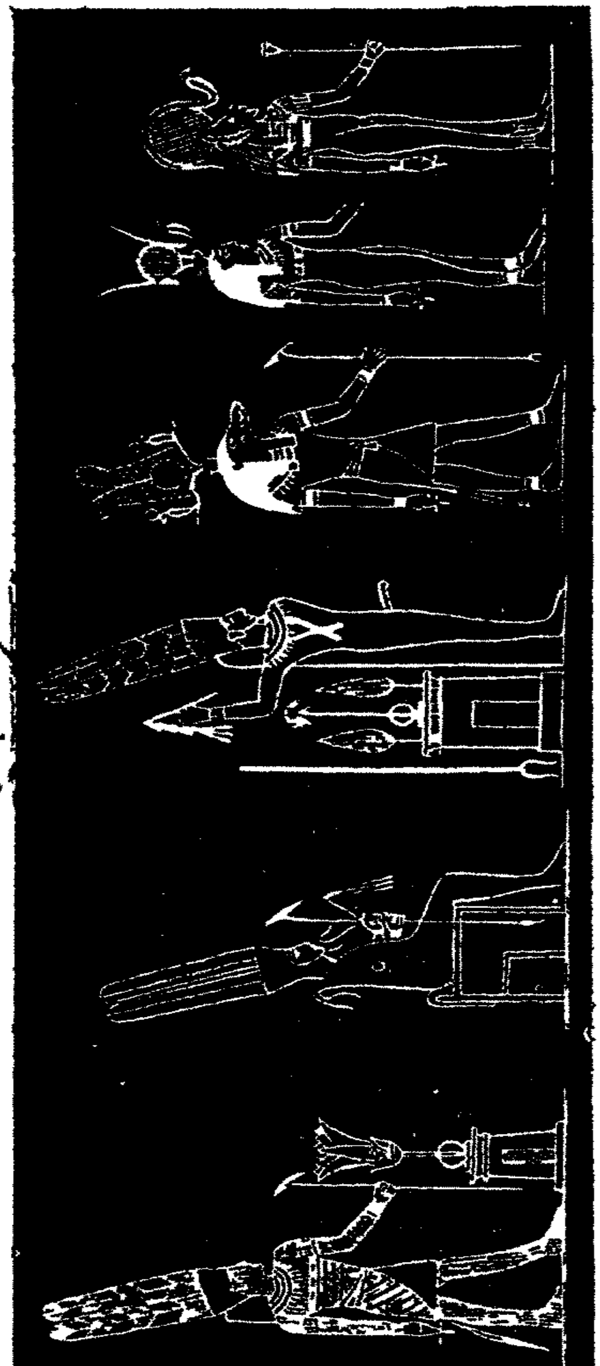


مأخوذ من الرسوم الموجودة على الورق «ايبرس» في الانتكخانة المصرية

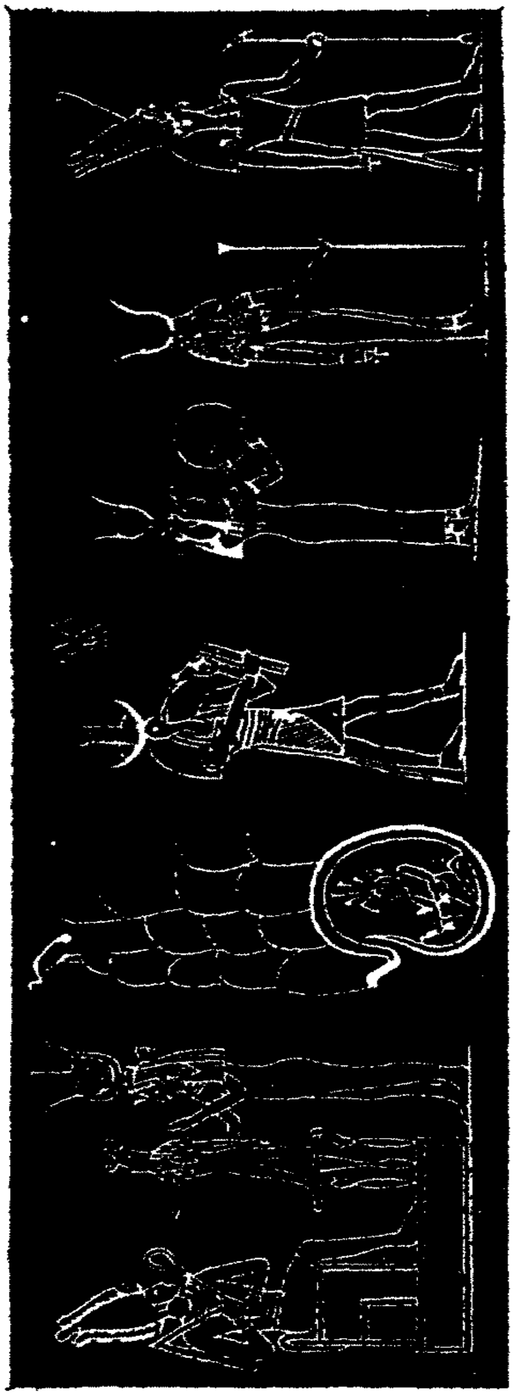
«سب» يمتاز بطة واقفة على رأسه . «توم» على رأسه شعر طويل مكلل بزهرة حبقوق او ريشة وقد يكون على رأسه تاجا مصر العليا والسفلى

« اما الالهة ذوات الرؤوس البشرية الانثوية . فهي »

«ايزيس» على رأسها طاقية تشبه النسر فوقها تاج مصر العليا والسفلى بيدها الواحدة مفتاح وبالاخرى صولجان وقد يكون على رأسها قرنان بينهما قرص الشمس وفوق القرص ما يشبه تاج مصر . «ما» آلهة الصدق على رأسها ريشة واحدة منتصبة وعلى عينيها غالباً غطاء يشبه العويات



ست — هاتور — سبك — امون — امورع — معبودات ملك الفراعنة



هوريس — ايزيس هاتور — هاتور — توت — خاطساه ليبا (موت) ثالوث ازوريس وايزيس واولادهم رس

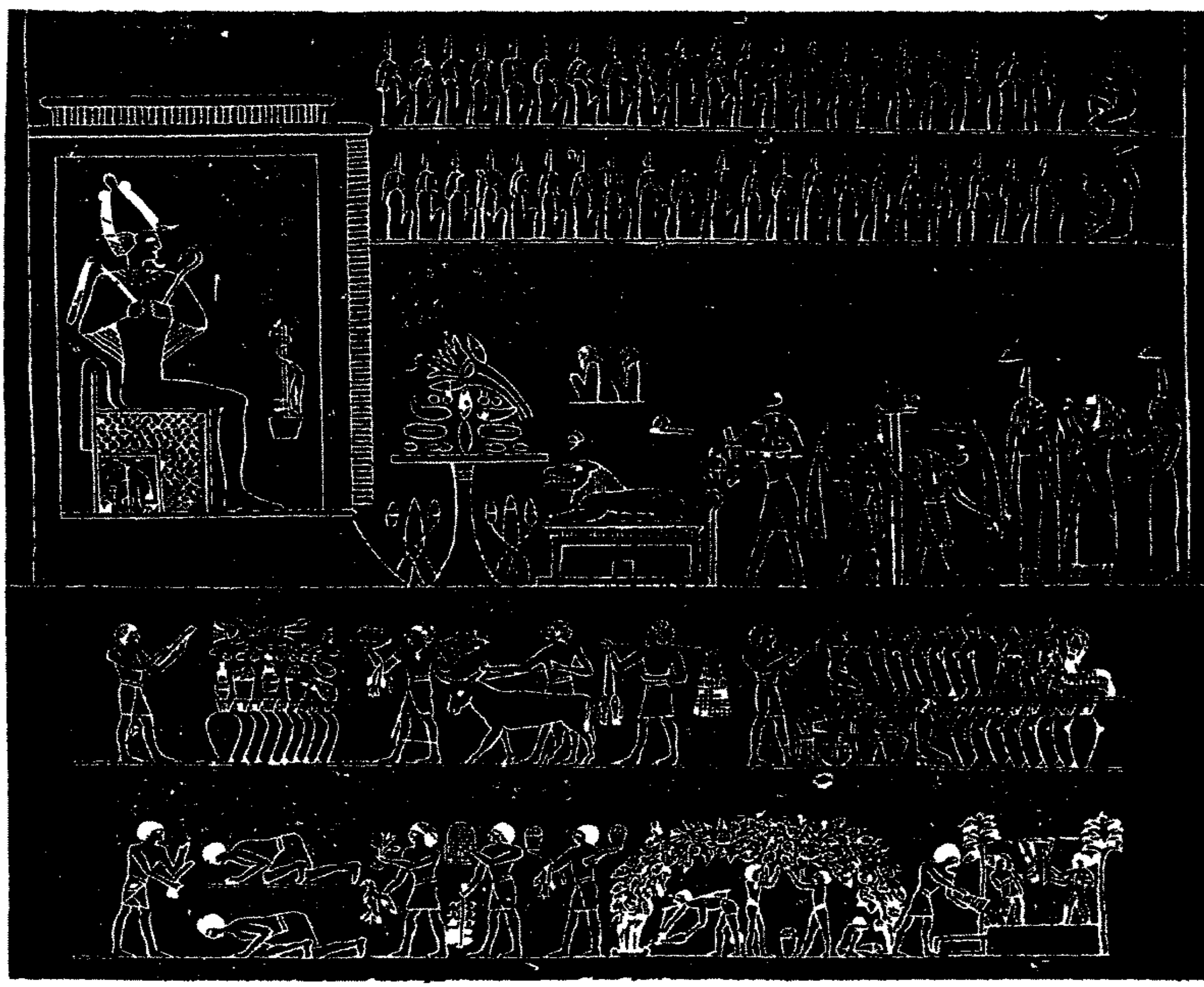
« موت » (أم الجميع) على راسها طاقية بشكل النسر وفوقها تاجا مصر العليا والسفلى وقد يكون لها رأس نسرى .

« الآلهة برؤس الطيور والحيوانات »

«هورس» قد تقدم ذكره بين ذوى الرؤوس البشرية وقد يكون ذا رأس حيواني كرأس الصقر وفوقه التاجان . « خونس » (الشمس المحرقة) رأسه كرأس الصقر فوقه قرص الشمس . «رع» (شمس الهاجرة) رأسه كرأس الصقر ايضاً عليه قرص الشمس فوقه ثعبان . «توت» (اله القلم) رأسه كراس اللقلق عليه احياناً هلال في وسط ريشة

« وهذه آلهة أخرى برؤوس الحيوانات »

« بشت » (جيبة فتاح) تمتاز براس الهر واحياناً براس الاسد عليه قرص الشمس فوقه ثعبان .



المحكمة الجهمية لمعبود ايزوريس

«عتور» يمتاز برأس كرأس البقرة بين قرنيها دائرة البدر
«كنوم» او (كنف) يمتاز برأس كبش عليه اكليل وتيجان
«انوبيس» يمتاز برأس كرأس ابن آوى

وللمصريين القدماء آلهة كثيرة غير هذه قد امسكنا عن ذكرها حباً بالاختصار.

المحكمة الجهنمية لمعبود ايزوريس : حكام اوزيريس . اثنين واربعين عضواً مكلفين بمحاسبة الارواح وعلى رؤوسهم ريش العدالة . مائدة الاموات وبعض قربانات (هـ) اشارة للعذاب الآلهي (و) اشارة لكاتب الاعمال (ز) علامة العدل . (ح) اشارة لنظارة هوروس على الحسنات (ط) لنظار « انوبيس » على كفة الميزان (ى ى) اشارة لمعبود الاموات وفي احدى يديه عصا في وسطها ارواح يبرئها من كل خطية فلاحين الفراعنة يحضرون العنب ويعصرونه لاستخراج نبيذ . وعمال للحساب

« اسوان »

اسوان : هي عاصمة المديرية واسمها في القبطية سوان فزاد العرب الف عليها لعدم الابتداء بالساكن وهي واقعة على الضفة اليمنى من نهر النيل قبالة جزيرة باسمها وفي رأس الشلال الاول على بعد ٥٩٠ ميلاً من القاهرة حيث يصير النيل صالحاً لسير السفن . وعدد سكانها نحو ٦٠٠٠ نفس وهي آخر مدير مدينة من مصر لجهة بلاد النوبة ولذلك كان مركزها مهماً تجارياً وسياسياً . وكان القدماء يخطئوا برسم خط السرطان هناك . والبلاد المجاورة لاسوان مرملة قفرة لا يكاد ينبت فيها الا النخل وسكانها من بلاد مصر والنوبة ومن نسل العساكر البشناقية والاتراك التي اقامها هناك السلطان سليم الاول فاتح مصر والسودان (سنة ١٥١٧ م)

وكانت الجزيرة مقراً للفراعنة من الدولة التاسعة والعشرين وهي تشتمل على عدة آثار قديمة منها مقياس ذكره «استرالون» يعرف به ارتفاع مياه النيل عند فيضانه وقد تلف اعلاهُ سنة ١٨٢٢ م . ومن آثارها ايضاً عدة هياكل خربة ودراع مصري قديم ويقال انه كان بها هيكلان بنيا في عهد «امينوفيس» الثالث نحو سنة ٦١٩٠ قبل الميلاد ولكنهما هدما وبني مكانهما منازل عسكرية ويوجد فيها عدة قطع خزفية عليها كتابات يونانية واعظم اهميتها منها خراب هيكل من ايام البطالسة . وذكر المؤرخون انه قد كان فيها بئر عجيبة تقع فيها اشعة الشمس العمودية في المنقلب الصيفي حتى تضيء جميع جوانبها من الداخل ولكن لم يهتد الى مكان هـذه البئر بعد . والى الجنوب الشرقي

من اسوان مقطع الغرانيت الصافي المشهور الذى اخذ منه مسلات الاقصر والمطرية والاسكندريه ومسلة الاستانة العلية التي في ميدان جامع السلطان احمد المعروف



اسوان شرقي

ديكلى طاس) وبعض الحجارة الكبيرة في بعلبك وتدمر وجهات اخرى في الشرق ولا يزال فيه مسلة صحمة غير مفصولة عن الطبقة الاصلية كأن لم يعد لاصحابه فرصة لقلعها الى المكان المعد لها فبقيت بعدهم تنادي بلسان حالها

ما دري الناحتون من قبل نحتي　　قلّ من نال في الحيـاة مرامه
انّ قصر الحياة يثنيهِ عنـهُ　　وعلى قصرها بقيت علامه

وطول هذه المسلة نحو ٩٥ قدماً وعرضها يزيد عن ١١ قدماً وبين هذا المقلع واسوان مقبرة كبيرة فيها اضرحة مشائخ واولياء من المسلمين عليهـا كتابة بالقلم الكوفي وقد اقامت الحكومة حامية حصينة في اسوان مدة ثورة محمد احمد المهدي فزهت لازدحام الناس فيها من ذلك الوقت. وشيد لها العساكر رصيفاً متيناً سنة ١٨٨٧ . فبنى عليهِ اهلها الابنية الفاخرة . وقد كانت اسوان ولا تزال مركزاً مهماً للتجارة مع السودان ولها طريقٌ مشهور منذ القديم في الصحراء الشرقية الى بربر طوله ٤٧٣ ميلاً . وبينها وبين قدم الشلاّل سكة حديد طولها ٩ اميال مدت سنة ١٨٧٤

وتجاه اسوان في البرّ الغربي اكمة مرتفعة على رأسها قبة غير بعيدة العهد تعرَف « بقبة الهواء » ولعلّها مدفن احد النساك . وتحت هذه القبة اطلال « دير » للاقباط على شكل قلعة من بقايا القرن السادس او السابع للميلاد . وبجانبها في صدر الاكمة « مدافن قديمة » مقورة في الصخر من عهد الدولة السادسة والدولة الثانيـة عشرة المصرية وقد كانت مطمورة بالرمال التي تسفها الرياح من الصحراء فكشفها السر فرنسيس غرانفيل باشا السردار الاسبق سنة ١٨٨٧ م واخرج منها موميات وتحفاً شتى

وتجاه اسوان فى النيل جزيرة « الفنتين » اتخذها ملوك دولة الخامسة المصرية كرسياً لهم وبنى فيها الملك « مسوفيس » الثالث هيكلاً لا تزال آثارهُ ظاهرة الى الآن وفيها المقياس الذي تقدم ذكره في الكلام على النيل وآثار أخرى قديمة العهد وفي منتصف الشلاّل الاول الواقع في جنوبها جزيرة صغيرة تعرف بجزيرة « سهيل » وُجد فيها سنة ١٨٨٩ حجر قديم مكتوب عليه بالهيروغليفية ان قد حصل جوع شديد في مصر في ايام ملك من ملوك الدولة الثالثة المصرية دام سبع سنين

« خزان اسوان »

خزان اسوان : فهو اعظم مشروعات الري تولت انشاؤه في اوائل سنة ١٨٩٩ وانتهى في اواخر ١٩٠٢ مودة من حجر الغرانيت والسمنت والجبس . وبلغ وزن ما كانوا يخزوا عمله في اليوم الواحد ٢٦٠٠ طن طوله ٢٠٠٠ متر ويمتد من الجبـل الشرقي الى الجبـل الغربي . وعلوه يختلف من ٢٠ متر الى ٤٠ باختلال عمق قاع النهر . وثخانته عند قاعدته ٢٥ متراً وثخانته اعلاه أو هو عرضه من فوق ٧ امتار .

وفي مدار الخزان ١٨٠ فتحة هي نوافذ عليها الابواب من الحديد تختلف سعتها باختلاف مواضعها . منها ١٤٠ نافذة مسطح الواحدة منها ١٤ متراً وار بعون نافذة سطح الواحدة منها سبعة امتار



خزان اسوان

وفي زمن فيضان النيل تترك هذه العيون مفتوحة لمرور المياه بطبيعتها وابوابها المصنوعة من الحجر الجرانيت تفتح وتقفل بواسطة الآلات الرافعة التي فوق جدران الخزان

وفي زمن شدة الفيضان تكون سرعة جريان المياه في الثانية الواحدة ١٢٥٠٠ متر مكعب وفي نهاية التحاريق ٢٢٠ متر

ومن وقت ابتداء الفيضان الى آخره تكون المياه ممزوجة بالتراب الاصفر « الطمي » ومتى صارت صافية وراق لونها تقفل بعض الابواب تدريجاً في مدة مائة يوم ففي هذه المدة يمتلي الخزان بالمياه الرايقة ويشرع في هذا العمل من اول شهر سبتمبر وينتهي في اوائل شهر مارس فيكون امتلاء تماماً

ومياه هذا الخزان تروي جميع الاراضي التي حوله من اوائل شهر ابريل لغاية شهر مايو او شهر يونيو . واذا تأخر الفيضان عن ميعاده فتكون الاراضي محتاجة لمياه الخزان لحد يوليو . ولحد الآن احييت مياه الخزان من الاراضي الميتة خمسمائة وثلاثين الف فدان من المزروعات الصيفية وبلغت مصاريف انشائه ثلاثة ملايين من الجنيهات وهو اعظم عمل انشيء في عهد سمو الامير عباس حلمي باشا خديوينا الافخم . بل من اعظم الاعمال التي انشئت في وادي النيل من عهد التاريخ الى اليوم

« تعلية السد وتسميكه »

ان اعمال مشروع التعمير في السد الحالي حتى يسع ماء اكثر هي اقامة حائط ساند سمكهُ ستة امتار وثمانية عشر سنتمتراً يقاس أفقياً خلف البناء الموجود لصقاً وتعلية بناء القديم وبناء الحائط الساند الى منسوب ١١٤ متراً فوق سطح البحر المالح أي يكون أعلى مما قبل بخمسة أمتار . أما طريق المرور على السد الاصلي فمنسوبهُ مئة وستة وتسعة امتار ومعظم منسوب الخزان مئة وستة امتار فيكون ما يسعهُ من الماء تسع مئة وثمانين مليون عقد مكعب فاذا زاد علو السد خمسة امتار وكان منسوب طريق المرور عليه مئة واربعة عشر متراً وحسبنا حساباً للحائط الساند ولاعتبارات أخرى طفيفة يكون معظم منسوب السد الجديد مئة وثلاثة عشر متراً أي أعلى من المنسوب الاصلي بسبعة امتار وتكون جملة ما يسعهُ الخزان ٢٫٣٠٠٫٠٠٠٫٠٠٠ من الامتار المكعبة ومقدار هذه الزيادة المفرطة وهي ١٣٢٠٫٠٠٠٫٠٠٠ متر مكعب في سنين يكون فيضها معتدلا تكفي لارواء نحو مليون فدان من الارض اكثر من قبل ونفقات السد الاصلي المذكور قد تجاوزت ثلاثة ملايين وجملة ما نفقته الحكومة في اقامة السد على ما هو عليه اليوم خمسة ملايين جنيه مصري

« الاحتفال الكبير في اسوان »

في ١٣ محرم سنة ١٣٣١ — ٢٣ ديسمبر سنة ١٩١٢

ماكادت الغزالة تجود على الوجود بضوءها الساطع الا ورأيت الناس يبرزون من أمكنتهم ميممين مكان الاحتفال وكل يشكر الله ويسبح بحمده . يشكرونه لانهم يعلمون ان وجودهم بالزرع والزرع بالماء والماء حياتهم وقدكانت تلك الحياة معرضة للخطر بسبب التحاريق . فجاء العلم والماء مبيداً لذلك الخطر مزهقاً لروحه . سار الاعيان في باخرة أعدت لهم وسار بعضهم في قطار السكة الحديد وقد التقى الجمعان واحتشد الفريقان في ميدان الخزان عند وصول القطار الى محطة الشلال . سرنا على الاقدام في طريق طرزتها يد القدرة بالازهار ومنت عليها الطبيعة بجمال الموقع وعليل النسيم. وعند ما وصلنا الى ميدان الخزان أقلتنا باخرة كبرى تابعة لحكومة السودان أعدت لذلك الى حيث مكان الاحتفال بجوار الهويس وقد وضع فيه مدرج للجلوس «أنونياترد» وروعي النظام وراحة كل قادم وفي الساعة ٩ والدقيقة ٤٠ شرف مولانا الامير الاحتفال بموكبه الحافل ومظهره المهيب وماكاد يشرق نور سموه حتى سبحت المدافع بحمد ربها وحيتها موسيقى مدرسة اسوان الصناعية والجد وهتف الجمهور لسموه . شرف سموه ليحتفل بعمل نافع وقوة جديدة بل شريان من شرايين جسم الامة بل الدورة الدموية المستمدة من قلب حياتها فلا غرو اذا وجدنا سمو الامير مسروراً جزلا ووجدنا البشر يحيط بالناس ويكاد يلمس في وجوههم . وقف سموه في مكان أعد لموقفه وحضرات النظار ومن جاء بمعيته . ثم بعد ذلك فاه سمو مولانا الامير بالخطبة الآتية

« خطبة الجناب العالي الخديوي »

يا سعادة الناظر

أعد من حظي ان اتشرف على هذا الاحتفال فاني طالما اهتممت اعظم الاهتمام بذلك العمل الكبير ألا وهو خزان اسوان الذي نحتفل اليوم بتمام اعلائه المكمل لبنائه واني لاغتنم هذه الفرصة لاعرب لكم يا سعادة الناظر ولاعوانكم الاجلاء ما يخامر فؤادي من مزيد الارتياح ولاهنئكم كذلك

هذا وان سعادة مصر لا تزال على الدوام موضع عظيم اهتمامي كما اني سأواصل

السير في هذا السبيل على الخطة التي رسمها لي من تقدمني من آبائي واجدادي . وبعدئذ قام جناب اللورد كتشنر وتلا الرسالة الملوكية الآتية

« رسالة »

من جلالة ملك بريطانيا العظمى وامبراطور الهند الى الجناب العالي الخديوي

أمرني جلالة الملك بان ابلغ الى سموكم الرسالة الخاصة التي اتشرف بتلاوتها الآن على مسامعكم الكريمة

أرغب اليكم في هذه الفرصة المباركة بان تعربوا للجناب العالي الخديوي عن تهنئتي القلبية لسموه بمناسبة انتهاء الاثر الجليل الذي يتصل به اسم عمي الدوق أوف كنوت

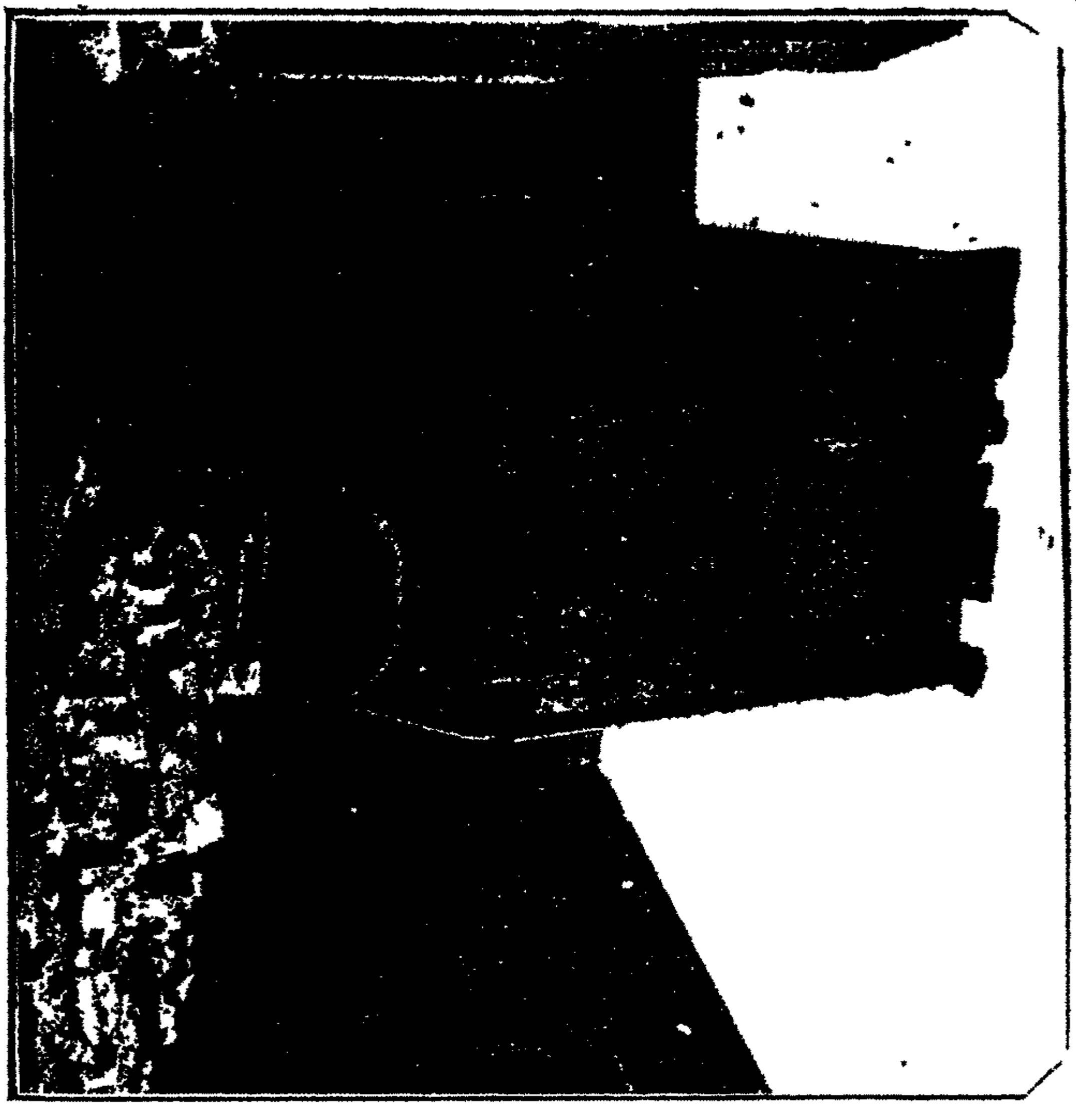
واذا كنت أواصل بنظرى مع الاهتمام الشديد نجاح القطر المصري فاني أشاطر سموه الاغتباط باتمام ذلك الاثر الجليل الذي تنجم عنه مزايا جزيلة متواصلة النفع الى زمن مديد لارباب الاطيان جميعاً ولا سيما لصغار المزارعين

والآن وقد كفل هذا الخزان الفخيم الذي يحتفل سموه باقتتاحه اليوم ورود مياهه الغزيرة للري فقد بات من المتوقع بذلك وبما لدى الحكومة من النظام الشامل للصرف في الجهات الواطية من الدلتا ان يكون لمصر مستقبل زراعي باهر

هذا ولا زلت مستبقياً في نفسي أحسن ذكرى لزيارة سموه اياي بانكلترا منذ عهد قريب

الامضاء « جورج . م . أ . »

وينتهي الشلال الاول عند جزيرة « فيلي » وهو الاسم الذي أطلقه عليها اليونان والرومان وأما المصريون القدماء فقد سموها بما ترجمته « الحدود » وذلك لوقوعها في الطرف الجنوبي للشلال وهو الحد الطبعي بين مصر والسودان . وأهم ما في هذه الجزيرة الآن آثار هيكل جميل الصنعة من بناء البطالسة والرومان يسمى « قصر أنس الوجود » أقاموه لعبادة الاله « ايسس » . وكان المصريون القدماء والاثيوبيون يحترمون هذه الجزيرة ويعدونها من أقدس محلاتهم حتى انهم لم يسمحوا لاحد ان يسكنها الا الكهنة لانه يقال انها احدى مدافن الاله « اوسيرس » الذي لم يجسر أحد ان يحلف باسمه باطلا وقد استمرت عبادة هذا الاله في الجزيرة الى سنة ٤٥٣ م وذلك بعد منشور ثيودوسيون « الذي أصدره ضد الديانة الوثنية » بسبعين سنة . ولما زارها سترابو وجد سكانها من اثيوبيين ومصريين يعبدون الصقر قال « ولكن الصقر



الذي يعبدونه أكبر من صقر بلادنا وصقر مصر ويختلف عنهما في لون ريشهِ وقد قيل لنا انهُ ايثيوبي وعند موته أو قبل موته بقليل يؤتى بغيره من ايثيوبيا والصقر الذي شاهدناه كان مريضاً في حالة النزع وفي هذه الجزيرة مقياس قديم للنيل كالذي في جزيرة الفنتين . وفي الطرف الشمالي منها آثار كنيسة للاقباط الاقدمين

أما البلاد التي من جنوبي الشلاّل الاول الى حلفا فليس فيها الآن ما يستحق الذكر سوى آثارها وأشهر هذه البلاد :

« دَبود » على بعد ½ ١٠ ميل من جزيرة فيلي وهي قرية صغيرة فيها خرائب هيكل الملك أذخر آمن من ملوك ايثيوبيا الذي حكم في أواسط القرن الثالث قبل المسيح ويظنّ انها كانت في بعض العصور الحدّ الفاصل بين مصر وايثيوبيا . الى الغرب

من دبود على يومين منها واحة « كُركُر » وهي واحة صغيرة فيها نخيل وآبار ولكنها مسكونة

« وكلابشة » على بعد ٢٨¾ ميل من دبود وهي بلدة صغيرة واقعة على خط السرطان تماماً وفيها هيكلان قديمان أحدهما أكبر الهياكل في بلاد النوبة أسسه طوطمس الثالث سنة ١٦٠٠ ق . م فتهدم فبنى فوقه البطالسة والرومان الهيكل الباقية آثاره الى الآن ولما انتحل النوبيون الديانة النصرانية طلوا جدرانه بالطين وحولوه كنيسة لهم والهيكل الاخر من آثار رعمسيس الثاني ملك الدولة التاسعة عشرة المصرية نحته في الصخر وجعله تذكاراً لنصرته على الايثيوبيين

« ودكاّ » على بعد ٣٢½ ميل كلابشه من وفيها هيكل أسسه ارجيناس أحد ملوك ايثيوبيا وأتمه وزخرفه البطالسة والقياصرة

« وكوبان » تجاه « دكا » في رأس وادي العلاقي وفيها آثار قلعة حصينة قيل ان رعمسيس الثاني بناها لحماية الطريق المؤدية الى معادن الذهب والزمرد في الصحراء الشرقية

« والمحرّقة » على بعد ٧½ ميل من دكا وقد كانت آخر حد اليونان والرومان الجنوبي في بلاد النوبة . وهناك هيكل من آثار البطالسة والقياصرة حوّله النصارى الاولون الى كنيسة كغيره من هياكل النوبة كما هو ظاهر الى الآن

« والسُّبوع » على ٢٠ ميلا من المحرقة وفيها هيكل جميل من بناء رعمسيس الثاني . قيل سميت المحلة بالسبوع لان الداخل الى هيكلها كان يمشي بين صفين من تماثيل السباع الرابضة التي لا يزال بعضها باقياً الى اليوم

« وكورسكو » وهي بلدة صغيرة على ١٣½ ميل من السبوع وهي أقرب نقطة في نيل مصر الى ابي حمد وبينهما طريق تجارية شهيرة طولها نحو ٢٤٠ ميلا تمر بآبار المرات وقد اتخذت الحكومة هذه البلدة مركزاً من مراكز العسكرية في الحدود مدة الثورة المهدية وبنت فيها ثكنات للعساكر فزهت ولكن فقدت أهميتها الآن لاسيما بعد انشاء سكة الحديد من حلفا الى أبي حمد وأصبحت مخزن فحم للوابورات التي بين اسوان وحلفا

« عَمَدة » على ٧½ من كورسكو وفيها هيكل صغير من عهد الدولة الثامنة عشرة المصرية وهو أقدم هياكل النوبة وأجملها

« الدرّ » على ٤ ميل من عمدة وفيها هيكل صغير منحوت في الصخر أقامه رعمسيس

الثاني لعبادة (آمن رع) وكان اسمها في القديم ما ترجمتهُ مدينة هيكل الشمس .
وكانت مركز الكشاف الذين حكموا النوبة منذ أيام السلطان سليم وبقيت كذلك الى الفتح المصري سنة ١٨٢٠ فدخلت في حوزة مصر ولا يزيد عدد سكانها الآن عن الالف نسمة وا كثرهم من سلالة الكشاف

« ابريم » على بعد ١٣ ميلاً من الدر وهي قرية صغيرة في مكان بريمس القديمة وفيها آثار من أيام الدولة الحادية عشرة المصرية فما بعدها ومنها آثار قلعة من عهد الرومان مبنية بحجارة أقدم من ذلك العهد وعلى أحد تلك الحجارة اسم طهراق الذي ملك ايثيوبيا ومصر سنة ٧٠٠ ق . م . وهي احدى الحاميات الثلاث التي اقامها السلطان سليم في بلاد النوبة بقيت ذرية عساكر السلطان سليم فيها الى ان طردهم الغز (المماليك) منها سنة ١٨١١ م وهم فارون من وجه محمد علي باشا الى سنار

« وابو سمبل » على ٣٤ ميلاً من ابريم وفيها هيكل منحوت في الصخر في منحدر تلة تطل على النيل من بناء رعمسيس الثاني وهو اعظم الهياكل في بلاد النوبة واجلها

« وفريج » تجاه ابي سميل وفيها هيكل صغير منحوت في الصخر لا منحوتب الثالث اتخذه نصارى النوبة كنيسة لهم في اول عهد النصرانية عندهم وفيهِ الى الآن صورة للمسيح وهناك كتابة ١٤ سطراً بالاحرف القبطية ولغة غير مفهومة سماها بعضهم اللغة الايثيوبية المسيحية . وفي التلة القائمة عليها قلعة ابريم حجر عليه كتابة بهذه اللغة

« وطوشكي » وقد اشتهرت حديثاً للواقعة التي حصلت فيها سنة ١٨٨٩ بين الجيش المصري بقيادة غرنفيل باشا السردار الاسبق وجيش الدراويش بقيادة عبد الرحمن النجومى المشهور وقد اقيم في مكان الواقعة حجر تذكاراً لها

***

فلنرجع لما سبق ذكره من ترك الوابور الذى تركنا راكبين فيه في الشلاّل الاول وتابعنا السير عند شروق الشمس بين شواهق الجبال وانارة الافاق وكنت في قمرة الوابور فاخذت نظارتي وشرعت في مشاهدة سواحل النيل شرقاً وغرباً . وكانت تلك الاصقاع قبل الثورة محمد احمد المهدى مزينة معمورة من الجهتين بالقرى والكفور لغاية وادى حلفا والآن لا يشاهد على جانبي النيل على الخرابات وبعض الاستحكام المنهدمة . وفي بعض الجهات يضيق مجرى النيل بين الجبال بدرجة حتى لا يزيد عرضه فيها عن خمسة مائة امتار .

والحاصل الوابور الآنف ذكره دام في مسيره طول الليل محصوراً بين تلول من الرمل والجبال وفي اليوم الثاني وصلنا الى وادي حلفا قبل الظهر وكان الموجودين فيها من المأمورين وضباط العساكر مصطفين على شاطئ النيل في انتظار قدوم دولة الامير يوسف كمال باشا لتقديم واجبات الاحترام والتعظيم وبعد السلام عليهم ركب القطار الذي كان مجهزاً للسفر من المحطة الى الخرطوم سائراً للجهة المقصود اليها

ونرجو من القراء الكرام المساعدة في بيان الاحوال السابقة واللاحقة لتاريخ وادي حلفا

« مدن محافظ حلفا وآثارها »

« فرَص » وهي اول محافظة حلفا وحد السودان الشمالي على النيل كما مرَّ وفيها اطلال مدينة قديمة يظن انها من عهد الرومان وخرائب اقدم من هذا العهد وفي الشلال التي الى غربيها ثلاثة اضرحة قديمة منحوتة في الصخر حوَّل نصارى النوبة احداها الى كنيسة وغشُّوا جدرانها بكتابات قبطية بينها كثير من آيات التوراة والمواعظ . وتجاه فرص في الشرق «برية ادندن» التي هي آخر حد مصر الجنوبي

« حلفا » وهي قرية صغيرة على ٢٢٦ ميلاً من الشلال الاول وفي عرض شمالي ٥٥َ ٢١° وطول شرقي ١٩َ ٣١° والى جانبها قشلاق حصين اقام فيه الجيش المصري ايام الثورة المهدية محافظاً على الحدود وبنى فيه اسبيتالية العسكرية وسجناً حربياً . ومنه تبتدئ السكة الحديد فتتفرع فرعين فرعاً يحازي النيل الى الكرمة وفرعاً يقطع الصحراء الى ابي حمد والخرطوم . وفيه معمل لصبّ الحديد والنحاس على شبه عنابر بولاق ومخازن لادوات سكة الحديد ووابورات النيل . وفيه مركز المحافظة والقومندانية وجامع قديم

والى شماليهِ نحو ميلين منه بلدة «التوفيقية» التي كانت تعرف قديماً بدبروسة فبنى فيها المغفور له توفيق باشا الخديوي السابق جامعاً فسميت باسمه وقد اجتمع اليها التجار فاقاموا فيها بندراً من اهم البنادر التجارية في الحدود

وبين التوفيقية وفرص آثار جمة من عهد الفراعنة والرومان ونصارى النوبة . تجاه حلفا في البر الغربي بقايا هيكلين قديمين احدهما من بناء اوسرتسن الاول من الدولة الثانية عشرة المصرية وقد وجد في احدى غرفه المعروفة بقدس الاقداس حجر عليه صورته وصور رؤوس القبائل التي تغلب عليها فنقل الحجر الى فلورنسا بايطاليا .

وثانيهما من بناء طوطمس الثاني والثالث من ملوك الدولة الثامنة عشرة المصرية وفيه اخبار انتصار طوطمس الثالث على الليبيين وغيرهما واسماء بعض امراء كوش من ايام الدولة التاسعة عشرة والعشرين

والى الجنوب من حلفا على بعد ميلين منها يبتدئ الشلال الثاني المنسوب اليها والى الجانب الغربي منه بعد خمسة اميال من حلفا حجر عظيم مشرف على الشلال يعرف « بحجر ابي صير » يقصده السياح للتفرج على الشلال من اعلاه وقد اعتادوا ان ينقشوا اسماءهم عليه تذكاراً لزيارتهم الشلال فحبذا هذه العادة لو اقتصرت على مثل هذا الحجر فان نقش الاسماء على حجر «غشيم» اثر تاريخي جميل لكنك قلما تزور آثاراً من الآثار البديعة التي تركها لنا الاولون الا وتجد جدرانه مشوهة باسماء السياح والزوار الذين ينتابونه وقد ترى في بعض الآثار كتابة تاريخية او نقشاً بديعاً من اجمل ما صنعته يد انسان بجانب تلك الكتابة او النقش او في وسطهما اسم شخص منقوش اقبح نقش باحرف كبيرة كأن صاحبه يريد ان نعتاض اسم جنابه عن زخرف ذلك الأثر المفيد وبهائه . ولله في خلقه آيات

وتجاه ابي صير في البر الشرقي خور موسى باشا الذي تقدم انه كان الحد بين مصر والسودان مدة الفتح المصري الاول . اما موسى باشا المنتسب اليه هذه الخور فهو احد ولاة السودان الذي تولى سنة ١٢٨١ هـ ١٨٧٩ م وفي ايامه تمرد جماعة من عساكر الارناؤط وفروا من الخرطوم وهو اذ ذاك في مصر فخرج للقائهم ببعض الجند فالتقاهم وقهرهم عند هذا الخور فسمي باسمه

« وقلعة معتوقة » على بعد ثلاثة اميال من ابي صير وهي مبنية بناءً متيناً بالطوب النيّ والى جنوبها هيكل صغير وكلاهما من بناء اوسرتس الثالث خامس ملوك الدولة الثانية عشرة المصرية . وهناك خرائب مدينة قديمة

«وسمنة» وهي حلة صغيرة على ١٣ ميلاً من سرس جعلها اوسرتس الثالث الحد الفاصل بين مصر والسودان وبجانبها الشلال المنسوب اليها

«وسرس » وهي قرية صغيرة على بعد ٣٣ ميلاً من حلفا وقد مدت اليها سكة الحديد من حلفا في الفتح الاول واشتهرت في الثورة السودانية اذ اتخذها الدراويش النقطة الامامية لهم في حملتهم المشهورة على مصر فطردهم الجيش المصري منها وبنى طابية على رأس رابية هناك وعززها بالمدافع والعساكر وبقيت الحامية الى ان كانت الحملة لفتوح دنقلة سنة ١٨٩٦

« وعُكاشة » وهي بلدة صغيرة على بعد ٣٩ ميلاً من سمنة بطريق النيل وفيها قبة تزار للشيخ العكاشة الذي تسمت البلدة باسمه . وتجاه عكاشه في الغرب بانحراف قليل الى الشمال نبع ماء حار قريب من النيل يستحم به اهل البلاد ويعتقدون انه نافع للامراض الجلدية والباطنية

« مدن مديرية دنقلة وآثارها »

« وفَركة» وهي قرية صغيرة بينها وبين عكاشه عقبة طولها نحو ١٥ ميلاً وقد اتخذها الدراويش مركزاً لهم في حملتهم على مصر ووقفوا فيها لصد الجيش المصري عن التقدم الى دنقلة في ٧ يونيو سنة ١٨٩٦ فكانت هناك واقعة شهيرة عرفت بواقعة فركة . وتعرف البلاد التي بينها وبين حلفا ببلاد بطن الحجر لكثرة العقبات في برّها والشلالات والجزر في بينها

« وكوشة » وتبعد نحو ٧ اميال عن فركة وقد اتخذها الجيش مركزاً له في حملته على دنقلة سنة ١٨٩٦ وهناك طابية من عهد الحملة النيلية

« وجنس » على نحو ٣ اميال من كوشه اشتهرت في الثورة المهدية بواقعة جرت فيها بين الدراويش والجيش المصري سنة ١٨٨٥ ونسبت اليها

« عمارة» جنوب جنس وبجانبها هيكل قديم من آثار الايثيوبيين « وعَبري » جنوبي عمارة على نحو ٥ اميال منها وقد كانت مركز بلاد سكوت مدة الفتح الاول وتجاهها في الغرب « ساقية العبد » وهي واقعة في فم مفازة طولها ٥٨ ميلاً تؤدى الى « واحة سايمة »

« وكويكة » على ٧ اميال من عبري وفيها قبة تزار للشيخ ادريس محجوب جد الشيخ ادريس محجوب كبير الطريقة المرغنية في بلاد سكوت الآن وتجاه كويكة في النيل « جزيرة ساي » المار ذكرها وهناك خرائب قلعة قديمة من عهد السلطان سليم الفاتح

«وسواردة» على ٨ اميال من كويكة اتخذها الدراويش النقطة الامامية لهم بعدما طردهم الجيش من سرس فبقوا حتى اخرجهم منها ايضاً بعد واقعة فركة

« وقبة سليم » تجاه سواردة وهي قبة تزار لولي من اوليائهم يعرف بهذا الاسم ومما يروى عن كرامته انه اخذ بيده رمحاً طويلاً ونزل في قارب الى وسط النيل تجاه القبة فركز الرمح في قعره وقال فليكن جزيرة فكانت «جزيرة قبة سليم» الى اليوم

وبجانب القبة بلدة صغيرة تعرف باسمها . والى جنوبها جبل دوشة وهو آخر حدود بلاد سكوت . ويليه بلاد المحس الممتد الى شلال حنك كما مرّ

« وصاب » وهي حلة كبيرة على نحو ٨ اميال من قبة سليم . وبقربها آثار هيكل فخيم من بناء الايثيوبيين « وكويه » على ١٢ ميلاً منها

« وتزة » على نحو ٥ اميال من كويه وهي حلة كبيرة وفيها آثار قديمة

« وابو صاري » على نحو ٥ اميال من تزه وبينها كوشه مفازة طولها ٣٦ ميلا تعرف بعقبة ابي صاري

« ودلقو » على نحو ١٦ ميلا من ابي صاري وهي مركز المحس الآن . وفيها اطلال قلعة قديمة لها برج يصعد اليه بسلم لوابي ويحيط بها سورمتين عرضه من اسفله نحو ٨ اقدام وتجاهها « جبل ساسي » الذي كان عاصمة ملوك المحس قبل الفتح المصري وعلى رأسه الآن كرسي من حجر كانوا يجلسون عليه عند تتويجهم

« وكوكيّ » جنوب جبل ساسي وقد كانت مركز المحس مدة الفتح المصري

وكدّين » وهي واقعة في رأس شلال خيبر وفيها خرائب قلعة قديمة

« وفرّيج » وهي بلدة طويلة عامرة على نحو ١٨ ميلاً من دلقو

« وجزيرة اردوان » وهي جزيرة كبيرة يخترقها تلال صخرية . وفيها نخيل واشجار . وبينها وبين كوية مفازة تعرف بقصبة كوية طولها نحو ٣٦ ميلاً

« وقبة ابي فاطمة » وهي قبة تزار لشيخ معروف بهذا الاسم واقعة في قدم شلاّل حنك وفي فم عقبة تؤدي الى فريج طولها نحو ٢٠ ميلاً

وتجاه القبة في النيل « جزيرة طنبس » من جزائر شلال حنّك التي اشتهرت في تاريخ ايثيوبيا . وفيها آثار قديمة من ذلك العهد وقصر كبير للملك محمد ودطنبل من ملوك ارقو السابقين وهو مدفون فيه . واما بلدة حنك التي ينسب اليها الشلال الثالث فهي بلدة كبيرة في رأس هذا الشلاّل غرب النيل

« والكرمة » جنوبي ابي فاطمة وعندها ينتهي خط سكة الحديد الممتد من حلفا وطوله ٢٠٣ اميال والنيل منها فصاعداً الى الشلال الرابع لاشلال فيه يصلح لسير السفن كل ايام السنة . وعلى ٦ اميال منها الى الجنوب جزيرة ارقو المار ذكرها وقد كانت قبل الفتح المصري مركز مملكة من اشهر ممالك دنقلة

« والحفير » تجاه الكرمة وقد تحصن بها الدراويش ايام زحف الجيش لفتح دنقلة سنة ١٨٩٦ وجرت فيها وقعة عرفت باسمها

« ودنقلة » وهي عاصمة مديرية دنقلة على ٢٥٩ ميلاً من حلفا وفي طول ٢٩َ ٣٠°
ويقال لها دنقلة الجديدة تميزاً لها عن دنقلة العجوز التي كانت عاصمة النوبة السفلى
وتسمى ايضاً الاوردي او العرضي لان اسماعيل باشا بعد فتح السودان اختارها عاصمة
للبلاد بدل دنقلة العجوز فوضع فيها اوردياً « أي فيلقاً من العساكر » فاطلق عليها
اسم الاوردي وحُرّف الى العرضي . وقد كان عدد سكانها في بدء الثورة المهدية نحو
خمسة آلاف نسمة وكان فيها ديوان المديرية وثكنة للعساكر ومكتب للتلغراف فاخلتها
الحكومة المصرية بسبب الثورة في سنة ١٨٨٥ فسقطت بيد الدراويش فخربوها
وعمروا « ديماً » على بعد ٦ اميال منها وجعلوه مركز المديرية الى ان عادت الحكومة
فاسترجعتها من الدراويش عنوة في ٢٣ سبتمبر سنة ١٨٩٦ وخربته وعمّرت المدينة
ثانية في مكانها الاول ومن دنقلة طريق تجارية الى الفاشر وطريق الى الابيض . وفي
شماليها « حلة مراغة » وهي من بناء المماليك الذين فروا من وجه محمد علي باشا

« والخنّاق » وهي حلة صغيرة على ١٢ ميلا من دنقلة وقد كانت قديماً مركز
مملكة من ممالك دنقلة التي اشتهرت قبل الفتح المصري وبقربها آثار قصر جميل يقال
له قصر الملك ودنمير وهو احد ملوكها الاقدمين وبجانبها قبب للاشراف الدناقلة

« وحلة الصحابة » على ٣ اميال من الخنّاق وهي حلة كبيرة في ظاهرها قبب
قديمة قيل انها مدافن الصحابة الذين رافقوا جيش المسلمين لفتح دنقلة ولكن مؤرخي
الاسلام لا يعتمدون ذلك

« وحلة ساقي بشير » على نحو ٦ اميال منها وفيها قبة تزار لشيخ معروف بهذا
الاسم. وتجاهها في النيل مجموع جزائر ثلاث تسمى جزائر الاشراف اشهرها جزيرة
صرار التي ولد فيها محمد احمد المتمهدي

« والخندق » وتبعد ٤٤ ميلاً عن دنقلة الاوردي وهي بلدة عامرة مبنية على
مرتفع يشرف على النيل وفيها ٣ جوامع احدها قائم على آثار هيكل قديم من عهد
الايثيوبيين وقد كانت بعد فتح الاسلام للنوبة كرسي مملكة من ممالك دنقلة وهي الآن
مركز مأمورية وفي وسطها قلعة قديمة مبنية بالآجر

وفي الصحراء الغربية على محاذاة البلاد التي بين دنقلة الجديدة والخندق وادٍ رمليّ
طوله نحو ٦٣ ميلا وعرضه نحو خمسة اميال يسمى «وادي الكعب» يسكنه فصيلة من
عرب الكبابيش وفيه نخيل وآبار كثيرة اشهرها بئر السواني على ٢٤ ميلاً من دنقلة وبئر
المرقوم على ٢١ ميلاً من الخندق . وهو طيب الهواء والماء واهل البلاد يقصدونه

افواجاً في كل صيف في شهر مسرى للتملل بهوائه والاستحمام برماله وذلك ان الواحد منهم يحفر حفرة في الرمال على قدره ويضطجع فيها ثم يحثو الرمال فوقه الى الرقبة ويجعل له خيمة من الجريد تظلله من الشمس ويبقى كذلك من نصف ساعة الى ساعة حتى يسيل العرق منه صبيباً فيخرج من الحفرة كأنه قد غسل بماء حمام حار وهم يعتقدون انه نافع للامراض العصبية والباطنية والحميات

« وناوى » على نحو ٢٢ ميلا من الخندق وفي جوارها ترب قديمة وقبب تزار قيل انها قبور الصحابة

« ودنقلة العجوز » قائمة فوق تلة على شاطئ النيل الشرقي على نحو ٢٢ ميلا من ناوى و ٨٨ ميلا من دنقلة الجديدة وقد كانت قديماً كرسي مملكة النوبة السفلى في في زمن النصرانية وبقيت بيدهم الى ان فتحها المسلمون سنة ٧١٧ ه كما مرّ ثم دخلت في حكم ملوك سنار وهاجمها الشايقية في اواسط القرن الثامن عشر للمسيح فخربوها وقتلوا اهلها فانحطت اهميتها من ذلك الوقت . وهي الآن حلة صغيرة وفيها جامعان احدهما قائم على اطلال كنيسة قديمة للنصارى كان في صدره حجر منقوش عليه تاريخ الفتح الاسلامي لدنقلة . وفيها مقامات قيل انها للصحابة وان منها مقاماً لعبد الرحمن ابن ابي بكر الصديق . وفي طرف البلدة خرائب قلعة قديمة تدل آثارها على انها كانت حصينة جداً . وفي جنوبها جزيرة شهيرة تعرف بجزيرة «حمور» وهي في غاية الخصب

« وابو قس » على ٤٢ ميلاً من الخندق وهي بلدة صغيرة فيها سوق عامة تفتح كل يوم خميس . ومنها طريق تجارية للابيض طولها ٣٥٠ ميلا وطريق للفاشر طولها ٥٩٢ ميلا . وفي جوارها قبة حاج سالا وهي قبة تزار

« والدّبة » على نحو ١٦ ميلا من ابي قس و ١٠٤ من دنقلة وهي حلة صغيرة قائمة على تلة صغيرة في رأس كوع النيل واقرب بقطعة الى أم درمان بينهما طريق شهيرة في الصحراء مارة بآبار جبرة طولها ٢١٤ ميلا ومنها طريق تجارية الى الابيض والفاشر وسوقها يوما الاثنين والجمعة وقد جرت فيها في بدء الثورة المهدية واقعته شهيرة وفيها بقايا طابية حصينة تسع نحو الف رجل . وفي اراضيها كثير من الاخشاب المتحجّرة . والى شماليها على بعد ميل منها بلدة تعرف بالكر وعسكر فيها الانكليز مدة الحملة النيلية وبنوا فيها منازل من طوب باقية الى اليوم

« ودبة الفقراء » على نحو ٤ اميال من الدبة وفيها اربع قبب تزار للدواليب الدناقلة وفى جنوبها « جزيرة تنقسي » يسكنها بقية من الفونج الذين اتوا من سنار

« وابودوم قشابي » وهي بلدة كبيرة في اول بلاد الشايقية التي تمتد الى الشلال الرابع وتبعد نحو ٨ اميال من ابي دوم قشابي

« والدفار » عن يمن النيل وتبعد نحو ٩ اميال عن ابي دوم قشابي ويزعم اهل دنقلة انها بلدة نمرود بن كنعان وان الملك موسى سكنها بعد الاسلام واسس فيها مملكة دامت الى ما قبل الفتح المصري فخربها الشايقية وهي الآن حلة صغير وفيها قلعة خربة قائمة على صخرة كبيرة . وبقربها جزيرة عامرة تسمى قانتي يسكنها ذرية ملوك الدفار مع الشايقية وفيها آثار قديمة وجامعان ومسجدان

« والختَّاني » على ½ ٣ ميل من الدفار وهي حلة صغيرة وبقربها خرائب قلعة قديمة متينة تنسب اليها وهي قائمة على صخرة بينها وبين النيل طريق حرجة الى الغاية . وبين الدفار والختاني قبة تزار لاحمد ودبيلي من فقهاء العونية الشايقية المتقدم ذكرهم . وهناك خرائب بناء قديم بعيد عن النيل يعرف « بحوش بابا بناه بشارة قبله جد اسماعيل الولي الكردوفاني المشهور قيل انه كان ذا غنى فاحش فاستخدم في بنائه البنات الابكار وانفق عليه مالاً لا يحصى

« وامبقول » عن يسار النيل على ٣٢ ميلاً من الدبة ومنها طريق تمر بآبار البيوضة الى وادي بشارة طولها ١٥٣ ميلا وطريق تمر بآبار الجكدول الى المتمة طولها ١٧٦ ميلا

« وكورتي » عن يسار النيل على بعد ½ ٣ من امبقول وهي حلة صغيرة . ومنها طريق الى المتمة تمرُّ بالجكدول طولها ١٧٦ ميلا

« وحنَّك » وهي بلدة كبيرة عن يمين النيل تبعد ٢٠ ميلا عن كورتي وهي مركز ملوك الشايقية الحنكاب والآن مركز مأمورية تعرف باسمها . وبين حنك وكورتي جزيرة مساوى وهي جزيرة عامرة سكن فيها المرحوم محمد عثمان المرغني الشهير فولد فيها ابنه السيد المرغني

« وتنقاسي » عن يسار النيل وتبعد ٤ اميال عن حنّك وهي بلدة كبيرة عامرة وفيها سوق من اشهر اسواق دنقلة تفتح يوم الثلاثاء من كل اسبوع وتأتيها التجار من دنقلة وبربر والخرطوم ببضائع السودان ومصر . وهي في رأس عقبة تعرف بعقبة العريان فيها محل خرب يسمى الحوش الابيض قيل كان مركز ملوك الشايقية في اول سلطنة الفونج فجرت فيه بين الحنكاب والسوراب وقائع دموية فخرب

« ومروَى » وهي من اشهر قرى دنقلة واكبرها واقعة عن يمين النيل على ١١

من حنك وهي مركز ملوك الشايقية العادلاناب . ومنها طريق في صحراء النوبة الى دنقلة الاوردي وهي معطشة وعرة طولها ١٠٣ اميال

« وصنم » تجاهاً عن يسار النيل وهي حلة كبيرة وفيها تدل على قدمها واهميتها ومنها طريق الى بربر تمر بآبار السواني طولها نحو ١٦٠ ميلا وطريق الى المتمة تمر بابآر الجكدول طولها نحو ١٨٠ ميلا. وعلى مسافة ٧ اميال منها في الصحراء بئر شهيرة معروفة ببئر الغزالي ماؤها عذب لا ينقطع . وهناك خرائب دير من عهد النصرانية في النوبة . وبقربه آثار مدافن عليها كتابات باليونانية والقبطية

وكانت صنم في الفتح الاول مركز للتلغراف الذي يصلها ببربر بطريق الصحراء وبنى فيها الانكليز سنة ١٨٨٥ طابية تهدمت . وامر التعايشي بعدهم ببناء جامع فيها فبني وترك بلا سقف ثم اتخذها السردار سنة ١٨٩٧ مركزاً للحملة على بربر

« والدويم » على ٣ اميال من صنم وفيها قبة كبيرة تزار للشيخ عبد الرحمن ودحاج كبير الدويمية المار ذكره وهي القبة الوحيدة المبيضة في السودان ولذلك تسمى بالقبة البيضاء وفيها جامع كبير ومسجد لتعليم القرآن تأتيه الطلبة من جهات بعيدة

« والبرقل » وهي حلة عامرة عن يمين النيل على بعد ٧½ ميل عن مروى وهي في مكان نبته القديمة عاصمة ايثيوبيا وبجانبها جبل البرقل المشهور وفيه آثار جليلة من الهياكل والاهرام

« ونوري » تجاه البرقل وهي حلة كبيرة وبجانبها ١١ هرماً من اهرام نبته

« والبلل » وهي حلة كبيرة عامرة بقرب نوري وبينهما مقام للنبي عزير على تلة فوق النيل يزوره اهل البلاد للتبرك به . قيل ولم يكن نبياً بل كان ولياً صالحاً

« والدقايات » عن يسار النيل على نحو ٨ اميال من البرقل وهي حلة طويلة وفيها طريق شهيرة الى بربر تمر بآبار السواني طولها ١٤٦ ميلا وتكثر جداً الجزر والشلالات في النيل من البلل فصاعداً الى ابي حمد فقد عدّوا الجزر منها الى الدقايات فقط فكانت نحواً من ٩٠ جزيرة . وعلى نحو ٢٠ ميلا منها الشلال الرابع

« مدن مديرية بربر وآثارها »

« حلة برتي » على نحو ١٩ ميلاً من الشلال الرابع وهي حلة طويلة عن يسار النيل في اول حدود بربر النيلية

« وحلة كربان » على ١٦ ميلاً من برتي وقد اشتهرت للواقعة التي جرت فيها

بين الجيش المصري والدراويش في الحملة النيلية سنة ١٨٨٥

« والسلامات » على ١٩ ميلاً من كربكان وهي مركز بلاد المناصير. وعمار هذه البلاد كلهُ عن يسار النيل واما عن يمين النيل فخراب لا يسكنه الاّ بعض العرب المتبدّية . وفيها قاعة الكرمل وهي في ظن المسيو كايو انهـا القلعة التي التجأت اليها (كنداكة) عند فرارها من وجه بطليموس سنة ٢٣ ق.م

«وحلة ابي حمد » وهي حلة صـغيرة واقعة عن يمين النيل في رأس كوع لهُ في عرض شمالي ٣١ ١٩ وطول شرقي ٢١ ٣٣ وعلى ٥٥ ميلا من السلامات و١٣١ ميلاً من بربر وقد اشتهرت لوقوعها في اول الطريق التجارية المؤدية الى كورسكو المتقدم ذكرها وهي منسوبة الى شيخ مدفون فيها وقبره يزار. وقد اعتاد التجار ان يودعوه ما لا يحتاجونه من امتعتهم في سفر الصحراء قالوا فتبقى هناك بحماية الشيخ لا يمسها احد حتى يعودوا من السفر . وقد اشتهرت ابو حمد مدة الثورة المهدية فتخذها الدراويش حامية لهم عززوها بالطوابي والمدافع وبقوا الى ان اخرجهم الجيش المصري منها سنة ١٨٩٧ بعد واقعة عنيفة عرفت باسمها. وتجاهها جزيرة مقرات المار ذكرها

« وبربر » وهي عاصمة مديرية بربر على ٤٣٨ ميلاً من دنقلة العرضي و ١٩٦ ميلاً من الخرطوم في عرض ١٨ ١ وطول شرقي ٣٤ ٤ . قيل سميت بربر لانه كان يحكمها في القديم امرأة تسمى بربرة . وتسمى المخيرف ايضاً قلوا وهي مشتقة من الخريف لانها من اطيب بلاد السودان هوا٠ . وقد كانت بربر في عهد مملكة سنار كرسي مماكة الميرفاب وسلمت لاسماعيل باشا فاتح السودان بلا قتال وزادت شهرتها بعد الفتح المصري حتى فاقت شهرة شندي واخذت مركزها في التجارة فصارت ترد اليها البضائع من مصر والحجاز والهند عن طريق النيل والبحر الاحمر واشهر طرقها التجارية : طريق الى اسوان طولها ٤٧٣ ميلا وقد مر ذكرها وطريق الى كورسكو تمر بأبي حمد طولها ٣٦٦ ميلا وطريق الى سواكن طولها ٢٤٥ ميـلا وطريق الى مصوع تمر بكسلا طولها ٥٤٣ ميلا . ووقعت بربر بيد الدراويش في سنة ١٨٨٤ فخربوها وبنوا ديماً في شماليها فما عادت الحكومة اليها بعد الفتح الاخير سنة ١٨٩٧ جعلت هذا الديم مركزاً موقتاً لها

وفي بربر قبة تزار للشيخ زين العابدين المنتسب الى بني امية قيل انه جاءها من شنقيط ببلاد المغرب وتوفى فيها سنة ١٢٨٣ هـ وكان على الطريقة الجيلانية الكتبية وبين بربر وابي حمد عدة بلاد للميرفاب والرباطات منها « الفريخة » على ١٢ ميلا من

بربر قيل سميت بذلك لانه كان يحكمها فريخة او جارية صغيرة تحت يد بربرة التي حكمت بربر . وبجانبها اطلال بلدة قديمة تعرف الان بالدانقيل « والعبيدية » على ٦٨ ميلاً من بربر وقد اتخذها الجيش مركزاً له في واقعة الاتبرة وبنى فيها ثلاث بواخر حربية . « والباوقة » في شمالي العبيدية غربي النيل وقد كانت مركز ملك من ملوك الميرفاب

« والغبش » تجاه بربر وقد كان فيها عند فتح اسماعيل باشا لسنار مدرسة شهيرة لتعليم القرآن وآداب العربيـة وهي المدرسة التي تفقه فيها محمد احمد المتمهدي قبل ادعائه المهدية .والى جنوبي الغبش على نحو ٣ اميال منها جبل شاهق بنى عليه محو بك احد ولاة السودان قصراً تخرب

« والدامر» وهي بلدة عامرة على ٧ اميال من مصب الاتبرة بالنيل و٣١ ميلاً من بربر وهي مركز المجاذيب فقهاء الجعليين المار ذكرهم ولهم فيها مدرسة قديمة مشهورة لتعليم القرآن . وسوقها يوم الجمعة

« البجراوية » وهي حلة صغيرة على ٤٨ ميلاً من مصب الاتبرة قائمة على اطلال مدينة مروى القديمة . وعلى التلال المجاورة لها مجموعان من الاهرام في احدهما اهراماً وفي الآخر ثلاث اهرام . والى شماليها جبل صغير يعرف (بجبل أم علي) سمي بذلك نسبة الى امرأة دفنت في رأسه تعرف بهذا الاسم وقد صعدت الى اعلى الجبل فلم اجد للقبر اثراً سوى حجرين قيل انها دفنت هناك بحسب وصيتها . وبجانب الجبل حلة صغيرة فيها اربع قباب للشيخ حامد ابو عصابة من العمران الجعلين واولاده . وتجاهه في النيل جزيرة الشبيلية وهي اكبر جزر النيل

« وشندى » على نحو ٢٣ ميـلا من البجراوية ١٠٤ اميال من الخرطوم وقد كانت مركز مملكة الجعلين في عهد مملكة سنار وكانت اذ ذاك من اهم مراكز التجارة في السودان نخربها الدفتردار في بدء الفتح الاول لغدر ملكها الملك نمر باسماعيل باشا نجل محمد علي ثم عمرت ولـكنها لم تعد الى اهميتها التجارية بعد وسوقها يومي الاثنين والخميس

« والمتمة » تجـاه شندى وقد اشتهرت في آخر مملكة سنار والثورة المهدية وخربهـا الامير محمود احد امراء التعايشي في ١ يوليو سنة ١٨٩٧ م . تخريباً تاماً ولـكن عادت بعد الفتح الاخير فعمرت وقد كانت مشهورة قديماً في حياكة الدمّور ولاسيا النوع المعروف بالمرفعات وهو نسيج (رفيع) له حاشية من حرير ملوّن تلبسه

النساء. والى جنوبيها حلة صغيرة تسمى (خروق) باسم شيخ مدفون هناك منذ عهد مملكة سنار وله مقام يزار قد عسكر فيها الانكليزية مدة الحملة النيلية سنة ١٨٨٥

الطريق		المسافة بالاميال	درجه اولى غ . ص	درجة ثنية غ . ص	درجة ثالة غ . ص
من الشلال الى حلفا	بالنيل	٢٢٦	٤٠٠	٢٠٠	٤٠
من حلفا الى الكرمة	بسكة الحديد	٢٠٣		١٠٢	٤١
من حلفا الى الخرطوم	بسكة الحديد	٥٧٥		٢٨٨	١١٥
من الخرطوم الى الرصيرص	بالنيل الازرق	٣٨٠	١٠٢٦	٥٣٢	١٢٦
من الخرطوم الى مشرع الريك	بحر الغزال	٧٤٠	١٩٩٨	١٠٣٦	٢٤٦
من الخرطوم الى كوند وكرو	بحر الجبل	١٠٨١	٢٩١٨	١٥١٣	٣٦٠

وفي فصل السياح الذي هو فصل الشتاء تضيف مصلحة سكة الحديد عربات خاصة الى قطاراتها للنوم وتجعل الاجرة على الشخص الواحد من حلفا الى الخرطوم ١٦ جنيهاً ذهاباً واياباً ما عدا الاكل وبين اسوان وحلفا ١٧ جنيهاً ذهاباً واياباً مع الاكل. ويجد المسافرون من مدن اسوان وحلفا والخرطوم لوكندة جميلة للاكل والمنام. ومن رام السفر من شرقي السودان وغربيه يجد قدر ما يشاء من الابل والحمير والجمال باجرة من ثمانية الى اثنى عشر غرشاً والحمار بخمسة غروش في اليوم. ويجد المسافر الى سواكن محلاً على وابورات الشركة الخديوية التي تسفر من السويس مرتين في الشهر اي في الاول والخامس عشر وتعود في نحو العاشر والرابع والعشرين من كل شهر بالاجرة الآتية : ٨ جنيهات و ٢٥٠ ماليما في الدرجة الاولى و ٦ جنيهات و ٢٥٠ ماليما من الدرجة الثانية و ٣ جنيهات بلا طعام في الدرجة الثالثة

* * *

وفي ٨ محرم سنة ١٣٢٨ قمنا من وادي حلفا بالسكة الحديد قاصدين التوجه الى الخرطوم الذي سبق الكلام عليها ووصلنا قبل الغروب بساعة وعند وصول القطار الى محطة الخرطوم صار نقل امتعتنا الى احد وابورات شركة كوك وكان وابور ودهبية ومعونة حيث كانوا مهيئين ومستعدين لانتظار دولة الامير المشار اليه يوسف كمال باشا في النيل الازرق الواقع على الساحل الغربي امام الخرطوم وبعد الاستراحة ساعتين في الدهبية توجهنا الى اللوكندة المسماه « روستوران دركاوب » الكائن بالقرب من شاطئ النيل الازرق على اراضي مرتفعة وتناولنا فيه طعام العشاء و

فيها من الاميركان والانكليز والفرنساويين كثيرين مع عائلاتهم القادمين بقصد السياحة وبعد المحاورات مدة ساعتين مع هؤلاء الذين داروا في الارض وعرفوا كلما فيها . عدنا الى الذهبية . وهنا نترك الذهبية والوابور حينما شاء

نتبع من مباحثاتنا الآتية فيما يختص باقليم السودان وبيان الغرض من سياحتنا وايضاح ماهو لازم منها عشماً بنوال رضاء قرائنا الكرام . والقصد من ذلك كله بيان احوال السودان وتاريخه السابق واللاحق

بيان الثورة المهدية ، المهدية في الاسلام ، ائمة المسلمين ، جغرافية السودان الطبيعة في حدود سودان ، حكومة السودان قبل الفتح الاول ، حكومتها في المهدية ، حكومة السودان الحاضرة ، وفاق بين حكومة الانكليز وحكومة مصر بشأن ادارة السودان مدن مديرية الخرطوم وآثارها . مديرية الجزيرة وآثارها. مدن مديرية سنار وآثارها مدن النيل الابيض التابعة الى مديرية الجزيرة . مدن محافظ فاشودة وآثارها . مدن بحر الغزال وآثارها. مدن مديرية كسله وآثارها. مدن محافظ سواكن وآثارها . مدن مديرية كردفان وآثارها . مدن دارفور وآثارها

« الثورة المهدية »

نشأة محمد احمد المهدي واصله ومولده : ولد في جزيرة (ضرار) من اعمال دنقلة سنة ١٨٤٣وهو من ذرية رجل اسمه حاج شريف واسم ابيه عبدالله وامه زينب وكان ابوه تاجراً يصنع المراكب والسواقي وضاق به الرزق في دنقلة فرحل باهله الى شندى ثم الى الخرطوم وابنه محمد احمد طفل ثم مات الوالد.وكان محمد احمد ميالا الى التدين من صغره وصار من كبار مشايخ الطرق عندهم وادعى انه المهدي المنتظر . وفي سنة ١٨١٧ م رحل مع اخوته الى جزيرة « ابا » في النيل الابيض على بعد ١٥٠ ميلا من الخرطوم وبنى فيها جامعاً وخلوة للتدريس فاجتمع عليه سكان تلك الجزيرة وهم دغيم وكنانة وغيرهم من العرب البادية واخذوا عهد منه ودخل بعضهم فى تلمذته وفي جملتهم علي ودحلو الذي جعله بعد ادعائه المهدية خليفته الثاني. ولم يمض الا قليل حتى اشتهر صيته وكثر اتباعه ثم خرج سائحاً الى بلاد الغرب مع رجاله وعليهم لباس الدراويش وهي الجبة المرقعة والسبحة والعكاز وجعل يبث دعوته بين رؤساء القبائل على ان يكتموا ذلك الى ان تأتي الساعة . وعاد الى ابا

وكان حكمدار الخرطوم يومئذ رؤف باشا فكاتبه بما نسب اليه فاجابه بكتاب يؤيد

به دعوته . فجمع علماء الخرطوم واطلعهم على الكتاب فاتهموه بالجذب ولكنهم اجازوا القبض عليه فانتدب لهذا الامر محمد بك ابو السعود احد معاوني الحكومة فسار في قلة من الرجال فوصل جزيرة « ابا » في ١٧ اغسطس سنة ١٨٨١ فوجد محمد احمد في الغار جالساً وحوله جمهور من تلامذته فسلم عليهم وقال « ان حكمدار السودان



محمد احمد المهدي

بلغه امر الدعوى التي قمت بها وارسلني لآتي بك اليه بمدينة الخرطوم وهو ولي الامر الذي تجب طاعته » فاجابه محمد احمد « اما طاعته من الوصول معك الى الخرطوم فهذا مما لا سبيل اليه وانا وليّ الامر الذي تجب طاعته على جميع الامة المحمدية » ثم شرع في تقديم ادلة على انه المهدي المنتظر وغيره ابو السعود في الجواب وقال « ارجع عن هذه الدعوى فانك لا تقوى على حرب الحكومة ولا ترى معك من يقاتلها » فصرفه محمد

احمد وهو يتبسم « انا اقاتلكم بهؤلاء » واشار الى اصحابه ثم التفت اليهم وقال « أأنتم راضون بالموت في سبيل الله » قالوا نعم . فالتفت الى ابو السعود وقال له « قد سمعت ما اجابوا به فارجع الى ولي امرك في الخرطوم واخبره بما رأيت وسمعت » فلما رأى ابو السعود صدق عزم محمد احمد واعوانه على نصرة دعواهم وان النصح لا ينجح فيهم عاد مسرعاً الى الخرطوم وقص على رؤف باشا ما رآه وسمعه

فجهز رؤوف باشا حملته من لوكين بعث بها الى جزيرة « أبا » وكان محمد احمد قد واعد رجاله على الصبر فاطاعوا فلما اتت جنود الخرطوم هجموا عليهم وقتلوا معظمهم وعاد الباقون ليخبروا بما كان . وهي اول واقعة جرت بين الدراويش والحكومة وعرفت بواقعة « ابا » واشتهر فوز المهدى فيها فعده اتباعه من كراماته لانه غاب الحكومة الظالمة . ولكن محمد احمد لم يكن يجهل مركزه بالنسبة للحكومة فخاف اهتمامها بامره وهو هناك لا يقوى على مناهضتها وما كل مرة تسلم الجرة فعزم على الهجرة وجعل وجهة جبل قدير . فقال لاصحابه ان النبي جاء في المنام وامره بتلك الهجرة فاطاعوه وساروا وهم يدعون الناس الى طاعة المهدي واعترضه الملك على جبل في الطريق يقال له حبل الجرادة فخالف محمد احمد فحاربه فكانت الغلبة للدراويش فاشتد ازرهم وثبتوا في دعوتهم حتى اتوا جبل قدير في ٣١ أكتوبر سنة ١٨٨١ م فلاقاه ملكه واسمه ناصر وانزله على الرحب والسعة فامر محمد احمد ببناء مسجد للصلاة

وكان على فاشودة في ذلك الحين مدير من قبل الحكومة المصرية اسمه راشد بك علم بقدوم المهدي الى جبل قدير فاستأذن رؤف باشا في تأديبه وطال انتظاره الاذن وبلغه ان المهدي ورجاله في ضيق من المرض فزحف وهو يستتر يريه مباغتتهم ولكن امرأة مؤمنة اتتهم بالخبر فاستعدوا للقاء وعادت العائدة على راشد بك ورجاله وغنم الدراويش ماكان معهم من الزاد والذخيرة في ٩ دسمبر منها

وكان هذا الخبر وقع شديد على رؤف باشا في الخرطوم فحشد جزءاً مختاطاً من العساكر والباشبوزق وعقد لواءه ليوسف باشا الشلالي في اواسط مايو سنة ١٨٨٢ م وبعث الشلالي الى المهدي ينصحه في الطاعة فاجابه جواباً يدل على استخفافه به ويدعوه الى طاعته . والتقى الجيشان في جبل الجرادة . وفي ٢٩ مايو حدثت واقعة قتل فيها الشلالي وجماعة من كبار قواده وغنم الدراويش ماكان معهم من المؤنة والذخيرة والعدة فازدادوا تصديقاً لدعوتهم وشاع ذلك النصر في انحاء السودان فاعظمه السودانيون وارتفع قدر المهدى عندهم وتوافد اليه الناس يبايعونه حتى بلغ عددهم ٢٠٠٠٠ في قدير وحدها

وفي ٨ سبتمبر هجم الدراويش على الابيض فارتدوا خاسرين وقد غنم منهم الجنود المصرية ٦٣ راية من جملتها راية المتمهدي واسمها « راية عزرائيل » وقتلوا منهم نحو ٥٠٠٠ آلاف وفي جملتهم محمد اخو المهدي ويوسف اخو عبد الله التعايشي ولم يقتل من الحامية الا ٣٠٠ فعظم ذلك على المتمهدي وادرك خطر الهجوم على الاسوار الحصينة وعوّل من ذلك الحين أن لا يهاجم سوراً وانما يفتتح بالتضييق عليها بالحصار حتى يضنيها الجوع وتعمد الى التسليم . ثم جاء الدراويش مدد فاشتد أزرهم فشددوا الحصار على الابيض وعلى بارا وكان في بارا نور عنقره احد امراء العرب وكان موالياً للحكومة ولكنه رأى مقامه حرجاً وتحقق الفشل فكتب الى المهدي سراً انه اذا ارسل اليه اميراً من اكابر امرائه سلم له فارسل اليه ولد النجومي فخرج له نور عنقره مع محمد الخير وكان يلقب سر سواري اي قائد الخيالة وسلما لولد النجومي فقبلهما وانقضت سنة ١٨٨٢ والحصار شديد على الابيض وبارا والدراويش يتكاثرون في سنار وغيرها

وكان المهدي قد ارسل فرقاً من جنده لنشر دعوته في دارفور وبحر الغزال فانتشرت الثورة هناك ولكنهم لم يفتحوا سنة ١٨٨٢ الا بعضاً من بلادها وفي اوائل سنة ١٨٨٣ فتحوا (بارا) في ٥ يناير واضطرت الابيض الى التسليم من الجوع في ١٩ منه فدخلت كردفان في حوزة الدراويش وغنموا منها شيئاً كثيراً من المؤن والذخائر والاسلحة والاموال وصار المتمهدي من ذلك الحين حاكماً على كردفان وقبض على سعيد باشا ورجاله وبعد اسرهم مدة اكتشف على تدبير عملوا به سراً الى الخرطوم وامر بقتلهم ثم سلمت سائر بلاد كردفان

فلما فتح الابيض ودانت له كردوفان اخذ في تنظيم حكومته . وعلم ان الحكومة المصرية ستحمل عليه بكل قوتها لاستخراج كردفان من يديه فأخذ يحث الناس على الجهاد ويحقر الدنيا في اعينهم ويحبب الآخرة اليهم وهم يندون اليه زرافات ووحداناً يتبركون به وقد آمنوا بدعوته بعد ان ذاقوا الراحة والاستقلال على يده فتخلصوا من الضرائب ونجوا من الباشبزوق واستبدادهم فاعتقدوا انه المهدي المنتظر

« حملة هيكس باشا »

وكانت الحكومة المصرية في اثناء ذلك اخمدت الثورة العرابية في ١٥ سبتمبر سنة ١٨٨٢ م واحتل الانكليز مصر واصبحوا اصحاب الرأي النافذ وقد اقروا على الغاء جيش عرابي وانشاء جيش جديد وكان بعضهم قد وثق بعبد القادر باشا فاستدعته الحكومة الى مصر وارسلت علاء الدين باشا حاكماً على السودان في فبراير

سنة ١٨٨٣م وحصرت سلطته في الادارة الملكية وعهدت بقيادة الجند سليمان باشا نيازي وجعلت هيكس باشا الانكليزي رئيساً لاركان حربه

وأعدوا حملة لمحاربة المهدي كلها من جيش عرابي والحكومة تسيء الظن به وقد ارسلته اما ليهلك او ينتصر فيعوض على الحكومة ما افسده ولكن تلك الحملة كانت مشؤمة وآلت الى استفحال امر المهدي ودراويشه لانها هلكت من آخرها على شكل لم يسمع بمثله

وكانت تلك الحملة مؤلفة من اربع اورط من الجنود المصرية معظمهم من الذين حاربوا في سبيل الثورة العرابيه وخمس اورط سودانيه واورط من الطبجية والخيالة وكانت الجنود المصرية تحت قيادة سليم بك عوني والسيد بك عبدالقادر وابراهيم باشا حيدر ورجب بك صديق والباشبوزق بقيادة خيرالدين بك وعبد العزيز بك ووالى بك وملحم بك ويحي بك . والطوبجية والسواري بقيادة عباس بك وهي وبلغ عدد جنود الحملة احد عشر الفاً منهم سبعة آلاف من المشاة المصريين والباقون من الباشبوزق والخيالة وتوابع الحملة من الجمالة وغيرهم وفيها ٥٥٠٠ جمل و ٥٠٠ فارس واربعة مدافع كروب وعشرة مدافع جبلية وستة من نوع النوردنفلت وكان فيها من الضباط الافرنج الكولونيل فركوهار رئيس اركان حرب والبكباشية سكندروف وورتر وماسي واليفانس وغيرهم ومكاتبو التيمس والدلي نيوز والغرافيك

فلما وصلت الحملة الى « شيكان » هجموا الدراويش من كل جهة فقتل هيكس وكل قواده وجنده ولم ينجح منهم الا نحو ثلاثمائة رجل واكثرهم من الضعفاء الذين اختبأوا بين الشجر او تحت جثث القتلى وفي جملتهم رجل اسمه محمد نور البارودي وكان في خدمة هيكس وهو الذي روى اكثر ما تقدم من مهلك هذه الحملة

فرجع المهدي وخلفاؤه وقواده الى البركة وقد سكروا من خمرة النصر وتركوا بعض الامراء يجمعون الاسلاب والغنائم الى بيت المال . وبعد ١٥ يوماً عاد المهدي الابيض بالمدافع والذخيرة والاموال التي اكتسبوها من حملة هيكس . وكان دخول الابيض باحتفال شائق . ولا ريب ان تغلبه في موقعة شيكان جعل حكومة السودان تحت الخصة لان كثيراً من القبائل كانوا يترددون في امره وينتظرون حربه مع هيكس باشا فلما علموا ما كان انضموا اليه وصاروا من اعوانه . وكان سلاتين بك « سلاتين باشا الآن » الى ذلك الحين مديراً على دارفور وقد قاسى مشقات جسيمة في مناوأة الدراويش وتمردهم . وكان يرجو الفرج على يد حملة هيكس . فلما علم بفشلها لم ير بداً

من التسليم فبعث الى المهدي بذلك وأن ينفذ اليه بعض اقاربه ليسلم البلاد له فبعث اليه الامير محمد خالد ويكنى زقل اميراً على دارفور واوصاه بسلاتين باشا خيراً . فوصل الدراويش داراً ونهبوها وارسلوا بعضاً من حسانها هدية للمهدي. وجاء سلاتين مخفوراً الى الابيّض وبايع المهدي واظهر الاسلام والايمان بالدعوة وسمي عبد القادر . وقام سلاتين من ذلك الحين ملازماً لعبد الله التعايشي يقف عند بابه في جملة الملازمين

« حركات الدراويش »

فلننظر في حركات الدراويش واجرا آتهم في معسكرهم في اثناء حصار الخرطوم ملخصاً عما رواه سلاتين باشا في كتابه «السيف والنار في السودان» وما احكاه غيره من الاسرى الذين رافقوا تلك الحوادث داخل الخرطوم وخارجها

تركنا المتمهدي وقد عاد ظافراً الى الابيض بخيله ورجاله فبعد وصوله اليها انفذ بعض امرائه لتأييد سلطته في الدارفور وبحر الغزال وما جاورهما ثم علم ما كان من امر السودان الشرقي وظفر عثمان دقنا في سنكات وتمانيب والتب وحصار كسلة

وتكاثر دعاة المهدي بعد انتصاره على هيكس وتقاطر الناس اليه قبائل وجماعات قياماً بنصرته وكانوا يعسكرون بخيامهم وابلهم وخيلهم حول الابيض فقلت مياه الابيض فخاف المهدي ان يصيبهم جهد فاشار بالانتقال الى الرهد وفيها الماء غزيراً فانتقلوا اليها رجالا ونساء واولاداً في اواسط ابريل سنة ١٨٨٤ باجمالهم واثقالهم ودوابهم واقاموا هناك والمهدي يقضي نهاره في الصلاة والوعظ والحث على الجهد . ثم سمع بخروج الجنود المصرية من الخرطوم على اهل الجزيرة فبعث محمد ابا جرجا اميراً عليها في عدد عظيم من الدراويش على ان يمد اهل الجزيرة ويحاصر الخرطوم . فحصلت بينه وبين جنود الخرطوم وقائع انتصرت في اولها الجنود المصرية ثم عادت العائدة عليهم بعد ذلك كما رأيت . وارسل المهدي الشيخ محمد الخير اميراً على بربر فسار اليها وحاصرها وفتحها وارسل مديرها حسين باشا خليفته اسيراً الى معسكر المهدي في كوردوفان . فالتقى بسلاتين باشا وتشاطرا مصيبة الاسر. اما دنقلة فكان مديرها مصطفى ياور « ثم صار مصطفى باشا» قد كتب الى المهدي غير مرة ان يسلم اليه فلم يكن هذا الى تسليمه بل بعث السيد محمد علي وبعض الشائقية ليحبسوه فحاربهم وفرق شملهم وكان الماجور كتشنر «اللورد كتشنر باشا» قد جاء بمهمة سرية لاستطلاع نوايا مصطفى بك ياور واحوال السودان فشهد بعض مواقعه مع الدراويش

وخلاصة الامر فاحجار السودان ورماله كادت تنطق بصوت واحد « صدق محمد احمد بدعواه » وكان الى ذلك الحين مقيما في الرهد فكتب اليه امراؤه من انحاء مختلفة ان ينزل برجاله الى النيل الابيض فكان يؤجل مسيره مظهراً الازدراء بقوة اعدائه والاعتداد بقوته ويستعرض جنوده كل جمعة استعراضــاً عمومياً يحضره هو بنفسه والجيش اذ ذاك ثلاثة اقسام يرأس كل منهما خليفة من خلفائه . ولكن الخليفة عبدالله التعايشي كانت له الرياسة الكبرى ويلقب « رئيس الجيش » وفرقته تسمى « الراية الزرقاء » ينوب عنه في قيادتها اخوه يعقوب التعايشي . وفرقة الخليفة علي ولد الحلو تدعى « الراية الخضراء » وفرقة الخليفة محمد الشريف تسمى « الراية الحمراء » او « راية الاشراف » وتحت كل من هذه الرايات الثلاث رايات صغيرة لا يحصى عددها يجتمع حول كل راية منها مئات من الدراويش

وكيفية الاستعراض عندهم ان يقف امراء الراية الزرقاء براياتهم صفاً واحداً يولون وجوههم المشرق ويقف امراء الراية الخضراء صفاً آخر يقابل الصف الاول وجهاً لوجه ويقف امراء راية الاشراف صفاً آخر يقابل الشمال فيؤلفون مربعاً بنقصه ضلع كأنه باب يدخل به المهدي وحاشيته فيمر بجانب الصفوف يحييها قائلا « الله يبارك فيكم »

فلما انقضى رمضان تلك السنة قال محمد احمد انه قد اوحي اليه في الرؤيا « الحضرة » ان ينزل لمحاصرة الخرطوم وامر رجاله بذلك

« حصار الخرطوم »

فزحفوا برجالهم واحمالهم واثقالهم ودوابهم فضربوا نقاراتهم وساروا حتى اشرفوا على الخرطوم وسلاتين معهم فعسكروا هناك تحت راية التعايشي . وســار الامراء الآخرون يبحثون عن مكان آخر يعسكرون فيه . ثم امر المهدي ان يحدق جنده بالخرطوم ويشددو الحصار عليها فامر ابا جرجا وولد النجومي ان يحاصراها برجالهــا من البر الشرقي للنيل الابيض عند مكان اسمه كلاكلا وامر ابا غنجة وفضل المولى ان يحاصرا طابية ام درمان على البر الغربي . وما زالوا محاصرين تلك الطابيــة حتى فتحوها في ١٥ يناير سنة ١٨٨٥ وهي اول طابية فتحوها من حصون الخرطوم . ويؤخذ من تقرير كتبه الشيخ المضوي احد قواد المهدي في ذلك الحصار ان المهدي كان عازماً ان يشدد الحصار على الخرطوم حتى تسلم من الجوع كما فعل بالابيض وان

رجال ولد النجومي وحدهم بلغوا عشرين الفاً . فربما كانت قوة الدراويش كلها ستين الفاً وسبعين او اكثر

اما غوردون فلم يقض في الخرطوم شهرين حتى نفدت النقود من خزينتها فاصطنع نقوداً من الورق بفئات متفاوتة يتعامل بها الناس الى اجل مسمى . على ان ذلك قلما خفف من ضيق اهل الخرطوم ونزلائها فانهم ما انفكوا يشعرون بالضيقة يوماً بعد يوم والحصار يزيدهم تضيقاً حتى اصبحوا محاطين بالعدو من كل جهة وقلّ مالهم او نفد وجاعوا وغوردون يصبرهم ويعدهم بقرب وصول الحملة الانكليزية لانقاذهم ولكنها تأخرت كثيراً فملّ الناس الانتظار واشتد الجوع حتى اكلوا لحوم القطط والكلاب ومضغوا سعف النخل وجذور الذرة كل ذلك وهم واثقون بوعد غوردن ولكنهم اصبحوا يسيئون الظن به اخيراً

« سقوط الخرطوم فعلى ما يأتي »

وقد ذكرنا أن المهدي حاصر الخرطوم وشدد الحصار عليها لكي تسلم من الجوع فلم تمضي مدة حتى انبأه جواسيسه ان الحملة الانكليزية قادمة لانقاذ الخرطوم وغوردون فبعث اليها جنداً لاقاها في أبي طليح تحت قيادة موسى ولد الحلو وابي صافية فعادت خاسرة فارسل جنداً آخر الى المتمة بقيادة نور عنجة فانكسر ايضاً كما تقدم . فلما بلغه خبر انكسار رجاله اراد التمويه على اتباعه فامر باطلاق ماثة قنبلة وهي اشارة النصر عندهم فاطمأن الدراويش ولكن محمد احمد جمع أمراءه وخلفاءه في جلسة سرية وقال لهم ان الحضرة جاءته فاوحت اليه أن يهاجر الى الابيّض. فاعترضه الامير محمد عبد الكريم قائلاً « ان الهجرة ميسورة لنا في كل حين والطريق الى الابيض مطلق لنا فلنهاجم الخرطوم اولاً فاذا امتنعت علينا هاجرنا الى الابيض واذا فتحناها فلا يقوى الانكليز ولا غيرهم على اخذها منا » فاستحسن المهدي رأيه وصبر بضعة ايام وهو يستقصي أخبار الانكليز وحركاتهم . وفي ٢٥ يناير بلغه قيام الباخرتين من المتمة فاقر على مهاجمة المدينة في الصباح يوم الاثنين في ٢٦ يناير سنة ١٨٨٥ » فبعث الى القوات المحاصرة يقول انه علم بالوحي ان الله قد جعل ارواح أهل الخرطوم كلها في قبضته

وفي مساء ذلك اليوم ٢٥ منه قطع المهدي النيل الابيض من ام درمان وكل من اراد الجهاد معه ونزل الى معسكر ولد النجومي في كلاكلا وخطب هناك خطاباً حث رجاله فيه على الجهاد واوصاهم ان لا يقتلوا غوردون باشا . ولما اتم خطابه عاد ببطانته الى ام درمان

وفي الصباح التالي ٢٦ منه الساعة الاولى بعد نصف الليل زحف الدراويش من كلا كلا بقيادة ولد النجومي وانقسموا فرقتين فرقه تهاجم السور بين النيل الابيض وباب المسلمية وفرقة تهاجمه من ناحية بورى وكان السور بين باب المسلمية والنيل الابيض قد تهدم بعضه مما يلي النيل لمجاورته ارضاً يغمرها ماء النيل في فيضانه . وكان الماء قد انحسر عنه اذ ذاك وتهدم بعضه فتكونت فيه ثغور دللنا عليه بتقطيع السور هناك الى نقط . فعول الدراويش على ان يدخلوا المدينة من تلك الثغور على انهم اذا فازوا بالدخول منها عدلوا عن الهجوم من جهة بوري ودخل القسمان معاً من جهة النيل الابيض

فزحفوا سكوتاً تحت جناح الليل لا يسمع لهم حركة حتى صاروا عند تلك الثغور فردموا الخندق ووسعوا الثغور وصاحوا صياح الحرب قائلين « في سبيل الله » ودخلوا يزاحم بعضهم بعضاً وقد غاصوا في الاوحال الى الركب فبغتت الحامية فاطلقت بعض الطلقات وكان فرج باشا قائد الحصون على باب المسلمية فما انتبه الا وقد قضي الامر ولم تبق فائدة بالدفاع ففتح الباب وسلم فانهال الدراويش على المدينة كالسيل وهم ينادون « للكنيسة . . . للسراي » وامنعوا في الاهالي المساكين قتلا ونهباً لم يبقوا ولم يذروا . وسار بضعة منهم الى السراي حيث يقيم غوردون وكان قد يئس من قدوم الحملة وبات تلك الليلة حوالي نصف الليل ولم يكد يغمض جفنه حتى سمع اطلاق النار فصعد الى سطح السراي واشرف على الاسوار فرأى العرب قد دخلوا السور ولم يعد باليد حيلة فلبس ثيابه وتقلد سلاحه وهمّ بالنزول فلاقاه ثلاثة من الدراويش في اعلى السلم فسأل اولهم قائلا « اين محمد احمد » فاجابه بطعنة قاضية وضربه آخر بالسيف فخر قتيلا ولم يبد دفاعاً . ويقال ان قتلته من رجال ولد النجومي ولم يكن ولد النجومي معهم فجاء بعدئذ فساءه قتله فامرهم بجر جثته الى باحة السراي وان يقطع رأسه ويحمل الى المهدي في ام درمان

هكذا سقطت الخرطوم عاصمة السودان في ايدي الدراويش وبسقوطها سقط كل بافتتاحها . ولكن المهدي لم يقم فيها بل اقام في أم درمان وبنى هناك مدينة جعلها عاصمة ملكه من ذلك الحين

اما الحملة الانكليزية فانها انسحبت من المتمة الى كورتى فاقامت هناك مدة ثم عادت الى دنقلا فصر فسحبت معها كل من اراد مرافقتها من سكان شمالي كورتى واصبحت السودان ... ذلك الحين ... الدراويش ...

« موت المهدي وخلافة التعايشي »

فلما فتحت الخرطوم وعادت الحملة الانكليزية الى مصر ازداد الناس وثوقاً بدعوى المهدي مع ما شاهدوه من توفيقه في مشروعاته فانه كاد لا يشهد موقعة الا انتصر فيها ولا حاصر مدينة الا فتحها . واذا اعتبرت ما لاقته الحملة الانكليزية القادمة لانقاذ غوردون من العراقيل والعوائق عجبت لما اتفق لمحمد احمد هذا من غرائب التوفيق. فاتخذ ذلك اشياعه دليلاً على كرامته وايقن هو انه اصبح المالك المتصرف في السودان من اقصائه الى اقصائه وخيل له انه سيفتح الامصار ويخضع الملوك والسلاطين فتنتشر سلطته في الخافقين . على انه لم يكن يرجو ان يتم ذلك كله على يده ولكنه كان يقول انه لن يموت الا بعد فتح الحرمين وبيت المقدس ثم ينزل الكوفة ويموت فيها . ولكن ساء فأله لانه لم يكد يؤيد سلطته ويقيم في عاصمته « أم درمان » بضعة اشهر حتى داهمته الوفاة في ٢١ يونيو سنـة ١٨٨٥ فيها على اثر اصابة شديدة بالحمى التيفوسية لم تنجح فيها حيلة ففارق هذا العالم على عنقريب « سرير سوداني » وحوله خلفاؤه الثلاثة وخاصة امرائه منهم احمد ولد سليمان ومحمد ولد البصير وعثمان ولد احمد والد الملكي . فلما شعر المهدي بدنو الاجل قال لمن حوله بصوت منخفض « ان النبي صلى الله عليه وسلم اختار الخليفة عبد الله خليفة لي وهو مني وانا منه فاطيعوه ما اطعتموني . استغفر الله » ثم تلا الشهادتين وجعل يديه متقاطعتين على صدره واسلم الروح

ولم يكد يخرج النفس الاخير من انفاسه حتى تقدم الحضور فبايعوا عبد الله وسموه « خليفة المهدي » وكان في جملة من حضر موت المهدي امرأته عائشة ويدعونها « ستنا أم المؤمنين » وكان الناس قد تجمهروا مئات والوفاً حول المنزل ينتظرون الخبر عن سيدهم ومهديهم فلما علموا بموته ضجوا وصاحوا فاوعز اليهم ان البكاء والندب حرام لان المهدي انما فارق مقامه في الارض بمجرد ارادته . فغسلوا الجثة ولفوهـا بالاكفان واحتفروا لها حفرة في تلك الغرفة حيث فارقتها الروح ودفنوها وبنوا فوقه قبة وسموا ذلك المقام « قبة المهدي » يزورها الناس للتبرك

فبعد دفن المهدي سار الخليفة عبد الله الى الجامع وخطب في الناس وانبأهم بوفاة المهدي فبكى وبكى الناس ثم اوصاهم بالطاعة والاتحاد للعمل باوامره وبعد الخطبة تقدم الناس لمبايعته

وكان المهدي قد بعث امرائه الى الانحاء لبث دعوته وتأييد سلطته وحث الناس

للمهاجرة الى أم درمان فسعى محمد خالد في الدارفور فاتم اخضاعها وسار ابو عنجة الى كردوفان وكانت قد سلمت الى المهدي الاسكان الجبال والجنوبية منها فاخضع بعضهم وبقي البعض الآخر مستقلا اما ما بقي من السودان الغربي من ضفاف النيل الابيض الى حدود وادي فقد دانت للمهدي برمتها

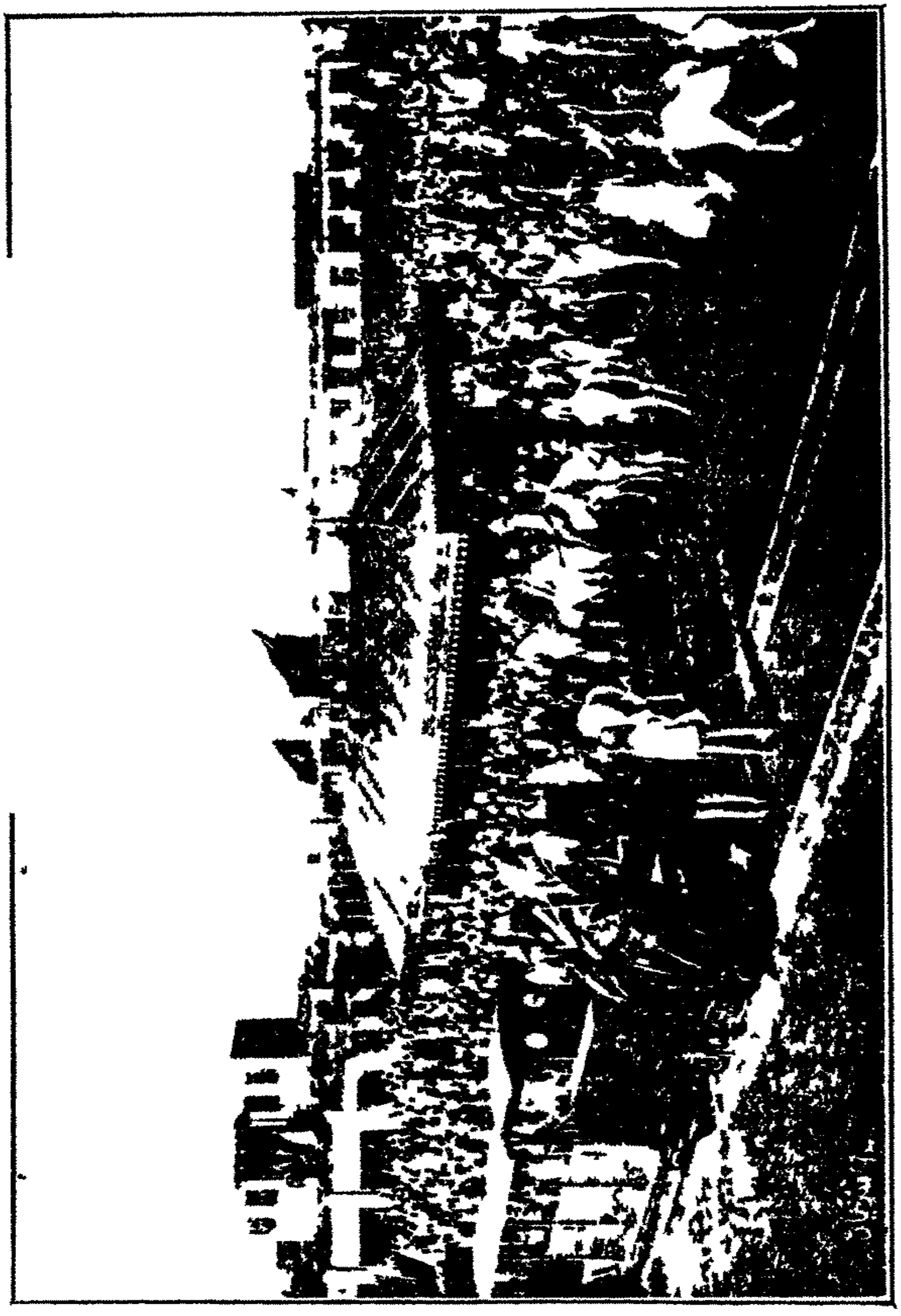
« فتح أم درمان وذهاب دولة الدراويش »

تلك حال حكومة الدراويش سنة ١٨٩٦ توالى عليها النحس وجندت الحكومتان المصرية والانكليزية لقهرها بحملة مختلطة من الانكليز والمصريين بقيادة السردار كتشنر باشا وجرت في اثناء الطريق من حلفا الى الخرطوم وقائع قاسى فيها الجند مشاق عديدة من جلتها واقعة اتبرة وفيها قبضوا على الامير محمود ابن عم التعايشي وقيد اسيراً مع نحو ٢٠٠٠ من رجاله وما كان معهم من الغنائم . واستعد السردار من هناك للزحف على ام درمان

وبلغ التعايشي ذلك فجمع ذوي شوراه فاشار عليه بعضهم بالهجرة فغضب وامر بضرب ذلك الناصح وقال « اني محارب حتى اقتل » وامر بالتحصين وبناء الطوابي لاتقاء نيران مدافع العدو التي ستطلق عليهم من النيل . ولم يجده ذلك نفعاً فان الجنود المتحدة وصلت ام درمان في ٣ سبتمبر سنة ١٨٩٨ وخرج التعايشي لملاقاتها . وبعد ثلاث هجمات متوالية اضطر التعايشي للفرار بعد ان يئس من الفوز وتحقق ان اخاه يعقوب قد مات . واحتل الجند المتحد أم درمان ورفعوا عليها الرايتين المصرية والانكليزية ولما علم السردار بفراره بعث في اثره كوكبة من السواري ومعهم سلاتين باشا براً وارسل مدرعتين بحراً فعادوا ولم يدركوه

وفي اليوم التالي استولوا على اوراق الخليفة وكتبه من بيته . وامر السردار بنسف قبة المهدي ونبش قبره وبعث الجمجمة الى معرض التحف في لندن وبعثرت سائر عظامه . ثم قصدوا بيت يعقوب اخي الخليفة وكانوا يظنون المال فيه فلم يجدوا شيئاً وتحققوا بعدئذ ان بعض رجال يعقوب لما تحققوا موته اتوا وخلعوا الابواب واخذوا الاموال . ثم ذهبوا الى بيت المال فلم يجدوا فيه ما يستحق الذكر الا ٢٠٠ قنطار عاج . ثم ذهبوا الى سجن الخليفة واطلقوا من كان فيه من المساجين وكلهم من موظفي الحكومة وعددهم نحو ١٤٠٠ رجل بين ملكي وعسكري

وبعد قليل نزل السردار كتشنر باشا الى مصر ونال على هذا الفتح مكافأة جزيلة



دخول العساكر المصرية والانكليزية في أم درمان

وسمي لورد الخرطوم ورقي الكولونيل ونجت بك مدير قلم المخابرات الى رتبة لواء وسمي ادجوتنت جنرال الجيش المصري . وحاولوا القبض على التعايشي عبثاً وكانوا كلما طلبوه من مكان فر الى سواه حتى علم ونجت باشا في اواخر سنة ١٨٩٩ ان التعايشي يتحفز للهجوم على ام درمان وعلم بمكانه فحمل عليه وحاربه في جديد حتى قتل في ٢٤ نوفمبر من تلك السنة وقتل معه الخليفة علي ولد حلو واحمد فضيل والسنوسي احمد اخو

الخليفة من امه وهرون محمد اخوه وغيرهم وغنموا ما كان معهم من الزخيرة والاموال وانقضت بذلك دولة الدراويش

وصارت السودان من ذلك الحين تحت سيطرة الدولة الانكليزية والحكومة المصرية وسنذكر نص الوفاق في كلامنا عن ولاية سمو الخديوي الحالي

« المهدية في الاسلام »

واعلم ان المشهور بين كافة الاسلام على ممرّ الاعصار انه لا بد في آخر الزمان من ظهور رجل من اهل البيت يؤيد الدين ويظهر العدل ويتبعه المسلمون ويستولي على الممالك الاسلامية ويسمى بالمهدي ويكون خروج الدجال « وما بعدهُ من اشراط الساعة الثانية في الصحيح » على اثره وان عيسى ينزل بعده فيقتل الدجال او ينزل معه فيساعده على قتله ويأتمّ بالمهدي في صلاته « عن ابن خلدون »

« مهدي اهل السنة » ويحتج اهل السنة في الباب باحاديث خرّجها بعض ائمتهم منهم الترمزي وابو داود والبزار وابن ماجة . واسندوها الى جماعة من الصحابة مثل علي بن ابي طالب وابن عباس وابن عمرو وطلحة وابن مسعود وابي هريرة وانس وابي سعد الخدري وابي جعفر وام سلمة وغيرهم

« مهدي الشيعة » واما الشيعة من المسلمين فيعتقدون ان المهدي قد ظهر في اواخر القرن الثالث للهجرة في شخص محمد بن الحسن الخالص بن علي الهادي بن محمد الجواد بن علي الرضا بن موسى الكاظم بن جعفر الصادق بن محمد الباقر بن علي زين العابدين بن الحسين بن علي بن ابي طالب وهو آخر أئمتهم الاثنى عشر وكنيته بو القاسم ، لقبه الامامية بالحجة والمهدي والخلف الصالح والمنتظر وصاحب الزمان واشهرها المهدي . قالوا وكان شاباً مرفوع القامة حسن الوجه يسيل شعره على منكبيه اقنى الانف اجلى الجبهة

وفي تاريخ ابن الوردي : ولد محمد بن الحسن الخالص سنة خمس وخمسين ومائتين . وتزعم الشيعة انهُ دخل السرداب في دار ابيهِ « بسرّ من رأى » وامه تنظر اليه فلم يعد اليها وكان عمرهُ تسع سنين وذلك في سنة ٢٦٥ على خلاف فيهِ . وهم يعتقدون انه لا يزال حياً وانه لا بد من ظهوره بعلامات خاصة في آخر الزمان . وكان على هذا المذهب السيد الحميري وله ابيات :—

امامَ الهدى قل لي متى انت آيبٌ فمنّ علينا يا امامُ برجعةِ

مللنا وطال الانتظارُ لجدُ انسا بحقك يا قطب الود بزورةِ
فأنت لهـذا لا قدماً معينٌ كذلك قال الله انت خليفتي

ويظهر ان الشيعة كلهم متفقون على الاعتقاد بالمهدي واما اهل السنة فعلماؤهم على خلاف في شأنه وذلك لان الاحاديث التي خرّجها علماؤهم على شهرتها وكثرتها لم يرد منها شيء في الصحيحين اي صحيح الامام البخاري الذي ولد في بخارى سنة ١٩٤ هـ وتوفي في بغداد سنة ٢٥٦ هـ . وصحيح الامام مسلم الذي توفي في نيسابور سنة ٢٦١ هـ والمعلوم ان الصحيحين عند اهل السنة مقدمان على سائر كتب الاحاديث فكلما جاء فيها لزمهم قبولهُ والعمل به بخلاف الاحاديث التي لم ترد فيها فانه لا يلزمهم قبولها بل هم مخيرون بين القبول والرد لذلك ولما كانت جميع الاحاديث المروية في غير الصحيحين اختلف علماء السنة فيه فمنهم من اعتمد تلك الاحاديث فانتظر ظهور المهدي ومنهم من لم يعتمد ذلك فلم ينتظر ظهورهُ . وفي هـذا الباب بحث طويل فى مقدمة ابن خلدون في كلامهِ عن الفاطمي وما يذهب اليهِ الناس فمن اراد الاسهاب فليراجعهُ هناك

على ان هـذا الخلاف بين علماء السنة لم يؤثر شيئاً في اعتقاد الجمهور في ظهور المهدي وقد ظهر بين المسلمين من اهل السنة والشيعة في كل العصور رجال ادعوا المهدية فحامت حولهم الانصار فمنهم من ساعدتهـم الاقوام والاحوال فاسسوا دولاً عظيمة دامت زماناً طويلاً ومنهم وهم الاكثر لم يكادوا يظهرون بدعواهم حتى طوى الزمان ذكرهم لان الاحوال لم تكن معدة لنجاحهم

« مدّعوا المهدية في الاسلام » واشهر الذين ادعوا المهدية من اول الاسلام الى الآن :— « محمد بن عبد الله » الملقب بالنفس الزكية ظهر في المدينة سنة ١٤٥ هـ في عهد الخليفة المنصور ثاني الخلفاء العباسيين فدعا الناس اليه وكان له اخ اسمه ابراهيم فنصرهُ ففتح البصرة والاهواز وفارس ومكة والمدينة وبعث عمالهُ الى اليمن وغيرهـا وكان ذلك في زمن الامام مالك فأفتى له وشد ازره فكثرت دعاتهُ حتى كاد يذهب بالدولة العباسية لو لم يستدرك المنصور امرهُ ويتغلب عليهِ ويقتله

« وعبد الله المهدي بن محمد الحبيب بن جعفر الصادق » مؤسس الدولة الفاطمية في المغرب التي فتحت الديار المصرية في اواسط القرن الرابع للهجرة وبنت مدينة القاهرة على يد القائد جوهر كما سبق ذكره وقد اتسعت دولة الفاطميين وامتدت سلطتهم وطالت ايام حكمهم كما هو مشهور

ومحمد بن عبد الله بن تومرت » المعروف بالمهدي الهرغي ويكنى أبا عبد الله اصله من جبل السوس في اقصى بلاد المغرب رحل الى المشرق حتى انتهى الى العراق واجتمع بابي حامد الغزالي وغيره فأخذ العلم عنهم واشتهر بالصلاح والتقوى وساح في الحجاز وجاء مصر ثم سار الى الغرب واقام بمراكش وغيرها وتأسست على يده دولة عظيمة في اوائل القرن السادس للهجرة هي دولة بني عبد المؤمن

« والعباس الفاطمي » ظهر بالمغرب في آخر المائة السابعة للهجرة وادعى المهدية فتكاثف الناس حوله وعظمت شوكته حتى دخل مدينة فاس عنوة واحرق اسواقها وبعث العمال الى انحاء مختلفة لكنه قتل غيلة فانقضى اجله وسقطت دعوته

« والسيد احمد » ظهر فى اوائل القرن التاسع عشرة للميلاد في جهات الهند وحارب الاسياخ على حدود البنجاب الشمالية الغربية سنة ١٨٢٦ م ولم تقم له قائمة

« ومحمد احمد الدنقلاوي » الذي ظهر سنة ١٨٨١ م واضطرت الحكومة المصرية الى الخروج من السودان كما هو مشهور عند جميع القراء

« ومهدي السومال » المعروف بالملا المفتون الذي قام بعد محمد احمد في بلاد السومال فجرد عليه الانكليز الحملة بعد الحملة حتى مزقوا شمله وفلوا شوكته

« أئمة المسلمين »

ثم ان أئمة الدين عند اهل السنة ثلاث فرق وهي :—

« أئمة علم التوحيد » وهم الذين بحثوا عن وجود الحق جل جلاله وصفاته واسمائه وافعاله وعن ملائكته وانبيائه ورسله واليوم الآخر وهم كثيرون وانما الذين اشتهر مذهبهم واستمر الى الآن وهما الامام ابو حسن الاشعري والامام ابو منصور الماتريدي وبينهما اختلاف طفيف في مسائل منها مسألة عدد صفات الله وحدوث صفات الافعال أو قدمها فالامام الاشعري يعتبر صفات الله سبحانه سبعاً وهي القدرة والارادة والعلم والحياة والسمع والبصر والكلام . والامام الماتريدي يعتبرها ثمانياً بزيادة صفة التكوين . واما من قبيل صفات الافعال مثل الخلق والرزق والاحياء والاماتة ونحو ذلك فالذي عليه الاشعري انها حادثة عند حدوث متعلقها المخلوق . واما الماتريدي فيقول انها قديمة لانها تفاصيل الصفة القديمة عنده التي هي التكوين فانقسم المسلمون بهذين الامامين في عقائدهم التوحيدية الى قسمين قسم اتبع الماتريدي وهم الحنفية والباقون على مذهب الاشعري

« وأئمة الفقه » وهم يبحثون في الاحكام الشرعية التي تتعلق بالمعاملات كالبيع والشراء والعبادات الدينية كالصلاة والزكاة والحج . ومأخذ هـذه الاحكام عندهم اربعة هي اصول الفقه وهي الكتاب والسنة والاجماع والقياس المستنبط منها. وذلك أنهم كانوا اذا وقعت لهم حادثة شرعية من حلال أوحرام فزاعوا الى الاجتهاد وابتدأوا بالكتاب فان وجدوا فيهِ نصّاً تمسكوا بهِ والاّ فزعوا الى السنة أي الحديث فان رأوا في ذلك خبراً نزلوا علىْ حكمهِ والاّ فزعو الى اجماع الصحابة لانهم راشدون فلا يجتمعون على ضلال فان عثروا على ما يناسب مطلوبهم حكموا بالحادثة على مقتضاهُ والاّ فزعوا الى القياس لان الحوادث والوقائع غير متناهية والنصوص متناهية فلا تتطابقان فقالوا قطعاً ان القياس واجب الاعتبار ليكون بصدد كل حادثة شرعية اجتهاد قياسي فالاجتهاد عندهم هو استنباط الاحكام الفرعية من الاصول الاربعة المتقدم ذكرها . وكان الائمة المجتهدون في صدر الاسـلام كثاراً ولكن الذين تدونت مذاهبهم وبقيت الى الآن فقفل بعدهم باب الاجتهاد اربعة وهم :—

« الامام أبو حنيفة النعمان بن ثابت » ولد بالكوفة سنة ٨٠ هـ وتوفي ببغداد سنة ١٥٠ على الاصح

« الامام ابو عبد الله مالك بن أنس بن مالك » ولد بالمدينة سنة ٩٥ هـ وتوفي فيها سنة ١٩٧ هـ تقريباً

« الامام أبو عبد الله محمد بن ادريس الشافعي » ولد بغزة سنة ١٥٠ هـ وتوفي في مصر سنة ٢٠٤ هـ

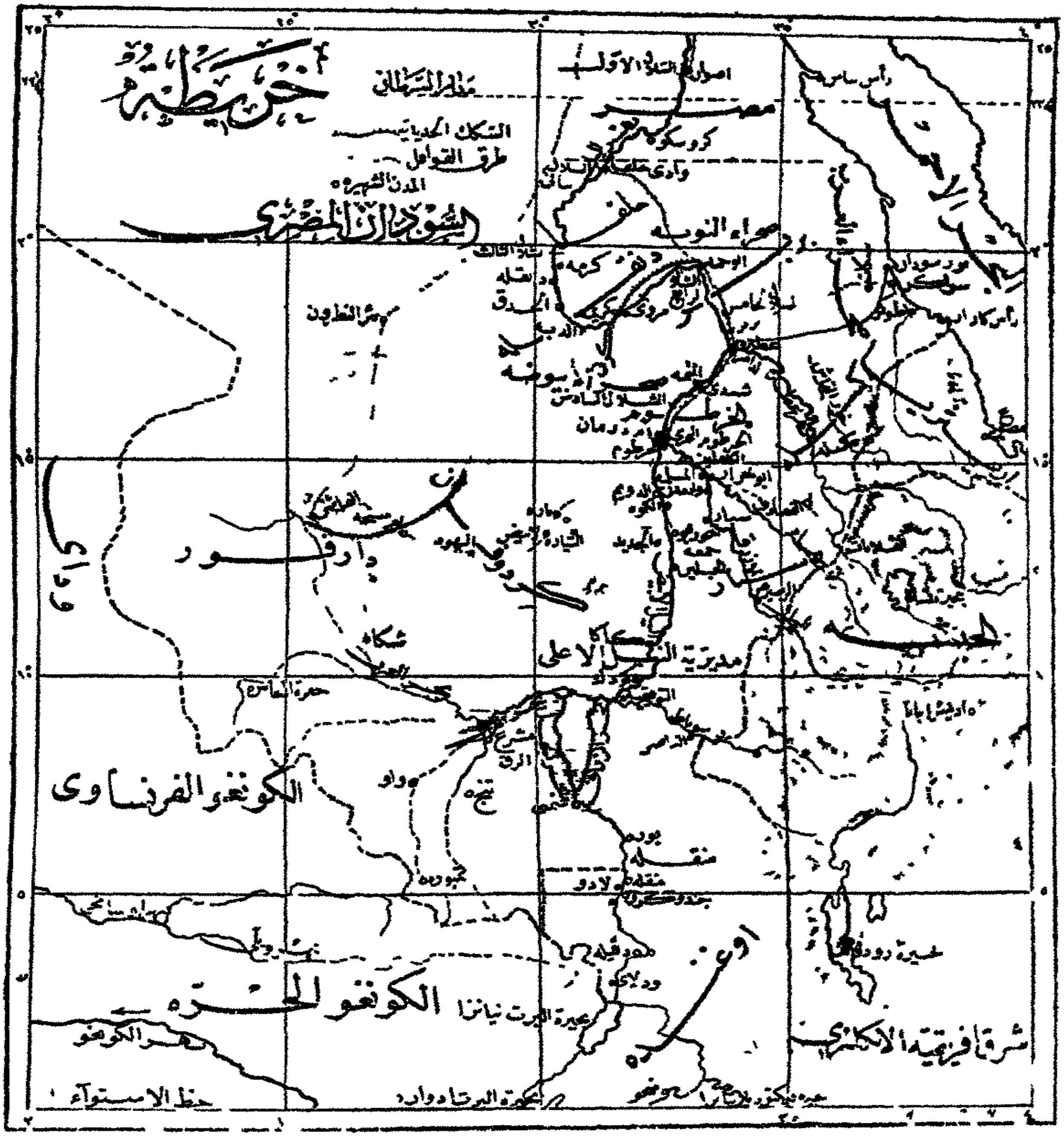
« الامام أبو عبد الله احمد بن حنبل » ولد في بغداد في الارجح سنـة ١٦٤ هـ وتوفي فيها سنة ٢٤١ هـ

فانقسم المسلمون بهؤلاء الائمة الى اربعة مذاهب الحنفي والمالكي والشافعي والحنبلي فتغلب الحنفي في سوريا والعراق والشافعي في مصر والمالكي في المغرب والسودان والحنبلي في الكوفة ونجد وهو اقلها انتشاراً

« جغرافية السودان الطبيعية »

في حدود السودان

السودان في اللغة السود ويطلق ايضاً على بلاد السود . وقد اطلقهُ العرب عند لاسلام على الممالك الافريقية الاسلامية الواقعة في المنطقة المتوسطة التي الى جنوب



الصحراء الكبرى وصحراء نوبيا فيما بين الحبشة وسنغمبيا . وتشمل ممالك سنار ودارفور ووادي وباجرمي وكانم وبرنو وسوكوتو وملّي ومن الشرق الى الغرب

اما السودان الذي فيه كلامنا فهو السودان المصري المعروف الآن بالسودان الانكليزي المصري . وحدُّهُ من الشمال خط ٢٢° من خطوط العرض الشمالي الى الشمال من حلفا . ومن الجنوب بلاد اوغندا التابعة لانكلترا على خط ٥° من خطوط العرض الشمالي تقريباً ومن الشرق البحر الاحمر وبلاد الاريتريا وبلاد الحبشة . ومن

الغرب والجنوب الغربي الصحراء الكبرى وبلاد وادي والجبال المتوسطة بين نهر الكونغو وبحر الغزال . وهو على شكل غير منتظم طوله من الشمال الى الجنوب نحو ١٢٠٠ ميل ومعظم عرضه من الشرق الى الغرب ١٠٠٠ ميل

« حكومة السودان قبل الفتح الاول »

كانت حكومة السودان في عهد مملكتي سنار ودارفور على مثال الحكومات الاسلامية في صدر الاسلام

« حكومتها في الفتح الاول »

ثم كان الفتح المصري فاصبحت حكومتها في يد ولاة الامور وكثيراً ما غيروا تقسيمها الاداري فجعلوها تارة حكمدارية واحدة وتارة اقاليم كل منها تابع مباشرة لمصر حتى اتفقوا اخيراً على جعلها حكمدارية واحدة تحت حاكم عام يرجع في احكامه الى نظارة الداخلية بمصر ويقيم في الخرطوم حيث بنوا له قصراً جميلاً خاصاً به

وقد جعلوا في كل مديرية مديراً يحكمها تحت ادارة الحاكم العام وكان الحكام والمديرون يرسلون اليها من مصر فيديرون احكامها على منوال ادارة الحكومة المصرية . وقد جعلوا مع كل مدير وكيلاً له وعدة معاونين وكتاب وقاضياً ووكيل قاضي ومفتياً ومجلساً اهلياً وضابطة . وجعلوا في كل قسم ناظراً ومعاون ناظر وكاتبين وصرافاً . وعهدوا في تحصيل الضرائب الى النظار ومشايخ البلاد والجند . وكان في كل مديرية حامية عسكرية . وكان الجند نوعين جهادية وباشبوزق . اما الجهادية فهم العساكر المنظمة من البيادة والطوبجية فالبيادة مصريون والسود والطوبجية مصريون فقط واما الباشبوزق فهم العساكر غير المنظمة وهم اما مشاة او فرسان يركبون الخيل او الهجن واكثرهم من الشايقية من اهل البلاد والاتراك والمغاربة أو مواليدهم

وكان دخل السودان في اواخر الفتح الاول نحو ٧٠ الف كيس ونفقاته مثل ذلك أو ازيد . وكان اكثر دخله من الضرائب والجمارك والملاحات التي على البحر الاحمر وآبار النطرون والويركو على التجار وارباب الصنائع والعقب على المراكب . اما الضرائب فعلى العرب البادية بحسب عدد ماشيتهم من الابل والبقر والغنم وعلى الحضر بحسب عدد سواقيهم ونخيلهم . واما الجمارك البحرية فعلى حسب العهود الدولية

« حكومتها في المهدية »

ثم لما سقطت البلاد في يدّ المتمهدي ويد خليفتهِ التعايشي من بعدهِ جعلا حكومتها على مثال الحكومة الاسلامية في صدر الاسلام فألغيا الضرائب وجعا الزكاة والفطرة واقاما بيت مال المسلمين ولما انتهى الحكم الى التعايشي حكمها حكماً عسكرياً فقسمها الى عمالات كما مرَّ واقام على كل عمالة عاملاً فوّض اليه السلطة العسكرية والادارية وجعل معهُ وكيلاً له وقاضياً ونائب قاضي وكتاباً . وجعل ام درمان عاصمة ملكه ولكنه اساء الادارة وخلط بين الملك والخلافة

« حكومة السودان الحاضرة »

فنهضت مصر برأي الانكليز ومعونتهم واسترجعت البلاد منهُ مديرية بعد مديرية وكانت كلما استرجعت مديرية ولَّت عليها مديراً عسكرياً الى ان كانت واقعة ام درمان واصبح السودان كله في قبضة يدها فعقدت وفاقاً مع الحكومة الانكليزية في ١٩ يناير سنة ١٨٩٩ هذا نصه :—

« وفاق »

« بين حكومة الانكليز وحكومة مصر بشأن ادارة السودان في المستقبل »

حيث ان بعض اقاليم السودان التي خرجت عن طاعة الحضرة الفخيمة الخديوية قد صار افتتاحها بالوسائل الحربية والمالية التي بذلتها بالاتحاد حكومتا جلالة ملكة الانكليز والجناب العالي الخديوي وحيث قد اصبح من الضروري وضع نظام مخصوص لاجل ادارة الاقاليم المفتتحة المذكورة وسنّ القوانين اللازمة لها بمراعاة ما هو عليه الجناب العظيم من تلك الاقاليم من تأخر وعدم الاستقرار على حال الى الآن وما تستلزمهُ حالة كل جهة من الاحتياجات المتنوعة . وحيث انهُ من المقتضى التصريح بمطالب حكومة جلالة الملكة المترتبة على مالها من حق الفتح وذلك بأن تشترك في وضع النظام الاداري والقانوني الآنف ذكرهُ وفي اجراء تنفيذ مفعولهِ وتوسيع نطاقهِ في المستقبل . وحيث انهُ تراءى من جملة وجوه أصوبية الحاق وادي حلفا وسواكن ادارياً بالاقاليم المفتتحة المجاورة لهما . فلذلك قد صار الاتفاق والاقرار فيما بين الموقعين على هذا بما لهما من التفويض اللازم بهذا الشأن على ما يأتي وهو :

« المادة الاولى » تطلق لفظة السودان في هذا الوفاق على جميع الاراضي

الكائنة الى جنوبي الدرجة الثانية والعشرين من خطوط العرض وهي :
اولاً : الاراضي التي لم تخلها قط الجنود المصرية منذ سنة ١٨٨٢ أو
ثانياً : الاراضي التي كانت تحت ادارة الحكومة المصرية قبل ثورة السودان الاخيرة وفقدت منها وقتياً ثم افتتحتها الآن حكومة جلالة الملكة والحكومة المصرية بالاتحاد أو
ثالثاً : الاراضي التي قد تفتحها بالاتحاد الحكومتان المذكورتان من الآن فصاعداً

« المادة الثانية » يستعمل العلم البريطاني والعلم المصري معاً في البرّ والبحر بجميع انحاء السودان ماعدا مدينة سواكن فلا يستعمل فيها الا العلم المصري فقط .

« المادة الثالثة » تفوّض الرئاسة العليا العسكرية والمدنية في السودان الى موظف واحد يلقب « حاكم عموم السودان » ويكون تعيينهُ بامر عالي خديوي بناء على طلب حكومة جلالة الملكة ولا يفصل عن وظيفته الا بأمر عالى خديوي يصدر برضاء الحكومة البريطانية

« المادة الرابعة » القوانين وكافة الاوامر واللوائح التي يكون لها قوّة القانون المعمول بهِ والتي من شأنها تحسين ادارة حكومة السودان أو تقرير حقوق الملكية فيهِ بجميع انواعها وكيفية أيلولتها والتصرف فيها يجوز سنها أو تحويرها أو نسخها من وقت الى آخر بمنشور من الحاكم العام وهذه القوانين والاوامر واللوائح يجوز ان يسرى مفعولها على جميع انحاء السودان أو على جزء معلوم منهُ ويجوز ان يترتب عليها صراحة أو ضمناً تحوير أو نسخ أي قانون أو اية لائحة من القوانين أو اللوائح الموجودة
وعلى الحاكم العام أن يبلغ على الفور جميع المنشورات التي يصدرها من هذا القبيل الى وكيل وقنصل جنرال الحكومة البريطانية بالقاهرة والى رئيس مجلس نظار الجناب العالي الخديوي

« المادة الخامسة » لا يسري على السودان أو على جزء منه شيء ما من القوانين أو الاوامر العالية أو القرارات الوزارية المصرية التي تصدر من الآن فصاعداً الا ما يصدر باجرائه منها منشور من الحاكم العام بالكيفية السالف بيانها

« المادة السادسة » المنشور الذى يصدر من حاكم عموم السودان ببيان الشروط التي بموجبها يصرح للاوروبيين من أية جنسية كانت بحرية المتاجرة أو السكنى بالسودان أو تملك ملك كائن ضمن حدوده لا يشمل امتيازات خصوصية لرعايا أية دولة أو دول

« المادة السابعة » لا تدفع رسوم الواردات على البضائع الآتية من الاراضي المصرية حين دخولها الى السودان ولكنه يجوز مع ذلك تحصيل الرسوم المذكورة على البضائع القادمة من غير الاراضي المصرية الا أنهُ في حالة ما اذا كانت تلك البضائع آتية الى السودان عن طريق سواكن أو أية مينا أخرى من موانى ساحل البحر الاحمر لا يجوز أن تزيد الرسوم التي تحصل عليها من القيمة الجارى تحصيلها حينئذٍ على مثلها من البضائع الواردة الى البلاد المصرية من الخارج . ويجوز أن تقرر عوائد على البضائع التي تخرج من السودان بحسب ما يقدرهُ الحاكم العام من وقت الى آخر بالمنشورات التي يصدرها بهذا الشأن

« المادة الثامنة » فيما عدا مدينة سواكن لا تمتد سلطة المحاكم المختلطة على أية جهة من الجهات السودانية ولا يعترف بها فيهِ بوجه من الوجوه

« المادة التاسعة » يعتبر السودان باجمعه ما عدا مدينة سواكن تحت الاحكام العرفية ويبقى كذلك الى ان يتقرر خلاف ذلك بمنشور من الحاكم العام

« المادة العاشرة » لا يجوز تعيين القناصل أو وكلاء قناصل أو مأمورى قنصلاتات بالسودان ولا يصرح لهم بالاقامة قبل المصادقة على ذلك من الحكومة البريطانية

« المادة الحادية عشرة » ممنوع منعاً مطلقاً ادخال الرقيق الى السودان أو تصديرهُ منهُ وسيصدر منشور بالاجراءات اللازم اتخاذها للتنفيذ بهذا الشأن

« المادة الثانية عشرة » قد حصل الاتفاق بين الحكومتين على وجوب المحافظة منهما على تنفيذ مفعول معاهدة بروكسل المبرمة بتاريخ ٢ يوليه سنة ١٨٩٠ فيما يتعلق بادخال الاسلحة النارية والذخائر الحربية والاشربة المقطرة أو الروحية وبيعها أو تشغيلها . تحريراً بالقاهرة في ١٩ يناير سنة ١٨٩٩ — الامضاءات

« كرومر » « بطرس غالي »

وفي يوم تاريخ هذا الوفاق عُين اللورد كتشنر اوف خرطوم سردار الجيش المصرى حاكماً عاماً للسودان مع بقاء وظيفة السردارية في يده واعلن فتح السودان للتجارة في ١٢ ديسمبر سنة ١٨٩٩ ولم يكن الا ايام معدودة حتى نُدب لحرب الترنسفال

ولاية

الفريق السر رجينلد ونجت باشا

« ياور جلالة السلطان »

« سرداراً على الجيش المصرى وحاكماً عاماً على السودان »

وفي ٢٢ ديسمبر سنة ١٨٩٩ عُهِد في وظيفة سردار الجيش المصرى وحاكم السودان العام « الفريق السر رجينلد باشا » وقد كان من قبل مديراً عاماً لقلم مخابرات الجيش المصرى ثم ادجوتانت جنرال

« مدن مديرية الخرطوم وآثارها »

« الخرطوم » هي عاصمة المديرية المنسوبة اليها وعاصمة السودان عموماً وهي واقعة على يسار النيل الازرق عند التقائه بالنيل الابيض شمال ٣٨ً ٣٦َ ١٥° وطول شرقي ٤٠ً ٣١َ ٣٢° وعلى بعد ١٠٧٥ ميلاً من اسوان بطريق النيل وعلو ١٢٧٠ قدماً من سطح البحر . وقد سميت بالخرطوم لانها واقعة على لسان داخل بين النيلين يشبه خرطوم الفيل . وكانت قبل الفتح المصري حلة صغيرة فاتخذها عثمان بك اول ولاة الاول مركزاً عاماً للسودان لحسن موقعها فنمت حتى بلغ سكانها سنة ١٨٨٢ نحو ٧٠٠٠٠ نسمة من جميع اجناس السودان والاجانب من افرنج ومصريين وسوريين واحباش ويهود وغيرهم . وكان فيها ابنية مبنية بالحجر أو بالطوب المشوى أو الني، واهمها سراى حكمدار السودان واسسها ممتاز باشا تاسع عشر ولاة السودان في فتح الاول ودار الحكومة واسبتالية واشوان ووكالات وزوايا وقبب ومقامات تزار وجامع بمأذنة ومدرسة لتعليم القرآن والعلوم العربية وكنيسة فخيمة متينة البناء للرسالة الكاثوليكية النمساوية وترسانة لاصلاح الوابورات وبناء المراكب يتخللها حدائق غناء من النخيل واشجار الفاكهة . وكانت مركز تجارة السودان وفي اسواقها جميع اصناف البضائع السودانية والافرنجية والحجازية والهندية والمصرية حتى جرى على السنتهم قولهم « ايش معدوم في سوق الخرطوم » الا ان اثمان الملبوسات والمفروشات كانت اضعاف اثمانها في مصر . وكان فيها من قناصل الدول قنصل لدولة انكلترا وقنصل لدولة النمسا وقنصل لدولة اليونان . وبقيت الى ان كانت الثورة المهدية فسقطت بيد



مدينة الخرطوم عاصمة السودان

المهدي في ٢٦ يناير سنة ١٨٨٥ فخربها هو وخليفته من بعده تخريباً تاماً وبنيا بأخشابها مدينة ام درمان ولم يبقيا فيها قائماً الا ترسانتها وجنائنها . وما زالت الى ان استرجعها السرهربرت كتشنر باشا سردار الجيوش المصرية والانكليزية في ٢ سبتمبر سنة ١٨٩٨ بعد واقعة عنيفة في البر والبحر فشرع في بنائها توّاً بعد الفتح وما كان الا قليلاً حتى ندبتهُ حكومتهُ الى حرب الترنسفال وخلفهُ في مركزهِ سرداراً على الجيش وحاكماً

عاماً على السودان « الفريق السر رجينولد ونجت باشا » فشرع في تنظيم المدينة وتوسيع نطاقها فسارت في اقل من ستة سبعة لم يكن ينتظر لها في عدة سنين . ولما ذهبت الى الخرطوم اذ رأيت بعد واقعة ام درمان قصوراً شامخة وأبنية فخيمة وثكنات حصينة وشوارع متسعة وحدائق غناء واسواقاً تجارية غنية بجميع اصناف البضائع والمأكولات . واهم ما رأيت فيها سراي الحاكم العام التي تضاهي اجمل السرايات في مصر وهي قائمة على اطلال السراي القديمة مع زيادة في بنائها وتحسين في زخرفها . ودار الحكومة بجانب السراي وفيها جميع اقلام الحكومة السودانية ورئاسة الجيش . ومدرسة غوردون وهي بناء عظيم في الطرف الشرقي من البلدة اقامها المحسنون الانكليز تذكاراً لغوردون باشا الذي قتل في سقوط الخرطوم وسبق ذكره . وجامع فخيم جميل البناء في وسط المدينة . ولوكندة للسياح في غربيها . واما شوارعها الكبرى فسمي احدها باسم فكتوريا وآخر باسم محمد علي وآخر باسم الخديوي وآخر باسم السردار . وقد شرعت الحكومة حديثاً في بناء رصيف متسع متين على النيل فزاد في بهاء المدينة وروتقها

وموقعها الطبيعي الجميل يساعد على انمائها وقد انتهت اليها سكة الحديد من حلفا في اول يناير سنة ١٩٠٠ فنمت تجارتها نمواً سريعاً وبلغ عدد سكانها نحو ٨٩٠٠ نسمة ما عدا العساكر ولكن هذا في ازدياد كل يوم والدلائل كثيرة على انه لا يطول حتى تعود الى عزّها القديم قبل الثورة ثم تتدرج في سلم الارتقاء حتى تصبح جنة من جنان الارض

« وام درمان » تجاه الخرطوم وغرب النيل الابيض في عرض شمالي ٣٨َ ١٣° وطول شرقي ٢٩َ ٣٢° وقد كانت قبلا حلة صغيرة قائمة في سهل فسيح رملي لاشجر فيها وكانت محطاً لرحال تجار الغرب قبل دخولهم الخرطوم فبنت الحكومة فيها مدة الثورة المهدية طابية استولى عليها المهدي في ٥ يناير سنة ١٨٨٥ واحتل البلدة بانصاره الى ان مات فدفن فيها فبنى خليفته التعايشي قبة عظيمة فوق قبره جعلها مزاراً وجعل ام درمان عاصمة لملكه وسماها بقبة المهدي وفرض على كل امير من امرائه وكل وجيه من وجهاء السودان بناء منزل فيها فاتسعت اتساعاً عظيماً حتى اصبح طولها ستة اميال أو اكثر وعرضها ميلاً الى ٣ اميال . وبلغ عدد سكانها نحو اربع مئة الف نسمة من جميع شعوب السودان وقبائلها وفيهم جيش الخليفة الذي بلغ خمسين الف رجل . وابنية المدينة بالطوب الني أو بالحجارة الغشيمة والطين وبعضها بالطوب الاحمر وجميع



منظر معرض الفضة والذهب من مصنوعات اهل السودان النفيسة في الخرطوم

دورها طبقة واحدة الا منزل الخليفة الذى بجوار قبة المهدى فان فيهِ علّية فوق احد غرفه . والابنية اما مربعة مستوية السطوح أو مستديرة مخروطية السقوف . وآبار المدينة تختلف في العمق من ٣٠ : ٩٠ قدماً وهي اصلح للشرب من ماء النيل الابيض واكثر شوارعها ضيقة قذرة ولكن فتح التعايشي فيها اربعة شوارع متسعة شارعاً ينتهي الى ساحة العرضة في غرب المدينة وشارعاً الى الهجرة الشمالية وشارعاً الى

الهجرة الجنوبية وشارعاً المشرع الذى يُعبَر منهُ الى الخرطوم . وفتح سوقاً عظيمة بقرب القبة حيث كانت تباع جميع البضائع الاوروبية والمصرية والهندية والحجازية التي كانت تأتيها عن طريق اسوان وسواكن ومصوع . واقام بجانب منزله الى جهة الغرب جامعاً للصلاة وهو « حوش » كبير محاط بسور مربع مستطيل من الطوب الاحمر طوله ٤٦٠ يرداً وعرضه ٣٥٠ يرداً ولهُ اربعة ابواب ومحراب يحيط به درابزون من الحديد ويليهِ صف من « الرواكيب المظالّ » قائمة على عمد من خشب ومسقوفة بالحصير وباقي ارض الجامع مكشوف غير مسقوف . وبنى في وسط المدينة سوراً عظيماً منيعاً احاط به منزله ومنازل عساكره الجهادية والسجن وجعل الطابية القديمة ثكنة لعساكر الحكومة السود الذين وقعوا في اسرهِ وسماها السكاره . وجعل ذخائرهُ الحربية في بيت كبير بقرب منزلهِ احاطهُ بسور من الحجر سماه بيت الامانة . وبنى بناء كبيراً غير مسوَّر لبيت المال على شاطىء النيل جعل فيه مخازن للذره والصمغ والسن واماكن للضربخانة ومطبعة الحجر والعاديات والدفاتر والاوراق . ومدَّ خط التلغراف بينهما وبين الخرطوم للمخابرة مع عمال الترسانة . وبقي حتى كانت واقعة ام درمان ففرَّ جنوباً فاحتلها الجيش موقتاً وجعل فيها مركز حكومة السودان ثم نقله الى الخرطوم ورجع الكثير من سكان ام درمان الى اوطانهم وقتل منهم جم غفير في الواقعة فلم يبق فيها الآن سوى ٢٥٠٠٠ نسمة . اما قبة المهدى فقد هدمتها القنابل في اثناء الواقعة وبعدها

وبين الخرطوم وام درمان « جزيرة توتي » المار ذكرها في الكلام على النيل وهي جزيرة كبيرة جيدة التربة حسنة الهواء يحيط بها النيل الازرق من الجنوب والشرق جعل فيها غوردون ايام حصار الخرطوم حامية وجعلها التعايشي مخزناً للبارود

وتجاه توتي والخرطوم عن يمين النيل الازرق « قبة الشيخ خوجلي » وهي قبة تزار لفقيه فقهاء الخمس هجر بلادهُ في اوائل القرن الماضي وسكن جزيرة توتي حيث اشتهر بالصلاح والتقوى ومات في الجزيرة فنقل الى البر الشرقي ودفن هناك وبقربها قبة اخرى للشيخ حمد ودام مريوم

« والحلفاية » على نحو ٧ اميال من قبة الشيخ خوجلي وهي مركز مشائخ العبدلاَّب الذين اشتهروا في مملكة سنار وكان لهم المقام الاول بعد الملوك الفونج وقد انتقلوا اليها من جبل قَرِّي في شماليها وهو جبل مشهور وفيهِ ضريح عبد الله ود عجيب المانجلُك مؤسس هذه المشيخة يزورهُ الهمج وغيرهم ويقدمون لهُ النذور

وفي البطانة على ٦٠ ميلاً شرق الحلفاية قبة تزار « للشيخ حسن ودحسونة » الذي ظهر في ايام الملك عبد القادر سابع ملوك سنار . والى شمالي الحلفاية «قبة الشيخ ابراهيم الكباشي » قيل وهو من الاولياء الصالحين وليس من الكبابيش كما يستفاد من اسمه بل هو من المحس توفي سنة ١٢٨٢ هـ وكان على الطريقة السمانية القادرية . والى شمالي هذه القبة التمانيات وفيها ابعدية للحكومة زرعت في الفتح الاول بالنيلة فنجحت زراعتها . وتجاه التمانيات في غرب النيل « قبة الشيخ الطيب » مؤسس الطريقة السمانية في السودان وهي قبة تزار واقعة في سفح جبل صغير يعرف بجبل ام مرّحى الملقب بجبل السلطان نسبة اليهِ والى شمال التمانيات « حلة الجابلي » وفيها منزل فخيم للزبير بناهُ بعد الفتح الاخير والى شمالي هذه الحلة جزيرة واوسّى وهي مسقط رأس الزبير

« مديرية الجزيرة وآثارها »

« حلة سوبه » وهي حلة صغيرة على ١٥ ميلا من الخرطوم وفي جوارها اطلال سوبه القديمة عاصمة مملكة علوه المار ذكرها وقد كان فيها قصور شامخة وكنائس فخيمة وبساتين زاهرة . وهم يزعمون انها من بناء سبا ابن نوح

« والعيلفون » وهي حلة عامرة على ٦ اميال من سوبه وفيها قبة تزار « للشيخ ادريس » الذي ظهر في ايام الملك عدلان ودأبة ثامن ملوك سنار والى الجنوب منها « حلة مسجد ود عيسى » وفي مسجدها تلقى محمد احمد المتمهدي بعض دروسه

« والكاملين » وهي حلة كبيرة على نحو ٤٠ ميلا من العيلفون ولا يزال فيها آثار حياض النيلة الى اليوم . واكثر سكان المدينة اخلاط من الدناقة والجلعيين . وفي النية الآن جعلها مركزاً لمديرية الجزيرة

وبينها وبين العيلفون في الجزيرة قبة تزار « للشيخ حمد ود الترابي » الذي ظهر في ايام الملك بادى الثالث وهو الثالث عشر من ملوك سنار

« ورفاعة » بلدة كبيرة على نحو ٣٥ ميلاً من الكاملين ولاهلها زراعة واسعة

« والمسلمية » على ١١ ميلاً من رفاعة و٣ اميال من ضفة النيل الى داخل الجزيرة . وعدد سكانها نحو ٨٠٠٠ نسمة واراضيها الزراعية واسعة تمتد الى قرب النيل الابيض . ومنها طريق الى الكوة على النيل الابيض تمرُّ « بعبود ومعتوق » وهما اهم مدن الجزيرة والى شماليها خرائب « أربجي » الشهيرة التي خربت في عهد

الملك عدلان الثاني تاسع عشر ملوك سنار . والى جنوبيها «حلة قداسي» التي حوصر فيها صالح الملك الشايقي في بدء الثورة المهدية

« وابو حراز » وهي بلدة كبيرة على ١٤ ميلاً من المسلمية وفي جنوبيها يصب نهر الرهد بالنيل الازرق . ومنها طريق شهيرة تؤدي الى القضارف والقلابات وكسلة . وهذه المديرية مدن على النيل الابيض

« مدن مديرية سنار وآثارها »

« ود مدني » على نحو ٣ اميال من ابي حراز و١٢٤ ميلا من الخرطوم قائمة على هضبة عالية من الرمل والحصى تحتها صخور جيرية وهي اصلح مدن الجزيرة هواء وقد اتخذها اسماعيل باشا فاتح سنار مركزاً لعسكره بعد سنار وبنى فيها طابية لا تزال آثارها الى اليوم . وهي الآن مركز مديرية سنار واكبر مدن النيل الازرق وعدد سكانها نحو ٢٠ الفاً اكثرهم من المدنيين والكواهلة وبينهم اخلاط من الجعليين والشايقية والدناقلة والمصريين وغيرهم . وسوقها يومي الاثنين والخميس يتقاطر اليها الناس من كل صوب ويباع فيها انواع الحبوب والخضر والصمغ والمنسوجات القطنية ومن وارد منشستر والسكر والتبغ والخرز وادوات القطع ويصنع فيها الصابون والسيرج ولاهلها مهارة في صناعة الجلد

« وسنار » على ٨٣ ميلا من ود مدني و٢٠٧ اميال من الخرطوم وهي من اشهر مدن السودان واقدمها اسسها الفونج سنة ٩١٠ ﻫ واقاموا فيها مملكة دامت الى سنة ١٢٣٦ ﻫ فاستولت عليها مصر كما مر وجعلتها مركزاً لمديرية سنار وبنت فيها ديواناً للمديرية وثكنة للعساكر وجامعاً للصلاة وقد بلغ عدد سكانها سنة ١٨٨٢ م نحو ٧٠٠٠ نسمة من اخلاط العرب الفونج والهمج وغيرهم وكانت مركز تجارة الجزيرة وفازوغلي وسوقها يوم الاثنين والخميس وقد جعلتها حكومة مصر في بدء الفتح الاول منفى . واليها نفى ابراهيم باشا سنة ١٨٤٠ م سبعة واربعين رجلا من امراء لبنان ومشائخه ووجهائه من النصارى والدروز الذين حافظوا على ولاء الدولة العلية عند دخوله سوريا منهم ٤ من الامراء الشهابيين و٤ من الامراء اللمعيين و٣ من المشايخ النكديين والشيخ نقولا من المشايخ الخازنيين والباقون من وجهاء البلاد بينهم اربعة من وجهاء الشويفات وهم . « حنا الخوري » جدّ الشاعر المشهور خليل افندي الخوري مدير الامور الاجنبية في ولاية سوريا « ولحود شقير » جدّ النابغة الشهير

اسبر افندي شقير كنشلير قنصلاتو انكلترا الجنرالية في بيروت « ومغامس شقير » ابو الشاعر الالمعي فارس بك شقير قائمقام قضاء الكورة بجبل لبنان «وعوكر شقير» ابو سعادة افندي شقير . فطلبت الدولة الانكليزية ارجاعهم في الحال ورست عمارتها في الاسكندرية تنتظرهم الى ان رجعوا من سنار فاوصلتهم الى بلادهم وكانت مدة اقامتهم في سنار ثلاثة اشهر

وبقيت سنار بيد مصر الى ان كانت الثورة المهدية فسقطت بيد الدراويش سنة ١٨٨٥م بعد حصار شديد دام عدة شهور فامر التعايشي فخربت خراباً تاماً وهجرت الى ان عاد الجيش اليها بعد الفتح الاخير سنة ١٨٩٨م فلم يجد فيها قائماً الا مأذنة جامعها وقد كتب على الخشبة التي فوق بابه هذه العبارة . بسم الله الرحمن الرحيم نصرٌ من الله وفتحٌ قريب وبشر المؤمنين يا محمد بالجنة . باني هذا الجامع خورشيد بك بأمر حضرة الحاج محمد علي باشا والي مصر تاريخ عام سنة ١٢٥٠ هـ » . فجدّدت الحكومة السودانية بناءها وجعلتها مركزاً لمديرية سنار مدة ثم رأت ما رآه اسماعيل باشا فاتحها الاول ان هواء ود مدني اصح من هوائها فنقلت مركز المديرية الى ود مدني

ومن سنار الى النيل الابيض طريقان مشهوران طريق الى مشرع ابي زيد في جنوبي جزيرة أبا وطريق الى الكوه طولها ١٠٠ ميل تمر بجبلى سجدى وموبه وهما جبلان مشهران بالغرانيت الجيد بل الغرانيت الاحمر في جبل سجدى هو من اجمل انواع الغرانيت واجود من حجر اسوان . ويبعد جبل موبه ٢٣ ميلاً عن سنار ويعلو ١٢٠٠ قدماً عن سطح الارض التي حوله واما جبل سجدى فاقل منهُ علوّاً ويبعد ٣٨ ميلا عن سنار . وفي سنار قبب ومقامات كثيرة للذين اشتهروا بالصلاح والتقوى منها الى الشمال قبة ود العباس ومقام هجو ومقام عابدين

« ورْنقه » على نحو ٤٠ ميلا من سنار وهي حلة الملك تاي الدين من بقية الفونج وقد قتل في حصار سنار سنة ١٨٨٥ « وسنجه » جنوبيها وفيها منجرة للمراكب .

« وكركوج » على ٦٩ ميلا من سنار وهي مركز تجاري بعد سنار في الاهمية . والى غربيها على نهر الدندر «حلة دبرَكي» مركز الحَمَدة . ومن كركوج فصاعداً يكثر ذباب السروت وتقوم الحمير والبقر مقام الابل والخيل

« والرصَيرص » على ١٠٤ اميال من كركوج في رأس شلال الرُّصيرص. والى غربي البلاد التي بين كركوج والرصيرص « جبال الفونج » المار ذكرها وهي تشمل جبال البرْون التي اشتهرت في تاريخ سنار

« وفامكه » على ٥٥ ميلاً من الرصيرص و٤٣٥ ميلاً من الخرطوم بناها محمد علي باشا سنة ١٨٤٠ م وجعلها عاصمة ادارة فازوغلي . وبنى على نحو خمسة اميال منها جنوباً قصراً جميلاً ومعملاً لاستخراج الذهب ما زالت آثارهما باقية الى الآن . وسكان فامكه الجيلاويون من افضل السودخـلقاً واشهرهم في النظافة والطبخ

وفازوغلي بلاد جبلية قيل ان فيها ٩٩ جبلاً اشهرها : « جبل فازوغلي » على ضفة النيل الغربية تجاه فامكه وهو يعلو ٥٩ ٢٦ قدماً عن سطح النيل . وفي سفحه حلة منسوبة اليه كانت عاصمة البلاد قبل الفتح المصري وعليها الآن ملك من ذرية ملوكها الاقدمين « وجبل تابي » غربيها وهو موطن التقسنة « وجبل قبا » شرقي فامكه ولاهله القمز مهارة في صنع الاسرة والكراسي وأساور العاج وعليهم ملك يدعي النسبة الى الفونج

« وجبل ابو رمله » شماليه وعليه ملك يدعي هذه النسبة واهله همج وعرب وعبيد

« وجبال بني شنقول » على ٧٥ ميلاً من جبل تابي وفيها الذهب وهي جبال البرتة والوطاويط المار ذكرهم وقد استقلوا بها مدة الثورة المهدية الى ما قبل الفتح الاخير بقليل فآلت الى الاحباش ولا تزال بيدهم الى الآن . وفي اقصى هذه الجبال « جبل قداسي » المشهور . وفي سفحه بلدة تجارية تسمى باسمه تباع فيهـا بضائع السودان والحبشة وقد كانت آخر حدود السودان المصري الجنوبي على النيل الازرق كما مر

« مدن النيل الابيض التابعة الى مديرية الجزيرة »

« قيزان الملك ابراهيم » على نحو ١٨ ميلاً من الخرطوم وهي مركز مملكة الجموعية التي اشتهرت في زمن الفونج

« وودجار النبي » على نحو ٢٥ ميلاً من الخوطوم . والى شماليها على اربعة اميال منها « جبل اولى » المشهور. والى جنوبيها على مثل ذلك « حلة المحمودية » احد مراكز الاستاذ محمد شريف ابن الشيخ الطيب استاذ المهدي

« والقُطينة » وهي بلدة حسنة الموقع قاعة على تلة مرتفعة على ٢٤ ميلاً من ودجار النبي وهي اكبر بلاد النيل الابيض وفيهـا مسجد ومرسى للسفن واتساع النيل عندها ٦٠٠ يرداً فقط

« وودشعلي » على ١٨ ميلاً من القطينة وهي مرسى جيـد للسفن « والدويم » على ٤٣ ميلاً من ودشعلي وفيها احسن مرسى للسفن . ومنها الى الابيض طريقان شهيرتان طريق تمر ببارة وهي معطشة طولها ١٧٦ ميلاً وطريق تمر بخور ابي جبل طولها ٢٦١

ميلاً وهي الطريق التي سلكها هكس باشا في حملته على المهدي في كردوفان. وقد كان فيها مدة الفتح الاول شونة كبيرة . واكثر سكانها جعافرة ومصريون وحسانية

والى شماليها الترعة الخضراء والى غربيها على نحو ١٥ ميلاً منهل شات وهو مركزهم لتجارة الصمغ والريش والجلود . على ان شات والدويم تابعتان الآن في ادارتهما لكردوفان

« مدن محافظة فاشودة وآثارها »

« الكوّة » وهي حلة كبيرة على ٢١ ميلاً من الدويم وسكانها اخلاط من الحسانية والجمليين والدناقلة وفيها طابية من ايام الثورة المهدية . والى جنوبيها على بضعة اميال منها تبتدىء جزيرة أبا المار ذكرها . وجنوبي هذه الجزيرة على ١٧٥ ميلاً من الخرطوم « قوز ابو جمعه» وهي الآن مركز مأمورية مديرية الجزيرة . والى ١٤ ميلا منها مخاضة ابي زيد وهي المخاضة الوحيدة التي يُعبر بها النيل الابيض خوضاً بالرجل في زمن التحاريق . ومنها تبتدىء بلاد الشلك ويرى قصب البابيروس وتبدو الاعشاب الآتية من سد طافية على وجه الماء وتكثر الآجام والمستنقعات على ضفتي النيل فيصعب النزول الى البر بسببهما

« والجبلين » على ٩١ ميلا من الكوة . وهناك جبلان متجاوران يطلان على النيل شبه قلعة ومنهما اسمها . ومنها فصاعداً يظهر ذباب السروت ويكثر البعوض حتى لا يكاد يطاق

« وحلة الرّمق » على نحو ٥٩ ميلاً من الجبلين و٣ اميال من ضفة النيل « وجبل احمد اغا » وهو اكمة كسنام البعير على ٥٩ ميلاً من الرنق علوهُ ٤٠٠ قدم وهو منسوب الى احمد اغا العنتبلي من مشاهير الفتح الاول

« وكاكا » وهي مجموع من قرى الشلك على ٥٦ ميلاً من جبل احمد اغا .

« وفاشودة » عاصمة ملك الشلك ومركز مديريته على ٧٣ ميلا من كاكا و٤٦٩ ميلاً من الخرطوم وفي عرض شمالي ٢٠ً ٥٥َ ٩ وطول شرقي ٦َ ٣٢ احتلتها مصر رسمياً سنة ١٨٧١ م فأقامت فيها طابيــة باربع ابراج وعززتها بالعساكر والمدافع وبقيت الى سنة ١٨٨٣ اذ اضطرت أن تخرج منها بسبب الثورة المهدية فعادت الى ملوكها الاصليين فاستقلوا على جزية يدفعونها للدراويش او لا يدفعونها . وسنة ١٨٩٨ جاءها مرشان عن طريق الكونغو وبحر الغزال فعقد مع ملكها محالفة وقتية وبنى فيها طابية حصينة

فهاجمهُ الدراويش فيها فردَّهم خاسرين وبقي حتى اقبل السردار بعصيلة من جيشه بعدفتح ام درمان فخرج منها بامر دولته سنة ١٨٩٩

« والتوفيقية » قرب مصب نهر سُبت بالنيل الابيض على ١٦ ميلاً من فاشوده وهي نقطة عسكرية أنشأها غوردون باشا لمقاومة تجار الرقيق

« وسُبَت » نقطة على ضفة نهر سبت الغربية عند مصبه في النيل الابيض « والناصر » على ١٧٠ ميلاً من مصب نهر سبت وهي آخر نقطة تصل اليها السفن . وفي كل من النقط الثلاث الاخيرة نفر من البوليس لحفظ النظام . ومن سُبت فصاعداً جنوباً يبدأ السد فيمتد الى مفرق بحر الزراف عن بحر الجبل كما مرّ وليس هناك ما يستحق الذكر سوى بعض المرافيء التي ترسو فيها السفن لجمع الوقود

« وشامبي » على بحر الجبل وهي مرفأ حسن للسفن على ٢٣٠ ميلا من بحيرة نو و ٨٤٢ ميلا من الخرطوم . « وبور » على ١٣٠ ميلا من شامبي . « والكنيسة » وبينهما بناها المرسلون الكاثوليك النمساويون في اواسط القرن الماضي وهي الآن خراب

« ومنجلا » وهي آخر حد السودان الجديد الجنوبي كما مرّ وعلى نحو ١٠٥٧ ميلا من الخرطوم . هذا ومن بلاد خط الاستواء التي كانت تابعة قبلا للسودان المصري فألحقت بمقاطعتي اللادو وأوغنده

« اللادو » على ١٠٧٢ ميلاً من الخرطوم وهي مركز مقاطعة اللادو التابعة لملك البلجيك وقد كانت مركز حكومة خط الاستواء قبل الثورة المهدية

« وكوندوكرو » على ٩ اميال من اللادو اسسها السر صمويل باكر سنة ١٨٧١ م وسماها بالاسماعيلية على اسم الخديوي الاسبق وجعلها عاصمة البلاد

« وجبل الرجَّاف » على ١٠ اميال من كوندوكرو و ١٠٩١ ميلا من الخرطوم . وفي سفحهِ مدينة كانت مركز حكومة خط الاستواء مدة الفتح الاول واتخذها الدراويش مركز حكومتهم مدة احتلالهم لتلك البلاد وبقوا الى ان طردهم البلجيك منها في ١٧ فبراير سنة ١٨٩٧م . قيل وقد سمي الجبل بالرجاف لان قمته ترتجف احياناً ولعل سبب ارتجافهُ الزلازل التي تحدث في تلك الجهات ومنهُ يسمى النيل الذي يجري في خط الاستواء بحر الرجاف وبحر الجبل . ومن تلك البلاد : بادين وكيري وموجي واللابوريه . والدقّلاي وود لاي ومهاجي .الواقعة على بحيرة البرت نيانزا وفي جميعها آثار طوابي وغيرها ومن عهد الاحتلال المصري

« مدن بحر الغزال وآثارها »

« واو » على نحو ١١٤ ميلا من مشرع الريك وهي عاصمة البلاد بعد الفتح الاخير « وديم الزبير » أو ديم سليمان على نحو ١٠٠ ميل من واو وهي عاصمة البلاد في الفتح الاول وقد كانت مركز الزبير باشا في عهد استيلائه على بحر الغزال ثم مركز ابنهُ سليمان من بعده ولذلك سميت باسمهما . ومن اماكن بحر الغزال الشهيرة : لفيّ الذى فيهِ حفرة النحاس وبكّو وقنـده وجور عطاس وجوق الحسن وصبحي وفوّه

« مدن مديرية كسلا وآثارها »

« كسله » عاصمة المديرية وهي شرقي خور القاش في طول شرقي ٢٤َ ٣٦ْ وعرض شمالي ٢٨ ١٥ْ وفي سفح جبال الحبشة الشمالية الداخلية الان في الارثريا ومنها يمتد السهل شمالا وغرباً الى مسافة بعيدة ولذلك فهى من اهم مراكز السودان الحربية . وقد احتلتها حكومة مصرسنة ١٨٤٠م كما مرّ واقامت فيها حامية قوية احاطتها بخندق وسور عظيمين فاجتمع اليها التجار والمتسببون من كل الجهات وزهت حتى صارت من اشهر مدن السودان واكبرها وبلغ عدد سكانها سنة ١٨٨٣م نحو ٢٠٠٠٠ نسمة من الجعليين والدناقلة والتكارنة وغيرهم وبينهم نفر من تجار الافرنج والشوام والمصريين والهنود والحجازيين . وفي سنة ١٨٨٥ سلمت للدراويش بعـد حصار شديد فخربوها تخريباً وكان في شرقيها محلجة قطن تجارية لتاجر ارناؤرطي يسمى عمراغا فاتخذوها « دعماً » لهم واقاموا فيهِ الى ان اخرجهم التليان منه واحتلوه بعدهم سنة ١٨٩٤ فسوروه وحصنوه بالطوابي وبقوا فيهِ حتى سلموه لحكومة السودان سنة ١٨٩٧ فشرعت في تعمير المدينة داخل السور القديم فبنت فيه داراً للمديرية ومنازل للمدير والمفتشين واسبتالية ملكية . والبناء قائم هناك الآن على قدم وساق داخل السور وخارجه وقد اجتمع اليها اهلها الاولون وغيرهم فبلغ عدد سكانها الآن نحو ١٠٠٠٠ نسمة .

والى الجنوب الشرقى من كسله جبل شهير منسوب اليها يعلو ٢٣٠٠ قدماً عنها و٣٩٦٠ قدماً عن سطح البحر . وفي سفحه « حلة الختمية » وهي حلة السيد حسن المرغني كبير طريقة المرغنية في السودان وقد مات ودفن فيها سنة ١٢٨٦ هـ فبني فوق قبره قبة هدمها الدراويش . وبعد الفتح الاخير شرع في ترميمها حفيده السيد علي المرغني كبير المرغنية في السودان الآن وبني لنفسه منزلاً في كسله ومنزلا في الخرطوم

ولـكسله عدة طرق شهيرة منها : طريق تجارية الى مصوع تمرّ بسبدرات واغوردت

وسنهيست طولها ٢٣٧ ميلاً وهي طريق سهلة متوفر فيها الماء . وطريق الى سواكن تمر بفلنك وخور بركة وطوكر طولها ٢٧٤ ميلا . وطريق الى بربر تمر بقوز رجب وادرامه طولها ٢٧٢ ميلاً . وطريق الى الخرطوم تمر بقوز رجب وآبار ديرة وبودليق وودحسونة طولها ٣٨٠ ميلاً

« والقضارف » وتطلق على القسم الشمالي من البلاد التي بين الرهد والاتبرا وهي مشهورة بالخصب وجودة الحاصلات كما مرّ ومركزها « سوق ابي سن » على نحو ١٤٦ ميلاً من ابي حراز و١٤٢ ميلاً من كسله و٩٤ ميلاً من القلابات وتعرف ايضاً بالقضارف اي باسم البلاد كلها وفيها سوق من اشهر اسواق السودان تأوي اليها التجار من اهل السودان ومصر والحجاز والهند والحبشة واوربا ويباع فيها جميع اصناف الحبوب والماشية والصمغ والريش . وابو سن المنتسبة اليه السوق وهو كبير الشكرية في اوائل القرن الماضي . وقد كانت القضارف في الفتح الاول تابعة للخرطوم فاستولى عليها الدراويش في بدء الثورة المهدية فكانت من اهم مراكزهم في السودان الشرقي وبقوا الى ان اخرجهم الجيش منها عنوة سنة ١٨٩٨ومن مراكز القضارف الشهيرة القلعة اربخ على ٤٠ ميلاً الى الشمال الغربي من سوق ابي سن . وحلة الشيخ شريف قرب النيل الازرق

« والقلابات » وهي القسم الجنوبي من البلاد التي بين الرهد والاتبرة ومركزها « المتممة » المعروفة ايضاً بالقلابات وهي قائمة على خور ابي نخيرة في سفح جبال الحبشة الشمالية الشرقية ولذلك فهي بوغاز مهم على حدود الحبشة . وأول من سكن هذه البلاد الكنجارة وهم العبيد الآبقون من اسيادهم . ثم سكنها التكارنة ومعظمهم من متخلفيّ حجاج الغرب وقد تكاثروا فيها حتى بلغوا ٤٥٠٠٠ نسمةواحتلت مصر القلابات رسمياً سنة ١٨٦٢م ثم اضطرت الى اخلائها سنة ١٨٨٥م بسبب الثورة المهدية فسقطت بيد الدراويش فاقاموا فيها حامية كبيرة وكان بينهم وبين الاحباش وقائع مشهورة قتل في احداها النجاشي يوحنا سنة ١٨٨٩ وظلت بيد الدراويش الى ان استرجعتها مصر بعد فتح أم درمان سنة ١٨٨٩ وفيها الآن كما كان قبل الفتح سوق شهيرة تفتح يومي الثلثاء والاربعاء وتعرض فيها جميع بضائع السودان والحبشة . ومن اماكن القلابات المشهورة : قدَبي وصرف عرديبه ومريود ودوكه وزْرقة

« مدن محافظة سواكن وآثارها »

« سواكن » عاصمة المحافظة وهي واقعة على البحر الاحمر في عرض شمالي ٧َ ١٩

وطول شرقي ٢٠َ ٣٧ْ وعلى نحو ٧٢٠ ميلاً من السويس و٢٨٥ ميلاً من مصوع و٢٠٠ ميلاً من جدة ببر الحجاز. وهي عبارة عن جزيرة محيطها ميل ونصف ميل وأمامها بندر يقال له القيف بينهما في البحر مسافة ٤٠ متراً كان الناس يجتازونها بالزوارق حتى جاء غوردون باشا سنة ١٨٧٩ فوصل بينها بجسر «كوبري» عرضه نحو ٨ امتار وبنى عند طرفه مما يلي الجزيرة قنطرة حسنة وابنية المدينة من الحجر المرجاني الكلس المستخرج من قعر البحر وهي مبنية على الاسلوب الشرقي المشهور بُرُج وشُرَف خشبية واكثرها ذو طبقتين او ثلاث بخلاف الابنية في داخلية السودان وفي الجزيرة دار للمحافظة وجمرك ومحكمة شرعية ومكتب للتلغراف وجامعان . وفي القيف جامعان آخران ومدرسة أميرية وسجن ومحل للضابطة وافران كافران مصر. وهي محاطة بسور منيع معزز بالطوابي من عهد الثورة المهدية وميناؤها أمين للسفن لكنه ضيق قليل النور وستشرع حكومة السودان قريباً في توسيعه . وفي مياه هذه الميناء مواد فصفورية وفيه انواع من السمك تفهة الطعم ومنها نوع يقال له الابرس فيصطادون صغيره واما كبيره فيصطادهم . وهواء سواكن حار في الصيف ورطب في الشتاء وظهرها قبل مصر بعشرين دقيقة . ويطل عليها من بعد جبال سنكات واركويت التي تعلو ٤٠٠٠ قدم عن سطح البحر وليس في سواكن نبع ولا نهر وانما يشرب أهلها ماء المطر. وقد كانوا قديماً يخزنونه في صهريج كبير في مكان جنوبي القيف يعرف بالفوله فبنى لهم ممتاز باشا سداً من التراب على ميل من القيف لحبس مياه الامطار من الجبال المطلة على سواكن فاستغنوا به عن الفوله وعُرف مكان السد بالشاطه . ولما كثرت العساكر في سواكن مدة الثورة المهدية لم تعد مياه الشاطة تكفيهم فأتت حكومتها بآلة بخارية لتقطير مياه البحر تعرف بالكندنسة وجعلت توزع منها الماء على الجيش والاهالي حتى انتهت الثورة المهدية وبرح الجيش سواكن فابطلتها واقتصر الاهالي على الاستقاء من الشاطه وكانت الكندنسة موضوعة في شبه جزيرة شمالي سواكن تعرف بجزيرة الشيخ عبد الله وهو من اولياء سواكن المدفونين فيها وله قبة تزار . وفي هذه الجزيرة مستشفى يديره من عهد طويل الحاذق النشيط الدكتور يوسف بك شدياق والى شماليها مقام شهير للشيخ برغوث اعتاد البحارة كلما مرّوا بمقامه ان يلقوا دلواً من مائهم في البحر « سلاماً » له واذا لم يفعلوا ذلك تشاءموا من سفر البحر

وسواكن مدينة تجارية قديمة العهد فهي تربط السودان بالحجاز والهند ومصر ويربطها بالسودان طريق بربر المار ذكرها . وعما قليل تشرع الحكومة في مدّ خط حديدي منها الى بربر فتنمو بذلك تجارتها نمواً عظيماً . وفيها الآن سوق تجارية كبيرة

تباع فيها جميع بضائع السودان ومصر والحجاز والهند واوربا . ومما يزيدها اهمية انها في طريق الحجاج المسلمين من جميع بلاد السودان الى مكة وقد شرعت الحكومة حديثاً في بناء محجر صحي فيها ليلجأ اليه الحجاج السودانيون اذا داهمهم الوباء بدل ذهابهم الى محجر الطور المنحرف جداً عن طريقهم كما هي الحال الآن

ولاهل سواكن خرافة في اصل تأسيسها قالوا : كان لبعض ملوك الحبشة الاقدمين مودّة واتصال باحد قياصرة الرومان فأرسل اليه سبعاً من الابكار الحسان هدية فأقلعنَ في زورق وجئنَ الى سواكن وكان فيها سبعة من الجن فقصدوا لهنَّ ومنعوهنَّ عن السفر ثم تزوجوا بهنَّ واولدوهنَّ اولاداً عمرت بهم المدينة فسميت سبع جن ثم حُرفت الى سواجن ثم الى سواكن . وفي الواقع لا يعلم زمن تأسيسها ولكن التاريخ يدلنا انها كانت مركزاً تجارياً مهمًّا منذ عهد البطالسة على مصر وان بطليموس فيلادلفوس جعلها مخزناً لسن الفيل . وقد ذكرها ابوحسن المسعودي في تاريخه قال « وجزيرة سواكن اقل من ميل في ميل وبينها وبين البر الحبشي بحر قصير يخاض واهلها طائفة من البجة تسمى الخاسة وهم مسلمون ولهم بها ملك »

وافتتح السلطان سليم العثماني سواكن سنة ١٥٢٠ م فظلت تابعة للدولة العلية يتولاها حكام من قبل والي الحجاز الى ان تنازل الباب العالي عنها لمصر سنة ١٨٦٦ كما مرَّ

وفي اثناء الثورة المهدية خرج رجل من اهلها يسمى عثمان دقنه وانضم الى المهدي فكان نصيره في السودان الشرقي كما ذكرنا

أما سكان سواكن فيبلغون الآن نحو ٥٠٠٠ نسمة الربع من اهل البلاد الاصليين والباقون من الاجانب . والسكان الاصليون اخلاط من البجة والخاسة والارتيقة والاشراف واقوامهم الارتيقة وقد كانوا الى عهد غير بعيد امراء المدينة واسيادها ولا تضرب النقارة « الطبل » لفرح أو لاحتفال الا بامرهم وكبيرهم الان الشيخ محمود بك ارتيقة وهو من خيار الرجال . وكلهم يتكلمون البيجاوية وفي منازلهم ومجالسهم الخاصة ولكنهم في المجالس العامة يتكلمون العربية وأما الاجانب فاكثرهم من الاتراك الذين تخلفوا فيها بعد الفتح العثماني ثم من المصريين والهنود والحجازيين الذين دخلوا البلاد بقصد الاتجار . والهنود فريقان مسلمون ووثنيون وهؤلاء من طائفة مشهورة في الهند يقال لها البنيان ولهم اعتقادات وثنية حسنة منها انهم يحرّمون اكل اللحوم وقتل اية نفس حية فاذا رأوا احداً يذبح طائراً اسرعوا اليه وبذلوا الجهد في تخليصه ولو بفدية باهظة وهم يلبسون

مئزراً ويشدونه حول احقائهم وهو كل ما يلبسونه رجالاً ونساءً ونساؤهم تتزين بالاساور والخلاخل الضخمة والاقراط من الذهب والفضة . ومن اماكن سواكن الشهيرة على البحر الاحمر :

« نقطة حلايب » عند حد السودان الشمالي على البحر الاحمر « ونقطة محمد قول » على نحو ١٣٠ ميلاً شمالي سواكن . وبقربها ملاحة شهيرة تعرف بملاحة رواية ويظن انها في مكان عيذاب المشهورة في تواريخ العرب

« ومأمورية عقيق » على نحو ٨٥ ميلاً من سواكن وهي تمتد جنوباً الى رأس فصّار الفاصل بين سواكن ومصوّع واكثر اهلها من الخاسة التابعين لبني عامر . والغرض من هذه النقط ضم كلمة البادية ومنع تهريب الرقيق من داخلية البلاد الى الحجاز

« ومأمورية طوكر » ومركزها طوكر على ٥٦ ميلاً الى الجنوب من سواكن وميناؤها الترنكتات بين سواكن وعقيق . وقد بنت الحكومة قديماً في طوكر داراً للمأمورين بطبقتين فسقطت بيد الدراويش سنة ١٨٨٤م فهدموها الى الارض وعمروا دعماً على ٧ اميال من جنوبيها عرف بديم عفافيت ثم استرجعتها الحكومة بعد واقعة شديدة في ١٩ فبراير سنة ١٨٩١م واحتلت عفافيت فسمتها طوكرو بنت فيها طابية حصينة

وبين طوكر وترنكتات « آبار التيب » التي اشتهرت في الثورة السودانية لما حصل فيها من المعارك الشديدة بين الدراويش والجيوش المصرية والانكليزية

والى غرب سواكن على ٤٠ ميلا منها بلاد سنكات وقد كانت في الفتح الاول مركز مأمورية وكان فيها حديقة زاهية واما الآن فقد هجرت وانصرفت العناية الى تعمير جبال اركويت التي جعلت مصيفاً لمركز المحافظة العام

« محافظة مصوّع » وأما محافظة مصوّع التي كانت قبلاً تابعة للسودان واصبحت الآن بيد التليان فقد امتدت على البحر الاحمر من رأس فصارت حيث تنتهي محافظة سواكن حالة رهيطة عند بوغاز باب المندب وامتدت غرباً في البرّ الى سنهيت . وقد سميت الآن « بالارثريا » وامتدت غرباً الى سيدرات قرب كسله . ومركزها مصوّع في عرض شمالي ٣٧َ ١٥ْ وطول شرقي ٢٧َ ٣٩ْ وهي جزيرة في البحر طولها نحو ميل وعرضها زهاء ٤٠٠ برد . وبينها وبين البرجزيرة صغيرة تعرف بطالوت كان الناس يعبرون منها الى البرّ بالزوارق الى سنة ١٢٩٠ هـ فشيد لهم مونسنجر باشا جسراً ضيقاً من خشب اقامه على عمد من حجر جاعلا طالوت وصلة فيه

وقرب مصوّع (جزائر دهلك) التي يستخرج منها اللؤلؤ والصدف والظفر وفيها

آثار قديمة عليها كتابة قيل أنها من عهد الفرس . وتجاه مصوع في البرّ ثلاث قرى صغيرة حرقيقو وحُطمْلو وأم كَلُّو وهي لها كالقيف لسواكن . ومنها طريق تجارية الى عدوة في الحبشة وطريق الى كسلة في السودان وقد مرَّ ذكرها والى جنوبها مبنياً زولاً المشهور قديماً باسم أدولس وفيهِ آثار من عهد البطالسة ويقال في هواء مصوَّع ومياهها وابنيتها وميناتِها وتجارتها ما قيل في سواكن . وقد اقام التليان فيها ابنية فاخرة فزهت حتى صارت من افخر مدن البحر الاحمر

« محافظة هرر » واما محافظة هرر التي انسلخت ايضاً عن السودان فآلت عاصمتها هرر الى الاحباش وفرضتها زيلع وبربره الى الانكليز

« مدن مديرية كردوفان وآثارها »

« الأَبيّض » عاصمة المديرية ومن اشهر مدن السودان التجارية واقدمها وهي واقعة في سهل فسيح على ٢٩٢ ميلاً من الخرطوم و٤٤٦ ميلاً من الفاشر وعلو ١٩٢٠ قدماً عن سطح البحر .وقد كانت زاهية في عهد سلطنة الفور فزادت بعد الفتح المصري زهاءً وبنت الحكومة فيها داراً للمديرية وثكنة للعساكر وشونة ومستشفى وكان فيها جامع ومدرسة ابتدائية وسوق تجارية شهيرة تباع فيها جميع اصناف البضائع التي تباع في السودان . وقد بلغ عدد سكانها قبل الثورة نحو ٥٠٠٠٠ نسمة بينهم كثير من تجار الجعليين والدناقلة والبعض من تجار الشام والحجاز والهند واوربا . وسقطت بيد المهدي في ١٩ يناير سنة ١٨٨٣ بعد حصار طويل فخرَّبها وبنى « ديماً » بجانبها وبقيت الى ان عادت الحكومة اليها بعد واقعة أم درمان فشرعت في تجديد بنائها وعادت الى سابق عزّها

« وباره » على ٤٠ ميلاً الى الشمال من الابيّض وهي بلدة حسنة البناء جيدة التربة غزيرة المياه وفيها نبع ماء لا ينقطع يسمى العاديك يخرج منه العلَق . وكان فيها حدائق غناء تضاهي حدائق مصر زاهية بانواع الفاكهة . وقد سقطت بيد المهدي قبل الابيّض بقليل وعادت الحكومة اليها عند عودها الى الأبيض وهي الآن تتدرج في النماء كغيرها من مدن السودان

« والطيّارة » على ٣٥ ميلاً الى الشرق من الأبيّض وهي من اهم المراكز التي يجمع فيها الصمغ ولها سوق عظيمة يباع فيها الصمغ والدخان . واكثر اهلها جوامعة

« وابو حزار » على ٣٠ ميلاً الى الجنوب الغربي من الأبيّض وهي بلدة متسعة قائمة على خور عظيم تحفر فيهِ الآبار في زمن الصيف . وفي فلواتها كثير من النعام

«وخورسي» الى الشمال الغربي من الأبيض على مسيرة يوم منها وفي بعض جهاتها فلاة يقال لها المطاش ينقطع منها الماء في الصيف ولكن يكثر بالبطيخ فمن مائه يشربون ويسقون غنمهم فتراهم في تلك المدة هزلى ضعافاً كأنهم قريبو عهد بمرض ولكنهم انما يقيمون على هذا الضيق ابتغاء جمع الهشاب الذي يكثر هناك عند انحباس المطر

«والسنوط» وهي حلة صغيرة في طريق الطويشة من اعمال دارفور اتخذتها حكومة السودان مركزاً لمأمورية في اقصى غرب الابيض

« جبال النوبة » هي عدة جبال الى جنوب كردوفان قيل ان عددها ٩٩ جبلاً وهي تمد جنوباً وشرقاً الى النيل الابيض وغرباً الى دارفور وفي كثير منها ينابيع واشجار يتخللها سهول خصيبة تقوم فيها الغابات من اشجار السنط والعرديب والتبلدي وغيرها وسكانها قبائل شتى من النوبة وفي الصيف يرتاد سهولها كثير من بادية العرب كما مرّ وعلى كل جبل او مجموع جبال منها ملك . ومن هذه الجبال ما دخل في طاعة مصر في الفتح الاول ومنها ما لم يدخل وهذه اشهر الجبال التي دخلت في الطاعة : —

« جبل الداير » أو جبل الضباب وهو جبل حصين شاخ كثير الاشجار والينابيع على مسيرة يومين من الابيض

« جبل كدارو » الى جنوب الغربي من الدائر وعلى مسيرة يوم منه وقد اتخذته الحكومة الجديدة مركزاً لمأمورية جبال النوبة

« وجبل الدلن » وهو جبل صغير على مسيرة ثلاثة ايام من الابيض اشتهر في الفتح الاول وكان فيه للرسالة النمساوية الكاثوليكية مدرسة علمية صناعية بادارة الورع النبيل الاب اوهر ولدر المشهور الذي وقع في اسر المهدي

« وجبال تَقَلي » وهي مجموع جبال منيعة تحكمها عائلة النسبة الى ملوك الفونج ومن ملوكها الملك ناصر الذي اشتهر في الفتح الاول وكان مركزهُ جبل طاسين . ومن تلك الجبال جبال الدّوري وهو مركز قبيلة الشّمام

« وجبل قدير » على نحو ١٦٠ ميلاً من الابيض و٨٠ ميلاً من فاشوده وهو الجبل الذي هاجر اليه محمد احمد المتمهدي من جزيرة أبا عند اول ظهوره بالمهدية . قيل و بلصقه جبل صغير يسمى جبل ماسه ولعلّ محمد احمد اطلق عليه هذا الاسم ليتم لهُ ما قيل في بعض الاحاديث ان المهدي يخرج من جبل ماسه بالغرب

وقد اختلف المحققون في اصل تسمية تلك الجبال بجبال النوبة فمن قائل ان اسمها قديم وان النوبة الذين يسكنونها هم اصل للنوبة الذين على نيل دنقلة بدليل ما وجدوه

من التشابه بين لغة القومين وعدم اشتقاق لغة النوبة الذين على النيل من لغات الساميين الذين هاجروا الى افريقية من آسيا . ومن قائل أنها سميت كذلك لان النوبة الذين على النيل ملكوها وادخلوا اليها لغتهم كما جرى لاهل النوبة العليا مع المسلمين.ورأي البعض الآخر انها سميت باسم النوبة الذين فرّوا اليها من دنقلة وسوبه

« مدن دارفور وآثارها »

« الفاشر » بلدة متسعة قائمة على تلين عظيمين يعلوان ٢٣٥٠ قدماً عن سطح البحر ويخترقهما خور تندلتي المار ذكرهُ . اسسها السلطان عبد الرحمن الذي تولى دارفور سنة ١٢٠١ : ١٢١٥ هـ وجعلها عاصمة ملكه فصارت كرسي سلطنة الفور الى اليوم . وقد دخلت في حوزة الحكومة المصرية عن يد الزبير سنة ١٢٩١ هـ فبنت فيها داراً للمديرية واستحكاماً منيعاً للعساكر ثم سقطت بيد الدراويش سنة ١٨٨٤ م وبقيت الى ان كانت واقعة أم درمان سنة ١٨٩٨ فرجع اليها من الواقعة الامير علي دينار من سلالة سلاطين الفور فتولاها عن جزية يدفعها الى حكومة السودان

« وجبل مرّة » في وسط دارفور وجبل مرتفع حصين طولهُ من الشمال الى الجنوب نحو ١٠٠ ميل وعرضهُ من الشرق الى الغرب نحو ٦٠ ميلاً وارتفاع أعلى قممهُ ١٥٠٠ قدم عن الارض المجاورة لهُ ونحو ٦٠٠٠ قدم من سطح البحر وهو وافر الخصب والينابيع وفيه كثير من اشجار الفاكهة والحبوب مما ليس في غيره من اعمال دارفور . ومن اشهر قممهِ « جبل طرّه » الذي كان مركز سلاطين الفور قبل انتقالهم الى الفاشر وفيهِ مدفن السلاطين الخاص وجامع كبير قديم

ومن جبال دارفور الشهيرة الميدوب وتقابو وخرين المار ذكرها . ومن مدنها : « داره » وقد كانت مركز دار الصعيد وهي ثانية الفاشر في الاهمية وفيها استحكام منيع من عهد الفتح الاول . وقد اضطرت أن تسلم الى المهدويين سنة ١٨٨٤ م بعد كفاح شديد وحرب عوان أثارها عليهم السر رودلف سلاطين باشا حكمدار دارفور في ذلك الحين والمفتش العام للسودان الآن

« وكوبي » وهي أشهر مراكزها التجارية ومنها تقوم القوافل في طريق الاربعين الى مصر

« ومنواشي » وهي بعد كوبي في أهميتها التجارية وقد اشتهرت الواقعة التي كانت بين الزبير باشا والسلطان ابراهيم آخر سلاطين الفور فانجلت عن قتل السلطان ابراهيم

ودخول سلطنة الفور في حوزة الحكومة المصرية

« وام شنقة » وهي في طريق القوافل الآتية من كردوفان ودنقلة . « والطويشة » وهي في ملتقى الطرق بين شكا والفاشر وداره والابيّض . « وشكا » وقد كانت قبلاً من أهم مراكز تجارة الرقيق

« وتولو » وهي مركز تجارة البرياب « وكريو » وقد كانت قديماً مركز دار الصباح « وملّيط » وقد كانت قديماً مركز دار الرّيح « اشبال » وفيها نخيل كثير . « وكُلكل » وقد كانت مركز ادارة في الفتح الاول . « وكبكبيّه » بينها وبين الفاشر وقد كانت مركز ادارة قبلها . « وأب بشر » من مركز المسيرية « وودعه وبلبل وكتُم والدور وففا وكالة » وقد مر ذكرها

« وجمان » من مراكز البديرية ورأس الفيل وشعيرية » بين داره والفاشر هذا ولا بد من تنبيه القارئ الكريم الى ان المسافات التي أتينا عليها اكثرها تقريبية لا يمكن القطع بصحتها الآن اذ البلاد لم تمسح كلها مسحاً علمياً صحيحاً بعد وربما استغرق مسحها هذا عدة سنين نظراً لاتساعها ووعورة مسالكها وطول مغاراتها

****

وقد بينا آنفاً وجود وابور شركة كوك الذي كان راسياً أمام الخرطوم في الشاطيء الغربي من النيل الازرق وبقينا هناك تلك الليلة « وقد دفع الفجر الظلام كانه * ظليمٌ على بيض تكشف جانبيه » وفي الصباح عند شروق الشمس شرع في سيره في طريقنا الى نقطة اجتماع النيلين حتى دخل في النيل الابيض واستمر في سيره طول النهار حتى وصلنا بعد الغروب الى قرية « قطيفة » فرمى الوابور مرساه أمامها واسترحنا تلك الليلة وفي الصباح قمنا منها ووصلنا قبل الغروب الى قرية « الدوم » ومضينا فيها ليلتان ثم قمنا منها قبل الشروق ووصلنا « قوز ابو جمعه » ووقفنا هنا مدة ساعة لاخذ البوسطة حيث كان تقرر ارسالها لتلك الجهة وبعد اخذ البوسطة توجهنا الى « مركز العباسية » وبما انه بوصولنا فرغ فحم الوابور فالتزم القبطان بان يأخذ كمية عظيمة من الحطب لاستعمالهِ بدل الفحم ونكون هذا العمل يستلزم وقوفه فيها ثلاثة او اربع ساعات وفي اثناء ذلك ركب دولة الامير الفلوكة الى جزيرة غرب النيل بقصد الصيد فيها وبعد اخذ الاحطاب الكافية توجه الوابور بمن فيه الى تلك الجزيرة وانتظرنا دولة الامير مدة ثلاث ساعات . ولما احتوت عليهِ هذه الجزيرة من اللطف والبدائع الطبيعية ما يسر القلوب قال فيها الشاعر

فالارضُ مخضرةٌ تحكي زُمرّدةً والنورُ درٌّ على اغصانٍ مُنتظمُ

وللازهار ضحكٌ في حدائقها   كأنهنَّ ثغور البيض تَبتسمُ
كأن تغريد وُرقِ الصّادحات بها   أجاز رُؤيته الا انّها عجمُ

وهذه الابيات مع ما فيها من البلاغة تليق بوصف هذه الجزيرة: فاشجارها المحاطة بانواع الازهار الطبيعية من اسفلها الى اعلاها بالصنع الالهي وقدرته الصمدانية . الازهار التي لا قدرة لصانع غيره على عملها ومزينة من احدى جهاتها بنوع من الفلفل البري الاحمر يشبه المرجان على اغصانه والازهار الموجودة على ساحل النيل التي تحير العقول بحسن لطفها وبديع اشكالها والوانها واغرب من ذلك وجود الطيور المتعددة الالوان تغرد بنفسها التي تُنعش الارواح وهي متنقلة من غصن الى غصن ويوجد بين هذه النباتات الزمردية كثير من البط والوز وسائر الطيور واولادها تجري وراءها فضلاً عن وجود الوف الالوف من الفراش المزينة اجنحتها بالالوان البديعة التي جمعت الطف الالوان الموجودة في الدنيا

وقبل الغروب بساعة عاد دولة الامير من الصيد وسافر الوابور فوصل الى «جبلين» في الصباح وهو اليوم الخامس من فبراير وطلع دولته الى الصيد وحين عودته من الصيد حضر ومعه رأسين من الغزلان وبمجرد وصوله الى الوابور شرع في المسير وصادف في طريقه جاموس البحر المسمى عند السودانيين « كرنتي » فاتبع اثرهم واطلق عليهم الرصاص فلم يصبهم

ومن غرائب هذا الحيوان انه سريع الاحساس بعيد النظر حتى وانه يخرج رأسه احياناً من الماء وبحدة نظره يكشف جهاته الاربع في آن واحد على بعد الف متر فاذا نظر وابوراً او انساناً على هذا البعد يغطس في الماء ثم يخرج رأسه من محل بعيد وهكذا يستمر طول النهار ويطلع في الليل ويدخل في الغابات وينام فيها وينزل في الصباح الى الماء

وصياد هذا الحيوان يجب ان يكون سريع الحركة وماهراً للغاية في المرمى ومع ذلك ليس كل صياد يمكنه صيده

وفي صباح اليوم الثاني عند طلوع الشمس عزم دولة الامير على الخروج الى الصيد وكان داخل الغابات المجاورة نحو اربعين شخصاً من قبيلة « الشلوك » عراياً وبيد كل منهم حربة طولها مترين ودرعه من جلد التمساح « وزفله » من خشب وبالحالة التي كانوا عليها وقفوا امام الوابور وصاروا ينشدون الاغاني بلغتهم . فخرجت مع الفيصان الى البرّ وقربنا من هؤلاء الوحشيين ولعدم معرفتنا لغتهم سألناهم بواسطة الترجمان عن مقصدهم من هذا الاجتماع فاجابوا انهم يقصدون زيارة هذا الامير فعرفتهم ان دولة الامير توجه



« اهالي الشلك وفي وسطهم مؤلف هذا الكتاب »

الى الصيد وسيعود بعد ساعة . ثم أنهم شرعوا في الرقص على حسب عادتهم والغناء بصوت واحد . وفي هذه الاثناء رجع دولة الامير من الصيد ولما شاهد هذه الحالة طلب الآلة السينوموجرافية وادوات الفونوجراف وصفهم على الترتيب العسكري واخذ



« رسم اهالي الشلك المأخوذ بالسينماتوغرافيا في حالة الهجوم بعضهم على بعض »

صورتهم بنفسه على جملة أنواع . وبعد ذلك تفضل بالاحسان عليهم بالعطايا المناسبة لهم . [illegible]

لهُ يومْ بؤسٍ فيه للناس أبؤسٌ * ويومْ نعيمٍ فيه للناس انعمُ
فيقطرُ يومُ الجود من كفهِ النّدا * ويقطر يوم البؤس من كفه الدَّمُ
ولو ان يوم الجوْدِ فرّغَ كفهُ * لبذل النّدا ما كان في الارض معدمُ
ولو ان يوم البؤس لم يثنِ كفهُ * عن الناس لم يُصبح على الارض مجرمُ

وان معيشة وثروة اهالي هذه القبيلة من البقر والثيران والمعز والغنم فقط . وحكومة السودان ضربت عليهم عوايد على كل ثور أو بقرة خمسة غروش وعلى الاغنام قرش واحد وبالنسبة لعدم وجود نقود عندهم قدَّرت ثمن البقر والثور مايتين وكل رأس من الغنم خمسة قروش وعلى هذا التقرير تأخذ من هذه الحيوانات أو من سن الفيل ما يعادل قيمة النقود وفي بعض الجهات تأخذ ريش النعام والصمغ بدل نقود ومع ما بيناه اولاً بشأن التجارة في الحكومة احتكرت هذه الاصناف وتجري بيعها وأنشىء في كل مديرية مخازن جسيمة لحصرها

واهالي السودان ليسوا مكلفين بالخدمة العسكرية الى هذا اليوم وانما الحكومة تقبل من يريد منهم الدخول في العسكرية برضائه واختياره

وان حكومة السودان وضعت قانون لمنع صيد بعض الحيوانات والطيور . فاذا خالف احد الصيادين ما هو منصوص عليه في هذا القانون يدفع ضعف الرسم المقرر . مثلاً لو حضر احد الاجانب بقصد الصيد في السودان لا يصرح له بالصيد اكثر من فيلين وخرتيت واحد فاذا تجاوز هذا المقدار يؤخذ منه الافيال ويدفع ماية جنيه عن كل واحد بصفة الغرامة

وفي اثناء سفرنا في النيل صادفنا وابور قدم من اعالي تلك البلاد مشحون باولاد سودانيين اكثر من مائتين وسنهم سبعة أو ثمانية أو احد عشر سنوات وليس معهم غير قسس فسألت احد السودانيين عن سبب اخذ هؤلاء الاولاد فقال لي انهم يتوجهون بهم الى بلاد انكلترا واميركا لتعليمهم الدين البروتستاني لجعلهم قسس ثم يرجعونهم الى بلادهم لتشويق وترغيب ابناء جنسهم في الدخول في هذا المذهب

وفي سلوك واحوال هؤلاء القسس المنتشرين على وجه الارض قال الاديب الفاضل خليل خالد بك استاذ اللغة التركية في جامعة كمبردج الحائز شهادة الحقوق من الاستانة وشهادة استاذية الشرقية في العلوم من جامعة كمبردج في كتابه المسمى « الصليب والهلال » في الفصل الخامس بعنوان « التسابق في الدعوة الى الدين » وهاهي :

« التسابق في الدعوة الى الدين »

ونقول أن أهمية الاسلام لا تقف عند رسوخ مبادئه وتشبث أهله بها بل في أنه يسابق الاديان الاخرى في دعوة ذويها اليه في أصقاع العالم كافة . وهو الأمر الذي يزعج رسل المسيحية ويحسبون له الف حساب . انه ما دام امامهم قوة أخرى تدعو الى دينها فانه من الصعب على المسيحية ورسلها أن ينصروا العالم أجمع كما هو دأبهم والمفروض عليهم . لذلك فهم مصرون على التغلب على هذا القرن المنازل بما في جهدهم من السعة وما في يدهم من المال يعززهم من القوة والساطان . ومتى كانت غايتهم هي تنصير العالم فأنهم لن يروا فيما يتخذون من الوسائل ويلتمسون من الارهاق سبة عليهم أو ظلماً . لذلك فهم اذا رأوا أنهم باتباع الطرق السلمية قد أخفقوا وخاب أملهم يستنجدون بمال الغني ونيران الدول المسيحية الشديدة البأس التي لها من مظاهر السلطان والعظمة والتمدين بين الامم الوثنية قوة أخرى هي الارهاب وقد حصل ذلك في الاعوام الاخيرة

***

يتساءل المسيحيون وقد امتلكهم الغضب كيف يستطيع دين العربي الكذاب ان يسابق كنيسة دين ابن الله وهل دين الاسلام الا مجموع خرافات وأباطيل ؟ أليس للمسيحية جمعيات تبشيرية قوية بمالها ورجالها المدربين الذين ينفدون على جهادهم في سبيل الله بين مختلف الاديان في العالم (١) ؟ أليس في الممالك الاوروبية مئات الوف من الناس يتبرعون بالاموال الطائلة لمساعدة هؤلاء الرسل على عملهم المقدس ؟ . بلى . بلى . اذن فما سبب نجاح ذلك الدين في الدعوة وليس له جزء مما لنا من مقوماتها ؟

ذلك بعض ما يتساءل عنه أهل الغرب أما العلة في ذلك فانها ستبقى محجوبة عن بصائرهم لا يهتدون لحلها ما دام رجال الدين عندهم لا ينفكون عن طريقتهم التي اعتادوها

---

(١) جاء في دائرة معارف تشامبرس في موضع جمعيات المرسلين هذا البيان :

دولة	جمعية	دخل سنوي	عدد أعضائها
بريطانيا	٢٣	١٥٦ ٩٣٢ ج	٢ ٦٥٨
أميركا	٣٠	٣٩٣ ٧٨١ ج	٢ ١٢٧
ألمانيا وسويسرا	١٧	٤٢٣ ١٤٢ ج	٥٥٩
بقية الممالك الاوروبية	٠٨	٤٢٧ ٢٣ ج	٩٦

كما عمدوا لنقد دين محمد والتمسوا اسباب انتشاره . أجل انهم لا يكتبون عنه الاَّ كذباً ولا يصورون منه الا أوهاما . وما داموا كذلك فالسائلون بعيدون عن معرفة العلة التي يتساءلون عنها . خصوصاً وهم يعتقدون ان للوسائل المادية قدرة على ادخال غير النصارى في دين الكنائس

على أن من كتابهم من تصدى للتعليل فلم يجعل الغرض سبيلا الى قامه ولكنه لم يخل قوله من حشو وخبط وبحثه من اراء سفسطائية عقيمة . وانا لباحثون هنا فيمايقول اولئك الكتاب من اسباب سبق الاسلام في الدعوة

ويقول أولئك الناقدون أن للسيف الاسلامي فضلاً في هذا التسابق بل ان رجال الدين وقادة أوربا السياسيين ليغولون فوق ذلك

يقولون ان الاسلام ما قام الا بهامْ السيف ولا امتد رواقه الاّ فوق الدماء التي اسالها ولا اعتنقته القلوب حتى خشيته الرقاب . ذلك رأي كبارهم واما الجمهور فيه بمرتاب بل هو يأخذه اخذاً دون بحث ويقول به وهو غير كظيم

ومما ألاحظه أنهم كلما طرقوا باب البحث في موضوع «اضطهاد» المسيحيين في الشرق كثر ذكر هذا السيف في صحفهم وخطاباتهم وقالوا ان الاسلام ما انتشر الا به . فليت شعري أبين اضطهاد المسيحيين والسيف الفاتح علاقة ؟ . أنا لا أدري الا انهم انما يريدون ان يستفزوا المسيحيين الى تجريد هذا السيف على المسلمين كما جرده المسلمين على المسيحيين في زعمهم

وكأني بسيس منهم يقول لصاحبه وهو ينصح له : « اذا كنت ممن يهمهم ارهاق امة مسلمة واستفزاز المسيحيين لمقاتلتهم في سبيل اجارة القوم الذين يضطهدون فاجعل امر السيف نصب عينيك وقل لقد كان المسلمون يدخلون المسيحيين في دينهم بالسيف فذكر السيف كلما خطبت واذكر السيف اينما احتفلت . ولكي تؤيد قولك وتعزز حجتك اقتضب من آيات القرآن بعضها وترجمها للسامعين لتريهم كيف يأمر الاسلام باضطهاد من ليسوا على مذهبه فلقد رايت كثيراً من اعضاء البرلمان وغيرهم من رجال الكنيسة قد ينتوحون ذلك المنهج في كل حادثة من حوادث الشرق . ونحن جديرون ان نقلدهم وتتبع سننهم والغاية تبرر الوسائل فاذا تصدى لك من المسلمين نفر لتكذيبك واتهامك بانك متعمد تشويه الحقائق الاسلامية مخطىء في نقل الآيات القرآنية مفتر على محمد ودينه فلا تأبه به ولا تعر مطاعنه لفتة منك . وكيف تهتم بقول شرقي مسلم عريق في الهمجية أو تأبه بما يعارضك به ذلك الاخرق المستطار وانت في جمهور المسيحيين الذين يؤمنون بقولك ويؤمنون عليه ببساطة ويبجلونك من اجل طعنك في دين محمد ذلك الدين القذر الممقوت؟

ولا يخشى سطوة الجرائد اليومية الكبرى اذا هي نشرت لمسلم رداً عليك : فانما هي لا تنشر له بعد ذلك شيئاً بل ربما لم تنشر له شيئاً مطلقاً وجعلت أنهرها ملكا لك تسبح فيه ان شئت : فاستمع لقولي واعمل بوصيتي فانك بالغ قصدك على كل حال الخ »

هذا ما يقوله الناصح لأخيه من اهل الكنيسة . وقد تصدى هذا للاخذ بيد السياسيين . ومذهبهم حيال الشرق معروف فليست لنامعه حيلة . فاما الذي يريد الوقوف على كنه الاسلام وما يقول به القرآن فى معاملة المسلمين للنصارى وغيرهم فذلك نذكر له قوله تعالى في سورة النحل « أدع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن » الآية . وقوله له الاسماء الحسنى فى سورة يونس « أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين » وقوله جل من قائل « لا اكراه في الدين »

يقول المسيحيون ان الاسلام انتشر بسلطان السيف وان المسيحية انتشرت بفضل آياتها الباهرات على انا لا ندري ماذا كانت هذه المعجزات التى خص بها الله النصرانية ووجدت ايضاً فيما بين عهد الرسل وعهد قسطنطين من الزمان . فان التاريخ لم يذكر عنها شيئاً . اما ما نص عليه فهو ان ذلك الملك البيزانطي قد اطلق للسيف العنان فجرى على الرقاب فاما الذين تنصروا فقد نجوا واما الذين اصروا على البقاء على دينهم فقد اعمل فيهم السيف فكانوا من الهالكين

فليقل لنا أصحاب الرأي الذين يدعون ان الاسلام لم ينتشر الا بحد السيف هل وعى التاريخ أنه قد غزت امة اسلامية بلاد الصين « مثلا » فاضطرت جموعاً منها بقوة بطشها الى اعتناق الاسلام ؟ قال مسيو دى تيرسان الفرنسي فى احصائه الذى نشره في كتاب له في سنة ١٨٧٨ وهو يومئذ معتمد الحكومة في بكين « ان عدد المسلمين فى الصين لا يقل عن عشرين مليوناً » ويقول ثقات غيره أنهم يبلغون خمسة وثلاثين مليوناً أو يزيدون . فكيف أسلم هذا العدد الوفير ؟ ان الاسلام لم يدخل الصين الا في القرن السابع وهو الزمن الذى انتشر فيه المرسلون الدينيون من النصارى النسطوريين فى تلك الانحاء عاملين مجدين فكيف أحجم أهل الصين عن الدخول في النصرانية وفضلوا الاسلام ؟ لنفرض جدلا أن الاسلام والنصرانية دينا سيف وارهاق ولنفرض أيضاً أن الفرصة كانت سانحة لاهل كل من هذين الدينين لاستعمال القوة والبطش وسقي السيوف بدماء جاهلية الصين فليقل لنا القائلون بالقائل بطلع النصرانية بآياتها وعجائبها ومعجزاتها وغرائبها أن تبلغ شأو الاسلام او تحمل بعض ما حمل المسلمون في الصين والاسلام على رأيهم خال من هذه المزايا

لقد كانت الدعوة الى المسيحية في القرنين السادس عشر والتاسع عشر على الاخص دعوة تعززها الاحزاب الدينية في الغرب وتمدها بأموالها ونفوذها وتؤيدها الحكومات بسلطانها فلم لا نرى في الصين من المتنصرين عدداً يجوز ذكره بجانب الملايين الكثيرة التي عشقت الاسلام فعانقته وارتضته مذهباً ومنجى ؟

ثم اذا نحن عرضنا « مثلاً آخر » جزائر الملايو رأينا الملايين العديدة من أهل تلك الجزر قد اعتنقوا الاسلام بالرغم مما تبذله الحكومات المسيحية الاوربية التي تحكمهم منذ قرون من الوسائل القهرية لصدهم عن سبيل الله وبالرغم من أنه لم يمخر في مياهم اسطول اسلامي كما مخرت الاساطيل المسيحية مستمرة منصرة

لتنظر في سلطنة الاتراك حيث المسلمون متهمون بأنهم عاملون على ابادة المجاميع المسيحية . يوجد تحت حكم آل عثمان في هذه الايام ملايين لهم كنيستهم يطرقونها ومذهبهم يمارسونه وهم في حل منه وطمأنينة . فلو أن الاسلام كان يبرر شرعة اسلامهم بالقوة لما ارجعت تركيا عن اعمال سيفها ونارها وادخال النصارى في دين محمد قوة من قوى الارض ولا استطاعت يومئذ أن تقول لها دولة مسيحية كفي يدك عن اتباع المسيح ابن الله . أجل لو كان من طبيعة الاسلام اضطهاد أتباع غيره لاصبح مجموع السلطنة مسلما يدين بدين محمد عليه السلام فلم يكن لسياسي عربي أو قسيس من قساوستهم في وقتنا هذا سبيل الى الادعاء بما يدعون أو وسيلة لرمي المسلمين بما يفترون باسم الانسانية والمدنية

الا انه لم ينج المسيحي شجاعته أو معجزات دينه من أن يجبر على أن يدين بالاسلام: كلا : ولكن هي تلك الآيات التي ذكرناها ومثلها من احاديث النبي المصطفى التي ضمنت للنصارى حرية ممارسة اديانهم وحمتهم ما لا يحمى منه المسلمون من العداء والاضطهاد

ليعلم الذين يجعلون السيف والهلال في قراب ان نصل الاسلام قد تحطم منذ أمد بعيد بيد أن سيف المسيحية لا يزال قائماً مرهفاً يهدد العالم ويدعوه . تلك هي الهند قد حكمتها دولة مسيحية شديدة البأس فلا سبيل فيها الى امتشاق حسام الاسلام . هناك يجد المرسلون في ظلها مرتاداً وفي سلطانها عوناً لهم على القيام بمهمتهم . ولكن الدعوة الى المسيحية لم تبلغ ما بلغته الدعوة الى الاسلام . فان الناس هناك من أهل الملل الاخرى يعتنقون الاسلام بكثرة لا يدانيهم فيها اخوانهم المتنصرون . نحن لا نقول هذا القول جزافاً بل انه قول حق سبقنا اليه الباحثون من اهل اوروبا العارفون بدخائل الهند

ولعل فوز المسلمين هذا وسبقهم النصارى في مضمار الدعوة الى الدين هو سبب ما نرى من بعض المسيحيين من الخروج عن الطور المألوف واتخاذهم سب دين محمد دأباً لهم

لما لم يستطيعوا ان يعزوا فوز المسلمين في الهند الى الدعوة اليه بالسيف كما علمنا . فهم من اجل ذلك يعبرون عن حنقهم ومقتهم لذلك الدين باقوال ملئت فحشا وهجواً كقول مستر كوست في كتابه « تنصير غير النصارى » اذا وقع الناس في أشراك دين محمد لبثوا كذلك على ما فيه من المناكير والوحشية فليت شعري متى تقضي ارادة الله ان ينكس الاسلام رأسه وتخضع رقبته لنير الصليب ؟ الا انه يجمل بكل مسيحي أن يدعو الله في صلاته ان يعجل بذلك اليوم » وكما قال احد الخطباء المقدسين « ان دين الاسلام أحبولة حاكها شيطان رجيم . وجعلها بحيث تجلب الناس اليها فاذا ما اطمأنوا لها لم يجدوا مناصاً منها . نعم ان دين محمد جهاز عجيب ابتدعه مارد من الجن مطفى به نورالانجيل . أجل انه من ابليس وانه لكيد عظيم »

ذلك قول الذين يغارون من الاسلام حنقا . فأما الذين يعبدون الدرهم منهم فاليك نبأهم . قال مستر موط المبشر الامريكي وقد وقف خطيباً في امريكا بعد عودته من الشرق حيث كان ينصر ان مئة من أمثالكم أولى الصبر والثبات يعززهم عشرون ألف قطعة من النضار لكفيلة « أن يدال بهم من هيكل محمد ويبارك الرب ابنه بانقاذ بلاد العرب من قبضة الشيطان » راجع كتاب تنصير العالم في هذا العصر صفحة ١٤٥

هذا نوع ما يقولون عن ديننا وعن محمد صلى الله عليه وسلم . ولقد سألت احد معارفي من القسوس في هذه القصة فاعترف بفحش هذا التهجم وقال « أن ذلك خلط . انا لا نرضى عمن يقول ان محمداً نبي كذاب » ولا شك أن هذا التغير في اللهجة والرقي في الاداب المسيحية الجدلية جميل يلذ استماعه . ولكن ليت شعري ما هو السبب في ذلك التغير وانتهاج منهج الأدب ؟ لان الناس على سطحي الارض آخذون بأسباب اللين والمودة أم انه قد حان الوقت ليتمتع الخارجون عن العالم المسيحي بنصيب من عرف الدول في معاملة بعضها بعضاً بأدب واحترام ؟ انني لا آخذ بأي الرأيين بل أرى أن السبب غير ما ذكرت . وعندي ان المسيحيين لم يقصروا عن سب محمد صلى الله عليه وسلم وقذف دينه الا لعلمهم أن شناعته تحاملهم وفضاعته تهجمهم قد افسدت عليهم مرماهم وحملت الناس على الشك فيما يدعون من أنهم مخلصون في خدمة الانسانية !

يدعون أن في وجود دولة اسلامية مستقلة ما يعين على انتشار الاسلام . فهم من أجل ذلك يرون أن العمل على القضاء على استقلال هذه الدولة وحريتها السياسية واجب يجب أن يؤدي توصلا الى صد الاسلام عن الانتشار كما نرى في معاملة الدول لدولتنا العلية . فانهم لا يهدأ لهم بال من حين لحين حتى يخترعوا لهم مطالب تقتضي تداخلهم

مشاكل تستدعي حلهم لها فاذا عجزت سياسة اللين التي يتبعونها يومئذ ادعوا أن النصارى في خطر وان المسلمين لا يرجعون عن اضطهاد المسيحيين . وعند ذلك يؤذن في بلاد أوربا جميعها مؤذن الويل فترى أنها قد اجتمعت على وجوب نقص السلطنة من أطرافها . ثم لا يلبثون الا قليلا حتى ترى أساطيلهم تمخر في مياه البلقان ورجالهم على أهبة النزول الى شواطىء السلطنة وأوربا من ورائها تعدد « فظائع » الاتراك وتعصب المسلمين . واذا رأيت ثم رأيت ضجة في الكنائس ولغباً على منصات الخطابة مبشرين منذرين فرحين مستبشرين لا لان القسوس يهمهم كاخوانهم في الوطنية أن يروا في يد الدولة التي يتبعونها مدية تقطع لنفسها بها حصة مما أعدته أوربا للقاطعين بل لانه يهمهم على الاكثر أن يروا عمد السلطنة المستقلة التي تساعد على انتشار الاسلام في رأيهم قد أديل منها وكادت تسقط على من فيها

على أني لا أظنهم مصيبين فيما يرتأون بل أعتقد انه كلما زادت أوربا في اضطهاد الاسلام والقضاء على الدولة المستقلة زاد انتشار الاسلام وأصبح اشد وأنكى عليهم ذكر مؤلف « المعلومات الدينية » الامريكي في صفحة (١٠٦ : « انه اذا فقد الاسلام سلطته الزمنية عظمت قوته واشتدت شوكته » وقال مستر مور في كتابه « مناظرة الاسلام » وهو من أشد أنصار فكرة ارهاق المسلمين بالقتال : « لقد تلاشت سلطة الاسلام السياسية ولكني لا أظن ان المؤثرات التي تحركها اوروبا قادرة على صد الاسلام عن الانتشار »

ذلك قول بعض مفكريهم . ولكن يظهر ان الذين يحضون الدول الاوربية على الانحاء على استقلال الدول الاسلامية لا يفقهونها ولا يملكونها من انفسهم القدرة على تصديق ما وعى التاريخ من أن انتشار دين لا يتوقف على ما تمده به دولة مستقلة من القوة . فهم مجدون ملحقون في حض الدول المسيحية على سلب استقلال الدول الاسلامية وتقليص ظلها عن الارض ولكن الله لن ينجح أعمالهم

انهم استطاعوا أن يأخذوا المواثيق والعهود على حاكم أغندا الهمجي الذي نصروه « ان ينشر المسيحية في البلاد ويعاقب بالقتل كل من دان بالاسلام » كما ورد في كتاب دكتور كارل بيتر عن أفريقية المظلمة « صفحة ٤٠٣ » فانهم لن يستطيعوا اغراء رجل فضل كلورد لورانس بهدم مسجد من اكبر مساجد المسلمين في الهند ظناً منهم أن في تعويضه تفويضاً لسلطة الاسلام « راجع مؤلف مستر بوسورث سميث » تاريخ حياة لورد لورانس » صفحة ٢٤٨ من الجزء الثاني

ان هذا هذه الاعمال انه حسنة التي يحض القسوس عليها قد تؤثر في نمو الاسلام

وتعوقه عن الانتشار في مثل البلاد التي تحكمها روسيا وقد حصل . قال مسيو أوچين سميرنوف معتمد سفارة روسيا في لندن في كتابه اعمال المرسلين الارثوذوكسيين الروسيين (صفحة ١٠) إن الروسيا هدمت المساجد والمصليات التي صادفتها في البلاد التي امتلكتها بحق الفتح وعملاً على مقتضى احوال الزمان نعم أنها فعلت ذلك ولكنها لو كانت حكومة حرة لا يخضع اهلها لسلطة المجمع المقدس وكان لروسيا دستور وبرلمان لما كانت أعمالهم تضر بمصلحة الاسلام او تعوقه عن الانتشار بل كانت تعززه وتساعده على النمو والتقدم

***

ففي ١٩ محرم سنة ١٣٢٧ هـ ١٠ فبراير سنة ١٩٠٩ م اقلع وابورنا من ميناء بحر الغزال قبل شروق الشمس وصلنا الى جزيرة على الساحل الغربي للنيل فبقدرة وعظمة الخالق احتوت هذه الجزيرة من ألطف ما احتوت عليه الجزيرة السابق وصفها من المناظر الطبيعية بحيث ان اوراق اشجارها من كثر تقاربها لبعضها كانت مظلة على الارض حتى أن اشعة الشمس لا تنفذ منها كانها روضة غناء زارها الربيع فالبسها من ابدع ما حاكته يد قدرة الحنان واظلها ثياب الطبيعة فكساها بابهى ما صاغ من السندس والاقحوان عبق طيبها ورق نسيمها فداعب الاوراق ولاعب الاغصان وتفتح زهرها وتبسم ثغرها فطربت الطيور وانشدت بشجي الالحان فكانت تنفس الارواح وتجذب القلوب كما قال الشاعر

هواء كايام الهوى فرط رقة وقد فقد العشاق فيه عواذلا
وماء على الرضراض يجرى كانه صفائح تبر قد شبكن جداولا
كأن بها من شدة الجرى جنةً فقد البسهنّ الريح سلاسلا

وفي صباح اليوم الثاني فارقنا هذه الجزيرة ووصلنا الى « ام جرسام » وطلع دولة الامير الغابة الكائنة في تلك الجهة بقصد الصيد واصطاد حيوانين من الحيوانات التى يسمونها « ابو عرف » وعاد برأسيهما عند غروب الشمس وعزم على اقامته فيها تلك الليلة . وفي اليوم الثاني

والصُّبح قد جَردت صوارمهُ والليلُ قد همّ منهُ بالهرَب
والجوّ في حُلةٍ ممسّكة قد كتّبتها البروقُ من ذَهب

وعند ما طلعت الشمس وانارت الافق طلع دولة الامير للصيد داخل الغابة وتجول فيها حتى غاب عن اعيننا ولما اتى الليل لم يعد دولته حسب العادة واظلم الليل ولم نعرف له أثراً فغرقت فى بحر الافكار والاضطراب فاسرعت نحو القبطان وقلت له ربما يكون الامير ضل عن الطريق بسبب ظلام الليل فيلزم وضع فانوس في اعلى الصاري للدلالة

على محل وجود الوابور . وقد كان الا أني لم ازل في حالة الخوف فطلعت على سطح الذهبية والرعب تملك قلبي واعيني شاخصة نحو الجهة التي قصدها الامير

وليل كأنَّ الشمسُ ضَلت ممرَّها ... وليْسَتْ لها نحو المشارق مَرجَعُ
نظرتُ اليهِ والظَّلامُ كانَّهُ ... على العَيْن غربال من الجو وقَّعُ

ومن شدة ما اصابني من الاندهاش في هذه الليلة الداجية صارت عيني لا تبصر بعد قدم حتى انظر قدومه من اين جهة ليطمئن قلبي ولعدم امكاني رؤية شيء من كثرة الظلام . صرت اجرى وادور فوق الذهبية في حالة الانذهال واحياناً كنت انادي باعلا صوتي « يا حسين يا حسين » وهو رجل بدوي كان يحمل السلاح لدولة الامير وحالما كنت اصرخ وانا دائر من جهة الى جهة مضطرباً ومتألماً سمعت على بعد صوت يجاوبني « أهو جاي جاي » بوصول هذا الصوت الى صماخ سمعي امتلأ قلبي سروراً ونشاطاً لا اقدر على وصفها من شدة الفرح والانبساط بسماع هذا الصوت ناديت لمن كانوا في الوابور والذهبية كلة « بشرى بوصول دولة الامير »

وكانت ثمرة ما قساه دولته من المشاق والاتعاب في يومه وليلته وما قاسيناه نحن من ألم الانتظار صيد جاموستين واربع بقر وحشية . ومن هذه الحيوانات كان رأس واحدة من الجاموس ثلاثة وثلاثين اوقه وقطر قرنها ٣٠ سنتيمتر ويبلغ طولها نحو ذراع

وعند ما قابلنا اميرنا المحبوب انشدت هذه الابيات باللغة الفارسية على قاعدة رد العجز على الصدر

(١) اي امير دلير شير شكار ... عالى است شأن تواباً عن جدّ
(٢) جدتو آن بود كه كشيد ... بر وهابي كتيبهٔ بى حد
(٣) بى‌حد آن لشكر ظفرياور ... در مدينه چوخيمه برپا زد
(٤) زدچنان برسپاه‌دشمن‌دين ... شاد شد روح انور احمد
(٥) احمدآن‌پيشواى‌جمله‌رسول ... آن حبيب جناب ربّ احد

احدو احمد هردوبادترا
دستكيرو معين تا بأبد

« ترجمتها باللغة العربية »

(١) ايها الامير الشجاع الهمام عالي الشان اباً عن جد

(٢) جدك الذي ساق جيشاً باسلاً مظفراً لحرب الوهابين الباغين الذين اعتدوا على قبر النبي وسلبوا مافيه وخربوا المدينة المنورة وقتلوا اهلها ونهبوا اموالهم كما سبق ذكره

(٣) فلما وصلت عساكر جدك الهمام محمد علي باشا الى المدينة فبعد ان نصبت خيامها وضربت هؤلاء الطاغين الضربة القاصية

(٤) فان سرّت روح النبي محمد صلى الله عليه وسلم هو حبيب الله الذي ارسله رحمةً للعباد

(٥) الله الاحد وحبيبه الاحمد هما معينان لك الى يوم الابد

وعند رجوع دولة الامير من الصيد امر بسير الوابور وقمنا من «ام جرسام» وعند طلوع الفجر وصلنا الى «ملوطه» واقمنا فيها يوم وليلة واليوم الثاني وصلنا بعد الظهر امام جزيرة يجتمع فيها جاموس البحر وكان يطوف منهم نحو ثمانية في الماء حول الجزيرة ويخرجون رؤوسهم من الماء وينصبون اعينهم حولها ثم يختفون في الماء ولما نظرهم دولة الامير اخذ بندقية وتبع اثرهم واطلق عليهم عدة عيارات نارية فرغماً عن مهارته لم يصبهم لان احساس هذا الحيوان وتيقظه كما قلنا سابقاً كان سبباً في عدم الاصابة حيث انه لا يقاس بسائر الحيوانات ولهذا داوم لوابور على سيره

والليل قد ولّى يقلص بُردهُ * كدًّا ويسحب ذيله في المغربِ
وكأنما نجم الثريا سحرةً * كفٌّ تمسح عن معاطف اشهبِ

وفي اليوم الثاني قبل غروب الشمس وصلنا الى ميناء «كدوب» واسترحنا فيها تلك الليلة ولها محل للبوسطة مبني بالحجر ودائرة كبيرة لسكن العساكر والمأمورين فانتهزت الفرصة مدة وقوف الوابور في هذه الميناء وخرجت الى البر بقصد رؤية مبانيها المنتظمة وكنت لا اتمالك من الاستغراب بوجود هذا التحسين في هذه البلاد المتوحشة ودخولها في الحالة المدنية وبعد ان قيدت هذه المشاهدات في درج ذاكرتي عدت الى الوابور

وقد دفع الفجر الظلام كانه ظليمٌ على بيض تكشف جانبيهِ

ولما لاح الفجر اخذ الوابور في طريقه حتى وصل قبل الغروب الى مركز «التوفيقية» وهناك حضر من بها من المأمورين الملكية والعسكرية للتشريف بمقابلة دولة الامير فقابلهم باللطف والانس كل على حسب درجته ومقامه وفي اليوم الثاني تحرك الوابور بقصد السفر من التوفيقية وسار يوم وليلة وفي شروق الشمس وصل الى بحر الجبل ولم يقف فيه فداوم على سيره وفي اثناء سيرنا صادفنا احد وابورات شركة السودان وكان فيه ضابطين انكليزيين Coptan C. H. مع Earof Bosbert, S. G. A. W. Yung. rsch.Paned وهما حاضرين الى السودان بقصد الصيد في وابور مخصوص الى بحر الظرافة فقطعوا مسافة ٢٧٠٠ ميل داخل النيل وكانوا يصيدون في كل الجهة من هذه المسافة .

(٤٧)



الجاموستين الوحشيتين اللتان اصطادهما دولة الامير يوسف كمال باشا وهو واقفاً على ظهر احداهما بجهة البوانة في « ام جرسان »

والحيوانات لوحشية التي صادوها هي الفيل والاسد والظرافة والجاموس البحري والبري والخرتيت وكثير من رؤوس الحيوانات المختلفة حتى ملأوا بها ظهر الوابور . وكانوا عائدين الى بلادهم بسرور وافتخار ببلوغهم كل آمالهم في الصيد . واوقفوا وابورهم

لاداء التحية والتسليم وبعد ايفاء الزيارة داوم وابورنا في سيره طول النهار والليل وفي الصباح وصل الى ميناء « شامبي » ويوجد في نواحيها من انواع الغزال ما يسمونه (ابو نبّاح) و(ابو شمّاتت) و (دكدك) ولكثرة ما فيها من هذه الحيوانات طلع دولة الامير للصيد فيها وعاد الى الوابور ومعه ثلاث رؤوس منها

وقبل الغروب قمنا من (شامبي) ووصلنا في صباح اليوم الثاني الى قرية «كنيسة» وبعد ان اخذ الوابور ما يلزمه من الحطب سرنا في طريقنا الى ان وصلنا قرية (بور) وكان وصولنا قبل غروب الشمس بساعة في غرة شهر صفر سنة ١٣٢٧ هـ ٢٢ فبراير سنة ١٩٠٩ م وعزم دولة الامير على الاقامة فيها ثلاثة ايام وطلع في صباح تلك الليلة لاجل الصيد وعاد وقت غروب الشمس برأسين من الحيوانات المذكورة . وفي صباح اليوم الثاني طلع دولة الامير للصيد ايضاً وفي اثناء عودته طلعت الى البر لاستقباله فنظرته على بعد قادماً من وسط الغابة ووراءه عدداً كبيراً من اهالي دنكا ومن الخدم وكل واحد منهم يحمل على كتفه سن من اسنان الفيل ومعهم رجل من احد الافيال الخمسة التي اصطادها واذن واحدة ورأسين من رؤوس الجاموس البري وهو آتياً امامهم

« اشعار باللغة التركية »

كلور امانه كلور شير ژيان نعره زنان ... كلور امانه كلور ميردلير ان جهان

كلور امانه كلور تهمتن فيل افكن ... مرد ميدان نبرد شير عرين دوران

صولتندن نوله لرزان اوله كيم جان وتن ... ضرغم وكركدن و ببرو پلنك پيل دمان

داورا دادكرا سرور والا كهرا ... فارس بى بدل ساحهٔ كوى وچوكان

كورسه كر نفعى شيرين زبان صولت شيرانه نك

مدح ووصفنده قالور « مهري » كبي بسته دهان

« وصف الفيل »

فكأنما خرطومه ... راوق خمر يمد مدّا

أو مثل كمّ مسبل ... ارخته للتوديع سعدا

واذا التوى فكأنه ... الثعبان من جبل تردى

متعطفاً كالصولجان ... بساحة الميدان خدّا

يكسي الحداد وتارة ... يكسي نسيج الدّرع سردا

وكأنما هو خاضبٌ ... بالاثمد الجاري جلدا



الايائل التي اصطادها دولة الامير يوسف كمال باشا في نواحي قرية دالبورن

متيقظاً ابداً ويكبرُ ان يعير العينَ رقدا
كفلٌ تموجُ كالكثيب يهيله صوباً وصعدا
قد ساد كلَّ بهيمةٍ كسباً ومعرفة وجدًّا
وكأنهُ يوم الوغا يكسي من الخيلاء بُردا

« في سكانها . واصولهم . وقبائلهم . وموطنهم »

سكان السودان من شعوب مختلفة وقبائل شتى تجمعهم خمسة اصول كبار وهي السود . وشبه السود . والبجة . والنوبة . والعرب ما عدا الاجانب والمولدين

« السود » اما السود ويعرفون ايضاً بالزنج والعبيد فهم سكان افريقيا الاصليون ومن اصل قديم قبل التاريخ وهم في عرف علماء الطبيعية من السلالة الثالثة التي هي ادنى السلائل البشرية . وقد انحصروا الآن في افريقيا الجنوبية وفي اعالي النيلين الابيض والازرق ومن بلاد السودان وهم منقسمون فيها الى قبائل شتى لكل قبيلة منهم لغة خاصة ومذهب خاصّ من الديانة الفتشية أو الطبيعية وعليها رئيس ديني وملك من جنسها . وكلهم حضرٌ لا بادية فيهم ولكنهم ما زالوا على الفطرة الاصلية عراة الابدان لا مدنية لهم ولا علم ولا صناعة . ودأبهم الزراعة قدر كفايتهم وصيد السمك في النيل والحيوان البري وغزو بعضهم لبعض وهم يقتنون البقر والضان والمعزى والدجاج والكلاب ويعنون بتربية الابقار عناية تقرب من العبادة . واشهر قبائل السود في اعالي النيل الابيض

« الشلك » وبلادهم غربي النيل الابيض بين جزيرة (أبا) وبحيرة (نوّ) وهي سلسلة من القرى متصلة بعضها ببعض على كل قرية شيخ وكل مجموع من القرى ناظر وعلى الكل ملك يقيم في فاشوده . وهم من اقوى قبائل السود واطولها قامة

« والدنكا » ويسكنون شرقيّ النيل الابيض تجاه الشلك وشمالي خط الاستواء وهم اشدّ قبائل السود سوداً ومن اجملها شكلا

« والنُّوير » وهم بين بحر سُبت وبحر الغزال وفي بلادهم تتسع النيل وتكثر السدود والمستنقعات حتى ان بعضهم يسكنون الجزر فيعيشون على الاسماك والنباتات كالطيور المائية « والبور . والشير » في شمال خط الاستواء

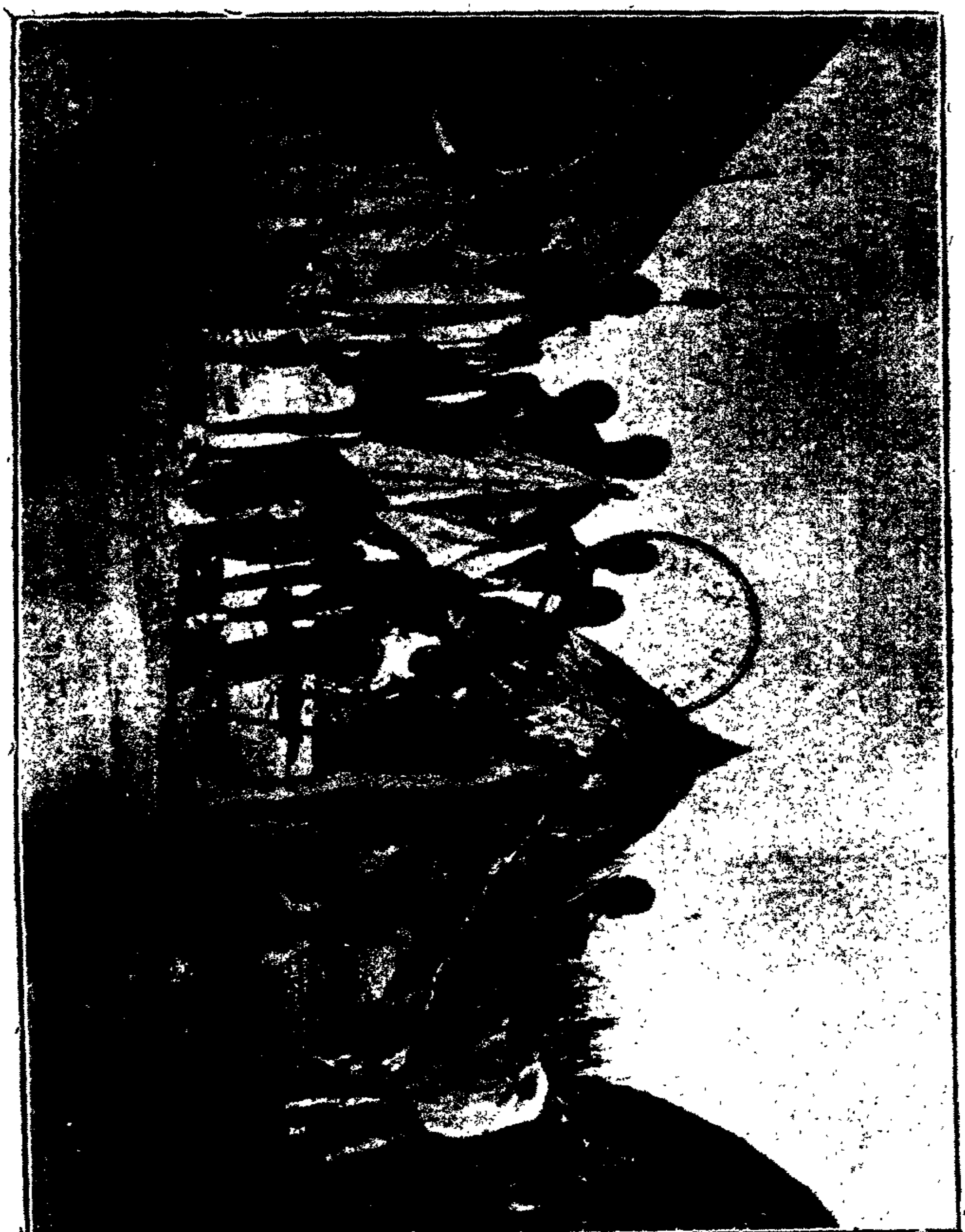
« والباري » وهم افرس قبائل السود واحسنهم خلقاً وابهاهم طلعةً واشهر محلاتهم كوندوكرو وباري

« والمادي » في جنوبيهم وهم يشبهونهم في الهيئة والاخلاق والعادات

« والشّلي » في رأس بحر الجبل الشمالي وبحيرة نيانزا وبين لغتهم ولغة الشلك مشابهة كلية حتى ظنّ بعضهم انهم والشلك من اصل واحد

« واللاتوكا » في شرق بحر الجبل وهم يشبهون جيرانهم السود في شيء ويختلفون عنهم في الهيئة والاخلاق والعادات كما يختلفون عنهم في اللغة وقد اجمع السياح الذين

اجتابوا بلادهم انهم هم والقالاً الذين في جنوبي الحبشة من اصل واحد . وهم في حروب مستمرة بعضهم ضد بعض ولولا ذلك لكانوا اقوى امم افريقيا



اهالي الدنكا ومنازلهم

« والمكارك » وبلادهم غربي بحر الجبل في جوار المادي وهم فروع من النيام

نيام ويمتازون عن الامم المحيطة بهم بان انوفهم فطساً وخدودهم اقل بروزاً وزاوية



رسم نساء قبيلة النيام نيام على بحر الغزال

وجوههم اكثر انفراجاً وشعورهم اطول واسبط . وهذه القبائل الخمس الاخيرة واقعة وراء الحدّ الجنوبي للسودان الحالي

« والجانق » وهم فرعٌ عظيم من الدنكا واكبر قبائل بحر الغزال واشدّهم بأساً

واطولهم قامة وسكناهم السهول الواطئة الشمالية

« والبنقو » ويسكنون السهول المرتفعة جنوبيهم وهم أرقى قبائل بحر الغزال مل هم في رأي « شوينفرث » السائح الالماني الشهير أرقى عقلاً من سائر قبائل السود



زرائب البقر في بلاد دنكا المسماة عندهم (موراك)

ويمتازون عنهم بالوداعة ولين الجانب وحب العمل . والفرق بينهم وبين جيرانهم الدنكا في الاون كالفرق بين تربة القبيلة الواحدة وتربة الاخرى فتربة البنقو

حمراء قاتمة لما فيها من الحديد وتربة الدنكا سوداء إذ لا حديد فيها ولذلك ترى لون الدنكا اسود حالكاً ولون البنقو احمر قاتماً وهم يستخرجون الحديد ويشتغلون بهِ

«والقولو» وهم في غرب البنقو ويشبهونهم في هيأتهم واخلاقهم وعاداتهم

« والجور » وبلادهم بين الدنكا والبنقو وهم يرجعون في انسابهم الى الشلك ويتكلمون لغتهم ولا يعنون باقتناء الابقار كغيرهم من السود بل يعنون بالزراعة ويشتغلون بالحديد ولهم معرفة بحفر الخشب وعمل التماثيل

« والأجار » على نهر الرول من فروع بحر الغزال وهم فرعٌ من الدنكا وقد اشتهروا بالغدر والخيانة . « والمورو » على نهر باي في جوار الأجار

« والديور » في غرب الدنكا وهم فرع من الشلك « والشبري » وهم مجاورون للنيام نيام في اقصى بحر الغزال وقد اشتهروا بالقوّة والنظافة والترتيب وحبّ العمل وسماحة الخلق مع القدرة على تحمل التعب والصبر على الجوع . وليس عندهم من الحيوانات والطيور الاليفة الا الدجاج

« والنيام نيام » الداخل بعضهم في كلامنا وقد اشتهروا باكل لحوم البشر

« والفراتيت » في شمال بحر الغزال الغربي وجنوب دارفور وهم قبائل شتى يدخل منها في كلامنا سبع وهي دنقو اهل حفرة النحاس . وكارا . وفنقرو . وشه . وبايه . وفرُوقي . وشلالا

« والنوبة » ويسكنون الجبال التي الى جنوب كردوفان المنسوبة اليهم وهم من ابه قبائل السود واقلها سواداً قاماتهم متوسطة واجسامهم ممتلئة واخلاقهم رضيّة ويرتاد العرب بلادهم في زمن الصيف طلباً للماء والكلأ ولذلك ترى الكثيرين منهم يتكلمون العربية وقد قدّر عددهم قبل ثورة محمد احمد مهدي ٥٠٠٠٠ مقاتل ولكن الثورة المهدية اضعفتهم حتى لم يبقَ منهم الآن نصف هذا العدد

واشهر قبائل السود في اعالي النيل الازرق في اقصى بلاد سنار وفازوغلي :

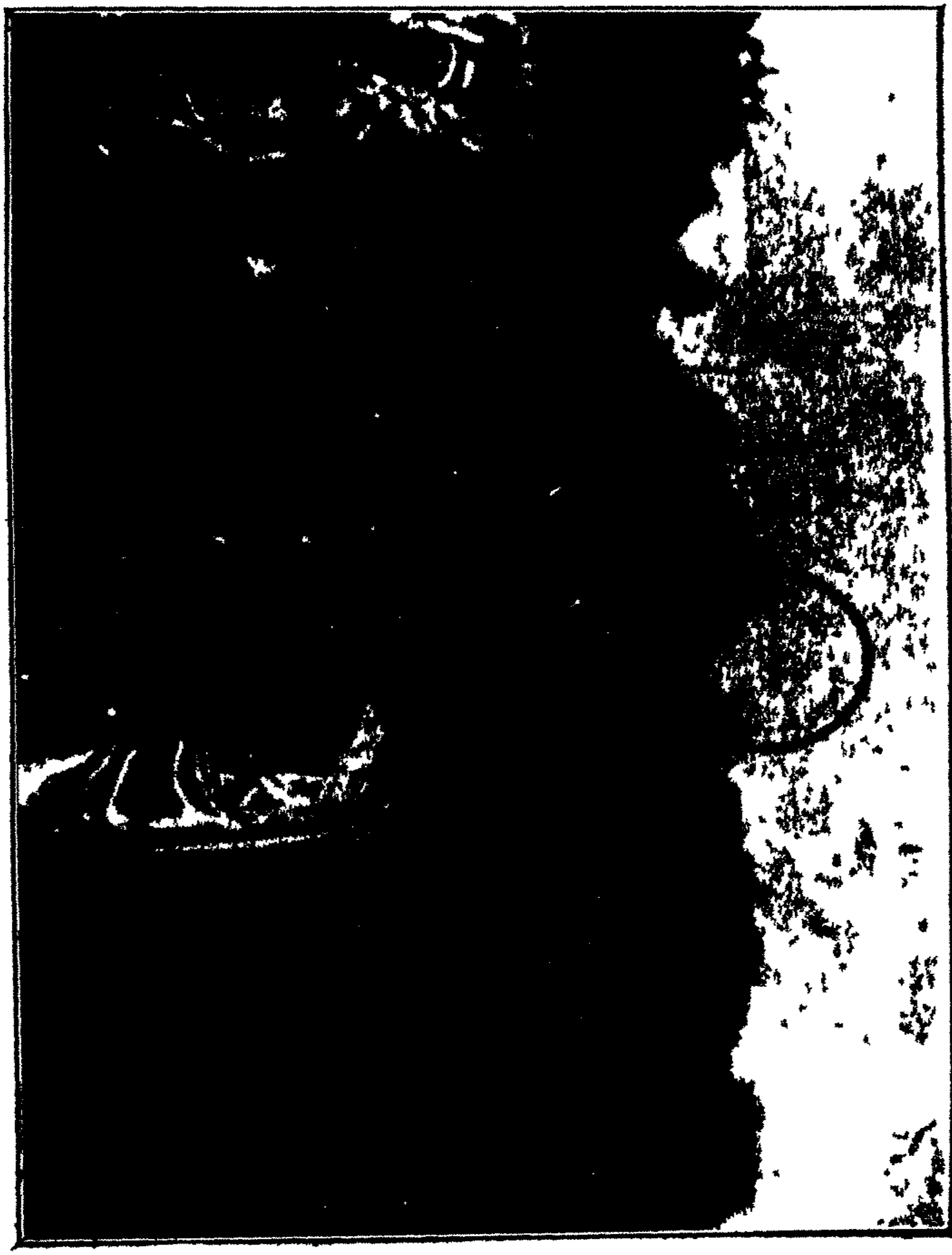
« البُرون » ويسكنون الجبال التي الى جنوب خور الدليب في اقصى جزيرة سنار وهم في غاية الهمجية . « والجبلايون » وهم سكان فامكة عاصمة فزوغلي

« والقمُز » في شرق فامكه . « واللانقسنه » في غربيها وهم لصوص قطاع طرق

« والبرته » وهم سكان بني شنقول الى جنوب فامكه التابعة الآن للحبشة. هذه هي اشهر قبائل السود في بلاد السودان وقد كان العرب يغزونهم فيأتون منهم بالرقيق فيأخذون منه كفايتهم ويرسلون ما فضل عنهم الى الجهات للاتجار بهِ ولكن الحكومة

منعت ذلك منعاً قطعياً

شبه السودان واما شبه السود Negroid فهم من اقدم الاصول في البلاد بعد



رجل من اهالي دنكلا وهم في الشلايك مثلاجون

السود ويظنّ انهم اولاد كوش بن حام الذين هاجروا الى السودان بعد الطوفان

وسكنوا الحضر . ومنهم معظم سكان دارفور من بلاد السودان المصري ومعظم سكان وداي وكانم وباجرمي وبرنو وسوكوتو وملي من السودان الغربي . وهم اقل سواداً واوفر عقلاً وارق حضارةً من السود بل هم في الملامح والحضارة اقرب الى العرب منهم الى السود . وقد كانوا على الديانة الفتشية كالسود فهاجر اليهم العرب بعد الاسلام وعلموهم الاسلام ففاقوهم في الائتمار بهِ والتمسك بفرائضهِ . وهم يقتنون البقر والضان والمعزى والخيل والحمير ويشتغلون بالزراعة وصناعة الدَّرَق وحياكة الدمُّور ويحبون العلم وينقسمون الى قبائل مختلفة لكل قبيلة منهم لغة خاصة وملك من جنسها اشهرها

« الفور » ومركزهم جبل مرَّة وقد اختلط العرب بهم فأسسوا معهم مملكة قوية في دارفور دامت من سنة ٨٤٨ هـ الى سنة ١٢٩١ هـ . ومن فضائلهم الكُنجارة وهم ملوكهم الاولون ويدّعون النسبة الى بني العباس . والمسبعات وقد حكموا في كردوفان والتنجر ومركزهم جبل حريز على يومين الى الشرق من جبل مرَّة وشارتهم العمامة السوداء قيل انهم كانوا يملكون البلاد قبل الكنجارة فاغتصب هؤلاء الملك منهم فلبسوا العمامة السوداء . ومن ذلك الحين حداداً عليهِ . والجبلاويون سكان جبل مْول في غرب البلاد

« والبِـرِقد» ومركزهم جبل مُسكو بين جبل حريز وجبل مرَّة قيل ان عندهم الى الآن صنماً يعبدونه سرًّا . ومنهم فصيلة تعرف بباب درق تعرّبت ونسيت لغتها .

« والميمة » ومركزهم فافا ومنهم فصيلة في كردوفان تعرَّبت ونسيت لغتها

« المراريت» ومركزهم جَلي بين كَبكبَّية وكَلكَل وهم ايضاً تعربوا ونسوا لغتهم

« والعورَد » وهم مجاورون للمراريت . « وكبقه » الى الشمال الغربي من جبل مرّة

« وكلجه البدو » وبلادهم الى الشمال الشرقي من ام شَنقه سموا بذلك تمييزاً لهم عن كاجه كتول في ارض كردوفان وقد اشتهروا جميعاً بصيد الزراف وصناعة الدَّرَق

« والداجو » ومركزهم جبل داجو على مسيرة يومين الى القرب من داره قيل انهم ملكوا البلاد قبل التنجر وعندهم صنم من حجر يعبدونه سرًّا ويسمونه كَنقره

« ورنق » الى الجنوب الغربي من الداجو . «والبيقو» الى الجنوب من داره

«والقِمـَر» وتعرف بلادهم بدار قِمر ومركزهم ابو غَشَر مسيرة ثلاثة ايام الى

لشمال من كلكل وملوكهم مصاهرون لسلاطين الفور

« وتامه » وهم مجاورون للقمر من جهة الغرب واضداد لهم



رسم قناة الهدبلي

« والمساليت » وهم مجاورون للقمر من حهة الجنوب

« وسِيمْيار » ومركزهم سميار في جوار المساليت . قيل ولغات القمر والمساليت

وسميار تقرب جداً بعضها من بعض حتى كانها لغة واحدة بثلاث لهجات

« والزغاوة » وهم فريقان زغاوة كُبا في شرق دار قمروعندهم كثير من الخيل والحمير وزغاوة الدُّور مسيرة اربعة ايام الى الشمال من الفاشر . ومنهم فرعٌ يقال لهم الكَمَلت في بلاد دارا تعلموا اللغة العربية ونسوا لغتهم

« والبرتي » وهم يتكلمون العربية مع لغتهم ومركزهم جبل تقابو مسيرة ثلاثة ايام الى الشمال من الفاشر وهم قبيلة جسيمة . « وأسَمور » في اقصى الشمال الغربي

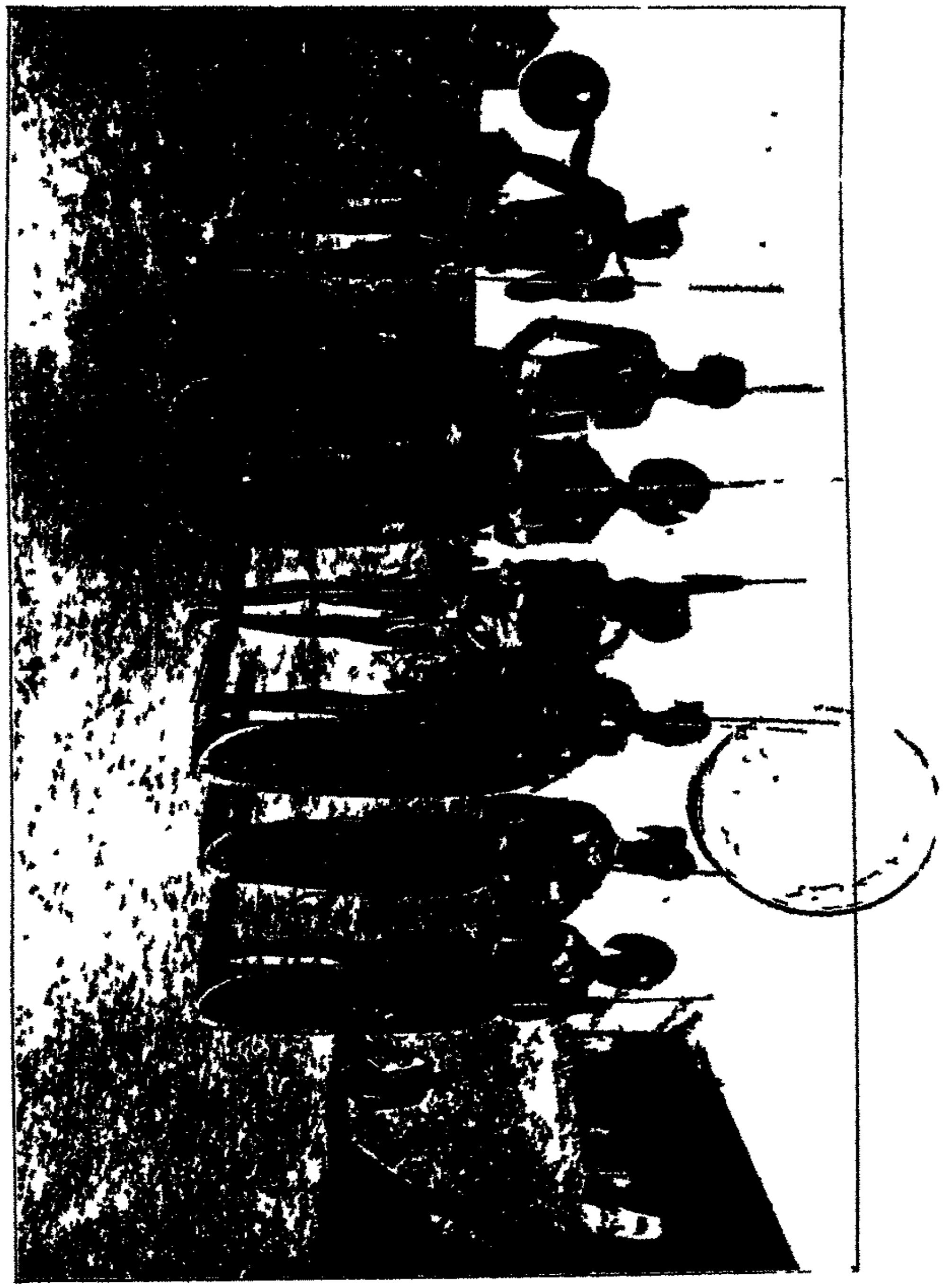
« المَيدوب » مركزهم جبل ميدوب على ٣ ايام الى الشمال الشرقي من تقابو وقنيتهم الابل والخيل والضأن وهم في طريق الاربعين

« والبُدَيات » في غرب آبار النطرون وهم اهل بادية ولا زالوا على الفتشية ويعبدون الشجر مع انهم محاطون بالمسلمين من كل جهة

« البجَة » واما البجة ويقال لهم البجاة والبيجة فهم بادية الصحراء الشرقية بين النيل والبحر الاحمر ومن بقايا الشعوب التي تألفت منها مملكة اثيوبيا القديمة ويظنُّ انهم من سلالة اولاد كوش بن حام الذين هاجروا الى السودان بعد الطوفان كما ظنَّ في شبه السود وسواء صحَّ هذا الظنُّ في هذين الشعبين او لم يصحّ فمن الثابت المقطوع به والمؤيد بالقرائن التاريخية والطبيعية انهما من سلالة غير سلالة السود وانهما اقدم الشعوب في افريقيا بعد السود ولم ينشأ فيها بل هاجر اليها من اسيا عن طريق مصر او البحر الاحمر من عهد بعيد . وبقي البجة على الوثنية الى ان كان الاسلام في جزيرة العرب وهاجر اليهم العرب المسلمون في القرن الاول للهجرة فعلموهم الاسلام فانتحلوه على ضعف لكنهم ما زالوا على لغتهم البيجاوية وحالهم الاولى من البداوة والهمجية وهم يشبهون عرب البادية في الملامح والعادات الا انهم اشد سمرةً واشكس اخلاقاً . وقنيتهم الابل والغنم والمعزى . وهم منقسمون الى عدة قبائل جسيمة في كل قبيلة عدة عمائر وبطون وافخاذ وفصائل وهي :

« العبابدة » وينقسمون الى اربع عمائر تعرَف بالبدنات وهي العشاباب وهم منتشرون في الصحراء بين قنا وكورسكو ومركز شيخهم اصوان ومن آبارهم الشهيرة أحمر وأنقاب وأبرق . والمليكاب بين دراو وبربر واشهر آبارهم آبار المرَّات مركز شيخهم دراو شمالي اصوان : والفقراء وهم متفرقون في الشرقي النيل وغربيه بين قنا وكورسكو ومركز شيخهم الرمادي قرب ادفو . والعَمودين مع الشناتير شرقي النيل بين قنا وكورسكو ومركز شيخهم السيالة شمالي كورسكو واكثرهم تابع لمصر

وهم يخالطون الحضر على النيل فيأتون اسوان على الخصوص بما عندهم من الابل والفحم والسنا وغيرها ويرجعون الى صحرائهم بالغلال والبضائع وفي تقاليدهم انهم



رسم رقص اهالي الشلال على الزمار وهم متسلحون

قوم من الزبير بن العوام وهو أحد القواد الاربعة الذين أرسلهم عمر ابن الخطاب نجدة لعمرو بن العاص اذ كان محصراً للمقوقس على جبل المقطم بمصر وارسل اليهم

كتاباً يقول فيه « اني قد أنفذت اليك أربعة آلاف على كل الف منهم رجل يقام الف » ولعل قوم الزبير بن العوام اختلطوا بهم فكانوا رؤوسهم

« والبشارين » والبشارية وهم ثلاثة فرق فرقة على البحر الاحمر من القصير فصاعداً جنوباً الى حدود سواكن وفرقة على الاتبره وفرقة في جزيرة عتباي بينهما وفي كل فرقة عدة بدنات مشهورة

« والأَمَرأر » وهم قبيلة جسيمة في طريق بربر بين سواكن وبشاريات وينقسمون الى بدنات شتى اهمها الموسياب وهم شيخ القبيلة ومركزهم أورياب

« والهدندوه » وهم أقوى قبائل البجه وأوفرهم عدداً قيل أنهم يبلغون نصف مليون نفس أو اكثر ويسكنون الصحراء الواقعة بين خور بركة والاتبره وطريق بربر وسواكن وينقسمون الى بدنات شتى ذكروا لي منها ٣٠ بدنة أهمها الويل الياب وهم شيوخ القبيلة ومركزهم فِلِّك الى شمال من كسلا قيل ان اسمهم مشتق من هذا بمعنى اسود واندوه القبيلة ومعناه القبيلة السوداء ومنهم من فسرهُ بغير ذلك

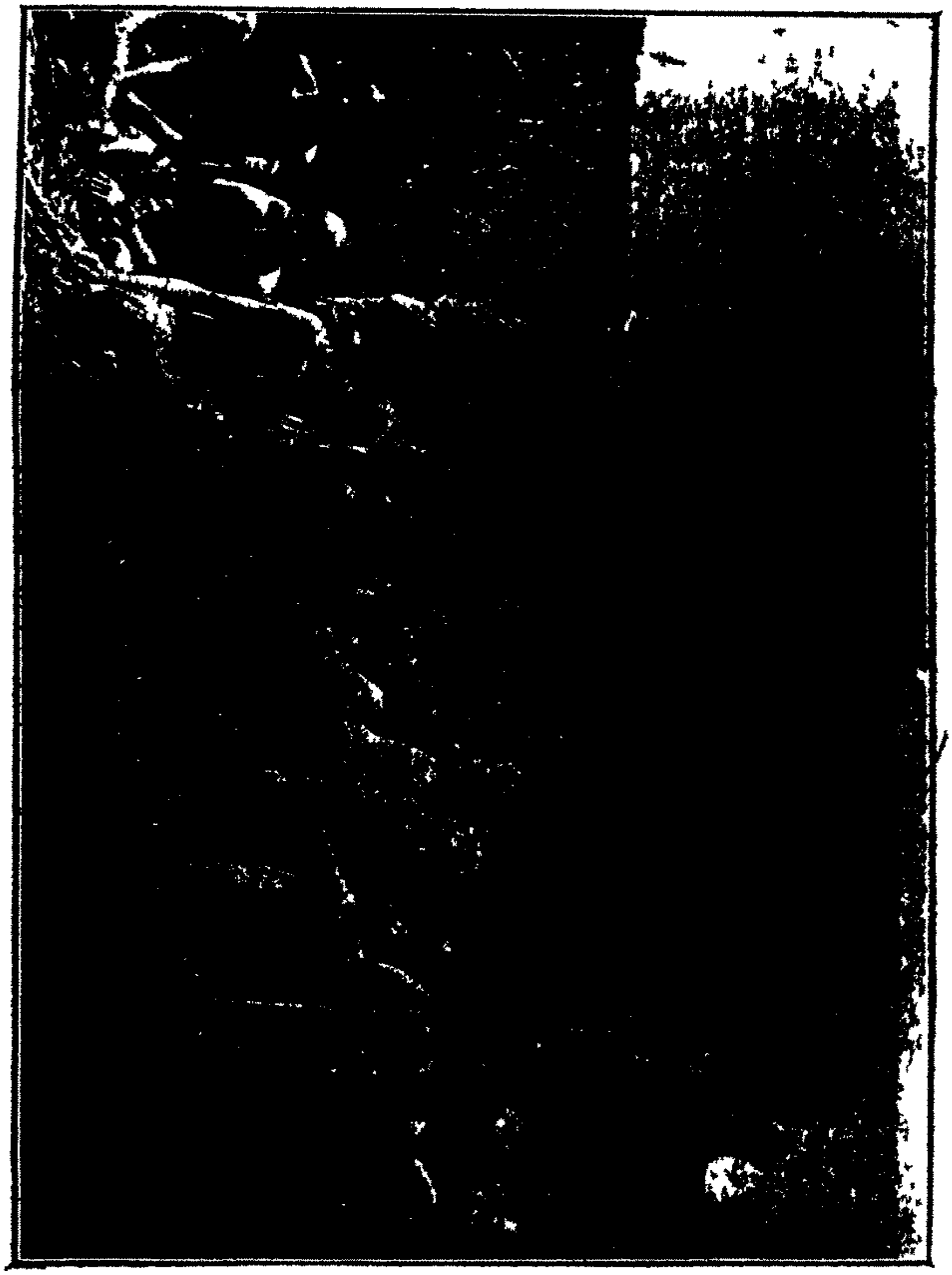
« والحلانقه » ومركزهم كسلا وهم اضداد الهدندوة وموالون للحكومة

« وبنو عامر » وهم في شرق خور بركه من عقيق الى سنهيت وقد قامت فيهم قديماً مملكة خضعت لسنار وهم أميل الى السكينة من كل قبائل البجه . وتمتاز ابلهم بطول سنامها حتى ان سنام البعير منها يبلغ طولهُ متراً أونحوهُ . وهم منقسمون الى ١٦ أبدنة أو اكثر أشهرها النابتاب وهم رؤوسهم وينتسبون للجعليين . ومنهم فصيلة تعرف بالبجه اي باسم الجنس كلهِ وأخرى تعرف بالخاسة وهما محتقرتان عند عرب السودان ومن امثالهم « البجة والخاس أرخص الناس »

« والحَباب » وهم في شرق بني عامر ويمتدون من رأس قصّار الى مصوع وهم وبنو عامر مشتركون الآن بين حكومة السودان وحكومة الإرتريا

« النوبة » وأما النوبة وهم معروفون في مصر (بالبرابرة) فقد انحصروا في وادي النيل بين الشلال الاول والرابع وهم خليطٌ من ثلاثة أجناس : النوبة الاصليون والعرب والاتراك . اما النوبة فهم كالبجه من بقايا الشعوب التي تألفت منها المملكة الاثيوبية القديمة وقد اختلف في أصلهم فمنهم من قال انهم والبجه ومن أصل واحد ومنهم من ألحقهم بالنوبة السود الذين الى جنوبي كردوفان ولكل من الفريقين اقوالٌ تخمينية لا محل لذكرها هنا وهم الآن نفرٌ قليل لا يزيد عددهم عن اربعمائة رجل. واما العرب فهم الذين استوطنوا البلاد بعد الاسلام وهم القسم الاكبر.

واما الاتراك فهم الذين استوطنوها بعد ان فتحها السلطان سليم الفاتح سنة ١٥٢٠ م وهم اقلّ من العرب واكثر من النوبة . وقد كان النوبة الاصليون قديماً على الوثنية



اهالي الدنكلا في عيدهم حول رأس الكركي (طاوس البحر)

كالبجه فلما انتشرت النصرانية في مصر امتدت اليهم فاعتنقوها سنة ٥٤٥ م وبقوا الى ان تغلب العرب المسلمون سنة ١٣١٨ م فاعتنقوا الاسلام مضطرين ولكنهم بقوا محافظين على لغتهم واتخذ العرب الفاتحون اللغة النوبة ونسوا لغتهم فلاهل المحس

وسكوت لهجة ولاهل دنقلة في جنوبيهم والكنوز في شماليهم لهجة اخرى . ومن خالطهم العرب ترى اكثرهم يتكلمون العربية لكن رطانة الاعجمية ظاهرة في كلامهم. وكل من هذه الاجناس الثلاثة محافظٌ على جنسيته ويفتخر بالانتماء اليها واما في داخلية السودان فهم يُعرفون باسماء بلادهم اي :

« الدناقلة » وهم سكان النيل بين الشلال الثالث والرابع وهم قبائل مختلفة واشهرها قبيلة الاشراف التي تدَّعي النسبة الى آل البيت ومنهم محمد احمد المتمهدي المشهور . وقام منهم قديماً ملوكٌ في الدفار ودنقلة العجوز والخندق وجزيرة ارقو ولا تزال ذريتهم فيها الى اليوم

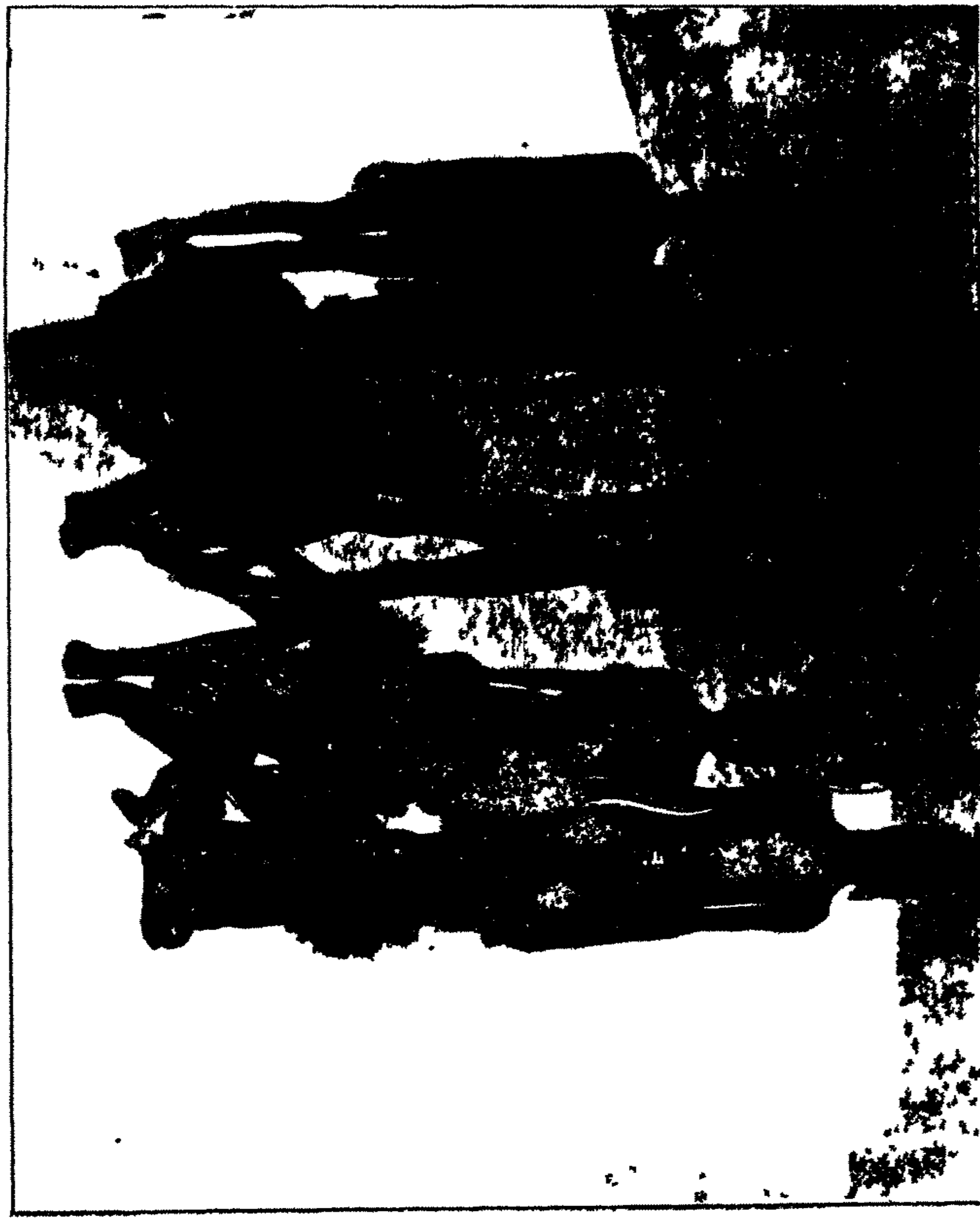
« والمحَسن » وبلادهم بين الشلال الثالث وجبل دوشه وهم يدّعون النسبة الى عبيد بن كعب العباسي ويقولون انهم كانوا عند مجيئهم الى دار المحسن سبعين الفاً. وقد كان لهم قبل الفتوح المصري ملكٌ في جبل ساسي لا تزال ذريته مقيمة هناك الى اليوم

« واهل سكُّوت » ويسكنون بين جبل دوشه والشلال الثاني عند حلفا «واهل حلفا والدر » وهم بين حلفا والسبوع واكثرهم من ذرية الاتراك

« والكنوز » قيل جاءوا من نجد والعراق وسكنوا بين السبوع والشلاّل الاول وقد يطلق عليهم جميعاً اسم الدناقلة . وهم في بلادهم يتعاطون الزراعة وحياكة الدمور ويقتنون البقر والضان والخيل فاذا خرجوا منها الى مصر كان صغارهم مساحي احذية وكبارهم بوّابين وخدماً وسياساً واذا ذهبوا الى داخل السودان كانوا تجاراً وكتبة وفقهاء ونجارين يبنوا المراكب .وقد اشتهروا في مصر بالنظافة وفي السودان بالمكر والخديعة ومن امثال عرب السودان « الدنقلاوي شيطان مجلد بجلد انسان »

« العرب » واما العرب فهم معظم سكان السودان واكرمهم اصلاً واوفرهم عقلاً وارقاهم حضارةً . وقد هاجروا اليها بعد الاسلام عن طريق مصر او البحر الاحمر فاستولوا عليه تدريجاً وسكنوا اطيب بلاده واسسوا فيه عدَّة ممالك سيأتي ذكرها .وهم اما حضر او بادية . اما الحضر فاكثرهم على النيل الكبير والنيلين الازرق والابيض وفي الجزيرة بينهما وهم يقتنون الخيل والبقر والحمير والضان والمعزى والطيور الاليفة ويشتغلون بالزراعة والصناعة والتجارة والعلم على ما سنبينه بالتفصيل . واما البادية فاكثرهم في البطانة وصحارى والبيوضة وكردوفان ودارفور وهم يقتنون الابل

أو البقر ومعها الخيل والحمير والضأن والمعزى ودأبهم الصيد والقنص ورعي المواشي وارتياد مواقع الغيث ومنابت الكلإ والغزو بعضهم لبعض شأن بادية العرب



اولاد اهل السودان

في كل مكان . واسم العرب في السودان انما يُطلق على بادية العرب فقط واما حضرهم فيعرفون بسماء قبائلهم او باسماء البلاد التي يسكنونها . وهم يرجعون في انسابهم

الى الصحابة وآل البيت وغيرهم من الاصول الشريفة كما سيجيء

واشهر قبائل العرب في النيل الكبير : « الشايقية » وهم حضر وبادية ينقسمون



الثيران والاغنام التي يربيها اهل الشلك والدنكا

الى عدة بدنات اشهرها : العادلاناب والسوّاراب والحنّيكاب والعمْاراب وقد اشتهر لهم في ايام سلطنة الفونج بمملكة قوية وحاربوا اسماعيل باشا وهو سائر لفتح سنار فغلبهم وجند نفراً منهم في جيشهِ وهم موصوفون بالشجاعة والكرم والضيافة وحب العلم والفقهاء وفقهاؤهم فريقان الدُّويحية والعونية اما الدويحية فمن ذرية عبد الرحمن ودحاج الذي جاء اليهم من مكة واشتهر بالصلاح والتقوى ولهُ قبة في الدوَيم تزار بقرب مروى . واما العونية فكبيرهم الآن محمد بك السيد مر سواري عسكر القلابات سابقاً ومعاون اول بمديرية الخرطوم في وقته الحاضر

« والمناصير » وهم يسكنون بين الشلاّل الرابع وابي حمد . قيل ان اجدادهم قتلوا وجلاً في المنصوره بمصر ففرّوا الى هذه البلاد وذلك من عهدٍ غير بعيد وهم ينقسمون الى خمس بدنات وهي الوهاباب والكبّانه والسُليمانية والكجوباب والخيراء

« والرباطاب » في جنوبي المناصير وهم ثلاث بدنات وهي الدبرية والفرايب والضعيفاب وقد اشتهروا بسرعة الخاطر والجواب المفحم وهم في عرف اهل السودان اصحاب ككَر وطاقية اي اصحاب ملك اذ الككر عندهم الكرسي الذي يجلس عليه ملوكهم والطاقية عبارة عن التاج وهي لباس للرأس لها قرنان

« والميرفاب » الى جنوبيهم ومركزهم بربر وينقسمون الى اربع بدنات وهي الصيَّام والمُصطفياب واللبيّاب والرَحماب وهم اهل ككر وطاقية

« والجعليون » الى جنوبيهم وهم اشهر قبائل العرب في السودان وقد عرِفوا منذ اول عهدهم بالشجاعة واقتحام الاخطار وحب الاسفار فتراهم منتشرين في جميع اقطار السودان والحبشة وحيث يذهبون يستوطنون ويتوالدون وينشئون حلة تنسب اليهم . وهم اهل ككر وطاقية وقد كان بينهم وبين الفونج وقائع معدودة وكانوا في حروب مستمرَّة مع الشايقية واهل البادية المجاورين لهم كالشكرية والكواهلة. وقد انقسموا الى اكثر من ثلاثين بدنةً اوخشم بيت منهم العمراب والمجاذيب والعبابسة والرازقية وهم فقهاؤهم . والسعداب وهم ملوكهم ومنهم الملك نمر الدي غدر باسماعيل باشا فاتح السودان لحرقه حياً والملك سعد اخوه الدي دفن ابن اخيه حياً في التراب لانهُ اغتصب بنتاً من الاحرار . والعوَضية واليهم ينتسب الهمج وزراء الفونج . والنفيعاب ومنهم على ود سعد وعبد الله ود سعد والياس باشا ام بربر الذين اشتهروا في تاريخ احمد المهدي . والا نفعاب ومنهم ود السجومي المشهور . والمكابراب وقداشتهروا بالمصوصية . والانقرياب وهم ينتسبون الى العابدلاب الآتي ذكرهم وكبيرهم الآن

ابراهيم ود حمزة الذي اشتهر في حملة ام درمان الاخيرة . وقد اطلق اسم الجعليين في مصر على جميع سكان النيل بين ابي احمد والخرطوم ولكنهم في الواقع بين الدامر وعقبة قري



رسم الزورق المستعمل عند اهالي الدنكا والشلك

« والحميعاب » وهم يسكنون النيل بين عقبة قرّي والشيخ الطيّب ، ومنهم

الزبير باشا الذي اشتهر بحروبه في بحر الغزال ودارفور وهو اعظم رجل قام في السودان الى اليوم

« والسروراب» الى جنوبي الجيماب بين الشيخ الطيّب وكرري شمالي امدرمان

« والعبدالاّب » ومركزهم الحلفاية تجاه الخرطوم وهم فرعٌ من القواسمة وقد سموا بالعابدلاب نسبةً الى كبيرهم عبدالله جماع الذي اسس مملكة سنار مع الفونج وقاسمهم اياها فاتخذ مركزهُ قرّى ولقب بالشيخ . ثم نقل خلفاؤه المشيخة الحلفاية فبقيت الى الفتوح المصري . واما لفظ اب الذي ينتهي به اسم العابدلاب وغيرهم من القبائل العربية فهو مأخوذٌ من البيجاوية ومعناهُ عائلة او قبيلة

واشهر قبائل العرب على النيلين الابيض والازرق والجزيرة بينهما : « الجموعية » وهم يسكنون غربي النيل الابيض بين امدرمان والترعة الخضراء وهم اهل ككر وطاقية ومن فروعهم الفتيحاب سكان ام درمان والخرطوم الاصليون . هذا ويقول عرب الجموعية والسروراب والجيماب والجعلين والميرفاب والرباطاب والشايقية المتقدم ذكرهم ان جدهم واحد وهو ابو مرخة المتصل نسبه بالعباس ولهم في ذلك رواية خرافية قالوا : حضر والد ابي مرخة وعمهُ الى السودان في زمن مهاجرة العباسيين اليها وكان ابو مرخة وحيداً لابيهِ ولعمهِ سبع بنات وكان اهل السودان في ذلك الوقت من النوبة او البجة فلم يكن فيهم من هو اهلٌ لبنات عمهِ فتزوجهنَّ الواحدة بعد الاخرى وولد من كل منهنَّ ولداً اصبح جدًّا لكل من القبائل السبع المذكورة

« والحُسُنات » في جنوبي الجموعية شرقي النيل وغربيه ومركزهم القطينة

« ودُغَيم » ومنهم على ود حلو ثاني خلفاء محمد احمد المتمهدي

« وكنانة » ابناء عم دُغيم ومركزهم جمعان . وكلاهما في جهة جزيرة ابا شرقي النيل الابيض وغربيهُ . « وسُليم » في جنوبيهم

« والرفاعيون » ومركزهم الكاملين على النيل الازرق وهم ينتسبون الى جهينة

« والمسلَّمية » ومركزهم الحلة المعروفة باسمهم على النيل الازرق ومنهم الشيخ العبيد الذي اشتهر في بدء الثورة المهدية وكان مركزه ام ضبَّان في صحراء المسلمية

« والحلاويون » ومركزهم في ظاهر المسلمية بالجزيرة وهم ينتسبون الى جهينة

« والمدنيون» ومركزهم ودمدني المسماة باسم جدهم المدفون هناك ولهُ مقام يُزار الى اليوم

« والعراكيون » في بلاد ابي حراز وعبود ودمدني وهم يدّعون النسبة الى جعفر الطيار من آل البيت

« والخوالدة » واكثرهم في جهة عبود في باطن الجزيرة وهم ينتسبون الى جهينة

« والكواهلة » في جهتي عبود ودمدنى وينتسبون الى الزبير بن العوام . ومنهم بادية يسكنون غربي الرهد مع الحمدة . ومن فروعهم الشهيرة الحسنات المار ذكرهم والشنابلة وهم مشهورون بالغنى والتجارة وقد كان منهم مشيخة في زمن الفونج ومركزهم المسلمية

« والشامباته » ومركزهم شمباته بين واد العباس وسنار واكثرهم تجار

« والبقوباب » قيل يتصل نسبهم بالجعلين وهم يسكنون جنوبي سنار

« وبقاره محارب » وهم منتشرون في الجزيرة بين سنار وجبلى سقدى ومويه

« والعقَليون » واكثرهم بادية ويسكنون بين الدندر والنيل الازرق

« والحمدة » وهم حضر وبادية ويقيمون بين الدندر والرهد ولهم مشيختان مشيخة في دَبَركى على الدندر ومشيخة في دُنكر في آخر حدود سنار من جهة الحبشة

« والقواسمه » وهم اشهر قبائل سنار ويسكنون شمالي سنار في شرقي النيل وغربيهِ وباديتهم تسكن غابة التريره جنوب سنار . ومنهم العبد لاب المتقدم ذكرهم والكماتير ويسكنون شرقي النيل الازرق بين رُونقه والرصيرص ومركزهم كركوج وقد قام منهم في زمن الفونج مشيخة كبيرة

« واللَحويون » واكثرهم بادية يسكنون في شرق النيل الابيض بين الكوّه والجبلَين ويمتدون في داخل الجزيرة الى جبلى سقدى ومويه

« وبنو حسين » يقال لهم اولاد ابوروف ومعظمهم بادية يمتدّون من جبل سقدى ومويه الى خور الدّلَيب آخر حدود سنار في الجزيرة . اشهر مراكزهم ابو حجار قرب سيرو على النيل الازرق والمرقوم في باطن الجزيرة وهم قبيلة جسيمة

« والعلاطيون » واكثرهم بادية يسكنون غرب النيل الازرق من الحدَيبات الى مشرع تَوْله . هذا وجميع القبائل الست الاخيرة تنسب الى جهينة ويقال للحمدة والعقلين رفاعة الشرق أو جهينة الشرق وللقواسمة واللحوين وبني حسين والعلاطيين رفاعة الهوى أو جهينة الغرب ويعنون بالهوى شبه جزيرة سنار واما رفاعة فهي اسم بلدة شهيرة على النيل الازرق

« والزبالعة » ويسكنون جزيرة سنار والبلاد التي بين الرّهد والدّندر ويبلغون



بقر الوحش بين الشلالين

نحو تسعة آلاف رجل وهم كسائر العرب في اخلاقهم وعاداتهم الاّ انهم يمتازون عنهم بكونهم شيعةً خاصةً عُرفت في السودان بالملة الخامسة وعندهم ان مؤسس شيعتهم المسمى ابا جريد وهو رسول الله فلا يعرفون نبيًّا آخر سواهُ وقد اقاموا رمزاً الى قبره في حلة بزُّقا شرقي النيل الازرق بين كركوج والرصيرص حيث يجتمعون

للاذكار مساء كل احدٍ وثلاثاء ويردّدون قولهم « لا اله الا الله ابو جريد نبيّ الله » وفي شهر صفر من كل سنة يعتزل مشائخهم الى الخلوات للرياضة فيقيم كل منهم في خلوة ويجعل عليها الحراس لكي لايدخل عليهِ أحد مدة سبعة ايام فاذا انتهت خرج من الخلوة ودعى رهطه من الرجال والنساء واقام حلقةً للذكر . قيل انهم يستبيحون العرض في هذه الاجتماعات فانهم بعد نهاية الذكر يقبلون يد الشيخ رجالاً ونساء فيختار الشيخ امرأةً لنفسهِ ثم يحذو كلٌّ منهم حذوهُ وينصرفون . ونساء الزبالعة من اجمل نساء السودان قيل ولون كثيرات منهنّ ابيض مشربٌ حُمرةً . وكلهم أصحاب تنعم ورفاهة فترى الرجال يدهنون اجسادهم ويتطيبون بالروائح العطرية كالنساء . وهم يتجنبون مصاهرة العرب كما ان العرب يتجنبون مصاهرتهم ولكن العرب يستطبّون منهم ويعتقدون فيهم السحر

«والفونج» وهم الذين اسسوا مملكة سنار القديمة مع العابدلاب وكان لهم اعظم الشأن في السودان كما مرَّ . وقد اختلف في اصلهم فنهم من قال انهم عرب ومنهم انهم سود وقد تعرّبوا وهم الارجح فيدعون النسبة الى بني امية الذين نجوا من اضطهاد بني العباس . وفي اقصى جنوب الجزيرة جبال تعرف باسمهم ومنهم بقية الآن تسكن رنقة من اعمال سنار ودية دنقلة

«والهَمَج» وهم وزراء الفونج ايام دولتهم في سنار ويدَّعون النسبة الى العوضية الجعليين كما مرَّ والارجح انهم سود متعرّبون وقد عرفت جبال الفونج المارّ ذكرها باسمهم ايضاً لانهم حكموها بعد الفتوح المصري وكان أول من حكمها الشيخ ادريس ولذلك سميت الجبال ايضاً بجبال ادريس ومركزهم جبل قِلي على ثلاثة ايام الى الجنوب من كركوج . وأشهر قبائل العرب البادية في البطانة

«والشكرية» وهم قبيلة جسيمة من اكبر القبائل وأقواها وفيها تسعون عميرة ونيف تنسب الى جهينة وقد كان بينهم وبين الفونج وقائع مشهورة في التاريخ فلما كان الفتح المصري خضعوا لحكومة مصر واخلصوا لها . ثم كانت الثورة المهدية فلم يتلقوها كما شاء زعماؤها فنكلوا بهم تنكيلاً شديداً قيل كان عددهم قبل الثورة نحو نصف مليون نسمة واما الآن فلا يبلغون ربع ذلك . ومن مراكزهم الشهيرة رفاعه على النيل الازرق والفاشر على الاتبرا والقضارف والقلعة اراتج وبير ريره وشق الواليه وابوذليق في البطانة . وهم اضداد الهدندوه والكواهلة

«والبطاحين» وهم الى شمال الشكرية وخصومهم وينتسبون الى الجعليين «والضبانية»

وهم ينتسبون الى جهينة وينقسمون الى سبع عمائر كبيرة وقد كانوا في زمن الفونج في حرب دائمة مع الحَمَدَة فلما جاءت الحكومة المصرية انقطعت تلك الحرب وزادت القبيلة عزةً ومناعةً حتى بلغ عدد رجالها قبل الثورة نحو ٥٠ الفاً ولكن جارت المهدية عليها فسحقتها سحقاً . وهم ينزلون في الصيف بين بحر ستيت وباسلام من فرُع الاتبرا وفي الخريف ينزحون الى البطانه. ومن اماكنهم الشهيرة التومات على الاتبرا والجيرة على بحر ستيت ودوكه في البطانة

« والحُمران » وهم قليلو العدد لكنهم من افرس قبائل العرب وأعزهم شأناً واعظمهم جرأةً واقداماً . ونساؤهم من اجمل نساء السودان واشدهن تحصُّناً وعفافاً «خبرتا جوج ومحلَّق» ومنهنَّ تاجوج بنت الشيخ أوكُد شيخ الحمران التي ظهرت في أواسط القرن الماضي وكانت ابرع نساء السودان قاطبةً في الحسن والجمال حتى كان الناس يفدون من كل صوب للتفرج على جمالها . وقد تزوجها اولاً ابن عم يسمى محلقاً وكان يحبها محبةً شديدةً تقرب من العبادة فطلب اليها ذات يوم ان تمشي امامهُ متجرِّدةً فأبت فألحَّ عليها فتكدَّرت من إلحاحه وقالت اذا اجبت الى طلبك فماذا تفعل قال كل ما تريدين قالت اقسم لي انك تبرُّ بقولك فأقسم لها فتجرَّدت ومشت امامهُ ذهاباً واياباً الى ان قال كفى ثم قال فاطلبي الآن ما تريدين قالت (ان تطلقني في الحال) فطار صوابهُ من هذا الطلب ووقع على قدميها يقبلهما ويسألها العفو ولما اصرت لم يرَ بدّاً من البرّ بقسمهِ فطلقها وهام على وجههِ ينشد في حبها الاشعار فحاكى فيها مجنون ليلى ومن قولهِ المشهورة فيها :

اما الجَنَب التعيس سوّيت بايدي   في كلمة مزاح فليت غميعي

فواطر ام قُبيل مالح الرشيدي   تاجوج ما اتلقت ياحمله زيدي

الجنب المشوم . وسويت بايدي جنيت على نفسي . والفواطر الثنايا . وام قبيل الجميلة . والحمله الهم . والمعنى ظاهر

ثم ان تاجوج بعدما طلقها محلق تزوَّجها شاب من وجهاء قبيلتها وكان محلق افرس منهُ فأخذ يتأثرهُ وكان حيث يجدهُ يسلبه مالهُ ثم يرجعه اليهِ اكراماً لتاجوج . وبقي يتغنى بذكرها ويتأسف على فقدها الى ان مات. قالوا ولما اشتدَّ عليه الكرب اكثر من ذكر تاجوج وألحَّ على اهله ان يمكنوهُ من رؤيتها قبل موتهِ فذهبوا الى تاجوج واخبروها بما صار اليه محلق فرقَّت لهُ وجاءت معهم وكان المكان غاصاً بالنساء اللواتي كن يندّدون بها ليصرفنَ قلب محلق عنها فلما اطلّت لم يسعهنّ الا الوقوف احتراماً لها واعجاباً لها

واجلسنها الى جانب سرير محلق فلما رأته على تلك الحال وقد هزله المرض واضناه الوجد تنهدت وقالت « أ الى هذه الحال صرت ياعشاي وأنا لا أدري » ثم وضعت رأسهُ على ركبتيها وكان قد اغمي عليهِ فأفاق من اغمائه وشخص اليها وانشد

أ تابي يا ام قَبيل الغيّ عباده   مسوحك بالطر والناس مراضه
حسيسك في الضمير قاطع الكباده   تقتلي الزول سريع قبل الشهاده

أ تابي حقاً . والغي العشق . والحسيس الحب. والزول الرجل .

ثم شهق شهقةً واسلم الروح فأخذت تاجوج والنساء حولها يبكينَ ويذرينَ التراب على رؤوسهنَّ ويندبنهُ الى ان دُفن . قيل وبعد موته غزا الهدندوة عرب الحمران فوقعت تاجوج اسيرة بين ايديهم فاختلفوا فيها اختلافاً كاد يفضي الى سفك الدماء اذ كل فريق منهم اراد ان تكون تاجوج نصيبهُ فنهض احد مشايخهم ونادى تاجوج من خباها فلما اطلت طعنها بحربة في صدرها فقتلها وحسم النزاع وماتت تاجوج مأسوفاً عليها من الجميع قالوا فدفنت في مكان يقال له رأس القيل بين قوز رجب وكسلا وقبرها ظاهر يزار . ولا يزال اهل السودان يضربون المثل بجمالها وعشق محلق لها وينشدون اشعاره الي اليوم

هذه هي قبائل العرب في البطانة واما الصحراء الشرقية المعروفة ايضاً بصحراء البجة فليس فيها من بادية العرب الا « الرَّشايدة » وهم قريبو عهد بها وقد هجروا اليها من الحجاز سنة ١٢٨٨هـ ١٨٧١م لقتال وقع بينهم وبين بعض القبائل هناك فعبروا البحر الاحمر من جدَّة ونزلوا في ارض الحباب وكانوا نحو الف رجل ومعهم اسلحتهم واولادهم وابلهم فاعترضهم الحباب وجرت بين الفريقين وقائع ادّت الى سفك الدماء وهم الآن فريقان احدهما تابع لحكومة السودان والآخر لحكومة الارتريا . واشهر قبائل العرب في صحراء البيوضة

« الحسانية » ومركزهم جبل الجلف في صحراء الجكدول وينتسبون الى الكواهلة
« والهواوير » قيل ان اصلهم من عرب الهوارة بصعيد مصر ويسكنون صحراء جبره
« والخواوير » مجاورون للحسانية والهواوير

واشهر قبائل العرب في بلاد كردوفان « الجوامعه » وهم فريقان الحمران ومركزهم بارة والجيعية واكثرهم في الطيارة « والبُديريه » ومن اماكنهم خورسي والطياره قيل وفيهم نسب للجعليين

« والتّمام » وهم يسكنون مع البديرية . « والغُديَاَّت » وأهم مراكزهم البركه وهذه

القبائل الاربع حضر وبقية سكان كردوفان بادية وهؤلاء إما ابالة وقنيتهم الابل وهم في الشمال واما بقارة وقنيتهم البقر وهم في الجنوب . فالابَّالة :

«الكبابيش» وهم اقوى بادية كردوفان وابلهم اشهر الابل ومن مراكزهم أباد الصافية وكجمر وعين حامد وقد انقسموا الى عدة عمائر والخاذ. قيل كان عددهم نحو ربع مليون نفس فجاءت الثورة المهدية فنكلت بهم حتى لم يبقَ ربع هذا العدد

«ودارحامد» وهم مجاورون للكبابيش واعداء لهم واهم مراكزهم باره وينقسمون الى عدة عمائر اشهرها الجِلَيدات والمجابين والمساعيد والنوهية والغـريفية

«وسوجرّار» شرقي كوردوفان وفي بلادهم يكثر النعام والغزلان

« وحَمَرَ» غربي كردوفان ومن مراكزهم ابوحراز والنهود . وفي بلادهم يكثر شجر التبلدى وهم يخزنون الماء فيه ويبيعونهُ للمسافرين بين كردوفان ودرافور

والبقارة : «الحوازمه» جنوبي كردوفان وهم مراكزهم البركه وفي زمن الصيف يذهبون بماشيتهم الى جبال النوبه لارتياد الماء والكلإِ حتى اذا جاء أوان المطر تركوا تلك الجبال فراراً من ذباب السوت وعادوا الى بلادهم

«والجمع» في الجنوب الشرقي ومركزهم شركيله قيل سموا بالجمع لانهم ليسوا ابناء رجل واحد بل هم اخلاط من قبائل شتى واكثرهم من الجعلين

«والهبأنية» بين الحوازمه والجمع واهم مراكزهم شركيله ويكثر في بلادهم السباع والفيلة . ومنهم الادلاء لجبال النوبة لانهم اعرف العرب بطرق تلك الجبال

واولادحميد» وهم مجاورين للهبانية واضدادهم. «والاحامدة» وهم في جوار الجمع «والُحمر» ومركزهم الأضية بين البركة وشكا «والمسيرية» في جوارهم واشهر قبائل العرب في درافور من الأبالة

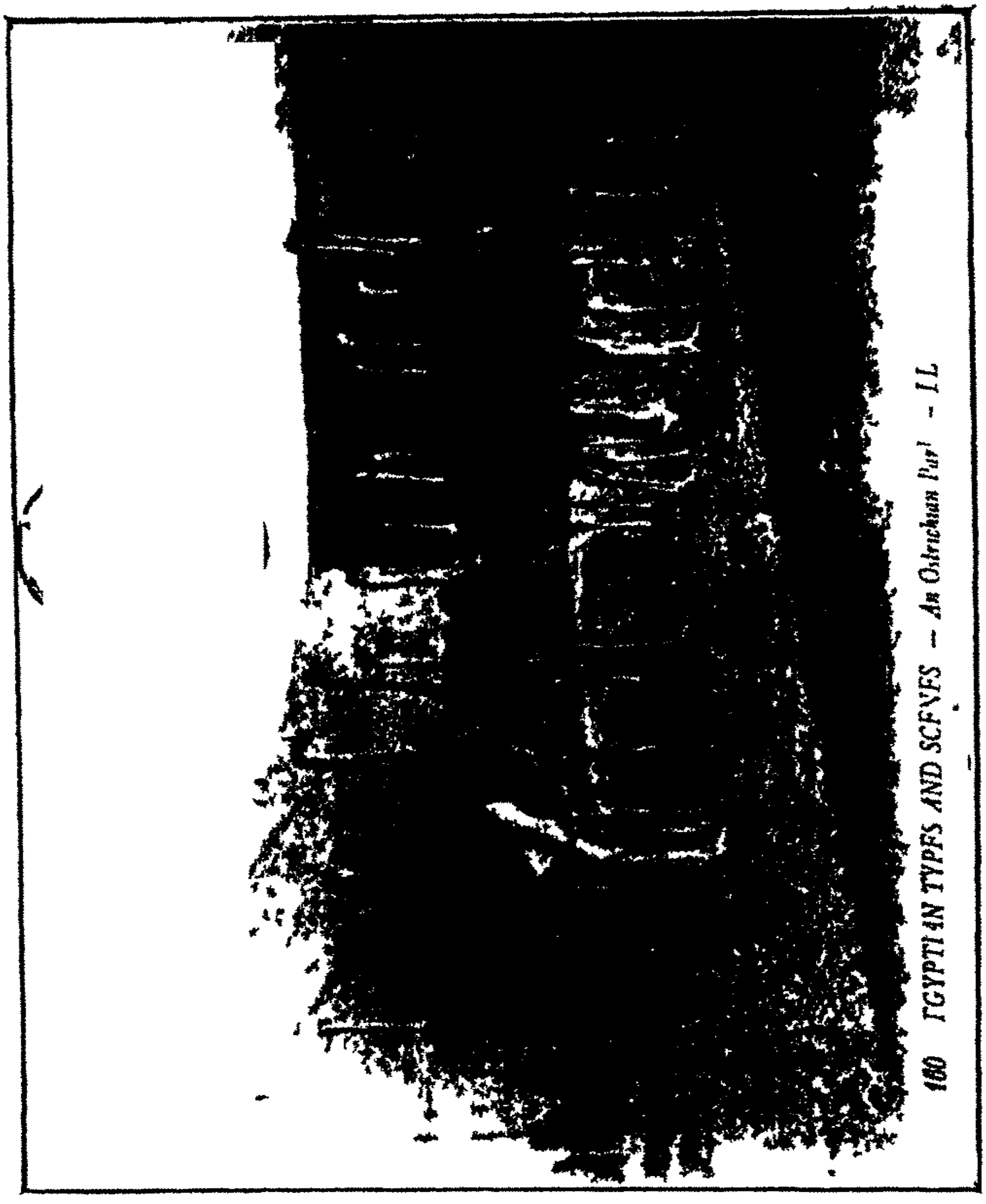
«والزيادية» ومركزهم ملّيط وهم يتجرون في النطرون والملح وينتسبون الى ابي زيد الهلالي من عرب نجد

«والماهرية» ومركزهم الدّور قيل هم ينتسبون الى مهرة في جنوب اليمن وقيل هم والرزيقات قبيلة واحدة فسكنوا هم في الشمال واقتنوا الابل وسكن الرزيقات في الجنوب فاقتنوا البقر وهم حلفاء المحاميد واعداء الزياديه والبدَياَّت

« والعَطيفات » ومركزهم اكا بالقرب من مليط بين الريادية والماهرية

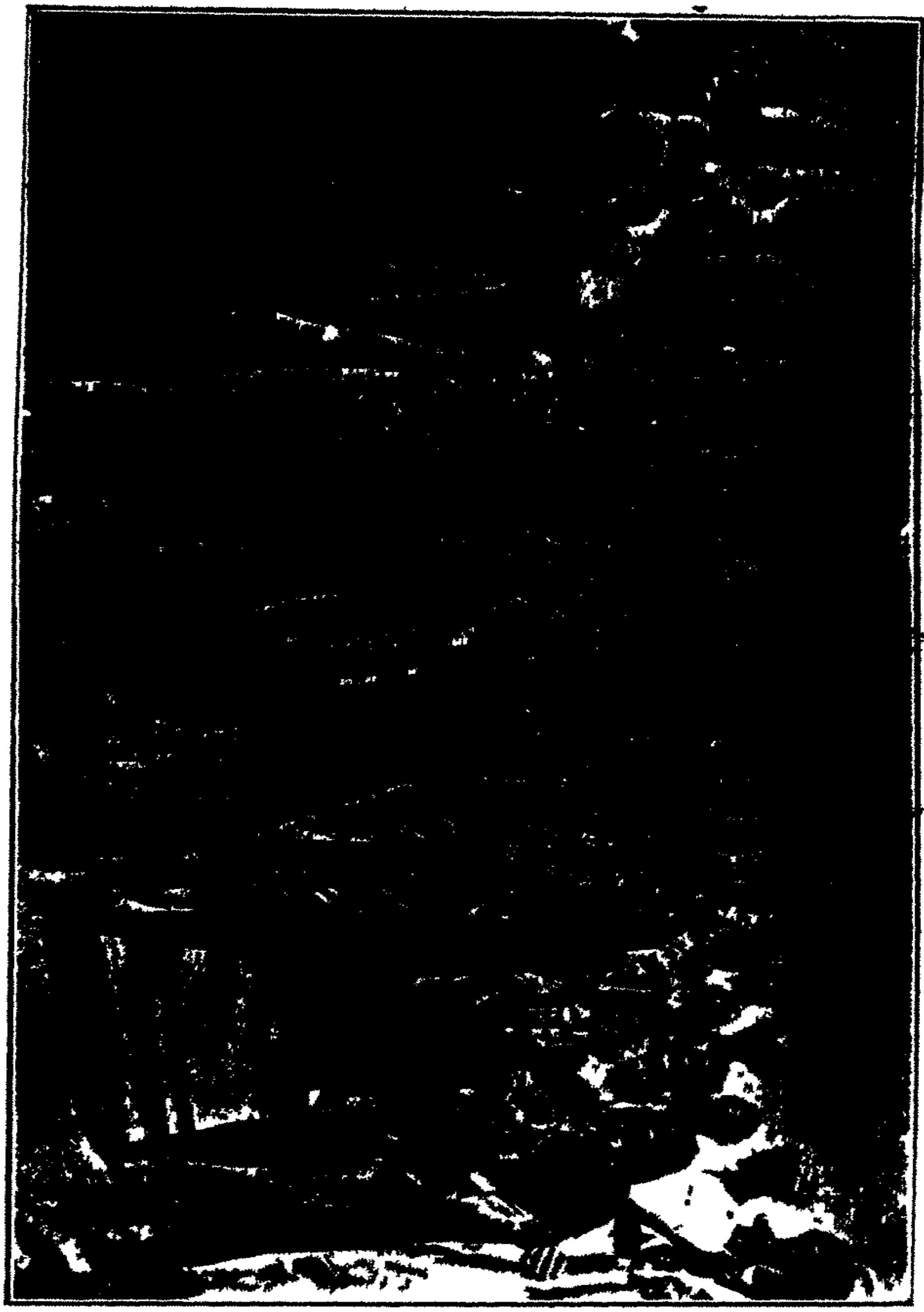
والمعالية » واكثرهم حضر ومن مراكزهم كركود شمالي الطويشه وقور المعاليه المنسوب اليهم . حلفاءهم الرزيقات واخصامهم الحمر

والعُريقات مركزهم كُتُم ويُظنّ ان اصلهم من العليقات القاطنين على النيل في فم وادي العلا في شمالي كوروسكو



حوم من النعام

ومن البقارة : الرّزيقات وهم اكبر قبائل دارفور ويسمون تراب الطين (اي ملء الكفين) لكثرتهم ومركزهم شكا وهم ثلاث عمائر الماهرية وام احمد والمحاميد واقواهم المحاميد وحلفاؤهم الهبانية والمعالية وقد قاوموا سلاطين الفور ولم يخضعوا



رقص قبيلة البقارة على النيل الابيض

لهم الخضوع التام ووقع لهم مع الزبير وقائع مشهورة وفيهم حضر قليل
« والهبانية » من اهم بادية دارفور ومركزهم الكلكة ومنهم في كردوفان كثيرٌ
« والمسيرية » وقد ذكروا في كردوفان وهم اشدّاء مشهورون بالفروسية خصماؤهم
بنو هلبه وحلفاؤهم (بنو منصور) الذين هم في رأي البعض فرع منهم

«والتعايشه» الذين منهم عبد الله التعايشي خليفة المتمهدي الاول ومركزهم مندوّة قرب الكلكة وبلادهم مجاورة لبلاد الفراتيت وكان اكثر اشتغالهم في خطف الرقيق ثم ان التعايشة والهبانية واولاد حميد وسلم هم اولاد حماد بن جنيد . والحوازمة والحُمر والمسيرية والرُّزَيقات هم اولاد اخيه عطيه . والكل ينتسبون الى جهينة

«والبنوهبله» ومركزهم بُلبل عزب داره وهم قبيلة جسيمة وقد اشتهروا بالمراوغة والتقلب واتّباع الغالب ولذلك تضرّهم المهدية بشيء وكانوا اذا ضيقت عليهم رحلوا الى دارسُلا. حلفاؤهم الهبانية والرزيقات. واضدادهم المسيرية وهم يدّعون النسبة الى جهينة عن غير جنيد وقيل انهم من الهوّارة بمصر

«وعرب البشير» ومركزهم عُريدة وهم قبيلة جسيمة ولكن المهدية اضعفتهم « وبنوفضل » وهم اهل زراعة وينتسبون للزيادية . ومن مراكزهم سانى كرو على يومين الى الجنوب الشرقي من الفاشر

«وبنوحسين والتّرجم وخزام والمهارى» وهم مجاورون للمساليت. (والكروبات) في شرق كبكبية . واكثرهم تجار وفيهم علماء اجلاء

« والخوابير» ومركزهم وَدعه وقنيتهم الابل والبقر والخيل وهم حضر وبادية

هذه هي اشهر قبائل العرب في السودان من حضر وبادية وقد تبين مما تقدم وان همّ الاصل التي يرجعون اليها في انسابهم هي : بنواميه وبنوالعباس وجهينة والزبير بن العوّام وجعفر الطيار وان معظمهم ينتسب الى بنى العباس الاّ ان المنتسبين الى جهينة اكثر . والمشهور في نسب جهينة انهم بطن من قضاعة وقيل في قضاعة انهم لعدنان وقيل لحمير وهو الارجح . واسم جهينة مأخوذ من الجهن وهو غلظ الوجه . الا ان انتساب العرب الى هذه الاصول لاثبت لهُ عندهم الا ماحفظوه او لقفوهُ من القصص التقايدية او الخرافية

«الاجانب» اما الاجانب فيراد بهم الاقوام الذين هاجروا الى السودان من مصر وغيرها من زمان غير بعيد ولم يفقدوا جنسياتهم ولغاتهم بعد واهمهم : «الحضور» وهم نفر قليل من المصريين الذي هاجروا مصر قبل الفتح الاول فسكنوا الخندق وشندى والمسلمية وغيرها من مدن النيل واشتغلوا بالتجارة فاشتهروا في السودان بالوداعة ولين الجانب وحب السلام

«واولاد الريف» ويكنى بهم عن البيض عموماً من مصريين واتراك ومغاربه وشوام واوروبيين وغيرهم الذين دخلوا البلاد بعد الفتح الاول وقد اطلق عليهم هذا

الاسم لان اكثرهم او كلهم دخلوا السودان من ريف مصر

«والمكادة» وهم الاحباش النصارى «والجبرته» وهم الاحباش المسلمون

« والتكارنة» وهم في التخصيص مهاجرو بلاد التكرور التي الى جنوب برنو المعروفة الآن بالكتكو وفي التعميم يشملون سائر مهاجري السودان الغربي من فلاته وبرنو وباجرمى وغيرهم وهم متفرقون في جميع جهات السودان ولا سيما في دارفور وكردوفان وسنار وكسلا واكثرهم في القلابات من اعمال كسلا حيث كان يجتمع منهم في الرجبية نحو ٤٥٠٠٠ الف نسمة . وفي كردوفان في جهة ابي حراز حلال معروف بحلال الفلاته اتخذ اهلها العربية لغة لهم ونسوا لغتهم وتخلقو باخلاق العرب وعاداتهم

«والحَلَبة » وهم المعروفون في مصر بالغَجَر وفي الشام بالنوَر وهم في السودان كما في مصر والشام قومٌ رُحَل يشتغل رجالهم بالحدادة والعاب القرود ونساؤهم بالوشم وتبصير البخت وخفض البنات وكلهم يتعاطون الشحاذة

«المولَّدون» اما المولدون فاعني بهم الفروع الخلاسية التي تولدت من اختلاط هذه الاصول بعضها ببعض وهذا الاختلاط كثير جداً في السودان لاسيما بين العرب والسود . ومما هو جدير بالاعتبار ان اكثر الممالك التي قامت في السودان كان ملوكها من المولدين فملوك الفونج ووزراءهم الهمج وسلاطين الفور المتقدم ذكرهم والوطاويط حكام البرته في فازغلي في الوقت الحاضر كلهم من مولدي العرب والسود . اما اسم المولدين فى السودان فلا يشمل الا المولدين في هذا الجيل . اما المولدون قبل هذا الجيل فيندرجون تحت اسماء القبائل التي تولدوا منها

وقد قُدِّر عدد سكان السودان قبل الثورة المهدية في سنة ١٨٨١ بنحو عشرة ملايين نسمة واما الآن فلا يزيدون عن ستة ملايين نسمة لما قاسوه من الحروب والمجاعات والامراض والمظالم فى اثناء الثورة المهدية . هذا ما اقتضى المقام ذكره من اصول السكان وقبائلهم ومواطنهم

وسبق بيان اصول اهل السودان وقبائلهم ومواطنهم وكذا المذهب الخامس المؤسس على الضلال والشهوات البهيمية للشيخ المبتدع لهذا المذهب مع بيان التوضيحات التامة في كيفية اجتماعاتهم

* * *

وبعد ما انتهينا من الوصول الى المحل المقصود من سياحتنا هذه فنقول بعد ان اقمنا ثلاثة ايام في قرية «بور» السابق ذكرها قصدنا العودة الى مصر .

وفي ٣ صفر سنة ١٣٢٧ هـ ٢٤ فبراير سنة ١٩٠٩م قمنا من قرية «بور» ووصلنا في صباح اليوم الثاني الى قرية «ابوفوقه» وعزم دولة الامير على استمرار الصيد في



السكرتي (جاموس البحر) التي اصطادها دولة الامير يوسف كمال باشا وهو واقف على ظهره

العودة ايضاً وطلع في الغابة المجاورة لهذه القرية ثم عاد قرب غروب الشمس برأس

حيوان يقال له « كتنبوره» واقر على المبيت فيها . وفي فجر اليوم الثاني قمنا منهـا ووصلنا الى «شامبي» في شروق الشس واسترحمه فيا نحو ساعتين ثم داوم الوابور

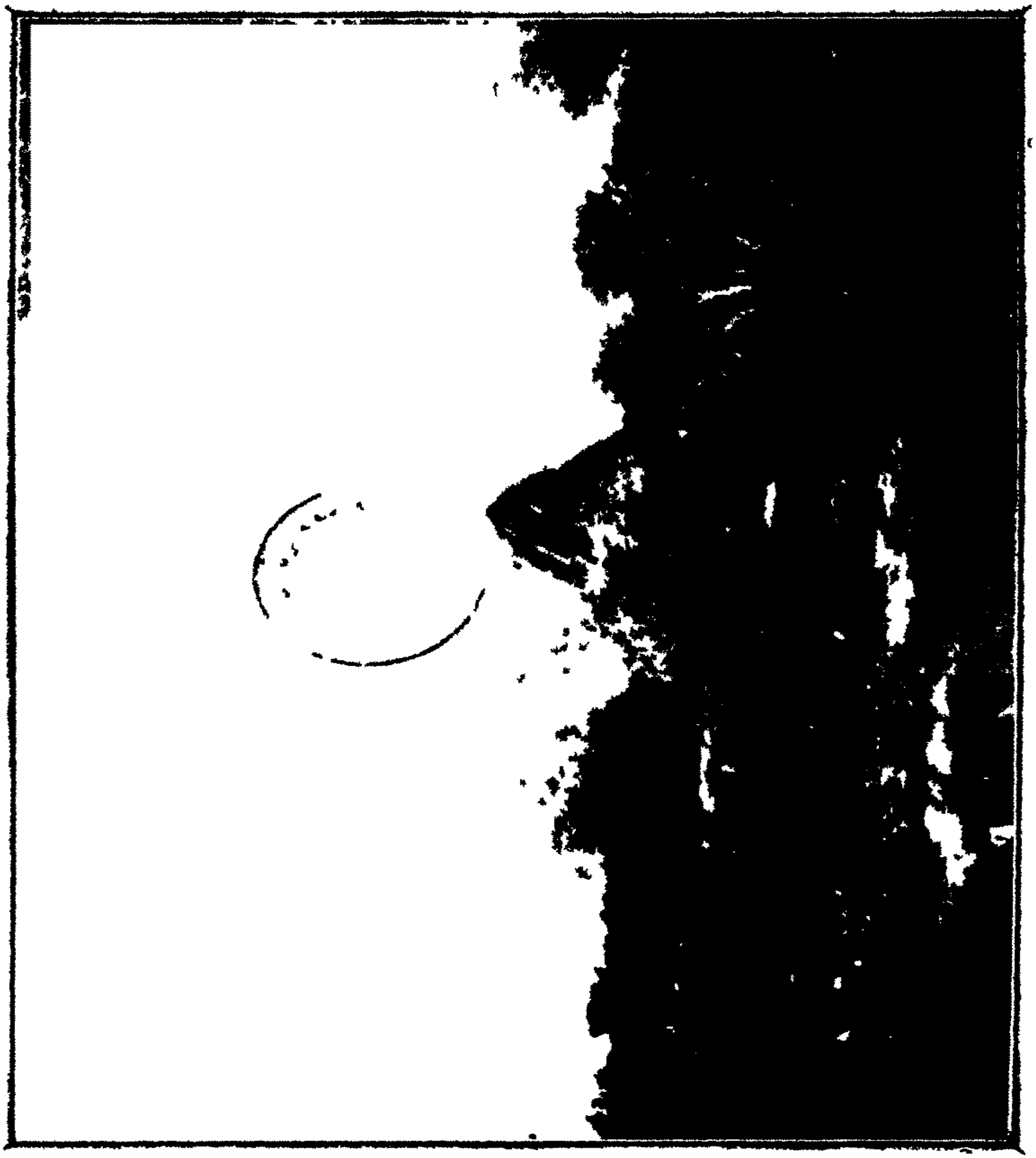


دولة الامير يوسف كمال باشا وهو متربص تحت شجرة لصيد السباع

على سيره وفي اثناء الطريق اصطاد الاميرثلاثة حيوانات من الجاموس البحري المسمى

عندهم « كرينق » وبالنسبة لمهارة دولة الامير في الصيكان يستعمل الاسلحة النارية لصيد هذه الحيوانات

واما اهل السودان فيصطادونها بآلة مخصوصة على شكل حربة مسننة تشبه السنارة



« عجل البحر »

فتى دخلت في جسم الحيوان لا تخرج منه الا اذا مزقت المحل الذي دخلت فيه وطريقة صيده هي انهم يقربون من هذا الحيوان ويضربونه ضربةً قوية بالحربة فتدخل في

جسمه ومربوط فيها حبلٌ وفي طرفها الثاني قرعة عوامة فيجذبها معه وتبقى القرعة عائمة على سطح الماء وتتجه نحو الجهة التي يمشي فيها فيتبع الصيادون خط سيرها وهم راكبين في زوارق صغيرة فمتى تعب الحيوان من الم الضرب يخرج رأسه من الماء وحين ذلك يضربونه بالحراب من كل جانب فيغطس في الماء ثم يخرج رأسه ثانيةً من جهة اخرى فيضربونه ايضاً وهكذا يستمرون على هذا العمل عدة ساعات حتى يموت فيسحبونه الى البر ويقطعونه ويقسمونه بينهم

ثم بعد استمرارنا في السير وصلنا «طونغه» قبل الغروب بساعة واقمنا فيها تلك الليلة . وفي الصباح قام الامير واصطاد حيوان يسمى «تيتل» وبعد ان استرحنا مدة ساعة قصدنا ناحية «ماريت» ووصلناها قبل الغروب وبتنا فيها تلك الليلة . وفي اليوم الثاني طلع الامير الى الغابات الموجودة فيها واصطاد ثلاثة من التيتل ثم عاد وقت الغروب وفي الحال قمنا منها الى «ملوط» واصطاد منها حيوان يقال له « ابوشهات »

وفي اليوم الثاني في ١٢ صفر سنة ١٣٢٧ هـ ٤ مارس ١٩٠٩م. وصلنا امام «جبل احمد اغا» وامر دولة الامير بوقوف الوابور وطلع الى الجبل وبمعيته اتباعه والخيام والادوات اللازمة لصيد الاسود واخذوا معهم معزه وربطوها في ذيل الجبل على بعد منهم وجعلوا فخ لصيد الاسود ويسمونها «فخ المعزه» وطريقة استعماله هي ان تربط المعزه في وتد بربط ضيق وبحيث تتألم منه فمن شدة الالم تصرخ المعزه صراخا متوالياً ويكون الصياد كامناً في محل لايراه منه فمتى سمع الاسد صراخها يأتي نحوها ليفترسها فعند ذلك يوجه الصياد النشان اليه ويضربه . ولما لم يحصلوا على الاسود تلك الليلة في الصباح وجدوا حيوانات اخرى فاصطادوا ثلاثه من البقر الوحشي وغزالين وعادوا بهم وقت الغروب

وفي ذكر الامراء الذين توجهوا مع دولة الامير يوسف كمال باشا بقصد الصيد البرنس ل. وندشكريتس والبرنسيس ل. وندشكريتس والكونت هنكل دونيرسمارك والكونت كيزا ندراشي والدوقتور دندريا وكاظم بك



« رؤوس الحيوانات »

١٩ + ١	بقر الوحش	1 + 10	Oryx
٢	التيل الاسود	2	Nirs Gray Waterbuck
٣	كتمبور	3	Waterbuck
٥ + ٤	تيل	4 + 5	Whiteeared cob

٦	غزال صغير (دك دك)	6	Oribi
٧	» » »	7	Dick-Dick
٨	تيتل	8	Damabscus Tiang
١٨+٩	نيلك من الجنس الكبير	9 + 18	Kudu (Greater)
١٠	جاموس بري	10	Buffalo
١١	باروكي	11	Elaud
١٢ + ٢٤	ابو محزومه	12+24	Hartebeest
١٣ + ٢٣	غزال سوداني	13+23	Gazella Rufifrcus
١٤ + ٢٢	ابو عرف	14+22	Roan Antilope
١٥	ابو شمات	15	Reed Bick
١٦	نيلك من الجنس الصغير	16	Lesser Kudu
١٧ + ٢١	ابو نباح	17+21	Bush Buck
٢٠	اداكس	10	Addax
٢٥	سن واقدام الفيل	25	Tusko and Elephant feet

تهنئة باللغة التركية

« لدولة الامير المشار اليه بعودته سالماً من الصيد بجهات السودان »

مژده ای نظم آوران ساحهٔ فضل وكمال * مژده ای شیرافگنان غاب صحرا وجبال
صیدگاه خطهٔ سوداندن عودت ایلدی * یوسف مصر كمال اول داور فرخ خصال
لرزناك ایلردل شیرژیانی صولتی * بازوی زورآوری پیل دمانی بی مجال
اول امیر شیردل عالی حسب والا نژاد * شیرایله پنجه لشیر مانند رستم پور زال
گوهر كان كمالن وصف وتقدیرنده كیم * خامهٔ شیرین زبانم عاجز ومبهوت ولال
گوهر مشهور « كوه نور[1] » اگا اولسه قیاس * نزد قدرنده قالور بیقدر مانند سفال
انتظارنده دو چشم دیدهٔ یعقوب كی * جاریدی اشك روانم نیل وش ماه زلال
قیلدی تشریف قدومیله دل ناشادی شاد * قالمدی كاشانهٔ دلده غم و گرد ملال
* عز وشان ایله همیشه اوله شاد و كامران *
* عمر واقبالن ایده افزون خدای ذوالجلال *

---

(١) (كوه نور) اسم جوهرة كانت بحريثة اكبر شاه احد ملوك الهند في الزمن الغابر واصبحت اليوم في حوزة دوله بريطانيه العظمى واودعت المتحف البريطاني بلندن



No. 1 S. A Le Prince YOUSS F KAMAL Pacha
» 2 S A La Princesse L Windishgractz
» 3 Dr. D Andria
4 S. A. Le Prince L. Windishgractz
» S E. Le Comte Henkel Donnersmarkt

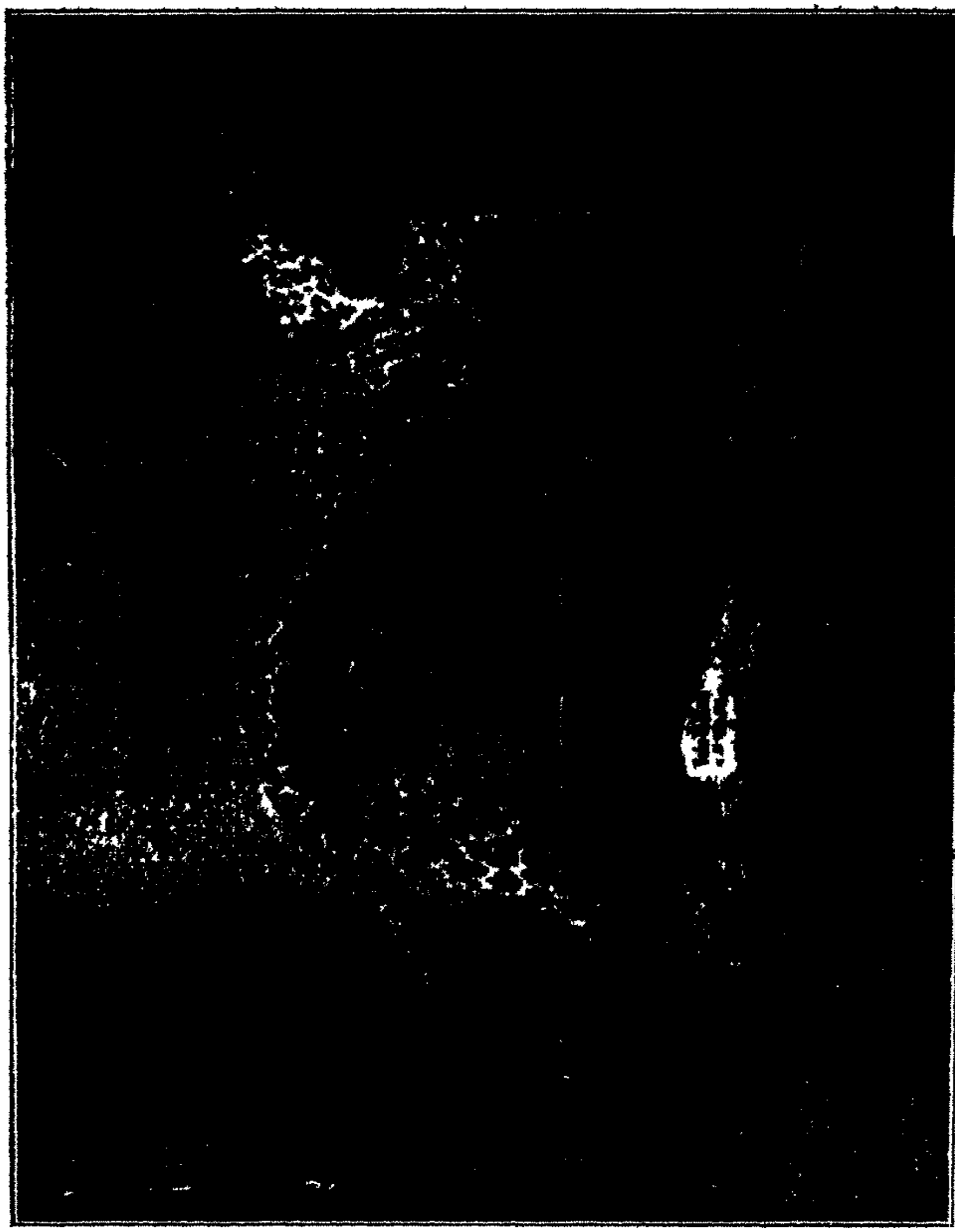
N 6 S. E. Le Comte Géza Andrassy
» 7 Kazem Bey

(١) الامير يوسف كمال باشا (٢) البرنسيس ل. وندشكريتس (٣) دوقتور دندريا (٤) البرنس ل. واندشكريتس (٥) الكونت هنكل دونيرسمارك (٦) الكونت كيزا اندراشي (٧) كاظم بك



« الاسد » الذي اصطاده دولة الامير يوسف كمال باشا بالنيل الازرق في ١٩ ابريل سنة ١٩١١ ميلادية

A lion » par S A Le Prince Youssouf Kamal Pacha
Bados ouest Nil-Blan 19 Avril 1911



« الفهد » الذي اصطاده دولة الامير يوسف كمال باشا بحر الغزال في ١٩ مارس سنة ١٩١١ ميلادية

« A Leopard » par S. A. le Prince Youssef Kamal Pacha

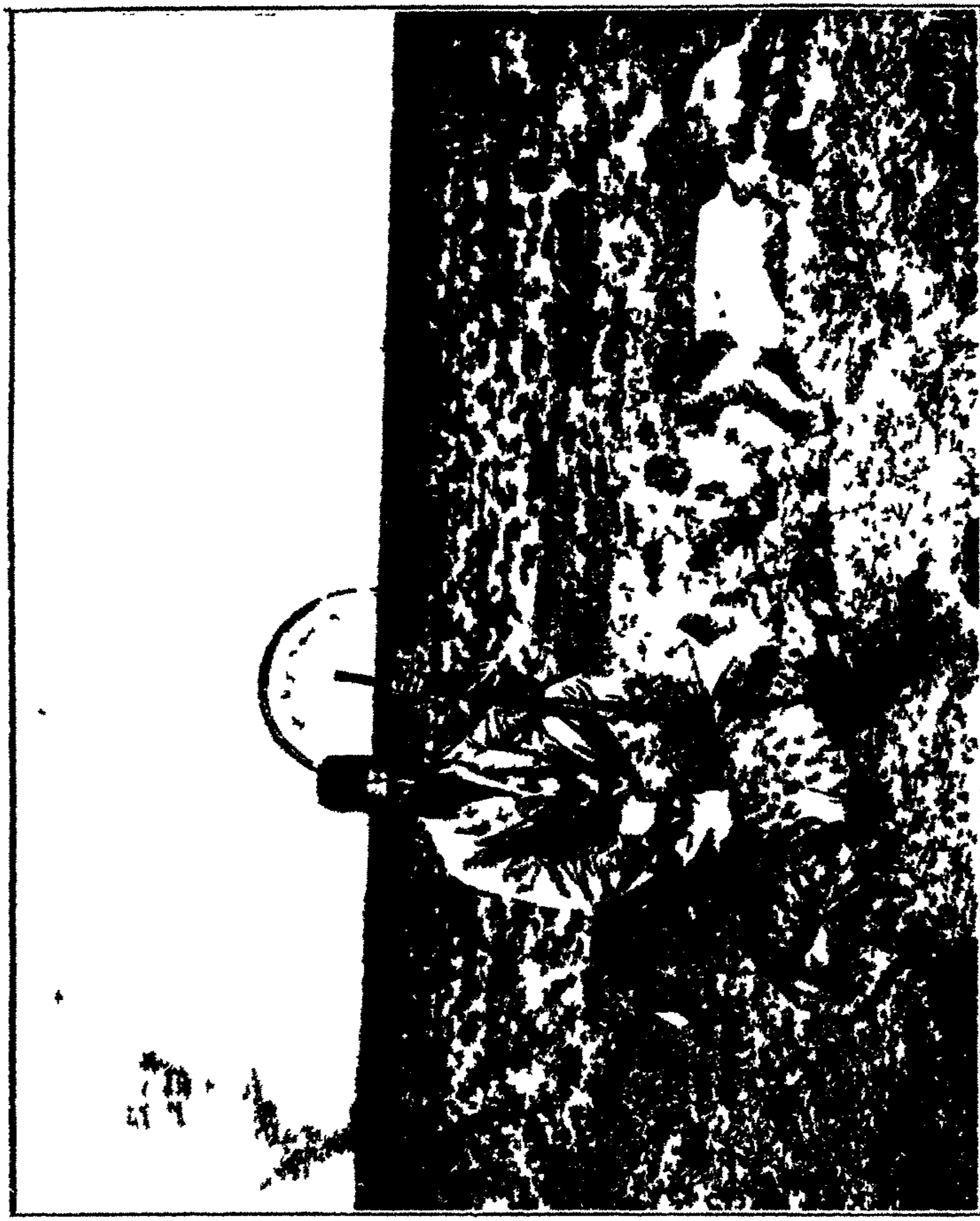
Bahr-El-Zaraf, 13 Mars, 1911

(٥٢)



الخرتيت (وحيد القرن) الذي اصطاده دولة الامير يوسف كمال باشا في بلاد (لادو) من مستعمرات باجيكا سنة ١٩١٠ ميلادية . وهو واقفاً

« White Rhinoceros » par S. A. le Prince Yonssef Kamal Bacha. Lado 20 Mars 1910



ثلاث سباع : التى اصطادها دولة الامير يوسف كمال باشا بجوار بحر الزرافة سنة ١٩١٠ ميلادية ومنها واحد حيّ اهداه لحديقة الحيوانات بمصر واسمه بخيت



(الزرافة) التي اصطادها دولة الامير يوسف كمال باشا بجوار (شامبي) سنة ٩١٠ وهو قاعد عليها

« Giraf » par S. A. le Prince Youssef Kamal Pacha (Chambi) 1910



الافيال : التي اصطادها دولة الامير يوسف كمال باشا بجوار (كندوكرو) سنة ١٩١٠ ميلادية . وهو قاعد عليها



(النمر) الذي اصطاده دولة الامير يوسف كمال باشا بجوار « فاشوده » سنة ١٩١٠م . وهو واقف عليه

وبعد ان اقمنا ثلاثة ايام امام جبل احمد اغا المذكور قصدنا مدينة الخرطوم فوصلناها في ٧ صفر سنة ١٣٢٧ هـ ٩ مارس ١٩٠٩ م ونظراً لكثرة رؤوس الحيوانات التي يخشى عليها من التعفن جرى تصبيرها وصنعت لها صناديق لحفظها واقتضى لهذا العمل اقامتنا مدة ثلاثة ايام

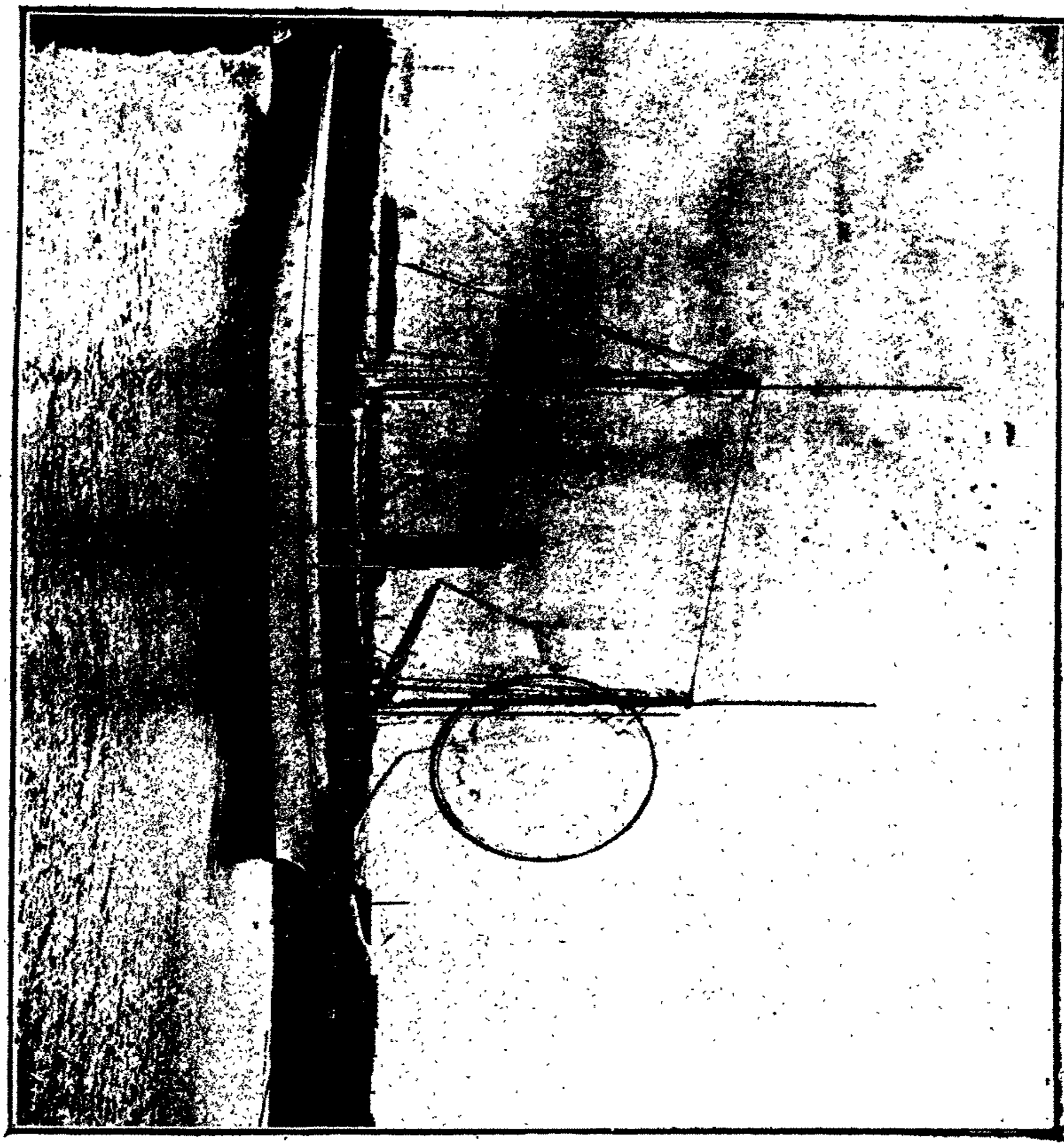
الخرطوم هي عاصمة بلاد السودان ومركز ادارتها ومقر حاكمها الانكليزي الحائز لرتبة الفريق ونتيجة تحويلها في هذا الزمان الاخير الى ما هي عليه من الامور السياسية والادارية فنبينها على الوجه الاتي

فبالنسبة لاحتلال الانكليز لمصر ودخول اراضيها الواسعة تحت ادارتهم جعلوا السودان بصفة حكومة مستقلة واطلقوا عليه اسم السودان المصري الانكليزي بعد ان كانوا يسمونه المصري العثماني . ومن هنا يعلم ما صارت عليه من الاهمية . وغرضنا من ذكر تقسيم السودان وسائر احواله الملكية هو ان نبين بان الخرطوم هي قاعدة حكومة السودان وادارتها تنقسم الى سبع مديريات وثلاث محافظات

وبعد ما انتهينا من بيان احوال السودان الادارية والملكية نتكلم عن رحلتنا منها قمنا من الخرطوم قاصدين بورتسودان بطريق السكة الحديد . ولعدم وجود ما يستحق الذكر في طريقنا من الخرطوم الى بورتسودان اكتفينا ببيان المحطات التي مررنا عليها ففي الصباح وصلنا الى محطة « الاكبره » وفيها صار تغيير القطار فركبنا قطار آخر وسار بنا في صحراء واسعة تقيم فيها قبيلة من قبائل العرب تسمى (هدندد) ثم وصلنا محطة (اتبره) صباحاً واقمنا فيها مدة ساعة ثم قمنا منها ووصلنا الى محطة (انها) الساعة تسعة صباحاً واستمرينا في سفرنا تلك الليلة حتى وصلنا قبل الغروب بورتسودان . وكان فيها اليخت المسمى (قواله) المخصوص لركوب دولة الامير منتظر قدومه . وبعد ان نقلوا الاشياء التي كانت معنا الى اليخت نزلنا فيه مع دولة الامير وبعد استراحته برهة من الزمن نظر دولة الامير الى سواحل هذا الميناء ونواحي البلد بالنظارة واخذ رسمها بنفسه بواسطة آلته الفوتوغرافية

والآن ابين درجة ما وصلت اليه ميناء بورسودان وما استجد فيها من العمران والاثار المدنية فاقول

ان ميناء بورسودان لها رصيف بني بالحجر طوله ٩٠٠ متر تقريباً في غاية العظمة والمتانة وقد انشأ سنة ١٩٠٦ ميلادية وانتهى عمله في ٢٨ ربيع الاول سنة ١٣٢٧ هـ ١٩ ابريل سنة ١٩٠٩ وحضر في احتفال افتتاحه جناب السمو عباس باشا حلمي



يخت قواله

خديو مصر . وتنقل جميع المثقلات من هذا الرصيف الى المراكب ومن المراكب الى الرصيف ومن الرصيف ايضاً الى المخازن الموجودة فيه بواسطة آلات كهربائية

وخصصوا جانباً من الرصيف للمعاملات التجارية وجعلوا قسما عظيماً للجمرك والمخازن اللازمة له ودوائر متعددة للمأمورين والمستودعات والاوساليات . واسست الحكومة في الجهة الشرقية من المينا بلد في محل مرتفع وجعلت فيها أبنية ومساكن منتظمة ومشيدة للاهالي ولوكنده ومدرسة واسبتالية ومحل للسجن ومكاتب للتلغراف والبوسطة ودواوين منتظمة لمستخدمي الحكومة ومحلات . وهذا الرصيف قابل لمرسى اربعة من اكبر المراكب بحيث تفرغ حمولتها في آن واحد بكل سهولة بالنسبة لوجود الالات والوسائط الكافية . وعدا ذلك فانه مهما وصل حد الجزر فلا يقل عمقه عن عشرة أمتار وبذلك يسهل قرب الوابورات منه بهذه الاسباب الطبيعية

وفي هذا الرصيف من كمال الاستعداد ما يستلزم امعان النظر في كل الوسائط الفنية التي استعملت فيه وها بيانها — فلاجل تفريغ حمولة اكبر وابور يستعمل فيه خمس آلات كهربائيــة ذات الزاويا المتحركة وهي « الونج » وهذه الآلة ترفع في الساعة الواحدة ثلثماية «طن» من الفحم وتسحب اكبرالوابورات لتقربه الى الرصيف. ثم تجر عربات السكة الحديد الى الجهة التي تريدها بالوسائط الفنية وبقوة الكهرباء . يجرون تعمير كلما يريدون من الات الوابورات وغيرها مما هو لازم الاستعمال وفي المينا ورشة مخصوصة لذلك . والدليل على توفر كماليات هذا الرصيف بتنوير جميع جهاته وكذا تنوير البلد بالانوار الكهربائية

وقد انشيء في شمال الكبري حوض كبير لتعمير السفن وتصليحها . ولو ان هذه المينا لم تكن مثل ميناء الاسكندرية في الاتساع الا انها بالنظــر لاستعدادها يمكنني اعدها من احسن الموانى الموجودة في العالم نظراً لما احتوت عليه من جميــع الوسائط اللازمة

ومما يوجب الاسف وجود اهالى السودان من قديم الزمان في حالة التوحش الى عصرنا هذا عصر التمدن مع قربنا اليها وترك هذه الاراضي الواسعة الخصيبة حتى احتلتها الاجانب وكانوا سبباً بوجود العمران والمدنية بغيرتهم وسعيهم مع بعدهم عنها يلزمنا نحن معشر الشرقيين ان ننظر بعين الحسرة والاسف لتأخر هذه البلاد طول الزمن الذي كانت فيه تحت ايدينا

ولنرجع الى رحلتنا فنقول بعد اقامتنا في هذه الميناء الجميلة بضع ساعات كما سبق

الذكر فارقناها في غروب ٢٠ شهر صفر سنة ١٣٢٧هـ فوصلنا امام جزيرة Brothers (برُوذِر) في شروق الشمس وفي وسطها (فنار) ارتفاعه من اربعين الى خمسين متراً على بناء من الحجر وسفح الجزيرة مستوياً ويشبه (الدوبه) وهي من الخشب النقالى يستعمل لتفريغ وشحن المراكب . وتتراءى للناظر من بعيد كأنها صال كبير في وسط البحر وكلما اقترب منها يشاهدها كأنها رصيف طبيعي صنعته القدرة الالهية

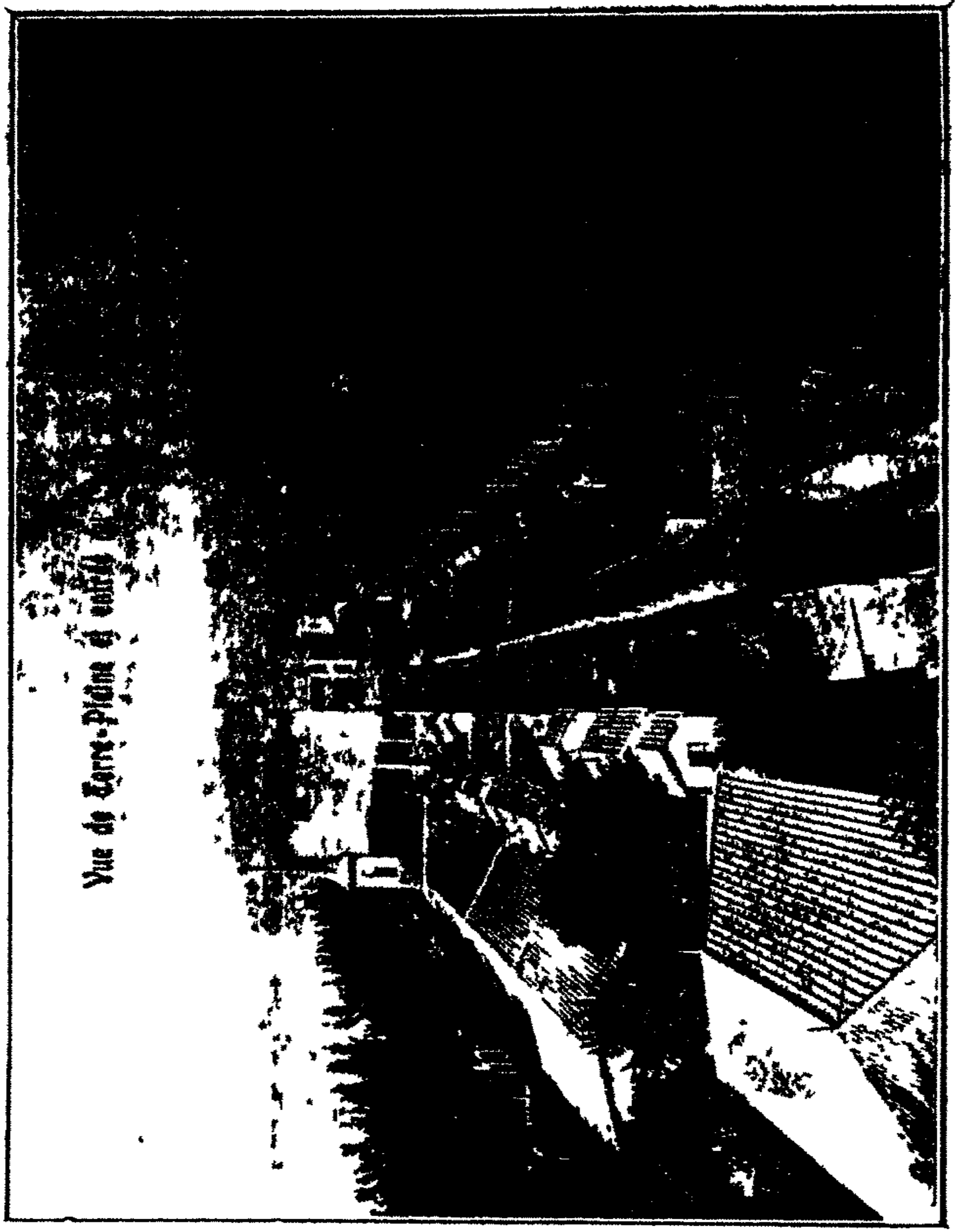
وفي صباح اليوم الثاني وصلنا الى جبل القمر وداومنا في سيرنا وعند الغروب مررنا امام جزيرة Chadvant «شادوان» وهي واقعة في مبدأ سلسلة جبل طورسينا على ٧ كيلومترات منها تقريباً

وفي ٢٠ شهر صفر سنة ١٣٢٧هـ ١٨ مارس ١٩٠٩م . وصلنا (الى السويس) وقت الغروب واقمنا فيها تلك الليلة وفي الصباح دخلنا في القنال متوجهين الى بورت سعيد وطول هذا القنال ١٥٠٠٠ متر ولكون عرضه لايساعد مرور وابورين بجانب بعضهما فاحدهما يرتكن على الساحل الشرقي حتى يتمكن الوابور الثاني من المرور ولهذا ارتكن اليخت الذي كنا فيه حتى مر الوابور الانكليزي المسمى Kennefeg Sondoie (كينوفك سندُوا) وبعد ان تخلصنا من هذا المدخل داومنا على السفر ووصلنا (بورت سعيد) قرب الغروب

« السويس » SUEZ

هي كليوباتريس او ارسينوى القديمة احدى مدن مصر تبعد ١٣٥ كيلومتراً من القاهرة الى الشرق وهي واقعة في عرض ٦٠ً ٥٨َ ٢٩ْ شمالاً وطول ٣٥َ ٣٢ْ شرقاً . سكانها ١٧٤٥٧ نفس منهم نحو ٣٠٠٠ اجانب موقعها على تخم سهل رملي بندر فيه المطر . فيها ترعة مياه عذبة حفرت سنة ١٨٦٣ تصلها الطريق الحديدية من القاهرة والاسكندرية وسائر القطر المصري وقد ازدادت اهميتها في السنين المتأخرة لوقوعها على رأس خليج السويس وطرف الترعة وانشيء مرساها المهم ومحل لاصلاح السفن الكبيرة على نحو ميلين من المدينة بينهما طريق حديدية توخاها المتأخرين فصارت من اهم مراسي القطر المصري واكثرها حركة . وفيها ابنية مهمة لشركات البواخر وغيرها وذهب البعض الى انها قائمة على آثار كليسما او قلزم العربية فانحطت في القرن الثامن على أثر اندمال الترعة من النيل اليها واتخذها اسطول الدولة العلية في البحر الاحمر مستودعاً له . وبقيت حتى انشاء ترعة السويس الحديثة متأخرة زريئه ميناها

قليل الغور طمرته الرمال لا يدخله من السفن ما زاد محموله على ٦٠ طناً في ساعات المد وفي سنة ١٨٣٤ سلكت البواخر خطاً من السويس الى الهند فكانت ترسو على مسافة ميلين من الشاطيء فينقل البريد والبضائع والركاب منها اليه في القوارب ثم ينتقلون في قافلة كبيرة الى القاهرة على الجمال والبغال مسافة ١٨ الى ٢٠ ساعة



خليج السويس

وكانت هذه البواخر تأتيها مرة في الشهر فيتأتى عند مجيئها بعض الحركة في المدينة اما باقي ايام الشهر فالسكون فيها تام فكانت الاشغال فيها قليلة واصابتها الاوبئة فخفض

عدد سكانها وهاجر منهم كثيرون فكان عددهم في عام ٨١٧٠ نحو ٥٠٠٠ نفس . وكانت قبل ذلك الحين زاهرة نامية ومركزاً مهماً للتجارة بين اوروبا والهند . ومما زادها تقهقراً اكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح

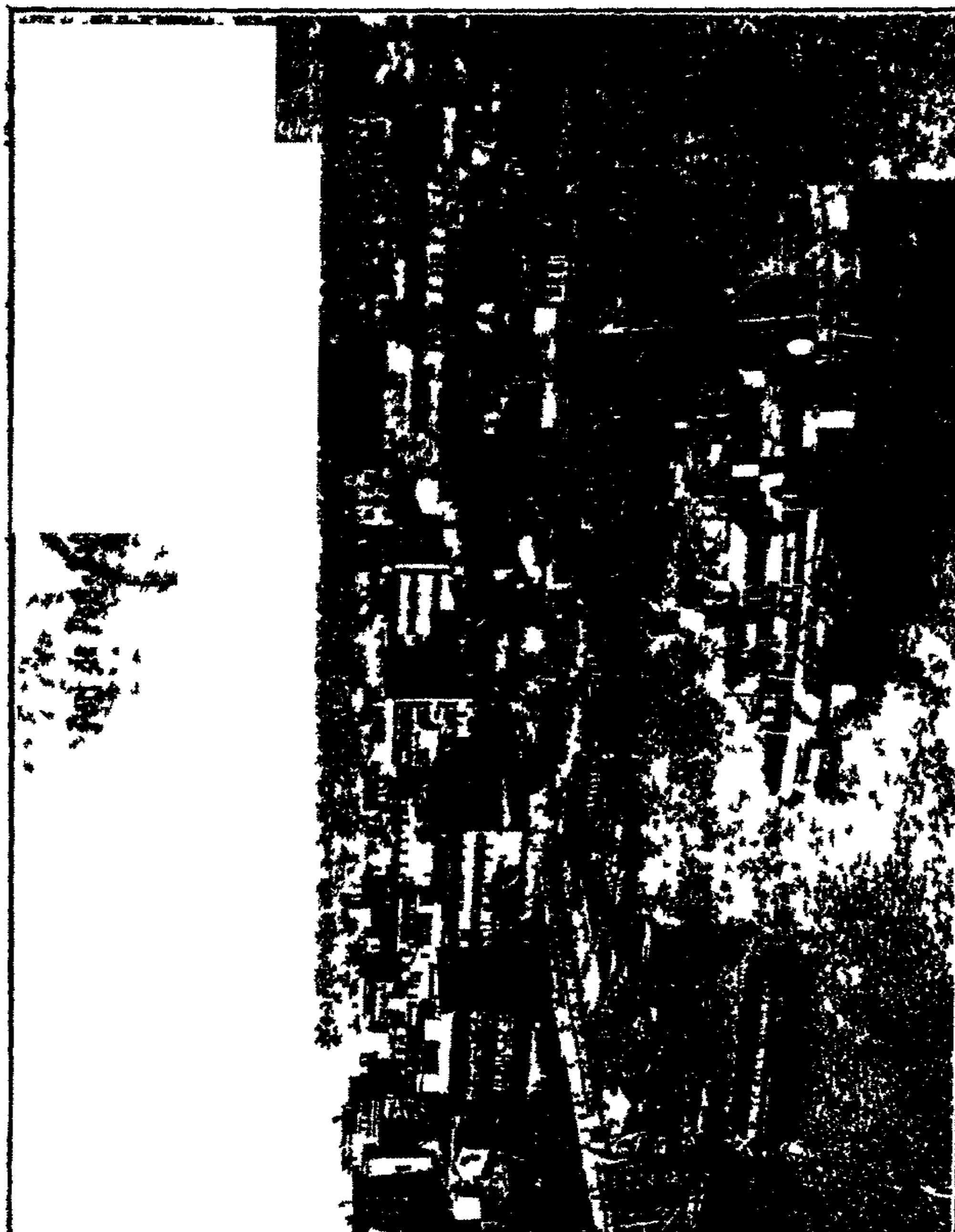
وكان سكانها يستقون الماء العذب من مواضع مسافتها بعيدة حتى انشئت الترعة العذبة اما ابنيتها فحقيرة صغيرة مبنية بالطوب المجفف بالشمس . وكان فيها قلعة وعدة حصون محكمة وسور تهدم الآن . وكانت محطة للقوافل بين مصر وسوريا

(٢) الخليج. وهو الطرف الشمالي من البحر الاحمر بعد انشطاره عند درجة ٢٨ شمالاً فيمتد الى الشمال الغربي حتى ٣٠ شمالاً الى برزخ السويس . يحده من الشرق شبه جزيرة طورسينا او برّ الطور ومن الغرب مصر . طوله نحو ١٨٠ ميلاً ومعدل عرضه ٢٠ ميلاً ضفتاهُ قاحلتان مؤلفتان من سهول جرداء ورؤوس صخرية . عرفهُ القدماء باسم خليج هيروبوليست او (هيروبوليتس سينوس) وقيل ان بني اسرائيل عند خروجهم من مصر اجتازوا البحر الاحمر على بضعة اميال من رأسهِ

(٣) ترعة السويس. ترعة مالحة تصل البحر المتوسط بخليج السويس فالبحر الاحمر طولها نحو ١٠٠ ميل منها ٢٥ ميلاً تمر في بحيرات عمق بعضها كاف لمخر السفن وعرضها عند سطح الماء ٣٢٥ قدماً خلا الاماكن التي تمر فيها بين الاراضي المرتفعة فعرضها ١٩٥ مع انحناء ٢ الى ١ وعرض قعرها ٧٢ قدماً وعمقها ٢٦ قدماً . اكثر الاراضي التي تمرّ بها ارتفاعاً عند الجسر الى شمالي بحيرة التمساح وطول هذه الاراضي ١١ ميلاً ونصف ميل فيختلف عمق الحفر من ٣٠ الى ٨٥ قدماً فاستخدموا في حفر هذا القسم ٢٥ بجرفة بخارية وعدداً غفيراً من العملة فكانوا يحفرون ٦٠٠٠٠٠ متر مكعب من الارض في الشهر . ومن توابع الترعة مرفأ بورت سعيد واتساعه ٨٧٥ يرداً مربعاً وله رصيفان يمتد الشرقي منهما في البحر مسافة ٣٦٠٩ يردات والغربي ٢٥١٥ يرداً والمسافة بينهما ٤٣٧ يرداً مربعاً كثافة جدرانها ٢٦ يرداً عند القعر و٦ يردات عند السطح وارتفاعها ١٢ يرداً مبنية من لبنات ضخمة حجم الواحدة منها ١٢ يرداً مكعباً مصنوعة من تيل في ارديسن من اعمال فرنسا ومن رمل الشواطيء . ويجرفون الترعة الى عمق ٢٦ قدماً . وتنتهي من ناحية السويس بمرفأ يجرفونهُ ايضاً الى عمق ٢٦ قدماً . وهناك رصيف يقي مدخلها من الرياح الغربية طولهُ ٨٥٠ يرداً مبني بصخور جيرية اقتلعوها من شاطيء الخليج الغربي

وقد اتت ترعة السويس تجارة العالم بمنافع عظيمة منذ افتتاحها الرسمي في ١٧

نوفمبر سنة ١٨٦٦ (تاريخها) ذهب استرابون وبليلوس الى ان سيزوستريس رامسيس او رعمسيس الثاني نحو عام ١٣٠٠ ق. م. احتفر ترعة بين فرع النيل البلوسي والبحر الاحمر وكان اسم الفرع البلوسى في القديم يطلق على الفرع الشرقي من الدلتـا الذي



بورت سعيد

يصب عند بلوسيوم القديمة على البحر المتوسط الى شرقي بحيرة المنزلة بالقرب من قرية تينة الحديثة ورأى الدكتور بروغس وغيره ان الترعة المذكورة احتفرهـا سيثوس والد رعمسيس واسند زعمهُ الى كتابات وآثار وجدها في الـكرنك . ولم تصلح الترعة

المذكورة الا لتسريب المياه وربما كان قصدهم منها أيصال المياه فقط . قال هيرودوتس ان نخو او نخاو شرع في احتفار ترعة للبحارة يتبع فيها مجرى الترعة السابقة الذكر وكان ذلك على ما روى التاريخ في نحو عام ٦٠٠ ق.م

لكنه امتنع عن تتميمها لما ظهر للعرافين من انه يحتفرها فينتفع اعداء بلاده بها . وقال ارسطاطاليس انما منعه عن تتميمها ما قاله المهندسون له من ان مياه البحر الاحمر اعلى من سطح مصر نخشى على بلاده من الغرق ولم يتجاوز بالحفر بركة التمساح او البحيرة المرة وقتل من المصريين في احتفارها ٢٠٠٠٠ نفس . وكان تخطيطها من نهر النيل قرب بوبستيس (تل بسطة) تجتاز وادياً طبيعياً الى هيروبوليس ومنها الى البحيرات المذكورة والبحر الاحمر في يومنا هذا نحو ٤٠ ميلاً وقد فصلتها عنه الرمال . وقيل فلما استولى الفرس على مصر اتمها الملك داريوس (دارا) بن هستاسب سنة ٥٢٠ قبل المسيح وكان المضيق بين (هيروبوليس) والبحر الاحمر كاد يمتلىء من الرواسب فامر بجرفه وتوسيعه وكان طوله نحو عشرة اميال . ولا تزال آثاره باقية الى هذا العهد بالقرب من شالوف عند الطرف الجنوبي للبحيرة الكبرى وترعة الاسماعيلية . ويشاهد هناك بعض الآثار الفارسية الدالة على صحة ذلك

وفي سنة ٢٧٠ ق.م استأنف بطليموس الثاني حفرها حتى ارسينوى وهي مدينة أسسها على ضفة الخليج وذهب ديودوروس الى انه اوصلها الى البحر جاعلاً لها الاقفال والسدود لوقاية البلاد منها فبلغ طولها نحو ٩٣ ميلاً ونصف تقسم الى اربعة اقسام من السويس الى البحيرات المرّة ١٣ ميلاً ونصف وفي البحيرات المرّة ٢٧ ومن البحيرات المرّة الى الوادي (وادي تومات) ٤٠ ميلاً ومن الوادي الى بوبستيس ١٢ ميلاً وبلغ عرضها ١٥٠ قدماً وعمقها من ١٥ الى ٢٠ قدماً وذهب بلينوس الى ان عمقها كان ٣٠ قدماً وربما اراد بذلك عمق بعض اقسامها فسارت بها السفن من البحر الاحمر والهند الى مصر . وزمن بقاء الترعة المذكورة مجهول لكن الرمال ردمتها قبل ايام طرابانوس الذي اصلحها في اوائل القرن الثاني وغيّر مجراها وكان النيل آخذاً في التحول عن الفرع البلوسي فجعلوا اول الترعة من بابيلوس وهي قرية كانت قائمة في ما هو الآن دير النصارى أو ديرمارجرجس في مصر القديمة قال شارب ومنها الى هليوبوليس (المطرية) ثم سكاني فيتيرانورم ثم هيروبوليس ثم سيرابيون الى البحيرات المرة العليا ومنها الى البحر الاحمر عند كليسمون (قلزم) على ١٠ اميال من ارسينوى (السويس) الى الجنوب . وكانت الرمال قد فصلت بتراكمها بين ارسينوي والبحر فابعدته عنها ففصلت

بين هذه الترعة والبحر ايضاً فانقطعت عنها سفنهُ حتى فتوح العرب سنة ٦٣٨ الى ٦٤٠ . فبعد ان افتتح عمرو بن العاص قائد جيوش عمر بن الخطاب (رضه) بلاد مصر واصلح الترعة بامر الخليفة وسماها ترعة امير المؤمنين . فبقيت نحو قرن واكثر الى ان طمرها الخليفة المنصور ابوجعفر ثاني الخلفاء العباسيين عام ٧٦٧ فتركت منذ ذلك الحين

ولا تزال بعض آثارها ظاهرة حتى هذه الايام بما دل على ان عرضها كان ١٠٠ الى ٢٠٠ قدم وعرف كثيرون من كبار رجال العالم اهميتها التجارية بين اوروبا والشرق ونظروا في تجديدها وكان في مقدمتهم في العصور المتأخرة نابليون الاول حين أتى مصر سنة ١٧٩٨ واكتشف آثار الترعة القديمة في جوار السويس فعين لجنة من المهندسين يرأسها المسيو لوبير للبحث في احتفار البرزخ فصادفت اللجنة المذكورة صعوبات كثيرة لما كان في البلاد وقتئذٍ من القلاقل واضطرت الى استصحاب فرقة من الحرس كثيراً ما استدعاها الجيش عند مسيس الحاجة فكانت تتوقف اللجنة عن العمل. وما فرغت مما عهد اليها حتى عاد نابوليون الى فرانسا قبل اطلاعه على تقريرها وصرف همته الى غيرها من المهام فتوقف عن المباشرة فيها

وجاء في تقرير المسيو لوبير ان ارتفاع سطح البحر الاحمر يزيد ٣٠ قدماً عن ارتفاع سطح البحر المتوسط . وسنة ١٨٤٦ جاء مصر المهندس الفرنسوي الموسيو بوردالو فتفقد احوال البرزخ وقرَّر بعد البحث الدقيق بين السويس وتينة ان الفرق بين ارتفاع البحرين لا يذكر فلا يمنع مجرى مياه الترعة سير السفن بين البحرين وسنة ١٨٤٧ انفذت دول فرنسا وانكلترا والنمسا لجنة مؤلفة من الموسيو تالابوت والمستر روبرت ستيفنسن والسنيور نجرلي للبحث في هذا الامر الخطير فقرروا ان سطح البحرين متساوي في الارتفاع وسنة ١٨٥٣ استأنفوا البحث و ثبتوا ما قرروهُ سنة ١٨٤٧ فالمستر ستيفنسن لم يبدِ استصواباً لفتح الترعة لئلا يصيبها ما اصاب ترعة الفراعنة التي طمرتها الرمال وكان تخطيطها على مجرى الترعة القديمة او بالقرب منه . فأثر رأيهُ في الانكليز واضعف عزمهم عن حفر الترعة

وكان من المقرَّر لدى المهندس الموسيو فردينان دي لسبس ان الايصال بين البحرين ممكن فعزم على انفاذ فكره بما عهد فيه من الهمة والمقدرة . وسهلت الظروف له العمل لان والدهُ كان من موظفي قنسلاتو في فرنسا الاسكندريه وعرفهُ المغفور له محمد علي باشا فيها وجعلهُ من المقربين اليه وتقرب ابنهُ وهو الموسيو فردينان المذكور الى

سعيد باشا ولي العهد . فبحث في المسئلة طويلاً وسبر البحرين ونقب البرزخ في عدة نقط حتى تقرر لديه انه ما من عقبة في سبيل احتفار الترعة يتعذر معها العمل . فاطلع سعيد باشا على مشروعه فاستحسنه وعضده عارفاً ما له من الاهمية وفوض انشاء الشركة اللازمة الى الموسيو دليسبس فسافر الى اوروبا وصادف مشروعه فيها اقبال الاغنياء وعضدوه برأس المال اللازم . لكن دولة الانكليز لبواعث سياسية وغيرها عاكست المشروع في بلادها وفى الاستانة العلية يعني دار الخلافة الاسلامية وحاول سفيرها حمل الدولة العلية على رفض المصادقة عليه ومنع الخديوي من انفاذه بما لها من حقوق السيادة في البلاد

فشكل الموسيو دى لسبس شركته سنة ١٨٥٤ ونال الامتياز بفتح الترعة بل عقد اتفاقاً بينه بالنيابة عن شركته وبين الحكومة المصرية ولم تصادق عليها الدولة العلية

وسنة ١٨٥٥ انفذ سعيد باشا مهندسين الى البرزخ لتجديد البحث في مسئلته ففرغا من البحث في فصل الخريف وجاء تقريرهما موافقاً لها وعرض على لجنة دولية التأمت في باريس لهذه الغاية تفاوض فيها مفوّضو دول اوروبا الكبرى وقرّ قرارهم على انفاذ خمسة من اعضائها الى مصر يبحثون في سائر فروع المشروع بالتفصيل . فتوجهوا اليها وفي اواخر عام ١٨٥٥ رفعوا تقريرهم فجاء موافقاً للمشروع . وفي تلك السنة نال الموسيو دليسبس من سعيد باشا امتيازاً ثانياً . وهاك اهم مواد الامتيازين المذكورين

(١) يشكل الموسيو فردينان دي ليسبس شركته تحت عنوان «شركة ترعة السويس العامة» ويعين هو مديراً لها غايتها احتفار الترعة في برزخ السويس وبناء فأمر على كل من طرف الترعة

(٢) تعين الحكومة المصرية المدير العامل للشركة تختاره اذا امكن من اكثر الشركاء اسهماً

(٣) مدة الامتياز ٩٩ سنة من تاريخ افتتاح الترعة بسير السفن

(٤) تقوم الشركة بنفقات الترعة باسرها وتمنحها الحكومة الاراضى اللازمة لحفر الترعة ووقايتها مجاناً ما عدا ما اختص من الاراضي باشخاص معلومين واذا ارادت الحكومة المصرية انشاء الحصون على الترعة فلا تتعهد الشركة بتقديم نفقاتها

(٥) تأخذ الحكومة ١٥ في المئة من دخل الشركة السنوي علاوة على ما يصيب اسهمها من الفائض والربح اذا كان بيدها اسهم . ويقسم الباقي من الارباح الصافية كما يأتي ٧٥ في المئة لاصحاب الاسهم و١٠ في المئة للمؤسسين الاصليين

(٦) تعين الحكومة المصرية بالاتفاق مع الشركة ما يؤخذ على السفن من رسم المرور في الترعة ويجري هذا الرسم على سفن جميع الدول بالاسوة

(٧) اذا ارتأت الشركة ايصال النيل بالترعة المالحة فيحق لها سقي الاراضي المهمة وزرعها على نفقتها ومسئوليتها . فتعفى الاراضي المذكورة من الرسوم مدة ١٠ سنوات من تاريخ افتتاح الترعة وتدفع عشر الرسم المعتاد مدة ٨٩ سنة الباقية من الامتياز ويضرب عليها بعد ذلك رسم الاراضي المعتاد

(٨) ترسم الاراضي التي تمنح للشركة في خريطة

(٩) للشركة حق اقتلاع الحجارة من اراضي الحكومة مجاناً . ويعفى من رسم الجمرك كل ما تستحضره من المواد والآلات والذخائر للعملة

(١٠) عند انقضاء مدة الامتياز تستلم الحكومة المصرية الترعة من الشركة فتصير في مطلق ملكيتها وتصرفها هي وكل الاراضي والحقوق المتعلقة بها بين البحرين . ويجري تمين المواد الموجودة

والمواد العشر السابقة الذكر اساس كل ما جرى من الاتفاقيات بين الحكومة المصرية وشركة الترعة واضيف اليها في ك ٢ « يناير » ١٨٥٦ فقرة مآلها أنه ينبغي استخدام اربعة اخماس العملة في الترعة من المصريين تقدمهم حكومة مصر . فبلغ عدد العملة اللازم من الفلاحين المصريين ٢٠٠٠٠ تدفع الشركة للواحد منهم ثلث ما تدفع لعامل اوربي يعمل مثل عمله ويزيد الراتب المذكور الثلث على اجرة المنازل والطعام والمعالجة الطبية وتدفع لهم نصف اجرتهم أثناء المرض وهي شروط تضمن للشركة وفراً وسرعة في العمل فاعترضت الدولة العلية عليها وسنة ١٨٥٩ انسحب الفلاحون في آخر انسحابهم من الاشغال واضطرت الشركة الى نفقات باهظة لاستحضار العملة من الخارج ولم تصادق الدولة العلية على فقرة تسوّغ للشركة بيع املاكها في مصر او ايجارها

وتعدّدت على الشركة المعاكسات حتى وردت اليها الاوامر مرّة تقضي عليها بمغادرة البلاد فتوقفت عن العمل مدة سنتين توقفاً يكاد يكون تاماً وبعد المخابرات الطويلة تمكنت بالسعي والاجتهاد من استئناف العمل واقبل عليها جماهير الفلاحين يطلبون الانخراط بين العملة وحكّم خديوي مصر في المسألة امبراطور فرنسا فاصدر فيها في تموز « يوليو » سنة ١٨٦٦ الحكم الاتي

«١» ان امتيازي ت ٢ (نوفمبر) سنة ١٨٥٤ وك ٢ (يناير) سنة ١٨٥٦ عبارة

عن اتفاقيتين تقضيان بارتباط الفريقين

«٢» لما كان يترتب على انسحاب الفلاحين من العمل زيادة في النفقات وجب أن يدفع الخديوي للشركة ٠٠٠ ٢٠٠ ١ ليرا انكليزية تعويضاً

«٣» ان الشركة تسلم الخديوي ترع المياه العذبة ويبقى لها حق المرور بها فقط ويدفع لها الخديوي ٠٠٠ ٤٠٠ ليرا انكليزية لقاء نفقات انشائها و٠٠٠ ٢٤٠ ليرا انكليزية لقاء ما تنازلت عنه من الرسوم

«٤» يبقى للشركة من الاراضي على ضفتي الترعة ماهو ضروري المحافظة عليها

«٥» يستولي الخديوي على كل الاراضي التي ترويها الترع وتجعلها صالحة للزراعة ويدفع الخديوي للشركة مبلغ ٠٠٠ ٢٠٠ ١ ليرا انكليزية لقاءها

فبلغت التعويضات ٠٠٠ ٣٦٠ ٣ ليرا انكليزية وعلى ذلك تمكن الموسيو دي ليسبس ومعاونوه المهندسون من انجاز عملهم العظيم وكان راس مال الشركة ٠٠٠ ٠٠٠ ٢٠٠ فرنك مؤلف من ٠٠٠ ٤٠٠ سهم سعر السهم ٥٠٠ فرنك اضيف اليه سنة ١٨٦٧ مائة مليون فرنك بصفة فرض عقدته الشركة وانقسم العمل في الترعة الى قسمين الاول حفر الترعة المالحة بين البحرين المتوسط والاحمر والثاني جرّ المياه العذبة وتوصيلها الى العملة وعيالهم اثناء العمل فالشروع في حفر الترعة المالحة متوقف عليها واول الترعة عند الزقازيق ومنها الى السويس نبع في معظم مجراها ترعة الفراعنة القديمة وهي صالحة لسير السفن وقد اقاموا الاقفال عند انحدارها وقد اخذوا منها فرعاً من الاسماعيلية الى بورت سعيد في قساطل قطرها ٩ قراريط . أما الترعة المالحة فطولها ١٠٠ ميل مع اننا اذا رسمنا بين البحر المتوسط والبحر الاحمر خطاً مستقيماً بلغ من الطول ٧٠ ميلاً فقط وهي تمر في بحيرات المنزلة والبلح والتمساح والبحيرات المرّة

وفي ١٧ نوفمبر ١٨٦٩ فتحت الترعة لمرور المراكب افتتاحاً رسمياً فاجتازها خمسون سفينة من بحر الى بحر وجرى ذلك باحتفال عظيم لم يكد يسمع بمثله فان المغفور له اسماعيل باشا قام في تلك الاثناء بمعدات عظيمة ودعا ملوك اوربا وامراءها فحضر منهم كثيرون

اما الشركة التي قامت بهذا العمل فرأس مالها في الاصل فرنساوي ولكن تداولت اسهمها الايدي فانتقل بذلك قسم عظيم منه الى يد الانكليز ولما كانت الحكومة الانكليزية شديدة الرغبة في القاء حمايتها على ترعة السويس ولم يكن من مسوغ سياسي

يخولها ذلك سعت في ان يكون لها شأن ويد قوية في الشركة وحمات الخديوي سنة ١٨٧٥ على ان يتفرَّع لها عن ١٧٦ ٦٠٢ من الاسهم التي كانت بيده فملكها الخديوي تلك الاسهم بعد ان عرضها على ما يقال على حكومة فرنسا فلم تشأ ابتياعها وما لبثت ان علمت بنفوذ عقد البيع فندمت ولات ساعة مندم

اما مجلس ادارة الشركة فهو في باريس وقد تولى رئاسته بعد الموسيو دوليسبس الموسيو غيشار ولما توفى الموسيو غيشار انتخب المجلس البرنس دارنبرج في ٣ آب سنة ٩٦ وكان الاعضاء الانكليز اول من صادق على هذا الانتخاب وسعى فيه سرًّا الفرنساويون لذلك

ولم تزل السفن العابرة من البحر المتوسط الى البحر الاحمر في ازدياد حتى امسى ذلك سبباً في ابطائها بالاجتياز وقد حدثت على اثر ذلك وقبله بعض أمور الجأت اصحاب السفن الى التشكي من الادارة فتألفت شركات للبحث في حفر ترع اخرى فنزع قوم الى ترعة تجري فيها المياه العذبة من الاسكندرية الى المنصورة فالاسماعيلية ومن ثم الى السويس على موازاة الترعة الموجودة ونزع غيرهم الى فتح ترعة من بورسعيد الى السويس على خط مواز للترعة الموجودة وبحث آخرون في اتخاذ خط آخر لترعة جديدة غير ان كل هذه المباحث ذهبت ادراج الرياح . وسنة ١٨٨٦ اقرت الشركة على توسيع الترعة تسهيلا لمسير السفن ولم يزل من ثم دخلها بازدياد حتى يومنا هذا وقد بلغ في العام الماضي (١٨٩٦) ٠٠٠ ٤٢٦ ٧٨ فرنك وهو اعظم مبلغ استوردته بسنة واحدة الا سنة ١٨٩١ فان واردات تلك السنة كانت اكثر منه بقليل . وقد كان عدد المراكب التي عبرت السويس (سنة ٩٦) ٣٤٣٤ مركباً محمولها كلها ٣٨٣ ٤٤٨ ٨ طناً والرسم الذي دفعته للشركة ٠٠٠ ٩٣٠ ٧٥ فرنكا وعدد الركاب ٩٣٧ ٢١٦ ورسمهم ٠٠٠ ١٦٩ ٢ فرنك . ومعدل مدة العبور ١٦ ساعة و ١٨ دقيقة بنقص ٢٣ دقيقة عما قبل . ومن هذه المراكب ٢٣١٨ انكليزية و ٣١٤ المانية و ٢٧٨ فرنسوية و ١٩٢ هولاندية و ٧٨ ايطالية و ٧٢ نمساوية و ٥٧ نروجية و ٣٩ روسية و ٣٦ عثمانية و ٣٣ اسبانية و ١٧ سفينة اخرى منها سفينتان صينيتان وسفينتان يابانيتان

ولا شك ان فتح هذه الترعة قد اتى العالم اجمع بمنافع جمة وعمر بلاداً كثيرة ولكنه مع ذلك لم يخل من مضار تسببت عنه لبلاد اخرى واكثر منافعه كانت لغير القطر المصري ولغير الذين قاموا بهذا العمل العظيم بل للذين قاوموه ولم ينل شرقي سوريا منه الا انحطاط تجارته فان مدينته التي كانت المواصلة التجارية بين اوربا والهند

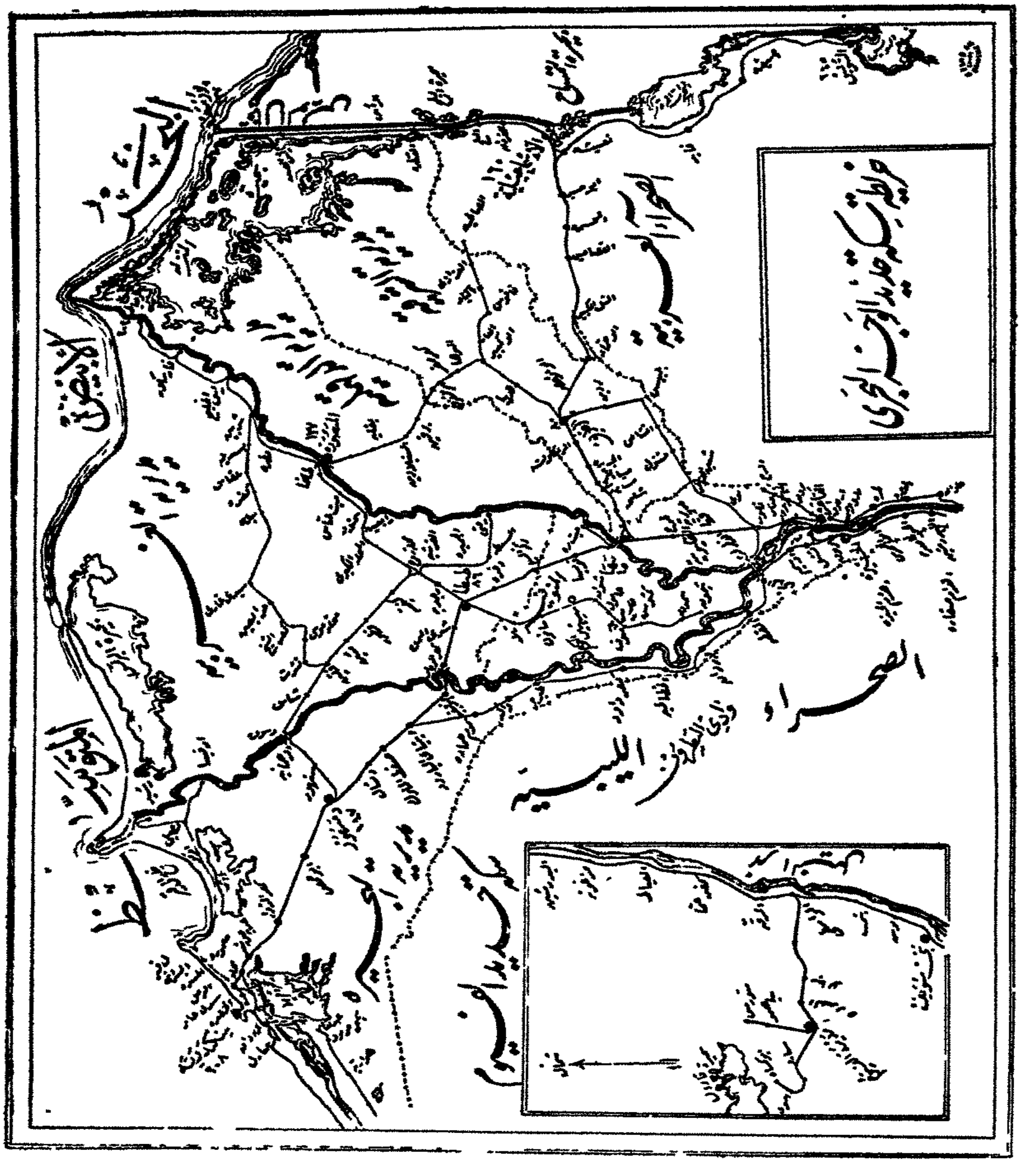
فقدت معظم واردات تجارتها ويقال عكس ذلك في اسفل العراق كالبصرة التي كان لها بطريق السويس اوسع الابواب لتصدير حاصلاتها فنمت تجارتها وعمرت بلادها . ومهما كان من المصارف المذكورة فهي شيء يسير بجانب ما نشأ للعالم من انواع المنافع المختلفة

وفي ٤ يونيه سنة ١٩١٢ اعلن مجلس ادارة قنال السويس ان الايرادات بلغت ٥٢٨ ٥٢١ ٥ جنيهاً اي بزيادة ٣٦٠ ١٧١ جنيها عن السنة السابقة

« الاسكندرية »

Alexandria, Alexandrie

اسم لمدن منها ما بناه الاسكندر ومنها ما بناه غيره وقد ذكر ياقوت في المعجم المدن التى بناها الاسكندر فقال « قال اهل السيَر بنى الاسكندر ثلاث عشرة مدينة وسماها كلها باسمه ثم تغيرت اسماؤها بعده وصار لكل واحدةٍ منها اسم جديد فمنها الاسكندرية التي بناها في اورنقوس ومنها الاسكندرية التي بناها في ... وتدعى المحصنة ومنها الاسكندرية التى بناها ببلاد الهند ومنها الاسكندرية التي في جاليقوس ومنها الاسكندرية التى في بلاد السقوياسيس ومنها الاسكندرية التي على شاطىء النهر الاعظم ومنها الاسكندرية التي بأرض بابلْ ومنها الاسكندرية التي هي ببلاد الصّغد وهي سمرقند ومنها الاسكندرية التي تُدعى مَرغيلوس وهي مرو ومنها الاسكندرية التي في مجاري الانهار بالهند ومنهـا الاسكندرية التي سميت كوش وهي بلخ ومنها الاسكندرية العظمى التي ببلاد مصر فهذه ثلاث عشرة اسكندرية نقلتها من كتاب ابن الفقيه كما كانت فيه مصورة الى ان يقول وليس فيها ما يعرف الآن بهذا الاسم الا الاسكندرية العظمى » وذكر (بوليه) في قاموس التاريخ والجغرافيـة ان مدناً كثيرة تسمى بالاسكندرية وقد كان منها في الازمان المتوغلة في القدم نيف وسبعون مدينة سميت كلها باسم الاسكندر ذي القرنين لان منها ما بناها ومنها ما وسعها وجعل فيها سكاناً واشهرها بعد اسكندرية مصر اسكندرية اراخوسيا على نهر اراخوتس قيل هي قندهار واسكندرية آرية وقيل هي هرات . واسكندرية آسيا الصغرى وهي الاسكندرونة واسكندرية بقطريانة على نهر اكسوس وهي صالي سراي واسكندرية السكادان وتسمى الان مشهد علي واسكندرية قبرس على


الصحراء الليبية

الساحل الشمالى من تلك الجزيرة وهي الآن خراب واسكندرية الهند قرب ياروباميسوس على نهر خواس وقد اكتشف (ماسون) آثارها سنة ١٨٣٣ وتعرف الآن بشهر يونان . واسكندرية الهند ايضاً عند ملتقى السند وشناب وتعرف الآن بوه او ميتان واسكندرية الصفد وتعرف باسكندرية ايسخاتا اي البعيدة جداً بناها الاسكندر في سكيثيا على نهر يكسرتس وتعرف الآن بخوقند وقال ياقوت سمرقند.واسكندرية شوشانة عند مصب نهر دجله . واسكندريه ترواس وهي مدينة تروادة في آسيا الصغرى وتعرف باسكي استانبول الى استانبول العتيقة

اما الاسكندرية العظمى فهي مدينة شهيرة في مصر واعظم المدن المصرية بعد القاهرة واقعة على البحر المتوسط على مسافة ١١٢ميلاً من القاهرة الى الشمال الغربي في ٣١ درجة و١١ دقيقة و٥٩ ثانية من العرض الشمالي و٢٨درجة من الطول الشرقي وهي قائمة على لسان بين بحر الروم وبحيرة ماريوتيس المسماة الان مريوط . وقد اختلفوا في أول من أنشأ الاسكندرية.قال ياقوت «ذهب قوم الى انها (الاسكندرية) إرَم ذات العماد التي لم يخلق مثلها في البلاد وقد روى عن النبي «صلعم»انهُ قال خير مصالحكم الاسكندرية ويقال ان الاسكندر والفرَما اخوان بنى كل واحدٍ منهما مدينة بارضٍ مصر وسماها باسمه ولما فرغ الاسكندر من مدينته قال قد بنيت مدينةً الى الله فقيرةً وعن الناس غنيةً فبقيت بهجتها ونضارتها الى اليوم وقال الفرما لما فرغ من مدينته قد بنيت مدينةً عن الله غنيةً والى الناس فقيرةً فذهبَ نورها فلا يمرُّ يوم الا وشيء منها ينهدم وارسل الله عليها الرمال فَدَمتها الى ان دثرت وذهب اثرها » « وقال المقريزي » اول ما بنيت اي الاسكندرية بعد كون الطوفان في زمان مصرايم بن بيصر بن نوح وكان يقال لها اذ ذاك مدينةً رَقودَةَ ثم بنيت بعد ذلك مرتين فلما كان في ايام اليونانيين جدّدَها الاسكندر بن فيلبس المقدوني . وقيل في بناءها غيرَ ذلك مما لا حاجة الى ذكرهِ لطولهِ وعدمَ الاعتماد عليهِ . وقد أجمع المؤرخون الصادقون على ان الاسكندر بناها بعد ان خربَ مدينة صور سنة ٣٣٢ قبل الميلاد واستولى على بلاد مصر فسماها باسمهِ . واسم الذي عهد اليه الاسكندر بناءها « دينوكراتس» او «دينوخارس» فاحسن عمارها واقام فيها سوقين تخللانها عرض كل منهما مائة قدم ونيف احداهما تمتد من الشمال الى الجنوب من باب كانوب الى باب نسكروبول والاخرى من الشرق الى الغرب من باب الشمس الواقع على البحيرة الى باب القمر الواقع على المرفأ الكبير وكان طول الاولى اكثر من فرسخ والثانية ثلثي

الفرسخ وكان على جانب كل منهما أعمدة وهياكل وقصور وأقيم على جزيرة «فاروس» منارة مرتفعة جداً ووصلت الجزيرة نفسها بالمدينة برصيف فصل المرفأ الداخلي عن المرفأ الخارجي . وجعل لهُ جسور منفصلة لتتمكن السفن من المرور فيه . ويقال ان بطليموس فيلاذلفوس الذي تملك مصر سنة ٢٨٥ قبل المسيح هو الذي بنى ذلك الرصيف وكان طوله نحو ١٣٠٠ متر وتعرف الجزيرة الآن بناحية رأس التين . اما السوقان المتقدم ذكرهما فكانتا تقسمان المدينة الى اربعة احياء كبيرة يتخللها ايضاً اسواق دون السوقين الكبيرتين في الطول والعرض الا انها كانت كافية لمرور والمشاةُ الفرسان والمركبات . وكان اكبر تلك الاحياء حيّ بروخيوم في الطرف الشرقي من المدينة بين السوق الكبيرة والبحر كان ينتهي غرباً بالنصف الشمالي من السوق المنحرفة ويشتمل على البانيوم والجمناسيوم اي محل المصارعة وسوماً . وهناك كانت عظام الاسكندر موضوعة في اناء من الذهب وقبور الملوك البطالسة وكان فيها ايضاً المزيوم وهو محل المعارف والآداب والمكتبة والتياترو اي محل الالعاب . وقصر الملوك البطالسة مزيناً بمسلتين وهما قديمتا العهد ولم تزالا موجودتين الى هذه الايام وتعرفان بابرتي كليوبطرة احدهما قائمة والثانية ملقاة على الارض . اما آثار بروخيوم فهي قرب شعبة الترعة الجديدة التي تصب وراء باب رشيد وكان قبالته الى الجهة الغربية على مسافة من السوق المنحرفة في موقع قرية (رقودة) القديمة الهيكل المبني من الرخام الابيض المسمى (سيرابيوم) باسم سيرابيس احد آلهة المصريين وصاحب جهنم عندهم وكان ذلك الهيكل قائماً على رابية فهدمه (تيوفيلوس) بطريرك الاسكندرية سنة ٣٩١ للميلاد . اما عمود (سفيروس) فكان في نفس ذلك الموقع ويعرف بعمود (بومبيوس) وهو باقٍ الى الآن ولكنه اقيم بعد الابنية المتقدم ذكرها . وكان هيكل قيصريوم قرب العمود المسمى مسلة فرعون وكن بالقرب من المينا الشرقي البورس وهو المكان الذي يجتمع فيهِ التجار للمفاوضة في الاشغال وهيكل نبتون اله البحر وكثير من الاماكن العمومية والهياكل . وكان في الجهة الشرقية من المدينة محال الالعاب الصراعية المسماه جمناسيوم والمحكمة والمدافن وبيوت التحنيط وعددها ١١ بيتاً . ويمتد على بعد من المدينة الى الجهة الغربية ارض او صخر حفرت فيه ابواب قبور ثم حفر بعد ذلك في القرون الاولى للميلاد كنائس مرتبة يزورها السيّاح مستضيئين بالمصابيح وحفر في الصخور الواقعة على شاطيء البحر حفر صناعية على شكل مغتسلات تعرف بحمامات كليوبطرة ويقال انها كانت تستعمل لغسل الموتى

قبل دفنهم في القبور . وكان محيط الاسكندرية خمسة اميال

وقد ذكر الشيخ جلال الدين السيوطي في كتابه المسمى (حسن المحاضرة في اخبار مصر والقاهرة نقلا عن ابن المتوج في كتاب ايقاظ المتغفل) من العجائب ان منارة الاسكندرية التي بناها ذو القرنين كان طولها اكثر من ثلاثمائة ذراع مبنية بالحجر المنحوت مربعة الاسفل وفوق المنارة المربعة منارة مثمنة مبنية بالآجر وفوق المنارة المثمنة منارة مدورة وكانت كلها مبنية بالصخر المنحوت على اكثر من مائتي ذراع وكان عليها مرآة من الحديد الصيني عرضها سبعة أذرع كانوا يرون فيها جميع من يخرج من البحر من جميع بلاد الروم فان كانوا اعداء تركوهم حتى يقربوا من الاسكندرية فاذا قربوا منها ومالت الشمس للغروب اداروا المرآة مقابلة الشمس فاستقبلوا بها السفن حتى يقع شعاع الشمس في ضوء المرآة على السفن فتحرق السفن في البحر عن آخرها ويهلك كل من فيها وكانو يؤدون الخراج ليأمنوا بذلك من احراق المرآة لسفنهم فلما فتح عمرو بن العاص الاسكندرية احتالت الروم بان بعثت جماعة من القسيسين المستعربين واظهروا انهم مسلمون واخرجوا كتاباً زعموا ان ذخائر ذو القرنين في جوف المنارة فصدقتهم العرب لقلة معرفتهم بحيل الروم وعدم معرفتهم بمنفعة تلك المرآة والمنارة وتحيلوا الذخائر والاموال اعادوا المنارة كما كانت فهدموا مقدار ثلثي المنارة فلم يجدوا فيها شيئاً وهرب اولئك القسيسيون فعلموا حينئذ انها خديعة فبنوها بالآجر ولم يقدروا ان يرفعوا اليها تلك الحجارة فلما اتموها نصبوا عليها تلك المرآة كما كانت فصدئت ولم يروا فيها شيئاً وبطل احراقها

وقال شاعر المشهور حافظ شيرازي الذي توفي قبل ثمانمائة سنة

آيينهٔ اسكندر جام جمست بنگر تابرتو عرض دارد احوال ملك دارا

وذكر القزويني وياقوت عن بناء الاسكندرية ما ملخصه « ذكر جماعة من اهل العلم ان الاسكندر المقدوني لما استقام امرهُ في البلاد سار لكي يختار ارضاً صحيحة الهواء والتربة والماء حتى انتهى الى موضع الاسكندرية فاصاب فيها اثر بنيان وعمداً كثيرة من الرخام في وسطها عمود عظيم مكتوب عليهِ بالقلم المسند وهو القلم الاول من اقلام حمير وملوك عاد . انا شداد بن عاد شددت بساعدي الواد وقطعت عظيم العماد وشوامخ الجبال والاطواد وبنيت ارم ذات العماد التي لم يخلق مثلها في البلاد واردت ان ابني هنا مدينة كارم وانقل اليها كل ذي قدم وكرم من جميع العشائر والامم وذلك اذ لا خوف ولا هرم ولا اهتمام ولا سقم فاصابني ما اعجلني وعما اردت

قطعني وسع وقوعه طال همي وشجي وقلّ نومي وسكني فارتحلت بالامس عن داري لا لقهر ملك جبار ولا لخوف جيش جرار ولا عن رغبة ولا عن صغار ولكن لتمام المقدار وانقطاع الآثار وسلطان العزيز الجبار فمن رأى اثري وعرف خبري وطول عمري ونفاد بصري وشدة حذري لا يغتر بالدنيا بعدي فانها غرّارة وغدارة تأخذ منهُ ما تعطي وتسترجع منهُ ما توآتي . وكلام كثير يري فناء الدنيا ويمنع من الاغترار بها والسكون اليها . فنزل الاسكندر مفكراً يتدبر هذا الكلام ويعبرهُ وقيل انه دخل هيكلاً عظيماً كان لليونانيين فذبح فيه ذبائح كثيرة وسأل ربه ان يبين له امر هذه المدينة هل يتم بناؤها او ما يكون امرها فرأى في منامهِ كأن رجلا قد ظهر له من الهيكل وهو يقول لهُ انك تبني مدينة يذهب صيتها في اقطار العالم ويسكنها من الناس ما لا يحصى عددهم وتختلط الرياح الطيبة بهوائها ويثبت حكم اهلها وتصرف عنها السموم والحر وتطوّى عنها قوة الحرّ والبرد والزمهرير ويكتم عنها الشرور حتى لا يصيبها من الشياطين خبلٌ وان حلبت اليها ملوك الارض بجنودهم وحاصروها لم يدخل عليها ضررٌ فبعث يحشر الصناع من البلاد وخط الاساس وجعل طولها وعرضها اميالا وجمع اليها العمد والرخام واتته المراكب فيها انواع الرخام وانواع المرمر والاحجار من جزيرة صقلية وبلاد افريقية وافريطش « كريت » واقاصي بحر الروم مما يلي مصبهُ في بحر الاوقيانوس وحمل اليه أيضاً من جزيرة رودوس فبناها وسماها الاسكندرية ثم رحل عنها بعد ما استتم بناءها فجال في الارض شرقاً وغرباً وفي ٢٤ مايو (ايار) سنة ٣٢٣ قبل المسيح توفي هذا البطل الباسل بشهرزور وقيل ببابل « وهي الاصح » وسنه ٣٣ فنقلت جثته الى الاسكندرية فدفن فيها

ولم يكن للاسكندرية ماء يُشرب فحفرت قناةٌ جرَّ فيها ماء النهر الى المدينة وكانت المياه تجمع في مغائر مبنية في قلب الارض . وكان بناؤها من الامور العجيبة في الاسكندرية ويرى منها الآن ما قبنهُ معضودة بصفين من الاعمدة الا انها مع تمادي الايام فقدت رونقها وادارة تلك المغائر ليست منتظمة فلا تنظف جيداً ويصل اليها الماء بعد تنظيفها مختلطاً بالاوحال ويرى فيها آنية واحياناً حيوانات منتنة ولها من اعلى فتحات مثل ابواب الآبار مرتفعة من الارض بضع اقدام وهي منافذ للغبار والرمال ويطرح منها في المغائر عظام واجياف بشرية فتفسد وتنتن . ومن تلك المغائر ما يجعل على قبتها قبور ولذلك ترى ماءه غير عذب ومتى فاضت مياه القناة ودخلت

المغائر تحدث في جلد من يشربها بثوراً شبيهة بحبة حلب الا انه قد استغني الآن عنها بالماء الذي جلبته شركة انكليزية من ترعة المحمودية

ومنذ بناء الاسكندرية انتقل تخت الملك من مدينة منف اليها فصارت دار المملكة بديار مصر ولم تزل على ذلك حتى ظهر الاسلام وزحف عمرو بن العاص اليها بجيوش المسلمين ففتحها وفتح الحصن وصارت ديار مصر ارض للاسلام فانتقل تخت الملك حينئذ من الاسكندرية الى الفسطاط . وكان اوغسطوس قيصر قد استولى على الاسكندرية وبعث ما بها الى رومية . وكان ابرويز كسرى ملك العجم قد ارسل قائده شاهين الى مصر سنة ٦١١ ب . م ففتحها وفتح الاسكندرية وارسل مفاتيحها الى ابرويز ثم ان ابن ابرويز ردها الى القياصرة . وكانت في ايام البطالسة محطاً كبيراً لتجارة اوروبا والبحر المتوسط مع مملكة الفرس والشرق الاقصى وبلغ عدد سكانها في تلك الايام نحو ثلاث مائة الف نفس حرة من طوائف شتى وصارت مركزاً للعلوم والمعارف ونبغت فيها مدارس الفلسفة اليونانية ولا سيما المدرسية الافلاطونية وكان من جملة محسناتها المكتبة والموزيوم وهو مكتب كانت تعلم فيه التلاميذ على نفقة الحكومة وبلغت الاسكندرية ما قدر لها الاسكندر من النجاح والثروة وزهت وازهرت فاخجلت اشهر مدن العالم واغناها ولم يكن ينافسها في المجد والعظمة الا رومية حتى انها كانت تلقب في عهد (يوليانوس) قيصر مملكة المدن وتوصل عباد الاصنام فيها الى معرفة التوراة بالترجمة السبعينية وتأسست فيها الديانة المسيحية منذ زمن متوغل في القدم الا انه تولد فيها عدة بدع فصارت ميداناً للمنازعات الدينية والمشاحنات واحقادٍ مخالفة لتعاليم النصرانية ولم يشتد النزاع الديني في بلد مثلما اشتد فيها وحدث فيها ايضاً مشاحنات سياسية كثيرة وتفاقم عليها الخطب ولا سيما في اثناء القتال الذي حدث بين كليوبطرة واخيها بطليموس سنة ٣٠ ق . م . وكان من دأب اهل الاسكندرية القاء الفتن والسجس وابداء الشطط ونشر رايات الثورة والعصيان في عهد البطالسة والرومانيين فثاروا سنة ٤٧ ق . م . ثورة هائلة فاخمد قيصر عصيانهم . ويقال ان مكتبة الاسكندرية احترقت في ذلك الوقت . وطرأ على تلك المدينة عدة مصائب وجرى فيها عدة مذابح قللت عدد سكانها وخضعت للرومانيين مدةً طويلة ونقل كثير من تحفها ومصنوعاتها الفاخرة الى رومية الا ان رونقها بقي على حالهِ الى ان جعلت القسطنطينية عاصمة للامبراطورية الشرقية فلم تفقد بذلك اهميتها التجارية الا ان ما كان لها من الاعتبار والعظمة اخذ في التناقص . وسنة ٦٤٠ للميلاد الموافقة السنة العشرين للهجرة فتحها

المسلمون في ايام عمر بن الخطاب على يد عمرو بن العاص بعد قتال وممانعة وذلك بعد فتح مصر

قال ابو الفداء وفي سنة ١٩ و٢٠ للهجرة فتحت مصر والاسكندرية على يد عمرو ابن العاص والزبير بن العوام فنازل عين‌شمس‌وهي بقرب المطرية وكان بها جمعهم ففتحاها وبعث عمرو بن العاص ابرهة بن الصباح الى القرماء وضرب عمرو فسطاطهُ موضع جامع عمرو بمصر الآن واختطت مصر وبنى موضع الفسطاط الجامع المعروف بجامع عمرو بن العاص ثم توجه الاسكندرية ففتحها عنوة بعد قتال كثير . وحاصر عمرو الاسكندرية ١٤ شهراً فبذل سكانها الجهد في الدفاع عنها لكنها فتحت اخيراً فانهزم اليونان والتجأ بعضهم الى السفن وبعضهم هرب برّاً طمعاً باسترجاع بعض ما فتح من بلادهم فساد عمرو في اثرهم فهزمهم وشتت شملهم اما الذين ركبوا السفن فانتهزوا فرصة غيابه وعادوا الى الاسكندرية وفتكوا بالحرس الذين اقامهم عمرو فيها ولكنه رجع اليهم فولوا الادبار ولم يثبتوا امامهُ

وكتب عمرو بن العاص الى عمر بن الخطاب اني فتحت مدينة فيها اثنا عشر الف بقال يبيعون البقل الاخضر واصبت فيها اربعين الف يهودي عليهم الجزية . وليس في ذلك شيء من المبالغة لان الاسكندرية كانت قبل ان فتحها المسلمون كثيرة السكان وبلغ عدد اهاليها من ستماية الى تسعماية الف نفس وكان كثير منهم يهوداً وكان فيها ٤٠٠٠ حمام وروي ان عمراً كتب الى الخليفة يستشيرهُ ايضاً فيما يفعله في المدينة ليعلم هل ينبغي له ان يصونها ويحفظها او يبيحها للنهب فاجابه الخليفة يلومهُ على ما خطر بالهِ من اباحتها للنهب الا ان عمراً التزم ان يدك اسوارها عقب ثورة حدثت فيها وذلك سنة ٢٥ للهجرة .وكان السبب في مخالفة اهلها ونقضهم الصلح ان الروم عظم عليهم فتح المسلمين اياها وظنوا انه لا يمكنهم الاقامة ببلادهم بعد خروج الاسكندرية عن ملكهم فكاتبوا من كان فيها من الروم ودعوهم الى نقض الصلح فاجابوهم الى ذلك فسار اليهم من القسطنطينية جيش كثير وعليهم (منويل الخصي) فارسوا بها واتفق معهم من بها من الروم ولم يوافقهم المقوقس بل ثبت على صلحهِ فلما بلغ الخبر عمراً سار اليهم وسار اليه الروم فالتقوا واقتتلوا اقتتالاً شديداً فانهزم الروم وتبعهم المسلمون الى ان ادخلوهم الاسكندرية وقتلوا منهم في البلد مقتلة عظيمة منهم منويل الخصي . وكان الروم لما خرجوا من الاسكندرية قد اخذوا اموال اهل تلك القرى من وافقهم ومن خالفهم فلما ظفر بهم المسلمون جاء اهل القرى الذين خالفوهم فقالوا لعمرو ان الروم اخذوا دوابنا

واموالنا ولم نخالف نحن عليكم وكنا على الطاعة فرد عليهم ما عرفوا من اموالهم بعد اقامة البينة ثم هدم عمرو سور الاسكندرية وتركها بغير سور . وروي ان عبد العزيز بن مروان بن الحكم لما ولي مصر وبلغه ما كانت الاسكندرية عليه استدعى مشايخها وقال احب ان اعيد بناء الاسكندرية على ما كانت عليه فاعينوني على ذلك وانا امدكم بالاموال والرجال قالوا انتظر ايها الامير حتى تنظر في ذلك وخرجوا من عنده واجمعوا على ان حفروا ناووساً قديماً واخرجوا منه راس ادميّ وحملوه على عجلة الى المدينة فامر بالراس فكسر واخذ ضرس من اضراسه فوجد وزنه عشرين رطلاً على ما به من النخر والقدم فقالوا ان جئتنا بمثل هؤلاء الرجال اعدنا عمارتها الى ما كانت عليه فسكت . ويقال ان المعاريج التي بالاسكندرية مثل الدرج كانت مجالس العلماء يجلسون عليها على طبقاتهم فكان اوضعهم علماً الذي يعمل الكيمياء من الذهب والفضة فان مجلسه كان على الدرجة السفلى اهـ . والروايتان المذكورتان ليستا من مصدر صادق فلا يركن اليهما ولا سيما الرواية الاولى فان فيها من المبالغة ما لا يخفى وقد رأينا لهما امثلة كثيرة فلم ننقلها اذ لا فائدة فيها

وذكر ابن الاثير بعض الحوادث التي جرت بالاسكندرية وهي بيد المسلمين منها انه لما ولي عبدالله بن طاهر مصر سنة ٢١٠ هجرية اقبل طائفة من اهل الاندلس والناس في فتنة ابن السري ونصر بن شبث وغيرها فارسوا في الاسكندرية ورئيسهم يدعى ابا حفص وتغلبوا عليها وكان ذلك قبل قدوم ابن طاهر فلما قدم ارسل يطلبهم الى الحرب ان لم يدخلوا في الطاعة فاجابوه وسألوه الامان على ان يرحلوا عنها الى بلاد الروم فاعطاهم الامان فرحلوا الى اقريطش . ولما استعمل بايكبال التركي احمد بن طولون على مصر لم تكن له اعمال الاسكندرية وهذا دليل على انها كانت مستقلة ولها اعمال خاصة بها في تلك الايام ثم صارت لابن طولون ثم تداولتها ولاة الاغالبة من قبل العباسية وزهت في ذلك العصر . ولما كانت دولة المهدي العلوي جهز ولده ابا القاسم القائم وارسله الى مصر ففتح الاسكندرية في ما فتح فارسل اليه المقتدر بالله مؤنساً الخادم في جيش كثيف فحاربه واجلى المغاربة عن تلك الديار ثم ارسل المهدي الى الاسكندرية جيشاً مع قائد يقال له حباسة سنة ٣٠٣ هجرية فتغلب عليها فارسل المقتدر مونساً فحارب المغاربة في ٤ دفعات آلت الى انهزامهم بعد ما قتل منهم جمع غفير وقتل المهدي حباسة لانكساره . ثم عاد المهدي فارسل اليها ولده ابا القاسم ثانية سنة ٣٠٦ فدخل الاسكندرية وخرج منها عامل المقتدر وذلك سنة ٣٠٧ فارسل المقتدر مونساً ووافت النجدات الى القائم في

ثمانين مركباً ورست في الاسكندرية فارسل المقتدر المراكب أيضاً فكانت بين الفريقين واقعة هائلة انجلت عن انكسار المغاربة وكذلك كان امر عسكر القائم في البر مع مونس

« دولة الاخشيد »

وسنة ٣٢٢ كان المهدي قد توفى وولي مكانه ولده ابو القاسم القائم فارسل جيشاً مع خادمه زيدان فدخلوا الاسكندرية وذلك في دولة الاخشيد فقاتلهم الاخشيد وهزمهم . غير ان قدوم المعز العلوي كان به تمام الاستيلاء على مصر والاسكندرية كما هو مشهور . ومن ذلك الوقت صارت للدولة العلوية المغربية وسنة ٤٦٥ كان فساد احوال المستنصر العلوي بمصر ودخلها ناصر الدولة الحمداني وكان بالاسكندرية جماعة من العبيد قد استولوا عليها فاخذها منهم ناصر الدولة على الامان واشتدت شوكة ناصر الدولة هناك واخذ من المستنصر اموالاً وامتعة كثيرة وقطع خطبته بالاسكندرية ودمياط ثم قتل ناصر الدولة . ولما توفي المستنصر سنة ٤٨٧ كان قد عهد بالخلافة لولده نزار فخلعه الافضل وولى المستعلي وهو اخو نزار فهرب نزار الى الاسكندرية وبايع له اهلها فسار اليه الافضل وحاصره بها فعاد خائباً ثم جمع الجموع وعاد فحاصره فاخذه وقتله وصفت الخلافة للمستعلي . وسنة ٥٦٢ ملك الاسكندرية اسد الدين شيركوه بن شادي وهزم منها الفرنج والمصريين واستناب بها صلاح الدين ابن اخيه ايوب فاجتمع الفرنج والمصريون وعادوا الى الاسكندرية فحصروا بها صلاح الدين وشددوا الحصار وقلّ الطعام على من بها فصبر اهلها على ذلك وسار اسد الدين اليهم من الصعيد فطلب الافرنج والمصريون الصلح على ان تكون الاسكندرية للمصريين فتم ذلك وعاد شيركوه الى دمشق ولما كانت دولة صلاح الدين الايوبي بعد عمه شيركوه قصد الافرنج الاسكندرية من صقلية سنة ٥٦٩ باسطول مؤلف من مايتي شيني تحمل الرجالة و٣٦ طريدة تحمل الخيل و٦ مراكب كبار تحمل آلة الحرب و٤٠ مركباً تحمل الزاد وكانت عدة الرجال خمسين الفاً والفرسان ١٥٠٠ فوصلوها على حين غفلة من اهلها في ٢٦ ذي الحجة فخرج اهل الاسكندرية بالسلاح ليمنعوهم من النزول وابعدوا عن البلد فامرهم الوالي بملازمة السور ونزل الافرنج الى البر وتقدموا الى المدينة ونصبوا عليها الدبابات والمنجنيقات وقاتلوا اشد قتال وصبر لهم اهل البلد وكان العسكر عندهم قليلاً ورأى الافرنج من شجاعة اهل الاسكندرية وحسن سلاحهم ما راعهم وسيرت الكتب في الحال الى صلاح الدين ودام القتال اول يوم الى اخر النهار ثم عاود الافرنج القتال في اليوم الثاني وجدّوا ولازموا الزحف حتى وصلت الدبابات الى

قرب السور ووصل ذلك اليوم من العساكر الاسلامية كل من كان قريباً من الاسكندرية فقويت بهم نفوس اهلها واحسنوا القتال والصبر. فلما كان اليوم الثالث فتح المسلمون باب المدينة وخرجوا على الافرنج من كل جانب وكثر الصياح من كل الجهات فارتاح الافرنج واشتد القتال ووصل المسلمون الى الدبابات فاحرقوها وصبروا للقتال فدام القتال الى آخر النهار فانجلى عن نصر المسلمين فعادوا الى المدينة مستبشرين بفتور حرب الافرنج وكثر القتل والجراح فيهم فاتى البشير بقدوم صلاح الدين فعاود المسلمون القتال واشتد خوف الافرنج فهاجمهم المسلمون عند اختلاط الظلام ووصلوا الى خيامهم فغنموا ما فيها من الاسلحة وغيرها وامعنوا فيهم قتلاً فهرب كثير منهم الى البحر وقربوا شوانيهم ليركبوا فغرق البعض ونجا البعض وغاص بعض المسلمين في الماء وخرقوا بعض الشواني فغرقت فهرب الباقون واحتمى ثلثمائة من فرسان الافرنج على رأس تل فقاتلهم المسلمون الى ان اضحى النهار فغلبوهم. وهذه الحادثة من أهم الحوادث التي جرت على الاسكندرية في الحروب الصليبية

وقد ذكر المقريزي نبذة في من ملك الاسكندريه بعد الاسكندر ملخصها ان البطالسة ملكوها اولا ثم القياصرة الرومانيون ثم المسلمون وكانت المدة من ملك البطالسة الى ملك المسلمين ستمائة وبضعاً وسبعين سنة وفي خلال هذه المدة كانت الفرس قد تغلبت على القياصرة وملكت مصر والاسكندريه في ايام كسرى ابرويز كما علمت ولبثت في يدهم عشرة سنين الى ان اخذها منهم هرقل. ثم ذكر نبذة في الحوادث التي جرت عليها ملخصها ما قدمناه الى مُلك صلاح الدين. ثم صارت بيد دولة المماليك من الاتراك. وفي ذلك العصر كانت الفتن بها كثيرة بين الافرنج والمسلمين والاتراك. وذكر ايضاً نبذة في وصفها نقلاً عن الأئمة. قال ابو عمرو الكندي اجمع الناس انه ليس في الدنيا مدينة على ثلاث طبقات غير الاسكندريه ولما دخلها مروان بن عبد العزيز أمر باحصاء سكانها فكانوا ٦٠٠ الف نفس ومع ذلك كان في اطرافها خراب. وقال الحسن بن صفوان اما الاسكندرية وتنيس وامثالهما فقربها من البحر وسكون الحرارة والبرد عندهم وظهور ريح الصبا فيهم مما يصلح امرهم ويروق طباعهم ويرفع هممهم ولا يعرض لهم ما يعرض لاهل اليشمون من غلظ الطبع. وقال بعضهم هي ارم ذات العماد الموصوفة في الكتاب العزيز. ووصف بعضهم اهلها بالبخل قال جلال الدين بن مكرم الخزرجي

نزيلُ اسكندرية ليس يقرَى * بغير الماء أو لفتِ السواري
ويتحف حين يكرَمُ بالهواء * الملاتن والاشارة للمنارِ

وذكر البحرِ والامواج فيهِ * ووصف مراكبِ الروم الكبارِ
فلا يطمع نزيلهمُ بخبزٍ * فما فيها لذاك الحرف قاري

وقال بعضهم الثياب التي تصنع بالاسكندرية لا نظير لها وتحمل الى اقطار الارض .
هذا ومع كل ما جرى على الاسكندرية من تقلبات الزمان كان لها مركز معتبر بين مدن العالم ولم يتم سقوطها وانحطاطها الا بعد اكتشاف طريق الهند والشرق من رأس الرجاء الصالح فنقص عدد سكانها وخربت بيوتها فصارت لا تشغل اكثر من ربع مساحتها الاولى وامسى عدد سكانها ٦ الاف نفس وقام فيها المماليك فتمموا دمارها وكان عدد اهلها سنة ٧٩٠ خمسة الاف نفس فقط . وسنة ١٧٩٨ استولى عليها الفرنسويين واستمرة في حوزتهم الى سنة ١٨٠١ فاخذها الانكليز

وكانت في يدهم الى سنة ١٨٠٣ وسنة ١٨١٢ بلغ عدد سكانها ٨ الاف نفس الا انها كانت في حالة الخراب والدمار ولم يزل هذا شأنها الى ان صار محمد علي باشا والياً على الديار المصرية فرأى ما خصتها به الطبيعة من حسن الموقع وما هي عليه من المواصلة مع اوروبا وسورية وبلاد العرب والهند وتبينت له اهميتها الحربية فبنى فيها الترسانة الى جانب الميناء الغربي ومدَّ يد المساعدة الى الغرباء الوافدين اليها فاخذت في الارتقاء والنجاح حتى رجعت الى ما كانت عليهِ من الشهرة والعظمة ومدَّت علائقها الى آسيا وافريقية واوروبا فجذبت اليها اموالاً جزيلة وانتفع الناس بحاصلات الديار المصرية وصحَّ فيها ما قاله نابوليون الاول «لقد اشتهر الاسكندر ببنائه الاسكندرية وما خطر له من نقل كرسي مملكتهِ اليها اكثر مما اشتهر بفتوحاتهِ اذ ينبغي ان تكون تلك المدينة عاصمة للعالم كله لانها قامت بين آسيا وافريقية ووصلت الهند باوروبا ومرفأوها انما هو المرفأ الوحيد للسفن في مساحة خمسمائة فرسخ ابتداؤها من تونس او قرطاجنة القديمة ونهايتها الاسكندرونة وهو على فم احدى ترع النيل القديمة وسفن العالم كلها تستطيع ان ترسو فيهِ آمنةً من الرياح وطوارق الحدثان»

اما الاسكندرية الحالية فقد اصبحت بعناية الخديوي عباس حلمي من اجمل مدن الشرق بترتيبها وتنظيمها وابنيتها وشوارعها فاكتسبت في هذه الايام شهرة عظيمة فضلا عن شهرتها التاريخية وهي مبنية على الرصيف الذي كان يصل البرَّ بالجزيرة لانهُ صار قطعةً صغيرة من الارض وازدادَ طولهُ واتساعهُ بتراكم الرمال وغيرها من المواد التي تقذفها المياه ولها فرضتان احداهما في غربي الجزيرة يدخلها اعظم السفن والاخرى في شرقيها وهي حديثة العهد وليس لها ما للاولى من المنافع. أما الفرضة الغربية فهي من احسن

الفرض وآمنها وقد ازدادت تحصيناً منذ جلوس عائلة محمد علي وهناك محل الترسانة التي بناها محمد علي باشا الى الجانب الشرقي من المينا والحوض الذي حفرهُ وهو كبير



ميناء الاسكندرية

ترسو فيهِ السفن الكبيرة آمنة من مخاطر البحر واهوالهِ وحوض آخر تبنى فيهِ السفن وقد جعل أمامهُ في البر آلات بخارية تسحب بها المياه اليهِ عند مس الحاجة. اما الحوض العظيم هناك فهو الذي انشأه الخديوي اسماعيل ووضع بيدهِ أول حجر من اساسهِ وذلك

في ١٥ شباط « فبراير » سنة ١٨٧١ وهو كثير الآلات البخارية العظيمة المعدة لبناء السفن واصلاحها . وفي الترسانة معامل عديدة للمدافع والقنابل وغيرها ومطبعة من حروف رصاصية واخرى من حجر . وكانت مياه بحيرة مريوط قد جفت بتراكم الرمال الا ان جيوش الانكليز فتحوا سنة ١٨٠١ مجرى في الارض الضيقة التي كانت تفصلها عن بحيرة ابي قير فدخلها البحر ثانية وفي المدة المتأخرة اخذت الاسكندرية في الرجوع الى شهرتها القديمة وقد اخذ اهلها عن الافرنج عادات كثيرة وتنظيماتها متقنة جداً وفيها شوارع متسعة مبلطة تنار بالغاز ليلاً وأبنيتها الجميلة كثيرة جداً . ولما كانت علائق الاسكندرية التجارية والسياسية تقتضي المواصلة بينها وبين القاهرة وكانت ترعتها القديمة قد تعطلت حفر المرحوم محمد علي ترعة سماها المحمودية نسبة الى السلطان محمود الغازي فازدادت بذلك اسباب تقدمها ووصلها المرحوم عباس باشا بداخلية البلاد بالسكة الحديدية التي انشأها وزاد رونقها وبهاؤها بما أجراه فيها الخديو اسماعيل من المنافع العمومية فصارت محوراً عظيما تدور عليه تجارة العالم ومركزاً لاكابر التجار الذين ينزحون من اوربا وسوريا وغيرها . وقد اقيم فيها وفي القاهرة ايضاً عدة محال مالية عظيمة للشركات المتنوعة فتمدّ التجار والفلاحين بالنقود بفوائد قليلة كما هو جارٍ في اوربا ويرد عليها من مصنوعات اوروبا وامريكا وغيرها منسوجات القطن والصوف والحرير والكتان والحلي والمجوهرات والحديد والآلات البخارية وغيرها وكثير من التحف والاثاث والصيني والبلور والزجاج والاسلحة والورق والعطريات والبهارات وفحم الحجر والحطب والدودة والزيت والمسكرات ويرسل اليها من سوريا وسائر البلاد العثمانية الزيت والتبغ والماشية وغير ذلك مما يستعمل في الاقطار المصرية ويرسل منها الى بلاد العرب وداخلية افريقية . واعظم صادرات الاسكندرية القطن وهو اهم اقسام تجارتها ويليهِ الحبوب وغيرها من الحاصلات والمصنوعات المصرية . وعدد سكانها الآن ٢٤٨ ٨٨٨ نفساً من العرب والقبط والترك والعجم والارمن والافرنج وغيرهم فنهم ٢٥ الفاً من الاسرائيليين و ٢٠ الفاً من الايطاليين و ١٥ الفاً من الفرنسويين و ١٢ الفاً من المالطية و ١٣ الفاً من السوريين وغيرهم و ٨ آلاف من الالمان واهالي سويسرا و ٨ آلاف من اجناس أخرى أجنبية وتشتمل على نحو ٣٠٥٠٠ محل من سراية وقصر وبيت ووكالة وربع ومخزن ودكان وحاصل ومحل عسكرية وجامع وكنيسة ونحو ذلك . وقد كان لها منارة عالية تهتدي السفن اليها وتحسب من عجائب الدنيا السبع بناها بطليموس فيلاذلفوس في جهة الشمال الشرقي من جزيرة فاروس وكان علوها نحو الف ذراع ويقال ان ما انفق على بنائها في تلك الايام يبلغ نحو اربعة ملايين

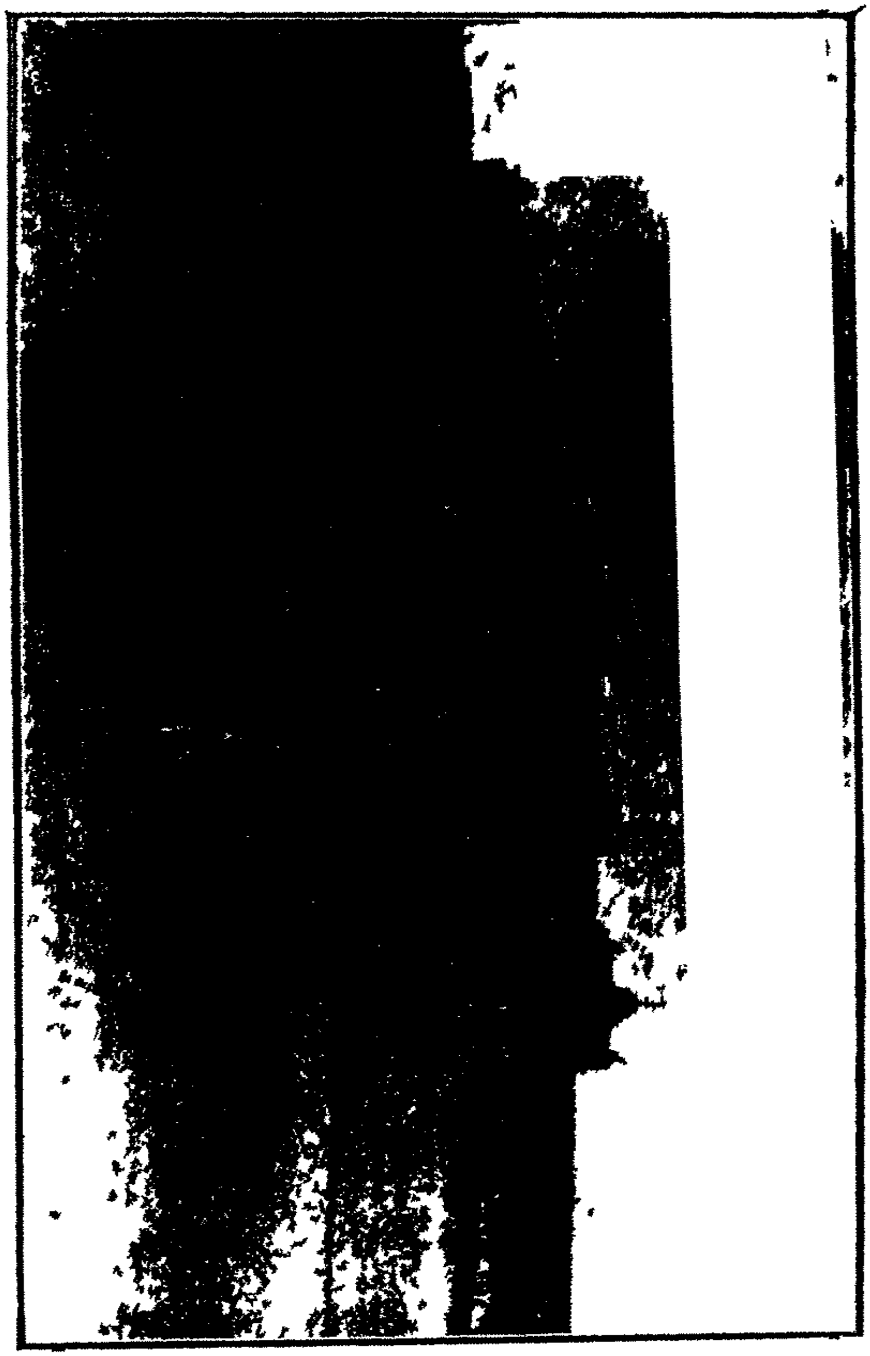
فرنك الا انها اندثرت بكرور الايام . وقال ياقوت في كلامه على الاسكندرية يصف المنارة « وأما المنارة فقد رووا لها أخباراً هائلة وادعوا لها دعاوي عن الصدق عادلة وعن الحق مائلة فهي من باب حدِّث عن البحر ولا حرج واكثرها باطل وتهاويل لا يقبلها الا الجاهل ولقد دخلت الاسكندرية وطفتها فلم أرَ فيها ما يعجب منه الا عموداً واحداً يُعرف الآن بعمود السّواري تجاه باب من ابوابها يعرف بباب الشجرة فانه عظيم جدّاً هائل كأنه المنارة العظيمة وهو قطعة واحدة مدوَّر منتصب على حجر عظيم كالبيت المربع قطعة واحدة ايضاً وعلى رأس العمود حجر آخر مثل الذي في اسفله فهذا يعجز اهل زماننا عن معالجة مثلهِ في قطعهِ من مقطعهِ وجلبه من موضعه ثم نصبه على ذلك الحجر ورفع الآخر الى أعلاه ولو اجتمع عليه اهل الاسكندرية جميعهم فهو يدلُّ على شدة حاملهِ وحكمة ناصبيهِ وعظمة همة الآمر به . اما المنارة فقد شاهدتها في جماعة من العلماء وعاد كل منا متعجباً من تخرُّص الرواة وذلك انما هي بنية مربعة شبيهة بالحصن والصومعة مثل سائر الابنية ولقد رأيت ركناً من أركانها وقد تهدَّم فدهمهُ الملك الصالح رزيك أو غيره من وزراء المصريين واستجدهُ فكان أحكم واتقن واحسن من الذي كان قبله وهو ظاهر فيه كالشامة لان حجارة هذا المستجد احكم واعظم من القديم واحسن وضعاً ورصفاً . واما صفتها التي شاهدتها فانها حصن عالٍ على سنّ جبل مشرف على البحر في طرف جزيرة بارزة في ميناء الاسكندرية بينها وبين البرّ نحو شوط فرس وليس اليها طريق الا في ماء البحر المالح وبلغني انه يخاض من احد جهاته الماء اليها والمنارة مربعة البناء ولها درجة واسعة يمكن الفارس ان يصعدها بفرسه وقد سقفت الدرج بحجارة طوال مركبة على الحائطين المكتنفي الدرجة فيرتقي الى طبقة عالية يشرف منها على البحر بشرفات محيطة بموضع آخر كأنه حصن آخر مربع يرتقى فيه بدرج أخرى الى موضع آخر يشرف منهُ على السطح الاول بشرفات أخر وفي هذا الموضع قبة كأنها قبة الديدبان وليس فيها كما يقال غرف كثيرة ومساكن واسعة يضل فيها الجاهل بل الدرجة مستديرة بشيء كالبئر فارغ . زعموا انه مهلك وانه اذا القي فيه الشيء لا يعرف قراره ولم اختبرهُ . وذكر ابن زولاق ان طول منارة الاسكندرية مائتا ذراع وثلاثون ذراعاً وانها كانت في وسط البلد وانما الماء طفح على ما حولها فاخربه وبقيت هي لكون مكانها كان مشرفاً على غيره . وذكر ابن الاثير ان رأس المنارة سقط سنة ١٨٠ هجرية بزلزلة عظيمة حدثت بمصر . ولما كانت اراضي البلاد المصرية واطية لا تكاد تنكشف عن بعد ثلاثة فراسخ أقام محمد علي المنارة الحالية العجيبة لتهتدي اليها السفن ليلاً . ومن آثار الاسكندرية

القديمة الباقية الى ايامنا هذه العمود المربع المعروف بمسلة فرعون والعمود المستدير المسمى عمود السواري . اما المسلة فهي احدى المسلتين اللتين كانتا قديماً أمام هيكل قيصر وتعرفان بابرتي كليوباطرة وقد اهدتها الحكومة الخديوية الى دولة انكلترا فنقلها الانكليز الى لوندره سنة ١٨٧٧ · وقال الكاهن منتون الذي كان في هيكل هيروبوليس ان المسلتين المذكورتين صنعتا هناك ووضعتا أمام الهيكل مع غيرهما في عهد الملك موريس فرعون الذي جلس على تخت الملك سنة ١٧٣٦ ق . م .

ومن آثار الاسكندرية ايضاً المسلة التي نقلت الى كنيسة القديس يوحنا في رومية والمسلة التي نقلت الى القسطنطينية ووضعت في ميدان جامع السلطان احمد . واما عمود السواري فهو المعروف بعمود بومبيوس والي مصر وقد اقامه تذكاراً لمجد ديوكليتيانوس وطول هـذا العمود مع رأسه ٩٨ قدماً انكليزياً اما طول نفس العمود فهو ٧٣ قدماً ومحيطهُ ٢٨ قدماً و ٨ قراريط وقطر الرأس ١٦ قدماً وقراطين وصناعته بديعة . والى الجهة الشرقية من الاسكندرية على مسافة ٣ ساعات من المدينة محلة الرمل وهي تحتوي على كثير من البيوت الجميلة فان اعيان الاسكندرية يقيمون فيها في فصل الصيف لجودة هوائها . وقد بنى هناك الخديوي اسماعيل سراية بديعـة ومد الى المحلة المذكورة سكة حديدية أنشئت على نفقة شركة مخصوصة

اما سرايات الاسكندرية ومنتزهاتها ومحلاتها العمومية فمنها سراي رأس التين البديعة وتنقسم الى دائرتين كبيرتين يتوسطهما ميدان فسيح كثير الاشجار . والدائرة الاولى من اثمن سرايات العالم واعظمها وابدعها يقيم فيها الخديو للنظر في مصالح البلاد ومهماتها وهي كثيرة الدوائر والقاعات وكلها غاية في الاتقان مبلطة بالمرمر والرخام ومنها ما هو مرصع بالذهب والصدف وخشبهُ من الابنوس واثاثها فاخر ولا سيما القاعة الجميلة التي تقام فيها الاحتفالات الرسمية فان حيطانها مغطاة بحلل المقصب الثمينة وارضها منقوشة بقطع دقيقة من الجوز والابنوس والصدف والبقس . قيل عدّلت اكلافها بعد ما انشأها محمد علي فتبين انها لو بلطت بليرات لـكانت مصاريفها دون مصاريف تلك الاخشاب . واما الدائرة الثانية فهي للحريم ولها باب كبير مكتوب عليه تاريخ بنائها سنة ١٢٤٦ للهجرة وهناك الى جهة المدينة دائرة الضباط والاعوان والى جانب المنارة صف من المدافع وقربها حمـام بحري متقن جداً . ومن سرايات الاسكندرية ايضاً سراية القباري في ناحية القباري وهي من املاك طوسون باشا والسراية المعروفة بنمرو ٣ وهي لطوسون باشا أيضاً وكلاها عظيمتان بديعتان . ومن منتزهات الاسكندرية جنينة النزهة الواقعة على

ضفة المحمودية وتعرف بجنينة باستره . وجنينة محرم بك وهما مرتبتان حسنتان كثيرتا الاشجار . أما ساحة المنشية وتعرف بالساحة العظيمة مرصوفة على شكل بيضي طولها ٥٠٠ ذراع وعرضها ٥٠ ذراعاً وعلى جانبيها طرق واسواق فسيحة يعلوها بيوت جميلة



سراية رأس التين

وفي سنة ١٨٧٣ اقيم في وسط المنشية تمثال لمحمد علي ذكراً لاياديه البيضاء على مصر. أما المحال العمومية فمنها المحل المعروف عينا الصل وهو على رأس الترعة المحمودية وهناك

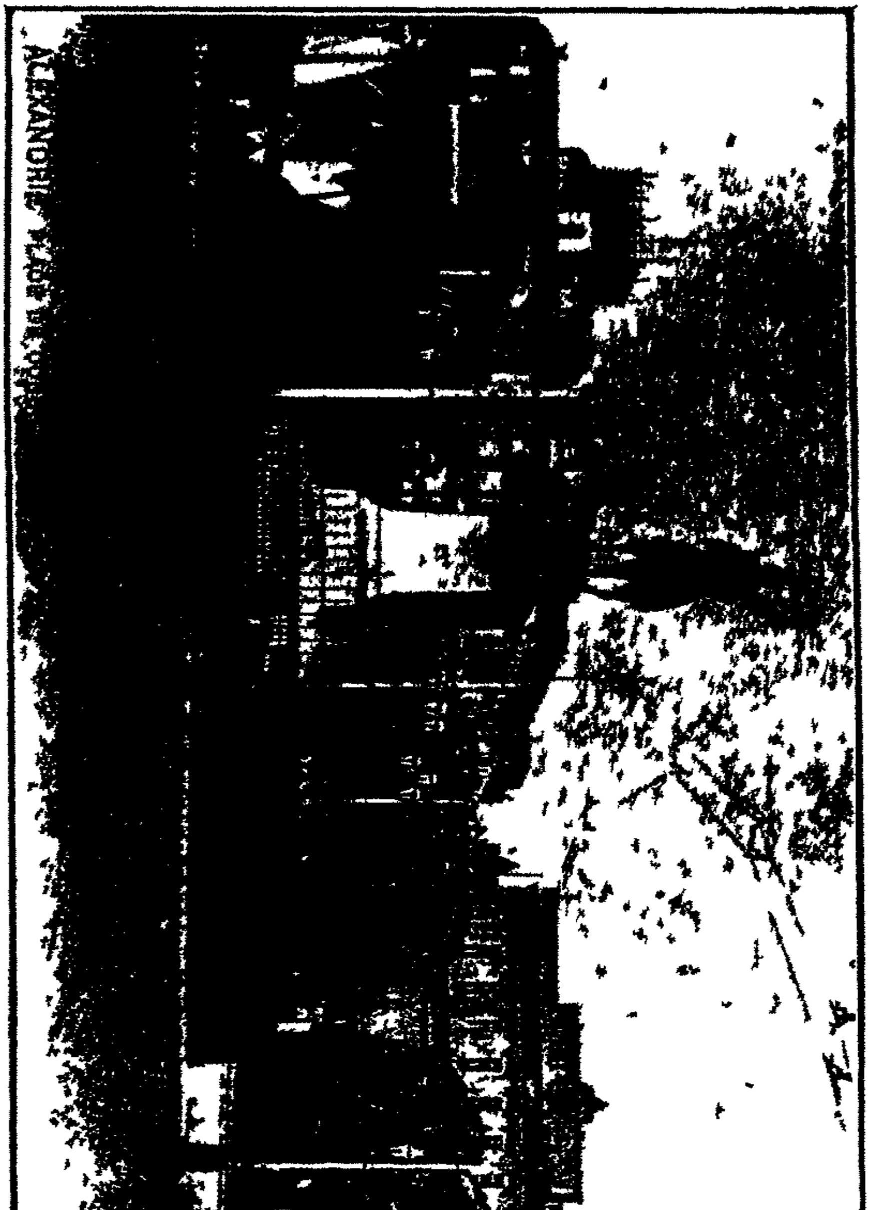
البورس الكبير الذي بناه الخديو لترقية أسباب التجارة وهو نظير أعظم البوارس في اوربا والقهوة المعروفة بقهوة أوربا وهي في اول المنشية من الجهة الشمالية وتحتوي على عرف



ترعة المحمودية

كثيرة لقراءة الجرائد والمباحثات وفي صدرها قاعة جدرانها وسقفها مرايا . ومن المحال المذكورة ايضاً البورس الذي خلف المنشية الى الجهة الشرقيـة وهو يشتمل على قاعة فسيحة تعلق عليها الاعلانات التجارية ويدخل منها بابين الى دار فسيحة وبجانبها رواق

عظيم قائم على اعمدة من رخام وعلى الجانب الاخر قاعة فسيحة فيها محل لتلاوة الجرائد وهناك تجتمع التجار في اكثر الاوقات وفي هذا البورس صورة الخديوي اسماعيل لانه



ميدان المنشية بالاسكندرية

انشىء في ايامهِ . ويطبع في الاسكندرية عدة جرائد باللغة العربية والافرنجية يومية واسبوعية وفيها عدة مدارس ومكاتب وهي كرسي احد البطريركيات الاربع للروم

الارثوذكس . وقد بلغت واردات الاسكندرية سنة ١٨٧١ ٥٦٠ مليوناً و٩٠٠ الف غرش صاغ وبلغت صادراتها ٩٩٩ مليوناً و ٥٠٠ الف غرش صاغ ومن اهم صادراتها القطن وكان الصادر منه في تلك السنة ١٨٤٥٤٥٢ قنطاراً وقيمتها ٦٢٤ مليوناً و ٣٠٠ الف غرش صاغ . أما السكر فبيع منه ٢٥٦٤٦٨ قنطاراً قيمتها ٣٧ مليون غرش وبلغت قيمة الحنطة ٥٥ مليوناً و ٩٠٠ غرش وقيمة الفول ٧٣ مليوناً و ٥٠٠ الف غرش والصمغ ٣٠ مليون غرش وبزر القطن ٩٨ مليوناً و ٣٠٠ الف غرش وسنة ١٨٦٩ أتى الاسكندرية ستة وخمسون الف سائح في الفي سفينة شراعية ودخل ميناها ثمانون الف مسافر في الف سفينة تجارية فضلاً عمن اتوها في المراكب الحربية وسنة ١٨٧١ دخل مرفاها ٢٨٤٩ سفينة تجارية وشراعية محمولها ١٢٦٢٦٠٠ طونولاته ولا تزال الحكومة الخديوية معتنية بهذه المدينة وتصرف الاموال في سبيل تحسينها . وفي سنة ١٨٧٦ شرعت باتمام تبليط شارعين مهمين من شوارعها الا ان فتح ترعة السويس قد اضر قليلاً بتجارتها وحوّل عنها كثير من الصادرات والواردات

« مدارس الاسكندرية »

ينطوي هذا الاسم على اربع مدارس انشئت في الاسكندرية وكانت على مذاهب مختلفة ونهجت مسالك متضادة وهي المدرسة اليونانية والمدرسة الاسرائيلية والمدرسة المسيحية والمدرسة الغنوسطية ولكل من الاولى والرابعة فروع كثيرة

أما المدرسة اليونانية فانشأها أول الملوك اللاغوسية نحو سنة ٢٨٨ ق . م . وبلغت من النجاح اعظمه الى ان ابطلها الامبراطور ثيودوسيوس سنة ٣٩١ للميلاد . وظنَّ قومٌ من المؤرخين ان بطليموس الاول قصد ببناء مدرسة في تلك المدينة القيام باعمال اعظم من اعمال الاسكندر الا ان من تروّى في ما كان من امر تلك المدرسة في بدايتها يتضح لهُ ان المقصود من انشائها كان امراً بسيطاً جداً فان بطليموس كان ممن اذهلتهم احوال الاسكندر وكان يقتدي بهِ في اهوائه ويضرب نقوداً مثل نقوده فاقتفى اثرهُ ايضاً في حبه للآداب والمعارف وكان يحب مجالسة العلماء ويدعوهم الى مجلسهِ من سائر البلدان ويلقي عليهم مسائل علمية وعين لهم منزلاً في قسم من قصرهِ ليتعاطوا فيه اعمالهم الادبية دون غيرها وسماهُ موزيوم ثم جمع مكتبة مؤلفة من كل الكتب التي كانت في بلاد اليونان ومصر وآسيا وجعلها في قصرهِ ليمكنه العلماء من الحصول على كل فائدةٍ ارادها . فصار ذلك الموزيوم عند سقوط المدرسة اليونانية مدرسة ادبية للبلاد اليونانية كافة . على انها لم تكن مدرسة فلسفية كالاكاذيمية والليسيوم في اثينا ولا مدرسة للتعاليم

الادبية والسياسية كمدرسة فيثاغورس ولا مدرسة التنجيم والكهانة كمدرسة بابل ومنف ولا مدرسة للطب كالمدرسة الطبية التي كانت في جوار بعض هياكل اليونان بل كانت مدرسة عامة تحتوي على اسباب كثيرة المنقة والتفنن فنشأ عن المجلس الذي ألفه بطليموس لنفسهِ عمل عظيم نافع اكتسب به هو والذين دخلوا الموزيوم مجداً اثيلاً وفخراً جزيلاً ولم يهمل اللاغوسية ذلك الموزيوم بل عينوا له مداخيل مخصوصة تقوم بمصاريفه . الا ان المؤرخين لم يعرفوا ما هي تلك المداخيل ولا من كان مديراً لها ولا عرفوا ماذا طرأ عليها عند تغيير الدول المصرية . وكان في المدرسة مائدة عامة يبسط عليها الطعام لدائرة المدرسة كلها وكان كثير من الفلاسفة والعلماء يرحلون الى الاسكندرية لزيارتها او للاقامة فيها ولكن لم يعلم المحققون من كان منهم يقيم فيها على نفقة المدرسة . ومنذ تأسست المدرسة المذكورة اقام فيها ابن لاغوس معبداً حتى لا ينفصل الدين عن العلوم والآداب وأقام بها رئيساً ليحفظ فيها النظام وناظراً للمكتبة . وكانت أحوال المدرسة تتقلب بتقلب احوال الاسكندرية وقد جعل لذلك خمسة اعصر كبيرة فالثلثة الاولى منها كانت في عهد اللاغوسية والعصران الاخران في عهد الامبراطورية الرومانية

اما العصر الاول فهو اقصر الاعصر الخمسة ولا ينطوي الا على المدة التي ملك فيها بطليموس سوتر « من سنة ٣٠٤ الى ٣٨٤ ق . م » وهو العصر الذي جرت فيهِ التجارب الاولى . وفيه نبغ اقليدس وكان ذا عقل ثاقب فجعل للمدرسة ادارة منتظمة واخترع في مصر طريقة التعليم . ثم وضع علم الرياضيات ولكنهُ كان صارماً فنفرت منه الناس ولم تقبل عليهِ التلامذة واضطرهُ الامر في حديثٍ جرى لهُ مع الملك الى ان يقول له ان طريقة الملوك ليست من طرق الهندسة . اراد بذلك انها معوجة وكان في موزيوم الاسكندرية في عهد اقليدس فيليتاس الشاعر وديودوروس كرونوس المنطقي والفيلسوفان الشهيران وهما ثيودوروس الجاحد وهيسيغيوس الملقب بيسيثاناتوس وسياسي ادبي وهو ذيمتريوس فاليروس قيل وهو الذي اشار على بطليموس سوتر بانشاء الموزيوم فكان لهُ بذلك فخر عظيم

العصر الثاني وهو ازهى العصور الخمسة وأزهرها وهو المراد اعتيادياً عند ذكر مدرسة الاسكندرية ومدته من عهد بطليموس الثاني « فيلاذلفوس » الى عهد بطليموس السابع « افرجيتس » وذلك عبارة عن ٨٧ سنة من سنة اولها سنة ٢٦٤ آخرها سنة ١١٧ ق . م . ولما جلس بطليموس الثاني على تخت الملك خمد هياج الناس في طلب الفتوحات التي تعودوها في ايام ابيهِ رفيق الاسكندر واخذوا يميلون الى التعمق فى الامور العلمية وتنشرح لها

صدورهم اكثر من الذين سلفوا . ولم يقتصرا « فيلاذلفوس » على جمع الكتب في بلاطه وجمع امور كثيرة تتعلق بعلم المواليد بواسطة قوم من اليونان بل دعا اليه جماعة من المصريين واليهود ليستعين بهم ايضاً على اجراء مقاصده ولم تصل الينا اسماء اليهود الذين اتصلوا به الا اننا نعلم انهم كانوا ٧٢ وهؤلاء ترجموا كتاب العهد القديم « اطلب سبعينية » وأخذت عنهم المدرسة رواياتٍ من التاريخ القديم ومبادىء شرعية وادبية كان اليونان يجهلونها الى ذلك الوقت . وحاول فيلاذلفوس احياء الشعر بعد اندراسه وقام في اعياد باخوس العاباً ومصارعات جابت الى الاسكندرية الجل شعراء تلك الايام واشتهرت اشعارهم أيَّ اشتهار حتى ظن الناس ان بضاعة الشعر التي كسدت في بلاد اليونان برواج الفلسفة وحوادث السياسة سترجع في مصر الى اهميتها السابقة . وبعد ان جدت المدرسة في ميدان الشعر اخذت في درس الآداب وفن التحقيق فلم تلبث ان نجحت في ذلك نجاحاً عظيماً . وكانت تآليف اوميروس قد جمعت بامر بيسترانوس الا انها كانت تشفُّ عن خللٍ كبير فباشرت المدرسة اصلاحها وفي مدة قصيرة صدر منها بهمتها عدة مجموعات متنوعة . فان زينودوتس الافسسي صحح مجموعة اشعار اوميروس ونشرها واصدر بعدهُ ارستوفانوس البيزنطي مجموعة أخرى وقام بعدهما ارسترخوس واصلح مجموعتهما وكان كل من الثلاثة المحققين المذكورين يستميل الناس الى آرائه فصار لهم تلامذة كثيرون وكان لارسترخوس وحدهُ اربعون تلميذاً بل اربعون عالماً يدافعون عن مبادئه ويردون مقالات التابعين كراتس المليسي وكان غراماطيقياً مشهوراً اقامه الملوك الاتالسة في مدرسة برغاموس مناظرة مدرسة اللاغوسيين . وكذلك العلوم الطبيعية والرياضية نجحت ايضاً نجاحاً عظيماً وانشأ ايراتسثينس الكتي في الاسكندرية على الجغرافية والتنجيم وخلفه اعارخيذس وارستيلّس وتيموخاريس وكونون فاكملوا ما قام به واظهر ارستوخوس حركة الارض وجدّ ابرّخوس وابلونيوس البرغي واضع القطاع المخروطي في تكميل ما وضعه اقليدس ووضع فن التشريح كل من راستراتس وهيروفيلس اللذين اقامهما اللاغوسية في المدرسة فكان ذلك توطئة لاختراع فن الطب. ومع ان مدرسة الاسكندرية بلغت اسمى درجات المجد لم تصل فيها الفلسفة الى ما وصلت اليه الفنون المتقدم ذكرها وذلك لان معلميها وهم سترانون وكولوتس وسفيروس ومينيكراتس وساتيروس لم يكونوا من ذوي العقول الثاقبة وكان اكثرهم على مذهب الاكاذيمية الساقطة او على مذهب بيرو وابيقوروس ومن الدجالين والمدّعين القائلين بتفضيل المعرفة الاختيارية او العملية على المعرفة العلمية او النظرية . ثم تغيرت الاحوال وجاء الزمان بالانقلاب الذي يطرأ على الامم الناجحة عند

انتقالها من مذاهب قديمة الى مذاهب حديثة وكان افرجيتس قد خلع اخاهُ عن تخت الملك وقتل ابن اخيه وطرد شقيقته ليتزوج ابنتها وذبح ابنه ليستقر له الملك فلم يتمكن من توطيد سلطته الا بالقساوة والقاء الخوف في قلوب الامة فهرب اهل الاسكندرية من جوره واعتسافه وسقطت مدرستها من اعلى درجات التقدم وامتلأت بلاد اليونان وجزائر البحر المتوسط من المؤلفين والعلماء الذين حملتهم مظالم الملك على الرحيل عن اوطانهم فصار تلاميذ اراستراتس الى ازمير وتلاميذ هيروفيلس الى اللاذقية اما ارسترخوس واتباعهُ فتشتت شملهم وكان تفرق اولئك الفطاحل من اعظم المصائب التي طرأت على العلوم والآداب في الازمان القديمة

العصر الثالث من بطليموس كاكرغتيس الى كليوبطرة وذلك من سنة ١١٧ الى سنة ٢٩ قبل الميلاد . فان الملك الذي انزل بالآداب والعلوم تلك البلية الطامّة ارجع المدرسة رونقها وكان محبًّا للمعارف كاجداده اللاغوسية ومؤلفاً كسلفه فجدَّ في تعويض ما رزئت به العلوم من جراء سوء سياسته فاشترى كتباً كثيرة وكانت اثينا قد اهدت اليه مؤلفات اوريبيذس فسمح باصدار حبوب مصر اليها مكافأة لها على ذلك . ثم استعار منها كتباً اخرى وخسر ما رهنهُ عندها ليتمكن من ابقاء الكتب المذكورة في مكتبته

وكان الاتالسة منذ زمنٍ مديد يسابقون اللاغوسية بنشر الآداب والعلوم وجمع الكتب فعاملهم بطليموس السابع بالقساوة ومنع اخراج البردي من مصر لان القراطيس كانت تؤخذ من اصله ولم يخطر بباله ان الكتب التي يجمعها الاتالسة يكون مصيرها الى مكتبته غير ان منعه خروج البرديّ من بلاده حمل الناس على اختراع رق الغزال . وكان قد نشأ عن محبة اللاغوسية للكتب مساوئ كثيرة من عهد فيلاذلفوس نفسه لان العلماء نشروا رغبة في ارضائهم كتباً ملفقة ونسبوها الى افخل المؤلفين ثم رجعوا الى تلك التجارة القبيحة واذ كانت تأتيهم بالربح وكان الملوك لايدققون في البحث عنها جروا عليها مدة طويلة وشاركهم اليهود في ذلك . ففسدت الآداب بتلك التآليف الفاسدة . الا ان اتعاب بطليموس السابع والمصاريف التي قام بها لم تذهب على غير طائل . فغصَّ الموزيوم بالعلماء كما كان سابقاً ورجعت الدروس فيه الى حالها السابقة ولكن الحركات والقلاقل حالت دون رجوع المدرسة الى رونقها الاول . فانه من عهد كاكرغيتس الى وفاة كليوبطرة كثرت المظالم والفظائع والثورات والقلاقل فلم يتمكن الملوك من الاعتناء بالمدرسة فاخذت في السقوط وكان سقوطها سريعاً ولم يبقَ فيها حينئذ الا غراماطيقيون وآلاتيون وسفسطيون ومعلمو فصاحة ولم تكن التآليف والفوائد الناشئة عنها موازية

المجد الذي بذلهُ كاكرغيتس في سبيل نجاحها

العصر الرابع من سنة ٣٠ . ق . م الى سنة ٣٣٠ بعد الميلاد ثم جاءت فتوحات الرومانيين مدرسة الاسكندرية ببلايا ومصائب كثيرة فانه بينما كان قيصر قاهربومبيوس اخذاً في استمالة كليوبطرة لتثبيت شوكتـه عصى اهالي الاسكندرية فامر بحرق الاسطول المصري الراسي على المرفأ فامتدت النـار الى حي بروخيوم واحترقت مكتبة اللاغوسية . وقد ذهب بعض المؤرخين الى انهُ احترق في تلك النازلة من سبعمائة الى ثمانمائة الف مجلد وان كلاً من مكتبتي بروخيوم وسيرابيوم ذهبتا فريسةً للنار . الا انهُ يستفاد مما ذكره المؤرخون عن حرق الاسكندرية ان الحيّ الذي كان فيه هيكل سيرابيس لم تصل اليه النار وانه لم يحترق بها الا المكتبة القديمة المسماة بالأمّ وكان عدد مجلاتها ٤٠٠ الف مجلد . أما المكتبة المسماة بالابنة فسلمت من النار وذكروا ان عدد مؤلفاتها كان ٣٠٠ الف مجلد . ولذلك لم تكن مدرسة الاسكندرية في حالة الخراب التام عند انتقالها من دولة اليونان الى دولة الرومان . ولم تلبث ان اتاها ذلك الانتقال بنفع عميم فان مرقس انطونيوس اهدى الى كليوبطرة مكتبة الاتالسة وكانت مؤلفة من مائتي الف مجلد . ونهج اوغسطس قيصر منهج مرقس انطونيوس في مساعدة تلك المدرسة . واما الامبراطور كلوديوس الذي كان من المؤرخين فانشأ في الاسكندرية مكتبة جديدة وكانت مكتبة اللاغوسية لم تزل باقية في حي بروخيوم أو في غيره من الاحياء . وذكر استرابون وقد زار مصر بعد احتراق البروخيوم بسنين عديدة ان مداخيل المكتبة كانت على حالها السابقة وان الامبراطورين كانوا يعينون لها روساء كما كان ملوك مصر يفعلون من قبلهم الا انه حال دون رجوع المدرسة الى رونقها الاول موانع شتى منها ان علماءها كانوا يتكلمون بلغة لم تكن لغة ملوك البلاد . وكان الرومانيون يحبون الآداب اليونانية الا انها لم تكن نفس آدابهم . وكان المصريون واهل رومية ايضاً يستغربونها . وبعد ان حاول جماعة من اهل الادب والمؤلفين الاقامة في الاسكندرية والمعيشة فيها رحلوا عنها واقاموا في رومية وحاول بعضهم التأليف في لغة القياصرة

اما المدرسة فبذلت ما بقي لهـا من النشاط للتغلب على تلك المصاعب ورجعت الى التحقيق بهمة عالية فبحثت عن التاليف القديمة والتآليف التي صدرت في عهد بريكليس بحثاً خصوصياً ورتبت جدولاً لمؤلفيها أصح من الاول وعلقت على تلك التآليف شروحات ألذ من الشروحات السابقة وبذلت العناية في التمييز بين لغاتها ودققت كل التدقيق في مراجعة قواعد اللفظ والموسيقى والفصاحة والشعر ثم اجتهدت في ان تجعل للغة التي

اصلحت عليها ما كان للغة آثينا القديمة من الضبط والطلاوة لانها زعمت ان آثينا فقدت اللغة الصحيحة فهذا ما اشتغل به ذيذيموس وثيون وارخيبيوس وجماعة من العلماء اشتهروا باسم ابلونيوس وافرانور وابيون وهفستيون وكلهم غراماطيقيون .اما تيموجينس واسترابون وكلوديوس بطليموس فاكملوا الجغرافية العلمية والسياسية التي الفها ايراتستينس واغاترخيذس واعتنوا باتقانها حتى بلغت اعلى درجات الكمال في الاعصر السالفة وفي كل من بطليمس وديوفنتس علم الهيئة واوصل سورانوس وغاليانوس فن الطب الى درجة استمر فيها مدة عشرة قرون . وقرر بلوتينوس خلف بونامون وامونيوس سكاس وسلف برفيريوس وجمبليك مبادىء جديدة كانت قد انقذت دين الوثنيين من السقوط لو كان انقاذه ممكناً . ورأى انطيوخوس احد فلاسفة الاسكندرية وكان تلميذ فيلون ورئيس الاكاذيمية الخامسة انه لا بد من الرجوع الى مبادىء ثابتة فانتخب ما استحسنهُ من تعاليم الزينون وافلاطون وارسطوطاليس وعلم به في اثينا والاسكندرية ورومية فتبعهُ قوم لقبوا بالاكلكتة واهل المعقول غير ان اناسيذيموس الفيلسوف السكبتيكي قام بعدهُ ودحض تعاليمهُ واقوالهُ في مدرسة الاسكندرية . واما بوتامون الاسكندري فتعمق في مذهب اهل المعقول واختار احسن ما علَّمه أفلاطون وارسطوطاليس وزاد عليه امونيوس سكاس فحاول التآليف بين الدين المسيحي ومذاهب كل من الشرق وبلاد اليونان باتخاذه مذهباً غنوسطياً فلسفياً الا ان بلوتينوس اشهر تلاميذه رفض دين النصارى والغنوسطيين وحاول احياء الفلسفة والنظامات اليونية بمذهب افلاطون فتمسك به كل التمسك وخلطه باسرار تجاوز بها حدود الاعتدال . واقتفى أثره في ذلك تلميذه برفيريوس وجمبليك تلميذ برفيريوس وحاولا ان يجعلا مذهب افلاطون احسن المذاهب واوجهها لسد احتياجات الامم التي فشا بينها مذهب السكبتيكة أي مذهب الريب والكفر . الا ان تعاليم اخرى وطيدة وهي التعاليم المسيحية سدَّت تلك الاحتياجات وابطلت معابد الاقدمين ومدارسهم

العصر الخامس من قسطنطين الى ثيودوسيون وذلك من سنة ٣١٢ الى سنة ٣٩١ للميلاد . وكان بلوتينوس وبرفريوس وجمبليك رؤساء مدرسة الاسكندرية يكرهون الديانة النصرانية ويسعون في ابطالها . فذهب ما كان لمدرسة اللاغوسية من الرونق الادبي والعلمي وصارت مدرسة للجدال والمشاحنات وكان النصارى قد كثروا في الاسكندرية فسلكوا نحو الموزيوم مسلكا جديداً واستعملوا ما كان لهم من النفوذ عند قسطنطين وخلفائه ليحملوهم على ابطال تعليم الفلسفة الوثنية . ويتضح من النظامات الامبراطورية الواردة في قانون ثيودوسيوس ان البلاط البيزنطي شرع باقفال المعابد

والمدارس الوثنية . ولم يقتصر على ترك الموزيوم والسيرابيوم وشأنهما بل كان لهما من اشد المقاومين وقد سمح لهما بمداومة تعاليمهما توقيراً لذكر اللاغوسية وارضاء للاهالي الذين كانوا يتقاطرون اليهما الا انه كان يقابل تآليفهما الصادرة في غير محلها بالازدراء والاحتقار . وفي عهد يوليانوس القصير المدة جاء الاسكندرية كثيرون من محيي الآداب اليونانية فاقاموا فيها واحيوا الفلسفة بعد اندراسها ونبغ في ذلك العهد سيريانوس وكان عازماً على نقل المدرسة الى اثينا الا انه حدث خلاف جديد سقطت به سقوطاً تاماً . وسنة ٣٩١ عزم ثيوفيلس بطريرك الاسكندرية على هدم السيرابيوم وكان اشهر معابد الوثنيين فاهاج الفيلسوف اولمبياس عبدة المعبود سيرابيس فاجتمعوا في الهيكل وصمموا على الدفاع فكتب البطريرك الى الامبراطور يخبره بمقاومتهم فورد منه جواب بهدم الهيكل المذكور وكان الموزيوم باقياً الى ذلك العهد الا ان من المؤرخين من ذكر انه هدم ومنهم من قال ان البطريرك اقتصر على طرد الفلاسفة منه . اما الفيلسوفة ايباتيا فتمكنت بعد ذلك في زمن سكينة وسلام من تعليم الفلسفة اليونانيــة في الاسكندرية ولم يمكن انكالها على ما تصادفه فلسفتها المقترنة بجمالها من القبول عنــد الناس بل كانت تظن ان اعتدال تعليمها يسهل لها بلوغ مقصدها . الا ان الاهالي ثاروا عليها وقتلوها سنة ٤١٦ وربما قام بعدها بالاسكندرية بعض غراماطيقيين وشعراء وفلاسفة من اليونانيين على غير دين النصارى ولـكنهم لم يتمكنوا من الاقامة فيها الا بمراعاة ذلك الدين كل المراعاة وأفل قمر المدرسة اليونانية بعد ان وصلت الى ما وصلت اليــه من العز والمجد وبعد ان استمر الموزيوم مدة سبعة قرون ووضع عدة علوم وزانها بتآليف جمة ولولا تلك التآليف لبقيت علوم اليونان القديمة ناقصة فكانت تآليفها سبباً لتمدن العالم

واما المدرسة اليهودية فربمــا كان انشاؤها قريباً من العهد الذي انشئت فيه المدرسة اليونانية لانه يمكن ان ينسب انشاؤها الى السبعين مترجماً الذين دعاهم ثاني اللاغوسية من فلسطين الى مصر لترجمة العهد القديم الى اللغة اليونانية ومما يوجب الاسف ان أسماء المترجمين المذكورين فقدت عن آخرها والسكوت عنهم دليل على انهم لم يكونوا من اعضاء الموزيوم لانهم يهود . ولذلك لم يذكر الا شيء قليل عن اول علماء هذه المدرســة وقد سماه المؤرخون ارستوبولوس الا ان العصر الذي نبغ فيه غير معروف تماماً ومن المستصعب البحث عن تآليفه والحكم فيها غير ان القدماء قالوا ان محبته لديانة اليهود جعلته يؤمل بانحياز الفلاسفة اليها . فادخل في جلّ كتب الوثنيين اشعاراً من نظمه تحتوي على مبادىء الشريعة الموسوية فصادف سعيه هذا قبولاً لدى يهوديٍ آخر من الاسكندرية

واسمه فيلون نبغ في اوائل الديانة المسيحية فوفق بين دين اليهود ومذهب افلاطون وملا التاريخ المقدس بالتشابيه والاستعارات ليحمل اليونانيين على قبول الدين والتاريخ المذكورين . ومن المعلوم ان يوسيفوس حذا في تاريخ امته حذو فيلون في تقريره عقائدها لتحوز القبول عند اليونانيين والرومانيين ولم يذكر المؤرخون النجاح الذي فاز به كل منهما . وخمل ذكر المدرسة اليهودية في مصر بعد فيلون . وقد ارتأى المحققون ان المدرسة المسيحية التي انشئت في مصر في القرن الاول للميلاد وميل اليهود الى المخاصمة والمقاومة مما سبب سقوط هذه المدرسة

وأما المدرسة المسيحية فكان المقصود الاصلي من انشائها عضد تلك الديانة . ولا يخفى ان الذي بشر بالانجيل في مصر هو القديس مرقس البشير . وذكر المؤرخون ان انيموس كان أسقفاً للاسكندرية في عهد نيرون الا ان الدين المسيحي لقي في الاسكندرية مصاعب لم يلق مثلها في غيرها . وكان لا بد له من التغلب عليها . وسببها ان الشعب كان يكره دين اليهود الذي هو اساس النصرانية وكان علماء الموزيوم الذين كانت في ايديهم ادارة الشعب اقل الناس استعداداً لقبول التعليم مصدرها كمصدر الدين المسيحي فرأى النصارى في الحال انه لا بدّ من اصلاح تعليمهم اصلاحاً خصوصياً في مدينة غاصة بالفلاسفة المحققين فانشأوا مدرسة خصوصية للذين كانوا يريدون ان يتضلعوا من معرفة الآيات الكريمة وفي اواخر القرن الثاني انحاز بنتينوس احد الرواقيين القدماء الى تلك المدرسة التي كانت تناظر الموزيوم في العلوم الادبية والدينية وجعل مديراً لها . ثم اعتنق الفيلسوف اثيناغوراس الاثيني الدين الجديد واستلم ادارة مدرسة خلفه فيها قوم اعظم منه . وفي عهد اكليمنضوس الاسكندري واوريجانوس بلغت تلك المدرسة اسمى درجات المجد وفاقت مدرسة انطاكية مع انه كان فيها علماء كثيوفيلس ولوسيانوس . ووقع عليها في عهد ديوكتيانوس سنة ٣٨٤ للميلاد اضطهاد شديد الا انها رجعت الى رونقها الاول بعد وفاة المضطهد . ومع ان خلفاء اوريجانوس واكليمنضوس كانوا دونهما في الحذق كان لهم ما لسلفيهم من السطوة والنفوذ وهم يعتبرون في الغالب آخر رؤساء المدرسة المسيحية .

وللوقوف على اهمية التعاليم المسيحية في الاسكندرية ينبغي امعان النظر في تآليف القديس بطرس البطريرك وتآليف خلفه القديس اسكندر وتآليف القديس اثناثيوس اشهر اخصام آريوس وتأليف القديس غريغوريوس النزينزي ويوليوس الافريقي المؤرخ المعتبر وايسيخيوس صاحب القاموس اليوناني النفيس والقديس مكاريوس الملقب بالشاب وكان تقياً متقشفاً ونونس انبليس صاحب القصيدة المسماة ذيونيسياكا وذيذيموس معلم تعليم المسيحي

والقديس كيرلوس البطريرك الخطيب الفصيح وسينيسوس تلميذ أيباتيا الشهيرة واسقف بتولمايس في مصر وزد على هؤلاء الفطاحل جماعة من المؤلفين يعتبرون في الغالب وثنيين من حيث نسق تاليفهم مع انهم كانوا على دين النصرانية . وقد اشتهرت هذه المدرسة بالعلم اكثر من كل المدارس النصرانية التي انشئت في القرون الاولى للميلاد لان العلوم كانت لها ضربة لازب لوجودها في وسط الديانة اليهودية مستندة الى الفلسفة والمدارس اليونانية أو المصرية مستندة الى النظامات العمومية وارتقة . آريوس وهي دقيقة تميل اليها القلوب ومقاومين اشداء اقلقوا الكنيسة في ازمانها الاولى وهم الغنوسطيون أي اهل التوليد .

واعتنى علماء تلك المدرسة بان يعرضوا الدين المسيحي على الناس عرضاً تعمقوا في البحث عنه وذلك ما سماه القديس اكليمنضوس الاسكندري الغنوسطية الحقيقية المضادة للغنوسطية الارتقية التي انتحلت هذا الاسم زوراً وبعد ان عرضوا الايمان المسيحي على ذلك المنوال ألفوا تآليف شتى لتفسير التوراة ونبذاً خصوصية في قوعد الاعتقاد والقانون الوجيز المكمل المنسوب الى القديس اثناسيوس . وكل الارتقات المشهورة ولا سيا ارتقات الالفيين وسابيليوس وآريوس ونسطور واوطيخا والغنوسطيين صادفت مقاومين اشداء في المدرسة المسيحية نعم ان اوريجانوس احد اكابر علمائها سقط في بعض اغلاط الا انه نقض اعظم منها كثيراً وله في ذلك مزيد فخر

واما المدرسة الغنوسطية اي مذهب التوليد فانشئت في فلسطين او في سورية عند ظهور الدين المسيحي ولم يكن مذهب الغنوسطيين الا موفقاً بين الدين الجديد والاديان القديمة واقيم له في الاسكندرية مدرسة في اوائل القرن الثاني للميلاد واشهر مؤسسها باسيلنس قبل ان اشتهر القديس بتينوس وكان اشتهاره نحو سنة ١٢٥ للميلاد وخلاصة انه انبثق من الله الذي لا يحده وصف سبعة اصوات وان ثلثمائة وخمسة وستين روحاً مقامة لادارة العالم . وادعى بانه اخذ هذا التعليم عن القديس متى الرسول وعن غلوسيوس احد تلاميذ القديس بطرس الرسول وعرضه على الناس بوجه سرّي فتبعه قوم كثيرون واستمر مذهبه هذا الى اواخر القرن الرابع . وقام بعده فالنتينوس فانشأ بدعة جديدة او مدرسة غنوسطية ثانية فكان تبعتها اكثر من تبعة المدرسة الاولى وانقسمت الى عدة فروع تحت رئاسة هرقليون و بطليموس ومرقس . وفي ذلك العصر نفسه او في العصر الذي بعده انشئت في مصر مدرسة غنوسطية ثالثة وهي مدرسة الاوفينة فانقسمت ايضاً الى عدة فروع منها مدرسة السيثيين والقائينيين وهما شرّ فروعها فانهما كانتا عاملتين على تزييف الكتب المقدسة والعقائد المسيحية وتحريف التاريخ الموحي وافساد العادات وكانت سيرتهما من اقبح السير .

ولما افتتح باب الفساد دخلته مدرسة اخرى وهي مدرسة الكربوكراتية الا ان المدرسة المسيحية والمدرسة اليونانية في الاسكندرية جدتا في ابطال تعليم الغنوسطيين فعاقتا نجاح مدارسهم وآخر واحدة منها انقرضت قبل ان فتح المسلمون مصر بقرن واحد. والاوامر التي اصدرها يوستنيانوس سنة ٥٣٠ هي آخر الاوامر التي صدرت من البلاط البيزانطي ضدا وثنية مصر. اما المدرسة المسيحية فهي التي حلت بها اعظم المصائب في مدينة الاسكندر فان عمرو ابن العاص فتح الاسكندرية سنة ٦٤٠ للميلاد في ايام الخليفة عمر بن الخطاب وقد ذكر رواية شرقية رواها ابن العبري ان عمراً المذكور احرق مكاتب تلك المدينة بعد ان استشار الخليفة في امرها فاحمى بها حمامات المدينة وكانت ٤٠٠٠ حمام مدة ستة اشهر الا ان كثيراً من الحوادث والادلة ينقض تلك الرواية فان قصر بروخيوم او مكتبته كانتا قد حرقتا حين غزا قيصر البلاد المصرية واقفرحي بروخيوم من عهد اوريليانوس ونهب ديوكلتيانوس المدينة . وفي عهد ثيودوسيوس هدم السيرابيوم ولم يذكر المؤرخون ما ناب فوريوم كلوديوس ولكن بعض مجلداتها نجا من الدمار الا ان ثيودوسيوس الثاني نقل الى الولايات كل الكتب النادرة التي كانت في مكاتب الاسكندرية . وفي عهد القديس كيرلوس البطريرك وعهد مرشيانوس حصل في الاسكندرية قلاقل وسجس واستولى عليها العجم في عهد هرقليوس وكان امونيوس ويوحنا فيلويوناس الغراماطيقيان لم يزالا يتفقهان في الاسكندرية مع ما صارت اليه مكاتبها من الدثار قبل ان فتحها عمرو بن العاص بثلاثين سنة فلم يتمكنا من تحقيق ما ذكره بعض المؤرخين من انه كانت يوجد في المكاتب القديمة ٤٠ كتاباً في شرح تعاليم ارسطوطاليس وهذا كله يثبت خراب مكاتب الاسكندرية قبل فتح المسلمين لتلك المدينة ثم بعد سنة ٦٤٠ للميلاد وهي السنة التي فتحت فيها الاسكندرية خمل ذكر المكتبة القديمة ولم يتكلم عنها مؤرخ. الا ان الاسكندرية جعلت بعد ان رزئت بما رزئت به مركزاً للعلوم لان الخليفة المتوكل اقام فيها سنة ٨٤٥ مدرسة ومكتبة اسلاميتين فنجحتا نجاحاً عظيماً ومع ان الترك فتحوا المدينة المذكورة ودمروا قسماً منها سنة ٨٦ ثبت كل من المدرسة والمكتبة الى القرن الثاني عشر

واما بحيرة الاسكندرية فكانت كروماً لامرأة المقوقس تأخذ خراجها خمراً فلما كثر عليها الخمر ضاقت به ذرعاً وطلبت مالاً فقالوا ليس عندنا فارسلت الماء فغرقت الكروم فصارت بحيرة يصاد فيها الحيتان حتى استخرجها الخلفاء بنو العباس فسدوا جسورها وزرعوها ثم صارت بحيرة طولها اقلاع يوم في عرض يوم ويصير اليها الماء من اشتوم في البحر الرومي ويخرج منها الى بحيرة دونها . ويصب فيها خليج من النيل اسمه

الحافر . ثم انقطع الماء عن هذه البحيرة

واما خليج الاسكندرية فقيل ان كايويطرة حفرته حتى يبلغ الماء الاسكندرية وبلطت قاعه بالرخام وهو خليج كبير متسع يتفرع منه عدة ترع تسقى الناس والاراضي وقد عني ملوك مصر بحفره كلما تراكمت فيه الاوحال وبنى بعضهم عليه قناطر وكانت تنشأ على جوانبه البساتين والقرى . وينتفع الناس به نفعاً عظيماً . وكانت تجري فيه المراكب الى ان تعطل فصارت تجري في النيل

واما عين الاسكندرية فقال القزويني هي عين مشهورة فيها نوع من الصدف يطبخ ويؤكل لحمه ويشرب مرقه فيشفي من الجذام وهو يوجد في كل وقت

اول نشأة عرابي

هو في الاصل من ابناء الفلاحين ومولده بقرية هرية رزنة بمديرية الشرقيـة على ميلين من شرقي الزقازيق وهي بلدة قديمة جداً من ضواحي مدينة بوباسطة كرسي مملكة العائلة ٢٢ في زمن شيشاق بن نمرود التي يقال لها الان « تل بسطة » وعشيرته فيها نحو ربع تعدادها وكان والده رحمه الله تعالى شيخاً عليها الى ان توفى في شهر شعبان سنة ١٢٦٤ هـ في زمن الهواء الاصفر وله اربعة اولاد وست بنات . وكان عرابي ثاني اولاده الذكور ثم جاورة الازهر حين بلغ الثانية عشرة من عمره وبعد سنتين رجع الى بلده

وفي زمن سعيد باشا ارتقى الى رتبة قائمقام وظل في هذه الرتبة كل ايام اسماعيل باشا . فلما تولى محمد توفيق باشا احسن اليه برتبة اميرالاي على الالاى الرابع

ولما تشكلت الوزارة الرياضية كان ناظر الجهادية فيها عثمان رفقي باشا وهو جركسي متعصب على العرب وفي جملة مساعيه ان يمنع ترقية المصريين من العسكر العامل في الالايات والاكتفاء بما يستخرج من المدارس الحربية وصدرت اوامره بذلك . ثم اردفها باحالة عبدالعال حلمي بك اميرالاي السودان على ديوان الجهادية ليكون معاوناً وكان عمره اذ ذاك اربعين سنة . ورتب بدله خورشيد نعمان بك من جنسه على الالاي المذكور وكان سنه فوق الستين وهو ضعيف لا يقدر على الحركة العسكرية وامر برفت احمد بك عبد الغفار قائمقام السواري وترتيب شاكر بك طمازه من جنسه بدله وهو طاعن في السن ثم ختمت تلك الاوامر وقدت بدفاتر الجهادية

وكان احمد عرابي قد نال منزلة بين اقرانه لما فطر عليه من الجرأة والغيرة فاراد

الضباط ابناء العرب الاجتماع للاحتجاج على هذه المعاملة فاختاروا ليلة اقيمت فيها وليمة يتلى فيها القرآن بمنزل نجم الدين باشا بمناسبة عودته من الحج في ١٤ صفر سنة ١٢٩٨هـ قال احمد عرابي يروى الوقايع بنفسه وهو من جملة المدعوين

ولما وصلت الى منزل الداعي وجدته عاصاً بالذوات العسكرية وغيرهم فجلست بجوار المرحوم نجيب بك وهو رجل كردي الاصل وبجانبه المرحوم اسماعيل كامل باشا الفريق وهو جركسي الاصل ولكنه يتظاهر بحب العدل والانصاف فاخبرني نجيب بك بما صار وانه نصح لناظر الجهادية بالاعراض عن هذا الاجحاف فلم يصغ لقوله ولذا فهو ساخط ومضطرب ثم اوعز اليه ان يخبرني بما سمع منه . فاخبرني نجيب بك بحقيقة الحال همساً في اذني فقلت لاسماعيل باشا كامل « أحقٌ هذا ؟ » فقال « نعم واعطيت الاوامر الى الكتبة للاجراء على مقتضاها » فقلت له « ان تلك اللقمة كبيرة لا يقوى ناظر الجهادية عثمان رفقي على هضمها » وبعد تناول طعام الوليمة اتاني احد الضباط واخبرني بان كثيراً من الضباط ينتظرونني بمنزلي وفيهم عبد العال بك حلمي وعلي بك فهمي فاسرعت اليهم وهم في هياج عظيم وقد بلغهم صدور اوامر ناظر الجهادية قبل ارسالها اليهم . فلما رأوني اخبروني بما سمعته من المرحوم اسماعيل باشا كامل . فقلت لهم « قد سمعت من غيركم فماذا تريدون » فقالوا « انه ليس ذلك فقط بل انه قد كثر اجتماع الشراكسة بمنزل خسرو باشا الفريق صغيراً وكبيراً وهم يتذاكرون كل ليلة في تاريخ دولة المماليك بحضور عثمان رفقي باشا ويلعنون حربك ويقولون قد حان الوقت لرد بضاعتنا وانهم لا يغلبون من قلة وظنوا انهم قادرون على استخلاص مصر وامتلاكها كما فعل اولئك المماليك » وقد تحققوا ذلك ممن يوثق بخبره . فقلت لهم « وماذا تريدون اذاً ؟ » فقالوا انما جئناك لاخذ رأيك فيما دهمنا من الخطب العظيم» فقلت لهم « أرى ان تطيبوا نفوسكم وتهدئوا روعكم وتعتمدوا على رؤسائكم وتفوضوا لهم النظر في مصالحكم وهم ينتخبون لكم رئيساً منهم يثقون به كل الوثوق ويطيعون امره ويحفظونه بمعاضدتكم » فقالوا كلهم « فوضنا الامر اليك وليس فينا من هو احق به واقدر عليه منك » فقلت لهم « لا .. انظروا غيري وانا اسمع له واطيع وانصح له جهدي » فقالوا «لا نبغي غيرك ولا نثق الا بك » فقلت « فارجعوا لانفسكم فان هذا أمر عصيب لا يسع الحكومة الاّ قتل من يقوم به أو يدعو اليه » فقالوا « نحن نفديك ونفدي الوطن بارواحنا » فقلت لهم « اقسموا لي على ذلك » فاقسموا . وفي الحال كتبت عريضة الى دولة رئيس النظار رياض باشا مقتضاها الشكوى من تعصب عثمان رفقي لبني جنسه والاجحاف بحقوق الوطنيين والتمست فيها اولاً

تشكيل مجلس نواب من نبهاء الامة المصرية تنفيذاً للامر الخديوي الصادر ابان توليته . ثانياً ابلاغ الجيش الى ثمانية عشر الفاً تطبيقاً لمنطوق الفرمان السلطاني . ثالثاً تعديل القوانين العسكرية بحيث تكون كافلة للمساواة بين جميع اصناف الموظفين بصرف النظر عن الاجناس والاديان والمذاهب . رابعاً تعيين ناظراً للجهادية من ابناء البلاد على حسب



القوانين العسكرية الى نايديا . ثم تلوت العريضة هذه على مسامع الجميع فوافقوا كلهم

عليها فامضيتها بامضائي وختمتها بختمي وختم عليها ايضاً علي فهمي بك اميرالاي الحرس الخديوي وعبد العال بك اميرالاي السودان »

ويظن اللورد كرومر أن المحرك الاصلي لهذه الحركة الاميرالاي علي فهمي قومندان الالاي الاول وعليه حراسة القصر الخديو . وكان قد استاء من معاملة الخديوي فاراد ان ينتقم لنفسه فدبر هذه المظاهرة

« فوز العرابيين الاول »

ولما وصلت العريضة الى رياض باشا استخف بها واهمل الرد عليها اياماً وهو يحرض اصحابها على سحبها وهم يرفضون . ثم بلغهم ان عريضتهم كان لها وقع سيء عند الخديوي وحاشيته . ثم ارسل الخديوي يلح على الوزارة بسرعة الرد فقررت سراً محاكمة العارضين في مجلس عسكري بعد ان يقبض عليهم ويسجنوا . لكن ذلك السرّ وصلهم فاستعدوا للدفاع فلما جاء امر النظار بدعوتهم الى قصر النيل دبروا شأنهم مع الالايات وذهبوا الى القصر فجردوهم من السلاح واوقفوهم تحت المحاكمة واذا برجال آلاياتهم قد دخلوا بالقوة وانقذوهم وساروا بهم الى سراي عابدين والحوا في طلب عزل ناظر الجهادية . فلم تجد الحكومة بدًّا من اجابة الطلب لان القوة في غير ايديها . فاجابهم الخديوي بعزل رفقي باشا وتعيين محمود باشا سامي البارودي مكانه وهو من حزبهم و يقال انه هو الذي ابلغهم قرار مجلس النظار بالقبض عليهم

واثر خضوع الحكومة لمطالب الوطنيين هذه المرة تأثيراً شديداً اذ تحقق لديهم انهم اذا اتحدوا وثبتوا لا بد من نيل ما يطلبونه . وقام في نفوسهم حقدٌ على رياض باشا والخديوي وقوّى هذا الاحساس فيهم قنصل فرنسا يومئذ البارون درين لانه كان يحسّن اعمال رجال العسكرية في اعينهم فيزدادون تمرداً وبلغ ذلك الى جناب الخديوي فشكاه الى حكومته فاقالته . وبعث الخديوي الى كبار الضباط وطيب خاطرهم واكد لهم ثقته في رياض باشا وانه سيزيد الرواتب ويساوي بينهم على اختلاف اجناسهم

أما زعماء الثورة فلم يزالوا خائفين من نجاحهم السريع واعتبروا تلك المحاسنة مكيدة من الحكومة لتسكين جاشهم ثم تحتال للاغتيال بهم فاكثروا من التحفظ وشرعوا في عقد المجالس السرية الليلية في منزل احمد عرابي يدعون اليها خواصهم ويتفاوضون في امر اجتماع كلمتهم والوقاية من الاغتيال . فاقترحوا على ديوان الجهادية اقتراحات عديدة تعزز جانبهم فتمكن عرابي بذلك من استمالة قوم العسكرية فطفق يبث افكاره بين الاهلين

من مشايخ العربان وعمد البلاد واعيانها وعلمائها وتجارها استجلاباً لمساعدتهم في مشروعه العائد الى نفعهم على ما زعم وكتب اليهم في ذلك منشورات ثورية ايقاعاً بالوزارة الرياضية

وفي ٢١ جمادى الاولى سنة ١٢٩٨ هـ أو ٢٠ ابريل ١٨٨١ م اصدر الجناب الخديوي باقتراح رياض باشا رئيس النظار امراً عالياً بشأن زيادة المرتبات للضباط والعساكر وتعديل النظامات والقوانين العسكرية بناء على طلب محمود باشا سامي ناظر الجهادية فاحتفل هذا احتفالاً فاخراً في قصر النيل دعا اليه النظار والمفتشين احتفاء بصدور ذلك الامر خطب فيه رياض باشا ومحمود سامي واحمد عرابي ثناء طيباً على مكارم الخديوية لما منحته لجماعة الجهادية من الانعام

وفي ٢٨ شعبان أو ٢٥ يوليو كان الجناب الخديوي في مصيفه في الاسكندرية فاتفق ان عربة احد تجار الاسكندريه صدمت جندياً من الطبجية صدمة قضت عليه فحمله رفقاؤه الى سراي رأس التين وطلبوا الى الخديوي النظر في امره فوعدهم فسكن جاشهم. وبعد بضعة ايام تشكل مجلس حربي اصدر حكمه على النفر الذى حمل رفقاءه على المسير الى رأس التين بالاشغال الشاقة طول حياته . اما رفقاؤه وهم ثمانية فحكم عليهم بثلاث سنوات في السجن وبعد ذلك يرسلون الى السودان انفاراً للجهادية . فبعث عبد العال اميرالاي الفرقة السودانية الى ناظر الجهادية محمود سامى يشكو من قسوة ذلك الحكم فرفع سامى تلك الشكوى الى الخديوي فتكدر واستدعى في الحال الوزراء تلغرافياً الى الاسكندرية فاتوها في ٧ رمضان أو اغسطس وعقدوا برئاسته مجلساً قدم فيه ناظر الجهادية استعفاءه فقبل وعين بدلاً منه داود باشا يكن واستلم الاعمال وعاد النظار الى العاصمة وهدأت الاحوال بحسب الظاهر. والواقع ان الوطنيين ساءهم قبول استعفاء محمود باشا سامي لانهم يعدونه من اكبر انصارهم

« تغير القلوب بين الخديوي والعرابيين »

فاصبح العرابيون ينظرون الى الخديوي ووزرائه بعين الارتياب والحذر . وفي ١٥ شوال او ٩ سبتمبر سنة ١٨٨١م بعد عود الجناب الخديوي من الاسكندريه صدر امر من نظارة الجهادية الى آلاي القلعة بالتوجه الى الاسكندرية وامر آخر الى آلاي الاسكندرية بالمجيء الى المحروسة فاوعز عرابي الى آلاي القلعة ان تلك أوامر لا يقصد بها الا تفريق كلمتهم فصرح ذلك الالاي بعدم امتثاله لما أمر به . وفي خلال ذلك كان عرابي يخاطب الالايات بالاشارة ان يستعدوا للحضور الى ساحة عابدين في أول سبتمبر

ثم ارسل كتابه الى الخديوي والى نظارة الجهادية يخبرهم فيه ان الجيش سيحضر الى سراي عابدين لابداء اقتراحات عادلة تتعلق باصلاح البلاد وكتب مثل ذلك الى قناصل الدول مبنياً ان لا خوف من هذه الحركات على ابناء تابعيتهم لانها متصلة الغاية بالاحوال الداخلية . فارسل الجناب الخديوي وفداً الى زعماء الثورة وهم عرابي وعبد العال واحمد عبد الغفار ينصحهم ان يكفوا عن اجراآتهم وتوجه بنفسه ومعه السيراوكلن كلفن قنصل انكلترا والنظار الى آلاي عابدين واخذ ينصحهم فتظاهروا بالانتصاح وتوزعوا في نوافذ السراي وقاية لها . ثم توجه الجناب الخديوي ورفقاؤه للغرض عينه . فاجابه الجيش هناك «نحن مطيعون لاوامر ولي نعمتنا غير اننا اخبرنا بان المقصود من تسفيرنا اغراقنا عند كوبري كفر الزيات » فقال سموه لمن معه «يظهر ان العساكر مغرورون» ثم تركهم وقصد العباسية لايقاف عرابي فلم يجده وقيل له انه سار في جنده الى عابدين فعاد سموه ايضاً اليها

« مظاهرة ساحة عابدين »

واشار عليه كلفن ان يبقى في الساحة ويدعو عرابي اليه ويأمره بالترجل ففعل فسأله عن الغرض من هذا الاجتماع فاجابه انه جاء يطلب اموراً عادلة فقال ما هي ؟ فاجاب «اسقاط الوزارة وتشكيل مجلس النواب وزيادة عدد الجيش والتصديق على قانون العسكرية الجديد

قال الخديوي « كل هذه الطلبات ليست من خصائص العسكرية »

فكف عرابي واشارت القناصل على الخديوي ان ينقلب الى داخل

ثم قال قنصل انكلترا الى عرابي بالنيابة عن الجناب الخديوي « ان اسقاط الوزارة من خصائص الخديوي وطلب تشكيل مجلس النواب من متعلقات الامة ولا وجه لزيادة الجيش لان البلاد في طمأنينة فضلاً عن ان مالية مصر لا تساعد على ذلك اما التصديق على القانون فسينفذ بعد اطلاع الوزراء عليه »

فاجاب عرابي « اعلم ياحضرة القنصل ان طلباتي المتعلقة بالاهلين لم اقدم عليها الا لانهم انابوني بتنفيذها بواسطة هؤلاء العساكر لانهم اخوتهم واولادهم فهم القوة التي ينفذ بها كل ما يعود على الوطن بالمنفعة . واعلم اننا لا نتنازل عن هذه الطلبات ولا نبرح هذا المكان ما لم تنفذ »

قال القنصل « اذاً تريد تنفيذ اقتراحاتك بالقوة الامر الذي يخشى منه ضياع بلادكم »

قال عرابي « ذلك لا يكون ومن ذا الذي ينازعنا في اصلاح داخليتنا ؟ فاعلم أننا نقاومه أشد المقاومة الى ان نفنى عن آخرنا »

القنصل — « وأين هذه القوة التي ستقاوم بها »

عرابي — «في وسعي أن أحشد في زمن يسير مليوناً من العساكر طوع ارادتي »

القنصل — « وماذا تفعل اذا لم تنل ما طلبت »

عرابي — « اقول كلمة ثانية »

القنصل — « ما هي »

عرابي — « لا اقولها الا عند القنوط »

ثم انقطعت المخابرات بين الفريقين نحواً من ثلاث ساعات تداول القناصل والخديوي في اثنائها داخل السراى واستقر الرأي على اجابة طلبات عرابى وانفاذها تدريجياً لان بعضها يحتاج لمخابرة الباب العالي

فاصر عرابي على تنزيل الوزارة قبل انصرافه فنزلت واستدعى شريف باشا وبعد التيا والتي قبل بان يشكل وزارة جديدة بشرط أن يتعهد له رؤساء الحزب العسكري بالامتثال لاوامره وان يقدم عمد البلاد ضمانة على ذلك فحصل وتشكلت الوزارة وجعل محمود سامى ناظراً للجهادية . فاوعز شريف باشا الي عرابي ان يتوجه بالآلاى الى رأس الوادي في مديرية الشرقية والى عبدالعال أن يسير بالآلاى الي دمياط فامتثلا وسارا الى حيث أمرا باحتفال عظيم وخطب عبدالله نديم محرر جريدة الطائف وحسن الشمسي محرر جريدة المفيد في المحطة خطاباً هنأوا بها الحزب الوطني على فوزه

هذه الثورة العسكرية الثانية اذا اعتبرنا ثورة الضباط في أيام اسماعيل باشا الاولى وكل منها انقضت باسقاط الوزارة أو بعزل وزير كبير

ولما استقر عرابي في رأس الوادى جعل يجول في انحاء المديرية يبث مباديه في نفوس عمد البلاد ومشائخ العربان فاستدعته الحكومة الى العاصمة وعرضت عليه رتبة لواء ومنصب وكيل نظارة الجهادية فقبل الثانية ورفض الاولي ليبقى الآلاى في عهدته ولما استوى على منصبه الجديد جعل يعقد المحافل في منزله علانية وتوسط بالعفو عن حسن موسى العقاد احد تجار المحروسة وكان مبعداً في السودان . فاجابه الجناب الخديوي الى ذلك ثم سعى في عزل الشيخ العباسي من مشيخة الاسلام واستبداله بالشيخ الامبابي

وفي ٢٨ شوال سنة ١٢٩٨ هـ (٢٢ سبتمبر سنة ١٨٨١ م) صدقت الحكومة

المصرية على القوانين العسكرية الجديدة وهي من ضمن طلبات الجهادية يوم حادثة عابدين تحتوي على قانون الاجازات العسكرية البرية والبحرية وقانون المستودعين وقانون معاشات الجهادية البرية والبحرية وفروعها وقانون القواعد الاساسية في النظامات العسكرية وقانون الترقي وقانون الضمائم والامتيازات والاعانة العسكرية . وبعد التصديق عليها جاء الى شريف باشا وفد جهادي وقدموا له الشكر على اعتنائه بمطالبهم وبينوا ارتياحهم الى وزارته واكدوا له اخلاصهم

وفي ١١ ذي القعدة أو ٤ اكتوبر من تلك السنة صدر الامر العالي باعتماد اللائحة في انتخاب مجلس النواب بناء على تقرير رفع الى شريف باشا مذيلا بالف وسمائة توقع يتضمن طلب تشكيل المجلس النيابي ومن مقتضى تلك اللائحة ان يكون النواب واحداً أو اثنين من كل مديرية و٣ من مصر و٢ من الاسكندرية وواحداً من دمياط على شروط مذكورة في اللائحة . ووزعت نظارة الداخلية منشورات بشأن ذلك الى المديريات

« مصر والدولة العثمانية »

لا يخفى ان مصر نالت امتيازها واستقلت بادارتها وما برحت الدولة منذ منحت ذلك الامتياز وهي تتحين الفرص لارجاع سيطرتها الى وادي النيل وكان من جملة مطالب العرابيين تشكيهم من النفوذ الاجنبي بمصر وامتياز الاجانب على الوطنيين من كل وجه وكتب عرابي الى الاستانة يشكو ذلك الى السلطان وهو يومئذ السلطان عبد الحميد وكان قد أخذ في مطاردة الاحرار طلاب الدستور بعد ان قلب دستورهم واصبح لفظ الدستور يرعبه

فلما جاءته شكوى العرابيين من الاجانب وجد باباً للمداخلة بشؤون مصر لكنه يعلم ان من جملة مطالبهم الدستور ومجلس النواب وهو يكره الدستور واسمه فكيف يقبل ان يعلن في بعض ولاياته ؟ . فضلاً عن الاشاعات التي كانت تتناقل يومئذ عن رغبة العرب في احياء دولتهم وخلافتهم في مصر وسوريا . فاول خاطر بدا للسلطان ان يرسل جنداً عثمانياً يحتل وادي النيل بحجة اخماد الثورة . وامر باعداد الحملة في سبتمبر سنة ١٨٨١ ولكن مصر تحت المراقبة الاجنبية فلا يسهل على السلطان احتلالها . وكانت سياسة فرنسا على الخصوص مقاومة كل توسط عثماني بشؤون مصر . اما انكلترا فلم تكن ترى بأساً من ان يرسل السلطان قائداً عثمانياً يتوسط في حل ذلك المشكل. فاحتجت فرنسا

بان ذلك قد يقود الى احتلال عسكري . وفرنسا تعارض بارسال جند عثماني . فاكتفى الباب العالي بارسال مندوب ينوب عنه بحجة حقه بالسيادة على مصر فارسل رجلين هما فؤاد بك وعلي نظامي باشا فوصلا الاسكندرية في ٦ اكتوبر سنة ١٨٨١ م

فاحتجت انكلترا وفرنسا علي ذلك وامرتا المراقبين في مصر ان يستقبلوهما بالترحاب ويمنعاهما من كل مداخلة سياسية . ولما بلغ الخديوي وصول المندوبين استغربه وسأل وكيلي انكلترا وفرنسا عن السبب فاجابا انهما لا يعلمان . على ان الدولتين انكلترا وفرنسا ألحتا على الباب العالي ان يقصر زمن تلك الزيارة على قدر الامكان . وغاية ما أتاه المندوبان انهم استعرضا الجند وخطب علي نظامي باشا في الضباط يذكرهم بان الجناب العالي نائب جلالة السلطان بمصر وان من يعصى الخديوي يعصى اوامر الخليفة.

وعادت الدولتان الى طلب خروج المندوبين حالاً فسافرا في ٢٠ اكتوبر . وعادت الدولتان الى التفكير في ملافاة ما يخشى وقوعه في مصر . وأظهر الخديوي بعد حادثة ٩ سبتمبر ريباً في الجند وضباطه وانه لا يرى سبيلا الى الامن الا باخضاع الجيش . وبلغ ذلك العرابيين فاتسع الخرق بين الطرفين

« مجلس النواب المصري »

وأراد شريف باشا رتق هذا الخرق بسياسة وأسلوب فرأى ان يعقد مجلس النواب ويفوض اليه النظر في مطالب الامة وأعضاء نوابها فينتقل النفوذ من الجيش اليهم فتتوازن القوى . فصدر أمر عالي في ٨ اكتوبر بعقد مجلس النواب في ٢٣ دسمبر وتم انتخاب النواب على لائحة اسماعيل باشا التي وضعها سنة ١٨٦٦

فكان مؤلفاً من اثنين وثمانين عضواً اقيم منهم المرحوم سلطان باشا رئيساً وعبد الله باشا فكري رئيساً للكتبة وعدت قاعة المجلس في ديوان الاشغال لتكون مقر انعقاده . وحضر تلك الجلسة الجناب الخديوي وقال المقالة الافتتاحية بين فيها شدة رغبته في تأليف ذلك المجلس وتنشيطه . وقال انه يرجو ان يكون مساعداً له في نشر العلوم والمعارف بين افراد الامة مخلصاً في خدمة مصالحها . وحضر تلك الجلسة ايضاً جميع الوزراء ورجال الحكومة فتكلم كل منهم حسب مقتضى المقام. ثم نظر المجلس في بعض الامور الداخلية وارفضت الجلسة . وعكف مجلس شورى النواب على الاهتمام بشؤونه فرتب اقلامه وانتخب رؤسائه ثم وجه التفاته على الخصوص الى اللائحة الاساسية الجديدة التي كان قد وعد مجلس النظار بارسالها اليه لينظر فيها لان مجلس النواب

افتتح بمقتضى لائحة اسماعيل

وما لبث شريف باشا ان رأى النواب والجند اتحدا وتكاتفا وانقضت سنة ١٨٨١ والامر والنهي بمصر لعرابي وحزبه وصارت الجرائد اذا ذكرته لقبته بالقاب الامراء وكبار الحكام الفاتحين مع ان الحكومة كانت قد اصدرت قانوناً للمطبوعات تقيد به اقلام الكتاب

« انكلترا وفرنسا »

وعادت الدولتان الى المباحثة في الطريقة المؤدية الى سلامة القطر وصيانة حقوق الاجانب فيه اذا اتقدت شعلة الثورة . ووافق ذلك افضاء وزارة فرنسا الى غمبتا الشهير فوافق رأيه رأي انكلترا

فاعلنت الدولتان انهما لا تسمحان بحركة تؤدي الى تغيير حالة مصر السياسية واتفقتا على احتلال مختلط من الجندين الانكليزي والفرنساوي يؤتى به الى مصر عند الحاجة واعلنتا الخديوي بذلك بمذكرة مؤرخة في يناير سنة ١٨٨٢ بعثتا بها الى وكيليهما

وصلت هذه المذكرة الى مصر في ٢٦ ديسمبر بعد ان فتح مجلس النواب بحضور الجناب الخديوي وتلا خطابه الافتتاحي كما تقدم . فلما علم بعزم الدولتين على نصرته اجاب شاكراً في ٦ يناير . فاثرت هذه اللائحة في النفوس تأثيراً عظيماً واضطرب منها الجند فاجتمعوا في سراي قصر النيل للمذاكرة في مضمونها فرابهم امور كثيرة وايقنوا ان المراد منها مزيد المداخلة وجعل البلاد تحت حماية فرنسا وانكلترا . ثم وفد عليهم ناظر الجهادية «محمود سامى» ففوضوا الرأى اليه فسكن جاشهم وطيب انفسهم وتوجه بعد ذلك الى النظار وفاوضهم في الامر وابلغهم انفعال العساكر من هذه اللائحة ثم سار معهم الى الخديوي فبسطوا لديه الامر والرأي والتمسوا المداركة بما يذهب الآثار التي نشأت عن اللائحة المذكورة . فاستقر الرأي على اشعار الباب العالي بها مع الملاحظة بانه لا حاجة لقبول مضمونها فسكنت الخواطر بذلك واطمأنت النفوس . واصبحت القوات العاملة فى مصر حزبين : (١) الحكومة يعضدها المراقبان (٢) النواب يعضدهم الجند

وكانت الميزانية التي لا بد من عرضها على مجلس النواب للمصادقة عليها مؤلفة من قسمين الاول الايرادات التي تخصصت لوفاء الدين والثاني النظر في سائر الايرادات . فلما اجتمع مجلس النواب في ٢ يناير سنة ١٨٨٢ م وفد شريف باشا على المجلس لتقديم اللائحة

الاساسية الجديدة التي أعدها له فقدمها وخطب في ذلك خطاباً اثر في اذهان النواب حق النظر في القوانين والنفقات العمومية وان لا ينفذ قانون ولا يعتبر نظام ما لم يصادق عليه في مجلسهم مع الحرية التامة لهم في ابداء آرائهم . فتعينت لجنة من اعضاء المجلس لمراجعة هذه اللائحة . وبعد الاجتماع مرات عديدة قررت اكثر بنود اللائحة ووقع الخلاف بين النواب والنظار في شأن ما يتعلق منها بالميزانية

وفي ٢٧ صفر من تلك السنة اعاد النواب اللائحة المذكورة الى النظار بعد ان بينوا ما يريدون تعديله فيها . فرأى النظار ان يغيروا شيئاً من تعديلات النواب فلم يقبل اولئك واصروا الا تنفيذ تعديل لجنتهم . وفي ١١ ربيع اول سنة ١٢٩٩ هـ (٣١ يناير ١٨٨٢ م) اعاد النظار اللائحة الى النواب مرفوقة بافادة مفادها ان وكيلي الدولتين فرنسا وانكلترا لا يريان حقاً لمجلس النواب في تقرير الميزانية ولكنهما مع ذلك يقبلان المخابرة في هذا الشأن بشرط ان يستقر الاتفاق بين النواب والحكومة على سائر بنود اللائحة . وبناء على ذلك تطلب الحكومة من النواب تصديقهم على اللائحة مع اغفال ما يتعلق بالميزانية لبينما يعطي النواب رأيهم النهائي فيه . فنظر النواب في تلك الافادة عدة ساعات فقرروا احالتها الى اللجنة التي كانت مكلفة بتنقيح اللائحة وطلبوا اليها اعادة النظر في التعديلات التي ادخلها مجلس النظار فصدقت على بعضها ورفضت البعض الآخر وأدخلت على البند المتعلق بالميزانية تعديلاً على مقتضى ما ارادت . وقررت في الوقت نفسه عدم قبول توسط القنصلين في ذلك الامر

وفي يوم الخميس ١٣ ربيع اول (٢ فبراير) سارت لجنة مؤلفة من ١٥ نائباً الى الجناب الخديوي يطلبون تنفيذ ما قرروه أو استعفاء الوزارة . فوعدهم سموه الى صباح السبت وانصرفوا فتقابل مع شريف باشا بحضور القنصلين فاصر شريف باشا على رأيه واستعفى للحال . فاستدعى الجناب الخديوي لجنة النواب وكلفها ان تختار رئيساً للوزارة فقالوا ان ذلك من حقوق الجناب الخديوي فألح عليهم فامتنعوا . ولكنهم قالوا نريد وزارة تنفذ لائحتنا فاختار لهم محمود باشا سامي وقلده منصب الوزارة وعهد اليه تشكيل وزارة جديدة . فشكلها وجعل احمد اعرابي ناظراً للجهادية . فسر الحزب الوطني كل السرور ووردت لهم التهاني من سائر انحاء القطر من وطنيين واجانب واقام النواب احتفالاً لفوزهم . وفي ١٥ ربيع اول او ٤ فبراير اجتمع ضباط الجهادية من رتبة الصاغقول اغاسي فما فوق ومثلوا بين يدي الجناب الخديوي لاظهار الطاعة فشكرهم سموه وخاطبهم بما شف عن حبه لاصلاح البلاد . وفي ١٩ ربيع اول حضر محمود سامي الى مجلس

النظار فقوبل بالتعظيم والتكريم وسر النواب بنفوذ رأيهم فخطب فيهم ونشطهم واقر لهم على اللائحة كما عدلوها . فلما علم الناس بالتصديق على لائحة النواب اقاموا الاحتفالات في مصر والاسكندرية سروراً بفوز الحزب الوطني واصبح الجهاديون القوة المتسلطة في البلاد واليهم توجه الثناء لان تلك المنى قد ادركت بمساعيهم

ولما جلس عرابي على مسند نظارة الحربية والبحرية احسن عليه وعلى عبد العال برتبة لوا « باشا » ثم سعى في ترقية كثيرين من رفقائه الضباط وقرر قانون الضمائم والمعاشات بصفة جمعت القلوب على ولائه . وعمد الى التخلص من الحزب الشركسي الذي كان لا يزال متخللاً الجهادية فشكل لجنة لفرز الضباط المستودعين ففرزت نحو السمائة اكثرهم من الاتراك والشراكسة فاصبحت الجهادية وطنية محضة . وذكرت جرائد اوربا اذ ذاك ان الحزب الوطني وفي مقدمته عرابي كان يهدد مجلس النواب ويتوعده بالسوء اذا لم يسر على غرضه . فنشر رئيس المجلس المذكور في الجريدة الرسمية ما ينفي تلك التهمة . ثم تخصصت جريدة الطائف لنشر محاضر مجلس النواب والتكلم بافكار اعضائه والدفاع عنهم . وفي اواسط ربيع آخر او مارس استعفى بلينيار احد المراقبين الماليين فعين بدلاً منه الموسيو بريديف . وفي ٦ جمادى الاولى سنة ١٢٩٩ هـ او ٢٥ مارس سنة ١٨٨٢ م انفض مجلس النواب من اعماله لتلك السنة وقد قرر فيها (١) القانون الاساسي (٢) لائحة الداخلية (٣) لائحة الانتخاب (٤) امور اخرى مهمة . وقد تقرر في لائحة الانتخاب ثبوت حق الانتخاب والنيابة معاً لاي من كان من رعايا الحكومة سواء كان مولوداً في القطر المصري أو مقيماً فيه منذ عشر سنين . ولما ودع النواب الجناب الخديوي سلم سموه كلاً منهم أمراً مؤذناً بتعيينه عضواً في المجلس المشار اليه الى خمس سنوات

« استفحال الثورة »

فتمكن الارتباط بذلك بين الجهادية والنواب واضيف اليهما الوزارة لانها وطنية ايضاً فازدادت مشاكل الخديوي والمراقبين وازدادوا اعتقاداً بوجوب احتلال القطر بجند مختلط من الفرنساويين والانكليز . وانكلترا ترى في ذلك باعثاً على سوء ظن الدول الاخرى وتفضل صرف هذا المشكل باحتلال تركي بشروط لا يخشى معها رجوع النفوذ العثماني

على ان العثمانيين كانوا يرون في استفحال امر الوطنيين على الخديوي فائدة لهم وربما ساعدوا على ذلك تحت طي الخفاء املاً باسترجاع مصر الى حوزتهم . فلا غرو

اذا تمسك الوطنيون بمطالبهم واتحد في ذلك العسكر والنواب والوزارة . وقد زاد تمسكاً بها اغراء بعض المتطرفين من الافرنج فقدكان منهم جماعة يحسنون تلك الثورة ويطرون القائمين بها ويبشرونهم باستقلال مجيد وأشهرهؤلاء المغرورين الفريد بلانت الانكليزي

فلا غرو بعد ذلك اذا تهور الوطنيون في مطالبهم وتصوروا في انفسهم القدرة على كل شيء فاغلوا أيدي المراقبين ونبذوا سلطة الخديوي واحتقروا الافرنج فعمّ الخوف انحاء القطر وسادت الفوضى وضاعت سلطة المديرين

وهم في ذلك نهض الباب العالي يقيم الحجة على لائحة الدولتين القاضية باتحادهما في مسألة مصر واحتلالها عند الاقتضاء وخاطب الدول أخيراً بذلك فاجابت روسيا والنمسا والمانيا وايطاليا انهن يرغبن في بقاء مصرعلى حالتها السياسية تحت رعاية السلطان وسمّنه في هذا الجواب « سوز رين — Suzerain » ومعنى ذلك في اصطلاح السياسة ان يكون للسلطان السيادة الاسمية على مصر وهو يريد ان يسمى سوفرين Soveregn أي صاحب السيادة الفعلية . وعند التحقيق يتضح ان السيادة على مصر أقرب الى هذا اللقب مما الى ذاك . لانه صاحب الحق الرسمي في خلع الخديويين وتوليتهم ولا يقدر صاحب اللقب الاول على ذلك فالسلطان « سوزرين » على بلغاريا لانه لا يقدر ان يولي أميرها أو يعزله ولكنه سوفرين على مصر

وتغيرت وزارة فرنسا في أثناء ذلك وتولى حكومتها « دي فريسينه » بدلا من غمبتا وهو يخالفه في سياسته بمصر فلا يرى احتلالها بجند مختلط وعرض على انكلترا رأيه في حل المسألة المصرية بخلع الخديوي وتولية حليم باشا بشرط ان لا يزداد نفوذ العثمانيين فرفضت انكلترا هذا الرأي

« مشكل جديد »

قد رأيت ان احمد عرابي رقى كثيرين من الضباط ابناء العرب واضطهد الاتراك والشراكسة وامر بنقلهم الى السودان فبلغه انهم يكيدون له ويتآمرون على قتله فأمر بالقبض على جماعة كبيرة منهم وفيهم عثمان باشا رفقي ناظر الحربية السابق وحاكموهم بمجلس حربي فصدر الحكم على اربعين منهم بالنفي المؤبد الى أقصى السودان . فتولدت مشكلة جديدة لان رفقي باشا حائز على رتبة فريق من السلطان وله وحده حق الحكم في هذا الشأن ووافق الخديوي على ذلك فاغضب وزراءه وطال الاخذ

والرد في المسألة ثم تقرر تعديل ذلك الحكم بالنفي بدون تعيين السودان او غيرها . فغضب العرابيون والوزارة الآن منهم فبعثت تستقدم النواب لتشكو اليهم تصرف الخديوي وانه يضيع امتيازات مصر بدون ان يشاور وزراءه وقد أصروا عزمهم على خلع الخديوي واخراج اسرته وتولية محمود باشا سامي حاكماً على مصر

فاجتمع النواب من انحاء القطر وحاولوا تسوية الخلاف عبثاً فتعينت لجنة في ٢٥ جمادى الآخرة سنة ١٢٩٩ هـ او ١٤ مايو ١٨٨٢م لتعرض على سموه قبول الاقتراح بشرط ان ينزل رئيس النظار فقط وان يجعل مكانه مصطفى باشا فهمي . فتوجهوا وعرضوا ذلك على سموه فقبل بعد التردد . فساروا الى مصطفى باشا يسألونه اذا كان يقبل تلك الرئاسة فأبى . فعادت المسألة الى مركزها الاول بل زادت تجسما فوقفت حركة العمال وباتت العيون شاخصة الى ما سيكون . واجتهد سلطان باشا في تسوية ذلك الخلاف بكل طريقة ممكنة وساعده ناظر المعارف فلم ينجح . وهم في ذلك ورد تلغراف من لندن ينبيء بصدور الامر الى الاسطول الانكليزي الراسي في بحر المانش ان يتأهب ليسافر في ٢٨ مايو الى البحر المتوسط . فأوجس الناس خيفة

وكان الموسيو دي فريسينه قد عاد الى مخابرة انكلترا في أيهما افضل لمصلحة مصر الاحتلال الفرنساوي الانكليزي او التركي . وتقرر ارسال العمارتين الى مياه الاسكندرية وان يطلب من الباب العالي التوقف عن المداخلة الا اذا دعته الدولتان المتحدتان الى ارسال جند عثماني . وكان رأي فرنسا ان الدولتين اذا رأتا حاجة الى الاحتلال العسكري تطلبا الى السلطان ان يرسل جنداً عثمانياً للاحتلال بشروط معينة

ولما بلغ السلطان عزم الدولتين على ارسال اسطوليهما الى المياه المصرية غضب ورفع احتجاجه الى الدول ولكن ذلك لم يقف في طريق الاساطيل

ففي مساء الجمعة غرة رجب او ١٩ مايو سنة ١٨٨٢ وردت على مينا الاسكندرية دارعة انكليزية وفي الصباح التالي دارعتان اخريان وثلاث دوارع فرنساوية فاطلقت المدافع للسلام كالعادة . ثم جعلت البواخر ترد الى ذلك الثغر حتى تكامل الاسطولان ولم يكن معهما اسطول عثماني . فكثر تقول الناس في سبب قدوم هذه العمارات على هذه الصورة . ثم أشيع ان قدومها كان بوفاق مع الباب العالي وبارتياح الدول عموماً بشرط ان تسرع بعد انهاء المشاكل الى الانسحاب

وفي ٧ رجب او ١٥ مايو من تلك السنة قدم قنصلا انكلترا وفرنسا بلاغاً نهائياً من ده لتسمه تصلنا فيه سقوط الوزارة واخراج عرابي من القطر المصري بان

تضمنا له حفظ رتبه ورواتبه ونياشينه وابعاد عبد العال حلمي وعلي فهمي الى الارياف في جهات لا يخرجان منها مع حفظ رتبهما ورواتبهما ونياشينهما وان الدولتين عازمتان على تنفيذ كل ذلك . وهما تكلفان الجناب الخديوي ان يصدر عفواً عاماً عن الذين لهم دخل في المسألة . فرفض النظار هذا البلاغ ولم يجيبوا عليه بدعوى « ان لا علاقة للدول الاوربية معنا فذا شئن فليخابرن الاستانة اما نحن فنحن مستعدون للمقاومة » فاخذ سلطان باشا يسعى في التوفيق فخبط مسعاه . وفي ٨ رجب او ٢٦ مايو استعفت الوزارة محتجة على بلاغ الدولتين وطلباتهما فكلف شريف باشا بتشكيل وزارة جديدة فأبى وأصر على الاباءة فأطلعه قنصل فرنسا على تلغراف ورد اليه من وزارة فرنسا هذا نصه :

الامل ان يقبل شريف باشا رئاسة الوزارة واكدوا له اننا نعضده ونؤيده بكل جهدنا » فلم يقنعه ذلك وأصر على الرفض

ثم عقدت جلسة عند الجناب الخديوي حضرها بعض رؤساء الجهادية وفي مقدمتهم طلبه عصمت فقال شريف باشا انه يقبل ان يشكل وزارة جديدة بشرط ان تنفذ الجهادية مآل طلبات الدولتين فقال طلبة « نحن مطيعون انما يستحيل علينا تنفيذها ولا حق للدولتين بطلب ذلك لان هذه المسائل من اختصاص الباب العالي » قال ذلك وخرج فتبعه الضباط . وبتاريخه ورد تلغراف من رأس التين بالاسكندرية ان العساكر هناك لا يقبلون غير عرابي ناظراً عليهم وانهم اذا مضت ١٢ ساعة ولم يرجع الى منصبه لا يكونون مسئولين عما يحدث مما لا يستحب وقوعه . فزاد الاشكال والاضطراب فتمكن شريف باشا وغيره من اصرارهم على رفض تشكيل وزارة جديدة . وعند الغروب اجتمع النواب ورئيسهم وحضر عرابي وجعل يخطب فيهم وخطب ايضاً عبد العال وغيره يطالبون تنازل الخديوي فتفاقم الخطب فرسل الجناب الخديوي يخبر الباب العالي ان الجند غير راضين عن استعفاء الوزارة وانهم قاموا الحجة على طلب الدولتين . فاجابه ان الحضرة السلطانية امرت بتشكيل لجنة عثمانية تأتي مصر بعد ثلاثة ايام للنظر في هذا الامر . فأمر الجناب الخديوي ان يرجع عرابي الى مركزه موقتاً للتأمين على الاجانب لبينما يصل الوفد العثماني فسر الجند بذلك . وبعث عرابي منشوراً الى قناصل الدول يضمن تأييد الامن لجميع سكان القطر المصري من وطنيين واجانب مسلمين وغير مسلمين وفي الوقت عينه اقترح ثلاثة امور

١ اعادة لائحة الدولتين واسحاب اسطوليهما

٢ وضع قانون أساسي تبين فيه حدود كل من الجناب الخديوي ووزرائه
٣ قطع المخابرات والعلاقات توًا مع الدولتين ومع سائر الدول الا بواسطة الدولة العثمانية

ثم عمل العرابيون على خلع الخديوي وتولية البرنس حليم باشا وكثيراً ما كانوا يصرحون بذلك في مجالسهم

وكان السلطان من الجهة الاخرى يسعى في اغتنام هذه الفرصة لاسترجاع نفوذه بمصر واعترفت الدول ان السلطان اولاهن بحل هذا المشكل

وبعد ان كانت فرنسا من أكبر المقاومين للتداخل العثماني صرح دي فريسينيه ان كل الوسائل لحل المسألة المصرية يمكن اتخاذها الا الاحتلال العسكري الفرنساوي. خلافاً لرأي غمبتا سلفه. وكان الخديوي من الجهة الاخرى راغباً في توسيط الباب العالي لعله يؤيده. وعرض البرنس بسمارك عقد مؤتمر دولي للقرار على هذه المسألة فلم يرض السلطان بالمؤتمر لكنه انتدب رجلين من كبار رجاله اوفدهما الى مصر احدهما درويش باشا والآخر اسعد افندي وكانت مهمتهما القبض على الحبل من الطرفين لارضاء الحزبين فيكون السلطان مع الفائز منهما. فكانت مهمة درويش باشا توطيد علائق الولاء مع الخديوي ضد عرابي وبعكس ذلك مهمة اسعد افندي. وكان في جملة الامر المعطاة لدرويش باشا ان يقبض على عرابي ورفاقه ويرسلهم مغلولين الى الاستانة وان يلغي مجلس النواب ويقوى نفوذ امير المؤمنين وفرق الاوسمة في العرابيين في حزب الخديوي

فآلت هذه السياسة طبعاً الى زيادة التفريق وتفاقم الفوضى وكره الاجانب فافضى ذلك الى حادثة الاسكندرية في ١١ يونيو

« حادثة الاسكندرية » في ١١ يونيو سنة ١٨٨٢

وسببها ان القلق والاضطراب استوليا على سكان القطر وكثر الاشاعات ونزع النزلاء الاجانب الى الجلاء خوفاً من أمر يأتي فاصبحت الاسكندرية ملجأ الوافدين من جالية الريف على امل ان يكونوا آمنين فيها من غوائل التعدى لكثرة من فيها من الاجانب او بالحري للاحتماء بجوار الاسطولين الانكليزي والفرنساوي

ثم احس الاجانب فيها ان سفلة الاهالي ومعظم الجهاديين قد اغلظوا في معاملاتهم واستبدوا في امورهم فكانوا يخطرون في الازقة بتهاً يمتهنون الرفيع ويستعبدون

الوضيع وقد لاح لهم ان اولئك الاجانب يريدون بهم شراً فجعلوا يتوقعون منهم ما يتذرعون به الى الوقيعة بهم توهماً منهم ان اولئك من ألد الاعداء لوطنهم . فعلم الاجانب بتلك المقاصد فجعلوا يتأهبون سراً للدفاع بما امكنهم من اقتناء الاسلحة والرجال واخفائهم في منازلهم واستشاروا اميري الاسطولين فوافقاهم ثم عرضوا الامر على القناصل الجنرالية في القاهرة بواسطة مندوب مخصوص فانكروا عليهم ذلك فلبثوا يتوقعون المقدور

اما اهل الفتنة فادركوا تحذر الاجانب منهم فهموا بهم في ٢٤ رجب او ١١ يونيو وابتدأوا الفتنة بخصام بين حمَّار ومالطي اتصلوا منها الى الاغارات على البيوت والمنازل والفتك بكل من مروا به في السبل . فلم تكن ترى الا اخلاطاً من السفلة بين صعيدي وسوداني وبدوي وفيهم الحمارة والحمالون وامثالهم يهجمون جماعات على من لقوه في طريقهم فقتلوا نحو ٣٠٠ نفس وقتل منهم نحو هذا العدد . كل ذلك والاسطولان لم يحركا ساكناً . وتمارض مأمور الضابطة المدعو السيد قنديل ولم ينزل يومئذ الى المدينة وجرح في هذه الواقعة عدد كبير من كبار الاجانب وفيهم قنصل اليونان والمستر كوسن قنصل انكلترا في الاسكندرية وقنصل ايطاليا وفيس قنصلها وقنصل روسيا وكثيرون غيرهم . فأمر محافظ الاسكندرية « عمر باشا لطفي » الامير الاي سليمان داود ان يبعث الجند لايقاف الاهالي ومنعهم من ارتكاب تلك الفظائع . فاجاب انه لا يستطيع ذلك الا بعد ان يأتيه امر من عرابي . فجاء الامر نحو الساعة الخامسة بعد الظهر فسار الجند والمحافظ امامهم ساعياً على قدميه يسكنون الخواطر وينادون باعادة الراحة . فرأوا المخازن قد نهبت والارزاق قد تبعثرت على قارعة الطريق . وعند الغروب هدأت الغوغاء وكف الناس فدخل كل منزله وانقضى الليل ولم يحدث شيء . وفي اليوم التالي كثر عدد المهاجرين بحراً حتى خيل للناس انه لم يبق في المدينة احد من الاجانب . فنزل من المدينة في يوم واحد نحو عشرة آلاف تفرقوا في السفن . كل ذلك خوفاً مما كانوا يخشون حدوثه من مثل ما قاسوه واتصلت هذه الاخبار بالداخلية فانتشر الاضطراب وعمت البلوى وتقاطر الناس ومن سائر الاقطار الداخلية الى السواحل يطلبون الفرار كما فعل الاسكندريون واسفرت الحال على ذلك بضعة ايام حتى كاد يخلو القطر من النزلاء وقد قدّر بعضهم عدد من هاجر في تلك المدة فبلغ زهاء مائة وخمسين الفاً

ولما بلغ خبر حادثة الاسكندرية الى اهل العاصمة اضطربوا وفي صباح ١٢ يونيو

خاطب القناصل درويش باشا معتمد الحضرة السلطانية بكلام عنيف وسألوه ان يتخذ التدابير الفعالة لصيانة الاوروبيين واموالهم في جميع انحاء القطر فعقد مجلساً في عابدين حضره الجناب الخديوي ودرويش باشا ومن معه وشريف باشا ووكلاء الدول العظام السياسيون وبعد المذاكرة اقروا ان تعطى للقناصل ضمانات اكيدة تكفل اعادة الامن والمحافظة على ارواح الاوروبيين واموالهم ومن اخص هذه الضمانات ان يمتثل عرابي لاي الاوامر التي تصدر له من الخديوي فدعي وسئل فاجاب بالقبول وتعهد باجراء ما يضمن الراحة وأخذ درويش باشا على نفسه تبعة تنفيذ الاوامر الخديوية بمعنى ان يكون مشتركاً مع عرابي ومسئولا معه في تنفيذ تلك الاوامر . فرضي وكلاء الدول بذلك وانصرفوا واخذ عرابي يهتم قياماً بتعهده فنشر المنشورات بمنع الاجتماعات وابطال كل ما يوجب الارتياب . وكانت قد تعينت لجنة بأمر الجناب الخديوي للنظر في امر حادثة الاسكندرية تحت رئاسة عمر باشا لطفي محافظها وفيها مندوبو القناصل فاجتمعت اللجنة في الاسكندرية وباشرت اعمالها وقررت ما خيل لها انها تدابير فعالة لاعادة الامن

وفي ٢٦ رجب او ١٣ يونيو « حزيران » وصل سمو الخديوي الى الاسكندرية يصحبه درويش باشا مندوب الحضرة السلطانية فصفت لهما الجنود من المحطة الى سراي رأس التين واطلقت المدافع تحية لهما ثم زاره قناصل الدول الا قنصلا انكلترا وفرنسا فانهما بقيا في مصر فابدى لهم اسفه الشديد مما حدث ووعدهم بصرف العناية الى اخماد الفتنة وخاطبهم درويش باشا ايضاً بمثل ذلك وزاد عليه انه واثق الثقة التامة باخلاص الجهادية . الا ان الخديوي اسرَّ الى المستر كولفن المراقب العمومي الانكليزي انه غير واثق باستمرار الامن والراحة وانه يعتبر مهمة درويش باشا كأنها قد انتهت ولم تفلح وانه لا يرى بدًّا من مجيء جنود عثمانية لاعادة الراحة . وكان في ثكنات الاسكندرية نحو من ثمانية آلاف جندي بالاسلحة الكاملة و معهم من المهمات ما يكفي خمسين الفاً

ثم بلغت القناصل رعاياها ان يتخذوا اقرب السبل للنجاة مما ربما يحدث واوعزت اليهم ان يهاجروا من المدينة فتناقلت الالسن هذه الاخبار فتأكد الناس ان الساعة آتية لا ريب فيها وعينت كل دولة من الدول الاجنبية سفناً لنقل رعاياها المهاجرين مجاناً فتسارع الفقراء من كل ناحية متقاطرين من مدن الداخلية والارياف الى الاسكندرية وبورت سعيد حيث كانت تلك السفن معدة لنقلهم الى بلادهم . وكان المستر مالت

وكيل انكلترا السياسي لا يزال في العاصمة فجاءه امر من لندرا بان يحضر الى الاسكندرية ويرافق الخديوي حيثما توجه فاتاها واتى معه المسيو منكوفيتش وكيل فرنسا تخلت العاصمة من رجال السياسة وخلا جوها لعرابي وجماعته واستفحل امرهم ولا سيما لما بلغهم من انقسام دول اوروبا في المسألة المصرية فظنوا انهم في مأمن من الاغتيال . ثم حسب القناصل ان تغير الوزارة يأتي بحل هذه المشكلة فاشاروا على الجناب الخديوي بذلك فتشكل وزارة جديدة تحت رئاسة اسماعيل راغب باشا وبقي عرابي ناظراً للجهادية والبحرية فكان رأي هذه الوزارة ان الطريقة المثلى لملافاة الامر ان يصدر عفو عمومي وان يعلن في الجرائد الرسمية « ان كل من عليه مسئولية أو اشترك بالحوادث الاخيرة فعليهم العفو الا المشترك في حادثة الاسكندرية وهم تحت المحاكمة » فوافقها الجناب الخديوي على ذلك . وفي ٥ شعبان سنة ١٢٩٩ هـ أو ٢١ يونيو سنة ١٨٨٢ م بعث الجناب الخديوي منشوراً الى اسماعيل راغب باشا يطلب اليه التحري الحسن في مسألة حادثة الاسكندرية فاجابه بتلبية الطلب

ثم جاءت الاخبار بعزم الدول على عقد مؤتمر في الاستانة لاجل البحث في المسألة المصرية وتمنع الباب العالي من ذلك بدعوى ان ليس في مصر مايوجب الاضطراب اعتماداً على تقرير درويش باشا المرسلة منه . وكان ذلك مما شدد عزائم الحزب الوطني ولا سيما لما رأوا الباب العالي واثقاً بهم يأبى عقد مؤتمر دولي . وكان عرابي يؤكد لاتباعه ان وجود هذه الاساطيل في مينا الاسكندرية لا يخشى منه البتة لانها انما اتت هذا البحر للتنزه كما فعلت مرات عديدة قبل هذه . أما انكلترا فلم تنفك ساعية في عقد المؤتمر بدعوى انه يستحيل اعادة الامن الى مصر بغير واسطة فعالة . وكان الباب العالي يجيب على ذلك بقوله انه بعد تشكيل الوزارة الجديدة صار يرجو استقرار السلام ووافقه على رأيه هذا دول المانيا واستريا وايطاليا والروسيا . وهذه الموافقة كانت مبنية على خوف الدول من مطامع انكلترا في مصر . فلما علمت هذه بنياتهم اكدت لهم انها تتعهد متى عقد المؤتمر مع سائر الدول ألا تسعى البتة الى ضم ارض ما اليها أو الاستيلاء على مصر أو قسم منها أو الحصول على امتياز ما سياسي أو تجاري بدون ان يكون فيه نصيب لسائر الدول فوافقها الجمع على عقد المؤتمر أما الدولة العلية فاصرت على عدم لزومه

وفي ٨ شعبان أو ٢٤ يونيو عقد المؤتمر في الاستانة ولم يكن للدولة العلية معتمد فيه فقرر ما يأتي « أن الحكومة التي وقع وكلاؤها بالنيابة عنها على ذيل هذا

(البروتوكول) تتعهد انها لا تقصد البتة اغتنام ارض ما ولا الحصول على امتيازات ما ولا ان يكون لرعاياها من الامتيازات المتجرية ما لا يستطيع ان يناله غيرهم من رعايا اي الدول في مصر وذلك في أي مسألة حصل الاتفاق عليها واشتراكها في المخابرات لتنظيم امور تلك البلاد » . وقد كانت انكلترا في اثناء سعيها الى عقد المؤتمر تحشد الجنود استعداداً للحرب وكانت في الوقت عينه تلح على سائر الدول ان تساعدها في ذلك

وكان عرابي في اثناء ذلك يحاول اقناع الناس ان جميع الدول تساعده على مقاومة انكلترا اذا مست الحاجة . وفي ٥ شعبان او ٢٢ يونيو تمارض المستر مالت وكيل انكلترا فانزل الى أحد السفن وبقي فيها بضعة ايام ثم سافر الى برندزي . وفي ٢٥ منه تنحى المستر كوكسن قنصل انكلترا في الاسكندرية بدعوى مرضه بسبب الجرح الذي كان قد أصيب به في اثناء حادثة ١١ يونيو وهكذا فعل قنصل مصر . اما باقي القناصل فبقوا في الاسكندرية الى ٩ يوليو . وكان الخديوي ودرويش باشا مقيمين في سراي رأس التين وعرابي مقيما في الترسخانة وتحت امره في ثغر الاسكندرية تسعة آلاف مقاتل

وفي جلسة المؤتمر السابعة أقرت الدول على كتابة لائحة مشتركة يقدمونها الى الباب العالي يطلبون منه ارسال جنود عثمانيــة الى مصر لاخماد الفتنة ففعلوا فابى فاتخذت انكلترا ذلك ذريعة لتداخلها بالقوة

« ضرب الاسكندرية »

اما فرنسا فقد علمت ما كان من تغير سياستها بعد تغير وزارتها وأصبحت لا ترى الاشتراك مع انكلترا في امور مصر وانما هي تشاركهـا فقط في حماية قنال السويس ولم تشأ مشاركة الانكليز في تحمل تبعة الاحتلال العسكري . ولذلك فلما رسا الاسطولان في مياه الاسكندرية تفردت انكلترا بالعمل . فاخذ الاميرال سيمور قومندان العمارة الانكليزية يترقب الاسباب لمباشرة العدوان فادعى ان الجهادية يحصنون القلاع في الثغر وينقلون احجاراً ضخمــة يلقونها عنـد فم المضيق لسد مدخل المينا فيمنع المدد ويحصر الاسطول وقال ان هذا التحصين مناف لحقوقه . فكلف الحكومة المصرية ان تكف عن التحصين حالا والا اضطر الى اطلاق مدافعه عليها فيدكها عن آخرها فاجابه طلبه باشا عصمت اذ لا صحة لما يقول ان الجهادية لم

يهتموا قط بتحصين القلاع . وشاع ذلك نخافته الناس واوعز الى الجناب العالي الخديوي توفيق باشا بواسطة المستر كولفن ان يتنحى صيانة لحياته فاجابه « لا يليق بي ان اترك الكثيرين من رعيتي الامناء في اوان الشدة ولا يليق بي ايضاً ان اترك البلاد في اوان الحرب » ثم توسطت قناصل الدول في الاسكندرية بين الاميرال سيمور وبين الجهادية المصرية فلم ينجحوا . فتقدم عرابي وسامي الى كاتب سر مجلس النظار ان يكتب تقريراً في المسألة مفاده « ان الاميرال تجاوز الحدود فيما يطلب وانه لا بد من مقاومته وان عرابي وقومه مفوضون في امر الدفاع عن البلاد » وداروا به على منازل النظار وطلبوا التوقيع عليه فوقَّع بعضهم اختياراً والبعض اضطراراً ويقال ان الخديوي نفسه صدق عليه او أُلجيء للتصديق ثم ارسلوه الى الاميرال سيمور . وارسل عرابي منشوراً الى المديرين يطلب اليهم ان يكونوا مستعدين للامداد بالجند والمال

وفي مساء ٢٢ شعبان او ٩ يوليو جاء المستر كارترايت الى الخديوي واعلنه رسمياً عزم الاميرال سيمور على مباشرة القتال صباح الثلاثاء في ١١ يوليو وألح عليه ان يترك سراي رأس التين ويلجأ الى سراي الرمل ففعل . ثم كتب رسمياً الى درويش باشا يطلب اليه ان يحافظ على حياة الجناب الخديوي والتي عليه التبعة اذا اصيب بسوء

وفي ٢٣ شعبان او ١٠ يوليو كتب الاميرال سيمور رسمياً الى كل من درويش باشا وراغب باشا رئيس الوزارة يعلمها عن خروج رجال الوكالة الانكليزية من القطر المصري اشارة الى قطع العلائق الودية واعلنت خارجية انكلترا سائر الدول بذلك « وانها لم ترَ بدأً منه لكنها تصرح ان ليس لها اورب خفي او نية غير بينة وانما عملها هذا من قبيل الدفاع وحرصاً على مصلحة الجناب الشاهاني » وفي مساء ذلك اليوم سافر الاسطول الفرنساوي متقهقراً تاركاً سفينتين من سفنه فقط

وفي الساعة السابعة من صباح الثلاثاء ٢٢ شعبان سنة ١٢٩٩ هـ او ١١ يوليو سنة ١٨٨٢ م أطلقت العمارة الانكليزية مدافعها على حصون الاسكندرية وما زالت الى الساعة الواحدة ونصف بعد الظهر فهدمت معظمها وانفجر مستودع البارود في قاعة اطه . فجاء راغب باشا الى الجناب الخديوي في الرمل واخبره ان الحصون قاومت أشد مقاومة وان كثيراً من سفن الانكليز قد غرقت وكان يقول ذلك مسروراً . ولكن قوله هذا ما لبث ان نقض بورود الخبر الصحيح . ثم جاء عرابي فوقف بين يدي سموه فسأله عن حالة الحصون فقال « لم يعد في وسعنا المقاومة ولا بد لنا من تدابير أخرى او ان نتساهل مع الاميرال » وبعد المخابرة تقرر ارسال طلبة عصمت الى الاميرال

وعاد عرابي من حيث اتى . فعاد طلبه باشا من عند الاميرال واخبر الجناب الخديوي ان الاميرال يطلب احتلال ثلاث قلاع والا فانه يستأنف القتال الساعة ٢ بعد الظهر. ثم قال « ولكنني قلت له ان هذه المدة لا تكفي لاتمام المخابرات بشأن ذلك فطلبت تطويلها فابى فاتيت لاعلم سموكم ملتمساً رأيكم » فعقد مجلس تقرر فيه انه لا يحق للحكومة المصرية الترخيص في احتلال جنود اجنبية بدون مخابرة الباب العالي الا ان الوقت لم يسمح بتبليغ ذلك القرار للاميرال

ولما رأى رجال الحصون المصرية عجزهم عن مقاومة السفن الانكليزية رفعوا العلم الابيض اشارة الى ايقاف العدوان فانقطعت السفن عن قذف النار . وكانت الحصون قد تهدمت فعلم الثائرون ان ذلك التسليم يعقبه احتلال الجيوش الانكليزية المدينة فوزعوا في غاس ١٣ يوليو فرساناً في احياء المدينة يأمرون الوطنيين بالخروج من الاسكندرية حالاً وكانت هذه الاوامر تصدر من الاميرالاي سليمان داود وامر ايضاً زمراً من الرعاع ان تطوف المدينة وتحرقها فابتدأوا من الساعة الاولى بعد الظهر فكانت الاسكندرية مساء الاربعاء مضطرمة الجوانب منهوبة المخازن لا ترى فيها الا لهباًمتصاعدة واناساً حاملين الامتعة والمصاغ فارّين الى داخلية البلاد

وكان الخديوي في سراي الرمل وبمعيته عثمان باشا واسماعيل باشا الشركسيان وزبير باشا السوداني والجنرال ستون باشا وفدريكو بك وطونينو بك ودي مارتينو بك واباتي بك وتكران باشا وزهراب بك وغيرهم لا يزيد عدد الجميع على خمسين . وبعد ظهيرة ذلك اليوم جاء الى سراي الرمل نحو اربعماية فارس وبعض المشاة واحتاطوا بها فسئلوا عن الغاية من مجيئهم فقالوا « قد اتينا للمحافظة على السراي » والحقيقة انهم جاؤا مأمورين باحراقها وقتل من يخرج منها . وفي الساعة ٧ مساء بعث عرابي يستدعيهم اليه فساروا وتخلف منهم احد البكباشية ومعه ٣٥٠ فارساً فمثل بين يدي الجناب الخديوي واقسم انه يموت بين يديه واقتدى رجاله به واخبره انهم كانوا قد اتوا يريدون شراً . وفي خلال ذلك ارسل الاميرال سيمور ثلاث دوارع من اسطوله لترسو بجوار سراي الرمل صيانة لحياة الخديوي ويقال انها هي التي كانت السبب في انسحاب الفرسان العرابيين . ثم جاء المحافظ الى الخديوي يخبره بما كان من النهب والحرق في احياء المدينة . فارسل سموه كامل باشا الشركسي وزبير باشا ليمنعا الناس من ذلك

« الاسكندرية بعد الضرب »

ونحو الساعة ٢½ بعد الظهر ٢٦ شعبان او ١٣ يوليو كانت جنود عرابي قد انجلت عن الاسكندرية . فجاء زهراب بك بهذا النبأ الى الخديوي وان الاميرال سيمور عازم على انزال جنود بحرية الى رأس التين وانه يدعو الحضرة الخديوية الى سفينته حيث يكون آمناً . ففضل سموه التوجه الى سراي رأس التين فسار وبمعيته درويش باشا حتى جاء السراي فوجد هناك الاميرال سيمور وبعضاً من جنوده ينتظرونه في ساحة القصر . وفي المساء نزل بعض وكلاء الدول وهنأوه بسلامته وكان في السراي ٣٠٠ من الحامية الانكليزية وفي الصباح التالي انزل الاميرال فرقاً أخرى من رجاله يطوفون الشوارع ومعهم عدداً من المدافع تسكيناً لخواطر الباقين فيها

وقد قدرت الخسائر بستمائة من الوطنيين وخمسة من الانكليز على الدوارع غير المذابح التي حصلت في اثناء ذلك في طنطا والمحلة الكبرى و منود وجهات أخرى وبعد انتقال العائلة الخديوية الى رأس التين استدعى الجناب الخديوي زهراب بك وجعله ترجماناً بين السراي والضباط الانكليز وعهد اليهم أن يمنع ايًّا كان من دخول القصر لان العرابيين كانوا قد عينوا نفراً من الجواسيس لتجسس حالة السراي أما عرابي وأتباعه فمروا الى كفر الدوار وعسكروا هناك على نية الدفاع

ولما استتب المقام للانكليز في الاسكندرية أخذوا في تنظيف الاسواق ونقل الجثث ودعوا المهاجرين ان يعودوا الى منازلهم لاعادة الراحة والطمأنينة واستدعي اثناء ذلك درويش باشا الى الاستانة فتوجه

وكتب راغب باشا الى الاميرال سيمور يخبره ان اجراآت عرابي من الآن فصاعداً مخالفة لاوامر الخديوي وانه هو وحده (عرابي) المسئول عنها

ثم كتب الجناب الخديوى الى أحمد عرابي يأمره بالامساك عن جميع العساكر واعداد التجهيزات لان الحكومة الانكليزية لا خصومة بينها وبين الحكومة المصرية وانها مستعدة لتسليم المدينة متى رأت فيها قوات منتظمة والبلاد في أمن وأمره ان يأتي الى سراي رأس التين حالاً

فاجاب عرابي « انمقاومة العمارة الانكليزية حصلت باقرار مجلس النظار ودرويش باشا وان النظار هم الذين أعلنوا الحرب على الانكليز وهكذا حصل فاذا كان الاميرال الآن قد عدل عن المحاربة الى المسالمة بعد وقوع الحرب فذلك يعد طلباً للصلح ولا يجوز ان يكون انكاراً للحرب » (الى ان قال) انه يميل الى الصلح ولكن مع

حفظ شرف البلاد والحكومة فاذا كان الاميرال يريد تسليم المدينة فليسلمها ولتخرج مراكبه من الاسكندرية وانه للمحافظة على شرف الحكومة الوطنية ينبغي الاستمرار على الاستعداد العسكري حتى تفارق المراكب المياه المصرية وانه يعتبر قول الانكليز هذا مكيدة لان الانكليز لا يزالون في الاسكندرية ولذلك لا يمكنه الحضور اليها » ثم طلب التئام مجلس النظار في مركز الجيش للمداولة في الامر وبعد ذلك يعرف الجيش ويحضر

« مساعي العرابيين »

فيظهر ان اصرار عرابي هذا هو السبب في اتساع الخرق لان الحكومة الانكليزية لم تكن تطمع باحتلال هذه البلاد على ما يظهر من اقوالها . وكتب عرابي الى وكيل الجهادية يعقوب سامي في القاهرة ايقاعاً في الحضرة الخديوية واتهمها بالتحامل على الجهادية الوطنية وانها هي التي جلبت كل هذه المتاعب الى القطر المصري وطلب اليه ان يتروى في الامر وينظر في صلاحية هذا الوالي للتولية عليها او عدمه . فلما وصل كتاب عرابي هذا الى يعقوب سامي جمع اليه الذوات والاعيان والرؤساء الروحانيين في ديوان الحربية في غرة سنة ١٢٩٩ هـ (١٧ يوليو سنة ١٨٨٢ م) وعقدوا جلسة تحت رئاسة وكيل الداخلية قام فيها عدة خطباء اتهموا الجناب الخديوي ببيع الوطن. واستقر الرأي اخيراً على لزوم الاستمرار على اعداد التجهيزات الحربية وان تعين لجنة من ستة أشخاص يتوجهون الى الاسكندرية لاستدعاء النظار الى العاصمة للاستعلام منهم عن حقيقة ما حصل . وبناء على ذلك القرار سار الوفد الى بكفر الدوار وتداول مع عرابي ورؤساء الجند فاختير منه اثنان هما علي باشا مبارك واحمد بك السيوفي للتوجه الى الاسكندرية للغرض المتقدم ذكره . فوصلا اليها وقابلا الجناب الخديوي صباح الاثنين في ٢٤ يوليو وعرضا له الحالة فاصدر أمراً عالياً يقضي بعزل عرابي عن نظارة الجهادية وأعلن ذلك في البلاد . ثم أرسل الى الباب العالي يخبره بعصيان عرابي وان الجند انحازوا اليه وهو المسئول عنه

اما عرابي فلم ينفك عن اعداد المعدات والتحصين بمساعدة رفقائه فحاول سد ترعة المحمودية بجهة كفر الدوار فلم يفلح وجعل يشيع في البلاد ان الخديوي مشترك مع الانكليز على اضاعة البلاد الى غير ذلك من اثارة خواطر الاهلين ولما وصل الامر عزل عرابي الى العاصمة اجتمع المجلس المتقدم ذكره في نظارة الداخلية وقرروا

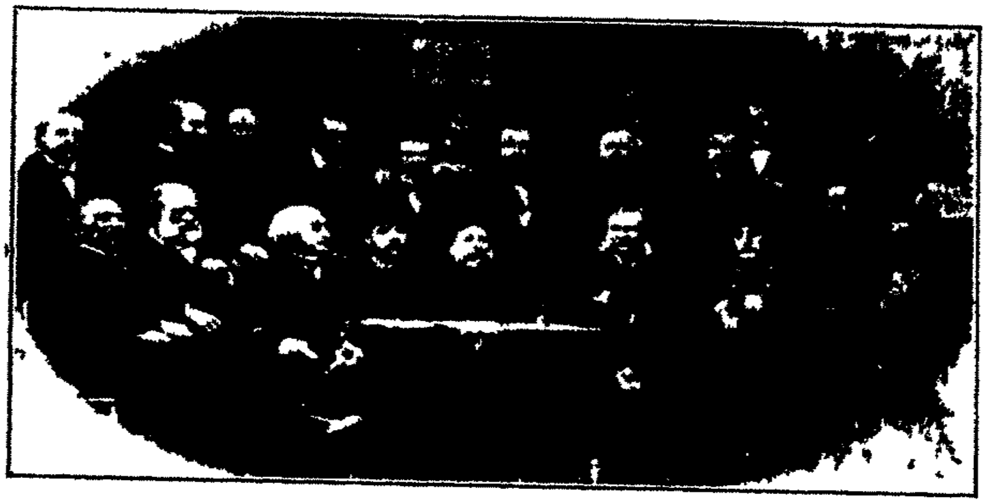
بقاء عرابي للمدافعة عن الوطن وايقاف أوامر الخديوي لانه خرج عن قواعد الشرع الشريف

واستولى العرابيون على الخطوط الحديدية والبرقية فنصب الاميرال سيمور سلكاً تلغرافياً بين الاسكندرية وبورت سعيد واعلن الخديوي ثانية عصيان عرابي . غير ان هذه الاوامر والمنشورات كانت تذهب ادراج الرياح لان الاهلين اصبحوا منقادين للحزب الوطني انقياداً امست البلاد به آلة بيد زعيم الثورة يديرها كيف شاء

ثم نزل العرابيون نحو الاسكندرية وعسكروا في الرملة فخرجت اليهم فرقة من الانكليز في ٥ اوغسطس فلم تقو عليهم فتقهقرت الى الاسكندرية ثم عادت اليهم ثانية وقد تشددت فتقهقر العرابيون وتحصنوا بين ابي قير وخطوط الرملة ثم تقهقروا الى كفر الدوار فاعتبر الانكليز من ذلك الحين حالتهم في مصر حالة حربية يحتاجون فيها الى الامداد فاستمدوا انكلترا فامدتهم بقوات كانت تتوارد اليهم عن طريق السويس . اما عرابي فكان في كفر الدوار في اربعة الايات من المشاة والاي من الفرسان والاي من الطبجية وبطارية من مدافع الرش وكثيراً من العربان وقد قدرت الجنود الانكليزية التي سارت لمحاربة عرابي باربعة عشر الفاً من المشاة واربع فرق من الفرسان والف الطبجية معهم ٣٦ مدفعاً ونحو ست فرق من المهندسين . ثم انضم الى هذه القوة بعد ذلك قوة هندية مؤلفة من تسعة آلاف جندي ويقال بالاجمال ان جميع الحاميات الانكليزية التي كانت في مالطه وقبرص وجبل طارق انضمت الى حملة مصر

على ان هذه الاعدادات لم تكن لتثني العرابيين عن عزمهم فان عرابي كتب الى المديرين بتاريخ ١٢ اغسطس ان يجمعوا جنداً يبلغ مجموعه ٢٥ الفاً . وطلب ان يكون فيهم الخفراء لانهم أقرب الناس الى الحركات العسكرية تلبيــة لما تدعوه اليه الحالة من السرعة في خدمة الجيوش وفرض ايضاً على المديرين اموالاً يجمعونها من الاهالي امداداً للحرب فلا تسل عن الطرق التي كانوا يجمعون بها تلك النقود . وأخذ في تقوية الاستحكامات وتشييد الطوابي فمدها بين ما فوق الرملة باربعة كيلو مترات الى كفر الدوار وانشأ في كفر الدوار سداً عرضه ٣٠ متراً وخندقاً عرضه ٤ امتــار جعله فاصلاً بين السد وارض اكثر فيها من مواقع الاستحكام . وكان الخط الدفاعي الاول ممتداً مما بعد المحلة بمسافة الف متر على طول الخط الممتد من الرملة الى البيضة وجعل ما وراء هذا الخط من المرتفعات والتلال مواقع محصنة الى كفر الدوار فكانت كلها

نحو ٥٠٠ موقع . واتم مثل هذه الاعمال الدفاعية من كفر الدوار الى ابي حمص ويوجد بين ابي حمص ودمنهور تل يفضل سائر التلال مساحة وارتفاعاً فاختاره عرابي موقعاً يقيه من الانكليز اذا قضت عليه الحال بالتقهقر الى دمنهور وعزز دمنهور بالمدافع



« مؤتمر الاستانة سنة ١٨٨٢ »

كل ذلك والمخابرات جارية مع السلطان عبد الحميد بشأن اشتراكه في المؤتمر للنظر في مصلحة القطر المصري وهو يأبى الاشتراك حتى اوعز اليه البارون دي رينغ ان فرنسا تحب الاتفاق مع العرابيين فرضى ان تشترك فيه فانتدب للنيابة عنه سعيد باشا الصدر الاعظم وعاصم باشا ناظر الخارجية في ٢٠ يوليو . وأعلن سعيد باشا المؤتمر في ٢٦ منه ان جلالة السلطان يعدّ حملة عثمانية الى مصر ولا حاجة الى مداخلة الدول الاربعة في هذه المسألة . وأخذت الدولة في اعداد ٥٠٠٠ جندي لهذه الغاية . فقال اللورد دفرين وهو سفير انكلترا في الاستانة لا بد قبل كل شيء من اصدار منشور شاهاني يعلن عصيان عرابي . فوافقه واصدره ونشر في الجرائد فوجدوه لا يفي بالمرام فترتب على ذلك تباعد بين الدولة العلية وانكلترا وزاد التباعد سعي السلطان في عرقلة مساعي الجند الانكليزي بمصر او لوقوفه في سبيل ما يحتاجون اليه من الدواب وغيرها لحمل انقالهم مما يطول شرحه . فقطع اللورد دفرين العلائق السياسية مع الباب العالي وانصرفت العناية عن ارسال جند عثماني او غيره

اما في مصر فقد تركنا الجند الانكليزي في الاسكندرية وقد غادرها العرابيون

وتحصنوا في دمنهور وكفر الدوار وادرك عقلاء الوطنيين عاقبة تلك المقاومة فقام جماعة منهم يخوفونهم العواقب بلا فائدة والظاهر ان عرابي كان معولاً في مساعيه على مساعدة الباب العالي . ثم ما لبث ان سمع بتصريح السلطان بعصيانه ثم جاءته صورة المنشور السلطاني بهذا الشأن وفحواه تعنيف عرابي على عصيانه وانه يجب عليه الرضوخ للجناب الخديوي

وفي اواسط اوغسطس وصل الجنرال السير وولسلي الى الاسكندرية واستلم قيادة الجيش . ثم اخذت تتوارد القوات الانكليزية فبلغت في اواخر الشهر المذكور نحو ٢٥ الفاً وكان قدوم هذا القائد العظيم داعياً لتيقن الناس بفوز الحملة الانكليزية نظراً لما اشتهر به من البسالة والدراية العسكرية . وبعد وصوله الى الاسكندرية نشر اعلاناً مآله انه لم يأت الى مصر الا لتأييد سلطة الخديوي وهو لا يحارب الا الذين يخالفون اوامر مليك البلاد وتنبأ انه سيدخل القاهرة في ١٥ سبتمبر من تلك السنة ثم اخذت العساكر الانكليزية تستكشف مراكز العرابيين في كل يوم فكانوا اذا ظفروا بشرذمة من العرابيين ولقوا منها مقاومة قابلوها بقوة السلاح فتولي الادبار تاركة في ساحة القتال من جرح منها فينقلونه الى معسكره اما القتلى فكانوا يدفنونهم

وفي ٥ شوال سنة ١٢٩٩ او ٢٠ اوغسطس سنة ١٨٨٢ حصلت بين الفريقين معركة في كفر الدوار استمرت ساعتين وعدد العرابيين ضعفا عدد الانكليز وانجلت عن انهزام قسم عظيم من العرابيين وانقلابهم الى تل الوادي واحتل الانكليز بعض مواقع العصاة بعد ان قتلوا منهم ١٦٨ واسروا ٦٢ . وجرت معركة اخرى في اليوم التالي لم يفز بها احد الطرفين . وفي اليوم الثالث ٧ شوال اقتتل الفريقان في كفر الدوار اقتتالاً تعزز فيه جانب الانكليز بنجدة جاءتهم على قطار مخصوص فتراجع العرابيون وتربصوا تحت امرة طلبة عصمت في مواقفهم يتوقعون فرصة . وكان العرابيون بعد كل واقعة يكتبون الى اخوانهم في العاصمة وغيرها انهم ظافرون اما عرابي فذهب لتحصين التل الكبير في مديرية الشرقية

وبعث سير الاحوال وزارة راغب باشا على الاستعفاء فاستقدم الجناب الخديوي رياض باشا من اوروبا وكان متغيباً فقدم في اواسط اوغسطس وبعد قدومه دعا الخديوي شريف باشا الى تشكيل وزارة جديدة فلبي الدعوة وتعين رياض باشا ناظراً للداخلية وعمر باشا لطفي ناظراً للجهادية

وارسل الانكليز فرقاً من جيوشهم تسير الى مصر عن طريق الاسماعيلية فاشتبكوا

في ٩ شوال سنة ١٢٩٩ هـ او ٢٣ اوغسطس سنة ١٨٨٢ م مع العرابيين بين المسخوطة والاسماعيلية وكان الفوز للانكليز . واستولى الانكليز ايضاً على المحسمة فاصبحوا على عشرة اميال من التل الكبير وفي ٢٨ اوغطس حصلت واقعة القصاصين بين المحسمة والتل الكبير . وفي شوال او ١٢ سبتمبر ورد للجناب الخديوي في الاسكندرية تلغراف من سلطان باشا ينبيء باستعداد الانكليز لمهاجمة التل الكبير حيث تحصن العصاة ثم ورد تلغراف آخر من الاسماعيلية يعلن هجوم الانكليز على التل الكبير من كل ناحية وصوب في الساعة الرابعة والدقيقة ٣ بعد منتصف الليل وان العرابيين لم يقفوا امام الانكليز الا ٢٠ دقيقة واستولى الانكليز بانقضائها على التل الكبير فغنموا ٤٠ مدفعاً وقتلوا الفي رجل واسروا الفين واستولوا على المؤن والذخائر ثم أخذوا يتعقبون الجند المنهزم

« واقعة التل الكبير »

وتفصيل ذلك ان عرابي كانت قد وصلت اليه نسخة من جريدة الجوائب وفيها منشور السلطان عبد الحميد باعتباره عاصياً فاغتاظ وكاد يقع في اليأس لان حجته الكبرى كانت انه مدافع عن حقوق الدولة العلية في مصر فتشاور مع عبد الله نديم واقر على اخفاء ذلك على الجند . فلما كانوا في التل الكبير وقد تحصنوا فيه بقوة ٣٠ الف مقاتل و٧٠ مدفعاً زحفت الجنود الانكليزية بقيادة وولسلي بقوة ١٣ الف مقاتل و٦٠ مدفعاً وقبل وصولهم الى معسكر العرابيين ارسلوا جواسيس من المصريين ومعهم نسخ من الجريدة المشار اليها ففرقوها في الضباط وكبار الجيش . فلما اطلع اولئك عليها خارت قواهم ويئسوا من الفوز لان معظمهم كان يقاتل لاجل السلطان فعلم عرابي بذلك فجمع اليه الضباط وشاورهم فأقروا على استمرار الدفاع محاباة ورياء . وفيه كتب علي بك يوسف اميرالاي المقدمة الى عرابي انه قد تحقق ان العدو لا يخرج في هذه الليلة فاصدر عرابي امره ان يرتاح الجيش . اما العساكر الانكليزية فسارت من اول الليل لا تفتر لها عزيمة وفي مقدمتها بعض الضباط المصريين الذين كانوا من حزب الجناب الخديوي وامامهم عربان الهنادي يرشدونهم الى الطريق فبلغوا المقدمة في آخر الليل فاخلى لهم علي بك يوسف الطريق ومرّوا بين العساكر لا رادّ يردهم فاطلقوا النار على الاستحكامات واوقعوا بالجند الراقد فالقت الاجناد اسلحتها وفرت فاستيقظ عرابي من نومه على دوي المدافع وخرج من خيمته فارتاع لما علم ان العدو

قد استولى على الاستحكامات وانهزمت الجنود المصرية فاخذ يناديهم فلم يلبه مجيب ثم رأى خيمته اصيبت بقنبلة فطارت فعلم انه لا ينجيه من الموت الا الفرار . فركب جواداً كريماً وفرّ وتبعه عبد الله نديم فحاول بعض خيالة الانكليز ادراكهما فما استطاعوا وما زالا حتى وصلا محطة ابي حماد فنزلا في القطار وأمرا السائق بالمسير فتعلل فهدداه فسار حتى وصل القاهرة .

« عرابي في القاهرة »

فتوجه عرابي توًّا الى قصر النيل وعقد مجلساً من امراء العسكرية والملكية واخبرهم بما كان واستشارهم فاختلفت الآراء فنهض البرنس ابراهيم باشا وخطب في الناس محرضاً على الدفاع فوافقوه بحسب الظاهر . واستقر الرأي على انشاء خط دفاعي في ضواحي المحروسة . فسار عرابي في فرقة من المهندسين نحو العباسية يستشيرهم عن انسب المواقع لبناء ذلك الخط فقال له احد الضباط « انك بجهلك وسوء تدبيرك قد احرقت الاسكندرية وتريد الآن ان تحرق مصر فاذا لم يكن لك فيها ما يهمك فاعلم ان لنا فيها نساء واطفالاً واملاكاً لا نسلم بضياعها تنفيذاً لاغراضك ألا تدري انك تعرض مصر للخطر بانشاء الاستحكامات وتجعل منازلها هدفاً لكرات المدافع فنحن لا نوافقك على ذلك واني اقول لك ذلك بالاصالة عن نفسي وبالنيابة عن جميع الضباط الحاضرين فلا ترجُ منا مساعدة ويكفي ما قد جرى »

فانذهل عرابي وارتبك في امره لا سيما لما رأى الباقين مستحسنين ماقاله رفيقهم فكرّ راجعاً على عقبيه كئيباً فاجتمع باصدقائه ودعاهم الى النظر في الامر فلم يجدوا افضل من رفع عريضة الى الجناب الخديوي يعتذرون بها عن افعالهم ويقدمون له الخضوع فحرروا عريضة وأرسلوها مع بطرس باشا غالي وعلي باشا الروبي ومحمد رؤوف باشا ثم أردفوها بعريضة أخرى أرسلوها مع عبد الله نديم في قطار مخصوص وكان ذلك في غرة ذي القعدة سنة ١٢٩١ هـ او ١٤ سبتمبر سنة ١٨٨٢ م فأبى الخديوي قبول العريضة وأمر بالقبض على الروبي وسجنه . أما نديم فانه ركب القطار الذي قدم عليه وعاد من فوره بعد أن وصل كفر الدوار ثم اختفى بعد ذلك ولم يتيسر للحكومة القبض عليه الا بعد عشر سنوات قضاها مختفياً في الارياف

« دخول الانكليز القاهرة »

أما الجنود الانكليزية فانها بعد استيلائها على التل الكبير سارت فمرّت ببلبيس

فالزقازيق واستولت عليهما ثم سارت حتى أتت العباسية خارج القاهرة في مساء الخميس ١٤ منه وعسكرت في سفح المقطم نخاف الناس ان يدخل الانكليز مصر محاربين ولكن الامر جاء بخلاف ماكانوا يتوهمون لان الجيوش الانكليزية دخلت العاصمة بحال سلمية في يوم الجمعة ١٥ سبتمبر طبقاً لما تنبأ به الجنرال وولسي وألقت القبض على عرابي. وبعد وصول الجنرال وولسلي الى القاهرة انفذ السير الجنرال افلن وود الى كفر الزيات فوصلها في ١٦ منه فسلمت فأمر بنسف الطابية التي كان قد بناها العرابيون في قرية اصلان وسلمت باقي الحصون في بورت سعيد ورشيد واخيراً دمياط فانها لم تسلم الا في ٢١ سمبتمبر

وبعد وصول الجنود الانكليزية الى القاهرة احتلوا قشلاقات العباسية والقلعة والمقطم وقصر النيل ونزل الجنرال السير وولسلي في سراي عابدين وكان من جملة قواد هذه الحملة الدوق دي كنوت ابن ملكة انكلترا . واودع عرابي ومحمود سامي في سجن العباسية والاسرى من الملكية في سجن الضبطية والجهادية في القلعة

ثم صدرت الاوامر الخديوية بتعيين حكام المديريات من اهل النزاهة والاخلاص وصدرت اوامر أخرى بتعيين لجنة مخصوصة في الاسكندرية لتحقيق مواد السرقة والقتل والحرق التي وقعت فيها في حادثتي ١١ يونيو الى غاية ١٦ منه وتقديم التقارير بما تستطلعه . واوامر اخرى بتعيين مثل هذه اللجنة في طنطا لتحقيق مثل هذه الحوادث التي حدثت خارج الاسكندرية وارسلت نظارة الداخلية منشورات الى المديرين يستقدمون من وقعت عليهم الشبهة بالاشتراك مع العرابيين . ولا تسل عن التهاني التلغرافية التي وردت للجناب الخديوي وللجنرال وولسلي بما اتاهما الله من النصر المبين

وفي ٢٣ سبتمبر الغيت جريدتا الزمان والسفير وفي ٢٥ منه اقبل الجناب الخديوي الى العاصمة ومعه شريف باشا وسائر النظار فتواردت الجماهير لملاقاة سموه في المحطة ثم ركب والى يساره ابن الملكة وامامه الجنرال ولسلي والمستر مالت الى الاسماعيلية وفي اليوم التالي سار الى سراي الجزيرة للتشريفات الاعتيادية واستمرت الزينة في القاهرة ثلاث ليال متوالية

« محاكمة العرابيين »

وفي ١٥ ذي القعدة سنة ١٢٩٩ هـ و ٢٨ سبتمبر سنة ١٨٨٢ م امر سموه بتشكيل

لجنة مخصوصة بالقاهرة تحت رئاسة اسماعيل باشا ايوب لتحقيق قضية من كان له يد في الحوادث الاخيرة وان تقدم ما تقرره نظارة الداخلية لتنفذه واصدر امر آخر بتشكيل محكمة شرعية في القاهرة تحت رئاسة محمود رؤوف باشا للحكم في الدعاوي التي تقدم من اللجنة المخصوصة وان تكون احكام هذه المحكمة قطعية لا تستأنف . وأصدر أمراً آخر بتشكيل لجنة عسكرية بالاسكندرية للحكم في الدعاوي التي تقدمها من اللجنتين المخصوصتين اللتين تشكلتا في الاسكندرية وطنطا وان تكون احكامهما قطعية تحت رئاسة عثمان نجيب باشا

فشرع كل من هذه اللجنات في اجراء ما عهد اليه . وفي ١٨ ذي القعدة سنة ١٢٩٩ هـ او ٢ اكتوبر سنة ١٨٨٢ م تعين الشيخ محمد العباسي لمشيخة الجامع الازهر بدلاً من الشيخ الامبابي . وكافأ الجناب الخديوي سلطان باشا بعشرة آلاف جنيه على صداقته التي ابداها اثناء الثورة . ثم اصدر الجناب العالي امراً بالغاء الجيش المصري لصرف العساكر التي جاهرت بالعصيان والاكتفاء بمحاكمة الضباط وكبار القادة كعرابي وعبد العال وغيرهما . ثم امر بتنظيم جند جديد . وفي ١١ ذي القعده او ٢٤ اكتوبر صدر العفو عن الملازمين واليوزباشية الذين كانوا في جيش عرابي مع بعض استثناء

وانعم الجناب الخديوي بالنيشان المجيدي والعثماني من رتب مختلفة على ٥٢ من ضباط الجيش الانكليزي . واخذت الحكومة المصرية بمشاركة قناصل الدول في تسكين البال وتوطيد الراحة والقبض على من اشترك بتلك الثورة ومكافأة الذين ساعدوا على في اطفائها وبرهنوا على اخلاصهم لمليك البلاد • وعينت في الاسكندرية لجنة للنظر في تعويض الخسائر التى تكبدها اهاليها بسبب الحرق والنهب

واخذت الحكومة في محاكمة زعماء الثورة العرابية على ايدي اللجان المتقدم ذكرها وفرغت من ذلك في ٣ دسمبر سنة ١٨٨٢ ثم التأمت اللجنة مراراً للنظر في تثبيت تلك الاحكام ثم عرضت على الجناب العالي فتكرم بالعفو عمن حكم عليهم بالقتل فأصبحت الاحكام بعد ذلك العفو تقضي بتجريدهم من الرتب والنياشين ونفيهم وهاك ما صدر بشأن ذلك

(١) الحكم الصادر على كل من احمد عرابي وطلبه عصمت وعبد العال حلمي ومحمود سامى وعلي فهمي ومحمود فهمي ويعقوب سامي المقتضي جزاؤهم بالقصاص وقع تعديله بالنفى الى الابد من الاقطار المصرية وملحقاتها

(٢) ان هذ العفو يبطل ويقع اجراء الحكم على المذكورين بالقتل اذا رجعوا الى الاقطار المصرية او ملحقاتها

ثم ارتأى مجلس النظار ان تضبط املاكهم المنقولة وغير المنقولة وان يعين لهم في مقابل ذلك راتب سنوي كاف لمعيشتهم فصدر بذلك امر عال في ٢٠ شوال او ١٤ دسمبر من تلك السنة فعينت لجنة لاجراء ذلك . ثم صدرت الاحكام المختلفة على من بقي من اتباع عرابي كل بحسب استحقاقه . وكان الامر بالنفي على ما تقدم يقضي بتسفيرهم حالا وانما رأت الحضرة الخديوية امهالهم الى ١٦ صفر او ٢٧ دسمبر وعند ذلك ركبوا في قطار مخصوص مع من ارادوا استصحابه من ذويهم الى السويس ومنها الى جزيرة سيلان منفاهم

وما زالوا هناك الى سنة ١٩٠١ حتى اذن الجناب الخديوي لهم بالعودة الى مصر يقضون فيها بقية حياتهم بدلاً من منفاهم في سيلان . وقد توسط لهم بذلك « الدوك اوف كورنول ويورك » ولي عهد انكلترا يومئذ بعد زيارته سيلان ومشاهدة المنفيين في منفاهم مع ما يغشاهم من الذل والضعف . وقدم احمد عرابي الى هذا القطر بعد غيابه ١٩ عاماً

ثم أصدر الجناب الخديوي امراً عالياً بتاريخ ٢٢ صفر سنة ١٣٠٠ الموافق ٣ يناير سنة ١٨٨٣ ميلادية بالعفو عن اهالي القطر المصري الذين اشتركوا في الثورة العرابية ما عدا الذين سبق صدور الحكم عليهم لغاية تاريخه

ولاحظ رياض باشا ان نيات الانكليز منصرفة الى التساهل مع عرابي ورفقائه في اثناء محاكمتهم وهو يريد التشديد فأبت نفسه الكظم على ما في ضميره فقدم استعفائه من النظارة الداخلية وخاضت الجرائد بهذا الشأن ولا سيما جريدة الدبيا وابانت ما لهذا الوزير الخطير من المآثر الغراء في التنظيمات الادارية وحرية التصرف بالاحكام . وقد اجمعت تلك الجرائد على استحسان فعله مؤثراً الاستعفاء على قبول خدمة لا يستطيع فيها التصرف بالحرية التي تقتضيها مصالح الامة التي هو اكثر الناس غيرة عليها . فلما قبل استعفاؤه عين بدلاً منه اسماعيل باشا أيوب ثم توفي هذا بعد يسير فعين بدلاً منه خيري باشا

***

مصر القاهرة هي عاصمة القطر المصري على بعد ٢٢٠ كيلو متر من الاسكندرية والآن نبين لقرائنا الكرام اسماء المديريات الستة الواقعة في الوجه البحري ما بين

مصر والاسكندرية والقرى والبلاد الشهيرة فيها واحوالها التاريخية والادارية على الوجه الآتي :

« مريوط »

هي قرية واقعة في الجهة الغربية من الاسكندرية على ساحل البحيرة المسماة (بحيرة مريوط) ومساحتها السطحية في زمن التحاريق ٥٣٠ متر مربع وفي زمن فيضان النيل ٧٥٠ متراً . ولما حاصروا الانكليزمدينة الاسكندرية سنة ١٨٠١ تحت قيادة الجنرال (هوجونسون) وحفروا الخنادق حولها طفت مياه البحر واغرقت اربعين قرية وكان فيها كثيراً من كرم العنب وكانوا يستخرجون منها كمية كبيرة من النبيذ الطيب الذي يحاكي بشهرته نبيذ (بوردو) قامر محمد علي باشا بتجفيف هذه البحيرة فلم يتيسر له ذلك ولذا صارت عديمة الاهمية ومع ذلك انشأ فيها كشك من الخشب وكان يقيم فيه احياناً في زمن الصيف ثم مدت فيها السكة الحديدية لاتصالها بالاسكندرية

مديريات الوجه البحري

« مديرية القليوبية »

هذه المديرية كائنة في جنوب الوجه البحري وهي اصغر المديريات واقعة على فرع النيل الشرقي وهي بين مديريتي المنوفية والشرقية ومنقسمة الى ثلاث مراكز . الاول طوخ والثاني نوى والثالث قليوب . ومساحتها السطحية ٩٢٧٠ كيلومتر مربع وسكانها ٥٧٥ ٤٤٣ نفس . وطبيعة ارضها لا تختلف عن غيرها من باقي جهات الوجه البحري . وفي نهايتها من الشمال بندر (بنها العسل) المشهور بجودة عسله . وبالقرب منها توجد (بربه) كانت في قديم الزمان اعظم مدينة من مدن مصر في الكبر والاتساع وكان فيها اثني عشر باباً وعلى حسب اقوال المؤرخين انها من خرابات (اتر يبيس) . وفي جوارها خرابات مدينة « بوباستس » القديمة التي كانت مركز حكومة العائلة الثامنة والعشرين من الفراعنة

« مديرية الشرقية »

وهي محدودة من الغرب بمديرية الغربية ومن الشمال بمديرية الدقهلية ومن

الجنوب الغربي بمديرية القليوبية وهي محصورة من الجنوب والشرق بالبادية . وهي خمسة مراكز . الاول بندر (الزقازيق) وهي على بعد ٧٥ ميلا عن السويس في الشمال الغربي منه ويصلها بهـا السكة حديدية ومساحتها السطحية ٣٤٢٥ كيلومتر مربع وعدد سكانها ٣٤٦ ٨٨٦ نفس فيها كثير من الاعراب والافرنج وا كثر ما يدور عليه رحى التجارة فيها القطن يأتيها من جميع انحاء المديرية ويحلج فيها . اما اهميتها التجارية فقد ازدادت كثيراً وعظمت منذ مرّت بها ترعة الماء العذب ووصلت بينها وبين السويس والاسماعيلية . وفي جوارها خرابات مدينة « بوباستس » القديمة التي كانت مركزاً لحكومة العائلة الثامنة والعشرين من الفراعنة

والثاني مركز : منيا القمح . والثالث مركز : بلبيس Belbeis على بحر أبي منجا وهو فرع من النيل سمي قديماً الفرع البلوس . تبعد ٢٨ كيلومتراً عن القاهرة الى الشمال الشرقي جعلها محمد علي قصبة ناحية بمديرية الشرقية في البحيرة . عدد سكانها ٦٠٠٠ نفس وهي مدينة قديمة ولما حاصرها عمرو بن العاص قاومت مدة شهر تقريباً وبعد فتحها سبا اهلها وكان من جملتهم بنت المقوقس ولما علم بها عمرو ارسلها لابيها ومعها كل ما كان لها من الاموال وكان المقوقس في ذاك الوقت حاكما على مصر من طرف قيصر الروم وكان اسمه بين العرب (جريج بن مينا القبطي) ويسمى عند اليونان (قرقب)

وذكر في خطط المقريزي احد مشاهير مؤرخي العرب الذي توفي بمصر في سنة ٨٤٠ هجرية ان يوسف عليه السلام لما جاء والده يعقوب الى مصر اسكنه في بلدة بلبيس وهي ارض (جاسان) المذكورة في التوراة . ويقال ايضاً ان موسى عليه السلام ولد في هذه البلدة سنة ١٧٢٥ قبل المسيح . ويحكى بين الناس ان التل الذي يشاهد في جهة سفط الحنا ذبح فيه عجل بني اسرائيل ودفن فيه وهذه البلدة مشهورة بزراعة الحنا . وكانت هذه المدينة ذات اهمية وزهو في الايام الماضية . ذكرها المتنبي بقوله :

جزى عرباً امست ببلبيس ربها ❊ بسعاتها تقرر بذاك عيونها

وما زالت بلبيس من مدائن مصر الكبرى حتى نزل عليها (اموري) الفرنجي ملك اورشليم واخذها عنوة بعد حصار طويل وقتل من اهلها مقتلة عظيمة وذلك في سنة ٥٥٩ هجرية وكان المحاصر بها اسد الدين شيركوه بن شاذي وملكها الافرنج ثانية سنة ٥٦٤ وسبوا اهلها وقتلوا منهم جمهوراً غفيراً . وكان الناصر لدين الله

العباسي قد انشأ بها مدرسة عظيمة تخربت في القرن السابع للهجرة . والحوادث التي ألمّت بمصر سنة ٨٠٦ كانت داعياً لخراب هذه المدينة ولما دخل (بونابرت) مصر رمم حصونها وقد زعم (غيليوم) الصوري وكثيرون غيره انها مدينة بيلوسة القديمة والحال انهم وهموا والمرجح انها فريتوس كما قال (دانفيل) لانه وُجدت عدة كتب قبطية ترجمت فيها لفظة (فريتوس) اليونانية بلفظة بلبيس وقيل انها سميت قديماً بآموس وسماها القبط (فلبس)

والرابع مركز (هميا) وملحقاتها يحتوي على ٣١ قرية . والخامس مركز : (كفر صقر) والسادس مركز : (فاقوس) ومن قراها قرية الصالحية اسسها الملك الصالح نجم الدين الايوبي بن الملك الكامل بن الملك العادل ابو بكر ايوب في سنة ٦٤٠ هجرية وانشأ فيها قصر ملوكي وبعد قليل من الزمن تسلطن الملك الظاهر (بيبرس) وانشأ طريق بين الصالحية والشام وصرف عليه اموالا وسماه (الطريق السلطاني) وعمل فيه بريد كان يذهب من مصر الى الشام ويعود منها في ظرف اسبوع واحد . وعلى حسب التاريخ ان اول من احدث البريد هو (دارا بن بهمن) من ملوك العجم كما وان المهدي بن جعفر المنصور من خلفاء العباسيين انشأ البريد بين مكة المكرمة والمدينة المنورة واليمن والكوفة بواسطة البغال والهجن في سنة ١٦٦ هجرية

وانشأ المشار اليه بيبرس في الطريق المذكور محطات للبريد متقاربة من بعضها كانت سبباً لزيادة العمار ووجود الامن لعابري الطريق الى ان جاء تيمورلنك الى الشام وخرب هذا الطريق بما فيه من المباني والقرى المجاورة له

وكانت قرية الصالحية مركزاً للجنود العثمانية زمن دخول جيش نابوليون بونابرت في مصر

وهذه المديرية يبلغ عدد سكانها ٣٤٦ ٨٨٦ نفس والبلاد التابعة لها ٣٧٨ وفيها عشرين قبيلة من العربان ومساحتها السطحية ٣٤٢٥ كيلو متر مربع واراضيها الزراعية ١٩٧ ٨٢ فدان واشهر محصولاتها القطن والحرير والقمح والفول والدره والشعير والرز والبلح

« مديرية الدقهلية »

هذه المديرية واقعة على الساحل الشرقي من البحر الابيض وعلى يمين الفرع الشرقي من النيل الذي يمر بدمياط وهي محدودة من الشمال الغربي بمديرية الغربية . ومن

الجنوب الشرقي بمديرية الشرقية . ومحاطة بالبحر من الشمال الشرقي . وهي منقسمة الى ستة مرا كز . الاول مركز :المنصورة . التي اسسها الملك الكامل ناصر الدين بن محمد وحصنها بالقلاع والاستحكامات في سنة ٦٠٦ هجرية

وعقب وفاته حل محله الملك الصالح نجم الدين بن الملك الكامل ولم يمض عليه زمن حتى مرض وفي اثناء مرضه هاجمه (لوئي) التاسع من ملوك فرانسا وهو من عائلة (قابي سين) التي حكمت فرانسا بالتسلسل من سنة ٩٨٧ الى ١٣٢٨ ميلادية ولوئي المذكور معروف في الكتب التاريخية وفي كنيسة روما باسم لوى المقدس (سن لوئي) ووضع نفسه في صف المقدسين ويعمل له عيد ميلاده في ٢٥ اغسطس من كل سنة

ولوئي المشار اليه كان مرض مرضاً شديداً سنة ١٢٤٤ مسيحية فنذر على نفسه انه اذا شفي من مرضه يتوجه الى الاراضي المقدسة لمحاربة المسلمين . ولما عوفي جاء من طريق البحر الابيض الى جزيرة قبرص وبعد ان اقام فيها بضعة ايام زحف بجيشه الى ثغر دمياط وصادف وقت دخوله وفاة الملك الصالح . وعند ذلك دبر وزرائه حيلة في اخفاء خبر وفاته وكتموه عن العسا كر والاهالي . لكن رغماً عن كل ذلك علم به لوئي المذكور فهاجم في الحال مدينة المنصوره . وعند ذلك حصلت مقاتلات عنيفة براً وبحراً ولسبب الخداع الذي استعملته العسا كر الاسلاميــة ضعفت قوة الفرنساويين بسبب التلفيات التي حصلت فيها . لكن لوجود بعض الخونه من الاهالي بصفتهم مسلمين اغروا الفرنساويين على الهجوم فهجموا على المدينة عند الصباح بغتة ودخلوا سراي الملك فهجم عليهم احد المماليك المدعو بيبرس وزملائه وهم الحرَس المسلح بالسيوف والات المضاربة واخرجوهم من السراية والسور والخندق ولا يزالون يتتبعونهم بالضرب حتى اوصلوهم الى جزيرة بالقرب من دمياط وهي المعروفة الان (برأس البر) وحاصروهم فيها

ولما شاع خبر وفاة الملك الصالح وصار معلوماً للخاص والعام اتفق امراء السلطنة على احضار ابنه توران شاه الذي كان وقتئذ (بحيفا) وارسلوا اليه يدعوه فحضر وكان وصوله في شهر ذي القعدة سنة ٦٤٠ هجرية وبايعوه في مدينة المنصورة وكانت هي مقر السلطنة

وبعد ذلك اخذت العسا كر في الهجوم عليهم ففروا والعسا كر يتبعونهم الى ان وصلوا مدينة دمياط فحاصرهم الطواشي جمال الدين محسن فسلموا انفسهم واخذهم

الى المنصورة وانزلهم في بيت ابن لقمان

واخيراً حصل الصلح على شرط ان يدفع الملك لوئي سبع ملايين فرنك على حساب هذا العصر لخلاص نفسه من الاسر وان يخلي مدينة دمياط وان لا يعود مرة أخرى لمحاربة المسلمين وقسم اليمين بذلك وعلى هذا الشرط تخلص من الاسر

والثاني مركز . منية سمنود . والثالث مركز . ميت غمر . والرابع مركز . السنبلاوين . والخامس مركز : دكرنس . ومن داخل هذا المركز قرية اشمون الرمان وكانت بلدة عظيمة ومحاطة بسور ثم هدمه المتوكل العباسي كما هدم اسوار دمياط ورشيد وتنس . ويروى كانت مدينة عظيمة ومقر السلطنة العائلة الثامنة والعشرين من الفراعنة . ويستدل على ذلك من الانقاض الباقية في الجهة الغربية من النيل

والسادس مركز : فارسكو . وكان فيها معامل لنسج المقصب والملك توران شاه الذي سبق ذكره بالملك المعظم وهو الثامن من العائلة الايوبية وخاتمتها بعد ان تغلب على (لولىء) ملك فرنسه وتخلص من غائلة الحرب طلب من (شجرة الدر) زوجة ابيه ما خصه في ميراث والده الملك الصالح وسلط عليها المماليك فهددوها بالقتل لشربها المسكرات فلما كانت جالسة على مائدة الطعام ضربوها حتى جرحت وفرت الى داخل برج من الخشب فاشعلوا فيه النيران فماتت محروقة وبعد ثلاثة ايام دفنوها وذلك في يوم الاثنين ١١ محرم سنة ٦٤٨ هـ

وهذه المديرية تحتوي على ٤٢١ من المدن والقرى وسكانها ٩١٢٤٣١ واراضيها المزروعة ٧٩٠٦٧٩ فدان . وليس فيها قبائل للعربان

« مديرية البحيرة »

احدى اقسام مديريات الوجه البحري في الجهة الغربية من فرع النيل الغربي ومحدودة من الشمال بالبحر الابيض ومن الغرب بالصحراء التي تمتد الى حدود بني غازي ومن الجنوب بمديرية الجيزة ومن الشرق ايضاً بمديرية الغربية والمنوفية ومحاطة بهما وهي تنقسم الى سبعة مراكز . الاول مركز دمنهور وكان اسمها (حوريس) وهو اسم معبود لقدماء المصريين معناه (بم النهور) كما روا عن المشتغلين باللغات القديمة

ومدينة دمنهور كائنة على بعد ٦٢ كيلو متر من الجنوب الشرقي للاسكندرية

و٤٠ كيلو متر من الشمال الغربي لمصر وواقعة على الترعة الواصلة الى رشيد وعلى خط السكة الحديد الموصل من الاسكندرية الى مصر وعلى فرع السكة الحديدية الموصلة الى رشيد ودسوق فهي نقطة يجتمع فيها الثلاث خطوط المذكورة وسكانها ٥٠٠٠٠ .

وقال معلي الطائي يخاطب عبيد بن السري بن الحكم وقد هاجم خالد بن مزيد بدمنهور فهزمه

فيامن رأى جيشاً ملا الارض فيضه اطل عليه بالهزيمة واحدُ
تبوّأ دمنهوراً فدُمر جيشه وَعرّض تحت الليل والليل راكدُ

وهذه المدينة كانت في القديم ذات شهرة ولاسيا في منسوجاتها المعروفة بالدمنهورية لكن لم يبق لها الآن شيء من تلك الشهرة . وقيل ان اسمها مأخوذ قديماً من اسم ملك قبطي فسميت (تيمي ان هور) اي بلدة هوروس وخربت سنة ١٣٠٢ م بزلزلة هائلة فرُممت حالاً وسنة ١٣٨٩ م احيطت بالاسوار بأمر السلطان برقوق من دولة المماليك

والثاني مركز : رشيد وهي مدينة كائنة على الفرع الشرقي للنيل في الشمال الغربي لمصر على بعد ١٧٢ كيلو متراً منها وعلى بعد ١٢ كيلو متراً من تلاقي النيل بالبحر الابيض المتوسط وكانت اسكلة لمراكب النيل التي تشحن البضايع الآتية من الخارج . ولو انها سقطت اهميتها بسبب تقدم الاسكندرية الا ان تجارتها كثيرة في صنف الرز لانها احسن مركزاً في زراعة هذا الصنف المشهور بجودته وفيه ٢١ قرية المشهور منها العطف ومحلة الامير وفزار ومعظم اهاليها لهم معاملات مع اهالي بني غازي حيث يذهبون اليها ويعودون منها في يوم واحد

والثالث مركز : كفر الدوار . والرابع مركز . ابو حمص وفيه ٥٧ قرية المشهور منها قرية الجرادة وحوش عيسى وبركة غطاس

والخامس مركز . شبراخيت والسادس مركز . ايتاى البارود . والسابع مركز النخيلة . وجميع القرى التي تحتوي عليها هذه المديرية ١١٦ قرية وعدد سكانها ٨٣٠٠١٥ نفس ومساحتها ٩٤٧٢ كيلومتر واراضيها المزروعة ٩٠٧٣٤٣ فدان . واراضي هذه المديرية متكونة من الطمي الذي تتركه مياه النيل فوقها . ونظراً لقربها من البحر المالح توجد فيها الامطار فتكثر محصولاتها وبالاخص محصول الرز وهواؤها رديء لكثرة وجود المياه الراكدة فيها رغماً عن مساعي الحكومة بردم البرك والمستنقعات بواسطة عمل الترع والجداول لتصريفها

« مديرية الغربية »

هذه المديرية واقعة بين فرعي النيل الشرقي والغربي ومتصلة بمديرية المنوفية وفيها الولي المشهور السيد احمد البدوي من اولياء الله الكرام المدفون بمديرية طنطا وهي الجهة السفلى من مصر على بعد ٩٨ كيلو متر منها في صحرة واسعة منبتة في وسط جملة فروع من النيل وفي نقطة تلاقي خطين من السكة الحديدية

والسيد احمد المشار اليه متضمن الائمة الاثنى عشر رضي الله تعالى عنه ومن سلالة زين العابدين بن الحسن بن علي بن ابي طالب . ومولده في فارس سنة ٦٠٣ هـ وهاجر مع ابيه الى مكة المكرمة وتلقى فيها العلوم والمعارف و بعد ذلك ظهرت عليه الكرامات الالهية ثم حضر الى طنطا وتوفي سنة ٦٧٨ هـ وكان عمره ٧٦ سنة .

والاصل في مولد السيد البدوي على ما نقل المرحوم عبد الله باشا فكري في جغرافية مصر عن الجواهر انه لما توفي حدث لهم بعد ايام عمل المولد النبوي عنده وصار يوماً مشهوداً قال : ويؤخذ منه ان اصل مولد السيد مولد النبي « صلعم » وكانت وفاة السيد في ١٢ ربيع الاول وهو وقت المولد النبوي وعن بعض المشايخ ان الاصل في ذلك ان اتباعه لما سمعوا بوفاته حضروا الى طنطا باتباعهم ليعزوا خليفة الشيخ عبد المتعال وكانوا كثيرين وطنطا لا تسعهم فضربوا خيامهم خارجها حيث يعمل المولد الكبير وقاموا ثلاثة ايام فلما ارادوا الرحيل ركب معهم الشيخ عبد المتعال متبعاً فقالوا له هذه عادة مستمرة نحضرها هنا كل عام في هذا الميعاد الى ما شاء الله فاستمرت هذه العادة فنشأ منها المولد الكبير. وكان في الاصل ثلاثة ايام ولم يزل يزداد الى ان وصل الى ما عليه الآن كما ان مشي ركوب الخليفة في آخر المولد ركوب الشيخ عبد المتعال مشيعاً لهم . وأما منشأ المولد الصغير فهو ان الشيخ الشرنبلالي احد مشايخ الطائفة الاحمدية حضر للزيارة مع تلامذته واتباعه في غير وقت المولد فاقام بهم اياماً في ذكر وعبادة ثم اتخذ ذلك عادة سنوية . ومن دأب اصحاب الطرق انه متى وقع لهم شيء مرة اتخذوه عادة فلما كان هذا المولد يعرف بالمولد الشرنبلالي . وأما المولد الرجبي فهو منسوب الى الشيخ الرجبي من مشايخ الطريقة الاحمدية وكان لا بد له ان يجدد العمامة التي على مقام السيد فاتخذ لها مقداراً كافياً من الشاش المصبوغ باللون الاخضر وحضر به مع جماعته ومريديه فدخلوا طنطا في جمع حافل من المشايخ والمريدين وعلى ايدي جماعة منهم الشاش المعد للعمامة فصار ذلك الى الآن عادة

معتادة . ويعرف هذا المولد بمولد لف العمامة وتجدد فيه العمامة كل عام فصارت الموالد ثلاثة وقررت مواعيدها بالشهور القبطية رعاية لاوقات النيل والري ولا يتغير مواعيدها الا بأوامر الحكومة فالمولد الكبير في اول شهر مسري والصغير في برموده والرجبي قبل الصغير بنحو مئة يوم وهو مولد مختصر بالنسبة لغيره واما المولدان الآخران فيكون فيهما من الاحتفال والزحام ما لا يفوقهما فيه غير موسم الحج

ومديرية الغربية تنقسم الى اثنى عشر مركز : الاول طنطا . والثاني مركز : كفر الشيخ وقراه المشهورة اريمون وقلين وبلتاج ومحلة القصب والوزية وسخا

ويقال ان المؤسس لبلدة سخا هو « واكسويس » المنسوب للعائلة الرابعة من الفراعنة سنة ٣٠٢٠ قبل الهجرة التي حكمت مدة ١٨٤ سنة لحد وقت استيلاء الرعاة

وفي سنة ٢١٧ هـ حصلت فيها ثورة فحضر المأمون أحد الخلفاء العباسيين لتسكينها وكان عيسى بن منصور الرافعي والياً على مصر فعزله وبحكمته وتدابيره اعاد فيها الهدو والسكينة

والرابع مركز : الصنطا وقراه الشهيرة القرشية والجعفرية وابو لجهور ومنية البندره وطوخ المزيد والحلامشه

والرابع مركز: دسوق وقراه الشهيرة شباس الشهدا وشباس الملح وسنهور المدينة والصافية وبلدة دسوق واقعة على الساحل الشرقي للنيل الموصل الى رشيد وفيها مقام السيد ابراهيم الدسوقي ويعمل له مولد في كل سنة يجتمع فيه كثيراً من اهل الطرق وولد فيها ٦٠٣ وعاش ٧٦ سنة ودفن فيها

والخامس مركز : زفتى وقراه الشهيرة الرجابيه والعزيزيه وشبرا الملس وسنباط وسند البسط وتفهنه العرب ودمنهور الوحش وشبرا النجوم

والشيخ ابراهيم السقا ولد في قرية شبرا النجوم سنة ١٢١٢ هـ وهو من اشهر افاضل العلماء بالجامع الازهر وعمل الحاشية على شرح العقيدة للباجوري من مجلدين وشرح التوحيد لمحمد البلخي ومناسك الحج في المذاهب الاربعة والحاشية على تفسير ابو السعود

والسادس مركز : كفر الزيات وقراه الشهيرة القضابة وابو الفرج وكفر الدوار وصالحجر

والسادس مركز : كفر الزيات وقراه المشهورة القصابة وكفر الدوار وابو الفرج وصالحجر . ويروى في التاريخ انها كانت كرسي سلطنة العائلة الرابعة والعشرين

والسادسة والعشرين والثامنة والعشرين من عائلات الفراعنة ويشاهد فيها تل كبير من الانقاض المتراكمة من ابنية وآثار متعددة

والسابع مركز : طلخا وقراه الشهيره طبره وافنيس وابتو ودفيره وبهوت وبهيت الحجاره

والثامن : مركز فوه وقراه الشهيرة مطوبس وايانه القنا والجيزة الخضرا وكانت فوه من اعظم المدن وهي على ساحل النيل وكان اسمها « ميتليس » فمع تمادي الزمن وتراكم الرمل تحول مجرى النيل فدخل في النيل ومحى اثرها . وكان المرحوم محمد علي باشا في مبدإ توليته بنى فيها فوريقة لعمل الطرابيش والاقمشة وبكل اسف تخربت من بعده ولم يبق فيها غير آثار بنائها المهدم

والتاسع : مركز شربين وقراه الشهيرة بسنديله وأبو ماضي ورأس الخليج وكفر البطيخ وظهر من قرية شربين المذكورة الشيخ العلامة محمد بن احمد الشربيني من علماء القرن العاشر وكان طبيباً في الجامع الازهر ومن مؤلفاته التفسير المسمى بتفسير الخطيب الشربيني

العاشر مركز : المحلة الكبرى . والحادي عشر : مركز البرلس . وعدد سكان هذه المديرية ١٤٨٤٨١٤ نفس وقراها ٥٦٩ وفيها ٢٢ قبيلة من العربان ومساحتها ٦٥٦٤ كيلومتر مربع واراضيها المزروعة ١٣٦٤٩٩ فدان واشهر محصولاتها القطن والقمح والذره والشعير والبطيخ والسمك وهي اكبر جميع مديريات الوجه البحري واطيانها اكثر خصوبة

« مديرية المنوفية »

هذه المديرية واقعة بين الفرع الغربي والشرقي للنيل ومتصلة بمديرية الغربية ومركز حكومتها شبين الكوم ومنقسمة الى اربع مراكز . الاول مركز شبين الكوم وفيه ٦٢ قرية

والثاني : منوفيه وفيه ٦٥ قرية والثالث اشمون وفيه ٦٦ قرية

والرابع : قويسنا وفيه ٦٢ قرية

وعدد سكان هذه المديرية ٩٧١٠٨١ نفس وقراه المعمورة ٢٥٥ واراضيها المزروعه ٥٥٩٠٠٣ فدان وهي اكثر خصوبة من جميع المديريات

اشمون Ashmoun : قال ياقوت اشمون ويقال لها الاشمونين مدينة قديمة ازلية عامرة آهلة الى هذه الغاية وهي قصبة كورة من كور الصعيد الادنى غربي النيل

ذات بساتين ونخل كثير سميت باسم عامرها وهو اشمن او « اشمون » بن مصر بن بيصر . قالوا قسم مصر بن بيصر نواحي مصر بين اولاده فجعل لابنه اشمن من اشمون فما دونها الى منف في الشرق والغرب وسكن اشمن اشمون فسميت به . وينسب اليها جماعة

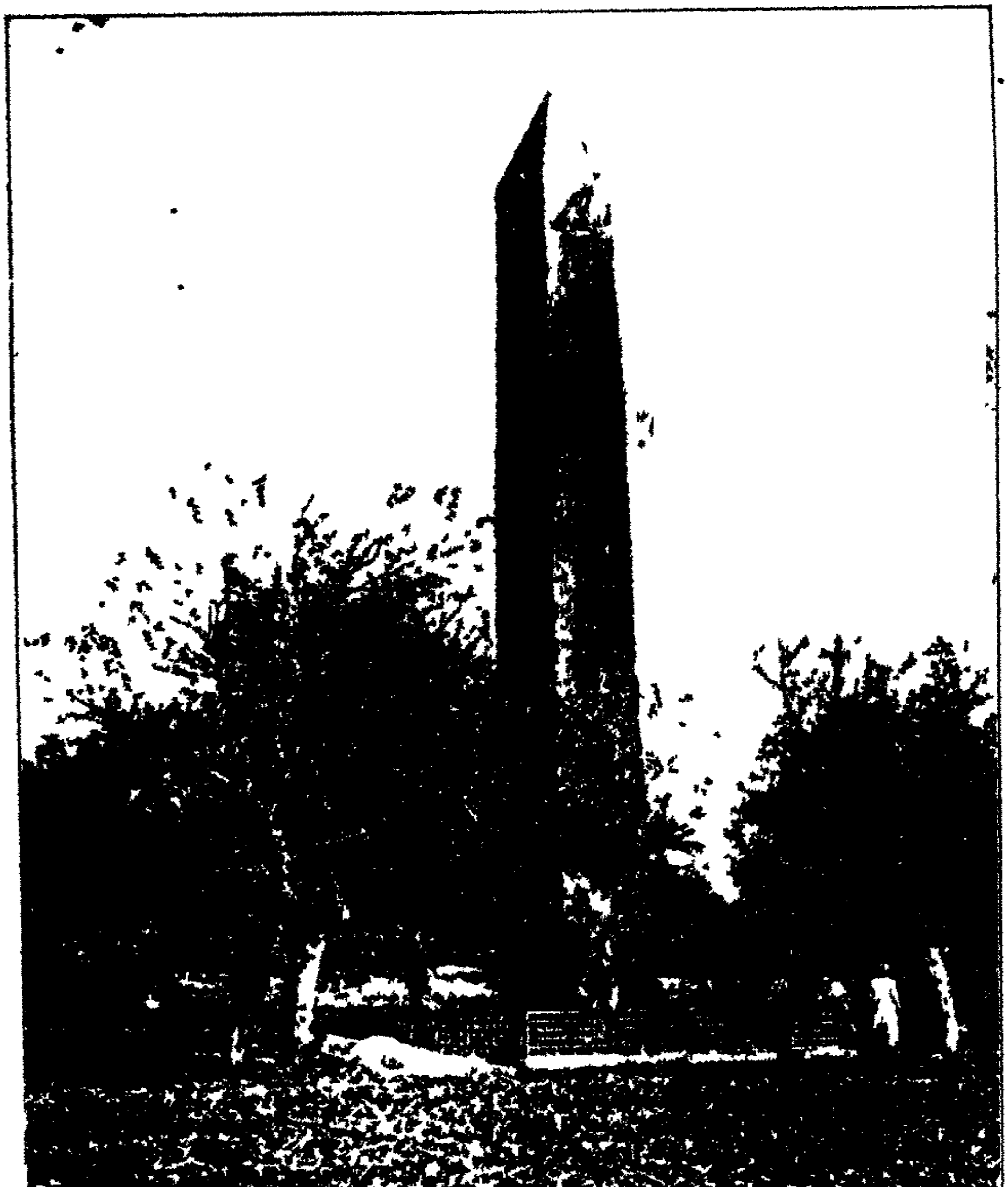
اما خليج اشمون فهو المسمى بخليج المنزلة وهو يبتدئ من المنصورة وينصب في بحيرة المنزلة قرب مدينة المنزلة وطوله الى حد البحيرة المذكورة ١٣ فرسخاً . وقال ابن الاثير هو خليج من النيل يسمى بحر اشمون وعليه كانت الوقفة بين الافرنج وعساكر الكامل والاشرف الايوبيين لاسترجاع دمياط منهم سنة ٦١٤ هجرية

« المطرية »

هي بلدة واقعة في الشمال الشرقي من القاهرة على بعد ٩ كيلومترات منها وكانت تابعة لمركز القليوبية والان الحقت بالقاهرة وعدد سكانها ٣٧٠٠ نفس . وسيسونخوسيس Sesonchosis هو « اوسرتسن » الاول الملقب بخبركارع ثاني ملوك العائلة التيبية المصرية الثانية عشرة صاحب المسلة الشهيرة التي لم تزل في المطرية وطولها عشرون متراً و ٢٧ سنتيمتراً وكان قد نصبها امام باب هيكل الشمس المسمى « أتوم » وفي جانبها نصب مسلة اخرى وكلتاهما من الصوان وقد انكسرت المسلة الثانية وامّحت آثارها اما الاولى فلا تزال محفوظة بالكتابات التي على جوانبها الاربعة بالهرمسي وملخصها ان الملك المنصور حياة كل موجود سلطان الوجه القبلي والوجه البحري خبركارع صاحب التاجين وسلالة الشمس اوسرتسن المحب لمعبودات المطرية دام بقاؤه صنع هذا الاثر عند دخول العيد الرسمي تخليداً لذكره واحياء لهذا العيد : انتهى . ووجدت مسلة ثالثة منسوبة اليه في جوار قرية بعبيج نحو جهة الفيوم وعليها نقوش يستفاد منها انه نصبها اكراماً لمعبودات الفيوم

واشتهر في عصره احد مقدميه المسمى « أمنى » وقصته محفورة على حجر نقل من وادي حلفا الى متحف فلورانسا بايطاليا اخذه معه عند ما سار لغزوة اثيوبية فاستظهر على الاعداء . وكان للملك كلمة نافذة عند سكان جبل الطور واستخرج معادن الذهب وغيره من تلك الجهات وكان الامير « منتوحتب » ناظراً للداخلية والعدلية والنافعة والاديان في ايامه على ما ورد في النقوش على حجر في متحف مصر . ويعد سيسونخوسيس مؤسساً لهيكل تيبة . كانت سنو ملكه ٤٥ وقيل ٤٦

فاذا زرت قرية المطرية الآن ووقفت بجانب مسلتها ترى حولك بقعة من الارض فيها الزرع طولها ٤٥٦٠ قدماً بعرض ٣٥٦٠ محاطة بتلال متصلة كانها سور من تراب.



رسم مسلة المطرية

يقول « ماريت » ان هذه البقعة ليست مساحة المدينة وانما هي مساحة الحوش الكبير الذي كان امام هيكل الشمس وجاء على ذلك بأدلة تقرب من الصواب

ومن ملوك هذه العائلة « اوسرتسن الثاني » ويسميه « مانيثون سيزوسترس » ترك آثاراً كثيرة فلما يستفاد منها شيء عن تاريخه وغاية ما علم منها ان مملكة مصر كانت في عصره محافظة على شوكتها متسعة النطاق

ومن ملوكها أيضاً (اوسرتسن) الثالث وكان رجلاً حازماً مقداماً واشتهر بهذه الصفات فارتفعت منزلته في قلوب الاهلين فعبدوه . ومن أعماله انه جرّدَ على السودان (اثيوبيا) وما وراءها لتوسيع نطاق مملكته . وشاد في وادي حلفا قلاعاً منها قلعتان تعرفان الآن (بقمتة) (وسمنة) لمنع الاعداء عن مصر لا تزال تشاهد في اطلالهما الجدران الشامخة والبروج العالية والخنادق وكان في داخلها معابد وعدة مساكن ودمرت الآن

وقد وجد الباحثون حجرين كانا منصوبين على حدود مصر الجنوبية . ذلك ما فهم مما هو مكتوب عليهما . وبعد وفاة هذا الملك بخمسة عشر قرناً اي في عصر العائلة الثامنة عشرة شاد (تحوتمس الثالث) معبداً في سمنة وكتب عليه ابتهالات كان يتلوها المصريون في ذلك الحين . ولهذا الملك هرم في دهشور

ومن ملوك هذه العائلة (امتمحمت الثالث) ولهذا الملك يد بيضاء في أمر النيل وفيضانه في اقليم الفيوم . وذلك ان للنيل كما لا يخفى ارتفاعاً معلوماً اذا بلغه كان عيشاً وحياة الارض مصر واذا زاد عنه كان ضربة ودماراً من انحط عنه . فلما علم هذا الملك همَّ بتدارك الامر . فرأى في الصحراء الغربية من مصر بادية شاسعة الاطراف يمكن غرسها واستغلالها تعرف الآن بوادي الفيوم يفصلها عن وادي النيل الاصلي برزخ قليل الارتفاع . وفي وسط تلك البادية بقعة من الارض تكاد لا تزيد ارتفاعاً عن اراضي وادي النيل تبلغ مساحتها عشرة ملايين من الامتار المربعة . وبجانبه الغربي ارض منخفضة ذات اتساع عظيم تغمرها مياه الطبيعة المعروفة الآن ببركة قارون أو (القرون) طولها يزيد عن عشرة فراسخ فامر بحفر ترعتين توصلان النيل بتلك البقعة احداهما كانت تبتدىء من النيل بجانبه الغربي وتجري بمحاذاة بحر يوسف الحالي . والاخرى كانت تجري شمالاً . وهاتان الترعتان تلتقيان وتصبان في تلك البقعة الفسيحة وجعل عند ملتقاهما قناطر بحواجز تسد وتفتح حسب اللزوم . فكانت تلك البقعة حوض عظيم تجتمع فيه مياه النيل عند فيضانه عرفته ببركة موريس

فان كانت زيادة النيل اقل من احتياج الارض انصرف اليها من مياهه ما يسد احتياجها . انصرف الى بحيرة قارون بواسطة حواجز تسد وتفتح على قدر الحاجة .

وكانت الحكومة في كل سنة قبل ارتفاع النيل تنتدب من يسير الى النوبة مقدار زيادة فى جهة سمنه وقنة وفي تلك الجهات الآن كتابات هيروغليفية تشير الى شيء من ذلك

وكان في وسط بركة موريس هرمان في كل منهما تمثال . واصل كلمة موريس (مري) ومعناها في اللغة المصرية بحيرة وليس كما زعم اليونانيون من انهـا دعيت بذلك نسبة الى اسم احد الفراعنة . واصل كلمة الفيوم (بايوم) مؤداها باللغة المصرية بلد البحر

والى شرقي بحيرة موريس بناء هـائل يعرف باسم (لابرانتا) واسمه بالمصرية (لابوراحونت) الى معبد فم البحر بناه هذا الملك لاجتماع مجلس الاعيان من الكهنة وفي هذا البناء رحبات الى كل من الجانبين فيها من الغرف نحو من ثلاثة الاف غرفة ويحيط بالبناء من الخارج سور عليه نقوش

اما بركة موريس فقد جفت ولم يعد لها أثراً الان . اما موقعها فقد اختلف المهندسون في حقيقته ومن رأي المستر كوب واينهوس انه وقع في واد واسع الى جنوبي بركة قارون بعرض ٤٠َ ٤٨ً و٣٠َ ٢٩ً شمالا وهو معروف الان بوادي الريان . وقد اقترح واينهوس على الحكومة المصرية ان تتخذ هذا الوادي مذخراً لماء النيل كما كان قديماً

وامتدت حدود مملكة هذه العائلة الى بلاد النوبة وكان بينها و بين ليبيا الشمالية وآسيا علاقات تجارية محورها ما بين بني سويف واهناس المدينة . وسبب هذه العلاقات تعلم المصريون من الليبيين علم الرياضة الجسدية (الجباز) اما صناعة البناء في ايام هذه العائلة فقد كانت من الاتقان والتفنن على غاية حتى قيل ان معظم الاعمدة الحلزونية الشكل في الاثار المصرية انما هي من مصنوعات هذه العائلة

ويوجد بالمطرية شجرة جميز كبيرة الحجم تسمى شجرة (العذرا) وبجانبها بئر ويقال ان السيدة مريم لما هربت بولدها عيسى عليه السلام من وجه (هيروت) ملك الاسرائليين اقامت تحت هذه الشجرة وشربت من هذا البئر ويزورونها النـاس لحد الآن ويتبركون بها لان قسس الاقباط يبالغون للزائرين بان عمرها يبلغ نحو الفين سنة

وفي الجهة الشرقية للمطرية محل لشركة اجنبية لتربية النعام فيوجد فيه عدداً كبيراً منها ويبيعون ريشها وبيضها للسواحين وكذا يبيعون منها الواحدة بخمسين او ستين جنيهاً فيربحون منها ربحاً وافراً ولا يوجد غيرها في القطر المصري

وتوجد بلدة اخرى تسمى بالمطرية بمديرية الدقهلية في الشمال الشرقي من مدينة المصورة على بعد ٥٦ كيلو متر منها وواقعة على ساحل بحيرة المنزله

وحاصل القول انه بالنسبة لما اشتهرت به قرية المطرية من حسن موقعها ولطف هوائها قد انشأ دولة الامير يوسف كمال باشا في الجهة الشرقية منها قصراً عالياً مشيد الاركان ومشرفاً على كل ما حوله ويستحق ان تسميه (بقصر جهانما) وهو قصر من قصور ملوك آل عثمان ويفوق في الزخرفة والتزينات والمتانة (قصر الخورنق) وهو قصر في بلاد العراق بناه المعمار الشهير (سنمار) للنعمان احد ملوك العرب

« قصيدة باللغة التركية في وصف القصر المذكور »

(١) كور مدى شمديه دك ديدهٔ أم دنيا
بويله بر قصر صفا بخش مسرت افزا

(٢) رشك ايدركورسه اكرطرح بديعن سنمار
نقش ايوانه ده « مانى » ايده غبطه سزا

(٣) طاق پر رونق ايوانـ سماپايه سنه
رشك ايدر كُنبدنه طاق سپهر والا

(٤) هله احجار صف سُلّم عاليسي كيم
قلم صُنع الاهى ايله هپ نقش آرا

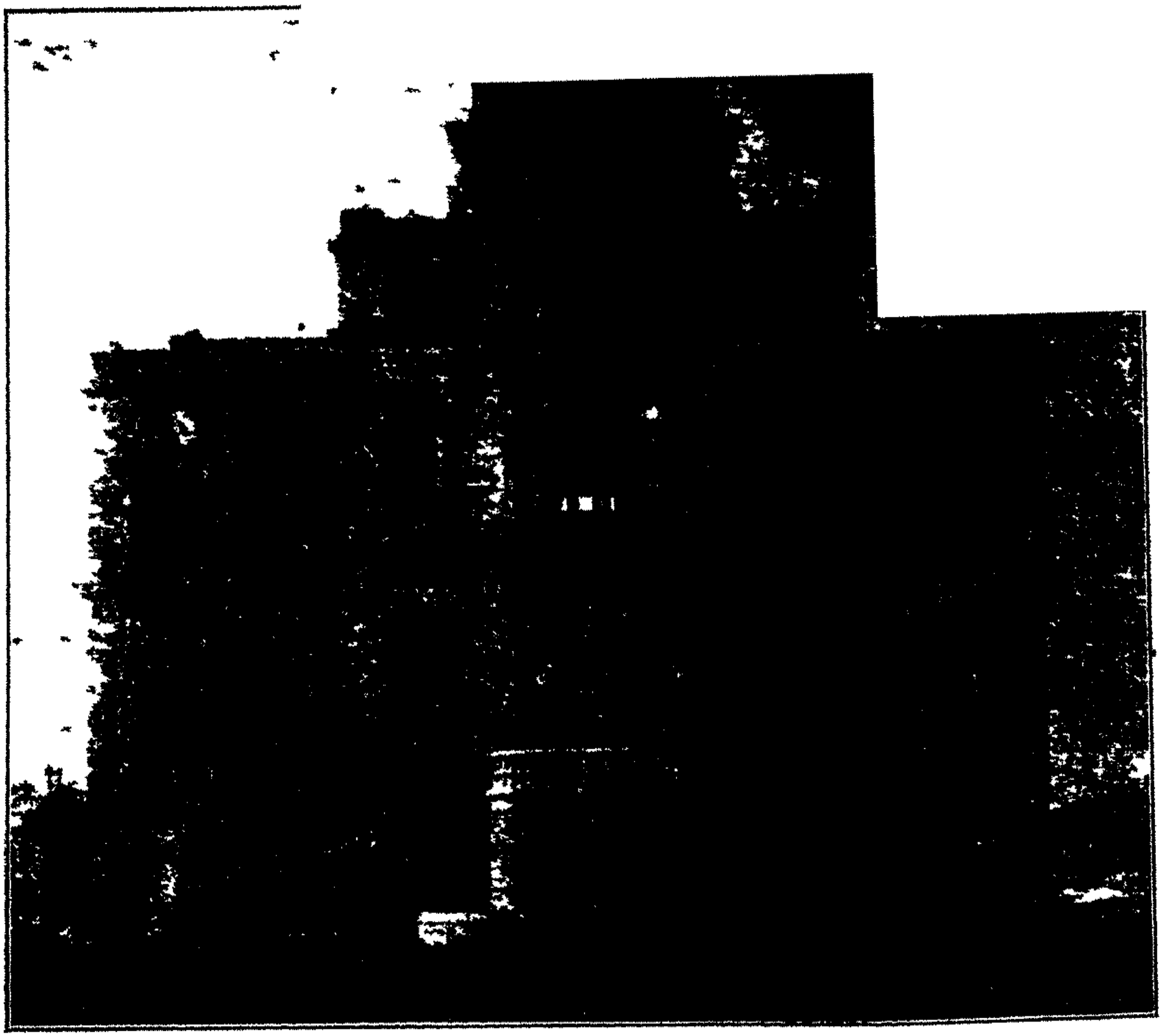
(٥) اوقدرصاف ومجلادرانك سنگ رخامى
قاير پاى نظرى ايتسه نظر برار اكا

(٦) شب يلداده انك سقف سما پايه سنه
رشك ايدر خرگه پر كوكب رخشان سما

(٧) ماه نخشب كبي بيكلرجه سراح انور
درو بيرون ودرو نده اولوب شعله نما

(٨) نقش مفروش نظر جلب دل آراسته كيم
نقش ار ژنگ قالو رنسبت اكابك ادنا

(٩) شامهٔ اهل جهانى ايدر بر مشك وعبير
گر گذر ايتسه انك كلشنه باد صبا



رسم قصر دولة الامير يوسف كمال پاشا بالمطرية

(١٠) سوسن وسنبل وگل، نرگس ونسرینی گیم
غبطه بخشای گلستان ارم اولسه بجـا
(١١) سنبلی زلف دل آرا کبی پر نکهت وبوی
یاسمینده بیاض سینهٔ سیمینبر ماه لقا
(١٢) لاله سی رنگ رخ شاهد پر غنج وناز
گللری لعل لعب دلبر شیرین ادا
(١٣) سوسنی صحن چمنزاروده بلبل آسا
صد زبان ایله نوله اوله اوده نغمه سَرا
(١٤) جام زرین برینه بزمگه میکده ده
النه السه نوله نرگسی ساقی باده پیما
(١٥) باش چکوب سقف سماواته که هر بر شجری
قدّ دلبر کبی موزون وبلندو رعنا
(١٦) اولدی بو قصر فرحبخش اقامتگاه
داور عالی نژاد حضرت یوسف پاشا
(١٧) شاهد خُلقنه دلداده هپ ارباب سخن
عقل وعرفانته مفتون صنوف عُرفا
(١٨) (مهریا) ختم کلام ایله درون دلدن
آل آچوب درگه مولاده اکا ایله دعا
(١٩) تا اوله نیل مبارك سوی در یایه روان
تا اوله جیزه ده اهرام دخی پا برجا
(٢٠) عزو اقبال ایله اول قصر فرح افزاده
شادی وعیش وطرب ذوق وصفا ایله یاشا

« الترجمة بالعربية »

(١) لم تر ام الدنيا الى يومنا هذا قصراً ذا أبهةً ورونقاً وبهاءً وسروراً مثل هذا القصر

(٢) لو رآه البناء الشهير (سنمار) لحسده على بديع وضعهِ . ويحق الرسام الشهير (مأني) ان يغبط على حسن نقوش ايوانهِ

(٣) رونق قبة ايوانه تحكي السماء علواً . كما تحسد قباب السبع السماوات العلا

(٤) لا سيما الاحجار المزين بها سلمها . فكلها منقوشة صنع القلم الالهي

(٥) ما أجلى مرمرها اذا نظرت اليه يرتد عنها البصر

(٦) وسقفه العالي المنير في ظلام الليل . تحسده خيمة السماء المزينة بالكواكب

(٧) الوف من المصابيح تتلألأ على بابه من خارجه وداخله (كقمر نخشب) المقنع الخراساني (١)

(٨) نقش غرفها الجميلة تسر النظر ، تفوق نقش (ارژنگ)

(٩) واذا مر نسيم الصبا على ازهار روضته . شم منه العالم عبير المسك والعنبر

(١٠) تغار ازهار حديقة ارم ذات العماد من وردها وسوسنها ونرجسها ونسرينها وسنبلها

(١١) سنبلها كطرة الغانية المعطر . وبياض ياسمينها يشبه صدر الحبيبة

(١٢) شقايق نعمانها كلون وجه معشوقة طبعها الحنان . وردها كلون شفة حبيب عذب البيان

(١٣) وما ضر سوسنها لو غنى بألسنة كالعندليب على بساطها السندسي

(١٤) وما ضر الساقي في مجلس الانس لو استعاض بنرجسها عن كاس من الذهب

(١٥) كأن شجرها وقد طاول برأسه السماء كأنها تماثل قد المحبوب لطفاً واعتدالا

(١٦) هذه الحديقة قطعة من رياض الرضوان وهذا القصر الشامخ عديم المثال مقر اقامة دولة الامير يوسف باشا كمال

(١٧) افتتنت الشعراء بحسن اخلاقه وحارت الفضلاء بفرط ذكائه

(١٨) اختم كلامك يا (مهري) وارفع اياديك الى باب الاله بالدعاء له من صميم قلبك

(١٩) ما تدفق ماء النيل في البحار والآكام وقام في الجيزة اهرام

---

(١) واسمه عطاء كان رجلا ساحراً خيل للناس صورة قمر يطلع ويراه الناس من مسافة شهر والى هذا القمر اشار ابن سينا الملك بقوله

اليك فما بدر المقنع طالعا * بالسحر من الحاظ بدر المعمم

وادعى المقنع المذكور الربوبية واطاعه جماعة كثيرة وعمر قلعة تسمى سنام بما وراء النهر من رستاق كبش وتحصن بها ثم اجتمع عليه الناس وحصروه في القلعة فسقى نساءه سما فتن ثم يتناول منه فمات في السنة ١٦٣ الهجرية

(٢٠) كن في ذاك القصر المنيف والحديقة الغناء بالعافية والعز والاقبال والسرور والكمال

وبعد وصولنا الى محطة مصر توجهنا الى ناحية المطرية وشرف دولة الامير قصره الفخيم واما الحقير فالتزم محله للاستراحة من عناء السياحة ومشاق السفر الذي كان مدة ثلاثة شهور

تم الكتاب بعونه تعالى

في ذى القعدة سنة ١٣٣٢ هـ الموافق سنة ١٩١٤ م

فهرست

صفحة

صفحة